

قصة حياتي

شارلي شابلن

ترجمة وتقديم
كميل داغر

المركز الثقافي العربي



شارلي شابلن

ترجمة وتقديم

كميل داغر

المركز الثقافي العربي

ترجمة عن النص الفرنسي لكتاب شارلي شابلن

Histoire de ma vie

* قصة حياتي
* تأليف: شارلي شابلن
* ترجمة وتقديم: كميل داغر.
* الطبعة الأولى، 1994.

* الناشر: المركز الثقافي العربي.

العنوان:

□ بيروت/الحمراء - شارع جان دارك - بناية المقدسي - الطابق الثالث.
* ص.ب/113-5158/ * هاتف/343701-352826/ * تلكس/NIZAR 23297LE/

□ الدار البيضاء/ ● 42 الشارع الملكي - الأحباس * ص.ب/4006/ * هاتف/307651-303339/
● 28 شارع 2 مارس * هاتف/271753 - 276838/ * فاكس/305726/.


إلى أونـا

مقدمة الطبعة العربية

شابلن نسيج وحده

«لقد عملت بائع جرائد ـ يقول شابلن ـ وعامل مطبعة، وصانع ألعاب، ونافخ زجاج، وساعياً لدى طبيب، الخ. لكن وسط كل هذه المغامرات المهنية، لم يغب عن نظري يوماً هدفي النهائي وهو أن أصير ممثلاً هزلياً». لقد كان المسرح جزءاً أساسياً من ذاته، بل الجزء الأساسي، بحيث يمكن التساؤل إذا كان أمكنه ـ لو أراد ـ أن يكون يوماً غير الذي كانه بالتحديد.

عناصر أساسية في طفولته كانت تضغط في هذا الاتجاه. فلقد أبصر النور وعاش سنواته الأولى في جو يطغى عليه الاحتراف المسرحي. وكانت والدته مضطرة لاصطحابه إلى عملها، بعد أن انفصلت عن والده، ممثل الميوزيك هول هو أيضاً. وفي الخامسة من عمره، وجد نفسه تلقائياً وهو يحل محل تلك الوالدة التي خانها الصوت في عز وصلة غنائية أمام الجمهور. أكان ذلك دلالة رمزية على أن خيط العمل التمثيلي الذي انقطع مع وَالدة شابلن في تلك اللحظة، وإلى الأبد، لا بد أن يعود فينربط لاحقاً، لكن هذه المرة مع ابنها؟

وفي الواقع، إن حياته الأولى معها «في تلك الغرفة المظلمة من الطابق الأرضي لإحدى بنايات شارع أوكلي»، وفي الغرف الأخرى التي تنقلت العائلة بينها، ضمن إطار تلك الحياة «في شرائح المجتمع الدنيا»، كانت تضعه باستمرار على هذه الأرض بالذات، أرض المحاكاة الفنية. وكانت والدته تسترجع أمامه مشاهد من حياتها السابقة، وعلى الرغم من وصفها إياها بأنها حياة زائفة، ففي كل مرة «تحدثت فيها عن المسرح، كانت تستسلم للحماس».

لقد لعبت دوراً حاسماً في حفز اهتمامه بالمسرح وإقناعه بما لديه من موهبة، وفي شحذ تلك الموهبة وإطلاقها، كما حصل حين عمدت إلى نسخ مونولوج «هر الآنسة بريسيلا» عبر واجهة مكتبة صغيرة، وجاءته به، فكان مدخلاً إلى ذلك النجاح الذي أتاح له الفرصة الأولى ـ كما يقول ـ لتذوُّق «المجد بصورة واعية».

ولا ريب أن والده، على الرغم من المسافة التي فصلته عنه، أسهم هو الآخر في

تغذية هذا الخيار لديه، حين عرَّف أمه على المستر جاكسون، المسؤول عن فرقة راقصي مطقطقات تحمل اسم غلمان لانكشاير الثمانية، وأقنعها بأنه «ستكون بداية جيدة لي أن أحترف المسرح وأساعدها بفضل الأجر الذي سأحصل عليه».

لكن الحدث الأهم الذي شكّل منعطفاً في حياة شابلن، وكرَّس اتجاهه نحو المسرح، إنما كان قبول وكالة بلاكمور أخيراً إعطاءه دوراً في مسرحية شارلوك هولمز، بعد أن كان تردد طويلاً على مكتبها في بدفورد ستريت، لكن من دون جدوى. يقول شابلن إن ما حصل كان «ضربة سعيدة، ضربة حظ»، ويصف مشاعره إذ كان عائداً إلى بيته بعد ذلك مباشرة كالتالي:

«عدت بواسطة الباص، منتشياً من السعادة...». أما وقع النبأ على أخيه سيدني فلم يكن أقل قوة: «إغرورقت عينا سيدني بالدمع حين رويت له ما حدث. كان جالساً على السرير، ينظر عبر النافذة ساهماً، وهو يهز رأسه حيناً ويحركه بقوة حيناً آخر، ثم قال بلهجة رصينة: «نحن إزاء منعطف في حياتنا، ويا ليت أمنا كانت هنا لتستمتع معنا بذلك!»

دور للبؤس والتشرد في ذلك التحول؟

إذا استثنيا وميضاً جميلاً بقي يلمع في ذاكرة شابلن عن طفولته الأولى، سرعان ما ستتبدل الأحوال بصورة درامية ليسقط الطفل وأمه وأخوه سيدني في مهاوي البؤس، ويعيشوا ظروفاً شديدة القسوة أفضت بوالدة تشارلي إلى الجنون، الذي لم تتعاف منه تماماً، وبقيت آثاره تلاحقها حتى وفاتها. ولقد كانت معبّرة جداً، بقدر ما هي ممضّة، تلك الكلمات التي تلفظت بها الأم أول مرة رأت فيها ابنها بعد جنونها الثاني: «فقط لو أنك أعطيتني فنجان شاي بعد ظهر ذلك اليوم!»

ولا شك أن هذه المأساة، بكل تشعباتها، تركت بصماتها العميقة في نفس شابلن، كما في طريقة تفكيره. فشخصية المتشرد التي ستكون الشخصية المركزية في معظم أفلامه، والهموم الإنسانية التي سوف تسيطر دائماً على أعماله الفنية، كانت منحكمة إجمالاً بالتجربة الصعبة جداً التي عاشها في طفولته ويفاعه، على الرغم من النجاح الباهر الذي سيحققه لاحقاً، والسخاء منقطع النظير الذي ستتعامل به معه الحياة. وهو ما سيشدد عليه روجيه فردينان، رئيس جمعية المؤلفين والمؤلفين الموسيقيين الدراميين في فرنسا، في رسالته إليه يوم إعلانه عضو شرف في الجمعية، في الخمسينات، حيث يقول:

«إننا لندرك كم تألمت أنت، ومن أي هموم وعذابات ولدت كل هذه التفاصيل التي تهز مشاعرنا بعمق، والتي نهلْتَها من ينابيع حياتك بالذات. ذلك أن لديك ذاكرة لا تخون.. ذلك أنك لم تنس شيئاً من مصائبك وأحزانك، وأردت أن يُعفى الآخرون من العذاب الذي تعرَّضْت له، أو أنك تريد على الأقل أن يُعطى الجميع أسباباً للأمل. أنت لم تخن صباك العقوق، ولم يتمكن المجد من فصلك عن الماضي (...). وهذا الإخلاص لذكرى

الطفولة ربما كان ميزتك الأولى والأفضل بين مواردك وثرواتك، والسبب الأعظم الذي تعبدك لأجله الجماهير».

هذا ومن المهم جداً الإشارة إلى أن التمثيل لدى شابلن، في مرحلته السينمائية، وهي الأهم والأطول في حياته، لم ينفصل عن كتابة السيناريو والإخراج وحتى التأليف الموسيقي، إذ ان شابلن كان يجمع في أفلامه ـ التي فاقت الثمانين ـ كلَّ ذلك. وهذا العمل المتكامل، والتمثيل أحد عناصره ليس إلا، كان في الواقع وجهاً أساسياً من وجوه حياته، استمراراً لهذه الحياة، وتعبيراً عن الجانب الأكثر رهافة وعمقاً وتفاعلاً مع العالم المحيط. أليس هذا ما عناه الرجل، بالصورة الأكثر مباشرة ودقة، إذا لم نقل فظاظة، حين أعلن:

«لم تدخل كلمة «فن» في رأسي يوماً، ولا في الألفاظ التي أستخدمها. كان المسرح بالنسبة لي نمطاً من الحياة، لا أكثر»!!

كانت أعمال الرجل بالتالي نقلاً خلّاقاً لحياته هو قبل كل شيء، وعبر ذلك بالذات لحياة الآخرين، إلى الشاشة الكبيرة، لا بل يمكن القول إن حياته، وبوجه أكثر تحديداً، المرحلة الأولى من حياته، مرحلة الطفولة والمراهقة، لعبت دوراً حاسماً في ذلك الزواج الدائم الوحيد الذي جمع بين شابلن والتمثيل، وقد كان زواج حب حقيقياً، ربما أكثر من أيٍّ من زيجاته الأخرى، بما فيها زواجه الرابع والأخير، والأكثر ديمومة، بأونا أونيل، ابنة كاتب المسرح المعروف أوجين أونيل.

الحب في حياة شابلن

إن شابلن، المرهف جداً والعاطفي، والمندفع إلى أبعد الحدود وراء لعبة الخيال، لم يكن ممكناً إلا أن يلعب الحب دوراً بالغ الأهمية في حياته. حبه لأمه التي تركت أثراً عميقاً جداً في شخصيته وفي أحلامه، لكنها سرعان ما ابتعدت عنه، متوّجة آلام طفولته بجنونها. يقول عنها، متذكراً موقعها من تلك الطفولة:

«في تلك الغرفة المظلمة من الطابق الأرضي لإحدى بنايات شارع أوكلي، كانت أمي تضيء أمام عينيّ وهج الطيبة والخير الأكثر سطوعاً، الذي سبق أن عرفه العالم يوماً، والذي أعطى الأدب والمسرح موضوعاتهما الأشد سمواً، والأكثر غنىً: المحبة، والرحمة، والإنسانية».

وحبّه لعمله، وقد أعطى أفضل ما في نفسه لهذا العمل، وكان ينفق فيه الجزء الأكبر من طاقته ووقته، إلى حد أنه كان يشكل بالنسبة إليه العزاء الأهم وسط كل الكآبات التي عاشها، وأنه كان يمنح الشغفَ به أولويةً على أيِّ شغف آخر. يقول:

«لقد كنت، من جهتي، رجلاً منضبطاً، وكنت اتعامل مع عملي بجدية. ومثل بالزاك، الذي كان يقدِّر أن ليلة حب تمثل التضحية بصفحة في رواية، كنت أعتقد أيضاً أن ذلك يعني التضحية بيوم عمل جيد في الستوديو».

وبالتالي، فهو يؤكد أن الحب، بحصر المعنى، لم يكن يجد ممراً إلى حياته إلا في أوقات الفراغ التام لديه:

«لم تكن النساء يثرن اهتمامي بتاتاً خلال عملي، بل فقط بين فيلمين، حين أكون عاطلاً تماماً عن العمل، أكون عندئذ قابلاً للوقوع في شباكهن. وكما كان يقول هـ. ج. ويلز: «يأتي وقت خلال النهار بعد أن أمضينا فترة ما قبل الظهر في كتابة بعض الصفحات، وفترة بعد الظهر في الرد على الرسائل، ولم يعد لدينا ما نفعله،عندئذ تحل ساعة الضجر: هذه الساعة هي ساعة الحب..»».

وبالطبع، إذا كنا مقتنعين تماماً بالأهمية القصوى التي أعطاها شابلن لعمله، إلا أننا لا نعتقد بالمقابل أن حب المرأة كان ثانوياً إلى هذا الحد في حياته. على العكس، لقد شكَّل في الواقع عنصراً أساسياً في تلك الحياة، وترك بصماته العميقة عليها، مذ أصابت عينا تلك الراقصة المراهقة في فرقة مغمورة باسم «يانكي دادل غورلز» «مقتلاً» في قلبه، وهو بعد في التاسعة عشرة من عمره. إن ذلك الحب الأول، حبَّه لهيتي كيلي، سوف يلقي بظلاله طويلاً على نفسه الظمأى إلى مشاعر قوية، بقوة تلك المشاعر التي عرفتها سنوات طفولته. وحتى بعد أن غادر إلى الولايات المتحدة، بقيت ذكرى تلك الفتاة تلاحقه. فبعد ١٢ سنة على مرور تلك «الشحنة الكهربائية» في نفسه، على حد تعبيره، تلك الشحنة التي معها «تتغير الحياة كلها فجأة، تتعاطف الطبيعة كلها معنا، وتكشف بغتة أفراحها الخفية»، سوف تحمل إليه الشهرة العارمة، تلك «الحورية الخائنة التي تسمّى الشعبية»، فيضاً من الكآبة والوحشة والاحساس بالعزلة. فليس هذا الجمهور الغُفْل الهائل هو الذي يريده الفنان، بل «جمهور» مختلف تماماً. يقول: «كنت أرغب في جمهور أختاره بنفسي: ربما هيتي كيلي» (!!)

في أميركا، سوف يعرف شابلن، الذي طبقت شهرته الآفاق، نساء كثيرات، فضلاً عن أنه سوف يعقد ثلاث زيجات فاشلة، باهتة، سرعان ما كانت تنتهي بالطلاق. أما زواجه الرابع، وهو في الخمسينات من عمره، من فتاة لم تتجاوز الثامنة عشرة، بعد سنوات عشر تقريباً على وفاة هيتي، فكان زواجاً ناجحاً بلا ريب، غمر قلب شابلن بالسعادة والرضى حتى نهاية حياته. لكن هل كان عمر أونا أونيل وحده هو الذي يذكّر شابلن بحبه الأول، أم كذلك شبهها العميق بهيتي كيلي، كما حاول أن يوحي أخيراً ريتشارد أتنبوروه في الفيلم الذي أخرجه عن حياة الفنان الراحل؟!

آراء له في المسرح والسينما والتمثيل

يقول شابلن إن تقنيته على صعيد العمل السينمائي «ناتج تأملات شخصية (...) وهي لا تدين بشيء لما يفعله الآخرون». ويضيف: «إذا كان علينا في الفن أن نتبع عصرنا، يكون رامبراندت متأخراً جداً بالنسبة لفان غوغ». ألم يكن هذا الموقف بالتحديد هو الذي جعله يتردد كثيراً قبل أن ينتقل إلى السينما الناطقة، مقدماً لنا اثنين من أهم أفلامه الصامتة وأجملها وأشدها نجاحاً جماهيرياً، حتى بعد أن طلّق الجميع تقريباً الشكل القديم من

السينما وسايروا تطور العصر؟ ذانك الفيلمان كانا **أضواء المدينة والأزمنة الحديثة**.

وهو يرى أن المؤلف الذي يكتب للمسرح يجب أن يكون عاطفياً قبل كل شيء. فالمسرح ـ في نظره ـ جرى تصوره لأجل ذلك، بصفوف المقاعد فيه، ومقدمته، وستارته الحمراء: كل تصور بنائه الهندسي إنما يتوجه إلى الانفعالات. أما دور العقل في نظره فثانوي، وهو يشدد بالمناسبة على أهمية ما يسميه فن المسرحة، الذي يترادف لديه مع «التجميل الدرامي». إنه فن التحفظ؛ معرفة إغلاق كتاب فجأة، إشعال سيجارة؛ فن التأثيرات في الكواليس، طلقة مسدس، صرخة، ضجة سقوط (. . .) وكل ما قد يبدو أساليب لا أهمية لها، لكن إذا جرى استخدامها بدراية وروية تشكل شعر المسرح».

وبخصوص الشخصيات المسرحية وموضوعات المسرح (والمسرح هنا يشمل السينما أيضاً)، لا يمكن أن تنفصل لديه عن الحياة المعاصرة، وحياة الناس العاديين قبل كل شيء. ومن هذا المنطلق، أعلن عدم حبه لشكسبير، إذ هو يستفظع الموضوعات الشكسبيرية، مع كل هذه المواكب من الملوك والملكات والشخصيات المجيدة المحاطة بالبهرجة. وهو يعزو ذلك لنفسيته الخاصة به. «فحين كنت أسعى وراء معيشتي ـ يقول ـ نادراً ما كانت هناك تطورات يمكن أن يدخل فيها الشرف. وأنا عاجز عن مماهاة نفسي مع مشكلات أمير. وقد كان في وسع أم هاملت أن تضاجع كل أفراد البلاط من دون أن أبالي بالألم الذي قد يكون شعر به».

أما عن فن لعب الكوميديا فهو في نظره «فن الاسترخاء». فمهما كان المشهد الذي يلعبه التقني الموجود في كل ممثل مجنوناً، يجب أن يبقى هو هادئاً، يراقب صعود انفعالاته وهبوطها ويسيطر عليهما. وهو يرى أن مهنة الممثل تتطلب رهافة الاحساس فوق كل شيء. وإذا كان الذكاء مهماً أيضاً، إلا أنه ليس كافياً. فإذا اجتمع الذكاء إلى رهافة الإحساس، وتحقق التوازن بينهما، «يكون لدينا عندئذ أروع الممثلين». وأروع الممثلين هذا يجب أن يحب نفسه حين يمثل. «إن حباً شديداً للمسرح ليس كافياً ـ يقول شابلن ـ، يجب أن يضاف إلى ذلك حب شديد للذات وثقة بالنفس».

بعض آرائه ومواقفه الأخرى

لم تكن علاقة شارلي شابلن بالثقافة والفكر علاقة مدرسية، ذلك أن تقلبات حياته لم تتح له الانخراط في علاقة كهذه إلا لفترة أقصر من أن يمكن النظر إليها بما يكفي من الجدية. كانت الحياة، على وجه الحصر، مدرسته الأهم، ويا لها من مدرسة عظيمة العمق والغنى!

وفي هذه السيرة الذاتية، التي نقدِّم لها، نقع على جمهرة متنوعة من آرائه ومواقفه حيال مسائل شتى ترتبط جميعها، بصورة أو بأخرى، بحياته هو بالذات، وبقناعاته ومشاعره وهواجسه الحميمة. وسوف نمر على عجل ببعض منها: كالشهرة، والفقر، والإيمان، والحدس، والمؤثرات النفسية، والموقف من الوطن. . .

فبما يخص الشهرة، يصوّر لنا شابلن ذلك التناقض الشديد الذي أثارته في نفسه. فمع أنه كان يتلذذ تماماً بما يلاقيه من حماس الناس حياله وحيال أعماله، كان يرى في ذلك، في الوقت ذاته، ضرباً من الجنون. كان قد تاق دائماً لأن يحظى بالشعبية، «والآن وقد حصلت عليها ـ يقول ـ بت أحس بنفسي فريسة لشعور رازح بالوحدة». ويضيف: «فإذا كانت بضع كوميديات هزلية بائسة تتسبب بهذا القدر من الحماس، أليس ثمة شيء زائف في الشهرة»؟

وفي ما يتعلق بالثروة والفقر، يدحض مزاعم الكاتب سومرست موغام، الذي أوحى في كتاباته عن شابلن أنه يحن إلى أيام الفقر، ويمتدح فضائله. «لن يمكن السيد موغام، يقول شابلن، أن يقنع فقيراً بأن الشهرة والثروة الكبيرة مرادفان للقسر، فأنا لا أجد أي إكراه في الثروة، بل أجد فيها على العكس الكثير من الحرية». بالمقابل، يحدد موقفه من الفقر بكل صراحة، وبتعابير تكاد تشكل قاعدة لموقف طبقي بحت، على الرغم من النقلة الهائلة التي حدثت في حياته، إذ يقول:

«لم أجد الفقر مغرياً، ولا وجدته موجباً للعبرة. وهو لم يعلمني غير تشويه القيم، والمغالاة في تقدير فضائل الطبقات الغنية والمزعوم أنها راقية، ونِعَمِها».

ومع أن شابلن يعترف بوضوح بإلحاده، معتبراً أن الدين هو الإيمان بدوغما يرفضها، فهو يؤكد أنه وإن لم يكن مؤمناً ليس عديم الإيمان أيضاً. وهو يعتقد أن الإيمان هو العنصر الرائد في كل أفكارنا، من دونه ما كان أمكننا يوماً أن نبتكر فرضيات أو نظريات أو علوماً أو رياضيات.

ما هذا الذي يؤمن به شابلن؟

«إنني مؤمن بالمجهول ـ يقول ـ، بكل ما لا نفهمه بواسطة العقل. أؤمن بأن ما يتجاوز إدراكنا هو واقعة بسيطة في أبعاد أخرى، وأنه توجد في مملكة المجهول احتياطيات هائلة من الطاقة لأجل الخير».

ويبدو أن شابلن، من ضمن هذا الإيمان الخاص، كان يعتقد أنه موهوب «إدراكات خارج نطاق الوعي الحسي»، نوعاً من الحاسة السادسة، التي قادته مراراً، حسبما يروي، إلى اكتشاف أمور لا يمكن بلوغها عن طريق العقل، بل الحدس وحده هو المدخل إليها، لا بل أتاحت له، مرة على الأقل، أن ينجو من موت محتوم!

وهو يعارض فرويد في نظريته المركزية عن موقع الحياة الجنسية من السلوك والشخصية، معتبراً أنه «من شأن البرد والجوع والخجل الناتج من الفقر أن تؤثر أكثر على النفسيات».

أما موقفه من الوطن فموقف مميّز تماماً. إذ إنه يعترف بصراحة أنه ليس متحمساً للوطن، ليس فقط لأسباب أخلاقية وفكرية، بل كذلك لأن هذا شعور لا وجود له لديه.

يقول: «أنا عاجز عن الزعيق بشأن الكبرياء القومي (. . .). وبالطبع إذا جرى غزو البلد الذي أعيش فيه، أعتقد أني سأكون قادراً على التضحية بحياتي مثل معظم الناس. لكنني عاجز عن الشعور بحب متوقد لبلدي الأم، لأنه يكفي أن يصبح نازياً حتى أغادره من دون أسف».

وقد رد في مؤتمر صحفي ـ في عز الحملة ضده في أواسط هذا القرن ـ على سؤال لأحدهم عن أسباب عدم حصوله على الجنسية الأميركية بالقول إنه لا يرى موجباً لتغيير جنسيته، فهو يعتبر نفسه «مواطناً عالمياً».

هل كان شارلي شابلن شيوعياً؟

لقد تعرَّض شابلن، «المواطن العالمي»، في الأربعينات من هذا القرن، وأوائل الخمسينات، لاضطهاد حقيقي في الولايات المتحدة، بسبب مواقفه السياسية والفكرية، التي كانت تشم فيها الأوساط المحافظة والمتزمتة هناك رائحة الشيوعية. جرت محاصرة أفلامه، ومحاصرته هو شخصياً بأشكال شتى، بما في ذلك عبر ملاحقات القضاء، وصولاً إلى إبلاغه عام ١٩٥٢ قرار حظر عودته إلى أميركا، وهو لم يغادر بعد الميناء، وكان مسافراً إلى أوروبا آنذاك.

أما هو فأنكر دائماً ذلك «الاتهام»، مشدِّداً على أنه لم ينتسب يوماً إلى أي حزب. وليس ثمة إطلاقاً ما يدعو لعدم تصديقه. إلا أن عدداً كبيراً من أفلامه شكل نقداً واضحاً وصريحاً وحاداً للرأسمالية، وتعبيراً لا لبس فيه عن التضامن مع قضايا الفقراء والمعدمين، وشتى الذين يتعرضون للظلم والاستغلال والقهر، بذلك الأسلوب الهزلي الساخر والناعم الذي شد إلى شابلن قلوب عشرات بل مئات الملايين من الناس الذين كانوا يتهافتون عبر العالم على أفلامه، بشغف ومحبة منقطعي النظير. هذا وقد شكل فيلم «الديكتاتور الكبير»، الذي أخرجه خلال الحرب العالمية الثانية إدانة لاذعة وأهجوّة صارخة للنازية، تلك الدملة المخيفة التي طَفَت على جسم الرأسمالية المتأزمة في النصف الأول من هذا القرن، وجاء **الخطاب النهائي** في الفيلم أقرب ما يكون إلى إعلان إيمان بالحياة الجميلة والسعيدة، الخالية من الحقد والجشع، وبالأرض الطيبة الغنية القادرة على تلبية حاجات الجميع، لا قبضة ضئيلة منهم. وقد ختمه بدعوة الشعب، كل الشعب، لخلق عالم جديد، عالم يمنح كل الناس إمكانية أن يعملوا، ويؤمِّن مستقبلاً للشبيبة وضماناً للشيخوخة. «فلنناضل الآن ـ يقول ـ لتحرير العالم وإطاحة الحواجز بين الأمم (. . .)، فلنناضل لأجل عالم مبني على العقل، عالم يقود فيه العلم والتقدم إلى السعادة الشاملة».

وقد تلت ذلك الحملة التي انخرط فيها بكل جوارحه من أجل تقديم العون للاتحاد السوفياتي، «الذي يقاتل وظهره إلى الحائط»، ومن أجل فتح جبهة ثانية على الفور ضد المانيا النازية.

فضلاً عن ذلك، من الواضح أن تفكير الرجل كان يتلاقى في العديد من جوانبه مع المنهج الماركسي في تفسير العالم وفهم أحداثه. وهو أمر يمكن استشفافه على امتداد أعماله، ولا سيما في «الأزمنة المعاصرة» و «الديكتاتور»، كما يتأكد بكلام صريح في سيرته الذاتية على «قوى المادية الديالكتيكية» ودورها في تقدم الشرط الإنساني. يقول شابلن:

«إن الغيرية تسير ببطء على حلبة التقدم البشري. إنها تتبع العلم متعثرة، ولا يُسمح لها بالتجلي إلا بضغط الظروف. والفقر لم تحد منه الغيرية لدى الحكومات أو حبها للبشر، بل **قوى المادية الديالكتيكية**».

لقد شكّل الرجل ظاهرة ملفتة للنظر إلى أبعد الحدود في مرحلة مهمة جداً من تطور المجتمع الأميركي بالذات، وذلك انطلاقاً من تجربته الخاصة ومعاناته الحميمة. وحين لاحقه القضاء الأميركي باتهامات كاذبة تتعلق بحياته الشخصية في أوائل الأربعينات، كان واضحاً أنه يجري بذلك تدفيعه ثمن أفكاره وخياراته الانسانية. إلا أنه خرج من تلك المحاكمة منتصراً. والأهم من ذلك أنه شارك من موقعه كفنان عظيم في تحريك المياه الراكدة لمجتمع تغلب عليه، في المستوى السياسي، النزعة المحافظة. وهو ما يلمِّح إليه بالضبط حين يورد الكلام الذي قاله لاين فوشتڤانجر، بعد ختام تلك المحاكمة مباشرة وصدور الحكم ببراءته مما نسب إليه:

«أنت الفنان الدرامي الوحيد، الذي سيبقى في تاريخ الولايات المتحدة الأميركية، لأنه أثار التناقض السياسي لبلد بأكمله».

فرد نسيج وحده؟

يقول شابلن في تفسير اجتذابه ذلك القدر من العداء من جانب أميركيين كثيرين: «لقد كانت خطيئتي الكبرى ولا تزال أني غير امتثالي». وهو يعرِّف نفسه على الشكل التالي:

«أنا ما أنا: فرد نسيج وحده ومختلف، خلفي كل ميراث الرغائب والحاجات السلفية، مع كل الأحلام والرغبات والتجارب الشخصية التي أنا محصِّلتها».

إن هذا «الفرد»، الذي انطلق لعناق العالم بأسره من شوارع لندن الفقيرة، والقيعان المظلمة لطفولته البائسة، متقمصاً صورة المتشرد خفيف الظل، الذي ينكأ بسخريته الناعمة والمحببة قروح المجتمع والحياة، والذي استطاع كما يقولون أن يملأ الدنيا ويشغل الناس بطرافة فنه وعمق ملامسته للشخصية الإنسانية، والتزامه الدائم لقضايا الإنسان المعذَّب، كان بالتأكيد نسيج وحده. وهو لم يكن ممثلاً ومخرجاً وكاتباً سينمائياً فريداً وحسب، بل يمكن أن نضيف إلى ذلك أنه كاتب سيرة ذاتية بارع، وصاحب ريشة أدبية ملهمة، كما سنرى ونحن نقرأ هذا النص الجميل الطويل، «قصة حياتي»!!

كميل داغر

لم تكن كيننغتون رود، قبل بناء جسر وستمنستر، غير ممر للخيّالة. وبعد عام ١٧٥٠، جرى شق طريق جديدة تنطلق من الجسر، وتربط لندن ببرايتون مباشرة. لذا كانت كيننغتون رود، التي قضيت فيها الجزء الأكثر بهاء ووضوحاً من طفولتي، تعتز بمساكن فخمة رائعة، ذات هندسة مدروسة، مزدانة في جانبها الأمامي بشرفات مصنوعة من الحديد المطروق. من تلك الشرفات، تمكن السكان من رؤية جورج الرابع يعبر ذات يوم في عربته الملكية، متجهاً إلى برايتون.

وفي أواسط القرن التاسع عشر، كان معظم تلك المساكن قد تحول إلى بيوت للإيجار وشقق. لكن بعضها لم يعرف هذا الانحطاط، وكان يسكنه أطباء، وتجار كبار، ونجوم للميوزيك هول. فصبيحة الأحد، كان يمكن المرء أن يرى، على طريق كيننغتون، وأمام واحد من تلك المساكن، عربة إنكليزية مقرونة إلى حصان صغير نشيط، وهي على أهبة نقل فنان في نزهة إلى نوروود أو ميرتون، على مسافة خمسة عشر كيلومتراً تقريباً، لتتوقف في طريق العودة في شتى الحانات، كحانة الحصان الأبيض، والكورس والكوب، وهي جميعاً على طريق كيننغتون.

في الثانية عشرة من عمري، غالباً ما كنت أتسمَّر أمام حانة الكوب للنظر إلى هؤلاء السادة الوسيمين ينزلون من عرباتهم ويدخلون الحانة التي كان يتواجد فيها نخبة مسرح المنوّعات، ذلك أنهم كانوا معتادين أن يأخذوا هناك، يوم الأحد، كوباً أخيراً قبل أن يعودوا لتناول الفطور. كم كانوا رائعين بأطقمهم ذات المربعات وقبعاتهم الرمادية، وببريق خواتمهم ودبابيس ربطات عنقهم! كانت الحانة تقفل في الثانية من بعد ظهر كل أحد، وكان الزبائن يخرجون الواحد تلو الآخر، متأخرين لبعض الوقت قبل أن يتبادلوا تحية الوداع؛ وكنت أراقب، مسحوراً ومتسلياً، لأن بعضاً منهم كانوا يلبسون صداراً واقياً بصورة مضحكة.

حين كان يتوارى آخرهم، كان يشبه ذلك بالنسبة لي اختفاء الشمس وراء سحابة. وكنت عندئذ أنطلق من جديد نحو صف من البيوت القديمة الخربة خلف كيننغتون رود، وصولاً إلى المبنى رقم ٣، پاونال تيراس، وكنت أتسلق الدرج المهتز الذي كان يفضي إلى كوخنا

الصغير. كان للمبنى مظهر قابض للنفس، وكانت تفوح منه روائح غسيل قديم. لكن حين دخلت المنزل في ذلك الأحد، كانت أمي جالسة تنظر من النافذة. وقد استدارت نحوي بابتسامة خفيفة. كانت الغرفة صغيرة، وتكاد تقارب الثلاثة أمتار عرضاً، والأربعة طولاً، وكانت تبدو أصغر مما هي في الحقيقة، في الوقت ذاته الذي كان فيه سقفها المنحني يُظهرها أقل ارتفاعاً. كانت الطاولة الملاصقة للحائط مزدحمة بفناجين وصحون وسخة؛ وفي الزاوية، كان يتكوَّم قرب الحائط الأشد انخفاضاً سرير حديدي قديم طلته والدتي باللون الأبيض. وبين السرير والنافذة، كانت هنالك مدخنة صغيرة، وعند أسفل السرير مقعد عتيق ينفتح فيصبح سريراً لشخص واحد كان ينام عليه أخي سيدني. لكن سيدني كان الآن بعيداً جداً، في البحر.

كانت الغرفة أشد قبضاً للنفس، ذلك الأحد، لأن أمي تقاعست، لسبب أجهله، عن القيام بأعمال التنظيف المنزلية، علماً أنها كانت، عموماً، تهتم بذلك بالكثير من العناية، فلقد كانت حيوية، ومرحة، وشابة بعد. لم تكن بلغت السابعة والثلاثين، وكانت تنجح في خلق انطباع بالرخاء في ذلك الكوخ البائس، ولا سيما في صباح أيام الأحد الشتائية، حين كانت تجلب لي الفطور إلى السرير، وأستيقظ في غرفة صغيرة مرتبة تماماً، حيث النار تشتعل في المدخنة، لأرى الغلّاية المتصاعد منها البخار على صفيحة التسخين، وهبر سمكة حدوق أو رنكة يجرى الاحتفاظ بها ساخنة في حين تحمِّص أمي الخبز. كان حضور أمي المفعم بالفرح، وطابع الغرفة المرفَّه، والصوت الناعم والمختنق الصادر عن الماء المغلي، الذي يُصَب في إناء الشاي الخزفي بينما أنا اقرأ قصتي الأسبوعية المصوَّرة، كان كل ذلك يشكل مباهج صباح أحد هادىء.

لكنها كانت جالسة، ذاك الأحد، وهي شاردة قرب النافذة. منذ أيام ثلاثة، لم تكن تتحرك من هناك، صامتة ومهمومة بصورة غريبة. كنت أعرف أن لديها هموماً، إذ كان سيدني مبحراً، ومر شهران ونحن لا نعرف عنه شيئاً. فضلاً عن ذلك، لما كانت متأخرة عن الدفع، جاء من استعاد آلة الخياطة المستأجرة، التي كانت تخيط بها لإعالتنا، وهو إجراء كنا معتادينه. كما أن المساهمة الهزيلة بمقدار خمسة شلنات، التي كنت أكسبها بإعطاء دروس رقص، توقفت فجأة. بالكاد كنت أدرك أن تلك أزمة، إذ كنا نعيش حالة أزمة دائمة؛ ولما كنت صبياً يافعاً، كنت أطرد هذه التنكيدات من فكري بلا مبالاة محبَّبة. كنت أعود بعد المدرسة، كالعادة على جناح السرعة لأرى أمي من جديد في المنزل، وكنت أذهب في مهمات، وأفرغ الماء القذر وأجلب دلو ماء نظيف، ثم أسرع إلى بيت ماكارثي لإمضاء السهرة: كل ذلك هرباً من كوخنا المثير للكمد.

كان آل ماكرثي أصدقاء قدامى لأمي تعرفت إليهم في الفترة التي كانت تشتغل خلالها في مسرح المنوَّعات. كانوا يسكنون شقة مريحة في القسم الجميل من كيننغتون رود، ولدى مقارنة وضعهم بوضعنا، يمكن القول إنهم كانوا محظوظين نسبياً. وكان لآل ماكارثي ولد اسمه والي كنت ألعب معه حتى حلول الظلام، ولم يحصل يوماً أن تخلفوا عن دعوتي للبقاء وتناول الشاي. وإذ كنت أتأخر بهذه الطريقة، كنت أتناول العديد من الوجبات لديهم. ومن حين

لآخر، كانت السيدة ماكـارثي تستعلم مني عن والدتي، وتسأل لماذا لم ترها منذ مدة. كنت أخترع هذه الحجة أو تلك، لأنه مذ بدأت أمي تعاني من التنكيدات، نادراً ما رأت أصدقاءها من أيام المسرح.

طبعاً، كانت هنالك أيام أبقى خلالها في البيت؛ وكانت أمي تعد الشاي والخبز المقلي بسمن البقر، الذي كنت أعشقه. وعلى مدى ساعة، كانت تقرأ لي، ذلك أنها كانت مدهشة حين تفعل ذلك، وقد رحت أدرك أني أُمضي في البيت أوقاتاً أكثر إمتاعاً من تلك التي كنت أمضيها لدى آل ماكارثي.

لكن في ذلك اليوم، حين دخلت الغرفة، نظرت والدتي إليَّ نظرة عتاب وتأنيب. لقد هزني مظهرها بعمق؛ كانت مهزولة، وكان منظرها يوحي بالشفقة، كما كان يمكن استشفاف الألم في نظراتها. وقد اجتاحني حزن لا يوصف، ووجدت نفسي ممزقاً بين الواجب الذي يدفعني للبقاء في المنزل وملازمتها، والرغبة في الهرب من هذا الجو الممـض. تطلعت إليَّ بحزن وقالت:

ـ لماذا لا تذهب إلى بيت آل ماكارثي؟

كنت على وشك الانفجار بالبكاء، وأجبتها:

ـ لأني أريد البقاء معك.

أما هي فأدارت رأسها وعادت تنظر من النافذة بشرود.

ـ إذهب إلى عند آل ماكارثي وابق عندهم على الغداء... فليس هنالك شيء تأكله هنا.

أحسست في نبرتها ببعض التوبيخ، لكنني لم أرد الإصغاء إليها. وقلت من غير اقتناع:

ـ أذهب إلى هناك إذا كنت مصرة على ذلك.

فعلت وجهها ابتسامة خفيفة وداعبت رأسي:

ـ أجل، أجل، هيا.

بذلت كل ما في وسعي كي تتركني أبقى بجانبها، لكنها حثتني على الذهاب. فذهبت إذاً وأنا مثقل بمشاعر الذنب، تاركاً إياها جالسة لوحدها في ذلك الكوخ البائس، من دون أن يحدثني قلبي بأن مصيراً رهيباً ينتظرها في الأيام التالية.

ولدت في ١٦ نيسان/ أبريل ١٨٨٩، عند الساعة الثامنة مساءً، في إيست لاين، بوالوورث. وبعد ذلك بقليل انتقلت عائلتنا للإقامة في ويست سكواير، سان جورج رود، حي لامبيث. وإذا صدقت كلام أمي، كان العالم الذي حللت فيه سعيداً. كنا نتمتع برخاء معقول؛ ونسكن في غرف ثلاث مؤثثة بصورة أنيقة. ومن أولى ذكرياتي، أننا كل مساء، قبل مضي والدتي إلى المسرح، كنا نوضع بحنان، سيدني وأنا، في سرير مريح، ونُترك في عهدة المربية. وفي عالم الطفل، ابن الثلاث سنوات ونصف السنة، كان كل شيء ممكناً: فبما أن سيدني، الذي يكبرني بأربع سنوات، كان قادراً على القيام ببراعات سحرية، كأن يبتلع قطعة نقود ويخرجها مجدداً من عنقه، كنت قادراً بدوري على فعل الشيء ذاته، وهكذا ابتلعت يوماً نصف بنس، فاضطرت والدتي لاستدعاء الطبيب.

كل مساء، حين كانت أمي تعود من المسرح، كانت معتادة أن تترك على الطاولة حلويات كنا، سيدني وأنا، نجدها في الصباح ـ قطعة غاتو أو ملبساً ـ، وكان متعارفاً بالمقابل على أن علينا التزام الهدوء، لأنها كانت تتأخر عموماً في نومها.

كانت أمي تلعب دور الخادمة المغناج في المسرحيات الهزلية. كانت مخلوقة لطيفة تقارب الثلاثين من العمر، مع بشرة صافية، وعينين زرقاوين ـ بنفسجيتين، وشعر كستنائي طويل يمكنها الجلوس فوقه. وكنا، أنا وسيدني، نحبها حتى العبادة. ومع أن جمالها لم يكن خارقاً، كنا نرى فيها طيف إله. وقد قال لي، في ما بعد، من سبق أن عرفوها، إنها كانت رقيقة وساحرة، وإن الفتنة كانت تفيض منها. كانت تستمتع بإلباسنا أزهى الثياب لأجل نزهات يوم الأحد، فيرتدي سيدني بزة من طراز إيتون مع سروال طويل، بينما ألبس أنا ثياباً من المخمل الأزرق مع قفازين أزرقين مناسبين. وفي تلك المناسبات، لم نكن نشعر بسعادة أكبر، فيما نحن نسير على طريق كيننغتون.

كانت لندن في ذلك الزمان مدينة وادعة. فوتيرة الحياة فيها كانت هادئة، وحتى الحافلات التي تجرها الأحصنة على طريق جسر ويستمنستر، كانت تسير بهدوء ومن دون

استعجال، ثم تعود أدراجها عند لوحة دوارة في آخر الخط، غير بعيد عن الجسر. لقد كنا نسكن في فترة عز والدتي في ويستمنستر بريدج رود، ذات الجو المفعم بالمرح وطيب الخلق، مع حوانيت جذابة، ومطاعم ومسارح منوعات. كان محل الفواكه، الواقع في الزاوية مقابل الجسر، يعج بالألوان، مع أهرامه المبنية بعناية من ثمار الليمون، والتفاح، والإجاص والموز، وهو الأمر الذي كان يتعارض مع اللون الرمادي الرسمي للبرلمان على ضفة التاميز المقابلة.

كانت تلك لندن طفولتي، لندن أحلامي وزوال أوهامي: أتذكر لامبيث في الربيع؛ وأحداثاً صغيرة وتفاصيل تافهة؛ مسافات كنت أقطعها مع والدتي في الطبقة العلوية من عربة عامة تجرها الأحصنة، كنت أحاول أن أمد يدي منها لألامس نباتات الليلك خلال العبور؛ بطاقات كثيرة للعربات العامة من كل الألوان، البرتقالي، والأزرق، والوردي، والأخضر، كانت تملأ أرض الرصيف عند مواقف القطارات والعربات العامة؛ باعة أزهار بوجوههم الحمراء عند زاوية ويستمنستر بريدج، يجهزون باقات مليئة بالبهجة، وأصابعهم الحاذقة تعالج الورق الفضي ونبات السرخس المرتعش. أتذكر الرائحة الرطبة لورود أنعشت بالماء منذ وقت قصير، وهي رائحة كانت تفعمني بحزن غامض، وآحاداً كئيبة وأقارب بوجوه شاحبة مع أولادهم الذين يحركون مطاحن هوائية مصغرة وبالونات ملونة على جسر ويستمنستر؛ وكذلك قوارب نزهة صغيرة كانت تخفض مداخنها بلطف لتمر تحته. وأنا أظن أن نفسي صُنعت من كل هذه التفاصيل.

ثم كانت في صالوننا أشياء وطُرف تركت في نفسي انطباعاً عميقاً. من ضمنها صورة نيل غوين بالحجم الطبيعي، التي كانت تملكها أمي وكنت أكرهها؛ والدوارق الصغيرة ذات العنق الطويل على صواننا، وكانت تكدِّر مزاجي؛ وعلبة الموسيقى الصغيرة المستديرة مع غطائها المزين بالميناء والذي يمثل ملائكة على غيوم، وكانت تعجبني وتثير اضطرابي في آن معاً. لكن ما كنت أعشقه بشدة، فكان الكرسي الصغيرة بثلاثة قروش التي اشتريتها من الغجر، لأني كنت أشعر بعنف بأنها ملكي.

كانت هنالك أيضاً ذكريات من مراحل ملحمية: زيارة إلى الأكواريوم الملكي[1] الذي كنت اتطلع إلى أُلْهياته مع والدتي: «هي» ـ هكذا كانوا يسمّون الرأس الحي لسيدة كانت تبتسم وسط اللهب، والصيد المفاجىء بستة بنسات، وأمي وهي ترفعني إلى مستوى برميل كبير مليء بالنشارة لاصطياد محرمة جيب فيها صفارة من سُكّر الشعير لم تكن تعمل، وصنارة زهيدة الثمن. وزيارة أيضاً لمسرح المنوعات في كانتربري، حيث كنت أتطلع، وأنا جالس في مقعد من المخمل الأحمر، إلى أبي وهو يؤدي وصلته...

الوقت ليل، وأنا ملفوف بغطاء للسفر على مقعد عربة تجرها أربعة جياد، تعيد أمي وصديقاتها من المسرح؛ أستسلم لمرحهن وضحكاتهن وهي تهدهدني بنعومة، في حين يشق

---

(١) صالة كبرى في زاوية شارع فيكتوريا، مقابل دير ويستمنستر، حيث كان يمكن رؤية أُلهيات متنقلة وعروض مسرحية ذات إخراج ضخم.

لنا حوذيّنا، بحيوية نافخٍ في البوق، معبراً في كيننغتون رود، وسط رنين رحال الأحصنة، وإيقاع حوافرها.

ثم إذ بحادث يطرأ! ربما مر شهر، أو أيام عدة قبل أن أدرك بغتة أن الأمور لم تعد على ما يرام بين أمي والعالم الخارجي. كانت قد خرجت طيلة الفترة الصباحية مع إحدى صديقاتها لتعود بعد ذلك إلى المنزل وهي في أقصى الإثارة. كنت ألعب على الأرضية الخشبية وأحس فوقي ببلبلة كثيفة، كما لو كنت أصغي من قعر بئر. كنت أسمع أمي وهي تطلق صرخات تعجب حادة، يقطعها البكاء، وتذكر بلا انقطاع اسم أرمسترونغ: أرمسترونغ قال كذا؛ أرمسترونغ قال كيت، أرمسترونغ وحش! كانت ثورتها غريبة وعنيفة إلى حد أني أجهشت بالبكاء، واضطرت أمي لحملي بين ذراعيها لتعزيتي. وقد عرفت بعد مرور سنوات معنى ما حدث. بعد ظهر ذلك اليوم، كانت أمي قد عادت من المحكمة حيث كانت تلاحق أبي بسبب امتناعه عن دفع النفقة الغذائية، ولم تحقق دعواها النجاح المطلوب. أما أرمسترونغ فكان محامي والدي.

بالكاد كنت أعرف أن لي أباً، وأنا لا أتذكر أنه عاش معنا يوماً ما. هو أيضاً كان ممثلاً في مسرح المنوعات، رجلاً صامتاً وكئيباً عيناه قاتمتان. كانت أمي تقول إنه يشبه نابليون. كان لديه صوت باريتون خفيف، وكان الناس يعتبرونه فناناً مرموقاً. أما المبلغ الذي كان يكسبه في تلك الفترة فأربعون ليرة في الأسبوع، وكان ذلك مبلغاً مهماً، لكن المأساة أنه كان مدمناً على الشرب، وذلك كان السبب وراء الانفصال بينه وبين أمي، حسبما كانت تقول.

كان صعباً على الفنانين ألا يشربوا في ذلك الزمن، لأن الكحول كانت تباع في كل المسارح، وحين كانوا ينهون وصلتهم، كان من الطبيعي أن يذهبوا إلى حان المسرح، ويشربوا مع المشاهدين. وكان بعض مسارح المنوعات يربح من الحانة أكثر مما يربح من الصندوق، وكان بعض الفنانين يقبضون أجوراً عالية، ليس بسبب موهبتهم فقط، بل لأنهم كانوا ينفقون الجزء الأكبر من مالهم في حانة المسرح. هكذا وجد العديد من الفنانين أنفسهم وقد دمرهم إدمان الكحول: وكان والدي أحدهم. وقد توفي متسمماً بالكحول في السابعة والثلاثين من عمره.

كانت أمي تروي عنه قصصاً تمتزج الدعابة فيها بالحزن. فهو عندما كان يشرب، كان طبعه يصبح عنيفاً، وخلال إحدى نوباته، هربت أمي إلى برايتون مع أصدقاء، وردت على البرقية المجنونة التي أرسلها إليها: «ماذا تفعلين؟ أجيبي بالعودة!»، بالبرقية التالية: «حفلات رقص، وأمسيات ونزهات، يا عزيزي!»

كانت أمي كبرى فتاتين، وكان والدها، تشارلز هيل، إسكافياً إيرلندياً، أصله من كونتية كورك. كان خداه متوردين كتفاحتين، وكان له شعر كث أبيض ولحية مثل كارليل كما يظهر في الصورة التي رسمها له ويسلر. وكان شديد الأحديداب بسبب داء المفاصل الذي أصيب به، كما كان يقول، لنومه في حقول رطبة حين كان يتوارى من أمام الشرطة خلال انتفاضات قوميّة. وانتهى به الأمر للإقامة في لندن كإسكافي في إيست لاين، بحي والوورث.

أما جدتي فكانت نصف غجرية. وكانت مدعاة لخجل العائلة. مع ذلك، كانت تعتز بأن عائلتها دفعت دائماً إيجار الأرض التي كانت تخيم فيها القبائل. وكان اسم عائلتها، قبل الزواج، سميث. وأنا أحتفظ منها بذكرى عجوز صغيرة مفعمة بالحيوية كانت تستقبلني دائماً بحماس وهي تكلمني كما لو كنت طفلاً. وقد توفيت وأنا بعد في السادسة من عمري. وهي انفصلت عن جدي لأسباب لم ترد هي، ولا أراد هو، الافصاح عنها. لكن بحسب خالتي كايت، كانت هناك قصة علاقة متعددة، وفاجأ جدي جدتي مع عشيق لها.

إن الحكم على أخلاق عائلتنا باستخدام مقاييس معتادة قد يعادل اقتراف خطأ بخطورة تغطيس ميزان حرارة في الماء الغالي. وبإرث من هذا النوع، لم تتأخر الفتاتان الجميلتان في مغادرة البيت، تحت جاذبية المسرح.

كانت خالتي كايت، الأخت الصغرى لوالدتي، تؤدي أيضاً دور الخادمة المغناج؛ لكننا لم نكن نعرف الشيء الكثير عنها، لأنها لم تكن تظهر بيننا إلا لفترات قصيرة للغاية. لما كانت جميلة ومحتدمة المزاج، لم يقيض لها أن تتفاهم يوماً مع أمي. والزيارات التي كانت تقوم بها إلينا بين حين وآخر كانت تنتهي عموماً، بصورة مفاجئة، بملاحظة غير لطيفة بصدد شيء قالته أمي أو فعلته.

في سن الثامنة عشرة، كانت أمي قد ذهبت إلى أفريقيا مع رجل يكبرها بعض الشيء. وكانت تتحدث غالباً عن حياتها هناك: حياة ترف وسط الأغراس، والخدم، وأحصنة الركوب. ولقد ولدت أخي سيدني، في ذلك العمر بالذات، وكانوا يقولون لي إنه ابن لورد وإنه سيرث حين يبلغ الواحدة والعشرين ثروة مقدارها ألفا ليرة (سترلينية)، الأمر الذي كان يسرني ويضايقني في الوقت ذاته.

لم تبق والدتي في أفريقيا وقتاً طويلاً، بل عادت إلى إنكلترا حيث اقترنت بوالدي. وأنا لم أكن أعرف ما الذي وضع حداً للفصل الافريقي، لكن في الإملاق الشديد الذي كنا نعاني منه، كنت أؤنبها لأنها تخلت عن حياة مترفة. وكانت تضحك وهي تقول إنها فتيَّة جداً، بحيث يصعب عليها أن تتوخى الحذر أو التعقل في مسلكها.

لم أعرف يوماً إلى أي حد كانت مشغوفة بوالدي، لكن في كل مرة كانت تتحدث فيها عنه، كان ذلك من دون مرارة، الأمر الذي يدفعني للاعتقاد بأنها كانت موضوعية جداً، بحيث لم تكن شديدة العشق. ولقد كانت تتذكره أحياناً بنوع من الرثاء، وتتحدث حيناً عن إدمانه وعنفه. وفي ما بعد، حين كانت تغضب مني، كانت تقول بحزن: «سوف تنتهي في الساقية، مثل أبيك».

كانت تعرفت إليه قبل ذهابها إلى أفريقيا. كانا يحبان أحدهما الآخر، وكانا لعبا معاً في الميلودراما الإيرلندية بعنوان **شاموس أوبريان**. في السادسة عشرة من عمرها، كانت تمثل دور العاشقة. وفي إحدى الجولات مع تلك الفرقة، التقت ذلك اللورد المسن الذي تبعته إلى افريقيا. وحين عادت إلى إنكلترا، استعاد أبي الخيوط المقطوعة من قصة حبهما، وتزوجا.

وقد ولدت بعد ذلك بثلاثة أعوام.

لا أعرف أي عوامل انضافت إلى إدمان الخمر، لكن الانفصال تم بين أبي وأمي بعد عام على ولادتي، ولم تطلب أمي نفقة غذائية. لما كانت هي الأخرى نجمة، مع أجر يصل إلى الـ ٢٥ ليرة أسبوعياً، كان في وسعها أن تغطي حاجاتها وحاجات ولديها. وهي لم تسع للحصول على العون، إلا حين أصابها نكد الحظ، ولولا ذلك لما كانت بادرت لإقامة دعوى أمام المحكمة.

لقد تعرضت لإزعاجات في موضوع صوتها. ذلك أن صوتها لم يكن يوماً قوياً، وكان أقل رشح يتسبب لها بالتهابات في الحنجرة تدوم أسابيع؛ لكنها كانت مضطرة لمواصلة العمل، بحيث أدى ذلك إلى تلف صوتها مع الوقت. لم يكن يمكنها الاعتماد عليه، إذ كان يتكسر في منتصف أغنية تكون في معرض أدائها، أو أنه كان يتحول فجأة إلى لا أكثر من تمتمة وكان الجمهور ينفجر ضحكاً ويشرع بالصفير. وكان الهم الذي يسببه لها ذلك ينعكس سلباً على صحتها وانتهى إلى تحطيم أعصابها. الأمر الذي جعل العقود معها تتناقص تدريجياً إلى اليوم الذي لم تعد تحصل فيه على أي منها.

لهذا السبب، كانت المرة الأولى التي صعدت فيها إلى المسرح حين بلغت الخامسة من عمري. كانت أمي تفضل عموماً أن تصطحبني معها إلى المسرح في المساء على تركي لوحدي في منزل مفروش. كانت تمثل في الكانتين، في ألدرشوت، وكان في تلك الفترة مسرحاً بائساً ومنفراً، يتألف زبائنه بشكل أساسي من الجنود. كانوا يشكلون جمهوراً صخّاباً، وأدنى ذريعة كانت مناسبة بالنسبة إليهم ليسخروا من الممثلين ويهزّئوهم. وكان أسبوع في ألدرشوت يشكل امتحاناً مخيفاً للفنانين.

أذكر أني كنت في الكواليس، حين ضعف صوت أمي بحيث لم يعد أكثر من لهاث، فأغرق الجمهور في الضحك، وراح يغني بأصوات ناشزة، ويطلق الصفير. وكان كل ذلك مشوشاً كفاية بحيث لم أكن أفقه ما الذي يجري. لكن الصخب ازداد إلى حين اضطرت أمي إلى مغادرة المسرح. وحين عادت إلى الكواليس، كانت شديدة الاضطراب، وتناقشت مع مدير المسرح الذي سبق أن رآني أغني أمام أصدقاء لأمي، فقال إن بالإمكان تركي أقف على المسرح بدلاً منها.

أراه من جديد، يقودني بيدي، وسط الجلبة الصاخبة، ثم يتركني لوحدي على الخشبة، بعد أن قدّم بعض الشروح. وأمام الأنوار الباهرة، والوجوه الضائعة في الدخان، بدأت أغني، بصحبة الأوركسترا التي ترددت قليلاً قبل أن تكتشف أي نغمٍ تبنيت. كانت أغنية مشهورة عنوانها **جاك جونز**، وكانت كلماتها هي التالية:

Jack jones well and known to every body
Round about the market, doit yer see
I've no fault to find with at all,
Not when'e's as'e used to be.

But since 'e 's had the bullion left him
'E has altered for the worst,
For to see the way he treats all his old pals
Fills me with nothing but disgust.
Each sunday morning he reads the Telegraph,
Once he was contented withe the Star
Since Jack Jones has come into a little bit of cash
Well, 'e don't know wher 'e are.

(جاك جونز يعرفه الجميع
في السوق، على حد علمكم،
أنا لا ألومه على شيء، جاك،
ليس حين يكون كما كان في الزمن الغابر.
لكن مذ رأى لون النقود
تغيَّر، لكن ليس نحو الأحسن
لأني إذ أرى الطريقة التي يعامل بها أصحابه السابقين أشعر بالغثيان.

صباح كل أحد، يقرأ جريدة التلغراف
في حين كان يكتفي في الماضي بجريدة ستار.
مذ لامست يدا جاك قليلاً من المال،
صدقوني، أضاع رشده).

في منتصف الأغنية، بدأت تنهال على المسرح قطع نقود لا تحصى. فتوقفت في الحال وأعلنت أني سأجمع المال أولاً ثم أتابع الغناء، وهو ما أثار الكثير من الضحك. ووصل مدير المسرح، حاملاً منديلاً لمساعدتي. وقد اعتقدت أنه سيحتفظ بالنقود، وفهم المشاهدون مخاوفي فزاد ضحكهم، لا سيما حين اختفى هو والمنديل وجريت وراءه بقلق. ولم أعد لاستئناف وصلتي إلا حين سلم امي المال. كنت مرتاحاً بالكامل. خاطبت الجمهور، ورقصت، وقلدت العديدين، بمن فيهم أمي مغنيةً لحن سير إيرلندياً:

Riley, Riley, that's the boy to beguile ye,
Riley, Riley, that' s the boy for me,
In all the Army great and small,
Ther's none so trim and neat
As the noble Sergeant Riley
Of the gallant Eigty- Eight.

ريلي، ريلي، هذا هو الولد الذي يسليكم بأحابيله
ريلي، ريلي، هذا هو الولد الذي أحب،
في كل رتب الجيش، كبيرها وصغيرها،
لا أحد بهذه الأناقة، وذلك الاتقان
اللذين يبدو بهما السرجنت ريلي
من الكتيبة المجيدة ٨٨.

وبكل براءة، وفيما كنت أكرر اللازمة، كنت أقلد صوت أمي وهو بخفت. وقد فاجأني أن أرى مدى تأثير ذلك على السامعين. فبين الضحك والهتاف، هطل سيل جديد من قطع النقود، وحين جاءت أمي إلى المسرح لتأخذني، تلقت عاصفة من التصفيق. كانت تلك الأمسية هي مناسبة ظهوري الأول على المسرح، وظهور أمي الأخير.

حين يمتزج القدر بمصير الناس، لا يعرف شفقة أو عدالة. فأمي لم تستعد صوتها بتاتاً، وكما يعقب الشتاء الخريف، راح وضعنا يتفاقم. ومع أن أمي كانت فَطِنَة، وخبأت بعض المال، إلا أن ما خبأته سرعان ما جرى انفاقه، مثلما حدث أيضاً الجواهرها، وممتلكات صغيرة أخرى، رهنتها لدى أحد المقرضين للحصول على بعض المال، على أمل أن تستعيد صوتها.

بانتظار ذلك، تخلينا عن ثلاث غرف مريحة، لنسْتقر في غرفتين، ثم في غرفة واحدة، في حين كان متاعنا يتناقص كل مرة، ويصبح الحي الذي ننتقل إليه أكثر فأكثر بؤساً.

مالت أمي عندئذ بوجهها شطر الدين، آملة بلا ريب أن يعيد لها ذلك صوتها. كانت تتابع بانتظامٍ احتفالات كنيسة المسيح في ويستمنستر بريدج رود، وكان عليّ كل الآحاد أن أبقى جالساً بتعقُّلٍ في حين تعزف على الأرغن ألحان باخ، وأن أصغي بنفاد صبر أليم إلى صوت الأب المحترم ف. ب. ماير، الورع والدرامي، الذي كانت أصداؤه تدوّي في جناح الكنيسة شبيهةً بجلبة خطىً زاحفة. ولا بد أن تلك المواعظ كانت مؤثرة، لأني كنت أفاجىء أمي وهي تمسح دمعة من دون أن تنبس بكلمة، وهو الأمر الذي كان يربكني قليلاً.

أتذكر تماماً المناولة المقدسة في يوم صيف قائظ، مع كأس الفضة الباردة وكانت تحتوي عصير العنب اللذيذ الذي يمرِّره المؤمنون الواحد للآخر، كما أتذكر يد والدتي وهي توقفني حين أكثر من الشرب. ولا أنسى أيضاً تنفسي الصعداء حين كنت أرى المحترم يغلق التوراة، إذ كان ذلك يعني أن الموعظة تقترب من نهايتها، وأنه سيجري الشروع بالصلوات وبالنشيد النهائي.

مذ بدأت أمي تتابع القداديس، نادراً ما رأت أصدقاءها من أيام المسرح. فكل ذلك العالم كان قد تبخر، ولم يعد أكثر من ذكرى. جعلني ذلك أظن أننا عشنا دائماً حياة البؤس. إن فاصل سنة واحدة كان يبدو كما لو كان حياة بكاملها قائمة على الكدح الشاق. كنا نواصل الحياة الآن في غسق لا فرح فيه. كان من الصعب أن نجد عملاً، وكانت أمي، التي لم تحصل على تكوين في غير المجال الفني، تعاني أيضاً من إعاقات أخرى. كانت صغيرة الحجم، ورقيقة ومرهفة، وكانت تناضل ضد شروط معيشية مريعة في ذلك العصر الفيكتوري حيث لم يكن للغنى والفقر من حدود، وحيث لم يكن لدى النساء من الطبقة الفقيرة من خيار غير أن يعملن خادمات في المنازل أو أن يكدحن كالعبيد في الورش. كانت تعثر أحياناً على وظيفة ممرضة، لكن كان ذلك نادراً ولمدة قصيرة. مع ذلك، كانت لديها طاقات متعددة: فبما أنها هي التي كانت تخيط ثيابها المسرحية، كانت تعرف استخدام الإبرة وفي وسعها كسب عدة شلنات عن

طريق إلباس أعضاء آخرين في الجماعة المهنية. لكن ذلك كان يكاد يكفي لاعالتنا نحن الثلاثة. وبما أن والدي كان يشرب، كانت عقوده المسرحية أقل فأقل انتظاماً، تماماً كما دَفْعُه العشرة شلنات في الأسبوع.

كانت أمي قد باعت الآن أغراضاً، ولم يكن باقياً لديها غيْر حقيبتها الملأى بثيابها المسرحية. وكانت تتشبث بها أملاً باستعادة صوتها والصعود مجدداً إلى الحلبة. ومن حين لآخر، كانت تغوص في الحقيبة بحثاً عن شيء ما، وكنا نرى فستاناً مزركشاً باللآليء الصغيرة أو شعراً مستعاراً، وكنا نسألها أن تلبسهما. وأنا أتذكرها واضعة قلنسوة قاض وشعره المستعار، ومغنية بصوتها الخافت واحدة من أغنياتها القديمة الناجحة التي كانت كتبتها بنفسها.

كان للأغنية إيقاعٌ مطربٌ إثنان ـ أربعة، أما كلماتها فهي التالية:

I'm a lady judge,
And a good judge too.
Judging cases fairly
-They are so very rarely-
I mean to teach the lawyers
A thing or two,
And show them just exactly
What the girls can do...

أنا امرأة قاضية
وقاضية جيدة أيضاً.
أحكم بالعدل
ـ علماً أن القضايا نادرة جداً ـ
أنوي تعليم المحامين
درساً أو درسين
وأن أريهم بالضبط
ما تستطيع الفتيات أن يفعلن....

وبسهولة مذهلة، كانت تشرع عندئذ في خطوة رقص رائعة، ناسية الخياطة، وتجعلنا نستمتع بأغانيها الشعبية الأخرى، مصاحبةً إياها بالرقصات المناسبة إلى حين كانت تنهار من الانهاك واللهاث. كانت تستعيد عندئذ بعض ذكرياتها، وترينا بعضاً من ملصقاتها القديمة. كان بالإمكان أن نقرأ على إحداها:

عرض خارق!
الفاتنة والموهوبة ليلي هارفي
ممثلة كوميديا، ومقلّدة وراقصة.

لم تكن تقدِّم أمامنا فقط عرضها الخاص بمسرح المنوعات، بل كانت تقلد أيضاً فنانين آخرين كانت رأتهم في ما كان يسمّى المسارح الحقيقية.

حين كانت تؤدي قطعة، كانت تلعب أدوارها المختلفة: ففي إشارة الصليب، مثلاً، كانت ميرسيا مع ضياء إلهي في أعماق عينيها، وهي داخلة إلى الحلبة حيث سترمى إلى السباع. وكانت تقلد صوت ويلسون باريت العالي المتبجح معلناً، وهو يقف على حذاءٍ علوّه ١٢٠ سم، بسبب قصره: «أنا أجهل ما هو هذا الدين المسيحي. لكن ما أعرفه هو أنه صنع نساءً كميرسيا؛ ما عساي أقول يا روما، إن في وسع العالم بأسره أن يصير بفضله أكثر نقاء!»... وهي كانت تلقي ذلك الكلام بصورة لا تخلو من الفكاهة، لكن من دون تجاهل موهبة باريت.

كانت لديها غريزة لا تخطىء في اكتشاف أولئك المتمتعين بموهبة أصيلة. وسواء في حالة الممثلة إيلن تيري أو حالة جو إيلفن، فنان الميوزيك ـ هول، كانت تشرح فنهما. كانت تعرف التقنية بالفطرة وتتحدث عن المسرح كما يستطيع فقط أن يفعل شخص يموت به عشقاً.

كانت تروي نكاتاً وتمثلها إيماءً، مستعيدة على سبيل المثال حادثة من حياة الامبراطور نابليون: كان هذا يقف على رؤوس أصابعه في مكتبته ليأخذ كتاباً، ويفاجأ بالماريشال ناي يقول له (هنا تقلد أمي كلا الرجلين، لكن بدعابة على الدوام): «اسمح لي، يا صاحب الجلالة، أن آتيك به، فأنا أكبر منك». فيجيب نابليون وهو يمط شفتيه استهجاناً: «أكبر؟ أنت تريد أن تقول أطول!».

مثلت أمامنا أيضاً دور نيل غوين؛ كانت تصفها منحنية على درج القصر، حاملة طفلها على ذراعيها ومهددة شارل الثاني: «أعط اسماً لهذا الطفل، أو أرمي بنفسي في الفراغ!» والملك شارل مسارعاً للإجابة: «جيد جداً! دوق سان ألبان».

أذكر ذات مساء، في غرفتنا الوحيدة، بالطابق الأرضي، شارع أوكلي. كنت مستلقياً في السرير، أتعافى من نوبة حمّى. كان سيدني قد ذهب لحضور درس المساء، وكنا أنا وأمي وحدنا. كان المساء يقترب، وكانت جالسة وظهرها إلى النافذة، فيما هي تقرأ، وتمثل، وتشرح على طريقتها، التي لا مجال لمحاكاتها، العهد الجديد وحب المسيح للفقراء والأولاد الصغار، وعطفه عليهم. ربما كان تأثرها ناجماً عن مرضي، لكنها أعطتني تفسيراً للمسيح هو الأشد أسراً وبهاء بين كل تلك التي سبق أن رأيتها أو سمعتها. كانت تتكلم على تفهُّمه المليء تسامحاً، على المرأة التي زلَّت وكان الجمهور يريد أن يرجمها، وعلى كلماته: «من منكم بلا خطيئة فليكن أول الراجمين».

تابعت قراءتها رغم حلول الليل، ولم تتوقف إلا لإضاءة المصباح، ثم حدثتني عن الإيمان الذي كان يسوع يوحي به للمرضى، بحيث لم يكن عليهم ليبرأوا سوى أن يلامسوا طرف ثوبه.

حدثتني عن كراهية كبار الكهنة والفريسيين وغيرتهم، ووصفت يسوع والقبض عليه وكبرياءه الهادىء أمام بيلاطس البنطي، الذي أعلن فيما هو يغسل يديه (وهنا، أعطت صوتها لكنة مسرحية): «لا أجد هذا الرجل مذنباً بأي معصية». وقد روت لي كيف نزعوا ثيابه وجلدوه بالقضبان، وكيف وضعوا إكليلاً من الشوك على رأسه، وراحوا يسخرون منه، باصقين على

وجهه وهم يقولون: «السلام عليك، يا ملك اليهود»!

وفيما كانت تواصل روايتها، اغرورقت عيناها بالدموع. حدثتني عن سمعان وهو يساعد المسيح في حمل صليبه، وعن نظرة العرفان بالجميل المؤثرة التي نظر بها إليه يسوع؛ وحدثتني عن برأبا، السارق التائب، الذي مات معه على صليب فيما هو يسأله الغفران، ويقول له يسوع: «ستكون اليوم معي في الفردوس». وعن يسوع ينظر إلى أمه من على الصليب، ويقول لها: «يا امرأة، هذا ابنك». وعن صيحة احتضاره الأخيرة: «يا ألله، لماذا تركْتَني؟» وقد بكينا نحن الإثنين.

ـ أترى، قالت أمي، كم كان إنسانياً؟ مثلنا جميعاً، عرف الشك هو الآخر.

كانت أمي قد هزَّت مشاعري إلى حد أني وددت لو أموت في المساء ذاته لألتقي يسوع. لكنها لم تبد حماساً كبيراً لهذا المصير، وقالت لي:

ـ يسوع يريد أن تعيش أولاً لتكمل ما أنت معد له في الحياة الدنيا.

في تلك الغرفة المظلمة من الطابق الأرضي لإحدى بنايات شارع أوكلي، كانت أمي تضيء أمام عيني وهج الطيبة والخير الأكثر سطوعاً، الذي سبق أن عرفه العالم يوماً، والذي أعطى الأدب والمسرح موضوعاتهما الأشد سمواً، والأكثر غنى: المحبة، والرحمة والإنسانية.

كنا نعيش في شرائح المجتمع الدنيا، لذا كان سهلاً الاعتياد على إهمال لفظنا. لكن أمي كانت تختلف دائماً عن بيئتنا وتحتفظ بأذن متنبهة للطريقة التي نتكلم بها، مصححة أخطاءنا النحوية، ومولدة لدينا انطباعاً بكوننا متميزين.

ومع انحدارنا أكثر فأكثر في هوة الفقر، كنت ألومها، في براءة الطفولة، لأنها لم تعد إلى المسرح. أما هي فكانت تبتسم وهي تقول إن تلك الحياة زائفة، ومصطنعة، وإنه يمكن الإنسان، في عالم كذلك العالم، أن ينسى الله. مع ذلك، كل مرة تحدثت فيها عن المسرح، كانت تستسلم للحماس. وفي بعض الأيام، بعد استرجاع ذكريات من ذلك الزمن، كانت تغرق في صمت طويل، فيما هي منحنية على أشغال الإبرة، وكنت أنا أغرق في الكآبة لأننا لم نكن جزءاً من تلك الحياة الباهرة. وكانت أمي ترفع بصرها إلي فتراني شديد الحزن، وتحاول تعزيتي.

كان الشتاء يقترب، ولم يعد لدى سيدني ما يرتديه. لذا خاطت له أمي معطفاً من سترتها المخملية القديمة، التي كانت لها أكمام مخططة بالأحمر والأسود، مع ثنيات عند الكتف سعت أمي لإزالتها، لكن من دون نجاح يُذكر. وقد بكى سيدني حين أُجبر على ارتداء ذلك المعطف، قائلاً:

ـ كيف سيفكر رفاقي في المدرسة؟

ـ ماذا يهمّك من تفكير الناس، قالت أمي؟ ثم إن هذا المعطف يعطيك مظهراً متميّزاً».

كانت لدى أمي مقدرة على الاقناع إلى حد أن سيدني لم يفهم إلى اليوم لماذا وافق على ارتداء لباس كهذا. لكنه انصاع، وتسبب له ذلك المعطف، وزوج أحذية نسائي قصّت أمي عقبيه، بأكثر من مشادة في المدرسة. كان الأولاد يسمونه: «يوسف بالمعطف المبرقش». أما أنا، مع زوج سراويل نسائية حمراء لأمي صنعت لي منه جوارب (كانت تبدو مغضنة هي الأخرى)، فكانوا يسمونني «السير فرانسيس درايك».

في تلك الفترة التي كانت تعيش فيها أمي وضعاً أليماً، بدأت تشكو الصداع واضطرت للتوقف عن أشغال الخياطة. كان عليها أن تتمدد أياماً بكاملها في غرفة مظلمة مع ضمادات من أوراق الشاي على عينيها. لقد عرف بيكاسو مرحلة زرقاء، أما نحن فعرفنا مرحلة رمادية، كنا نعيش خلالها على إحسان الكنيسة، وعلى بطاقات شورباء وطرود من مؤسسات للبر. بالرغم من ذلك، كان سيدني يبيع صحفاً في الساعات التي لا يكون خلالها في الصف، ومع أن مساهمته لم تكن أكثر من نقطة في بحر، فلقد كانت تشكل مع ذلك عوناً صغيراً. لكن في كل أزمة، هنالك أوج، وفي حالتنا، شهدت الأزمة حلاً سعيداً.

ففي يوم كانت ترتاح فيه أمي، وعلى عينيها ضمادة، دخل سيدني الغرفة المقفلة الستائر، على عجل وبصورة مباغتة، ورمى بصحفه على السرير وهو يصيح: «لقد عثرت على ثروة!»، ثم مدَّ الصرة إلى أمي، التي فتحتها لتجد فيها كدسة من قطع الفضة والنحاس. أما هي فسارعت إلى إقفالها من جديد، ثم تهافتت على السرير وقد أنهكها التأثر.

كان سيدني قد مضى لبيع الصحف في العربات العامة، حين رأى في الطبقة العلوية لإحداها صرة نقود موضوعة على مقعد شاغر. فسارع إلى إسقاط جريدة فوقها كما لو أن ذلك حدث صدفة، ثم التقطها من جديد ومعها صرة النقود، ونزل على عجل. وخلف حظيرة من قصب، في أرض بور، فتح الصرة ورأى كل ما فيها من المال. وقد روى لنا كيف راح قلبه يخفق، وكيف أقفل الصرة من جديد من دون أن يعد المال، وعاد إلى البيت عَدْواً.

حين تغلبت أمي على انفعالها، أفرغت على السرير محتوى الصرة، لكن هذه الأخيرة كانت لا تزال ثقيلة، ذلك أنه كان فيها جيب آخر في الوسط! وقد فتحته أمي ولمحت سبعة جنيهات ذهب استرلينية. كان فرحنا بلا حدود. وحمداً لله أنه لم يكن هنالك عنوان، بحيث لم تجد وساوس أمي الدينية المجال لتفعل فعلها. فبالرغم من تفكير قصير بنكد حظ صاحب الصرة، سرعان ما تبددت هذه الغيمة، بسبب قناعة أمي بأن الله أرسل لها هذه الثروة بَرَكةً من السماء.

لا أدري إذا كان مرض أمي بدنياً أو نفسياً، لكنها تعافت خلال أسبوع. وما إن استعادت صحتها حتى رحنا في عطلة إلى ساوتند أون سي، بعد أن ألبستنا أمي ثياباً جديدة من البابوش إلى الطربوش.

إن رؤية البحر للمرة الأولى أحدثت في نفسي تأثيراً يشبه التنويم المغناطيسي حقاً. لما كنت اقترب منه تحت شمس ساطعة، وأنا أسلك شارعاً منحدراً، بدا لي معلقاً، كمسخ

مرتجف على أهبة الانقضاض عليَّ. وقد خلعنا نحن الثلاثة أحذيتنا لنتخبط في الماء. كان الماء الفاتر يتحرك حول قدميَّ وعرقوبيَّ، والرمل ينزلق بلطف تحت رجليَّ، الأمر الذي شكل بالنسبة لي اكتشافاً لذيذاً.

يا له من نهار! كان الشاطىء بلون الزعفران، مع دلاء وردية وزرقاء في أيدي الأولاد، ورفوش من خشب، وخيام ومظلات ملونة، ومراكب صغيرة تتقافز بمرح فوق مويجات ضاحكة، وعلى الساحل الرملي مراكب أخرى مستندة إلى جنبها بكسل واسترخاء، فيما تفوح منها رائحة الأعشاب البحرية والقطران. وأنا لا أزال أحتفظ بذكرى مسحورة لكل هذا.

عام ١٩٥٧، عدت إلى ساوثاند، وبحثت سدىً عن الشارع الضيق الذي كنت لمحت من أعلاه البحر للمرة الأولى، لكن آثاره كانت قد اختفت تماماً. فعند طرف التجمع السكني، كان يمكن رؤية بقايا ما بدا قرية صغيرة لصيادي السمك مع محلات قديمة. كانت تفوح من كل ذلك رائحة الماضي الخفيفة: ربما كانت تلك رائحة النباتات البحرية والقطران.

لكن مثلما الرمل في ساعة رملية، كان كنزنا ينفد شيئاً فشيئاً، وعادت إلينا الأوقات الصعبة. بحثت أمي عن عمل، لكن لم يكن يمكن العثور على عمل بسهولة. وكانت المشاكل تتراكم، وقد تأخر دفعنا واستعيدت آلة الخياطة من أمي. وكان والدي قد كف عن أداء العشرة شلنات التي كان عليه أن يدفعها لنا.

وفي حركة يائسة، استشارت محامياً جديداً، إذ رأى أنه لن يكسب الكثير من القضية، نصحها بأن تضع نفسها هي وولديها تحت حماية سلطات حي لامبث، لإجبار والدي على دفع ما يتوجب عليه.

لم يكن هنالك حل آخر: كانت تتحمل المسؤولية عن ولدين، وكانت صحتها سيئة، لذا قررت أن ندخل نحن الثلاثة مأوى فقراء لامبث.

مع أننا شعرنا، سيدني وأنا، بالخجل والعار اللذين ينطوي عليهما الدخول إلى المأوى، فكرنا بأنها مغامرة، مهما يكن، وقد تتبدل أحوالنا وتصبح مختلفة عن العيش في غرفة واحدة خانقة. لكنني لم أفهم ما كان يحدث إلا حين تجاوزنا بوابة المدينة. شعرت عندئذ بأني وحيد وتائه، لأنهم فصلونا هناك، بحيث ذهبت أمي في اتجاه جناح النساء، بينما قصدنا نحن جناح الأولاد.

يا لها من ذكرى واضحة تلك التي أحتفظ بها للحُزن القاسي الذي شعرنا به في أول يوم زيارة، والصدمة التي أصبنا بها ونحن نرى أمي في ردهة الإستقبال، مرتدية ثياب المأوى. كم كانت هيئتها مهمَلةً ومرتبكة! في ظرف أسبوع، شاخت وهزلت، لكن وجهها تهلل حين رأتنا. وقد أجهشنا، أنا وسيدني، بالبكاء، بحيث بكت أمي، وراحت دموع كبيرة تسيل على خديها. إلا أنها استعادت سيطرتها على مشاعرها في الأخير، وجلسنا على مقعد خشبي، يدانا على ركبتيها، وهي تربِّت عليهما بحنان، باسمةً لمرأى رأسينا الحليقين، ومداعبة إياهما بحركة معزِّية، وواعدة بأن نجتمع من جديد في وقت قريب. وقد أخرجت من مئزرها كيس حلوى مصنوعةٍ من جوز الهند كانت اشترته من محل المأوى بالمال الذي كسبته بأن حاكت بالصنارة أكمام دنتيلا لإحدى الممرضات. وحين افترقت عنا، لم ينفك سيدني يردد بحزن كم وجدها تقدمت في السن.

سرعان ما تكيفنا، أنا وسيدني، مع حياة المأوى، لكن ليس من دون حزن. أنا لا أتذكر جيداً أحداثاً دقيقة، لكنني أتذكر أن الغداء على طاولة طويلة مع سائر الأولاد كان احتفالاً مطبوعاً بالحرارة والود ينتظره الجميع. كان يرأس المائدة أحد النزلاء، وكان شيخاً في الخامسة والسبعين من عمره تقريباً، يوحي بالوقار، مع لحية صغيرة بيضاء وعينين حزينتين. وقد أشار إلي كي أجلس بقربه، لأني كنت الأصغر، ولأن شعري كان الأكثر تجعُّداً، إلى اليوم الذي تمت فيه حلاقته. كان يسميني «نمر»ه، ويقول إني حين أكبر، سوف أعتمر قبعة عالية مع عقدة تزيينية، وأجلس في الخلف من عربته، مكتوف اليدين. وقد سرني هذا الوعد كثيراً، فأحببته في الحال. لكن لم يمر يوم أو يومان حتى ظهر ولد أصغر مني، مع شعر أكثر تجعيداً من

شعري، وأخذ مكاني قرب السيد العجوز، لأن ولداً أكثر فتوّة، وذا شعر أكثر تجعُّداً، تكون له الأولوية دائماً. هذا ما شرحه لي وهو يمزح.

في غصون ثلاثة أسابيع، حوّلونا من مأوى لامبث إلى مدرسة هانويل للأيتام واللقطاء، على بعد عشرين كيلومتراً عن لندن. وقد كانت تلك رحلة حقيقية في عربة خبّاز، وكانت رحلة ممتعة إذا أخذنا الظروف بالحسبان، لأن الريف المحيط بهانويل كان رائع الجمال في ذلك الحين، مع بساتين كستناء، وحقول قمح تنتظر الحصاد، ورياض فيها أشجار محمَّلة بالثمر. مذاك ذكرتني دائماً بهانويل رائحة الريف الغنية والمعطرة بعد المطر. لدى وصولنا، وضعونا في جناح الانتظار، تحت الرقابة الصحية والعقلية قبل قبولنا في المدرسة بحصر المعنى. وكان السبب يعود إلى أن ولداً واحداً متخلفاً عقلياً، أو مريضاً بين ثلاثمئة أو أربعمئة ولد، يترك تأثيراً سيئاً على التلامذة الآخرين، في الوقت ذاته الذي يعيش فيه هو بالذات في وضع صعب.

كنت في الأيام الأولى ضائعاً وبائساً. ففي المأوى، كان لدي انطباع، على الدوام، بأن أمي غير بعيدة عني، وهو الأمر الذي كان يشجعني، لكن في هانويل، كان يبدو أننا على بعد كيلومترات. هذا وقد قُبِلْنا، أنا وسيدني، في المدرسة، حيث جرى الفصل بيننا، فذهب هو إلى جناح الكبار، بينما انضممت أنا إلى الصغار. وكنا ننام في جناحين مختلفين، بحيث نادراً ما كنا نرى أحدنا الآخر. كنت أتجاوز السادسة من عمري بقليل، وكنت لوحدي، الأمر الذي جعلني أشعر بالتعاسة الشديدة. وفي أمسيات الصيف، بوجه خاص، في ساعة الصلاة قبل غروب الشمس، كنت أركع مع عشرين ولداً صغيراً آخر، بثياب النوم، في أواسط الجناح، فأتطلع عبر النوافذ المستطيلة إلى الشفق الذي يزداد قتامة وإلى تموجات التلال، وأحس بنفسي غريباً عن كل ذلك، في حين ننشد بصوت ناشز تقريباً:

> Abide with me; fast falls the eventide;
> The darkness deepens; Lord, with me abide;
> When others helpers fail, and comforts flee,
> Help of the helpless, O, abide with me.

> إبق بجانبي؛ وليأت المساء سريعاً؛
> فالظلمة تشتد؛ رباه، ابق بجانبي؛
> حين يتخلى عنا الجميع، وتضمحل التعزية،
> يا عون الذين لا عون لهم، ابق بجانبي.

في ذلك الحين بالذات، كنت أحس بنفسي في قمة البؤس. ومع أنه كان يستحيل ألا أفهم النشيد، فإن النغم، والنور المتلاشي، كانا يزيدان من حزني.

لكن يا للمناجاة السارة! لقد تدبرت أمي الأمر بعد مرور شهرين، لإخراجنا، فأعادونا إلى لندن، وبالتحديد إلى مأوى لامبث. كانت أمي تنتظرنا على الباب، مرتدية ملابسها الخاصة بها هذه المرة. كانت طلبت السماح لنا بالخروج، لأنها تريد فقط أن تمضي النهار مع ولديها، وكانت تنوي العودة في اليوم ذاته، بعد ساعات قليلة نمضيها معاً في الخارج. ولما

كانت أمي نزيلة المأوى، فإن تلك الحيلة كانت الوسيلة الوحيدة لترانا من جديد.

قبل دخولنا المأوى، أخذوا ثيابنا الشخصية لتعقيمها، لكنهم أعادوها إلينا غير مكوية. ولقد كان مظهرنا جميعاً، أمي وأنا وسيدني مدعوكاً للغاية حين تجاوزنا البوابة الخارجية. كنا في الصباح الباكر، ولم يكن لدينا مكان نذهب إليه، لذا توجهنا نحو كينينغتون بارك، التي كانت على بعد ١٥٠٠ متر من ذلك المكان. كان مع سيدني تسعة بنسات ملفوفة بمنديل، فاشترينا ربع كيلو كرز أسود وأمضينا صباحنا في المتنزه جالسين على مقعد ونحن نأكل. وقد صنع سيدني كرة صغيرة من ورق جريدة، ربطها بخيط، ورحنا نلعب نحن الثلاثة بالكرة، لبعض الوقت. وعند الظهيرة، ذهبنا إلى أحد المقاهي، واشترينا بما بقي من مال معنا قطعة حلوى ببنسين، ورنكة ببنس واحد، وفنجاني شاي بنصف بنس، وتقاسمنا كل ذلك. ثم عدنا إلى المتنزه، حيث استأنفنا اللعب، أنا وسيدني، فيما بقيت أمي جالسة تشتغل بالإبرة.

بعد الظهر، عدنا أدراجنا إلى المأوى. وقد قالت أمي بخفة: «سوف نكون على الوقت لتناول الشاي». لكن الإدارة كانت مستاءة، لأن مغامرتنا ستجبرها على تمرير ألبستنا من جديد في جهاز التعقيم، ولأنه كان علينا أنا وسيدني أن نبقى في المأوى وقتاً أطول قبل العودة إلى هانويل، وهو ما كان يوفر لنا فرصة بالطبع لرؤية والدتنا من جديد.

لكننا بقينا هذه المرة في هانويل لمدة عام تقريباً، وكانت سنة قدمت لنا قدراً كبيراً من التكوين، فبدأت دروسي، وعلموني أن أكتب اسم عائلتي: «شابلن». وكانت الكلمة تسحرني وقد وجدت أنها تشبهني.

كانت مدرسة هانويل مقسومة إلى قسمين، أحدهما للصبية والآخر للبنات. وكان مبنى الحمّامات مخصصاً بعد ظهر السبت للصغار الذين كان على الفتيات الكُبْريات أن يحمِّمنهم. لم أكن بلغت السابعة من عمري، وكنت في تلك المناسبات شديد الحياء. وقد كان أول ضيق شعرت به هو ذلك المتمثل في التعرض لعار أن أرى فتاة في الرابعة عشرة من عمرها تمرِّر قفازاً إسفنجياً على كل أنحاء جسدي.

هذا وقد انتقلت في السابعة من عمري من جناح الصغار إلى جناح الكبار، الذي كانت تتراوح أعمارهم بين السابعة والرابعة عشرة. كان في وسعي الآن أن أشارك في كل اهتمامات الكبار، من رياضة وتمارين، كما كنت أذهب في النزهات المنتظمة التي كنا نقوم بها مرتين في الأسبوع خارج المدرسة.

عبثاً كانوا يهتمون بنا في هانويل، فلقد كانت حياتنا حياة متوحدة للغاية. كان المحيط كئيباً وكان المرء يستنشق الحزن في معابر الريف تلك التي كنا نسير فيها، مئة من الداخليين يسيرون في الصف، اثنين اثنين. كنت أنفر نفوراً شديداً من تلك النزهات، ومن القرى التي كنا نمر فيها والتي كان سكانها يتأملون وجوهنا! كنا بالنسبة إليهم نزلاء «المأوى».

كان طول ملعب استراحة الصِّبْية ثمانين متراً تقريباً، وعرضه خمسين، وكانت أرضه مرصوفة ببلاطات كبيرة. وكانت حوله مبانٍ قرميدية من طابق واحد، تضم مكاتب، ومحلات،

ومستوصفاً، وغرفة طبيب للأسنان وحجرة ثياب. وكانت توجد في الزواية الأكثر قتامة من الملعب غرفة فارغة، احتجز فيها منذ بعض الوقت ولد في الرابعة عشرة من عمره، يمثل حالة ميئوساً منها، وفقاً لما يقول الآخرون. كان قد حاول الهرب من المدرسة، بأن صعد إلى السطح من نافذة في الطابق الأول، متحدياً النُظَّار عبر قصفهم بالحجارة وقساطل الأحصنة فيما هم يطاردونه. وقد حدث ذلك بعد أن نمنا، نحن الصغار، وقدم لنا الكبار في الصباح التالي رواية لذلك، مليئة بالإعجاب والدهشة.

كان يتم العقاب على جنح خطيرة من هذا النوع، كل يوم جمعة، في ملعب الرياضة الكبير، وهو قاعة مشؤومة طولها عشرون متراً تقريباً وعرضها ١٢ متراً، مع سقف شديد الارتفاع، وحبال تصعد جانبياً لتصل إلى الجسور الخشبية. فيوم الجمعة صباحاً، كان مئتا تلميذ إلى ثلاثمئة، من السابعة إلى الرابعة عشرة من العمر، يدخلون تلك القاعة ويصطفون كالجنود على جنبات ثلاث للقاعة. أما الجهة الرابعة فكانت المؤخرة التي يقف فيها المذنبون، خلف مكتب طويل، بضخامة طاولة غرفة للطعام، منتظرين المحاكمة والعقاب. وكان إلى يمين المكتب حمّالة تتدلى منها إسوارات جلدية، وقد عُلِّقت بإطارها مقارع توحي بالتهديد.

كانوا يمددون التلميذ، الذي ارتكب أخطاء قليلة الخطورة، على بطنه فوق المكتب، وقد رُبطت قدماه وأمسك بهما رقيب أول، في حين يرفع رقيب آخر قميص المذنب من فوق رأسه ويشد سرواله بقوة.

أما النقيب هيندروم، وكان ضابطاً متقاعداً في البحرية، يقترب وزنه من المئة كيلو، فكان ينتصب بقوة على قدميه، وقد وضع إحدى يديه خلف ظهره، وشهر عصاً بسماكة الإبهام، ويصل طولها إلى المتر و٢٠ سم، مقارناً طول العصا بعرض قفا المذنب. ثم يرفعها بحركة بطيئة ومسرحية، إلى أبعد ما تصل يده، ويهوي بها وهي تصفر على قفاه. كان المشهد مريعاً، بحيث أنه كان من الثابت دائماً أن واحداً من التلامذة الواقفين في الصفوف سوف يصاب بالإغماء.

كان الحد الأدنى للضربات ثلاثاً والحد الأقصى ستّاً. وإذا حدث أن تلقى أحد المذنبين أكثر من ثلاث ضربات، كانت الصرخات التي يطلقها مخيفة. وقد كان يحتفظ أحياناً بصمت مقلق، أو أنه يغمى عليه. كانت الضربات مُشلّة، إلى حد أنه كان يجب نقل الضحية على فراش جمناز، كانت تمدَّد عليه وتُترك وهي تتلوى لمدة عشر دقائق على الأقل، قبل أن يهدأ الألم، وقد انطبع قفاها بثلاثة تورمات حمراء، لكل منها حجم إصبع غسّالة.

أما تأثير المَقارع فمن نوع آخر، إذ بعد ثلاث ضربات، كانت الضحية تُنقل إلى المستوصف، بمساعدة رقيبين، للحصول على العناية الضرورية، وكان التلامذة ينصحونك دائماً بعدم إنكار الإتهام، حتى ولو كنت بريئاً، لأنه إذا جرى إثبات التهمة ضدك، تتعرض لأقصى العقاب. وعموماً، لم نكن نعرف التعبير بصورة كافية لادعاء براءتنا.

أتذكر أول عقاب شهدته، وأنا واقف من دون أن أنبس ببنت شفة، وقد خفق قلبي حين رأيت موكب المدير يدخل. كان يوجد خلف المكتب المسكين الذي حاول الهرب من المدرسة. لم يكن يمكن أن نرى أكثر من رأسه وكتفيه، من فوق المكتب، لشدة ما كان صغير الحجم. كان وجهه هزيلاً بارز التقاطيع، وكانت عيناه واسعتين.

قرأ المدير الاتهامات بصورة احتفالية وسأل:

ـ مذنب أو بريء؟

لكن المتهم ذا الوضع اليائس رفض الإجابة ونظر إليه بتحدٍّ؛ فسيق عندئذ إلى الحمّالة، ولما كان صغير القامة، جرى إصعاده فوق صندوق صابون للتمكن من ربط معصميه. وقد تلقى ثلاث ضربات مقرعة، ثم اقتيد إلى المستوصف للحصول على العناية الطبية اللازمة.

يوم الخميس، كان يُنفخ بالبوق في حوش الاستراحة، وكنا نوقف ألعابنا بالكامل، متسمرين في أمكنتنا كالتماثيل، في حين يعلن النقيب هيندروم بواسطة مكبر للصوت أسماء الذين يجب أن يتقدموا يوم الجمعة للعقاب.

وقد أصبت بالذهول، حين نودي باسمي ذات خميس. لم أكن أستطيع تخيل ماذا فعلت مع ذلك، راح قلبي يخفق، لسبب لست أعرف ما هو، وربما لأني كنت في قلب مأساة. وقد تقدمت يوم المحاكمة، لأسمع المدير يعلن:

ـ أنت متهم بإشعال النار في المراحيض.

لم يكن ذلك صحيحاً. كان بعض الصبية قد أشعلوا قصاصات ورق على البلاط، وفيما كانت تشتعل دخلت إلى المراحيض، لكنني لم ألعب أي دور في ما حدث.

أضاف المدير: مذنب أنت أم بريء؟

وفي ذروة العصبية، وتحت تأثير قوة لا تُقاوَم، تمتمت:

ـ مذنب!

لم أكن أحس بالضغينة، أو بالظلم، بل كان لدي شعور بمغامرة مريعة حين اقتادوني نحو المكتب، وضربوني على قفاي ثلاث ضربات. كان الألم من الشدة بحيث قطع أنفاسي، لكنني لم أصرخ. ومع أن الألم أصابني بالشلل، كنت أحس بالشجاعة والانتصار حين حملوني إلى الفراش قبل نقلي إلى المستوصف.

كان سيدني يشتغل في المطبخ، لذا لم يعرف بالموضوع إلا في يوم العقاب، حين دخل مع الآخرين إلى قاعة الجمناز، وأحس بالهلع وهو يرى رأسي يرتفع من خلف المكتب. وقد روى لي في ما بعد أنه بكى من الغيظ حين تلقيت ضربات العصا الثلاث.

كان الأخ الأصغر يتحدث عن الشقيق الذي يكبره سناً، وهو يقول: «أخي الصغير»، وهو الأمر الذي كان يعطيه الاعتزاز وشعوراً ما بالأمن. كنت أرى إذاً، بين الحين والحين، «أخي

الصغير»، سيدني، لدى مغادرة غرفة الطعام. ولما كان يعمل في المطابخ، كان يعطيني خفيةً رغيفاً صغيراً مقسوماً إلى قسمين، مع قطعة زبدة كبيرة في وسطه. وكنت أضعه تحت صدريتي، خلسةً، وأتقاسمه مع أحد رفاقي. لم نكن نجوع، لكن تلك القطعة الكبيرة من الزبدة كانت ترفاً غير عادي. إلا أن هذه الحلويات لم يكن مقيَّضاً لها الاستمرار، إذ غادر سيدني هانويل للالتحاق بالسفينة ـ المدرسة **إكسماوث**.

كان يمكن ولداً من نزلاء المأوى، حيث يبلغ الحادية عشرة من العمر، أن ينخرط في الجيش أو في البحرية. فإذا اختار البحرية، كان يُرسل إلى متن **الاكسماوث**. وبالطبع، لم يكن ذلك إجبارياً، لكن سيدني كان يريد العمل في البحرية. وهكذا وجدت نفسي وحيداً في هانويل.

إن الشَّعر يشكل عنصراً أساسياً في شخصية الأولاد. وأنت تبكي كثيراً حين يقصّونه لك للمرة الأولى. وأياً تكن الطريقة التي ينمو بها، مشعَّثاً، أو قاسياً أو مجعَّداً، تشعر بأنهم ينتزعون جزءاً من ذاتك.

كان هنالك وباء قرع في هانويل، ولما كان مرضاً معدياً جداً، جرى إرسال المصابين به إلى جناح المعزولين الذي يطل على حوش الاستراحة، وغالباً ما كنا نتطلع عبر النوافذ ونرى أولئك التعساء ينظرون إلينا بحنين، وقد حلق رأسهم بالكامل ودُهن بصبغة اليود. كان ذلك مشهداً بشعاً، وكنا ننظر إليهم بازدراء.

لذا حين وقفت ممرضة ورائي فجأة في قاعة الطعام لتفحُّص شعري وصاحت: «داء القرع!»، أجهشت بالبكاء. هذا وقد استغرق العلاج أسابيع بدت لي كأنها الأبدية. حلقوا شعري ودهنوا رأسي بصبغة اليود، ورحت أعتمر منديلاً معقوداً حول الجمجمة كما يفعل قاطفو القطن. لكن ما لم أكن أريد أن أفعله، فهو التطلع من النافذة، على طريقة الأولاد الآخرين المحتجزين في الجناح، لأني كنت أعرف بأي ازدراء كنا نعامَل.

جاءت أمي لزيارتي خلال عزلي. كانت نجحت، لا أدري كيف، في مغادرة المأوى، وراحت تبذل جهوداً لتأمين بيت لنا. كان حضورها يشبه باقة زهر، فلقد بدت غضة وفاتنة إلى حد أني شعرت بالخجل من هيئتي غير المعتنى بها ومن رأسي الحليق، المدهون بصبغة اليود.

ــ أعذريه إذا كان وجهه متسخاً، قالت الممرضة. فراحت أمي تضحك، وأنا أتذكر بأي حنان شدتني بين ذراعيها وعانقتني وهي تقول:

ــ أنا لا زلت أحبك، رغم وساختك.

بعد ذلك بفترة قصيرة، غادر سيدني **الإكسماوث**، وخرجت من هانويل، واستعدنا أمّنا. كانت قد استأجرت غرفة خلف كيننغتون پارك، ونجحت خلال بعض الوقت في تأمين معيشتنا. لكن سرعان ما عدنا إلى المأوى. أما سبب ذلك فعائد إلى الصعوبات التي لاقتها أمي في إيجاد عمل، وإلى تباطؤ نشاط والدي الفني. خلال ذلك الفاصل، لم ننفك نتنقل من غرفة

صغيرة إلى أخرى، حتى أن المرء ليقول إنها مباراة في الداما: لقد أعادتنا الحركة الأخيرة إلى المأوى.

لما كنا غيّرنا الخورنية، أرسلونا إلى مؤسسة أخرى، ومن هناك إلى مدرسة نوروود، وكانت أشد شؤماً من هانويل، مع أوراق أشد قتامة، وأشجار أعلى. ربما كان للريف الذي يحيط بها أبّهة أعظم، لكن الجو كان يفتقر إلى الفرح. وذات يوم، فيما كان سيدني يلعب بكرة القدم، أخرجته ممرضتان من الملعب لتخبراه بأن أمي أصيبت بالجنون، وأرسلت إلى مأوى المجانين في كاين هيل. أما سيدني فحافظ على رباطة جأشه لدى سماعه الخبر واستعاد مكانه في الفريق. لكن ما إن انتهت المباراة، حتى انعزل في إحدى الزوايا واجهش في البكاء.

حين أخبرني بالأمر، لم أصدق. لم أبك، لكن اليأس أطبق عليَّ. لماذا فعلت ذلك؟ أمي، المرحة، والمليئة بالحيوية، كيف أمكنها أن تصاب بالجنون؟ كان لديَّ انطباع غامض بأنها تخلصت من عقلها عن سابق إصرار وتصميم، وتخلت عنا. وفي يأسي، كنت أتخيلها تنظر إليّ بصورة مثيرة للرثاء، قبل أن تسقط في الفراغ.

تلقينا النبأ رسمياً بعد أسبوع، حين أعلمونا بأن المحكمة قررت أن يتحمل والدي عبء الاهتمام بنا، أنا وسيدني. وقد كانت فكرة العيش معه تثيرني كثيراً. لم يكن سبق أن رأيته إلا مرتين في حياتي، مرة وهو على المسرح، وأخرى حين كنت أمر أمام منزل في كيننغتون رود، واجتاز هو الحديقة مع إحدى السيدات. كنت قد توقفت آنذاك لتأمله، عارفاً بغريزتي أنه أبـي. أومأ إليَّ كي أقترب وسألني عن اسمي. وبوعي مني لما في الوضع من طابع مسرحي، تصنعت البراءة وأجبْت: «شارلي شابلن». فتطلع عندئذ إلى السيدة، بنوع من التواطؤ، وفتش في جيبه وأعطاني نصف كورون. وقد عدت للتو إلى البيت لأقول لأمي إني التقيت والدي.

وإذا بنا الآن سنعيش معه! مهما يكن، كانت كيننغتون رود مكاناً مألوفاً وغير غريب وقاتم كنوروود.

حملونا في عربة الخبز إلى ٢٧٨، كيننغتون رود، وبالتحديد إلى المنزل الذي سبق أن رأيت أبـي يجتاز الحديقة أمامه. وقد فتحت لنا الباب السيدة التي كانت معه في ذلك اليوم. ورغم هيئتها المتعبة والكئيبة قليلاً، كانت فاتنة، وطويلة ومتناسقة، مع شفتين ممتلئتين وعيني ظبية حزينتين. ومن المؤكد أنها بلغت الثلاثين من العمر. أما اسمها فلويز، وقد أعلمتنا بأن السيد شابلن غائب، لكن بعد إتمام الشكليات المعتادة وتوقيع أوراق شتى، عهدوا بنا إلى لويز التي صعدت بنا الدرجات القليلة المفضية إلى غرفة الاستقبال. كان ولد صغير يلعب على السجادة حين دخلنا، ولد جميل جداً في الرابعة من عمره له عينان كبيرتان قاتمتان وشعر داكن ومجعّد: كان ابن لويز، وبالتالي أخي غير الشقيق.

كانت العائلة تعيش في غرفتين، ومع أنه كان للغرفة الأمامية نوافذ كبيرة، كان الضوء يدخل إليها قليلاً كما في أكواريوم. وكان كل شيء بكآبة لويز. فورق الجدران كان يبدو كئيباً، وكذلك الأثاث، كما أن سمكة الزنجور المصبَّرة في الواجهة الزجاجية، والتي ابتلعت سمكة

زنجور أخرى لا تقل حجماً عنها ـ كان رأسها يبرز من شدقها ـ، كانت تبدو كئيبة بصورة مريعة.

كانت لويز قد وضعت في الغرفة الخلفية سريراً إضافياً لسيدني ولي، لكنه كان صغيراً جداً، فاقترح سيدني أن ينام على ديوان غرفة الاستقبال.

ــ سوف تنام حيث نقول لك، أعلنت لويز.

ساد صمت مزعج وعدنا إلى غرفة الجلوس. لم نكن نحظى باستقبال حماسي، ولا شيء يدهش في ذلك. فنحن حللنا فجأة بمثابة عبء، وكنا ولدي الزوجة المهجورة.

بقينا كلانا جالسين بصمت، نتأمل لويز ترتب المائدة.

ــ عجباً!، قالت لسيدني، يمكنك أن تكون مفيداً بالمضي وملء دلو الفحم. وأنت ـ أضافت وقد استدارت نحوي ـ إذهب إلى محل السمانة بمحاذاة محل الأيِّل الأبيض، واشترِ علبة لحم بقر بشلن.

كنت سعيداً جداً بالتواري والإفلات من ذلك الجو الممض، لأن الخوف بدأ يتسلل إلى نفسي وتأسفت لكوني غادرت نوروود.

وصل أبي متأخراً قليلاً، واستقبلنا بحرارة. كان يسحرني. فخلال الطعام، كنت أراقب كلاً من حركاته، وطريقته في الأكل وفي الإمساك بسكينه لقطع اللحم كما لو كان قلماً. وبقيت أقلده على مدى سنوات.

حين شرحت لويز أن سيدني يتذمر من قياسات السرير، اقترح أبي أن ينام سيدني على ديوان الصالون. وقد أثار انتصار سيدني هذا عداء لويز، التي لم تغفره له بتاتاً، وكانت تتذمر منه دائماً لدى أبي. ومع أنها كانت عابسة ومنفِّرة، لم تضربني يوماً، ولا هددتني بالضرب، لكن لما لم تكن تحب سيدني، كنت أخافها وأخشاها. كانت تفرط في الشرب، وهو الأمر الذي زاد من مخاوفي.

وحين كانت تسكر، كان يبدو عليها أنها لا تفقه ما تفعل، وكان ذلك مذهلاً. كانت تبتسم بطريقة لاهية وهي تتطلع إلى صغيرها ذي الوجه الملائكي، الذي كان يفرط في توجيه الشتائم والفظاظات إليها. وأنا لا أعرف لماذا لم تكن هناك أي علاقة بيني وبين هذا الأخير. فمع أنه كان أخي غير الشقيق، لا أذكر أني تبادلت معه كلمة واحدة في يوم من الأيام، لكن من المؤكد أني كنت أكبر منه بأربع سنوات تقريباً. وحين كانت لويز تشرب أحياناً، كانت تبقى جالسة، مقطبة الوجه، وكنت أعيش عندئذ مرتاعاً. لكن سيدني لم يكن يوليها أي اهتمام، وكان يعود عموماً متأخراً. أما أنا فكانوا يجبرونني على العودة مباشرة من المدرسة، للتبضع والقيام ببعض الأشغال البسيطة.

كانت لويز ترسلنا إلى مدرسة كيننغتون رود، وهو ما كان يغيرني قليلاً أيّاً يكن، لأن وجود أولاد آخرين كان يشعرني بأني أقل وحدة. ويوم السبت، لم نكن نشتغل إلا صباحاً، لكني لم أكن أنظر إلى ذلك باستمتاع، لأنه كان يعني بالنسبة لي العودة إلى البيت لفرك الأرضية الخشبية

وتنظيف السكاكين، فضلاً عن أن لويز كانت تنصرف دائماً إلى الشرب في ذلك اليوم. وفي حين كنت أصقل السكاكين، كانت تستقبل إحدى صديقاتها، فتشرب، وتبدي مرارتها، وتتذمر علانية لكونها مضطرة للاهتمام بـي وبسيدني، وهو أمر كـانت تعتبره ظلمـاً. وأنا أذكـر أني سمعتها تقول: «مع هذا (أي معي أنا)، لا بأس، لكن الآخر قذر صغير يجب إرسالـه إلى إصلاحية... وفي كل حال، هو ليس حتى ابن شارلي». وهذه الطريقة في تحقير سيدني كانت تخيفني وتُمِضُّني، وكنت أذهب إلى السرير أتمدد عليه من دون أن أتمكن من النوم. لم أكن بلغت الثامنة من العمر، لكن تلك الأيام كانت بين الأطول والأشد كآبة في حياتي.

وكان يحصل أحياناً، في مساء السبت، حين كنت أشعر بنفسي خائر العزم إلى أبعد الحدود، أن تصل إلى مسمعي، عبر نافذة الغرفة الخلفية، موسيقى أكورديون مثيرة للطرب. كان اللحن لحن سير أسكوتلندياً، وسط الصيحات الصـاخبة التي يـطلقها بعض الشبـان، وضحكات بائعات متجولات. كان ذلك القدر من الحماس والحيوية يبدو لا مبالياً بصورة قاسية حيال تعاستي، ومع ذلك كلما كانت الموسيقى تبتعد، كنت آسف لأني لم أعد أسمعها. وفي بعض الأحيان، كان دلاّلٌ يمر: كان يبدو أن ثمة واحداً بوجه خاص، يصيح كل مساء بعبارة: «Rule Britannia»، منهياً صراخه بنوع من الغمغمة، لكنه كان يبيع في الواقع محاراً. ومن الحانة، على بعد ثلاثة أبواب، كانت تصلني أصوات الزبائن عنـد ساعـة الاقفال، وكـانوا سكارى يغنون، بأصوات عالية أغنية مكرورة اشتهرت في تلك الفترة:

For old times' sake don't let our enimity live
For old times' sake you'll forget and forgive,
Life's too short to quarrel,
Hearts are too precious to break.
Shake hands and let us be friends
For old time's sake.

إكراماً للمودة القديمة، لا نبقَيَنَّ متعادين،
إكراماً للمودة القديمة، انسوا وسامحوا
فالحياة أقصر من أن نمضيها في المشاحنات،
والقلوب ثمينة فلا نكسرنَّها.
لنتصافح ولنكن أصدقاء
إكراماً للمودة القديمة.

لم أحب يوماً إبداء العواطف، لكن تلك الأغنية كانت تبدو لي مناسبة تماماً للظروف الكئيبة التي كنت أعيش فيها، وكانت بالنسبة لي مثل هدهادة.

حين كان سيدني يعود متأخراً، وكان ذلك يحدث دائماً تقريباً، كان يغزو النملية قبل أن ينام، الأمر الذي كان يثير غضب لويز. وذات مساء، وكانت قد شربت، دخلت إلى الغرفة، وانتزعت الأغطية عن سريره وأمرته بأن يغادر. لكن سيدني كان يتوقع ذلك، فسارع إلى إدخال يده تحت المخدة وشهر «خنجراً»، فتاحة قناني طويلة كان قد صقل حدَّها.

ـ اقتربي، قال لها، وأغرز هذا في جسمك!

فتراجعت، مذهولة، وهي تقول: «يا للوسخ الصغير!.. يريد أن يقتلني!

ـ بالضبط، أريد أن أقتلك! قال سيدني بلهجة درامية.

ـ انتظر قليلاً ريثما يعود السيد شابلن!

لكن نادراً ما كان السيد شابلن يعود. غير أني أتذكر لويز ووالدي، وكانا قد شربا مساء أحد أيام السبت، لسبب لا أعرفه، وكنا جالسين جميعاً مع المالكة وزوجها في غرفة استقبالهم في الطابق الأرضي. كان أبي شديد الشحوب، تحت الإضاءة على الغاز. ولما كان متكدر المزاج، فقد كان يتمتم كلاماً غير مفهوم. فجأة، أدخل يده في جيبه، وسحب منها حفنة من المال ورماها بعنف على الأرض، فتبعثرت القطع الذهبية والفضية في كل الاتجاهات. وكان التأثير غير عادي، إذ بقي الجميع دون حراك، وبقيت المالكة جالسة مقطبة الوجه، لكنني فاجأت عينيها المتفحصتين تلاحقان جري جنيه ذهبي وصولاً إلى تحت أحد المقاعد، في إحدى زوايا الغرفة؛ وكانت عيناي تلاحقانه أيضاً. ولما كان الجميع ظلوا متسمرين في مقاعدهم، قلت في نفسي إنه يَحْسُن بي البدء بجمع القطع، وراح الآخرون، والمالكة من بينهم، يحذون حذوي، وهم حريصون على فعل ذلك علانية تحت نظرة والدي المهدِّدة. وذات سبت، بعد المدرسة، عدت إلى البيت فلم أجد أحداً. فكالعادة، كان سيدني ذهب للعب بكرة القدم طيلة النهار، وأعلمتني المالكة بأن لويز وطفلها خرجا منذ الصباح الباكر. ولقد كان رد فعلي الأول أني أحسستني مثلج الصدر، لأن ذلك كان يعني أنه لن يكون عليَّ أن أفرك البلاط أو أن أنظف السكاكين. انتظرت طويلاً بعد ساعة الغداء، ثم بدأت أشعر بالقلق، فربما تخلوا عني؟ وكلما تقدم الوقت، بعد الظهر، كنت أفتقدهم أكثر فأكثر. ما الذي حدث، يا ترى؟ كان مظهر الغرفة مشؤوماً وقليل الحفاوة، وكان فراغها يخيفني. ثم بدأت أحس بالجوع، فنظرت إلى النملية، لكني لم أجد فيها شيئاً. كنت عاجزاً عن أن أتحمل مشهد تلك الأبواب المشرعة على الفراغ وقتاً أطول، فخرجت بعد أن بلغت كآبتي أوجها، وأمضيت ما بعد الظهر بزيارة الأسواق المجاورة. رحت أتسكع في لامبث ووك والكات، مرسلاً نظرات جائعة إلى واجهات محلات الأطعمة، التي تتصدرها مشويّات ساخنة ومغرية، من لحم العجل كما من لحم الخنزير، وبطاطا ذات سمرة مذهبَّة، تغوص في الصلصة. وقد بقيت ساعات طوالاً أتأمل المشعوذين يبيعون وصفاتهم، وقد هدّأ شرودي هذا من روعي، ونسيت لبعض الوقت حالتي البائسة والجوع الذي كان يعضني.

حين عدت إلى البيت، كان الليل قد حل. قرعت على الباب، لكن لم يجب أحد، فالجميع كانوا قد خرجوا. وتحت وطأة الإذلال، ذهبت إلى زاوية كيننغتون كراس وجلست على الرصيف، غير بعيد عن المنزل لمراقبة ما إذا كان أحد يعود. كنت متعباً وبائساً، ورحت أتساءل أين هو سيدني. اقترب منتصف الليل، وكان كيننغتون كراس مقفراً باستثناء عابر سبيل أو عابرين متأخرين. وبدأت أضواء المحلات تنطفىء، ما عدا أضواء الصيدلي والحانات، وشعرت بنفسي يائساً حقاً.

فجأة تعالت أصوات الموسيقى، وكانت مثيرة للنشوة! كانت تجيء من حانة الأيّل الأبيض، وتتصادى بمرح في الساحة المقفرة. كانت أغنية صريمة الجدي والنحلة (The Hon-ey suckle and the Bee) وهي تعزف بمهارة رائعة على آلتي الهارمونيوم والكلارينيت. لم أكن أعرت انتباهي من قبل لنغم ما، لكن هذا النغم كان جميلاً وغنائيا، وعلى درجة من المرح والحيوية والحرارة وإثارة الطمأنينة بحيث نسيت يأسي وقطعت الشارع للانضمام إلى الموسيقيين. كان عازف الهارمونيوم أعمى، مع محجرين فارغين ومخيطين ثمة حيث كان يجب أن تكون له عينان؛ وكان رجل ذو وجه مخبَّل ومرير يعزف على الكلارينيت.

انتهى ذلك بسرعة كبيرة وترك رحيل الموسيقيين الليل أكثر حزناً. كنت متعباً، وساقاي رخوتين، فقطعت الساحة عائداً إلى البيت، من دون الاهتمام بمعرفة ما إذا كنت سأجد أحداً أو لن أجد، إذ كان كل ما أريده هو أن أذهب وأنام. ثم ميّزت بصورة غامضة شبحاً يجتاز الحديقة عائداً إلى البيت. كانت لويز ومعها صغيرها الذي كان يركض أمامها، فهزني أن ألاحظ أنها تعرج بشدة وتنحني إلى جهة واحدة. ظننت بادىء ذي بدء أنها جرحت ساقها بسبب حادث ما، ثم أدركت أنها متعتعة من السكر. لم أكن رأيت بعد سكارى يسيرون مترنحين، وفي الوضع الذي كانت فيه، رأيت من الأفضل ألا تراني وانتظرت أن تكون دخلت. وبعد لحظات، جاءت المالكة ودخلت معها. وفي حين كنت أصعد بخطى غير مسموعة الدرج غير المضاء، آملاً أن أنام من دون أن يراني أحد، خرجت لويز مترنحة إلى قرص الدرج، وصاحت بي:

ــ ماذا تفعل هنا؟ هذا ليس بيتك!»

فبقيت صامتاً، فتابعت صياحها:

ــ لن تنام هنا هذا المساء. لم أعد أستطيع تحملكم، أنتم جميعاً! إذهبا من هنا، أنت وأخوك! فليهتم والدك بكما!

ولم أتردد في العودة أدراجي: نزلت من جديد وخرجت إلى الشارع. كنت قد تغلبت على تعبي، واستعدت أنفاسي. سبق أن سمعت أن والدي يتردد على حان الرأس المتوّج في برينسز رود، على بعد أقل من كيلومتر، فتوجهت إلى هناك، على أمل أن أجده. لكني لم أتأخر في رؤية خياله مقترباً، على ضوء المصباح.

قلت له وأنا أبكي:

ــ لا تريد أن تسمح لي بالدخول، وأظن أنها شربت.

توجهنا إلى البيت ورأيت أنه هو الآخر يسير بتثاقل.

ــ أنا أيضاً لست صائماً تماماً، قال.

فحاولت إقناعه بالعكس، لكنه تمتم بلهجة فيها وخز ضمير:

ــ لا، أنا بحالة السكر.

فتح باب الصالون، وتسمّر هناك، صامتاً ومهدِّداً، وهو ينظر إلى لويز. كانت واقفة،

متشبثة بالمدخنة ومترنحة على ساقيها، فقال لها:

ــ لماذا لم تسمحي له بالدخول؟

فتطلعت إليه بذهول، وتمتمت:

ــ أنت أيضاً، يمكنك أن تكشف. . . . أنفسكم كلكم على حقيقتها!

فجأة، أخذ أبـي فرشاة ثياب ثقيلة موضوعة على الصُوان ورمى بها بقوة، فأصاب خشبها لويز على وجهها، فأغمضت عينيها ووقعت أرضاً بلا حراك محدثة ضجة مخنوقة، كما لو كانت تتلقى بصدر مثلج هذه السقطة في النسيان.

هزتني البادرة التي صدرت عن أبـي بعمق، ذلك أن عنفاً من هذا النوع أفقدني كل احترام له. أما ما حدث بعد ذلك، فأكاد أتذكره. أظن أن سيدني وصل بعد قليل، وأن أبـي جعلنا ننام نحن الإثنين، ثم غادر المكان.

عرفت بعد ذلك أن أبـي ولويز كانا قد تشاجرا عند الصباح، لأنه تركها لإمضاء النهار مع أخيه، سبنسر شابلن، الذي كان يملك عدة حـانات في حي لامبث. ولما كان الوضع الذي تعيش فيه لويز يضايقها، لم تكن تحب زيارة بيت سبنسر شابلن، لذا كان أبـي يذهب وحده إلى هناك، بينما تمضي لويز النهار في مكان آخر، انتقاماً.

كانت تحب أبـي. فمع أني كنت لا أزال صغيراً، أدركت ذلك وأنا أرى نظرتها ذلك المساء حين كانت واقفة أمام المدخنة، مذهولة وجريحة بسبب تخليه عنها. وأنا واثق من أنه كان يحبها هو الآخر، فلقد رأيت العديد من الاثباتات. كان يعرف أحياناً أن يكون فاتناً وحنوناً، وأن يتمنى لها مساء سعيداً قبل الذهاب إلى المسرح. وفي أيام الأحد، صباحاً، حين لا يكون قد شرب، كان يفطر معنا، راوياً للويز أدوار الفنانين الآخرين الذين كانوا يعملون معه، وكنا نصغي إليه جميعنا بشغف. كنت أراقبه كصقر، ملتهماً كلاً من حركاته. وفي أحد الأيام التي كان فيها طيِّب المزاج، لفّ منديلاً حول رأسه ولاحق ابنه الأصغر حول الطاولة وهو يقول:

ــ أنا روبارب، ملك تركيا.

حوالي الثامنة مساء، وقبل الذهاب إلى المسرح، كان يبتلع ست بيضات نيئة ممزوجة بخمرة البورتو، لكن نادراً ما كان يتناول طعاماً مغذياً. هكذا كان يمد نفسه بالقوة يوماً بعد يـوم. نادراً ما كان يعود إلى البيت، وحين يفعل ذلك، إنما لينام بعد الخمر الذي ابتلعه.

تلقت لويز ذات يوم زيارة جمعية الوقاية من القساوة ضد الأولاد، وهو الأمر الذي أثار غضبها الشديد. كان هؤلاء الناس قد جاؤوا لأن الشرطة أعلنت أنها وجدتنا، أنا وسيدني، نائمين في الثالثة صباحاً قرب أحد الحدائق. حدث ذلك في ليلة أغلقت فيهـا لويـز الباب بوجهنا، فأجبرتها الشرطة على أن تفتح لنا وتتركنا ندخل.

لكن بعد ذلك بقليل، وفي حين كان أبـي يمثِّل في إحدى المقاطعات، تلقت لويز رسالة تعلن أن أمي غادرت مأوى المجانين. وبعد يوم أو يومين، جاءت المالكة تعلمنا بأن هنالك

سيدة في الأسفل تسأل عن سيدني وشارلي.

ـ هذه أمكما، قالت لويز.

كانت هنالك لحظة من الإرتباك، ثم نزل سيدني الدرج بسرعة وارتمى بين ذراعيها، وأنا عند قدميها، عثرنا من جديد على الأم ذاتها، اللطيفة والباسمة، التي شدتنا إلى صدرها بشغف.

كانت لويز وأمي مترددتين جداً في التلاقي، لذا انتظرت أمي في الخارج، في حين كنت أنا وسيدني نجمع أغراضنا. لم يكن هنالك عداوة أو بغضاء لدى أي من الطرفين: وفي الحقيقة، أبدت لويز درجة عالية من اللطف، حتى حيال سيدني حين ودعته.

كانت أمي استأجرت غرفة في أحد الشوارع الصغيرة خلف كيننغتون كراس، قرب معمل معلبات هايوارد، الذي كان ينتج الخيار المخلل والخردل، وكانت رائحة الخل الحمضية تملأ الجو كل يوم بعد الظهر. لكن المأجور كان رخيصاً وكنا قد اجتمعنا من جديد. كانت صحة أمي ممتازة ولم نكن نفكر بتاتاً بأنها سبق أن مرضت.

ليست لدي أدنى فكرة عن الطريقة التي عشنا بها في تلك الفترة. إلا أني لا أتذكر محناً قاسية بوجه خاص أو مشكلات غير قابلة للحل. كان أبي يدفع العشرة شلنات بانتظام تقريباً، وبالطبع كانت أمي استأنفت أعمال الخياطة وأعادت صلتها بالكنيسة.

بيد أني أحتفظ من تلك الفترة بذكرى حادث صغير. كان هنالك مسلخ في طرف شارعنا، وكانت الخراف تمر أمام بيتنا قاصدة إياه. أذكر أن أحدها أفلت وهرب في الشارع، مثيراً بهجةالمتسكعين. وقد حاول البعض الامساك به، وتعثر آخرون. كنت أضحك وأنا أرى الخروف يقفز ويجن وهو يثغو، لشدة ما كان ذلك هزلياً. لكن حين أمسكوا به من جديد وأعادوه إلى طريق المسلخ، نزل واقع تلك المأساة بثقله على نفسي وهرعت إلى الغرفة باكياً وأنا أصرخ بأمي: «سوف يقتلونه! سوف يقتلونه!» وقد بقيت على مدى أيام أتذكر ما بعد ذلك الظهر الربيعي وتلك المطاردة الهزلية؛ وأتساءل إذا لم يكن ذلك الحدث يحتوي على مبدأ أفلامي اللاحقة: الجمع بين المأساوي والهزلي.

كانت المدرسة تفتح لي الآن آفاقاً جديدة، هي التاريخ، والشعر والعلم. لكن موضوعات أخرى كانت ركيكة ومثيرة للضجر، لا سيما الحساب: كان الجمع والطرح يجعلانني أفكر بمستخدم خلف صندوق تسجيل، دورُه الرئيسي، كما كان يبدو لي، هو منع الزبون من أن يتعرض للسرقة حين يعاد له ماله.

ولم يكن التاريخ غير عنف وفساد، وسلسلة متعاقبة من قتل الملوك، ومن الملوك الذين يقتلون نساءهم وإخوتهم وأبناء إخوتهم؛ ولم تكن الجغرافيا غير خرائط؛ أما الشعر فلم يكن أكثر من رياضة للذاكرة. كان التعليم يدهشني بمعارف ووقائع لم تكن تهمني إلا قليلاً.

بيد أنه لو كلف أحدهم نفسه مشقة أن يقرأ لكل مادة مقدمة حافزة من شأنها إثارة ذهني، وأن يغذيني بالتخيلات بدلاً من الوقائع، ويسليني ويحيّرني عن طريق صنع حيل بواسطة الأرقام، أو خرائط خيالية بعض الشيء، لو أُعطيتُ وجهة نظر مبتكرة حول التاريخ، ولو جرى تعليمي موسيقى الشعر، ربما كنت صرت علاّمةً.

مذ عادت أمي إلينا، عاودت حفز اهتمامي بالمسرح. كانت تقنعني بأنه لا تنقصني الموهبة. لكن فقط في الأسابيع التي سبقت عيد الميلاد، حين أخرجت المدرسة قصة سندريلا، فقط حينئذاك شعرت بالحاجة إلى التعبير عن كل ما كانت أمي علمتني إياه. فلسبب لا أعرفه لم أكن مشاركاً في التمثيل، وقد أثار ذلك غيرتي، وكنت أعتبر أني أقدَر على لعب دور في القطعة من أولئك الذين كُلِّفوا بذلك. رحت أنتقد التمثيل الكئيب والفاقد للخيال الذي كان يقوم به الفتيان. كانت الأخوات الشريرات يفتقدن الحيوية وحس الكوميديا. كن يقلن أجوبتهن بنبرة تفوح منها رائحة المدرسة ويشددن على بعض المقاطع بصوت ناشز مزعج. كم كان بودي أن ألعب دور إحدى الأخوات الشريرات، مستفيداً من الدروس التي كان في وسع أمي أن تعطيني إياها! غير أني كنت مأخوذاً بالفتاة التي لعبت دور سندريلا. كانت جميلة، ومرهفة، وفي الرابعة عشرة من عمرها، وكنت مشغوفاً بها في قرارة نفسي. لكني كنت عاجزاً عن الوصول إليها، سواء على المستوى الاجتماعي أو بسبب فارق العمر.

حين حضرت العرض، وجدت التمثيل تعيساً، مثيراً للحزن، ما عدا جمال البطلة، الذي جعلني أميل قليلاً إلى الكآبة. لكني كنت واثقاً من النصر المجيد الذي سوف أتذوقه بعد شهرين حين مرروني على كل الصفوف لإلقاء هر الآنسة بريسيلا. كان الأمر يتعلق بمونولوج رأته أمي في مكتبة صغيرة ووجدته طريفاً بحيث نسخته عبر الواجهة لتأتي به إلي. وخلال إحدى الاستراحات، كنت ألقيه أمام أحد رفاقي، حين توقف المستر رايد، استاذنا، عن عمله، واستمتع إلى حد أنه، حين استعاد كل مكانه، جعلني ألقي الحكاية التي أثارت عواصف من الضحك. وقد ذاعت شهرتي بعد ذلك إلى حد أنهم داروا بي في اليوم التالي على الصفوف، لألقي أمام الأولاد والفتيات ذلك المونولوج.

كنت أديت في السابق دوراً للحلول محل أمي أمام الجمهور، في الخامسة من عمري، لكن كانت تلك هي المرة الأولى التي أتذوق فيها المجد بصورة واعية. لقد باتت المدرسة مكاناً مثيراً للشغف، فمن ولد صغير مغمور وخجول صرت مركز الاهتمام سواء بالنسبة للأساتذة أو بالنسبة للتلاميذ. وحتى نوعية دروسي تحسنت بسبب ذلك. لكن كان لا بد من الانقطاع عن تلقي العلم حين انضممت إلى فرقة راقصي مطقطقات[1] تحمل اسم **The Eight Lancashire Lads**.

(١) رقصة المطقطقات رقصة أميركية تعتمد قرع الأرض بحذاء محدد الرأس والكعب (م).

كان أبـي يعرف المستر جاكسون، الذي كان يقود الفرقة، وأقنع أمي بأنها ستكون بداية جيدة لي أن أحترف المسرح وأساعدها بذلك بفضل الأجر الذي سأحصل عليه: سوف أحصل على المسكن والغذاء، بينما تقبض أمي نصف كورون أسبوعياً. وقد أخذت جانب الحذر في البدء، إلى اليوم الذي تعرفت فيه إلى المستر جاكسون وعائلته، فوافقت.

كان المستر جاكسون في الخامسة والخمسين، وسبق أن كان مدرِّساً في لانكشاير، وكان لديه ثلاثة صبية وفتاة، وكانوا جميعاً أعضاء في فرقة **Eight Lancashire lads**. كان كاثوليكياً ممارساً، وبعد وفاة زوجته الأولى، استشار أولاده قبل أن يتزوج من جديد. أما زوجته الثانية فكانت أكبر منه قليلاً، وقد روى لنا بورع في أي ظروف اقترن بها. كان قد وضع إعلاناً في إحدى الصحف عن رغبته بالزواج وتلقى أكثر من ثلاثمئة رسالة. وبعد أن صلى للسماء كي توجِّه خطواته، لم يفتح غير رسالة واحدة، كانت رسالة السيدة جاكسون. هي أيضاً كـانت مدرِّسة، وكما لو أن الأمور حدثت استجابة لصلاته، كانت هي الأخرى كاثوليكية.

لم تكن الطبيعة قد حبت السيدة جاكسون جمالاً فاتناً، كما لم يكن بالإمكان القول إنها توحي باللذة. وأنا أحتفظ منها بذكرى وجه شاحب ومهزول، وقامة شديدة الهزال، مع جلد مجعَّد، ربما لأنها وَلدت للمستر جاكسون طفلاً في سن متقدمة جداً. إلا أنها كانت زوجة مخلصة وذات ضمير حي، ومع أنها كـانت ترضـع طفلها، كـانت تبذل الكثيـر من الجهد للمساعدة في إدارة الفرقة.

أما الرواية التي أعطتهـا بصدد قصـة حبهما فكـانت تختلف قليلاً عن روايـة المستر جاكسون. كانا قد تبادلا الرسائل، لكنهما لم يشاهدا الواحد الآخر قبل يوم الزواج. وخلال أول مواجهة بينهما في الصالون، في حين كانت العائلة تنتظر في غرفة أخرى، قال المستر جاكسون: «أنت كل ما أرغب فيه»، وقدمت له الاعتراف نفسه. وفي الختام، قالت لنا بلهجة باردة بعض الشيء: «لكنني لم أكن أتوقع أن أصبح في الحال أماً لثمانية أولاد».

كانت أعمار الأولاد الثلاثة تتراوح بين الثانية عشرة والسادسة عشرة، بينما كانت الإبنة في التاسعة من عمرها، مع شعر مقصوص كشعر صبـي، كي تتمكن من العمل ضمن الفرقة.

كل يوم أحد، كان الجميع، ما عداي، يذهبون إلى الكنيسة الكاثوليكية. ولما كنت البروتستانتي الوحيد، كنت أشعر بنفسي وحيداً، لذا كنت أرافقهم بين الحين والآخر. ولولا الاحترام الذي كانت توحي لي به وساوس أمي الدينية، كان بالإمكان أن أترك نفسي التحق بالكاثوليكية لأني كنت أحب صوفيتها، بالإضافة إلى المذابح الصغيرة التي يصنعها حرفيون، وتماثيل العذراء مريم المصنوعة من الجص، والمزينة بالزهور وبشموع مضاءة كان الأولاد ينصبونها في إحدى زوايا الغرفة، ويركعون أمامها في كل مرة يمرون فيها.

بعد ستة أسابيع من الدروس، جرى الحكم بأني قادر على الرقص مع الفرقة. لكن الآن وقد بات عمري ثماني سنوات، فقدت ثقتي بنفسي، وأعطتني مواجهة الجمهور شعوراً بالرهبة. بالكاد كان في وسعي أن أحرك ساقي. ولزمتني أسابيع قبل أن أتمكن من الرقص لوحدي كما الحال مع الآخرين.

لم أكن سعيداً بصورة خاصة بكوني لا أكثر من راقص مطقطقات في فرقة من ثمانية أشخاص. مثلهم جميعاً، كان لدي الطموح لتأدية دور خاص بـي، ليس فقط لأن ذلك كان يعني المزيد من المال، بل لأني أيضاً كنت أشعر بالفطرة أن ذلك سيكون أكثر إرضاء من الرقص. كان بودي أن أكون ممثلاً كوميدياً لكن ذلك كان يتطلب جرأة الوقوف على المسرح منفرداً. بيد أن أول رغبة لدي في القيام بشيء غير الرقص كانت تدفع بـي نحو الكوميديا. كان مثلي الأعلى دوراً يؤديه شخصان، ولدان بثياب متشردي مسرحية هزلية. وقد تحدثت بأمر ذلك مع ولد آخر وقررنا التشارك. بات ذلك حلمنا نحن الإثنين، وكنا سنتسمّى «بريستول وشابلن، المتشردين صاحبـي الملايين»، وكنا سنتباهى بعوارض متشردين وإلماسات كبيرة في الإصبع. وكان ذلك يجمع كل الوجوه الخاصة بما يكون في رأينا طريفاً وفي الوقت ذاته مُجْزياً، لكن حلمنا لم يتحقق، للأسف! على الإطلاق.

كان الجمهور يحب فرقة الـ Eight Lancashire Lads، لأننا، على حد قول المستر جاكسون، لم نكن نشبه بتاتاً أولاداً عباقرة. كان يؤكد باعتزاز أننا لم نخضع يوماً للماكياج، وأن ورد خدودنا كان طبيعياً. وإذا بدا أحدنا شاحباً قليلاً قبل الصعود إلى المسرح، كان يقول لنا بأن نقرص خدودنا. لكن في لندن، وبعد أن نكون اشتغلنا في مسرحي منوعات أو ثلاثة كل ليلة، كنا ننسى بين الحين والآخر، وكان يبدو علينا الملل والكآبة بعض الشيء على المسرح، إلى حين كنا نلاحظ المستر جاكسون في الكواليس، وهو يبتسم لنا ابتسامة عريضة مشيراً إلى وجهه، الأمر الذي كان يكهربنا في الحال، ويجعلنا نرسم فجأة على وجهنا ابتسامة غامرة.

وحين كنا نقوم بجولة في المقاطعات، كنا نذهب إلى المدرسة خلال الأسبوع في كل مدينة نجتازها، وهو ما ساهم قليلاً في صقل تعليمي.

وفي فترة عيد الميلاد، جرى التعاقد من أجل أن نؤدي أدوار القطط والكلاب في مسرحية إيمائية حول ساندريلا في ميدان خيل لندن. كان آنذاك مسرحاً جديداً، يجمع بين مسرح المنوعات والسيرك، مع إفراط في الديكور وآليات مثيرة. كانت أرضية الحلبة منحدرة، وكان

بالإمكان إغراقها بالماء بالكامل، وكان ذلك يتيح تأدية رقصات باليه مثيرة. وكان صف من الفتيات الجميلات بعد صف آخر، بلأمات برّاقة، يدخلن ليختفين بالكامل تحت الماء. وحين كان يغوص الصف الأخير، كان مارسلين، المهرج الفرنسي الكبير، يدخل بثياب مفصّلة بشكل سيىء وقبعة عالية، حاملاً قصبة صيد سمك، ويجلس على كرسي يُطوى، ويفتح صندوق جواهر كبيراً، ويعلق بمثابة طعم نهراً من قطع الألماس بصنارته ثم يدفع بالخيط إلى الماء. وبعد فترة، كان يضع طعوماً أقل أهمية، مطلقاً بعض الأساور لينتهي بإفراغ محتوى الصندوق. فجأة كان يعلق شيء ما، ويبدأ المهرج يدور حول ذاته بصورة هزلية للغاية، متخبطاً مع قصبته، لينتهي بأن يُخرج من الماء جعيداً[٢] مدرباً كان يقلد كل ما يفعله مارسلين؛ فإذا جلس هذا، يجلس الكلب؛ وإذا وقف على رأسه، يحذو الكلب حذوه. كان دور مارسلين فاتناً ومليئاً بالظرف، وسرعان ما أصبح المهرج مشهوراً في كل لندن. وقد أعطوني في مشهد المطبخ دوراً هزلياً صغيراً ألعبه معه. كنت هراً، وفيما كان مارسلين يتراجع أمام كلب، سقط من فوق ظهري بينما أنا أشرب الحليب. وقد كان يتهمني دائماً بأني لا أقوس ظهري كفاية لتخفيف سقطته. كنت أضع قناع هر تعبر ملامحه عن الدهشة، وقد ذهبت خلال الحفلة النهارية المعدة للأولاد لأشم قفا كلب. وحين بدأ الجمهور بالضحك، استدرت نحوه ونظرت إليه باندهاش، ساحباً شريطاً يجعلني أغمز بعيني. وبعد أن كررت مراراً هذا العمل، لاحظت مدير المسرح يقترب آتياً من الرواق، وهو يرسل إليّ من الكواليس إشارات حادة. لكني واصلت ما كنت بدأته، وبعد أن شممت الكلب، رحت أشم صف الأنوار، ثم رفعت القدم. وقد انفجر الجمهور بالضحك، ولا ريب أن سبب ذلك هو أن تلك الحركة لم تكن حركة هر. وقد نجح المدير أخيراً في لفت انتباهي، وخرجت قافزاً وسط التصفيق.

ـ لا تكرر هذا أبداً!، قال وهو مقطوع النَّفَس. وإلا سوف يقفل اللورد شامبرلن المسرح.

حققت ساندريلا نجاحاً كبيراً، ومع أن مارسلين لم يلعب دوراً أساسياً في الحبكة، فقد كان مركز الجذب. وبعد سنوات، ذهب مارسلين إلى ميدان خيل نيويورك، حيث لقي هناك أيضاً نجاحاً منقطع النظير. لكن حين ألغى ميدان الخيل حلبة السيرك، نسي الناس مارسلين سريعاً.

قرابة عام ١٩١٨، جاء السيرك ذو الحلبات الثلاث الخاص بالإخوة رينغلينغ إلى لوس أنجلس، وكان مارسلين عضواً في الفرقة. وقد كنت أنتظر رؤية اسمه في الطليعة، لكني فوجئت بملاحظة أنه كان واحداً، لا أكثر، من المهرجين العديدين الذين يركضون حول الحلبة الضخمة: كان فناناً كبيراً ضائعاً في الجنون المبتذل لسيرك بثلاث حلبات.

ذهبت إلى مقصورة الممثلين بعد العرض وعرّفت عن نفسي، مذكّراً إياه بأني لعبت دور الهر في ميدان خيل لندن معه، لكنه بالكاد أبدى اهتماماً. حتى تحت الماكياج، الخاص

(٢) كلب مجعّد الوبر، طويله (م).

بالمهرجين، كانت تبدو عليه ملامح الإحباط، غارقاً في ذهول كئيب.

بعد عام، انتحر في نيويورك. فقط بضعة أسطر في الصحف أعلنت أن مستأجراً في المبنى ذاته الذي يسكن فيه مارسلين سمع طلقاً نارياً واكتشفه ممدَّداً على الأرض، وفي يده مسدس، وأسطوانة لا تزال تدور فيما تصدح موسيقى **Moon light and Roses**.

لقد انتحر العديد من الكوميديين الإنجليز المشهورين. فت. إي. دنفيل، وكان كوميدياً مرموقاً، سمع أحدهم يقول ذات يوم، فيما هو داخل أحد الحانات: «هذا الشخص انتهى». ولم تمر عدة ساعات حتى كان يطلق رصاصة على رأسه على ضفة نهر التاميز.

والشيء ذاته فعله مارك شيريدان، أحد الكوميديين الإنجليز الأكثر شهرة، في حديقة عامة في غلاسغاو، لأنه لم يلق نجاحاً لدى جمهور المدينة.

وكان فرانك كوين، الذي كنا نمثل معه في برنامج واحد، كوميدياً، مرحاً ومليئاً بالحيوية، أعطته الشهرة أغنية مليئة بالفرح يقول فيها:

You won't catch me on the gee gee's back again,
It's not the Kind of horse that 1can ride on.
The only horse i know i can ride
Is the one the missus dries the clothes on!

لن تروني بعد اليوم ممتطياً حصاناً
فليس هذا هو النوع الذي أمتطيه.
الحصان الوحيد الذي أستطيع امتطاءه
هو ذلك الذي تجفف سيدة البيت ثيابه!

في المدينة كان ساحراً ودائم الابتسام. لكن بعد ظهر أحد الأيام، كان سيقوم بنزهة مع زوجته في عربتهما الصغيرة التي يجرها حصان، فنسي شيئاً ما، وقال لها أن تنتظره ريثما يعود. لكن مرت ثلث ساعة وهو لم يعد بعد، فذهبت لترى ما الذي يؤخره هكذا، ووجدته على بلاط غرفة الحمَّام، وسط بركة من الدم، وفي يده موسى حلاقة: كان قد ذبح نفسه، قاطعاً رأسه تقريباً.

بين الكثير من الفنانين الذين رأيتهم وأنا طفل، لم يكن الذين تركوا في نفسي تأثيراً عميقاً هم دائماً أولئك الذين حصلوا على النجاح، بل أولئك الذين كانت لهم في المدينة شخصية ليس لها نظير. فزارمو، البهلوان المتشرد، كان يفرض على نفسه نظاماً حديديا، ويقوم بأعمال الخفة على مدى ساعات كل صباح، ما إن يفتح المسرح أبوابه. كان يمكن رؤيته في الكواليس، وقضيب البليار في حالة توازن على ذقنه، فيما هو يطلق في الجو طابة بليار ويتلقاها على رأس قضيب البليار، ثم يطلق أخرى ويتلقاها من جديد فوق الأولى، وهو صنيع غالباً ما كان يخطئه. وقد أخبر المستر جاكسون ذات يوم أنه يقوم بهذا العمل منذ أربع سنوات، وينوي أن يجربه للمرة الأولى أمام الجمهور. وفي ذلك المساء،

كنا جميعاً في الكواليس نراقبه. وقد نجح تماماً، ومن المرة الأولى! أطلق الطابة وتلقاها على طرف قضيب البليار، ثم أطلق أخرى وتلقاها مجدداً فوق الأولى. لكن تصفيق الجمهور بقي فاتراً. وغالباً ما كان المستر جاكسون يروي قصة ذلك المساء. لقد قال لزارمو: «أنت تعطي الانطباع بأن دورك سهل جداً، ولا تهتم بالدعاوة. كان عليك أن تخطىء الهدف عدة مرات، ثم تصيب». فانفجر زارمو بالضحك، وقال: «لكني لا أملك إلى الآن ما يكفي من الكفاءة لأخطىء الهدف». وكان زارمو يهتم أيضاً بفراسة الدماغ[٣]، ويفسّر لنا شخصيتنا. وقد قال لي إني سأحفظ كل المعارف التي سأتمكن من كسبها، وسأجيد استخدامها.

ثم كان هنالك الأخوة غريفيث، الطريفون والمدهشون، الذين كانوا يحيّرونني: كانوا بهلوانيين كوميديين إذ يتأرجحون على أرجوحتهم يتبادلون لبطات غاضبة على الوجه بواسطة أحذية ضخمة مرخّاة.

ـ آي! قال ذلك الذي كان يتلقى الضرب. أتحداك أن تضرب من جديد!

ـ آه، نعم؟ خذها إذاً!

فأبدى الآخر دهشته وترنح وقال:

ـ إنه يضرب من جديد!

كان عنف بهذا الجنون يذهلني، لكنهم كانوا في المدينة إخوة متحابين، وهادئين وجديين.

لا ريب أن دان لينو كان أعظم كوميدي انجليزي منذ غريمالدي الأسطوري. ومع أني لم يسبق أن رأيت لينو في فتوتي، كان في رأيي ممثل تأليف أكثر مما كوميدياً. وإذا صدقنا أمي، كانت تجسيداته الباروكية لشخصيات من عامة الشعب في لندن، ساحرة ومفعمة بالإنسانية.

وكانت للفنانة المشهورة ماري لويد سمعة امرأة طائشة، ومع ذلك، حين لعبنا معها في مسرح تيفولي القديم، على الستراند، لم أر فنانة أكثر جدية منها أو أشد إتقاناً لعملها. كنت أتأمل بدقة تلك السيدة الصغيرة القلقة والبدينة، التي كانت تذرع الكواليس بعصبية، سريعة الغضب وممتلئة بالخوف إلى حين يحين دورها. منذ تلك اللحظة، كانت تصبح مرحة ومنشرحة. وكان هناك أيضاً برانسبي ويليامز، الذي كان يمثل بعض شخصيات ديكنز، وكان يثير حماسي فيما يقلد أو ريا هيب، وبل سايكس وعجوز محل الأثريات. إن المهارة اليدوية لدى هذا الشاب الوسيم والفاضل، الذي يتطرّى[٤] أمام جمهور غلاسغاو الصاخب ويتحول إلى كل تلك الشخصيات الآسرة، كشفت لي وجهاً آخر من وجوه المسرح. لقد أيقظت أيضاً فضولي حيال الأدب؛ كنت أريد أن أعرف السر المخفيّ في الكتب، سر شخصيات ديكنز تلك، المرسومة بحبر السبيدج، والتي تتطور في عالم غريب في كرويكشانك. ومع أني بالكاد كنت أعرف القراءة، فقد اشتريت أخيراً رواية أوليفر تويست.

(٣) دراسة شكل الجمجمة بوصفه يدل على الشخصية والملكات العقلية (م).

(٤) يضع الماكياج (م).

كنت مأخوذاً بشخصيات ديكنز إلى حد أني رحت أقلد برانسبـي ويليامز مقلداً إياهم. كان من المحتم ألا تبقى موهبة لم تنضج بعد كموهبتي مخفيّةً زمناً طويلاً. هكذا دفعني المستر جاكسون ذات يوم لتقليد عجوز **محل الأثريات**، أمام الأولاد الآخرين الأعضاء في الفرقة. وقد جرى الإعلان فوراً أني عبقري، وقرر مستر جاكسون أن يزف النبأ للعالم.

ولقد تم الحدث الكبير في مسرح ميدلزبرو. فبعد رقصة المطقطقات التي أديناها، تقدم مستر جاكسون على المسرح، وقد بدا بمظهر الرجل الذي سـوف يعلن مجيء مسيح شاب، وقال إنه اكتشف في فرقته ولداً عبقرياً سوف يقوم بتقليد برانسبـي ويليامز في دور عجوز **محل الأثريات**، الذي يرفض الاعتراف بموت صغيرته نيل.

لم يكن الجمهور شديد الحرارة، بعد أن تحمل سهرة مضجرة جداً. بيد أني وصلت مرتدياً زيي المعتاد كراقص، أي بلوزة من الكتان الأبيض، وقلادة من الدانتيلا، وبنطالاً من المخمل وخفين أحمرين للرقص، مع ماكياج معد لإعطائي عمر رجل في التسعين. ولا أدري كيف كنا عثرنا في مكان على شعر مستعار قديم ـ ربما اشتراه المستر جاكسون ـ لكنه لم يكن يناسبني. فمع أن رأسي كان ضخماً، إلا أن الشعر المستعار كان واسعاً جـداً؛ كان شعـراً مستعاراً لرجل أصلع، لديه جمجمة حمراء محاطة بشعر رمادي طويل، بحيث ما إن دخلت، منحنياً كعجوز في أرذل العمر، بدوت كجُعْل عديم المهارة، وعمَّ الضحك الحضور الذين لاحظوا الأمر بدورهم.

كان من الصعب بعد ذلك ضبط المشاهدين. كنت أتمتم بصوت خافت: «هس، هس، لا تضجوا، وإلا أيقظتم صغيرتي نيللي».

وقد راح الجمهور يصيح:

ـ علِّي صوتك! عَلِّي صوتك! نحن لا نسمع شيئاً!

لكنني واصلت التمتمة، كما لو كنت أقول سراً، بحيث بدأ الجمهـور يضرب الأرض برجليه. ولقد سجّل ذلك نهاية عملي كممثل إيمائي لشخصيات تشارلز ديـكنز.

مع أننا كنا نعيش بصورة زاهدة، كانت الحياة مع الـ **Eight Lancashire Lads** لذيذة، علماً أنها كانت تشهد، بالطبع، وبين الحين والآخر، مشادات صغيرة. أذكر أني كنت من ضمن البرنامج ذاته الذي يلعب فيه بهلوانان فتيّان، وكانا متمرنين في مثل سني قالا لنا سراً إن والدتهما تقبض سبعة شلنات وستة بنسات كل أسبوع، وإنهما يجدان كل اثنين صباحاً شلناً كمصروف للجيب تحت صحنهما من البيض بقديدة لحم الخنزير. وأبدى أحدنا أسفه قائلاً: «فكروا أننا لا نحصل إلا على بنسين وخبز ومربى للفطور».

حين عرف جون، ابن المستر جاكسون، أننا نتذمر، أجهش بالبكاء وروى لنا أنه يحصل أحياناً، حين يلعبون أسبوعاً في ضواحي لندن، ألا يقبض والده إلا سبع ليرات في الأسبوع عن كل الفرقة وأنهم يجدون صعوبة كبرى في تأمين حياة متقشفة.

كانت الحياة الباذخة للمتمرنين الشابين هي التي جعلتنا نطمح لأن نصبح بهالين[٥]. وعلى امتداد عدة صباحات على التوالي، راح واحد أو اثنان من بيننا يتمرنان على القفزة الخطرة مع حبل معقود حول القامة ومثبت بيكرة، كان أحد الرفاق يمسك بطرفه وقد كنت أقوم بقفزات خطيرة باهرة جداً بهذه الطريقة إلى اليوم الذي سحقت فيه إبهامي، وأنا أسقط، الأمر الذي وضع حداً لطموحاتي كبهلوان.

فضلاً عن الرقص، كنا نحاول بلا انقطاع أن نكسب مهارات جديدة. كنت أريد أن أصير لاعب خفة كوميدياً فوفرت ما يكفي من المال لشراء أربع طابات كاوتشوك وأربعة صحون صفيح، وكنت أتمرن ساعات طوالاً، واقفاً قرب سريري.

كان المستر جاكسون رجلاً شهماً للغاية، في الواقع. وقد شاركنا، قبل أن أترك الفرقة بثلاثة أشهر، في مهرجان لصالح والدي، الذي كان مريضاً جداً. جاء العديد من فناني الميوزيك هول يمثلون من دون أجر، ومن ضمنهم فرقة الـ **Eight Lancashire Lads** التي يديرها المستر جاكسون. وقد ظهر والدي في ليلة المهرجان على المسرح، وهو يتنفس بصعوبة. وقد بذل جهوداً مضنية ليتمكن من إلقاء كلمة قصيرة. كنت واقفاً على طرف المسرح أراقبه، من دون أن أدرك أنه كان يحتضر.

عندما كنا في لندن، كنت أزور والدتي في كل نهاية أسبوع. وكانت تجد أني أبدو شاحباً ومهزولاً وأن الرقص يتعب رئتيَّ. وكان ذلك يقلقها إلى حد أنها كتبت بهذا الصدد إلى المستر جاكسون، الذي ثار غضبه كثيراً وخلص إلى صرفي من العمل، قائلاً إني لا أساوي ما أسببه من هموم لأم قلقة إلى هذا الحد. إلا أنه لم تمر عدة أسابيع حتى كنت أصاب بنوبة ربو. وقد تفاقمت النوبات إلى حد أن أمي باتت مقتنعة بأني مصاب بالسل وأرسلتني في الحال إلى مستشفى برومبتون، حيث فحصوني بعناية. وقد وجدوا أن رئتيَّ سليمتان لكني مصاب في الواقع بالربو. وقد عشت على مدى أشهر عذاباً حقيقياً، إذ كنت أجد صعوبة قصوى في التنفس، بحيث راودتني الرغبة مراراً في الإلقاء بنفسي من النافذة. وكان استنشاق بخار بعض النباتات مع غطاء فوق الرأس يريحني قليلاً. لكن تماماً كما أعلن الطبيب، سوف ينتهي ذلك بالزوال.

تتراوح الذكريات الباقية في رأسي عن تلك الفترة بين الدقة والغموض. بيد أن الانطباع السائد الباقي هو أني تخبطت في مستنقع من البؤس. وأنا لا أتوصل إلى تذكر أين كان سيدني؛ لما كان يكبرني أربع سنوات، لم يكن يدخل إلى عالمي، إلا من حين لحين. ربما كان يسكن مع جدي لإراحة والدتي. ويبدو أننا كنا ننتقل من مسكن إلى مسكن، وقد انتهينا إلى أن نجد نفسنا ذات يوم في كوخ صغير، في ٣، پاونال تيراس.

كنت أعي تماماً الوهن الاجتماعي الذي كان يسببه لنا فقرنا. فحتى أفقر الأولاد كانوا يتعشون في البيت يوم الأحد. وكان لحم مشوي في المنزل رمزاً للمحترمية كما لو كان عنصراً

(٥) جمع بهلوان (م).

من الطقوس يميز طبقة فقيرة من طبقة أخرى. فمن كانوا عاجزين عن الجلوس إلى المائدة والعشاء في بيوتهم يوم الأحد مساء، كانوا ينتمون إلى طبقة الشحاذين، وتلك كانت حالتنا. كانت أمي ترسلني إلى محل البقالة الأقرب إلى بيتنا لشراء عشاء بستة بنساتٍ (لحم مع قطعتين من الخضار). يا للعار. . . لا سيما يوم الأحد. كنت ألومها لأنها لا تحضّر شيئاً في البيت، وكانت تحاول عبثاً أن تشرح لي أن الطبخ في المنزل يكلف الضعفين.

مع ذلك، حالفها الحظ ذات يوم جمعة، فكسبت خمسة شلنات في السباق، فقررت أن تعد العشاء بنفسها يوم الأحد. وقد اشترت، بين أشياء شهية عديدة، قطعة لحم للشيّ لم يكن معروفاً إذا كانت لحم بقر أو كلية حيوان. كانت تزن أكثر من كيلوين وكان عليها ورقة ملصقة وقد كتب عليها: «للشيّ».

لم يكن لدى أمي فرن، لذا كانت تستخدم فرن المالكة، ولما كانت تحس بالخجل الشديد من دخول مطبخها باستمرار، حسبت بصورة تقريبية الوقت الذي يجب أن يستغرقه الطهو. لذا أصبنا بالذعر حين تقلص حجم قطعة اللحم إلى قياسات طابة كريكت. لكن بالرغم من تأكيدات أمي التي كانت تزعم أن عشاآتنا بستة بنسات تتسبب بقدر أقل من الازعاجات وهي أفضل مذاقاً، أحسست بالسعادة الغامرة، وبلذة أننا فعلنا كما يفعل الجميع.

فجأة، طرأ تبدل في حياتنا. فلقد عثرت أمي من جديد على صديقة قديمة كانت قد ازدهرت أحوالها بصورة باهرة، إذ تركت المسرح لتصبح عشيقة كولونيل غني وكبير بالسن. كانت تسكن في حي ستوكويل الأنيق، وفي فورة الحماس التي رافقت اجتماع الشمل دعتنا لكي نمضي الصيف معها. ولما كان سيدني في الريف يعمل في قطاف حشيشة الدينار، لم تجد صعوبة في إقناع أمي، التي ظهرت بثياب لائقة، بفضل مهارتها الخارقة في الخياطة؛ كما أني أتيت أنا الآخر، بثياب الأحد، وكانت ذخيرة باقية من الـ **Eight Lancashire Lads**، فأحدثت تأثيراً جيداً بالمناسبة.

هكذا بين ليلة وضحاها، انتقلنا إلى مسكن هادىء جداً في زاوية لانسداون سكواير، في منزل مترف للغاية، يعج بالخدم، وبالغرف الوردية والبيضاء، وبستائر من قماش الرياش، وجلود دببة بيضاء؛ أضف إلى ذلك أننا كنا نعيش مجاناً. وأنا لا أزال أتذكر تلك العناقيد الكبيرة الزرقاء، التي كانت تزين خزانة غرفة الطعام، كما أني لم أنسَ شعوري بالذنب إزاء الطريقة التي كانت تنقص بها العناقيد بصورة غامضة، بحيث تصبح يوماً بعد يوم أقرب إلى الهيكل العظمي.

كان مِلاك الخدم يتألف من أربع نساء هن الطاهية وثلاث وصيفات. وبالإضافة إلى أمي وإليّ، كان هنالك مدعو آخر، هو شاب وسيم، شديد التوتر، مع شارب أحمر مدبَّب. كان يملك روح مجاملة لذيذة، ويبدو واحداً من أهل البيت، إلى حين يظهر الكولونيل ذو العوارض الرمادية. كان الشاب الوسيم يختفي عندئذ.

كانت زيارات الكولونيل متشتتة، لا تزيد عن واحدة أو اثنتين في الأسبوع. وحين كان

يأتي، كان المنزل يسبح في جو من الغموض، من المحرّمات، وكانت تقول لي أمي ألا أظهر. لكن ذات يوم، دخلت إلى القاعة الكبرى فجأة فيما الكولونيل ينزل الدرج. كان سيداً مهيباً، كبير القامة، يرتدي بذلة وقبعة عالية، مع وجه وردي وعوارض رمادية طويلة وجمجمة صلعاء. وقد ابتسم لي بلطف وواصل طريقه.

لم أكن أفهم سبب كل تلك الأسرار وكل تلك التحركات، ولا سبب حدوث تأثير من هذا النوع مع وصول الكولونيل. لكنه لم يكن يبقى في المنزل طويلاً، إطلاقاً. وكان الشاب ذو الشارب المدبَّب يعود، ويستأنف المنزل حياته العادية.

لقد أحببت الشاب المشورب. كنا نقوم بنزهات طويلة معاً إلى كلافان كومون، مع كلبين سلوقيين رائعين لسيدة المنزل. وكانت كلافان كومون أنيقة في تلك الفترة. حتى حانوت الصيدلي، الذي كنا نذهب إليه بين الحين والآخر لشراء شيء ما، كان يتنفس الأناقة مع ذلك المزيج من الروائح العطرية، والعطور، والصابون، والمساحيق: مذاك، توقظ رائحة بعض الصيدليات حنيناً ناعماً في نفسي. وقد نصح الصيدلي والدتي بأن آخذ كل صباح حماماً بارداً لكي أشفى من الربو، وربما ساعدني هذا العلاج. كان ذلك يعطيني حيوية فائضة، وقد توصلت إلى الشعور بأن تلك الحمامات لذيذة.

من اللافت للنظر كيف يتكيف المرء بسهولة مع الترف الدنيوي وأسباب الرفاهية! ففي أقل من أسبوع، صار كل ذلك يبدو لي طبيعياً بالكامل. أي شعور بالسعادة كنت أحس به وأنا أتقيد بالنظام الصباحي: تنزيه الكلبين، وأنت تمسك بمقوديهما الجلديين الأصهبين، ثم العودة إلى منزل جميل مع خادمين، لتنتظر فطوراً مقدماً بأناقة على صوانٍ من فضة.

كانت الحديقة تتصل بحديقة بيتٍ آخر لشاغليه العدد ذاته من الخدام. كانوا ثلاثة، زوجان شابان وابنهما الذي كان له عمري تقريباً، وكان يمتلك حجرة نوم مليئة بألعاب رائعة. غالباً ما كنت أُدعى للعب معه والبقاء للعشاء، وقد صرنا صديقين حميمين. كان والده يشغل منصباً مهماً في مصرف في المدينة، وكانت والدته شابة ورائعة الجمال.

ذات صباح، فاجأت وصيفتنا وهي تتحدث مع خادمة الولد اليافع، التي قالت إن هذا الأخير بحاجة إلى مربية. «ذلك ما يحتاجه هذا»، قالت وصيفتنا وهي تعنيني أنا. وقد أسعدني أن يجري اعتباري كما لو كنت ابن أحد الأغنياء، لكني لم أفهم بتاتاً لماذا رفعتني إلى هذا العلو، إلا إذا كانت تريد بذلك أن ترفع نفسها عبر الإيحاء بأن الناس الذين تعمل لهم لا يقلون غنى ومكانة عن الجيران. وفي ما بعد، في كل مرة كنت أتعشى فيها مع الصبي ابن الجيران، كنت أشعر قليلاً بأني دجال.

مع أنه كان يوماً حزيناً ذلك اليوم الذي غادرنا فيه المنزل الجميل، عائدين إلى ٣، باونال تيراس، كنا نشعر مع ذلك بنوع من العزاء لأننا استعدنا حريتنا؛ وبعد كل شيء، كنا نعيش، بوصفنا مدعوين، في حالة من الضغط، وكما كانت تقول أمي إن المدعوين يشبهون الحلوى: إذا جرى الاحتفاظ بها طويلاً تزنخ ولا تعود تؤكل. هكذا تقطعت خيوط الحرير الخاصة بمشهد قصير ومترف، وعدنا من جديد إلى حياتنا المعتادة والمفلسة.

عام ١٨٩٩ كان الفترة التي راجت فيها العوارض[1]: كل الناس كانوا يربّونها، الملوك، ورجال الدولة، والجنود والبحارة، آل كروغر، آل سالسبوري، آل كيتشنر، القيصر الألماني، ولاعبو الكريكت: كانت تلك حقبة غير معقولة من الفخفخة والعبث، من الغنى الفاحش والفقر المدقع، ومن العصبية السياسية البلهاء التي كانت تعبر عن نفسها في الصحف كما في الرسوم الهزلية. لكن انكلترا كانت على وشك أن تبتلع الكثير من الصدمات والكثير من النقمات. فبعض المزارعين البويريين في الترانسفال الافريقي كانوا يخوضون حرباً لا تتبع قواعد اللعب، مطلقين النار من وراء الصخور والركام على جنودنا بثيابهم الحمراء، الذين كانوا يشكلون أهدافاً سهلة. وهو ما فهمته وزارة الحرب، فاستبدلت الثياب الحمر على الفور بثياب كاكية. وإذا كان البويريون يريدون الاستمرار في طريقتهم، فهذا حقهم.

كنت أعرف بطريقة مبهمة بوجود تلك الحرب، عن طريق الأغاني الوطنية، وعروض الميوزيك هول، وصور الجنرالات التي كنا نجدها في علب السجائر. وبالطبع، لم يكن يضم العدو أكثر من أفراد مشؤومين. ولقد علمنا بالخبر المحزن، خبر تطويق البويريين للاديسميث، وجنت انكلترا كلها من الفرح حين علمت بإنقاذ مافكينغ. ثم ربحنا في النهاية، أو لمزيد من الدقة، خرجنا من المأزق بالتي هي أحسن. وقد سمعت جميع الناس يتحدثون بالموضوع إلا أمي، فهي لم تشر يوماً إلى الحرب، لا من قريب ولا من بعيد. فلقد كانت لديها حربها الخاصة.

كان سيدني قد بلغ الرابعة عشرة، وغادر المدرسة ليعمل كموظف برق في مكتب بريد الستراند. وبالأجر الذي كان يحصل عليه سيدني وما كانت تكسبه أمي بفضل آلة الخياطة الخاصة بها، كنا نتوصل تقريباً إلى ترتيب أمورنا، مع أن ما كانت تكسبه أمي كان زهيداً. كانت تعمل بالقطعة لمستثمرين، وتخيط صدارات على أساس شلن وستة بنسات للدزينة. ومع أنهم كانوا يأتونها بالنسيج مفصّلاً، كانت تلزمها ١٢ ساعة لإنتاج دزينة بلوزات. كان الرقم القياسي الذي تحققه أمي هو ٥٤ بلوزة في الأسبوع، أي ستة شلنات وتسعة بنسات. وغالباً ما كنت

(١) العارضة، جمعها عوارض، favoris، كتلة من اللحية إلى كل من جانبي الوجه(م).

أبقى مستيقظاً في الأمسيات داخل كوخنا، وأنا اتطلع إليها منحنية على آلة الخياطة، بينما يصنع مصباح الكاز ما يشبه الهالة حول رأسها، وفيما وجهها منحنٍ في غبش لطيف، وشفتاها منفرجتان قليلاً تحت تأثير الجهد في حين توجّه درزات الخياطة التي تمر بسرعة تحت إبرة الآلة، إلى الوقت الذي أستسلم فيه للرقاد على صوت الآلة. وحين كانت تعمل هكذا إلى ساعة متأخرة من الليل، كان ذلك عموماً لأن لديها دفعة يجب أن تسددها، فلقد كانت هنالك مشكلة دائمة هي الدفعات الشهرية بخصوص آلة الخياطة.

وإذ بأزمة تنفجر: كان سيدني بحاجة إلى بذلة جديدة. كان قد ارتدى بزته النظامية كعامل برق كل أيام الأسبوع، بما فيها يوم الأحد، إلى حين بدأ زملاؤه يسخرون منه. وقد بقي في البيت، خلال نهايتي أسبوع اثنتين، إلى حين تمكنت أمي من أن تشتري له بذلة زرقاء من الصرّج[٢]. لقد نجحت لا أدري كيف بجمع ١٨ شلناً، لكن ذلك هز اقتصادنا بعنف، إلى حد أن أمي باتت مضطرة لوضع البذلة لدى الدائن كل إثنين بعد أن يكون سيدني ذهب إلى العمل مرتدياً بزته النظامية كعامل برق. وكانوا يعطونها مقابل ذلك سبعة شلنات، ثم تستعيدها كل سبت كي يتمكن سيدني من ارتدائها في نهاية الأسبوع.

ولقد باتت هذه العادة الأسبوعية تقليداً مستمراً على امتداد أكثر من عام، إلى اليوم الذي باتت فيه البذلة بالية بالكامل. فتعرضنا عندئذ لصدمة!

صباح الإثنين، ذهبت أمي كالعادة إلى المُقرض، إلا أن الرجل تردد، وهو يقول:

ــ آسف، يا سيدة شابلن، فنحن لا نستطيع أن نقرضك سبعة شلنات.

ــ لكن لماذا؟ سألت أمي مذهولة.

ــ إنها مخاطرة كبرى، فالبنطال بالٍ بالكامل. انظري، قال لها وهو يمرر يده تحت قفاه، يمكننا أن نرى عبر القماش.

قالت أمي:

ــ لكني سأستعيده يوم السبت القادم.

فهز المقرض رأسه، وقال:

ــ كل ما أستطيع أن أفعله، هو أن أعطيك ثلاثة شلنات مقابل السترة والصُّدْرة.

نادراً ما كانت تبكي أمي، لكن ما حدث كان صدمة قاسية بحيث عادت إلى البيت والدمع على خديها. فلقد كانت تعتمد على السبعة شلنات لتصل بنا إلى نهاية الأسبوع.

أما ثيابي أنا فكانت في حالة سيئة، على أقل تقدير. فما كان باقياً من طقم الـ Eight Lancshire Lads كان يقدم للنظر مشهداً مبرقشاً. كانت هنالك رقع في كل مكان، على الكوعين، وفي السروال، وفي الحذاء. وفي الجوارب. ولقد كنت في هذا الوضع حين عثرت

(٢) نسيج صوفي متين (م).

على صديقي الصغير الساحر، الذي عرفته في ستوكويل. لم أكن أعرف ما الذي يفعله في كيننغتون، وخجلت كثيراً من سؤاله. وقد استقبلني بمودة بالغة، لكني لاحظت تماماً أن مظهري البائس لم يفته. ولكي أبدد ضيقي، تصرفت باسترخاء وأخبرته بلهجتي الأكثر اجتماعية وثقافة أني أرتدي ثيابي القديمة لأني عائد من درس نجارة مخز.

لكن تفسيري لم يقنعه على الإطلاق. بدا حائراً وأشاح بنظره لإخفاء حرجه، ثم سألني عن أخبار والدتي.

فأجبته بلهجة غير مبالية بأنها في الريف وسألته:

ـ ألا تزال تسكن في المكان ذاته؟

ـ نعم، قال لي، وهو يحدجني بنظراته كما لو كنت ارتكبت خطيئة مميتة.

فجأة قلت له:

ـ هيا، يجب أن أمضي.

فابتسم ابتسامة خفيفة وهو يقول: إلى اللقاء. وذهب كل في طريقه، هو، مبتعداً بهدوء في أحد الاتجاهات، وأنا، غاضباً وشاعراً بالخجل، ومسرعاً في الاتجاه المعاكس.

كانت أمي تقول دائماً: «يمكن أن ينحني المرء دائماً ولا يلتقط شيئاً». لكنها هي بالذات لم تكن توافق على هذا المثل السائر، وغالباً ما كان حس اللياقات لدي ينصدم منه. وذات يوم، كانت أمي عائدة من مستشفى براميتوم، حين توقفت لتوبيخ بعض الصبية الذين كانوا يعذبون عجوزاً فقيرة ترتدي أسمالاً مضحكة ووسخة. كان رأسها حليقاً، وهو أمر نادر في ذلك الزمن، وكان الأولاد يضحكون ويتدافعون أمامها مبدين استفظاعهم لمنظرها، كما لو أن لمسها يهدد بنقل عدوى إليهم. ولقد كانت المرأة البائسة جامدة مثل أيِّل محاصر، حين تدخلت أمي. عندئذ بدا أن العجوز تعرفها.

ـ لِيلْ، تمتمت المرأة وهي تتلفظ باسم أمي الأول الذي كانت معروفة به في المسرح، ألا تتذكرينني... أنا إيفا ليستوك؟

أما أمي فتذكرتها في الحال. لقد كانت صديقة قديمة من أيام عملها في الميوزيك هول.

كنت محرجاً إلى حد أني واصلت طريقي وانتظرت أمي في زاوية الشارع. وقد مر الأولاد أمامي وهم يقهقهون ويسخرون. وكنت شديد الغضب، واستدرت لأرى ماذا جرى لأمي فإذا بالفقيرة تسير بجنبها وتتجهان كلاهما نحوي.

ـ اتذكرين صغيري شارلي، قالت أمي:

ـ أجل! أجل! قالت المرأة بصوت يغالب الدموع. لقد حملته على ذراعي مراراً حين كان طفلاً.

وقد أثارت هذه الفكرة اشمئزازي، لشدة ما كانت المرأة وسخة ومقرفة. ولقد كان

محرجاً أن نرى الناس يستديرون وينظرون إلينا نحن الثلاثة.

كانت أمي قد عرفتها في مسرح المنوعات باسم «إيڤا ليستوك الجميلة»؛ وقد قالت لي أمي إنها كانت جميلة ومليئة بالحيوية في تلك الأيام، وقد شرحت المرأة كيف ادخلت إلى المستشفى حيث بقيت مدة طويلة، لتخرج في ما بعد وتنام تحت الجسور وفي مآوي جيش الخلاص.

كان أول شيء فعلته أمي هو إرسالها إلى الحمّامات العامة، ثم اصطحبتها إلى البيت، بيتنا البائس الصغير، مثيرة بذلك مشاعر الهول لدي. وأنا لم يقيض لي يوماً أن أعرف إذا كان المرض لوحده هو الذي يبرر الحالة التي كانت فيها. أما ما كان بالنسبة لي بمثابة فضيحة فهو أن تنام في مقعد سيدني الذي يستخدمه كسرير. وقد أعطتها أمي ما تستطيع التصرف به من ملابس، واقرضتها عدة شلنات، أما هي فرحلت بعد ثلاثة أيام، ومذاك لم نعد نعرف شيئاً عن «الجميلة إيڤا ليستوك»!

قبل وفاة والدي، غادرت أمي باونال تيراس لتستأجر غرفة في بيت السيدة تايلور، وكانت إحدى صديقاتها ومتعبدة مسيحية تقية. كانت امرأة صغيرة مربوعة القامة، في الخمسين من العمر، مع فكين عريضين ووجه أصفر بال. وقد راقبتها في الكنيسة، فاكتشفت أنها تضع وجبة، كانت تنخلع عن النيرة العليا لتسقط على لسانها فيما هي تنشد. وقد كان لذلك تأثير خارق.

كانت تصدر عنها تصرفات سلطوية، وتفيض بالحيوية. لقد أخذت أمي تحت جناحها المسيحي وأجّرتها مقابل سعر معقول جداً غرفة في الجهة الأمامية، الطابق الثاني، من بيتها الكبير المحاذي لإحدى المقابر.

أما زوجها وهو نسخة طبق الأصل عن السيد بيكويك، في أدب ديكنز، فكان صانع آلات دقيقة جداً، وكانت ورشته في الطابق الأعلى. كانت هنالك كوّة زجاجيات على السطح، وكنت أجد هذا المكان جزءاً من الفردوس لشدة ما كان هادئاً. وغالباً ما كنت أراقب السيد تايلور وهو يعمل، مسحوراً برؤيته ينظر بانتباه من خلف نظارتيه المصنوعتين من الزجاج السميك، ويستخدم عدسيَّة مكبّرة ضخمة ليصنع مسطرة فولاذية قادرة على قياس ١/٥٠ من البوصة. كان يعمل لوحده وغالباً ما كنت أذهب معه للتبضع.

كانت لدى السيدة تايلور رغبة كبرى، وهي أن تهدي زوجها الذي كان خاطئاً في نظرها كمسيحية. أما ابنتها، التي كانت ملامحها تعطي الانطباع بأنها تخرج من القالب ذاته الذي خرجت منه ملامح الأم، ما عدا أن بشرتها كانت أقل اصفراراً، فكان بالإمكان أن تكون فتّانة لولا كبرياؤها وتصرفاتها الكريهة. وهي كانت شبيهة بوالدها في موقفها من الذهاب إلى الكنيسة. لكن السيدة تايلور لم تيأس من إمكان أن يهتديا كلاهما. لقد كانت متعلقة بابنتها تعلقاً شديداً، لكن أمي لم تكن تحبها. وقد حدث ذات بعد ظهر، وكنت في الطابق العلوي أتأمل السيد تايلور يعمل، أن سمعت في الأسفل أصوات مشادة بين أمي والآنسة تايلور، وكانت أم هذه الأخيرة في الخارج. لا أدري كيف بدأ ذلك، لكنهما كانتا تتبادلان التوبيخات

الحادة. وحين وصلت إلى قرص درجنا، كانت أمي منحنية على الدرابزين وهي تقول لها:

ـ من تظنين نفسك؟ قناع كرنفال؟

ـ أوه! صرخت الفتاة مندهشة. هل يمكن أن يخرج كلام كهذا من فم مسيحية!

ـ لا يضيقنَّ صدرك، ردَّت والدتي، هذا موجود في التوراة، يا عزيزتي، سفر التثنية، الفصل الثامن والعشرين، الآية ٣٧، إلا أن هنالك كلمة أخرى. لكن قناع الكرنفال يتناسب معك.

وقد عدنا بعد ذلك إلى پاونال تيراس.

لم تكن **الأيائل الثلاثة**، على طريق كيننغتون، حانة يتردد عليها أبـي، لكن ذات مساء، فيما كنت أمر من هناك، رأيتني اعرِّج بصورة غريزية لألقي نظرة في الداخل وأتحقق مما إذا كان هناك. وقد فتحت باب المقهى قليلاً، ولمحته جالساً في إحدى الزوايا! كنت على وشك أن أرحل مجدداً، لكن وجهه أشرق فجأة وأومأ لي كي اقترب. وقد أدهشني ذلك الاستقبال، لأنه لم يكن يوماً بشوشاً. كان يبدو مريضاً جداً، فعيناه غائرتان، وكل جسمه منتفخ. وكانت إحدى يديه في صُداره، على طريقة نابليون، كما لو كان ذلك لمساعدته على التنفس. وقد بدا في ذلك المساء شديد الاهتمام، وراح يسأل عن أخبار والدتي وسيدني وقبل أن يتركني أمضي في طريقي، أخذني بين ذراعيه وعانقني للمرة الأولى.

كانت تلك هي المرة الأخيرة التي أراه فيها وهو على قيد الحياة.

بعد ثلاثة أسابيع، أخذوه إلى مستشفى القديس توما، وقد توجب إسكاره للتمكن من ذلك. وحين فهم أين هو، صارع باستبسال، لكنه كان في الرمق الأخير. ومع أنه كان لا يزال شاباً ـ لم يتجاوز السابعة والثلاثين ـ مات بمرض الاستسقاء. سحبوا من ركبته عشرين ليتراً من السائل.

جاءت أمي مراراً لرؤيته، وكانت تلك الزيارات تثير أحزانه دائماً. وقد روت أنه كان يتكلم على رغبته بالعودة إليها وبدء حياة جديدة في إفريقيا. وحين أبديت فرحي بهذا المستقبل، هزت أمي رأسها، لأنها كانت تعرف ما يمكن التعويل عليه، وأوضحت لي أنه يقول ذلك على سبيل اللطف.

وقد عادت ذات يوم من المستشفى غاضبة، لأن الأب جون ماكنايل، وكان إنجيلياً، تفوه أثناء زيارته لأبـي بهذه الكلمات:

ـ صدقني يا شارل، حين أنظر إليك لا أستطيع سوى التفكير بالمثل القديم: يحصد المرء ما يزرع.

وعلقت أمي قائلة: هل هذا كلام يقال لرجل على وشك الموت!

بعد أيام قليلة، كان والدي قد فارق الحياة. وقد أراد المسؤولون في المستشفى أن يعرفوا من سيتكفل بالدفن. ولما كانت أمي مفلسة، فقد اقترحت اسم صندوق الإحسان لفناني

المنوعات، وكانت مؤسسة للمساعدة المتبادلة لأهل المسرح. لكن ذلك أثار احتجاجات عنيفة من جانب عائلة شابلن، فلقد كانوا ينفرون من الإذلال الذي يتسبب به الدفن على نفقة المحسنين. وكان وصل في تلك الفترة من إفريقيا إلى لندن عم لي اسمه ألبر، هو أخو والدي الأصغر، فأعلن أنه يأخذ على عاتقه نفقات الدفن.

في اليوم المحدد، كان علينا أن نذهب إلى مستشفى القديس توما، حيث نلتقي بقية آل شابلن ونمضي من هناك إلى مقبرة توتينغ. ولم يكن بإمكان سيدني أن يأتي، بسبب العمل. أما أنا وأمي فوصلنا قبل ساعتين إلى المستشفى، لأن والدتي كانت تريد إلقاء نظرة على أبي قبل إغلاق النعش الذي كان منجّداً في داخله بالساتان الأبيض، وكانت هناك اقحوانات صغيرة على الجانبين، تحيط بوجه أبي. وقد وجدتها أمي بسيطة ومؤثرة بحيث سألت من الذي وضعها هناك، فقال لها عامل المستشفى إن سيدة جاءت في الصباح الباكر مع ولد صغير. هذه السيدة كانت لويز.

في العربة الأولى جلست أمي وعمي ألبر، وأنا أيضاً. وقد كانت المسافة إلى توتينغ امتحاناً قاسياً، ذلك أن أمي لم تكن التقت يوماً العم ألبر. فلقد كان غندوراً يتكلم بطريقة متصنعة؛ ومع أنه كان مهذباً جداً، إلا أنه كان بارداً كالجليد. وكان يقال إنه غني، يملك مزارع كبيرة لتربية النحل في الترانسفال، وإنه قدم جياداً للحكومة البريطانية خلال حرب البوير.

شرع المطر ينهمر خلال المراسم الأخيرة. كان حفارو القبور يرمون على النعش كتلاً من التراب تحدث ضجة مخنوقة وفظة. كان ذلك مأتمياً ومريعاً، وقد أجهشت بالبكاء. ثم بدأ أفراد العائلة يلقون بالزهور والأكاليل. ولما لم يكن مع أمي ما ترمي به أخذت منديلي الثمين ذا الإطار الأسود وتمتمت: «هاك يا ابني، سيكون منا نحن الاثنين». ثم توقف آل شابلن في حانة لتناول الطعام، وقبل أن نفترق، سألونا باحترام أين نرغب في النزول، وبالتالي عدنا إلى البيت راكبين.

حين دخلنا المنزل، لم يكن هناك شيء نأكله، باستثناء فنجان من سمنة البقر، ولم يكن مع أمي بنس واحد لأنها أعطت سيدني آخر بنسين كانا معها لتناول الفطور. فمنذ مرض والدي، لم يكن لديها وقت للعمل، وفي ذلك اليوم، الذي كان يصادف تقريباً نهاية الأسبوع، كنا قد أنفقنا السبعة شلنات التي كسبها سيدني كعامل برق: وبعد عودتنا من الدفن، كنا جائعين. ومن حسن الحظ أن لمّام أشياء قديمة مر في الشارع، وكان عندنا موقد قديم على الكاز، فباعته أمي على مضض إذاً مقابل نصف بنس، واشترت خبزا بنصف بنس لنأكله مع السمنة.

لما كانت أمي أرملة والدي الشرعية، طلبوا منها في اليوم التالي أن تأتي إلى المستشفى لاستعادة أغراضه، التي كانت تشتمل على طقم أسود ملطخ بالدم، وثياب داخلية، وقميص، وربطة عنق سوداء، ومبذل قديم، وخف اسكوتلندي في داخله برتقال. وقد سقط منه نصف جنيه على السرير بعد أن أخرجت البرتقال. كانت تلك هبة من السماء!

بقيت أسابيع أحمل علامة حداد على ذراعي، وقد بدت علامة الحزن تلك مربحة حين ذهبت بعد ظهر أحد الأيام لبيع الزهور. كنت أقنعت أمي بإقراضي شلناً، وذهبت إلى سوق الزهور حيث اشتريت رزمتين من زهر النرجس، ثم صنعت منها باقات مقابل بنس واحد، بعد المدرسة. وبعد أن بعت كل شيء، كنت قد حققت ربحاً بنسبة مئة بالمئة.

كنت أدخل إلى المقاهي فأتمتم وأنا حزين: «نرجس، يا آنسة!»، «نرجس، مدام!». وكانت النساء يجبن دائماً: «من فقدت، يا صغيري؟»، وكنت أهمس بصوت يكاد يُسمع: «والدي»، وكن يعطينني قليلاً من المال. وقد ذهلت أمي حين رأتني أعود في المساء ومعي أكثر من خمسة شلنات حصلت عليها في بعد ظهر واحد من العمل. لكنها فاجأتني يوماً وأنا خارج من أحد الحانات، فوضع ذلك حداً لمبيعاتي من الزهور: كان إقدام ابنها على بيع الزهور في الخمّارات يجرح وساوسها المسيحية. وقد قالت لي:

ــ الخمرة هي التي قتلت أباك، والمال الذي يأتي من مصدر كهذا لن يأتينا بغير نكد الحظ. بيد أنها احتفظت بالمبلغ الذي حققته مبيعاتي، في الوقت ذاته الذي منعتني فيه من العودة إلى بيع الزهور.

كنت موهوباً حقاً في التجارة. وكانت لدي دائماً مشاريع تشغل بالي: كنت أتطلع إلى الحوانيت الفارغة، وأنا أتساءل لأي تجارة مربحة يمكنني أن أكرسها، من بيع السمك والبطاطا المقلية إلى بيع منتجات البقالة. وكنت دائماً أفكر بالمواد الغذائية. كل ما كان يلزمني هو الرساميل، لكن كيف الحصول على الرساميل؟ وقد نجحت أخيراً في إقناع والدتي بأن تتركني أغادر المدرسة وأتخذ لي صنعة.

اشتغلت في مهن عديدة، بادئاً بالعمل ساعياً لدى أحد العطّارين. وفي الوقت الفاصل بين إيصال بضاعة وإيصال أخرى، كنت أعمل بافتتان في القبو، وسط الصابون والنشا والشموع والملبّس والبسكوت، ذائقاً كل أنواع الحلويات إلى حد التعرض للمرض بسبب ذلك.

ثم اشتغلت في عيادة هول وكينسي ـ تايلور، وهي عيادة أطباء لشركة تأمين في تروغمورتن أڤينيو، وكانت تلك وظيفة ورثتها من سيدني، الذي زكّاني لها. كان ذلك مربحاً، إذ كانوا يدفعون لي ١٢ شلناً في الأسبوع، مقابل أن أعمل في استقبال الزبائن، ومن ثم التنظيف بعد مغادرة الأطباء. وكمستقبل للزبائن، كنت ألاقي الكثير من النجاح وأسحر كل المرضى الذين ينتظرون؛ لكن حين كان يأتي أوان التنظيف، كنت أتضايق كثيراً، بينما كان سيدني يقوم بذلك أفضل مني بكثير. لم يكن يزعجني أن أفرغ قناني البول، لكن تنظيف تلك النوافذ التي يصل ارتفاعها إلى ثلاثة أمتار كان مهمة هائلة حقاً؛ وهكذا أصبحت الغرف أشد فأشد قتامة، وتراكم فيها الغبار، إلى اليوم الذي قالوا لي فيه بأدب إني صغير جداً بالنسبة للعمل.

حين تلقيت النبأ، أجهشت في البكاء. لكن الدكتور كينسي ـ تايلور، الذي سبق أن

تزوج سيدة غنية جداً مع بيت كبير في لانكاستر غايت، أشفق عليَّ وقال لي إنـه سيشغّلني كوصيف في بيته فابتهجت في الحال: وصيف في فندق خاص، ومرفَّه جداً بسبب ذلك!

كنت مسروراً لأجل تلك الوظيفة، ذلك أني كنت الطفل المدلَّل لكل الوصيفات. كن يعاملنني كطفل ويعانقنني ليتمنين لي مساء سعيداً. ولولا القدر، لصرت رئيس خدم. لقد أمرتني السيدة بأن أنظف في القبـو مكاناً تتكدس فيه صناديق وبقايا يجب اختيار الصالح منها وتنظيفه وترتيبه، لكني شردت عن مهمتي بسبب الاهتمام الذي أعطيته فجأة لأنبوب حديدي بطول مترين ونصف تقريباً، شرعت أنفخ فيه كما لو كان بوقاً. وفي حين كنت في قمة تسليتي، ظهرت السيدة. . . وطردت من العمل مع إنذار مسبق لمدة ثلاثة أيام.

اشتغلت باستمتاع في مكتبة و. هـ. سميث وولده، لكني فقدت عملي ما إن اكتشفوا أني صغير السن. ثم عملت يوماً واحداً نافخ زجاج. كنت قرأت في المدرسة نصاً عن نفخ الزجاج وقد بدا لي ذلك مثيراً، لكن الحرارة ضايقتني كثيراً وحملوني فاقد الوعي ليضعوني على كدسة رمل. وقد كان ذلك كافياً بالنسبة لي، حتى أني لم أرجع لقبض أجرتي عن النهار. ثم اشتغلت عند سترايْكر، الطبّاع والورّاق. وقد حاولت بلفهم مؤكداً لهم أني أعرف تشغيل مطبعة وافردايل، وكانت آلة ضخمة طولها ستة امتار. كنت قد رأيتها تعمل، وأنـا أنظر من الشارع إلى داخل القبو، وكان العمل قد بدا لي بسيطاً وسهلاً. كانت هنالك لافتة إعلانيـة مكتوب عليها: «مطلوب شاب في مقتبل العمر لتشغيل مطبعة وافردايل». وحين جاء بـي رئيس العمال إلى مقربة من الآلة، كانت تنتصب أمامي كوحش هائل. وقد كان علي بهدف تشغيلها أن أصعد على مسطحة تعلو متراً ونصف متر عن الأرض، وقد تولد لدي الانطباع بأني في أعلى برج إيفل.

ــ صل المحرك بالآلة!، قال رئيس العمال.

وَصْل المحرك بالآلة؟ ما عساه يكون ذلك؟

وانفجر الرجل بالضحك، وهو يراني متردداً؛ وقال:

ــ يبدو أنك لم تشتغل يوماً على آلة وافردايل.

ــ امنحني فرصة، فسوف أتدبر الأمر بسهولة.

كان وصل المحرك بالآلة يعني سحب العتلة لتشغيل الآلة. وقد دلني على العتلة، ثم شغل الوحش ذا النظام النصفي. وقد بدأ هذا يدور محدثاً صريراً ونخيراً، بحيث ظننت أنه سيفترسني. كانت الأوراق كبيرة الحجم، وكانت تكفي واحدة منها لتغليفي. وقد استخدمت مكشطاً عاجياً لفصل الأوراق، ممسكاً بها بعد ذلك من الـزوايا وواضعـاً إياهـا بعنايـة إزاء الأسنان، في حين كان الوحش على أهبة الاستيلاء عليها وافتراسها ثم إعادتها من الـطرف الآخر. وقد كنت في نهاية النهار خِرقة لا أكثر لشدة ما كانت تثير عصبيتي فكرة أن الوحش يريد أن يسبقني. مع ذلك حصلت على الوظيفة بأجر أسبوعي هو ١٢ شلناً.

كان هناك جانب حالم ومغامر في أن يمضي المرء في تلك الصباحات الباردة، قبـل

الفجر، في طريقه إلى العمل، عبر الشوارع الصامتة والمقفرة، ما عدا خيالاً أو خيالين مبهمين يضعان الرحال في صالون لوكهارت للشاي لتناول فطورهما، كما لو كان ذلك الصالون منارة. كان يعطي شعوراً بغبطة جماعية أن يشرب المرء شايه الحارق في الدفء اللطيف لهذه الاستراحة المؤقتة التي تسبق يوم العمل. وما كنت أفعله في المطبعة لم يكن كريهاً. فإذا استثنينا المهمة القاسية التي كان علي أن أتولاها في نهاية الأسبوع، حين كان يتوجب علي أن أغسل الحبر عن تلك الأسطوانات الجيلاتينية الثقيلة والضخمة التي تزن كل منها خمسين كيلغراماً، كان العمل محتملاً. مع ذلك، بعد ثلاثة أسابيع أمضيتها هكذا، بقيت في السرير بسبب الكريب، وألحت علي أمي كي أعود إلى المدرسة.

كان سيدني الآن في السادسة عشرة من العمر، وقد عاد إلى البيت طائراً من الفرح لأنه حصل على وظيفة بوّاق على سفينة تابعة لدانافان أند كاسل لاين كانت تؤمِّن الصلة بأفريقيا. وكانت مهمته تقضي بأن يطلق النداء إلى الغداء والعشاء، الخ. كان قد تعلم العزف على البوق على متن المركب ـ المدرسة إكسماوث، وإذ بذلك يساعده الآن. كان سيحصل على ليرتين (سترلينيتين) وعشرة شلنات في الشهر، بالإضافة إلى البقشيش الذي سيحصل عليه من خدمته على الطاولات الثلاث في الدرجة الثانية. وقد وعدوه بـ ٣٥ شلناً سلفاً قبل الرحيل، يعطيها لوالدتي بالطبع. إزاء هكذا مستقبل زاهر، أقمنا في شقة من غرفتين فوق محل حلاقة في شستر ستريت.

كانت عودة سيدني بعد رحلته الأولى مناسبة لإقامة احتفال صغير، لأنه عاد ومعه أكثر من ثلاث ليرات جمعها من البقشيش، وكلها من القطع الفضية. أتذكره يفرغ جيوبه من المال على السرير، وكان يبدو لي ذلك أكثر من كل ما سبق أن رأيت من المال في حياتي، ولم يكن في وسعي أن أنتزع يديَّ منه. جمعت حفنة ثم تركتها تقع، وكدَّست القطع ورحت ألعب بها إلى حين أعلنت والدتي وسيدني في آن معاً أني بخيل.

يا للترف! يا للحياة الباذخة! كنا في فصل الصيف وكانت تلك فترة حلويات وبوظة؛ لكننا تمتعنا بصنوف ترف أخرى أيضاً. كما كانت أيضاً فترةً أكلنا فيها سمك الرنكة المدخَّن، والحدوق، والخبز المحمَّص على الفطور، والبريوش والفطائر صباح الأحد.

أصيب سيدني بالرشح ولازم السرير عدة أيام، فتناوبنا أمي وأنا على البقاء معه. وقد أمضينا الوقت ونحن نستهلك البوظة: كان يمكن الحصول على كأس كبير ممتلىء مقابل بنس واحد، وكنت أحمله إلى صاحب محل البوظة الإيطالي ليملأه لي، وهو يتحرق غيظاً. وفي زيارتي الثانية نصحني بأن أجلب معي مغطساً. هذا وقد كان أحد أنواع شرابنا المفضل في ذلك الصيف الليموناضة بالحليب. وكانت فقاعات الليموناضة المنبعثة عبر كريما الحليب تعطينا مزيجاً لذيذاً.

روى لنا سيدني العديد من النوادر المسلية بصدد رحلته. فقبل الإقلاع، أوشك أن يفقد عمله حين أطلق أول دعوة إلى الغداء. كان ينقصه التدريب، واستقبله الجنود الموجودون على

متن الباخرة بصيحات الاستهزاء. وهرع أمين حسابات الباخرة مشتعلاً غضباً:

ـ ماذا تسمّي هذا الضجيج؟

ـ آسف، سيدي، قال سيدني، لكن شفتيَّ لم تعتادا بعد على الفوّهة.

ـ أنصحك إذاً بإصلاح ذلك قبل أن تقلع الباخرة، وإلا سنضطر لإنزالك.

خلال وجبات الطعام، كان هنالك في المطابخ صف طويل من الخدم الذين يأتون لتسجيل طلباتهم. لكن حين كان يصل الدور إلى سيدني، كان ينسى طلبه ويضطر ليقف من جديد في آخر الصف. وقد روى سيدني أنه في الأيام الأولى، كان كل الركاب ينهون تناول التحلية في حين يكون هو لا يزال يصب الحساء.

بقي في البيت إلى حين نفد كل ماله. وقد كان متعاقداً من أجل رحلة جديدة، ومرة أخرى قدموا له ٣٥ شلناً كسلفة، فأعطاها لوالدتي. لكن ذلك لم يدم طويلاً، إذ في غضون ثلاثة أسابيع، كنا قد أنفقنا كل ما معنا، وكان علينا انتظار عودة سيدني بعد ثلاثة أسابيع أخرى، ومع أن والدتي استمرت تعمل على آلة الخياطة، فما كانت تكسبه لم يكن كافياً لسد الرمق. وقد غرقنا من جديد في أزمة جديدة.

لكن لم تكن تنقصني الأفكار. كان لدى أمي كومة من الثياب القديمة، ولما كنا صبيحة السبت، اقترحت محاولة بيعها في السوق. كانت أمي متضايقة بعض الشيء، وقالت إنها لا تساوي شيئاً على الإطلاق. لكني لففتها في قماشة قديمة وذهبت إلى نيو وينغتون باتس. وضعت سقط متاعي على الرصيف ـ ويا له من مشهد بائس ـ، ثم تسمّرت في المجرى الصخري ورحت أصيح، وأنا أرفع قميصاً قديمة ثم مشداً بالياً: «خذوا، ماذا تعطوني ثمن هذا؟... شلناً، ست بنسات، ثلاثة، اثنين؟» لكن لم يكن أحد يريد شيئاً منها حتى بسعر بنس واحد. كان الناس يقفون، وينظرون بذهول، ثم ينفجرون ضحكاً ويواصلون طريقهم. وقد بدأت أشعر بالارتباك، لا سيما حين شرع أصحاب محل مجوهرات مواجه يراقبونني من وراء واجهتهم. لكني رفضت الاستسلام، ونجحت أخيراً في بيع زوج ساقيّات لم يكن يبدو بالياً جداً، مقابل ستة بنسات. لكن كلما أطلت البقاء، كنت أشعر بأني أزداد ضيقاً. وقد اقترب مني صاحب محل المجوهرات بعد بعض الوقت وسألني بلكنة روسية قوية منذ متى أمارس التجارة. وبالرغم من رصانة ملامحه، اشتبهت في ملاحظته ببعض الدعابة وقلت له إني في البدايات. وقد عاد أدراجه ببطء لينضم إلى شريكيه اللذين كانا يتطلعان إليَّ من وراء الواجهة وهما يسخران. كان ذلك كافياً! فاعتبرت أن الوقت قد حان لجمع بضاعتي والعودة إلى المنزل. وحين أخبرت أمي بأني بعت زوج ساقيّات بستة بنسات، أبدت استياءها قائلة: «كان يجب أن تحصل على أكثر من ذلك، فقد كانتا ساقيّتين جميلتين!»

في الوضع الذي كنا فيه، لم نكن قلقين كثيراً بخصوص دفع الإيجار، إذ حُلت هذه المشكلة بسهولة لأننا كنا خارج المنزل في اليوم الذي جاء فيه قابض الإيجارات، ولما لم تكن

أغراضنا تساوي الشيء الكثير، كان سيكلفنا استئجار عربة لنقلها أكثر من المبلغ المستحق. إلا أننا عدنا إلى ٣ پاونال تيراس.

في تلك الفترة بالذات تعرفت إلى عجوز وابنه كانا يشتغلان في حظائر قديمة خلف كيننغتون رود. كانا صانعي ألعاب متجولين يأتيان من غلاسغاو ويبيعان إنتاجهما متنقلين بين مدينة وأخرى. كانا حرَّين لا يعوقهما شيء، وكنت أحسدهما. لم تكن مهنتهما تتطلب رساميل كبيرة، فبتوظيف شلن واحد، كان في وسعهما الانطلاق في الأعمال. كانا يجمعان صناديق الأحذية الكرتونية التي كانت كل المحلات تستمتع بتوفيرها لهما، بالإضافة إلى نشارة الفلين التي تستخدم لتغليف العنب وكانا يحصلان عليها مجَّاناً. كان التوظيف الابتدائي يشمل فقط شراء مادة لاصقة ببنس واحد، وخشب ببنس آخر، وخيوط ببنسين، وورق ملون لعيد الميلاد ببنس، وثلاث رزم لشذرات ألوان ببنسين. وكان في وسعهما أن يصنعا بشلن واحد سبع دزينات من المراكب وأن يبيعا القطعة الواحدة ببنس. وكانت الهياكل تفصَّل من كراتين الأحذية على قاعدة كرتونية، وكانت توضع المادة اللاصقة على السطح الأملس وتُصَب فوقها نشارة الفلين. وكانت تجهَّز الصواري بواسطة خيوط مشذَّرة، ويُلصق كل شيء في أعلى البيارق الزرقاء والصفراء والحمراء، وفي الصاري ـ الخارج، في المقدمة وفي المؤخرة. كانت مئة من هذه المراكب الصغيرة، المشرقطة بالألوان، تشكل معروضات فرحة ولطيفة تجذب الزبائن، وكانت تباع بسهولة.

بعد لقائنا، بدأت أساعدهما في صنع المراكب، ولم أتأخر في إتقان فنهما. وحين غادرا حيّنا، واصلت عملهما لحسابي الخاص. وبرأسمال لا يزيد على ستة بنسات، ولقاء نُفْخات تسبَّب بها قصِّي للكرتون، توصلت لصنع ثلاثْ دزينات من المراكب في أسبوع.

لكن لم يكن هناك مكان كاف في كوخنا لعمل والدتي وورشتي الصغيرة في الوقت ذاته. ومن جهة أخرى، كانت أمي تتذمر من رائحة الغراء الغالي، ولأن وعاء الغراء كان يشكل تهديداً دائماً لصداراتها الكتانية التي كانت تشغل تقريباً كل مساحة الغرفة. ولما كانت أرباحي أقل من أرباح أمي، كانت الأفضلية لعملها واضطررت للتخلي عن محترفي.

لم نكن رأينا جدي إطلاقاً في غضون ذلك الردح من الزمن. ومنذ السنة السابقة، كانت صحته على غير ما يرام. كانت يداه قد تشوهتا بداء النقطة، الأمر الذي جعل من الصعوبة بمكان أن يواصل ممارسة مهنته كإسكافي. وفي السابق، كان قد ساعد أمي حين يستطيع إعطاءها شلنين أو ثلاثة شلنات. وأحياناً كان يعشّينا عنده، مقدماً لنا يخنة عجيبة للفقراء، مؤلفة من سبائخ شعير وبصل مغلي في الحليب مع الملح والبهار. وفي ليالي الشتاء، كانت تلك وجبتنا الأساسية لمقاومة البرد. وحين كنت طفلاً، كان جدي يبدو لي عجوزاً صارماً وخشناً لديه دائماً ملاحظات حول تصرفاتي أو حول دروس الصرف والنحو. وبنتيجة تلك المشاحنات بت أجده بشعاً. لكنه كان الآن في المشفى، رازحاً تحت آلام الروماتيزم، وكانت أمي تزوره كل يوم. ولقد كانت تلك الزيارات نافعة، لأنها كانت تعود عموماً ومعها كيس مليء بالبيض

الطازج، وقد كان ذلك ترفاً حقيقياً في فترة الانكماش التي كنا نجتازها. وحين كانت تعجز عن الذهاب بنفسها، كانت ترسلني بدلاً منها. وقد تفاجأت دائماً بأن أجد جدي ودوداً جداً وسعيداً للغاية برؤيتي. كان المريض المفضّل لدى الممرضات. ولقد روى لي في ما بعد أنه كان يمازحهن، قائلاً لهن إنه بالرغم من الروماتيزم، لا يزال يصلح لبعض الأمور. وقد كانت تلك التفاخرات تسلّي الممرضات. وحين كانت صحته تتحسن كان يعمل في المطابخ، التي كان يصلنا البيض منها. وحين كنت أزوره، كان في سريره، عادة: وقد كان يسحب منه خفية كيساً كبيراً يعطيني إياه فأسارع لإدخاله في سترة البحارة، التي ارتديها، قبل المغادرة.

عشنا أسابيع عديدة على البيض معداً بشتى الأشكال، مسلوقاً أو مقلياً أو بالحليب. ومع أن جدي كان يؤكد أن الممرضات صديقاته وأنهن على علم بما يجري إلى هذا الحد أو ذاك، كنت أخاف دائماً حين أغادر المستشفى مع هذا البيض، وترعبني فكرة أني قد أنزلق على الأرض الملمّعة، أو أنهم قد يلاحظون قامتي المحدَّبة بصورة غير مألوفة، والغريب أني في كل مرة كنت فيها على وشك الرحيل، كانت الممرضات يتبخرن، ولقد كان يوماً حزيناً ذلك اليوم الذي شفي فيه جدي من آلام الروماتيزم وغادر المستشفى.

كانت قد مرت الآن ستة أسابيع وسيدني لم يعد بعد. وهو أمر لم تعبأ به أمي بادىء ذي بدء، لكن حين انقضى أسبوع آخر كتبت إلى مكاتب شركة دانا فان وكاستل لاين، وأجابوها بأنه أُنزل في الكاب حيث يعتنون به بسبب داء المفاصل. وقد أقلق هذا الخبر والدتي وأثر على صحتها. لكنها واصلت العمل على آلة الخياطة، وحالفني الحظ في العثور على قليل من الشغل عبر إعطاء دروس في الرقص في إحدى العائلات، بعد المدرسة، مقابل خمسة شلنات في الأسبوع.

في تلك الفترة تقريباً، جاء آل مكارثي واستقروا في كيننغتون رود. والسيدة مكارثي، وهي إيرلندية كانت ممثلة كوميدية، كانت صديقة لأمي. كانت قد تزوجت والتر مكارثي، الخبير في المحاسبة. لكن حين اضطرت أمي للتخلي عن المسرح، لم نعد نرى السيد والسيدة مكارثي، اللذين لم نعثر عليهما من جديد إلا بعد سبع سنوات، حين جاءا للسكن في والكوث مانشنز، الجزء الأنيق من كيننغتون رود.

كنت أنا وابنهما، وولي مكارثي، تِرْبَيْن. وفي طفولتنا كنا نحب لعب أدوار الأشخاص الكبار، متظاهرين بأننا من فناني الميوزيك هول، وبشرب سيكار وهمي، وبالسير في مقارن خيالية، مثيرين ضحك أهلنا واستمتاعهم.

مذ وصل آل مكارثي إلى والكوث مانشنز، قليلاً ما رأتهم أمي، لكني عقدت مع وولي أواصر صداقة متينة جداً. فما إن تنتهي المدرسة كنت أعود إلى المنزل راكضاً لأسأل أمي إذا كان عليَّ أن أذهب إلى مكان ما للتبضع، ثم أهرع إلى بيت آل مكارثي. كنا نلعب لعبة المسرح خلف المبنى. ولما كنت أتولى الإخراج، كنت أسند إلى نفسي دائماً أدوار الخائن، عارفاً بالسليقة أنها أكثر تلويناً من أدوار الأبطال. كنا نلعب إلى حين تحين ساعة العشاء بالنسبة

لوولي. وعموماً كانوا يدعونني، وكانت لديّ موهبة الوجود هناك في ساعة الـوجبات. لكن كانت هنالك حالات تنتهي فيها مناوراتـي بالفشل فأعود إلى المنزل على مضض. أما أمي فكانت سعيدة دائماً بأن تراني، وكانت تهيىء لي شيئاً ما، كالخبز المقلي بالسمنة، أو بيضة من بيضات جدي، وفنجان شاي. كانت تقرأ، أو نبقى جالسين نحن الاثنين قرب النافذة وهي تسليني بتعليقاتها بصدد المارة. كانت تخترع قصصاً حولهم. فـإذا كان المـار شابـاً سريـع المشية، ممشوق الخطى، كانت تقول: «هذا هو السيد قَدَمْ في الجوْ. هو ذاهب للمراهنة في السباق. فإذا كان اليوم محظوظاً، سوف يشتري لنفسه تندَماً[1] مستعملاً يركبه هو وصديقته».

ثم كان يمر رجل ببطء، وهو يبدو حزيناً، فتقول: «هومْ، إنه يعود إلى البيت، حيث سيجد يخنة وجزراً أبيض، على العشاء، وهو أمر يكرهه كثيراً».

ثم يجيء شخص تبدو عليه الأنفة، فتقول: «هاك شاباً مهذباً، لكنه منشغل الآن بالثقب الذي في قعر سرواله.

ثم يمر أحدهم كالسهم فتقول: «هذا السيد أخذ مسهلاً لتوِّه!». وكانت تستمر على هذا المنوال، مثيرة ضحكي المجنون.

كان قد انقضى أسبوع آخر، من دون أخبار عن سيدني. ولـو كنت أكبر قليـلاً وأكثر تحسساً بقلق أمي، كان أمكنني أن أتوقع ما الذي كان يتهيأ. كان أمكنني أن ألاحظ أنها منذ أيام عديدة كانت تبقى جالسة، وعقلها شارد، عند النافذة وأنها كانت قد توقفت عن الاهتمام بنظافة المنزل، وأنها كانت صامتة أكثر من العادة. كان أمكنني أن أحس بانشغال البال حين بدأ تجار القمصان يجدون عيوباً في عملها وتوقفوا عن إعطائها عملاً، ثم حين استعادوا منها آلة الخياطة لأنها تأخرت عن الدفع، وفضلاً عن ذلك حين وجدت أني لم أعد حتى أملك الخمسة شلنات التي كنت أحصل عليها من إعطاء دروس الرقص؛ كان أمكنني أن ألاحظ أنه وسط كل ذلك، كانت أمي تبقى لا مبالية، خاملة.

ماتت السيدة مكارثي فجأة. كانت تتألم منذ بعض الوقت، وتدهورت صحتها بسرعة إلى اليوم الذي قضت فيه نحبها. وقد اجتاحتني أفكار في الحال: كم يكون رائعاً لـو أن السيد مكارثي يتزوج أمي! لقد كنت أنا وولي صديقين حميمين. فضلاً عن ذلك، قد يكون هذا حلاً مثالياً لكل مشكلات والدتي.

بعد الدفن بقليل، تحدثت في هذا الموضوع مع أمي:

ــ عليك أن تدبري أمرك بحيث ترين السيد مكارثي أكثر. فأنا أراهن على أنه سيسعده الزواج منك.

ــ أتركْ لهذا المسكين وقتاً ليتنفس، قالت بابتسامة صغيرة.

ــ لو كنت تهتمين باللباس قليلاً، وبالظهور جميلة كما في الماضي، كان يتزوجك.

---

(١) مركبة يجرها جوادان متعاقبان (م).

لكنك لا تقومين بأي جهد، بل تكتفين بالبقـاء في هذه الغـرفة الـوسخة وأنت بهـذه الهيئة المخيفة.

يا أمي المسكينة! كم آسف بسبب تلك الكلمات! لم أكن أدرك أن سوء التغذية هو الذي كان يضعفها. مع ذلك بذلت في اليوم التالي جهداً فوق طاقة البشر لتنظيف المنزل.

كانت تلك فترة العطلة الصيفية في المدرسة، وقد قررت إذاً أن أذهب باكراً إلى بيت آل مكارثي، وذلك هرباً من بؤس سقيفتنا. ولقد دعوني للبقاء على الغذاء، لكني كنت أحدس بضرورة العودة إلى البيت لرؤية أمي. وحين وصلت إلى باونال تيراس، أوقفني أولاد من الحي على الباب، وقالت لي فتاة صغيرة:

ــ لقد جُنّت والدتك.

وقد أحسست كما لو أن أحداً صفعني، وتمتمت:

ــ ماذا تقولين؟

ــ هذا صحيح، قالت أُخرى، لقد جاءت تدق على الأبواب وهي تـوزع قطع فحم وتقول إن تلك هدايا أعياد ميلاد للأولاد. يمكنك أن تسأل أمي.

لم أعد أريد أن أسمع أي شيء آخر، ودخلت البيت بسـرعة، وتسلقت الـدرج قفزاً وفتحت باب غرفتنا. وقد تجمدت لحظة لأستعيد أنفاسي وأنا أتفحص وجه أمي بانتباه. كان ذلك بعد ظهر يوم من أيام الصيف، وكان الطقس ثقيلاً وقائظاً. كانت أمي جالسة كالعادة عند النافذة، وقد أدارت رأسها ببطء لتنظر إليَّ، ووجهها شاحب ومعذَّب.

وصرخت تقريباً: ماما!

ــ ماذا دهاك؟ قالت بلهجة شاردة.

فهرعت وجثوت قربها، ثم أخفيت وجهي في ثنايا فستانها واجهشت بالبكاء.

ــ إهدأ، إهدأ!، قالت بلطف وهي تداعب رأسي ماذا هنالك؟

ــ أنتِ مريضة! صرخت وأنا أواصل البكاء.

ــ كلا، أنا بصحة جيدة، قالت بلهجة مُطَمْئِنة. وكانت تقول ذلك بشرود كبير، مشغولة البال إلى أبعد الحدود...

ــ كلا! كلا! يبدو أنكِ قرعت على كل الأبواب و... (لما كنت عاجزاً عن إكمـال جملتي، عدت إلى البكاء).

ــ كنت أبحث عن سيدني، فهم يخفونه عني.

ففهمت عندئذ أن ما كان الصغار يقولونه كان صحيحاً.

ــ أوه! يا أماه، لا تتحدثي بهذه الطريقة! أرجوك! أرجوك! انتظري، سوف أمضي بحثاً عن طبيب.

فاستأنفت، وهي مستمرة في مداعبة رأسي:

ـ آل مكارثي يعرفون أين هو، لكنهم يخفونه عني.

ـ أماه، أرجوك، دعيني أذهب للبحث عن طبيب! (ثم نهضت وتوجهت إلى الباب).

فتطلعت نحوي مهمومة وقالت:

ـ إلى أين أنت ذاهب؟

ـ سأبحث عن طبيب، وأعود في الحال.

ومن دون أن تجيب، تابعتني بنظرها بقلق. فنزلت الدرج سريعاً إلى بيت المالكة وقلت:

ـ يجب أن أجد طبيباً في الحال، فوالدتي ليست على ما يرام.

ـ لقد طلبنا طبيباً، قالت المالكة.

كان طبيب الحي عجوزاً مدمدماً، وقد استمع لرواية المالكة، التي كانت تتفق مع رواية الأولاد، ثم فحص أمي بسرعة وقال:

ـ إنها مجنونة، ويجب نقلها إلى المستشفى.

ثم كتب الطبيب وصفة كان بين الأمور التي أوضحها فيها أن والدتي تعاني من سوء التغذية، وهذا يعني ـ كما شرح لي ـ أنها لم تكن تأكل كفاية. وقد قالت المالكة لتعزيني:

ـ سوف تتحسن حالها هناك، ويتوفر لها ما تأكله.

ثم ساعدتني في جمع أغراض والدتي، وإلباسها. أما أمي فكانت مطيعة كطفل؛ كانت ضعيفة إلى حد أنها كانت تبدو كما لو أنها فقدت كل إرادة. وقد غادرنا المنزل، فيما كان الجيران والأولاد المتجمعون على عتبة الباب يتطلعون إلينا مذهولين.

كانت المستشفى على بعد ١٥٠٠ متر تقريباً. وقد قطعت أمي المسافة وهي تتعثر من الضعف كامرأة سكرى، مائلة من جهة إلى أخرى، ومع ذلك فأنا كنت أسندها. أما شمس ما بعد الظهر القاسية فكانت تبدو تكشف بلا رحمةٍ حقيقة كوننا. ولا بد أن الناس الذين كانوا يلتقوننا كانوا يعتقدون أن أمي مصابة بالسُّكْر، لكنهم كانوا يظهرون لي كأشباح في حلم. لم تكن تتكلم، لكن كان يبدو أنها تعرف إلى أين نمضي، وأنها مستعجلة للوصول. في الطريق، حاولت أن أطمئنها وابتسمت، لكنها لم تتكلم لشدة ضعفها.

حين وصلنا أخيراً إلى المستشفى، استلمها طبيب شاب. وبعد أن قرأ كلمة الطبيب، قال بلطف:

ـ حسناً، سيدة شابلن، تعالي من هنا.

فأطاعت دون تردد. لكن في حين كانت الممرضات يأخذنها، استدارت فجأة، مدركة بألم أنها تبتعد عني.

ـ إلى الغد، قلت بلهجة أردت أن تبدو فرحة.

وقد تركت الممرضات يقدنها، ناظرة نحـوي بقلق، وحين اختفت، استدار الـطبيب نحوي وقال:

ــ وأنت، ماذا ستفعل يا فتى؟

لما كنت تحملت ما فيه الكفاية من مدارس المأوى، أجبت بتهذيب.

ــ سوف أسكن عند خالتي.

في طريق العودة من المستشفى، كان الحزن يُبلِّد ذهني. لكني كنت مثلج الصدر في الوقت نفسه، لأني كنت أعرف أن أمي ستكون في المستشفى في وضع أفضل من وضعها وهي جالسةً وحدها في تلك الغرفة المظلمة، لا تجد ما تأكله. لكنني لن أنسى أبداً تلك النظرة الملتاعة التي أرسلتها نحوي حين أخذوها. كنت أفكر في كل ما يجعلها عزيزة على قلبـي، بمرحها ورقتهـا ومحبّتها؛ كنت أتـذكر تلك القـامة الصغيـرة المتعبة التي تسيـر في الشارع بخطوات ثقيلة من التعب، وبملامح مهمومة إلى حين كانت تراني راكضاً نحوها؛ وكنت أتذكر كيف كانت تتغير في الحال وتشرق بالبسمة في حين ألقي نظرة جشعة على كيس الورق الذي كانت تحمل فيه إلينا، أنا وسيدني، حلويات صغيرة. حتى في ذلك الصباح، كانت قد اشترت ملبّسات قدمتها لي في حين كنت أبكي، متكوراً على ركبتيها.

لم أعد مباشرة إلى المنزل، إذ لم يكن يمكنني ذلك، بل توجهت نحو سوق نيو وينغتون باتس، ونظرت إلى الواجهات حتى العصر. وحين عدت إلى سقيفتنا، بدت لي فارغة ومؤنّبة. كان هناك طشت على كرسي، وكان نصف ملآن، وفيه قميصان لي وقميص داخلي لأمي. وقد رحت أفتش في كل مكان، لكن لم يكن في النملية من طعام غير علبة شاي نصف فارغة. وعلى المدخنة، وجدت صرة أمي وفيها ثلاث قطع من فئة النصف بنس، ومفاتيح وعدة وصول من المقرض لقاء رهون. وعلى زاوية الطاولة، كانت لا تزال الملبّسات التي قدمتها لي. وقد خانتني أعصابـي عندئذ، وانفجرت بالبكاء من جديد.

كانت كل تلك الانفعالات قد أنهكتني، فنمت نوماً عميقـاً في تلك الليلة، لأستيقظ صباحاً وأنا أشعر بالفراغ يطغى على الغرفة، وحتى الشمس التي كانت تغمر أرض البيت، كانت تشير هي الأخرى إلى غياب والدتي. وقد صعدت المالكة بعد قليل لتقول لي إن في وسعي البقاء إلى حين تكون وجدت مستأجراً جديداً للغرفة، وإنه إذا كنت بحاجة لشيء آكله، ما عليّ سوى أن أطلب. وقد شكرتها وقلت لها إن سيدني سيرد كل ديوننا حين يعود لكني كنت خجلاً بحيث لم أطلب منها شيئاً أسدّ به جوعي.

لم أذهب لرؤية أمي في اليوم التالي كما وعدت. لم أكن أستطيع ذلك، إذ كان الأمر سيهزني بعمق. لكن المالكة رأت الطبيب الذي أخبرها أن أمي قد نُقلت إلى مأوى كاين هيل. وقد أراح هذا الخبر المحزن ضميري، لأن كاين هيل على بعد أكثر من ثلاثين كيلومتراً، ولم يكن لدي أي وسيلة للذهاب إلى هناك. ثم إن سيدني لن يتأخر في العودة، وسيكون في وسعنا

الذهاب معاً لرؤيتها. وقد بقيت عدة أيام لا أرى أحداً من معارفي، ولم أخاطب أحداً من الناس.

كنت أنسل خفيةً، في الصباح الباكر، وأبقى في الخارج طيلة النهار. وكنت أنجح دائماً في إيجاد ما آكله في مكان ما؛ ثم إن تفويت وجبة ما لم يكن أمراً مخيفاً. وقد فاجأتني المالكة ذات صباح فيما أنا أنزل الدرج على رؤوس الأصابع، وسألتني إذا كنت أخذت فطوري فهززت رأسي بالنفي.

ـ تعال إذاً، قالت لي بلهجتها الخشنة.

كنت أتجنب آل مكارثي، لأني لم أكن أريد إطلاعهم على حال أمي. وكنت أتجنب الناس جميعاً مثل شخص متشرد هارب.

كان قد مر أسبوع على ذهاب أمي، وكانت حياتي من الهشاشة ورقة الحال بحيث لم تكن تأتيني بالأحزان العميقة، ولا بالأفراح الحقيقية. وكان الشيء الرئيسي الذي يشغل بالي هو مالكة البيت، لأنه إذا لم يعد سيدني عاجلاً أو آجلاً، ستكون مضطرة لإعلام سلطات الخورنية بأمري، بحيث يرسلونني من جديد إلى مدرسة هانويل. كنت أتحاشاها إذاً، إلى حد النوم أحياناً خارج البيت.

وقد تعرفت إلى كسّاري حطب كانوا يعملون في زاروب خلف كيننغتون رود. كانوا أناساً محطَّمين حقاً يكدّون في عنبر يكاد لا يدخله النور، ويتكلمون بصوت ناعم وشبه هامس، ناشرين الخشب وقاطعينه كل النهار ليجعلوا منه أحمالاً بنصف بنس لكل منها. كنت أجرجر قدميّ طويلاً أمام الباب المفتوح لأراقبهم. كانوا يأخذون كتلة خشبية بقطر مقداره ٣٠ سم، فيقطعونها قطعاً سماكة كل منها ٢ إلى ٣ سم، ثم يقصون هذه الشرائح ليصنعوا منها وَقْشاً[٢]. وكانوا يقطعون الخشب بسرعة هائلة بحيث كان ذلك يفتنني، وكان عملهم يثيرني، فلم أتأخر في مدّ يد المساعدة إليهم. كانوا يبتاعون ألواحاً سميكة من الخشب من مؤسسات هدم، وينقلونها إلى عنبرهم حيث يكدسونها. وكان ذلك يكلفهم على الأقل نهاراً بطوله، ثم ينشرون الخشب في اليوم التالي، ويقطِّعونه في اليوم الثالث. وفي يومي الجمعة والسبت، يبيعون حطب التدفئة. لكن لم يكن البيع هو الذي يثير اهتمامي، بل جو النادي هذا الذي كان يسود في الهنغار الذي يعملون فيه. كان هؤلاء الناس الودودون وقليلو الكلام يقاربون الأربعين من العمر، لكن يبدون أكبر بكثير. وكان للمعلم (كما كانوا يسمونه) أنف أحمر كأنفِ مصابٍ بالسكري، وناب واحد في الفك الأعلى. إلا أن وجهه كان يعبر عن أكبر قدر من اللطف. كانتْ له ابتسامة مضحكة تكشف سنه الوحيدة بصورة مدهشة. وحين كان ينقص فنجان للشاي، كان يأخذ علبة فارغة من علب الحليب المكثف فيغسلها ثم يقول باسماً: «ألا تقوم هذه بالوظيفة؟» أمارفيقه، فمع أنه كان ودوداً هو الآخر، إلا أنه كان صامتاً، وكانت بشرته ميالة إلى الاصفرار، وشفتاه سميكتين وكان يتكلم ببطء. حوالي الواحدة، كان المعلم يستدير نحوي ويسأل:

(٢) قطع خشب صغيرة لإشعال النار (م).

ـ ألم تذق يوماً الخبر الويلزي[1] المحمص المدهون بالجبنة؟

ـ غالباً ما نفعل ذلك»، أجبته.

وقد هلّل من الفرح وابتسم، ثم أعطاني قطعة من فئة البنسين، فذهبت إلى أشي، السمّان الذي يقوم محله في زاوية الشارع، والذي كان يحبني كثيراً ويغدق لي العطاء مقابل مالي؛ وقد اشتريت رقاقات جبن ببنس، وخبزاً ببنس. وبعد غسل الجبن وبرشه، كنا نضيف الماء وقليلاً من الملح والبهار. وكان المعلم يضع أحياناً في المزيج قليلاً من قديدة الخنزير، وبصلة مقطعة إلى شرائح، وهو الأمر الذي كان يشكل مع الشاي الساخن وجبة شهية جداً.

ومع أني لم أطلب مالاً أبداً، فقد أعطاني المعلم في نهاية الأسبوع ستة بنسات، فكان ذلك مفاجأة لذيذة بالنسبة لي.

كان جُو، الرجل ذو البشرة الصفراء، يصاب بنوبات الصرع، وكان المعلم يحرق الورق تحت أنفه لجعله يستعيد رشده. وكان أحياناً يرغي ويزبد ويعض لسانه، وحين يستعيد وعيه يبدو في هيئة مؤثرة ويظهر على وجهه الخجل.

كان كسّارو الحطب يعملون من السابعة صباحاً إلى السابعة مساء، وأحياناً إلى ساعة أكثر تأخراً، وكنت أحس دائماً ببعض الحزن حين يقفلون عنبرهم عائدين إلى بيوتهم. وقد قرر المعلم، ذات مساء، أن يقدم لنا مقعداً في الرواق ببنسين في مسرح منوعات جنوب لندن. كنا، جو وأنا، قد جئنا مغتسلين ونظيفين، ورحنا ننتظره. كنت متحمساً جداً لأنهم كانوا يمثلون في ذلك الأسبوع إيرلي بوردس Early Birds، كوميديا فريد كارنو (وهي الفرقة التي سأصبح عضواً فيها بعد سنوات). كان جو مستنداً إلى الحائط وأنا واقف مقابله، مرتعشاً من الحماس والإثارة، حين أطلق زأرة مفاجئة وسقط جانبياً، تحت تأثير واحدة من تلك النوبات التي كانت تصيبه. كان قد ابتهج كثيراً بتلك الأمسية. وقد أراد المعلم أن يبقى للاهتمام به، لكنه ألح علينا كي نذهب كلانا من دونه، مؤكداً أنه سيكون على ما يرام عند الصباح.

كان تهديد المدرسة مثل غول لا يفارقني أبداً. ومن حين لآخر، كان كسّارو الخشب يطرحون علي أسئلة بهذا الصدد. كانوا يبدون متضايقين قليلاً حين انتهت العطلة، لذا لم أكن أذهب للانضمام إليهم إلا بعد الرابعة والنصف، حين تكون المدرسة أقفلت أبوابها. لكن كان نهار الوحدة طويلاً في بريق الشوارع التي تفتقد الحنان، حيث كنت أنتظر ساعة نهاية المدرسة للالتحاق بخلوتي وبأصدقائي كسّاري الحطب.

ذات مساء، فيما كنت أصعد من دون ضجيج لأنام، نادتني المالكة. كانت قد بقيت تنتظرني، وقد بدت مثارة وسلمتني برقية كُتب فيها: «أصل الساعة العاشرة من صباح غد، محطة واترلو، تحياتي. سيدني».

---

(١) نسبة إلى مقاطعة ويلز الانكليزية (م).

كان لي شكل يرثى له لاستقبال أخي في المحطة. فثيابي متسخة وممزقة، وحذائي مفتوح، وبطانة كسكيتي تظهر مثل تنورة داخلية من تحت فستان امرأة؛ أما بخصوص زينتي فلقد كنت أقوم بها بواسطة حنفية كسّاري الحطب، لأن ذلك كان يعفيني من أن أصعد بدلو ماء إلى الطابق الثالث، وأعبر من أمام مطبخ المالكة. وحين إلتقيت سيدني، كانت أذناي وعنقي تفتقر إلى النظافة.

نظر إليّ متفحصاً وقال:

ـ ماذا جرى؟

فأجبته من دون لف أو دوران:

ـ أمنا فقدت عقلها وتوجب إرسالها إلى المأوى.

اسود وجهه لكنه تمكن من السيطرة على نفسه، ثم سألني:

ـ وأين تسكن الآن؟

ـ في المكان ذاته، في باونال تيراس.

استدار للاهتمام بأمتعته ولاحظت أنه كان يبدو شاحباً وهزيلاً. وقد طلب عربة وقام الحمالون بتكديس أمتعته على السطح، ولا سيما صندوق موز!

وسألته:

ـ هل هذا لنا؟

فأجاب بالإيجاب، لكنه أضاف:

ـ لا تزال فجة، ويجب انتظار يوم أو يومين قبل أكلها.

وخلال المسافة إلى المنزل، راح يطرح عليَّ أسئلة بخصوص أمنا. كنت شديد العصبية بحيث عجزت عن تقديم رواية متماسكة، لكنه فهم الوضع. وقد أوضح لي عندئذ أنه اضطر للبقاء للحصول على العناية الطبية في أحد مستشفيات الكاب، وأنه خلال رحلة العودة كان قد وضع جانباً عشرين ليرة كان ينوي إعطاءها لأمي. كان قد كسبها بتنظيم تومبولا ويانصيب للجنود.

ثم حدثني عن مشاريعه. كان ينوي الكف عن الإبحار ليصبح ممثلاً كوميدياً. وقد حسب بأن هذا المال يتيح لنا الصمود عشرين أسبوعاً يتمكن خلالها من البحث عن عمل.

كان لوصولنا في عربة، مع صندوق موز تأثير كبير على الجيران كما على المالكة. وقد حدثت سيدني عن أمنا، لكن من دون الدخول في التفاصيل المؤلمة.

في اليوم ذاته نزل سيدني إلى السوق للتبضع، وجهزني من البابوش إلى الطربوش، وفي ذلك المساء، كنا في أزهى ثيابنا، وجلسنا في شرفة مسرح منوعات جنوبي لندن. وخلال العرض، لم يكف سيدني عن القول: «فكِّرْ في ما كان يمكن أن تكون هذه الأمسية بالنسبة للماما».

ذهبنا في ذلك الأسبوع إلى كاين هيل لرؤيتها. كنا جالسين في قاعة الزيارات، وقد تحوَّل الانتظار مع الوقت إلى حالة لا تحتمل. وأنا أتذكر ضجة المفتاح في قفل، وأمي داخلة إلى القاعة. كانت تبدو شاحبة، وشفتاها زرقاوين، ومع أنها عرفتنا، كان ذلك من دون حماس، فلقد اختفت حيويتها السابقة. كانت معها ممرضة، وكانت مخلوقة غير مؤذية وثرثارة، بقيت متسمرة هناك، مع رغبة في المشاركة بالحديث.

ـ من المؤسف أن تكونا جئتما في هذا الوقت، لأننا لسنا اليوم في أحسن حالاتنا، أليس كذلك يا عزيزتي؟

رمتها أمي بنظرة مهذبة ورسمت ابتسامة خفيفة كما لو كانت تنتظر مغادرتها. أما هي فتابعت قائلة:

ـ سيكون عليكما العودة حين تتحسن أحوالنا.

لكنها ذهبت أخيراً وبقينا وحدنا. وبالرغم من جهود سيدني لإبهاج أمنا، بالحديث عن الثروة التي جمعها وشرح أسباب تغيبه وقتاً طويلاً، اكتفت بالإصغاء وهز رأسها، وهي شاردة ومشغولة البال، وقد أكدت لها أنها ستتعافى سريعاً.

ـ بالتأكيد، قالت بنبرة تفيد الأسف، فقط لو أنك أعطيتني فنجان شاي بعد ظهر ذلك اليوم، لكان وضعي على ما يرام.

وقد شرح الطبيب لسدني بعد ذلك أن سوء التغذية أثر على قدرتها العقلية، وأنها بحاجة للعناية وحتى لو استعادت تلك القدرة أحياناً فسوف تلزمها أشهر قبل أن تتعافى بالكامل. وعلى مدى أيام كانت تطاردني تلك الجملة التي قالتها لي: «فقط لو أنك أعطيتني فنجان شاي بعد ظهر ذلك اليوم، لكان وضعي على ما يرام».

كان جوزف كونراد هو الذي كتب لأحد أصدقائه أن الحياة تعطيه الانطباع بأنه جرذ أعمى في زاوية، ينتظر أن يصرعه أحد ما. وهذا التشبيه يمكن أن ينطبق تماماً على الظروف البائسة التي نعيشها كلنا. بيد أن بعضنا يتلقون ضربة سعيدة، ضربة حظ، وهذا هو ما حصل لي.

لقد عملت بائع جرائد، وعامل مطبعة، وصانع ألعاب، ونافخ زجاج، وساعياً لدى طبيب، الخ، لكن وسط كل هذه المغامرات المهنية لم يغب عن نظري يوماً، مثلي مثل سيدني، هدفي النهائي وهو أن أصير ممثلاً هزلياً. لذا بين مهنتين، كنت ألمّع حذائي، وأنظف ثيابي، وأضع طوقاً نظيفاً وأذهب إلى وكالة بلاكمور المسرحية، في بدفورد ستريت بجانب الستراند. ولقد كررت ذلك إلى اليوم الذي منعني فيه وضع هندامي من القيام بزيارة جديدة.

في أول مرة ذهبت فيها إلى هناك، كان المكتب يتزيّن بعابدين لتيسبيس[1] Thespis من الجنسين، وهم يرتدون ثياباً لا يُعلى عليها، ويتحدثون واقفين أحاديث مفخّمة طنانة. وكنت أنتظر مرتجفاً في زاوية قرب الباب، وأنا في قمة الخجل، محاولاً إخفاء بذلتي المهترئة بسبب تقلبات الطقس، وحذاءيّ المشوّهين قليلاً عند أصابع القدمين. وكان مستخدم شاب يظهر دورياً على عتبة المكتب الخلفي، وكانت كلماته تسقط كحبات البَرَد على تطلعاتنا المسرحية حين يبدأ بالصياح: «لا شيء لك... ولا لك... ولا لك»، فيفرغ المكتب بعد ذلك مثل كنيسة في نهاية القداس. وقد حدث مرة واحدة أن كنت آخر من بقي! وقد توقف المستخدم فجأة حين رآني، وسأل:

- ماذا تريد؟

تخيلت أني أوليفر تويست يطالب بالمزيد، وتمتمت:

- أليس لديكم دور فتى؟

- هل أنت مسجّل؟

فهززت رأسي بالإيجاب، ويا لدهشتي حين أدخلني إلى المكتب المجاور، وأخذ

(١) شاعر إغريقي من القرن السادس قبل الميلاد، يعتبر أبا الفن التراجيدي (م).

أسمي وعنواني وكل المعلومات الضرورية، قائلاً إنه سيبلغني إذا سنحت فرصة. وقد مضيت ولديَّ انطباع لذيذ بأني أديت واجباً، لكنني مرتاح لأن شيئاً لم يَنْتُجْ من ذلك.

لكن بعد شهر على عودة سيدني، تلقيت بطاقة بريدية تقول: «هل لكم أن تأتوا إلى وكالة بلاكمور، شارع بدفورد؟»

كنت أرتدي بذلتي الجديدة، ولقد جرى إدخالي إلى مكتب السيد بلاكمور شخصياً، الذي استقبلني بالبسمة والمودة. استقبلني السيد بلاكمور، الذي تخيلته كائناً كلي القدرة وذا نظرة فاحصة، بالكثير من الطيبة وأعطاني كلمة إلى السيد س. هاملتون، في إدارة مسرح تشارلز فرومان.

قرأ السيد هاملتون الرسالة وبدا متسلياً ومتفاجئاً إزاء قصر قامتي. وبالطبع، كذبت بخصوص عمري: قلت له إني في الرابعة عشرة، في حين كنت في الثانية عشرة والنصف. وقد أوضح لي أني سألعب دور بيلي، وصيف شرلوك هولمز الصغير، في جولة تدوم أربعين أسبوعاً وتبدأ في الخريف.

ـ في غضون ذلك، قال السيد هاملتون، هنالك دور ممتاز لفتني في مسرحية جديدة بعنوان جيم، قصة أحد أبناء لندن، وهي من إنتاج السيد هـ. أ. سانتسبوري، الممثل الذي سيلعب دور البطل في **شرلوك هولمز**، خلال الجولة القادمة.

سوف يجري تمثيل مسرحية جيم في كينغستون، لعدة عروض تجريبية قبل جولة **هولمز**. أما أجري فسيكون ليرتين وعشرة شلنات في الأسبوع، وهو الأجر ذاته الذي سأحصل عليه في **شرلوك هولمز**.

ومع أن ذلك المبلغ كان نعمة غير متوقعة، لم تطرف عيناي، وقلت بلهجة رصينة:

ـ يجب أن أستشير أخي بالنسبة للشروط.

فانفجر السيد هاملتون ضاحكاً، وظهر عليه أنه وجد ملاحظتي مسلية جداً، ثم استقدم كل موظفي الوكالة ليروني وقال:

ـ هذا هو بللي! ما رأيكم فيه؟

كان الجميع مسلوبي اللب، وقد أغدقوا عليَّ الابتسامات. ما الذي جرى؟ يخيل لي أن العالم تغير فجأة، وضمني إلى صدره بحنان وتبناني. وقد أعطاني السيد هاملتون بعد ذلك كلمة إلى السيد سانتسبوري، الذي قال لي إني سأجده في نادي غرين روم في لايستر سكواير. وقد غادرت المكان وأنا أكاد أطير من الفرح.

تلقيت الاستقبال ذاته في نادي غرين روم، إذ دعا السيد سانتسبوري أعضاء آخرين في النادي ليروني. وقد أعطاني في الحال نص دور سامي، وقال لي إن هذا أحد الأشخاص المهمين في مسرحيته. وقد أحسست ببعض العصبية إزاء فكرة أنه ربما سيطلب مني قراءة النص على الفور، الأمر الذي سيكون مربكاً، لأني لا أعرف القراءة عملياً. لحسن الحظ أنه

طلب مني أن آخذ النص معي وأقرأه على راحتي، لأن التمرينات لن تبدأ قبل أسبوع.

عدت بواسطة الباص، منتشياً من السعادة، وبدأت أستوعب حقاً ما الذي حصل لي. كنت قد خرجت فجأة من حياة الفقر ودخلت في حلم كان يراودني منذ زمن طويل، حلم طالما حدثتني عنه أمي، وكان يثير البهجة في نفسها. كنت على وشك أن أصبح ممثلاً! وقد حدث ذلك فجأة، وبصورة غير متوقعة! لم أنفك أتصفح نصي ـ وكان له غلاف من الورق الأسمر الجديد ـ ولقد كان حقاً الوثيقة الأهم التي حدث أن أمسكتها بيديَّ. خلال المسافة التي قطعها بي الباص، فهمت أني تجاوزت مرحلة مهمة. لم أعد واحداً من الأشخاص المغمورين الذين يتسكعون في الضواحي، بل بت الآن في عالم المسرح. وشعرت برغبة في البكاء.

اغرورقت عينا سيدني بالدموع حين رويت له ما جرى. كان جالساً على السرير، يتطلع من النافذة كما لو كان يحلم، محرِّكاً رأسه بشكل خفيف حيناً، وبقوة حيناً آخر. ثم قال بصورة جدية:

ـ نحن الآن عند منعطف في حياتنا. ويا ليت أمنا كانت هنا لتستمتع معنا بذلك!

أما أنا فتابعت كلامي بحماس:

ـ تخيَّلْ: أربعون أسبوعاً، وليرتان وعشرة شلنات في الأسبوع! لقد قلت للسيد هاملتون أنك أنت الذي تهتم بعقودي ـ وأضفت بحرارة ـ وربما يمكننا الحصول على مبلغ أكبر. في كل حال، سيكون في وسعنا هذا العام أن نوفِّر ستين ليرة استرلينية!

وبعد أن هدأ حماسنا، قررنا أن ليرتين وعشر شلنات ليست أجراً كافياً لدور بهذه الأهمية وقد ذهب سيدني ليرى إذا بإمكانه أن يرفع الأجر (كنت قد قلت له إن في وسعنا دائماً أن نحاول)، لكن السيد هامتلون لبط الأرض برجله، قائلاً: «هذا أقصى ما يمكن إعطاؤه: ليرتان وعشرة شلنات، لا أكثر ولا أقل!». وقد كنا سعيدين بالحصول على هذا المبلغ.

قرأ لي سيدني الدور وساعدني في حفظ النص عن ظهر قلب. ولقد كان دوراً كبيراً، حوالي ٣٥ صحفة. لكنني حفظته في ثلاثة أيام.

تمت التمرينات على جيم في مجمَّع مسرح دروري لاين، الطابق الأول. كان سيدني قد بذل معي من الجهد بحيث بت أعرف نصي تقريباً من دون أغلاط. فقط كلمة واحدة كنت أتعثّر بها؛ كان الرد: «من تعتقدني... أو تظنني السيد پيرپونت مورغان؟»، وكنت أقول: «پوترپنت مورغان». لكن السيد سانتسبوري قال لي أن أستمر في لفظها هكذا. ولقد كانت تلك التمرينات الأولى شيئاً يشبه الرؤيا. جعلتني أكتشف عالماً بكامله من التقنيات. لم أكن أعرف إطلاقاً أن ثمة تقنية للمشهد، وللإيقاع، وللفواصل الوقتية، وللردود، ولطريقة الجلوس، لكن كل ذلك جاء معي بشكل طبيعي. عيب واحد كنت أشكو منه أصلحه السيد سانتسبوري: كنت أهز رأسي وأُكْثِر من التكشيرات فيما أنا أتكلم.

بعد أن تمرنَّا على عدة مشاهد، عبَّر عن دهشته وسألني إذا سبق لي أن مثَّلت. لا

تتصوروا كم كنت فخوراً بأن أعجب السيد سانتسبوري وباقي الفرقة! لكنني تلقيت حماسهم كما لو كان أمراً بديهياً للغاية.

كنا سنلعب مسرحية جيم في مسرح كينغستون لمدة أسبوع، وأسبوعاً آخر في فولهام. كانت ميلودراما مأخوذة من **الملك الفضي Silver King** لهنري أرثر جونز: قصة ارستقراطي مصاب بفقدان الذاكرة، يعيش في سقيفة مع بائعة زهور شابة وبائع صحف، هو سامي، الذي كنت أؤدي دوره أنا. كان كل شيء ملائماً على المستوى الأخلاقي: كانت الشابة تنام في خزانة الحائط الخاصة بالسقيفة، في حين كان من حق الدوق، كما كنا نسمّيه، أن ينام على الديوان، وأنام أنا على الأرض.

الفصل الأول تجري أحداثه في الرقم ٧ أ، دڤرو كاورت، قرب قصر العدل، في مكتب جايمس سيتون غاتلوك، وهو محام ثري. يأتي الدوق في ملابس رثة، ليرى الرجل الذي كان في ما مضى غريمه في الحب، ويطلب منه الإحسان لمساعدة ولية نعمته المريضة، بائعة الزهور التي تعهدته بالرعاية خلال أزمة النسيان التي أصيب بها.

لكن البائس يقول للدوق خلال مشادة: «اخرج من هنا! ولتمت من الجوع أنت وعشيقتك بائعة الزهور!»

هنا يأخذ الدوق، رغم هزاله وضعفه، قطّاعة ورق كانت على المكتب ويهم بضرب الخائن، لكن القطّاعة تسقط من يده، بعد أن فاجأته نوبة صرع، ويسقط هو فاقداً وعيه عند قدمي الخائن. في هذه اللحظة، تدخل المكتب زوجة الخائن السابقة، التي كان الدوق ذو الأسمال البالية عشيقها في ما مضى، وتدافع بدورها عن قضية الدوق قائلة: «لقد أخفق معي؛ وأخفق في المحاماة! ويمكنك أنت على الأقل أن تساعده» لكن الخائن يرفض، ويصل المشهد إلى نقطته الحاسمة حين يتهم زوجته السابقة بأنها خانته مع الدوق المسكين، وينهال عليها بالشتائم بدوره. وفي قمة غضبها، تأخذ قطاعة الورق التي أفلتت من يدي المسكين وتطعن الخائن الذي يسقط ميتاً في مقعده، فيما الدوق لا يزال فاقداً للوعي عند قدميه. وتختفي المرأة من المشهد، بينما يستعيد الدوق وعيه ويكتشف غريمه الميت، فيصرخ: «رباه! ماذا فعلت؟»

ثم إنه ينتقل إلى العمل، فيبحث في جيوب الميت، ويجد محفظته التي يسحب منها بعض الليرات، وإلماسة وجواهر يضعها في جيبه، وفي اللحظة التي يخرج فيها من النافذة، ينظر إلى الوراء ويقول: «وداعاً يا غالتوك، لقد ساعدتني أيّاً يكن». وينزل الستار.

يجري الفصل التالي في السقيفة حيث كان يسكن الدوق. ومع رفع الستار، يُرى مفتش شرطة وهو يفحص خزانة الحائط.

أدخل وأنا أصفّر، ثم أتوقف حين أرى رجل الشرطة.

بائع الصحف: حسناً، ألا تعرف أن هذه غرفة سيدة.

المفتش: ماذا! خزانة الحائط هذه! تقدَّمْ قليلاً إلى هنا.

بائع الصحف: يا للوقاحة!

المفتش: انتبه لما تقول. ادخل واقفل الباب.

بائع الصحف: (متقدماً نحوه): أتجد هذا مهذباً، أنت، أن تدعو الناس إلى صالة استقبالهم؟

المفتش: أنا مفتش شرطة.

بائع الصحف: ماذا، أنت شرطي؟ سأولّي الأدبار!

المفتش: لن أؤذيك. كل ما أريده هو بعض المعلومات التي تساعد في اداء خدمة لأحدهم.

بائع الصحف: أداء خدمة، هذا مستحيل! فإذا كان أحدهم محظوظاً، فلن يكون ذلك أبداً بفضل رجال الشرطة.

المفتش: لا تكن أحمق. هل بدأت بالقول لك إني رجل شرطة؟.

بائع الصحف: شكراً على المعلومات. يمكن المرء أن يرى سحّاقتك(٢).

المفتش: من يسكن هنا؟

بائع الصحف: الدوق.

المفتش: نعم، لكن ما هو اسمه الحقيقي؟

بائع الصحف: لا أدري. فالدوق «اسم حربـي» كما يقول، لكني لا أعرف حقاً ما يعني ذلك.

المفتش: وكيف يبدو؟

بائع الصحف: رقيق كسيف خيّالة. شعره شائب، وذقنه حليق، وهو يضع قبعة عالية ومونوكلاً. وإذا رأيت الطريقة التي ينظر بها إليك من وراء نظارته!

المفتش: وجيم... من هو هذا؟

بائع الصحف: هذا؟ تريد أن تقول هذه!

المفتش: آه! إذاً هذه هي السيدة التي...

بائع الصحف (مقاطعاً): تنام في خزانة الحائط... هذه الغرفة هي غرفتنا، غرفتي وغرفة الدوق، الخ.

كان الدور يشتمل على ردود أخرى، وأؤكد لكم أن الجمهور كان مستمتعاً جداً، أما السبب وراء ذلك فأعتقد أنه عائد إلى كوني بدوت أصغر سناً مما كنت في الواقع. كان كل من أجوبتي يثير الضحك. لم يكن يضايقني غير اللواحق: تلك الطريقة في صنع شاي حقيقي على المسرح. لم أعد أعرف إذا كان علي أن أصب الشاي أولاً أو الماء الحار. كان من الغرابة بمكان أن أستسهل أداء نص أكثر من تنفيذ اللُعَب المسرحية.

---

(٢) السحّاقة أو Brodequins أداة تعذيب (م).

لم تحقق مسرحية جيم نجاحا، وقد وجه إليها النقاد لاذع نقدهم. لكنني حصلت مع ذلك على بعض المديح. كان أحد المقالات الذي أراني إياه عضو في فرقتنا، هو السيد تشارلز روك، جيداً بصورة خارقة. هو نفسه كان ممثلاً هزلياً قديماً في الأدلفي[٣]، وكانت له سمعة باهرة، وقد لعبت معه معظم مشاهدي. قال لي بوقار: «أيها الفتى، إقرأ هذا ولا تدع نفسك تصاب بالغرور». وبعد أن أعطاني درساً في التواضع والطيبة، قرأ لي نقد لندن توبيكال تايمز، الذي أتذكره حرفياً. فبعد عدة تعليقات فظة بخصوص المسرحية، تابع الناقد: «لكن هنالك نقطة تفصيلية تكفّر عن الكثير من المساوىء، وذلك هو دور سامي، بائع الجرائد، وهو فتى حاذق من شوارع لندن ندين له كثيراً بما في القطعة من كوميدي. فبالرغم من الجانب المبتذل والبالي في الدور، استطاع السيد شارلي شابلن، وهو ممثل هزلي شاب ولامع، مليء بالحيوية، أن يجعل من شخص سامي شخصاً مسلياً إلى أبعد الحدود. لم يسبق أن سمعت بهذا الفتى، لكنني آمل أن أسمع قريباً أشياء عظيمة عنه». وقد اشترى سيدني دزينة من النسخ.

بعد الأسبوعين اللذين مثلنا فيهما جيم، بدأنا نتمرن على شارلوك هولمز. في غضون ذلك، كنا لا نزال، أنا وسيدني، نسكن في باونال تيراس، لأننا لم نكن نشعر، على الصعيد الاقتصادي، بأننا في وضع أمين تماماً.

بين التمرينات، ذهبنا أنا وسيدني إلى كاين هيل لرؤية والدتنا. وقد بدأت الممرضات يقلن لنا إننا لا نستطيع رؤيتها لأنها ليست على ما يرام في ذلك اليوم. وقد انفردن بسيدني، لكنني سمعته يجيبهن:

ـ كلا، لا أعتقد أنه قد يريد ذلك. (ثم استدار نحوي بحزن وأضاف) ألا تريد أن ترى الماما في حجرة منجَّدة؟

ـ كلا، آه كلا! لا أحتمل ذلك!» قلت وأنا أتراجع.

لكن سيدني ذهب لرؤيتها، وعرفته أمي واستعادت وعيها. وبعد دقائق، أخبرتني ممرضة بأن أمي في حالة لا بأس بها، إذا كنت أرغب في رؤيتها، وقد جلسنا كلنا في حجرتها المنجَّدة. وقبل أن تتركنا نغادر انفردت بي وتمتمت بلهجة يائسة:

ـ لا تضيّع نفسك، وإلا يكون بإمكانهم أن يحتجزوك هنا.

بقيت ١٨ شهراً في كاين هيل قبل أن تستعيد عافيتها. لكن سيدني كان يذهب لرؤيتها بانتظام عندما أكون أنا في جولات مسرحية.

كان السيد هـ. أ. سانتسبوري، الذي لعب دور هولمز في الجولة، نسخة حية عن مشاهير الستراند ماغازين. كان له وجه طويل حساس وجبهة مُلْهَمة. وبين كل الذين لعبوا دور شرلوك هولمز، كان معتبراً الأفضل، أفضل حتى من وليام جيلت، خالق المسرحية وكاتبها.

---

(٣) مسرح لندني يقدم المسرحيات الكلاسيكية.

بخصوص أول جولة لي، قرر المنظِّم أن أسكن مع السيد والسيدة غرين، نجار الفرقة وزوجته، التي كانت ماشطة. ولم يكن ذلك لامعاً جداً. فضلاً عن ذلك، كان لدى السيد والسيدة غرين ميل إلى الشرب. زد على ذلك أني لم أكن أرغب دائماً في تناول الطعام في الوقت ذاته الذي يأكلان هما فيه، كما لم أكن أرغب في الأكل من طبخهما. وأنا مقتنع بأن تعايشي مع آل غرين كان مغيظاً لهما أكثر مما لي. لذا قررنا، بعد ثلاثة أسابيع، بالتوافق التام، أن ننفصل. ولما كنت حديث السن كثيراً لأسكن مع أعضاء آخرين في الفرقة، فقد عشت وحدي. كنت وحيداً في مدن غريبة، ووحيداً في غرف صغيرة، ونادراً ما كانت لدي اتصالات بأي كان قبل العرض المسائي، فلم أكن أسمع إلا صوتي أنا حين أكلم نفسي. ومن حين لآخر، كنت أذهب إلى المقاهي التي يجتمع فيها أعضاء الفرقة وأتأملهم يلعبون البليار؛ لكن كان لدي دائماً شعور بأن حضوري يشل أحاديثهم، وكانوا يحسِّسونني بذلك بوضوح. لم يكن في وسعي أن أبتسم لنكاتهم من دون أن ينظروا إليَّ بصرامة.

لذا سرعان ما أصبت بالكآبة. وحين كنا نصل إلى مدن الشمال مساء السبت، وأسمع رنين الأجراس الكئيب وأنا أتنزه في الشارع الكبير حين يهبط الليل، لم يكن ذلك يعزيني في وحدتي. وفي أيام الأسبوع، كنت أتسكع في الأسواق المحلية للتبضع، وأشتري منتجات بقالة ولحماً لتتولى طبخها مؤجِّرتي. وكنت أجد أحياناً غرفة مع طعام، وأتناول وجباتي في المطبخ مع العائلة. وقد كان ذلك يعجبني، لأن مطابخ الشمال كانت نقية ونظيفة، مع أثفيات حطب مصقولة جيداً ومواقد حوّلها الدخان إلى الزرقة. وحين كانت المالكة تخبز الخبز، كان أمراً مشجِّعاً أن تترك برد الشارع وظلامه لتجد نفسك أمام الإضاءة الدافئة لمطبخ في اللانكشاير، وتلمح حول المدخنة قوالب ملأى بالعجين وتتناول الشاي مع العائلة. ولقد كان طعم الخبز الساخن الخارج من الفرن والمغموس بالزبدة الطازجة شيئاً تتذوقه بفرح.

كنت في جولة منذ ستة أشهر. إلا أن سيدني لم ينجح في إيجاد عمل في المسرح، لذا اضطر للتخلي عن طموحاته كممثل هزلي والتقدم للحصول على وظيفة ساق في حانة ثقب الفحم، على الستراند. ولقد جرى اختياره من بين ١٥٠ مرشحاً. لكنه أحس بهبوط مخيف في المقام.

كان يكتب لي بانتظام ويعطيني معلومات عن أمنا، لكن نادراً ما رددت على رسائله: أولاً وقبل كل شيء لأن إملائي لم يكن مضموناً، وسليماً. وقد أثرت فيَّ إحدى رسائله تأثيراً عميقاً وقرَّبت بيننا كثيراً. كان يلومني فيها على عدم الرد على رسائله ويسترجع المآسي التي تحملناها معاً والتي كان يجب أن توحِّد بيننا بشدة. «منذ مرض الوالدة، كتب سيدني، لم يعد لأحدنا في هذا العالم غير الآخر. يجب إذاً أن تكتب لي بانتظام بحيث أتذكر أن لدي أخاً». وقد كانت رسالته مؤثرة إلى حد أني أجبته على الفور. ومذاك رأيت سيدني من منظار آخر. لقد أججت رسالته حباً أخوياً دام طيلة حياتي.

كنت أعتاد على العيش وحيداً، لكنني كنت فقدت عادة الكلام إلى حد أني كنت أشعر

بالارتباك الشديد حين التقي فجأة أحد أعضاء الفرقة. لم أكن أتوصل لاستعادة رشدي بسرعة كافية للإجابة بذكاء عن الأسئلة التي كانوا يطرحونها عليّ، وأنا مقتنع بأنهم كانوا يتركونني وهم قلقون بعض الشيء على سلامة عقلي. هكذا كانت الآنسة غريتاهاهن، نجمتنا النسائية، فتاة جميلة وفاتنة وطيبة القلب؛ إلا أني حين كنت أراها تجتاز الشارع في اتجاهي، كنت أسارع إلى الاستدارة للنظر إلى واجهة، أو أني كنت أدخل في شارع آخر بهدف تحاشيها.

وقد وصل بي الأمر إلى حد إهمال نفسي، وعدم الاهتمام بهندامي. وحين كنت أسافر مع الفرقة، كنت أتأخر دائماً في الوصول إلى المحطة، ولا أبلغها إلا في اللحظة الأخيرة، وأنا منبوش الشعر وبدون ياقة، وهو الأمر الذي كان يتسبَّب لي دائماً بالتوبيخات.

وبهدف التخلص من الوحدة، اشتريت أرنباً كنت أدخله إلى غرفتي بغير علم من المالكة في كل مكان أنزل فيه. كان حيواناً صغيراً فاتناً، لكنه غير مدرب على العيش في شقة. وقد كان وبره أبيض ونظيفاً إلى حد أنه لم يكن بالإمكان تصديق رائحته الحادة. كنت أحتفظ به في قفص خشبي مخفي تحت سريري. وكانت المالكة تدخل بمرح إلى الغرفة حاملة إليّ فطوري، لكن حس الشم لديها كان يلتقط الرائحة فتغادر المكان متفاجئة ومشغولة البال. وما إن كانت تخرج حتى كنت أطلق سراح الأرنب الذي يقفز في كل مكان.

لم ألبث أن روّضت الأرنب على الإسراع إلى قفصه حالما يدق أحدهم الباب. فإذا اكتشفت المالكة سري، كنت أجعل الأرنب يقوم بهذه الحركة، فيرق قلب السيدة عموماً وتتحملنا حتى نهاية الأسبوع.

لكن في تونيباندي، في بلاد الغال، حين أريت المالكة ما يعرف أرنبي أن يقوم به، ابتسمت بصورة محيِّرة وامتنعت عن أي تعليق؛ لكن حين عدت من المسرح في ذلك المساء، كان رفيقي الصغير قد اختفى. وحين سألت المالكة عنه اكتفت بهز رأسها، وقالت:

ـ يبدو أنه هرب، أو سرقه أحد ما.

كانت قد وجدت بنفسها حلاً فعالاً للمشكلة..

ومن تونيباندي، ذهبنا إلى مدينة أيبو ڤايل المنجمية، حيث كان علينا أن نقدم ثلاثة عروض، وقد هنأت نفسي لأن الإقامة هناك لم تكن أطول، إذ كانت أيبو ڤايل في ذلك الزمن بلدة رطبة وباردة، تضم صفوفاً من المنازل البشعة لشدة ما هي موحدة الشكل، التي يشتمل كل منها على أربع غرف صغيرة تضيئها مصابيح على الكاز. وقد أقام معظم أعضاء الفرقة في فندق صغير. ولحسن الحظ، وجدت غرفة لدى عائلة عمال للمناجم، ومع أنها كانت صغيرة، كانت مريحة ونظيفة. وفي المساء، بعد المسرحية، كانوا يتركون لي عشائي قرب النار كي لا يبرد.

كانت المالكة، وهي امرأة طويلة وجميلة، بين الشباب والكهولة، تسحب خلفها هالة المأساة. كانت تصل في الصباح مع فطوري وتكاد تكلمني. وكنت ألاحظ أن باب المطبخ مغلق دائماً. وفي كل مرة كنت أريد شيئاً ما، كان علي أن أقرع، فيُشَق الباب شقاً لا أكثر.

في المساء التالي، فيما كنت أتعشى وصل زوجها، وكان رجلاً في عمرها تقريباً. كانت قد ذهبت إلى المسرح في ذلك المساء، وأحبت المسرحية. وقد بقي يتحدث بعض الوقت، وهو يمسك بشمعة مشتعلة، ويستعد للنوم. إلا أنه توقف فجأة، وبدا كما لو كان يفكر في ما يريد قوله.

ـ أصغ إلي، لديّ شيء قد يهمكم في مهنتكم. هل رأيتم يوماً ضفدعاً بشرياً؟ هاك الشمعة، سوف آخذ المصباح.

وسبقني إلى المطبخ ووضع المصباح على صوان السُّفرة الذي كان لجزئه السفلي ستارة بمثابة باب. فأزاح الستارة وقال:

ـ جيلبيرت، أخرج من مكانك!

فخرج نصف رجل ليس له ساقان، مع رأس ضخم أشقرٍ ومسطح، ووجه مصاب بالشحوب، وأنف أجوف، وفم كبير، وكتفين قويتينِ وذراعين معضَلين، وهو يزحف من تحت الصوان. كان يرتدي سروالاً داخلياً من الفلانيلا قُصَّ ساقاه عند مستوى الفخذين، وكانت تخرج منه عشرة أصابع قدم قصيرة وسميكة. كان يمكن أن يكون عمر المسخ البشري عشرين أو أربعين سنة. وقد رفع عينيه وهو يضحك ساخراً، كاشفاً أسناناً صفراء ومتباعدة.

قال الأب:

ـ هيا يا جيلبرت، أقفز!

وانحنى المسكين ببطء، ثم قفز مستنداً على ذراعيه بحيث وصل إلى علو رأسي.

ـ ألا ترى أن في وسعه أن يجد مكاناً له في سيرك؟ هذا الضفدع البشري!

كنت مرعوباً إلى حد أني بالكاد كان يمكنني الإجابة. لكنني اقترحت أسماء عدة سيركات يمكنه أن يكاتبها.

وقد أصر على جعل الضفدع المسكين يؤدي أدواراً أخرى، كالقفز، والتسلق، والتوازن فيما اليدان ممسكتان بذراعي كرسي هزاز. وحين انتهى من كل ذلك، تصنعت الحماس الشديد، وهنأته.

ـ «ليلتك سعيدة، يا جيلبرت»، قلت قبل أن أخرج، وأجابني الولد المسكين بصوت مخنوق:

ـ ليلة سعيدة.

وقد استيقظت مراراً خلال الليل، وتحققت من كون بابي مقفلاً تماماً. وفي الصباح الباكر، بدت لي المالكة أكثر وداً وأكثر كلاماً من المعتاد.

ـ يبدو أنك رأيت جيلبرت مساء أمس، قالت. طبعاً، هو لا ينام تحت الصوان إلا حين ينزل عندنا ممثلون مسرحيون.

وقد خطر ببالي عندئذ أني نمت في سرير جيلبرت، فأجبت بالإيجاب، وتحدثت بحماس معتدل عن إمكانات أن يتعاقد معه أحد السيركات. فقالت وهي تهز رأسها:

ــ لقد فكرنا في ذلك غالباً.

وقد بدا أن حماسي ـ أو حماسي المتكلِّف ـ راق للمالكة، وقبل أن أرحل، ذهبت إلى المطبخ لأودع جيلبرت وفيما كنت أحاول أن أبدو طبيعياً، شددت على يده الكبيرة الخشنة، وضغط على يدي بلطف.

بعد جولة دامت أربعين أسبوعاً في المقاطعات، عدنا لنمثل ثمانية أسابيع في ضواحي لندن. ولما كانت مسرحية شرلوك هولمز قد حققت نجاحاً منقطع النظير، كان علينا أن نذهب في جولة ثانية، بعد مرور ثلاثة أسابيع على انتهاء الأولى. وقد قررت أنا وسيدني أن نغادر مسكننا في باونال تيراس ونستأجر مسكناً أكثر مدعاة للاحترام في كيننغتون رود. كنا نريد أن نترك جلدنا كالأفاعي، ونتخلى عن كل أثر من آثار الماضي.

كان هنالك دور صغير في جولة هولمز القادمة، ولقد تحدثت مع المدير عن سيدني، الذي حصل على الدور، مقابل ٣٥ شلناً في الأسبوع! وقد ذهبنا هذه المرة معاً في الجولة.

كان سيدني يكتب للوالدة كل أسبوع. وحوالي نهاية جولتنا الثانية، تلقينا رسالة من مأوى كاين هيل، يخبروننا فيها أنها تعافت تماماً. ولقد كان ذلك خبراً جيداً. وقد قمنا في الحال باللازم لكي تخرج من هناك وتأتي للانضمام إلينا في ريدنغ. وللاحتفال بهذه المناسبة، أخذنا شقة فخمة، تضم غرفتين وصالة استقبال مع بيانو، وضعناه في غرفتها مع زهور، وأوصينا على عشاء فاخر.

ذهبنا أنا وسيدني للمجيء بها من المحطة، متوترين وسعيدين، ومع ذلك لم يكن في وسعي الامتناع عن التساؤل ببعض القلق كيف تستعيد مكانها في حياتنا، علماً أن الروابط الوثيقة التي كانت تشدنا في السابق باتت شيئاً لن نستطيع استعادته على الاطلاق.

وصل القطار أخيراً. كانت إثارتنا عظيمة وكنا مترددين، نتفحص وجوه المسافرين الذين ينزلون من المقطورات. أما هي فوصلت أخيراً، مبتسمة وسائرة نحونا بخطوات هادئة. لم تبد أي انفعال حين ذهبنا للقائها، لكنها استقبلتنا بلياقةٍ وَدُود. من البديهي أنها كانت هي الأخرى بحاجة إلى التكيف.

خلال المسافة القصيرة في العربة التي اعادتنا من المحطة، تحدثنا عن أشياء متنوعة لا تحصى، وبلا سبب.

بعد أن زال الحماس الذي أبديناه لنريها الشقة والزهور في غرفتها، وجدنا أنفسنا في غرفة الاستقبال ينظر بعضنا إلى الآخر ونحن نلهث قليلاً. كان يوماً مشمساً، وكانت شقتنا تطل على شارع هادىء، لكن الصمت كان يبدو لنا الآن ممضّاً، وبالرغم من رغبتي في أن أكون مسروراً، رحت أصارع ضد الضنى والرزوح. كانت والدتي، التي لا تطلب إلا القليل من

الحياة لتكون مرحة وسعيدة، تذكّرني بماضيً الحزين: مع ذلك كانت آخر شخص في الدنيا يجب أن يثير لدي تلك المشاعر. لكنني بذلت جهدي لإخفاء ذلك. كانت قد شاخت قليلاً وسمنت. كنت أعتز دائماً بمشية والدتي، وبالطريقة التي تلبس بها، وكان بودي أن تراها الفرقة وهي في أفضل حالاتها، لكنها كانت تبدو لي الآن تفتقد الأناقة والمظهر. ولا بد أنها حزرت مخاوفي، لأنها تطلعت نحوي وعلى وجهها علامات استفهام.

رتبت لها خصلة من شعرها بحياء وقلت باسماً:

ــ أريد أن تكوني بأفضل حال قبل أن تتعرفي على الفرقة.

فنظرت إليَّ، ثم أخذت رشاشة البودرة الخاصة بها، وطلت وجهها وهي تقول بحيوية:

ــ أنا سعيدة فقط لأني ما زلت حية.

لم يلزمنا وقت طويل كي نتكيف تماماً، وتبدَّد حزني. كانت تفهم أفضل منا أننا تجاوزنا العلاقة الحميمة التي عرفناها حين كنا أطفالاً، وكان يجعلها ذلك بالنسبة إلينا أكثر مَعَزَّة. كانت خلال الجولة تقوم بالتبضع في السوق، وتحمل إلى المنزل فواكه وحلويات، وزهوراً أيضاً على الدوام. ذلك أنها، بالرغم من فقرنا المدقع في السابق، كانت أثناء تبضعها مساء السبت تتوصل دائماً إلى شراء باقة من زهر المنثور بنس واحد. كانت تبدو بعض الأحيان صامتة ومتحفظة، وكان انعزالها يحزنني. كانت تتصرف كضيفة أكثر منها كأم.

في غضون شهر، أرادت أن تعود إلى لندن، لأنها كانت مستعجلة للاستقرار بحيث نجد منزلاً حال عودتنا من الجولة. ثم إن ذلك سيكون، كما قالت لنا، أقل كلفة من السفر ودفع ثمن بطاقة إضافية.

استأجرت الشقة فوق حلاق شستر ستريت حيث سبق أن عشنا، واشترت بعشر ليرات أثاثاً بالدين. لم تكن الغرف باتساع غرف قصر فرساي، ولا بأناقتها؛ لكنها اجترحت المعجزات في الغرف مغلفة صناديق ليمون بالكريتون[٤] بحيث تبدو بمظهر الكومودينات. وكنا نربح، أنا وسيدني، أربع ليرات وخمسة شلنات في الأسبوع، نرسل منها ليرة وخمسة شلنات لأمنا.

وقد عدنا، أنا وسيدني، بعد جولتنا الثانية وأمضينا عدة أسابيع معها. ومع أننا كنا سعيدين مع أمنا، كنا مغتبطين في سرنا بالمضي من جديد في جولة أخرى، لأن شستر ستريت لم تكن بترف شقق المقاطعات، كل تلك المباهج الصغيرة التي بتنا معتادين عليها، أنا وسيدني. ولا شك أن أمي كانت تدرك ذلك. وحين اصطحبتنا إلى المحطة، كانت مرحة، لكننا وجدنا كلانا أنها تبدو كئيبة، وهي واقفة على الرصيف، وهي تبتسم وتحرك منديلها في اللحظة التي انطلق فيها القطار.

خلال جولتنا الثالثة، كتبت لنا أمي أن لويز، التي عشت أنا وسيدني عندها، في منزل

---

(٤) قماش متين مطبَّع (م).

كيننغتون رود، ماتت بإحدى سخريات القدر الغريبة في مأوى لامبث، في المكان ذاته الذي جرى احتجازنا فيه سابقاً. لم تعش أكثر من أربع سنوات بعد وفاة أبـي تاركة ابنها وحيداً، وقد جرى إرساله هو الآخر إلى مدرسة هانويل بالذات، حيث سبق أن كنا، أنا وسيدني.

قالت أمي إنها ذهبت لرؤية الفتى، موضحة له من تكون، وأننا أنا وسيدني كنا قد سكنّا معه ومع أبيه وأمه في كيننغتون رود. لكن بالكاد كان يتذكر ذلك لأن عمره لم يكن يتجاوز الرابعة آنذاك. لم يكن يحتفظ أيضاً بأي ذكريات عن والده. كان الآن في العاشرة من العمر، وكان يحمل اسم عائلة لويز الأصلية، وليست لديه عائلة، كما قال لأمي. وقد وصفته كولد جميل، كثير الصمت، وخجول ومشغول البال. جاءته بكيس ملبَّس، وبالليمون والتفاح، ووعدته بالمجيء لرؤيته بانتظام، وهو ما فعلته بالتأكيد إلى اليوم الذي انتكست فيه من جديد واضطرت للعودة إلى كاين هيل.

كان خبر انتكاس أمي ضربة قاسية لنا. لم نعرف تفاصيل ذلك إطلاقاً، إذ لم نتلق غير إخطار رسمي قصير جاء فيه أنها وُجدت تائهة في الشوارع وهي تتلفظ بكلمات مشوشة ومتنافرة. ولم يكن في وسعنا أن نفعل أكثر من القبول بقدر أمنا المسكينة. فهي لم تستعد رشدها بصورة كاملة على الإطلاق. وقد بقيت عدة سنوات في مأوى كاين هيل إلى اليوم الذي تمكنا فيه من إدخالها إلى أحد المصحّات.

إلا أن آلهة الحظ العاثر تتعب أحياناً، وتبدي بعض الرحمة، كما حصل في حالة والدتنا. ففي السنوات السبع الأخيرة من حياتها، عاشت في البحبوحة والرفاه، بين الزهور والشمس، ورأت ولديها يحققان الشهرة وثروة تتجاوزان كل ما سبق أن تخيلته في يوم من الأيام.

مرت أسابيع عديدة قبل أن نتمكن أنا وسيدني من رؤيتها بسبب جولة **شرلوك هولمز**. لقد توقفت الجولة مع فرقة فرومان، وبناء على ذلك، عمد السيد هاري يورك، مالك المسرح الملكي في بلاكبون، إلى شراء حقوق **هولمز** من فرومان لأجل تمثيل المسرحية في المدن الصغيرة. وقد انخرطنا، أنا وسيدني، في الفرقة الجديدة، لكن أجرنا هبط إلى ٣٥ شلناً في الأسبوع لكلٍّ منا.

كان ذلك انحداراً محزناً أن نلعب في مدن الشمال الصغيرة مع فرقة غير مشهورة. مع ذلك، صقلت قدرتي على الحكم المقارنة بين هذه الفرقة وتلك التي غادرناها. كنت أحاول ألا أقوم بالمقارنة بصورة مكشوفة، لكن خلال التمرينات وبسبب حماسي في مساعدة المخرج الجديد الذي كان يطرح عليّ أسئلة بصدد الحركات المسرحية، وتعاقب الردود واللواحق، كنت أقص عليه كيف كان ذلك يتم في فرقة فرومان. وبالطبع، لم يعطني ذلك شعبية خاصة لدى الممثلين الآخرين، الذين كانوا ينظرون إليَّ كفتى غير محتمل. وبعد قليل، تعامل معي مدير جديد بكراهية، وفرض عليّ غرامة مقدارها عشرة شلنات، بسبب زر كان ينقص بذلتي، بعد أن أعطاني عدة تحذيرات بهذا الصدد.

جاء وليم جيلت، مؤلف شرلوك هولمز، إلى لندن مع ماري دورو، لتمثيل مسرحية بعنوان **كلاريسا**، كان هو أيضاً مؤلفها. لكن الانتقادات لم تكن لطيفة، سواء بالنسبة للمسرحية أو بالنسبة لطريقة جيلت في التعبير، الأمر الذي دفعه لكتابة تمثيلية افتتاحية بعنوان **حالة شرلوك هولمز المحزنة**، لا يتلفظ هو فيها بكلمة واحدة. كان هناك فقط ثلاثة أدوار، أحدها لمجنونة، والآخر لهولمز، والثالث لوصيفه. ولقد كان يشبه نداء من السماء أن أتلقى ذات يوم برقية من السيد بوستانت، مدير أعمال جيلت، يسألني فيها إذا كان في وسعي أن أجيء إلى لندن للعب دور بيلي مع وليم جيلت في تلك التمثيلية الافتتاحية.

كنت أرتجف من القلق، لأني لم أكن أعتقد أن في وسع فرقتنا أن تستبدل بيلي، خلال جولة، بعد إنذار مسبق بهذا القصر، وقد عشت على مدى عدة أيام حالة انتظار قاسية. لكنهم عثروا مع ذلك على بيلي آخر في النهاية.

كانت العودة إلى لندن للتمثيل في مسرح الويست إند شيئاً يشبه الولادة من جديد. كنت مفتوناً بأدنى حادثة: وصولي مساءً إلى مسرح دوق يورك ولقائي مع السيد بوستانت، القيِّم على المسرح، الذي قادني إلى مكتب السيد جيلت، وكلمات هذا الأخير بعد أن قدموني إليه: «هل تود أن تمثل معي في شرلوك هولمز؟» والانفجار الحماسي الذي أجبت به: «آه! أظن ذلك يا سيد جيلت!». وفي الصباح التالي، كنت أنتظر على المسرح ساعة التمرين، ورأيت ماري دورو للمرة الأولى، مرتدية أروع فستان صيفي أبيض. يا لها من صدمة أن يرى المرء مخلوقة بهذا الجمال في ساعة مبكرة إلى هذا الحد! كانت قد جاءت في عربة حنطور، وقد اكتشفت لطخة حبر على فستانها وراحت تسأل إذا لم تكن لدى قيِّم اللواحق مادة من شأنها إزالتها، وبما أن هذا الأخير لم يكن متأكداً، صرخت بالتعبير الأكثر روعة عن التضايق والاستياء: «آه! كم هذا مثير للغيظ!»

كانت ذات جمال خارق بحيث حقدت عليها. كنت ألومها على مط شفتيها اللطيفتين استهزاءً، وعلى أسنانها البيضاء والمنتظمة، وعلى ذقنها الفاتن، وشعرها الفاحم وعينيها القاتمتين. كنت ألومها على انزعاجها المتكلف والسحر الذي تغدقه بهذه الطريقة. خلال ذلك الحديث الطويل مع قيّم اللواحق، لم يبد عليها أنها لاحظت حضوري، مع أني كنت هناك شديد القرب منها، فاغر الفم، متسمراً أمامها. كنت قد بلغت السادسة عشرة، وقد دفعني قربي من ذلك الجمال الأخّاذ إلى اتخاذ القرار بألا أعلق في شباكها. لكن، آه! كم كانت جميلة! كان ذلك الحب صاعقاً.

في **حالة شرلوك هولمز المحزنة**، كانت إيرين فانبروغ، وهي ممثلة موهوبة جداً، تلعب دور المجنونة، وكانت هي التي تتكلم كل الوقت، في حين يكتفي هولمز بالبقاء جالساً والإصغاء إليها. كانت تلك هي طريقته في السخرية من النقاد. وقد تلفظت بالردود الأولى: وصلت كالإعصار إلى شقة هولمز وتشبثت بالأبواب في حين كانت المجنونة تطرق عليها بقبضتها، وإذ كنت أشرح الوضع لهولمز قدر الإمكان، دخلت المجنونة! وعلى مدى عشرين

دقيقة، كانت تفيض في شروح متنافرة تتعلق بقضية تريد أن تعهد إليه بها. فكتب هولمز كلمة، بصورة خفية، وقرع جرساً صغيراً ودس الكلمة في يدي. وإذ بعد قليل يأتي رجلان قويان فيأخذان السيدة ويتركاننا أنا وهولمز وجهاً لوجه، وأختم أنا قائلاً: «كنت على حق، يا سيدي، فلقد كان بالضبط مأوى المجانين ذلك».

قدَّر النقاد المزحة، لكن **كلاريسا**، المسرحية التي كتبها جيلت لماري دورو، لم تنجح. ففي حين امتدحوا جمال ماري، أعلنوا أن ذلك ليس كافياً لإنجاح ميلودراما مخيفة، لذا أنهى جيلت الفصل باستعادة شرلوك هولمز، حيث تعاقدوا معي في دور بيلي.

كنت متحمساً للتمثيل مع وليم جيلت المشهور بحيث نسيت السؤال عن الشروط. وفي نهاية الأسبوع، اقترب مني السيد بوستانت ممسكاً بمغلف، ويبدو عليه سيماء الاعتذار، وقال لي:

ـ أنا خجلٌ حقاً من عدم إعطائك أكثر من هذا المبلغ، لكنهم قالوا لي في وكالة فرومان إن عليَّ أن أدفع لك الأجر ذاته الذي أخذته في السابق، أي ليرتين وعشرة شلنات.

ولقد كانت المفاجأة لذيذة.

في التمرينات على هولمز، التقيت ماري دورو من جديد ـ وكانت أجمل مما في أي وقت مضى! ـ وعلى الرغم من القرار الذي كنت أتخذته بألا أقع في شباكها، بدأت أغرق أكثر فأكثر في الورطة اليائسة للحب الصامت. ولقد كنت أستهول ذلك الضعف، وكنت غاضباً من نفسي بسبب افتقاد الحزم. كنت أشعر بأحاسيس متناقضة، فأنا أكرهها وأحبها في الوقت ذاته. فضلاً عن ذلك، كانت ساحرة وبين الأكثر مدعاة للحب.

كانت تلعب في **هولمز** دور أليس فوكنر، لكن لم يكن هنالك مشهد نمثل فيه معاً. بيد أني كنت أنتظر، حاسباً الوقت الذي يمكنني أن ألتقيها فيه على الدرج وأتمتم بصوت مخنوق: «مساء الخير»، فتجيب بمرح: «مساء الخير». كان ذلك كل ما حدث بيننا.

كانت مسرحية **هولمز** انتصاراً في الحال. وقد حضرت الملكة الكسندرا أحد العروض، وكان معها في الشرفة الملكية ملك اليونان والأمير كريستيان. ومن البديهي أن الأمير كان يشرح للملك، وفي اللحظة الأكثر توتراً، في حين كنا، هولمز وأنا، وحدنا على المسرح ونحن صامتان، دوى في القاعة صوت مجلجل، مع نبرة قوية: «لا تروِ لي! لا تَرْوِ لي!»

كان مكتب ديون بوسيكو موجوداً في مسرح دوق يورك، وحين كان يمر كان يربت على رأسي بضربة صغيرة تعبيراً عن الرضى، مثله مثل هول كاين، الذي كان يأتي غالباً إلى الكواليس لرؤية جيلت. وقد حظيت مرة حتى بابتسامة من اللورد كيتشنر.

في غضون تمثيلنا **شرلوك هولمز**، توفي السير هنري إيرڤينغ، وقد حضرت الدفن في دير وستمنستر. لما كنت ممثلاً في وست إند، أعطوني تصريحاً خاصاً، وكان ذلك مدعاة لاعتزازي. كنت جالساً، خلال الاحتفال الديني، بين الرصين ليويس والر، الذي كان آنذاك

معبود مسارح لندن الحالم، و «الدكتور» والفورد بادي، الذي كان مشهوراً بأدوار الجرّاح التي كان يمثلها دائماً والتي سخرت منها في ما بعد في أحد أدوار الميوزيك هول. كان والر يُظهر بالمناسبة جاذبيته الرائعة، جامداً في مكانه، لا ينظر ذات اليمين ولا ذات اليسار. لكن «الدكتور» بودي، الذي كان يريد أن يرى بشكل جيد في اللحظة التي كانوا فيها يُنزلون جثمان السير هنري في المدفن، لم يكن ينفك يدوس قبر أحد الأدواق، تحت نظر السيد والر المغتاظ والمحتقر، أما أنا فتخليت عن النظر لأي شيء، وجلست، مكتفياً بتأمل ظهور من هم أمامي، لا أكثر ولا أقل.

قبل العرض الأخير **لشرلوك هولمز** بأسبوعين، أعطاني السيد بوسيكو رسالة توصية إلى السيد والسيدة كندال المشهورين، أملاً في أن أحصل على دور في مسرحيتهما الجديدة. كانا على وشك إنهاء سلسلة من العروض في مسرح سانت جايمس حققت نجاحاً باهراً. كان الموعد في العاشرة صباحاً وكان عليّ أن ألتقي السيدة كندال في مجمَّع المسرح. لقد تأخرت ثلث ساعة؛ وأخيراً وصل خيالٌ من الشارع: كانت تلك هي السيدة كندال، وهي سيدة بدينة وتفرض الاحترام، وقد استقبلتني قائلة:

ــ آه! هذا أنت الفتى! سوف ننطلق قريباً في جولة بمسرحية جديدة، وكان بودي أن أصغي إليك وأنت تقرأ الدور، لكننا منهمكون جداً في هذا الوقت، فهل في وسعك المجيء غداً صباحاً في الساعة نفسها؟

ــ آسف يا سيدتي، قلتُ ببرود، فأنا لا أستطيع القبول بأي شيء خارج لندن.

ثم رفعت قبعتي في الحال، وخرجت من المجمّع، وأشرت لحنطور كان ماراً. لأبقى عاطلاً عن العمل طيلة عشرة أشهر.

في المساء الذي قُدِّم فيه آخر عرض **لشرلوك هولمز** في مسرح دوق يورك، والذي كانت ماري دورو ستسافر فيه إلى أميركا، مضيت لوحدي وحاولت أن أُغرق يأسي في الكحول. ولقد رأيت ماري مجدداً بعد عامين أو ثلاثة أعوام في فيلادلفيا. كانت ترأس افتتاح مسرح جديد كنت أمثل فيه في فرقة كارنو. كانت لا تزال على جمالها. ومن الكواليس، كنت أتطلع إليها من تحت الماكياج، في حين كانت تلقي خطاباً قصيراً، لكنني كنت من الحياء بحيث لم أعرِّف بنفسي.

في الوقت ذاته الذي كانت فيه عروض هولمز تنتهي في لندن، كانت الجولة تنتهي هي الأخرى، فبتنا، أنا وسيدني، عاطلين عن العمل. لكن سيدني لم يضع وقته في البحث عن شيء آخر. رأى إعلاناً في **الإيرا**، وهي نشرة مهنية للعاملين في المسرح، فانخرط في فرقة الكوميديين البهالين[٥] الخاصة بشارلي مانون. ولقد كان هناك العديد من هذه الفرق في ذلك الحين تقوم بجولات تقدم فيها تمثيليات الميوزيك هول: **مستخدمي البنك** لتشارلي بالدوين،

(٥) جمع بهلوان (م).

والخبازين غريبي الأطوار لجو بوغاني، وفرقة بويسيت، وكانت كـل تلك الفرق مؤلفـة من ممثلين إيمائيين. ومع أنهم كانوا يمثلون الكوميديا الساخرة، كانت تصحبهم موسيقى رائعة، وكانوا يحققون نجاحاً باهراً. كانت الفرقة الأبرز بين تلك الفرق هي فرقة فريد كارنو، التي كـانت لديها ذخيرة واسعة من المسرحيات الهزلية. كانت في عنوان كل منها كلمة «عصفور»: العصافير الصباحية، العصافير الصافرة، العصافير المشؤومة، الخ. وقد بنى كارنو من هذه الاسكتشات الثلاثة مشروعاً مسرحياً يضم أكثر من ثلاثين فرقة، مع ذخيرة تبدأ بإيمائيات الميلاد وتصل إلى المسرحيات الموسيقية، وقد خرج منها فنانون وكوميديون لامعون كفريد كيتشن، وجورج غرايفز، وهاري ويلدون، وبلي ريفز، وتشارلي بل، وآخرون عديدون.

كان سيدني يعمل في فرقة مانون حين رآه فريد كارنو وتعاقد معه على أساس أربع ليرات أسبوعياً. ولما كنت أصغر من سيدني بأربع سنوات، كنت حالة محيِّرة بالنسبة لمدير مسرح، لكنني كنت قد وفرت قليلاً من المال فيما كنت أمثل في لندن، وحين كان سيدني في جولته، فبقيت في تلك المدينة أتسكع في المقاهي.

كنت قد بلغت ذلك العمر الصعب والعقوق، عمر المراهقة، وكنت أشعر بالعواطف ذاتها التي يشعر بها كل الفتيان بين السادسة عشرة والثامنة عشرة. كنت أعبد الجسارة والميلودراما، وكنت حالماً سهل البكاء، أشتم الحياة وأعبدها في الوقت ذاته؛ وباختصار كانت روحي لا تزال في شرنقة تخرج منها برجفات نضج مفاجئة. كنت أتأخر في متاهة المرايا الماسخة تلك، فيما يعبر طموحي عن نفسه بهبّات قصيرة. لم تدخل كلمة «فن» في رأسي يوماً، ولا في الألفاظ التي أستخدمها. كان المسرح بالنسبة لي نمطاً من الحياة، لا أكثر.

كنت أعيش لوحدي في هذا الضباب وفي هذه البلبلة. وبالطبع، كانت تلك الفترة مزينة بعبور عاهرات، وبنات هوى، وسكرات عرضية، لكن لا الخمرة ولا النساء ولا الأغنيات استحوذت على اهتمامي طويلاً، فما كنت أريده حقاً إنما هو الخيال والمغامرة.

أنا أفهم جيداً موقف الـ «تيدي بوي» السيكولوجي مع أطقمه التي يقلّد فيها موضة الملك إدوارد: هو يريد مثلنا جميعاً لفت الانتباه، يريد في حياته الجانب الخيالي والدراما. لماذا لا تكون له لحظاته الاستعراضية مثل التلميذ الثانوي الذي يتردد على حفلات الرقص ويثير الجلبة؟ أليس طبيعياً أن يريد تأكيد غندرته حين يرى الطبقات العليا المزعومة تتباهى بغندرتها؟

هو يعرف أن الآلة تنصاع لإرادته كما تنصاع لإرادة أي طبقة؛ وأنه لا حاجة لذهنية خاصة لتجاوز سرعة معينة أو كبس زر. وفي عصرنا المجنون، أليست له مهابة لانسيلوت، أو أرستقراطي أو عالم؟ أليس لإصبعه قدرة جيش نابليون على تدمير مدينة؟ أليس «التيدي بوي» Teddy boy عنقاء تنبعث من رماد طبقة حاكمة جانحة؛ وربما موقفه ناتج من عواطف لاواعية: ربما ليس الإنسان سوى حيوان مسيطر عليه بصورة نصفية، حكم الآخرين على امتداد أجيال بواسطة الغش والقسوة والعنف؟ لكن كما قال برنارد شو: «أنا أخطب بإطناب مثلما يفعل دائماً إنسان لديه مطاعن واعتراضات».

وجدت في الأخير عملاً في سيرك كازي في اسكتش هزلي حول ديك تورين، قاطع الطرق، و «الدكتور» و ألفورد بودي. وقد حصلت على بعض النجاح مع «الدكتور بودي»، لأن

القطعة كانت أرفع قليلاً من الكوميديا المبتذلة؛ كانت محاكاة ساخرة لأستاذ عـلاّمة، وقـد خطرت ببالي فكرة موفّقة بأن أتلبّس رأسه بدقة. كنت نجم الفرقة وكنت أكسب ثلاث ليرات في الأسبوع. كانت هنالك عصابة من المراهقين الذين يمثلون دور الأشخاص الكبار في مشهد زقاقي. وكان يبدو لي مشهداً رديئاً جداً من حيث النوعية، لكن ذلك كان يقدم لي فرصة تحسين مهنتي كممثل.

حين لعب سيرك كازي في لندن، نزل ستة من بيننا في كيننغتون رود، لدى السيـدة فيلدس، وكانت أرملة عجوزاً في الخامسة والستين لديها ثـلاث بنات: فـريدريكـا، وتيلما وفوب. كانت فريدريكا مقترنة بنجار أثاث روسي، وكان رجلاً ودوداً جداً لكن بشاعته مخيفة، له وجهٌ تتريٌ وعريضٌ، وشعر أشقر، وشاربان أبيضان وحَوَلٌ خفيف. وكنا نتناول نحن الستة الطعام في المطبخ، بحيث تعرّفنا على العائلة بصورة جيدة. وحين كان سيـدني يعمل في لندن، كان يسكن هنالك أيضاً.

حين انتهيت من العمل مع سيرك كازي، عدت إلى كيننغتون رود وواصلت السكن لدى آل فيلدس. كانت السيدة المكتهلة طيبة، وصبوراً ونشيطة، والغرف التي كانت تؤجرها كانت تشكل مصدر دخلها الوحيد. كان زوج فريدريكا هو الذي ينفق عليها، أما تيلما وفوب فكانتا تساعدان في أعمال المنزل. كانت فوب في الخامسة عشرة وكانت جميلة. كانت ملامحها طويلة ومهيبة، وكنت مفتوناً بها، على مستوى الشكل كما على المستوى العاطفي. إلا أني كنت أقاوم ميلي لأني لم أكن قد بلغت بعد السابعة عشرة، ولأن نواياي بصدد الفتيات كانت شريفة. لكنها كانت فتاة طاهرة ولم يحدث أي شيء بيننا. إلا أنها تعلقت بـي وصرنا صديقين حميمين.

كان آل فيلدس أناساً شديدي الانفعال، وكانت تنفجر بين الحين والآخر خصومة عنيفة بين اثنين من أفراد العائلة. والأمر الذي كان يثير الجدال كان عموماً معرفة مَن جاء دورها للقيام بالتنظيفات. كانت تيلما، ابنة العشرين عاماً تقريباً، تتكلف مظهر سيدة رفيعة القدر، وكانت كسلى وتزعم دائماً أن الدور هو دور فريدريكا أو فوب. وكان الجدال يتحول إلى مشادة تظهر خلالها من جديد مآخذ منسية، وتنكشف أسرار عائلية لمن يريد سماعها. كانت السيدة فيلدس تعلن، مثلاً، أنه مذ ذهبت تيلما لتعيش مع محام شاب من ليڤربول، كانت تعتبر نفسها سيدة، وترى أن تنظيف البيت ليس من مقامها، وكانت تختم خطبتها قائلة: «حسناً، إذا كنت سيدة حقاً، هيَّا إذاً وعودي للعيش مع محاميك في ليڤربول... لكنه لن يكون مستعداً لاستقبالك». ثم كانت السيدة فيلدس تؤكد تصريحها هذا بالإمساك بفنجان شاي وتحطيمه على الأرض. في غضون ذلك، كانت تيلما تبقى جالسة إلى الطاولة، رابطة الجأش كسيِّدة حقيقية. ثم تأخذ فنجاناً بهدوء وتكسره بدورها بأن تتركه يسقط ببساطة على الأرض، ثم تقول: «أنا أيضاً يمكنني أن أفقد صبري»، وتترك فنجاناً آخر يسقط، فآخر، فآخر، وآخر أيضاً إلى حين تصبح الأرض مزروعة بالبورسلين. وتضيف: «أنا أيضاً أعرف أن أقوم بمشاحنة». وكـانت الأم المسكينة والأختان ينظرن إليها يائسات، فيما تصرخ الأم: «أنظروا إليها! أنظروا ما تفعله. خذي! هذا

شيء آخر يمكنك أن تكسريه». وتعطي تيلما السُكّريّة، فتأخذها هذه الأخيرة وتتركها تسقط بهدوء.

في هذه الحالة، كانت فوب تلعب دور الحكم. كانت عادلة ومنصفة، تحترم العائلة وتضع عموماً حداً للجدال بأن تقترح أن تقوم هي ذاتها بالتنظيفات، وهو ما كانت ترفضه تيلما.

كنت من دون عمل منذ ثلاثة أشهر تقريباً، وكان سيدني ينفق عليَّ، دافعاً للسيدة فيلدس ١٤ شلناً عن إقامتي. كان قد أصبح نجم فرقة فريد كارنو، وغالباً ما تحدث مع هذا الأخير عن أخيه الصغير الموهوب، لكن كارنو لم يكن يعير كلامه أذناً، لأنه كان يعتبر أني لا أزال غراً.

في تلك الفترة، كان ذائعاً في لندن صيت الممثلين اليهود، ولقد فكرت في إخفاء حداثة سني عبر إرخاء عوارضي. وقد أعطاني سيدني ليرتين وظفتهما في تنسيقات موسيقية لأغان شتى، وحوارات هزلية مأخوذة من مجموعة أميركية لنكات تحمل عنوان **ميزانية ماديسون Madison's Budget**. ولقد بقيت أتمرن على مدى أسابيع، أمام عائلة فيلدس. وكن يبدين الاهتمام والتشجيع، لكن لا شيء أكثر.

كنت قد حصلت على عمل خاضع للتجربة لمدة أسبوع من دون أجر في ميوزيك هول فوريستر، وكان مسرحاً صغيراً بجانب مايل إند رود، في الحي اليهودي. كنت قد لعبت هناك مع سيرك كازي وكانت الإدارة تعتبر أني جيد إلى حد إعطائي فرصة. كانت آمالي وأحلامي للمستقبل تتوقف على أسبوع التجربة ذلك، فبعد الفوريستر، قد ألعب في كل الدوائر المهمة في إنكلترا. ومن يدري؟ ربما صرت في غضون عام أتصدر إعلانات الميوزيك هول. كنت وعدت كل عائلة فيلدس بأن أؤمن لهن بطاقات حوالى نهاية الأسبوع، حين يصبح دوري في وضع جيد تماماً.

ــ أتخيل أنك لن تبقى معنا، بعد نجاحك، قالت فوب.

فقلت بلطف:

ــ بل سأبقى بالتأكيد.

يوم الإثنين ظهراً، كان هناك تمرين مع أوركسترا على الأغاني والحوارات، خرجت منه كمحترف جيد. لكنني لم أكن فكرت كفاية بالمكياج الخاص بي. لم أكن أعرف تماماً أي رأس عليّ أن أتلبَّسه. بقيت ساعات في مقصورتي قبل العرض المسائي أقوم بالتجارب، لكن بالرغم من كل كميات الكريب التي استخدمتها، لم أكن أنجح في إخفاء حداثة سني. كان دوري معادياً للسامية إلى هذا الحد أو ذاك، رغم أنه لم يكن لي أي ضلع في ذلك، ولم تكن مزحاتي، مثلها مثل لكنتي اليهودية، لم تكن قديمة وحسب، بل كذلك بعيدة عن الاقناع. فضلاً عن ذلك، لم أكن مضحكاً.

بعد المزحتين أو الثلاث الأولى، بدأ الجمهور يرميني بقطع النقود وقشور الليمون، ويخبط برجليه، ويصيح ساخراً. وقد تأخرت في إدراك ما الذي كان يجري، ثم أدركت هول

المسألة، فرحت أسرّع أدائي في حين تتطاير النكات، وصيحات السخرية وقطع النقود وقشور الليمون بشدة وعنف، بحيث لم أنتظر بعد خروجي من المسرح حكم الإدارة، بل عدت مباشرة إلى مقصورتي فنزعت ماكياجي، وغادرت المسرح ولم أعد إليه أبداً، حتى لاستعادة نصوصي.

كان الوقت متأخراً حين عدت إلى كيننغتون رود، وقد كانت عائلة فيلدس نائمة، فسرّني ذلك كثيراً. وفي الصباح، أرادت السيدة فيلدس، فيما نحن نتناول الفطور، أن تعرف كيف كان العرض، فتصنعت اللامبالاة قائلاً: «جيداً جداً، لكن يجب أن أقوم ببعض التعديلات». وقد قالت لي إن فوب ذهبت لتشاهدني، لكنها لم تقل شيئاً لأنها كانت متعبة جداً وترغب في النوم. وحين رأيت فوب، لم تقم بأي تلميح، من جانبها، ولا أنا أيضاً. كما أنه لا السيدة فيلدس، ولا أي من أفراد عائلتها تحدث عن ذلك من جديد، كما لم يبد أحد منهن أدنى دهشة حين رأينني أمتنع عن إكمال الأسبوع.

كان سيدني في جولة خارج لندن، والحمد لله، الأمر الذي وفّر عليَّ محنة أن أروي له ما جرى؛ لكن لا بد أنه حزر ذلك، أو أن آل فيلدس أخبرنه بما جرى، لأنه لم يطرح عليَّ أي سؤال على الإطلاق. وقد بذلت جهدي لأمحو من ذهني ذكرى ذلك المساء المخيف، لكنها تركت جرحاً لا يندمل في ثقتي بنفسي. لقد علمتني تلك التجربة المريعة أن أفهم نفسي بشكل أفضل؛ لقد أدركت أني لم أكن ممثلاً هزلياً صالحاً لمسرح المنوّعات، وأني لم أكن أملك موهبة الاتصال بالجمهور، وخلق صلة حميمة بينه وبيني؛ وقد رحت أعزي نفسي بالقول في قرارتي إني ممثل تأليف. لكنني سوف أتعرض بعد ذلك لخيبة أو خيبتين أخريين قبل أن أقف من جديد على قدميَّ على الصعيد المهني.

في السابعة عشرة من عمري، لعبت دور العاشق في استكش بعنوان **الكومندان الفرحان،** ولقد كانت تلك تجربة يائسة وقاسية لم تدم أكثر من أسبوع. فالبطلة، زوجتي، كانت امرأة في الخمسين من العمر، وفي كل مساء، كانت تصل وهي تترنح على المسرح، ورائحة الجن[1] تفوح منها بقوة، في حين كان عليَّ، أنا الزوج المتوقد والمحب، أن آخذها بين ذراعيَّ وأعانقها. وقد قضت هذه المحنة على أي طموح لديَّ لأن ألعب دور العاشق.

وقد حاولت بعد ذلك أن أصبح مؤلفاً، فكتبت اسكتشاً هزلياً بعنوان **دزينة رجال عادلين،** وكان كوميديا إسبانية (ساينيت)[2] هزلية حول هيئة محلفين تتناقش في قضية إلغاء وعد بالزواج. كان أحد المحلفين أصم ـ أبكم، والثاني سكيراً، والثالث طبيباً دجالاً. وقد بعت الفكرة لشاركوت، وكان منوِّماً مغناطيسياً في مسرح المنوعات ينوِّم شريكاً متواطئاً ويجعله يجتاز المدينة وهو يسوق عربة أطفال، بعينين معصوبتين، في حين يكون هو جالساً في المؤخرة يحرك يده بحركات التنويم المغناطيسي. وقد أعطاني ثلاث ليرات مقابل نصي، لكنه طلب

---

(١) نوع من الكحول (م).

(٢) saynète، تهريجة صغيرة من المسرح الإسباني (م).

مني إخراجه. وهكذا تعاقدنا مع ممثلين هزليين، وقمنا بالتمرينات في قاعة النادي فوق حانة **القرون**، على طريق كيننغتون. إلا أن ممثلاً عجوزاً مبرطماً قال إن الأسكتش لا يشكو فقط من سوء التأليف، بل كذلك من الحماقة.

في اليوم الثالث، وفي عز التمرينات، تلقيت كلمة من شاركوت يقول لي فيها إنه قرر عدم إخراج الاسكتش. وبما أني لست من النوع الشجاع، فقد وضعت الورقة في جيبي وتابعت التمرينات. لم أكن أتجرأ على إخبار الممثلين بالأمر، وبدلاً من ذلك قلت لهم على الغداء إن أخي يريد أن يكلمهم. وانفردت بسيدني في غرفة النوم وأريته الورقة، فقال لي بعد أن قرأها:

ــ إذاً أنت لم تعلمهم بذلك؟

ــ كلّا! قلت متمتماً.

ــ أَعْلِمهم إذاً بالأمر.

ــ لا أستطيع. لا أستطيع إطلاقاً بعد أن أخضعتهم للتمارين على مدى ثلاثة أيام.

أجاب سيدني، وهو يصيح:

ــ لكن هذه ليست غلطتك، إذهب وقل لهم.

فقدت رباطة جأشي وأجهشت بالبكاء:

ــ ماذا عساي أقول لهم؟

ــ لا تكن أحمق!

ثم نهض، وانتقل إلى الغرفة المحاذية وأراهم رسالة شاركوت، شارحاً لهم ما الذي حصل، ثم أصطحبنا جميعاً إلى الحانة التي في الزاوية لنأكل ساندويشاً ونشرب كأساً.

إن الممثلين أناس يفاجئونك. فقد بدا الممثل المتنقل العجوز، الذي كان يحتج بقوة، أكثر زملائه رجاحة عقل، وانفجر بالضحك حين روى له سيدني كيف كانت حالتي. قال لي وهو يربت على ظهري بلطف:

ــ ليست هذه غلطتك، يا صغيري. إنها غلطة هذا السوقي العجوز شاركوت.

بعد فشلي في مسرح الفورسترز، انتهت كل محاولاتي بكارثة. إلا أن الشباب يشكل عنصر تفاؤل خارقاً، لأنه يشعر بالسليقة أن سوء الحظ العاثر مسألة غير مرجّحة، مثلها مثل طريق الفضيلة المستقيم والضيق. ففي الحالتين، سوف يكون هنالك منعطف في النهاية.

وفي الواقع جاء الوقت الذي انعطف فيه حظي. فذات يوم أخبرني سيدني بأن السيد كارنو يريد أن يراني. قال لي إنه مستاء من ممثل يشارك في حوار يتولى فيه الدور الرئيسي السيد هاري ويلدون، **في ماتش الفوتبول**، وهو أحد اسكتشات كارنو التي حصلت على أكبر قدر من النجاح. كان ويلدون ممثلاً شعبياً للغاية، وبقي كذلك حتى وفاته، في الثلاثينات.

كان السيد كارنو رجلاً صغيراً مربوعاً ومُسْمرّاً، وكانت له عينان حادتان وبراقتان لا تنفكان

تتفحصانك. كان بدأ حياته المسرحية كبهلوان على العارضة الثابتة، ثم جمع ثلاثة ممثلين هزليين. وقد شكل هذا الفريق الرباعي نواة قائمته من الاسكتشات الهزلية. وكان هو بالذات ممثلاً ممتازاً وخلق أدواراً عديدة. وكان مستمراً في التمثيل شخصياً حتى في الوقت الذي بات يدير فيه خمس فرق أخرى تقوم بجولات.

ويروي أحد الأعضاء المؤسسين ضمن أي ظروف تقاعد كارنو. فذات مساء، بينما كانت الفرقة في مانشستر، بعد أحد العروض التي قدِّمت هناك، تذمر أفرادها قائلين إن كارنو لا يرد في اللحظة المطلوبة وأنه أفسد التأثيرات الهزلية. فأعلن كارنو، وكان جمع خمسين ألف ليرة استرلينية بفضل فرقه الخمس، الشيء التالي:

ـ حسناً، يا أولادي، إذا كان هذا رأيكم فأنا سأتوقف!

ثم انتزع شعره المستعار، ورماه على منضدة الزينة، وأضاف مبتسماً:

ـ يمكنكم اعتبار أني أقدم استقالتي.

كان منزل السيد كارنو في كولدها ربور لاين، في كامبرويل: وكان هنالك عنبر مجاور حيث يضع ديكور العشرين عملاً التي أنتجها، وكانت هنالك مكاتبه أيضاً. وقد استقبلني بمودة حين وصلت وقال لي:

ـ لقد قال لي سيدني إنك جيد، فهل تعتقد أن في وسعك المشاركة في الحوار مع هاري ويلدون في ماتش الفوتبول؟

كان هاري ويلدون متعاقداً ضمن شروط خاصة، مع أجر يصل إلى ٣٤ ليرة في الأسبوع. فقلت برباطة جأش:

ـ لا تنقصني غير فرصة القيام بذلك.

فقال مبتسماً:

ـ ١٧ عاماً، عمر بالغ الفتوّة، ثم إنك لا تعطي هذا العمر.

فهززت كتفيَّ بلا مبالاة وقلت:

ـ إنها مسألة ماكياج.

فاستغرق كارنو في الضحك. وروى في ما بعد لسيدني أن هزة الكتفين تلك هي التي دفعته للتعاقد معي.

ـ حسناً، قال، سوف نرى ماذا ستستطيع القيام به.

كان يجب أن يكون ذلك تعاقداً تجريبياً لمدة أسبوعين، بأجر مقداره ثلاث ليرات وعشرة شلنات في الأسبوع، فإذا حزت الرضى يوقعون معي عقداً لمدة عام.

كان معي أسبوع لدراسة الدور قبل العرض الأول في كوليزيوم لندن. وقد قال لي كارنو أن أذهب إلى مسرح آمپاير شيفردز بوش، حيث يمثلون ماتش الفوتبول، لمراقبة الرجل الذي سآخذ دوره. ويجب الاعتراف بأنه كان مضجراً ومزعجاً؛ ومن دون تواضع مزيف، كنت

أعرف أني قادر على التمثيل بشكل أفضل. كان يجب لعب الدور بأسلوب أكثر هزلية وقررت أداءه بهذه الطريقة.

لم يتيحوا لي أكثر من تمرينين، لأنه لم يكن يمكن السيد ويلدون أن يخصص لي وقتاً أطول. والحق يقال إنه كان منزعجاً حتى من الاضطرار للمجيء لأن ذلك كان يمنعه من المضي للعب الغولف.

لم أترك انطباعاً جيداً في التمرينات. وبما أني كنت أقرأ ببطء، تولد لدي شعور بأن لويلدون تحفظات على قدراتي. ولقد كان أمكن سيدني، الذي سبق أن قام بالدور ذاته، أن يساعدني لو كان في لندن، لكنه كان يلعب اسكتشاً آخر في جولة لفرقته.

مع أن ماتش الفوتبول كان ساينيتاً هزلية، لم تنفجر ضحكة واحدة قبل ظهور ويلدون. كان كل شيء يمهد لدخوله، ولا شك أن ويلدون كان ممثلاً ممتازاً، ولم يكن يكف عن إضحاك الجمهور منذ اللحظة التي يدخل فيها المسرح.

في ليلة العرض الأولى، كانت أعصابي متوترة كزنبرك ساعة. كان على تلك الأمسية أن تعيد ثقتي بنفسي وتمحو عار فشلي في الفورسترز. وقد كنت أذرع أرض الكواليس في عمق المسرح الضخم وأنا أصلي، فيما القلق ينضاف إلى الخوف.

وصدحت الموسيقى! ثم ارتفع الستار! كان على المسرح جمع من الرجال يقومون بتمارين رياضية. وقد خرجوا في الأخير، مخلين المسرح. في تلك اللحظة، كان علي أن أدخل، فتقدمت وأنا فريسة كل الانفعالات التي يمكن أن يتخيلها المرء. فإما أن يرتفع الإنسان إلى مستوى الظروف، وإما أن ينهار. منذ اللحظة التي ارتقيت فيها الخشبة، تنفست الصعداء، إذ بدا كل شيء واضحاً أمامي. دخلت، مديراً ظهري للجمهور، وكانت تلك فكرتي. فمن الظهر، كنت أبدو مثالياً، مرتدياً سترة، وقبعة عالية وبيدي عصاً وحول ساقيَّ ساقيّتان، أي بالتحديد الخائن النموذجي في العصر الادواردي. ثم استدرت نحو الجمهور، مبدياً أنفي الأحمر، فضحك البعض، وساعدني ذلك في كسب المشاهدين. حركت كتفيَّ إلى الأعلى في حركة ميلودرامية، ثم صَفَقْت بأصابعي ودرت لأجتاز المسرح بصورة منحرفة، متعثراً في طريقي بثُفالة[٣]. ثم صدمت عصاي كيس رمل شبيهاً بتلك الأكياس التي يتدرب عليها الملاكمون، فضربني الكيس الذي حركته تلك الصدمة على وجهي مباشرة. وهكذا ترنحت ووقعت نصف وقعة لتلتطم عصاي بصدغي، فيما كان يصل الجمهور إلى أقصى حدود الإثارة.

ومنذ تلك اللحظة، كنت مسترخياً وغنياً بالإبداعات. بات في وسعي أن أبقى على المسرح خمس دقائق، وأستمر في إضحاك المشاهدين من دون أن أنبس بكلمة. وفي خلال روحاتي وجيئاتي، بدأ سروالي يسقط، إذ كان أحد أزراره قد انقطع، فبدأت أبحث عنه. ثم

(٣) أداة مؤلفة من كرتي حديد يجمع بينهما قضيب حديدي يرفعها الرياضيون لتقوية عضلاتهم (م).

التقطت شيئاً وهمياً، لأعود فأرميه مغتاظاً وأنا أقول: «يا لها من أرانب ملعونة!». وضجت القاعة بالضحك من جديد.

هنا ظهر رأس هاري ويلدون من الكواليس كقمر في كماله. لم يكن حدث أن ضحك الجمهور قبل ظهوره على المسرح. وحين دخل أمسكت بمعصمه في حركة درامية وأنا أهمس: «بسرعة! اعطني دبوساً! سروالي يسقط!» وكان كل ذلك مرتجلاً. كنت قد حضّرت الجمهور لهاري، وقد لقي في ذلك المساء نجاحاً منقطع النظير، وأضفنا كلانا العديد من الردود التي أضحكت القاعة. وحين سقط الستار، كنت أعرف أني تدبرت أمري كما ينبغي. وقد جاء العديد من أفراد الفرقة ليشدوا على يدي ويهنئوني. وفيما كان ويلدون يعود إلى مقصورته، نظر إليَّ من فوق كتفه وقال لي بجفاف: «كنت جيداً جداً. . . رائعاً!».

في ذلك المساء، عدت على قدميّ لأسترخي. توقفت على جسر ويستمنستر وانحنيت لأرى الدوّامات القاتمة والناعمة. كان بودي أن أبكي من الفرح، لكنني لم أستطع. لم أتوقف عن بذل الجهود والتكشير، لكن الدموع لم تكن تريد أن تنهمر. ومن جسر ويستمنستر، ذهبت حتى ساحة **الفيل والقصر**[4] وتوقفت لآخذ فنجان شاي. كنت أرغب في التحدث مع أحد ما، لكن سيدني كان في جولة مسرحية. كم كان بودي أن يكون موجوداً فأتمكن من أن أخبره بما حدث في تلك الأمسية، وبكل كل ما كان يعنيه ذلك بالنسبة لي، لا سيما بعد تجربتي في الفورسترز.

كنت عاجزاً عن النوم، فذهبت من جديد إلى كيننغْتون غايت لأشرب فنجاناً آخر من الشاي. وفيما كنت أمشي، لم أكف عن الكلام والضحك لوحدي، ولم أعد إلى السرير إلا في الخامسة فجراً، بعد أن أنهكني التعب والسهر.

لم يكن السيد كارنو في اللّيلة الأولى، لكنه أتى في الليلة الثالثة، وإذ بالجمهور يصفق لي منذ دخولي. وقد مر ليراني بعد ذلك، وهو يتهلل مبتسماً، وقال لي أن أمر على مكتبه في الصباح لتوقيع العقد.

لم أكتب لسيدني لأخبره عن عرض الافتتاح، لكنني أرسلت إليه برقية مختصرة: «وقّعت العقد لعام بأربع ليرات في الأسبوع. محبتي، تشارلي». وقد تم عرض ماتش الفوتبول ١٤ أسبوعاً في لندن، ثم مضى في جولة على مدن بريطانيا ومقاطعاتها.

كانت الشخصية التي لعب ويلدون دورها لأبله، هو فلاح من لانكشاير يتكلم ببطء. وقد كان ذلك مقبولاً بشكل جيد جداً في شمال إنكلترا، لكنه لقي استقبالاً أقل جودة في الجنوب. ففي بريستول، وكارديف، وبلايموث، وساوثامبتون، كان الاستقبال الذي لقيه ويلدون فاتراً للغاية. وكان عليه في الاستكش أن يصفعني، ويضربني قليلاً، أي أن يتظاهر بضربـي على وجهي، لكن أحدهم كان يفرقع أصابعه في الكواليس من أجل إضفاء المزيد من الواقعية على

(٤) Elephant and Castle، اسم ساحة في لندن.

اللعبة المسرحية. وأحياناً، كان ويلدون يصفعني بشكل حقيقي وبعنف لا جدوى منه، وأعتقد أن ذلك كان بسبب الغيرة.

وقد بلغ الوضع أوجه في بلفاست. كان النقاد قد زادوا العيار ضد ويلدون، لكنهم أغدقوا عليّ الثناء، بحيث لم يتحمل ويلدون ذلك ووجّه إليّ في ذلك المساء، على المسرح ضربة بقبضته حرمتني من كل معنى هزلي وجعلت الدم ينزف من أنفي. وقد أعلمته بعد ذلك بأنه إذا كرر فعلته، فسوف أصرعه بإحدى الثقالات الموجودة على المسرح، وأضفت بأنه ليس بحاجة لتنفيس رغبته في الانتقام مني أنا، إذا كان يشعر بالغيرة.

وقد قال لي فيما نحن عائدون إلى مقاصيرنا:

ـ أنا أغار منك؟! لديَّ من الموهبة في قفاي أكثر مما لديك في كل جسمك!

ـ أجل، لكنك لا تملك من الموهبة إلا هناك»، أجبته وصفقت باب المقصورة بسرعة.

حين عاد سيدني إلى لندن، قررنا أن نستأجر شقة في بريكستون رود، وتأثيثها بأربعين ليرة. وقد ذهبنا إلى وسيط في نيووينغتون بوتس وشرحنا له كم يمكننا أن نسمح لنفسينا بإنفاقه لتأثيث أربع غرف. وقد اهتم الوسيط بمشكلتنا وأمضى ساعات وهو يساعدنا في العثور على فرص حقيقية. فوضعنا سجادة في الصالون ومشمّع أرض في الغرف الأخرى، واشترينا ديواناً ومقعدين من الجلد. ووضعنا في إحدى زوايا الصالون حاجزاً واقياً مغربياً من الخشب المقطّع، تضيئه من الخلف لمبة صفراء، وفي الزاوية المقابلة، على منصب مذهّب، لوحة موضوعة في إطار مذهَّب أيضاً، تمثّل امرأة عارية واقفة على قاعدة تمثال، تتطلع بصورة جانبية من فوق كتفها في حين يستعد فنان ملتحٍ لطرد ذبابة كانت تحط على عجيزتها. وقد فكرت في نفسي أن هذا العمل الفني والحاجز الواقي يضفيان على الغرفة كل طابعها. كان الانسامبل يجمع بين مجلس التبغ المغربي ودارة الموعد الفرنسية. لكننا كنا سعداء. حتى أننا اشترينا بيانو، ومع أنه توجب علينا أن نتجاوز بخمس عشرة ليرة الميزانية التي سبق أن حددناها، إلا أننا نلنا بالتأكيد على قدر تعبنا. باتت شقتنا في ١٥ غلينشاو مانسنز، بريكستون رود، مرسانا المفضّل. كم كنا نحلم بمتعة العودة إليها بعد جولة مسرحية! كنا الآن في حالة ازدهار تسمح لنا بمساعدة جدنا، بإعطائه عشرة شلنات في الأسبوع، لا بل تمكنّا من التعاقد مع خادمة كانت تأتي مرتين في الأسبوع لتنظيف الشقة. لكن ذلك بالكاد كان ضرورياً، لأننا نادراً ما كنا ننقل شيئاً من محله. كنا نعيش هناك كما في معبد، فنبقى جالسين، أنا وسيدني، في مقعدينا الكبيرين، في حالة رضى لذيذة. كنا قد اشترينا واقية حريق مع مقعد منجَّد من الجلد الأحمر، وكنت أتنقل بين الفوتوي الكبير والمقعد المنجَّد، لتجريب الراحة التي يقدمها كل منهما.

في السادسة عشرة من العمر، كان تصوّري للحب البريء قد ألهمني إياه ملصق مسرحي يمثل شابة فوق شاطىء صخري والهواء ينفخ في شعرها. كنت أتخيل نفسي ألعب معها الغولف ـ وهي لعبة أكرهها ـ متسلقاً تلالاً رملية يغشاها الندى، مستسلماً لخلجات العاطفة،

وللعافية والطبيعة. كان ذلك هو الحب البريء الخيالي. لكن حبًّا فنيًّا هو شيء آخر، إنه يتطابق عموماً مع نموذج محدد. فبسبب نظرة، وكلمات قليلة في البدء (عموماً كلمات لا معنى لها)، في بضع دقائق، تتغير الحياة كلها فجأة، تتعاطف الطبيعة كلها معنا، وتكشف بغتة أفراحها الخفية. وهذا هو ما حصل لي.

كنت في التاسعة عشرة تقريباً، وكنت أصبحت ممثلاً كوميدياً نجح كفايةً في شركة كارنو، لكن كان ينقصني شيء ما. كان الربيع قد جاء ثم مضى، وكان الصيف قد تركني وفي قلبي فراغ. لم يعد في الروتين اليومي الذي كنتَ أعيشه ما يثيرني، وكانت بيئتي تثير فيَّ الضجر.

كنت أتصور مستقبلي في شكل حياة تافهة بين أناس تافهين ومثيرين للضجر. لم يكن يكفيني أن ينحصر انشغالي في الجهود التي يجب بذلها لكسب المعيشة. كانت تلك حياة عبودية ينقصها السحر. كانت الكآبة تأخذ طريقها إلى نفسي، والشعور بعدم الرضى، وكنت أقوم يوم الأحد بنزهة متوحّدة وأنا أصغي إلى الأجواق الموسيقية في الحدائق العامة. لم يكن في وسعي أن أتحمل صحبة نفسي، ولا صحبة أي شخص آخر. وبالطبع، حدث ما كان يجب أن يحدث، وعشقت.

كنا نلعب في ستريتام آمباير (في ذلك الحين، كنا نلعب في مسرحي منوعّات أو ثلاثة كل مساء، منتقلين من واحد للآخر في عربة مستأجرة). وإلى ستريتام، كنا نصل باكراً، لننتقل بعد ذلك إلى كانتربري ميوزيك هول، ومن ثم إلى التيفولي. كان النهار لا يزال مضيئاً حين نبدأ، وكانت الحرارة شديدة، ومسرح ستريتام آمباير نصف فارغ بعد، وهو أمر لم يكن يساعد في شفائي من الكآبة.

كانت تسبقنا فرقة غناء ورقص، هي فرقة «يانكي دودل غورلز لبرت كوتس». وبالكاد كنت ألاحظ وجود المغنين والراقصين. لكن في الليلة التالية، في حين كنت أنتظر في الكواليس، لا مبالياً وبليداً، انزلقت إحدى الفتيات خلال الرقص، وانفجرت الباقيات بالضحك. وقد ألقت إحداهن نظرة نحوي وفاجأت نظري لترى إذا كنت أتسلى أنا الآخر بهذه الحادثة. وبغتة وجدتني تحت التأثير الطاغي لعينين كبيرتين قائمتين تبرقان مكراً، في وجه بيضوي بهي لظبية رشيقة، لها شفتان ممتلئتان ساحرتان وأسنان رائعة: كان ذلك يشبه شحنة كهربائية. وقد طلبت مني حين خرجنا من المسرح أن أمسك لها بمرآة صغيرة فيما تعيد تسريح شعرها، وهو الأمر الذي أتاح لي فرصة مراقبتها عن كثب. كانت تلك هي البداية، ويوم الأربعاء سألتها إذا كان في وسعي أن أراها الأحد، فأغرقت في الضحك، وهي تقول:

ــ أنا لا أعرف حتى أي وجه هو وجهك من دون هذا الأنف الأحمر! (كنت أمثل دور السِّكِّير في العصافير المتمتمة، مع ثياب وربطة عنق بيضاء).

ــ آمل أن أنفي ليس بهذا الإحمرار، ولست في الواقع بالدرجة من الشيخوخة التي تبدو عليّ ـ قلت ـ، ولإثبات ذلك سوف أجيئك غداً بصورة لي.

وقد أعطيتها ما قدّرت أنه صورة مغرية لشاب حزين، يضع ربطة عنق سوداء.

ـ أوه!، قالت، لكنك في مقتبل العمر! كنت أظنك أكبر سناً بكثير.

ـ أي عمر تعطينني؟

ـ ثلاثين عاماً على الأقل.

أجبت وعلى وجهي ابتسامة:

ـ أنا في التاسعة عشرة.

وبما أننا نتمرن كل يوم، كان من المستحيل أن نلتقي خلال الأسبوع. لكنها وعدت بأن تلقاني في كيننغتون غايت، في الرابعة من بعد ظهر يوم الأحد.

كان الأحد يوماً صيفياً رائعاً، وكانت الشمس قد بقيت مشرقة طيلة النهار. كنت أرتدي بذلة قاتمة تضغط القامة بصورة أنيقة، وربطة عنق سوداء، وأحمل عصاً من الأبنوس. كانت الرابعة إلا عشر دقائق، وكنت في حالة اضطراب، أنتظر وأراقب كل المسافرين، الذين ينزلون من القطارات الكهربائية.

كنت أتصور وأنا أنتظرها أني لم أرها من دون ماكياج، وبدأت أنسى كيف كانت هيئتها. وبالرغم من كل جهودي، لم أكن أتوصل لتذكر ملامحها. واستولت عليَّ بداية خوف. ربما لم يكن جمالها غير تصنع، وأوهام! وكانت كل فتاة تفتقد الجمال تنزل من قطار تتركني فريسة اليأس. هل كان أملي سيخيب؟ هل كنت ضحية خيالي أو تمويهات الماكياج؟

في الرابعة إلا ثلاث دقائق، نزلت فتاة من قطار كهربائي وتوجهت نحوي. وانقبض قلبي، إذ إن رؤيتها أثارت خيبة شديدة في نفسي. وكان المنظور المنكِّد لقضاء ما بقي من اليوم معها، والتظاهر ببعض الحماس، بدأ يثير في نفسي الحزن. بيد أني رفعت قبعتي وابتسمت لها ابتسامة مشرقة. لكنها صعقتني بنظرتها وتابعت طريقها. الحمد لله، لم تكن هي!

ثم في الرابعة ودقيقة واحدة، نزلت فتاة من أحد القطارات، وتقدمت نحوي ووقفت أمامي. كانت من دون ماكياج، وتبدو أجمل مما في أي وقت مضى، معتمرة قبعة قش بسيطة، ومرتدية سترة بزرقة البحر مع أزرار مذهّبة، ويداها في جيبها.

ـ هذا أنا، قالت.

كنت على درجة من الذهول إزاءها بحيث أكاد أستطيع الكلام. وثارت أعصابي. لم أجد ما أقوله أو أفعله.

ـ فلنأخذ عربة، قلت بصوت جاف، وأنا أتفحص الطريق، ثم استدرت نحوها وسألت: إلى أين تريدين أن نمضي؟

ـ لا فرق، قالت وهي تهز كتفيها.

ـ إذاً، فلنذهب للغداء في الوست إند.

ـ لقد تغديت، قالت بهدوء.

ـ نناقش ذلك في السيارة، أجبتها.

لا بد أن قوة انفعالي قد فاجأتها، لأنني لم أنفك أردد، على طول الطريق: «أنا أعرف أني سوف أتأسف لأجل ذلك. . . أنت جميلة جداً!» حاولت دون جدوى أن أكون مسلياً وممارسة التأثير عليها. كنت قد سحبت ثلاث ليرات من المصرف، وكنت أنوي اصطحابها إلى التروكاديرو حيث قد يمكنها أن تراني، في جو من الموسيقى والأناقة الناعمة، في صورتي الأكثر ميلاً إلى الحلم. كنت أريد أن أكسب قلبها دفعة واحدة. لكنها كانت تحتفظ بنظرة هادئة، وتبدو خائبة بعض الشيء بسبب أحاديثي، لا سيما حينما قلت لها إنها نيميزيسي[1]، وكانت هذه كلمة تعلمتها حديثاً جداً.

لم تكن تفهم كثيراً ماذا يعني كل ذلك بالنسبة لي. وفي الواقع، لم تكن الرغبة على علاقة مهمة بعواطفي، إن ما كان يهمني بوجه خاص إنما صِحْبَتها؛ فالتقاء الأناقة والجمال في وضعي كان أمراً نادراً.

حاولت في التروكاديرو، في ذلك المساء، إقناعها بالعشاء، لكن عبثاً. أرادت فقط أن تأخذ ساندويشاً للبقاء معي، كما قالت. ولما كنا نشغل طاولة في مطعم الأناقة، ظننت أني مضطر لطلب وجبة كاملة لم أكن أرغب فيها في الحقيقة. ولقد كان العشاء محنة طويلة: لم أكن أعرف جيداً أي غطاء مائدة يجب استعماله. وكنت أخادع على امتداد العشاء وأنا أتكلف سحراً طليقاً، حتى في لا مبالاتي في استخدام طاسة الأصابع، لكنني أعتقد أننا كنا كلانا مسرورين بمغادرة المطعم واسترخائنا قليلاً.

بعد التروكاديرو، قررتْ العودة إلى مسكنها. وقد اقترحتُ سيارة، لكنها فضلت السير على قدميها. ولما كانت تسكن كامبرويل، فقد كان ذلك يروق لي أكثر من أي شيء آخر، فلقد كان يعني أن في وسعي إمضاء المزيد من الوقت معها.

الآن وقد هدأ انفعالي قليلاً، كانت تبدو أكثر انشراحاً. في ذلك المساء، سرنا على أرصفة نهر التاميز، وكانت هيتي تروي لي قصصاً عن صديقاتها، ونكاتاً وتقول أحاديث غير ذات أهمية. لكني بالكاد كنت أولي انتباهي لما تقوله. كنت أعرف فقط أنها ليلة انخطاف، وأني كنت أتنزه في الفردوس، سابحاً في إثارة ملؤها السعادة.

بعد أن تركتها، عدت إلى الأرصفة، إلى الملائكة! ولما كنت مفعماً بالطيبة وبإرادة ورعة، رحت أوزع على المتشردين النائمين على ضفاف التاميز ما بقي معي من الليرات الثلاث.

تواعدنا بأن نلتقي مجدداً في الصباح التالي، عند الساعة السابعة، لأنها كانت ستقوم بتمرينات في الثامنة في مكان ما من شافتسبوري أڤينيو. كان هنالك كيلومتران ونصف بين بيتها

---

(١) نيميزيس Némésis هي إلهة الانتقام عند الإغريق (م).

ومترو وستمنستر بريدج رود، ومع أني أشتغل إلى ساعة متأخرة ولا أنام قبل الثانية صباحاً، فقد كنت واقفاً عند الفجْر لأجل رؤيتها من جديد.

كانت طريق كامبرويل تبدو لي الآن مشهداً سحرياً لأن هيتي كيلي كانت تسكن هناك. لقد كانت تلك النزهات الصباحية، يداً بيد، حتى المترو، كانت بالنسبة لي غبطة ممتزجة برغبات مبهمة ومشوشة. إن كامبرويل رود، التي كانت شارعاً بائساً ومثيراً للكمد أتحاشاه عموماً، باتت تمارس جاذبيتها عليّ حين أصل إليها في ضباب الصباح، مرتعشاً إزاء فكرة أن ألمح في البعيد خيال هيتي سائرة في اتجاهي. لم أكن أتذكر خلال تلك النزهات ما كانت تقوله. كنت في حالة انخطاف أكثر من اللزوم، مقتنعاً بأن قوة صوفية قرَّبت بيننا وبأن اجتماعنا ناتج تجاذب قرره القدر مسبقاً.

كنت أعرفها منذ ثلاثة صباحات، ثلاثة صباحات قصيرة كانت تجعل ما تبقى من النهار غير موجود حتى الصباح التالي. لكن موقفها تغير في الصباح الرابع. استقبلتني ببرود، ومن دون حماس، ورفضت أن تأخذ يدي. وقد لمتها على ذلك واتهمتها مازحاً بأنها لا تحبني.

ـ أنت تنتظر الكثير، قالت. وفي كل حال، أنا في الخامسة عشرة من العمر وأنت تكبرني بأربع سنوات.

لم أرد أن أفهم معنى ملاحظتها، لكنني لم أكن قادراً على تجاهل الطريقة التي كانت تبعدني بها فجأة. كانت تنظر أمامها مباشرة، وتسير بخطى رشيقة لتلميذة ثانوية، وقد أغرقت يديها في جيبي سترتها.

قلت لها:

ـ بعبارات أخرى، أنتِ لا تحبينني حقاً.

ـ لا أدري.

وقلت وقد أسقط في يدي:

ـ أنت لا تعرفين، إذاً أنت لا تحبينني.

لكنها لم تجب، وواصلت سيرها صامتة.

واستأنفت كلامي بلهجة لا مبالية:

ـ أترين أي نبي أنا؟ لقد قلت لك إني قد أتأسف لكوني التقيتك يوماً.

كنت أحاول أن أستجوبها لأعرف ما هي المشاعر التي تكنُّها نحوي بصورة دقيقة، لكنها كانت تجيب دائماً عن كل أسئلتي:

ـ لا أدري.

وأطلقتُ ما يشبه التحدي:

ـ أتتزوجينني؟

ـ أنا صغيرة جداً.

ـ حسناً، لو كنت مضطرة للزواج، أكنت تتزوجينني أنا أو شخصاً آخر؟

لكنها لم تكن تريد الالتزام ولم تكف عن القول:

ـ لا أدري . . . فأنا أحبك . . . لكن . . .

قلت وقلبي منقبض:

ـ لكن أنت لا تحبينني.

لم تنبس ببنت شفة. كان ذلك غائماً، وكانت الشوارع تبدو رمادية ومشؤومة.

قلت بصوت أجش:

ـ المحزن أنني تركت الأمور تمضي بعيداً. (كنا قد وصلنا إلى مدخل المترو). أعتقد أن من الأفضل أن ننفصل ولا يعود يرى أحدنا الآخر.

هذا ما أضفته متسائلاً كيف سيكون رد فعلها، لكنها بقيت على رصانتها.

أخذت يدها وشددتها بحنان.

ـ وداعاً، أجابت. أنا متأسفة.

كان هذا العذر شبيهاً بضربة توجهها إلي. وحين اختفت في المترو، شعرت بإحساس غير محتمل بالفراغ.

ماذا فعلت؟ هل بدوت شديد الفظاظة؟ ما كان علي أن أتحداها. لقد تصرفت كأحمق مدّع وخلقت وضعاً لم أعد معه أستطيع أن أرى هيتي من جديد من دون أن أبدو مضحكاً. ماذا كان علي أن أفعل؟ لم يكن في وسعي غير الألم. فقط لو كان باستطاعتي أن أغرق هذا القلق في النوم إلى حين أراها من جديد! أياً يكن الثمن، كان علي أن أتحاشاها إلا إذا أبدت رغبة في رؤيتي. ربما كنت جدياً أكثر من اللازم، وكانت مشاعري بالغة الحدة. في المرة القادمة التي يرى أحدنا الآخر فيها، سوف أكون لا مبالياً وطليقاً. لكن هل ستود رؤيتي من جديد؟ بالتأكيد! إذ لم يكن بالإمكان أن تصرفني بهذه السهولة.

في الصباح التالي، لم أقاوم الرغبة في الذهاب إلى كامبرويل رود. ولم تكن هي التي التقيتها بل أمها.

ـ ماذا فعلت بهيتي؟ قالت. لقد عادت إلى البيت وهي تبكي وقالت إنك لا تريد أن تراها بعد الآن.

فهززت كتفيَّ بابتسامة ساخرة، وقلت:

ـ وهي، ماذا فعلت بي؟

ثم سألتها بتردد إذا كان في وسعي رؤيتها من جديد. وقد هزت الأم رأسها بحذر وقالت:

ـ كلا، لا أعتقد أن ذلك مناسب.

دعوتها لشرب قدح. وذهبنا إذاً إلى الحانة التي في الزاوية لمناقشة الموضوع؛ وبعد أن توسلت لها كي تتركني أرى هيتي من جديد، أبدت موافقتها.

حين وصلنا إلى البيت، كانت هيتي هي التي فتحت الباب. وقد بدت متفاجئة وقلقة وهي تراني. كانت قد غسلت وجهها، وتفوح منها رائحة الصابون. وقد بقيت متسمرة على العتبة، وعيناها الكبيرتان تحملقان بـي بصورة باردة ولا مبالية، ففهمت أن الوضع يائس.

قلت وأنا أحاول التنكيت:

ـ جئت لأودعك من جديد.

فلم تجب، لكني أدركت أنها مستعجلة للتخلص منـي..

مددت يدي إليها باسماً:

ـ وداعاً مرة أخرى، إذاً.

ـ وداعاً، أجابت ببرود.

وعدت على أعقابـي، وسمعت باب الشارع ينغلق خلفي بهدوء.

لم أرها إلا خمس مرات، ونادراً ما دام أي من لقاآتنا أكثر من ٢٠ دقيقة، لكن هذا اللقاء القصير أثر بـي زمناً طويلاً.

الفصل السابع

عام ١٩٠٩، ذهبت إلى باريس. كان السيد بورنيل، المسؤول في الفولي برجير قد تعاقد مع شركة كارنو على مدة شهر. وكانت فكرة الذهاب إلى بلد أجنبي تثير أعصابي كثيراً! وقبل أسبوع من إبحارنا، لعبنا في وولويش. كان أسبوعاً حزيناً وبائساً في مدينة بائسة، وكنت مستعجلاً للذهاب إلى مكان آخر. كنت على وشك أن أخطىء القطار، وقد ركضت على امتداد الرصيف وتعلقت بآخر مقطورة للأمتعة وسافرت فيها حتى دوڤر. كانت لدي في تلك الفترة موهبة الوصول بعد أن يكون القطار قد تحرك.

كان المطر يتدفق بغزارة على المانش، لكن حالما لمحت فرنسا للمرة الأولى عبر الرذاذ، أثار ذلك في نفسي انفعالاً لا أنساه. ورحت أردد: «ليست هذه إنكلترا، إنها اليابسة! إنها فرنسا!» كان ذلك بلداً طالما فتن خيالي، فلقد كانت تجري في عروق أبي دماء فرنسية، إذ إن عائلة شابلن من أصل فرنسي، وقد استقرت في إنكلترا أيام الهوغنوت. وكان عم والدي يقول باعتزاز إن جنرالاً فرنسياً أسس الفرع الإنكليزي من عائلة شابلن.

كنا في نهاية الخريف، وكانت الرحلة من مرفأ كاليه إلى باريس متجهمة. مع ذلك، كلما كنا نقترب من باريس، كانت إثارتي تزداد. لقد اجتزنا أراضي مشؤومة وقليلة الازدحام، وإذ بنا نرى في السماء التي تزداد قتامة ضياء يكبر ويتسع.

قال فرنسي كان موجوداً في مقطورتنا:

ـ هذا هو انعكاس باريس.

كانت باريس تماماً كما تمنيتها. لقد أثارتني المسافة من محطة الشمال إلى شارع غوفروا ـ ماري واستنفدت صبري: في كل زاوية شارع، كنت أرغب في النزول ومواصلة الطريق راجلاً. كانت السابعة مساء، وكانت الأضواء المذهَّبة تلمع بصورة دافئة وودية في المقاهي وكانت طاولات أرصفتها توحي بفرح الحياة. وإذا استثنينا التجديد المتمثل بوجود بعض السيارات، كانت المدينة لا تزال باريس مونيه، وبيسارو ورونوار. كان اليوم يوم أحد، وكان يبدو أن الجميع لا يفكرون إلا باللهو. كان الجو يبرق بالمرح والحيوية. حتى غرفتي في شارع غوفروا ـ ماري، بأرضيتها ذات المربّعات، والتي كنت أسميها زنزانتي في سجن

الباستيل، لم تتوصل إلى تخفيف حماسي، لأن الناس كانوا يعيشون جالسين على أرصفة الحانات والمقاهي.

مساء الأحد، كنا أحراراً، وهو الأمر الذي سمح لنا بأن نرى عرض الفولي - برجير، حيث كان علينا أن نبدأ عروضنا في اليوم التالي، يوم الإثنين. ما من مسرح كان بدا لي سابقاً زاهياً ومتألقاً إلى ذلك الحد، بألوانه الذهبية ونسيجه المخملي، وبمراياه وثرياته البلورية الضخمة. كان العالم بأسره في صالات المسرح المغطاة بموكيت سميكة، وفي الصف الأول من البلكونات: كان أمراء هنود تتلألأ عليهم المجوهرات، ويضعون على الرأس عمامات وردية، وضباط فرنسيون وأتراك مع قبعات رائشة، يشربون الكونياك في البار. وفي الصالة الكبرى، وعلى موسيقى الأركسترا، كانت سيدات يتركن فرو الكتفين، ومعاطف الفرو الخاصة بهن، معرّين أكتافهن البيضاء. كن معتادات يمارسن في السر مهنتهن كرصيفيات في الصالات والبلكونات. ولقد كن في ذلك الزمان جميلات وأرستقراطيات.

وكان في مسرح الفولي برجير أيضاً عارفون باللغات محترفون، يتجولون فيه وعلى كسكيتهم كلمة «مترجم». وقد تصادقت مع رئيسهم الذي كان يتكلم عدة لغات بطلاقة.

بعد الدور الذي أديناه، ظللت بثياب السهرة التي كنت أرتديها على المسرح واندمجت بالمشاهدين. فجأة خفق قلبي لمخلوقة ممشوقة لها عنق بجعة وبشرة بيضاء. كانت فتاة طويلة، تشبه موديلات جيبسون، رائعة الجمال، مع أنف خانس[1] وأهداب طويلة، وكانت تلبس فستاناً من المخمل الأسود مع قفازين طويلين أبيضين. وفيما هي صاعدة الدرج الذي يفضي إلى البلكون، تركت أحدهما يسقط، فسارعت إلى التقاطه.

ــ شكراً، قالت.

فقلت بلهجة متخابثة:

ــ آسف ألا تُسقطيه من جديد.

ــ عفواً؟

فأدركت عندئذ أنها لا تفهم الإنكليزية وأني لا أتكلم الفرنسية. فذهبت إذاً باحثاً عن صديقي المترجم.

ــ ثمة هنا سيدة توقظ شهوتي. لكن تبدو لي غالية جداً.

قال وهو يهز كتفيه إلى الأعلى:

ــ ليست أغلى من لويسية[2] واحدة.

ــ حسناً»، قلت، مع أن لويسية في ذلك الزمان بدت لي مبلغاً ضخماً، وكنت على حق.

سألت المترجم أن يكتب لي على قفا بطاقة بريدية بعض جمل الحب بالفرنسية:

---

(١) أي متجه إلى الأعلى، في طرفه retroussé (م).

(٢) ليرة ذهبية فرنسية (م).

«vous adore، «je vous ai aimée la première fois que je vous ai vue»[٣]، الخ، وكنت أنوي أن أستخدمها في اللحظة المناسبة؛ وقد طلبت منه أن يقوم بالترتيبات التمهيدية، ولعبَ دور ساعي بريد، متنقلاً بين الدورين. وقد عاد أخيراً وهو يقول:

ـ كل شيء قد ترتَّب. لويسية واحدة، لكن يجب أن تدفع مقابل الانتقال إلى شقتها ذهاباً وإياباً.

فحاولت التسويف، وسألت:

ـ أين تسكن؟

ـ لن يكلف ذلك أكثر من عشرة فرنكات.

كانت عشرة فرنكات كارثة، لأني لم أتوقع هذه التكاليف الإضافية. فقلت مازحاً:

ـ ألا يمكنها السير على قدميها؟

فقال:

ـ إسمع، هذه فتاة من الدرجة الأولى، ويجب أن تدفع أجرة الانتقال.

فوافقت. وحين انتهت الترتيبات، مررت أمامها على الدرج المفضي إلى أول بلكون، فابتسمت لي وتأملتها.

ـ هذا المساء!

ـ Enchantée, monsieur![٤].

وبما أننا كنا قبل الاستراحة، وعدتُ بلقائها بعد تأدية دوري. وقال لي المترجم:

ـ اطلب عربة فيما أذهب لاصطحاب الفتاة، وهكذا لا تضيع الوقت.

ـ أنا، أضيع الوقت!

كانت العربة تتهادى بنا على امتداد بولفار الطليان، فيما الأضواء والظلال تداعب وجهها وعنقها الأبيض الطويل وقد بدت لي رائعة. فألقيت نظرة على جملي الفرنسية على البطاقة البريدية، وبدأت:

ـ je vous adore.

فقهقهت، مبدية أسنانها البيضاء الفاتنة:

ـ أنت تتكلم الفرنسية جيداً.

ـ «je vous ai aimée la première fois que je vous ai vue».

هذا ما قلته، متابعاً بحماس. فضحكت من جديد، وصححت فرنسيتي، موضحة أن

---

(٣) «أعبدك»، «أحببتك من أول نظرة».

(٤) أنا مسرورة، أيها السيد (م).

عليَّ القول «tu»[1]. وإذ تذكرت جملتي، عادت تضحك. ثم نظرت إلى ساعتها، لكنها كانت متوقفة؛ فأوضحت لي بالإشارة أنها تريد أن تعرف الوقت، لأن لديها عند منتصف الليل موعداً مهماً.

قلت بحياء:

ـ ليس هذا المساء.

ـ بلى، هذا المساء.

ـ لكنك مأخوذة هذا المساء، toute la nuit![2].

ـ Oh! non, non! Pas toute la nuit![3]

عندئذ بالذات بدأت الأمور منفِّرة. وقلت:

ـ Vingt francs pour le moment?[4]

فأجابت:

ـ C'est ça![5]

ـ آسف (قلت)، لكني أظن أن من الأفضل أن أوقف العربة.

وبعد أن دفعت للحوذي كي يعيدها إلى الفولي برجير، نزلت حزيناً جداً وخائباً.

كان في وسعنا أن نبقى في الفولي برجير عشرة أسابيع، لأننا حققنا نجاحاً كبيراً، لكن كان لدى السيد كارنو التزامات أخرى. كانت أجرتي عشر ليرات أسبوعياً، وقد أنفقتها كلها. وقد قام ابن عم لأخي، لا أدري ما درجة قرابته إلى والد سيدني، بتعريفي بنفسه. كان ثرياً، وينتمي إلى ما يسمونه المجتمع المخملي، وقد جعلني أمضي وقتاً لذيذاً خلال إقامته في باريس. كان مشغوفاً بالمسرح، وبلغ به الأمر حد حلق شاربيه كي يظهر كعضو في فرقتنا ويتمكن من الوصول إلى الكواليس. إلا أنه اضطر للأسف لأن يعود إلى إنكلترا، حيث تلقى ـ كما بدا لي أني فهمت ـ تأنيباً شديداً من أهله الأمجاد الذين أرسلوه إلى أميركا الجنوبية.

قبل أن أمضي إلى باريس، علمت أن فرقة هيتي تلعب في الفولي برجير، لذا نويت أن أراها من جديد. وفي الليلة التي وصلت فيها، ذهبت إلى الكواليس وبدأت التحقيق، لكنني عرفت من إحدى الفتيات أن الفرقة سافرت في الأسبوع السابق إلى موسكو. وفيما كنت أتكلم مع تلك الفتاة، دوى على الدرج صوت مزعج كريه:

ـ تعالي إلى هنا فوراً، كيف تتجرئين على الحديث مع أجانب!

---

(١) ضمير المخاطب المفرد، رفعاً للكلفة، بدلاً من ضمير الجمع vous، الذي يفيد الاحترام، والمسافة بين المتلكم والمخاطب (م).

(٢) طيلة الليل!

(٣) آه، كلا، كلا! ليس طيلة الليل!

(٤) عشرون فرنكاً مقابل هذا الوقت؟

(٥) بالضبط!

كانت أمها. ولقد حاولت أن أشرح لها أني أريد فقط الحصول على معلومات عن إحدى صديقاتي، لكنها رفضت الاستماع إلي.

ـ كفي عن الكلام مع هذا الرجل، وتعالي على الفور.

وقد ضايقتني فظاظتها، إلا أني توصلت، مع ذلك، إلى معرفتها بصورة أفضل. كانت تقيم في الفندق ذاته الذي أقيم فيه، مع ابنتيها اللتين كانتا في فرقة الباليه بالفولي برجير. كانت الصغرى، وهي في الثالثة عشرة، راقصة أولى. وكانت جميلة جداً وموهوبة للغاية، لكن الكبرى كانت تفتقر، في الوقت ذاته، إلى الجمال والموهبة. وكانت الأم فرنسية قوية القامة تبلغ الأربعين من العمر، متزوجة اسكتلندياً يسكن في إنكلترا. وقد جاءت بعد عروضنا الأولى في الفولي برجير تعتذر مني بسبب ما بدا منها من فظاظة. وكانت تلك بداية صداقة حميمة. كن يدعونني دائماً إلى شقتهن لشرب الشاي الذي كن يحضِّرنه في غرفة نومهن.

حين أفكر بذلك من جديد، أدرك أني كنت بريئاً بصورة لا تصدَّق. ففي بعد ظهر أحد الأيام، وكانت الابنتان قد خرجتا، وبقيت أنا والأم لوحدنا، بات تصرفها غريباً، وراحت ترتجف وهي تصب الشاي. كنت أتحدث عن آمالي وأحلامي، وعن قصص حبي وخيباتي، وقد بدت متأثرة جداً. وإذ نهضت لأضع فنجان الشاي على الطاولة، اقتربت مني وقالت وهي تأخذ وجهي بين يديها وتتطلع في عينيَّ مباشرة:

ـ أنت فاتن، وفتى لطيف مثلك يجب ألا يتألم (وهنا ترنحت نظرتها، وكانت نظرة غريبة، شبه منوِّمة، وراح صوتها يرتجف).

ثم واصلت كلامها، ووجهي لا يزال بين يديها:

ـ أتدري، أنا أحبك كما لو كنت ابني.

ثم اقترب وجهها من وجهي ببطء وقبلتني.

فتشكرتها من أعماق قلبي، وقبلتها بدوري بكل براءة.

ظلت تتأملني بعين جامدة، وشفتاها ترتجفان، ونظرتها كابية، ثم تداركت نفسها فجأة وصبت لي فنجان شاي آخر. كان سلوكها قد تغير، وعلى وجهها ابتسامة مليئة بالدعابة.

ـ أنت لطيف جداً، وأنا أحبك كثيراً.

ثم أسرَّت لي بأشياء حول ابنتيها، وقالت:

ـ ليست لدي مشكلات مع الصغيرة، لكن سوف يتوجب مراقبة الكبرى، إذ ستتسبب لنا بهموم.

بعد العروض، كانت تدعوني للعشاء في غرفتها الكبيرة، التي تنام فيها مع ابنتها الصغرى، وقبل أن أنتقل إلى غرفتي، أعانق الأم والأصغر سناً متمنياً لهما ليلة سعيدة. وكان علي أن أجتاز غرفة صغيرة تنام فيها الابنة البكر.

ذات مساء، فيما كنت أمر، أسرّت لي وهمست: «اترك بابك مفتوحاً وسأجيء إليك حين تنام العائلة». وربما لن يصدقني أحد، لكنني رميت بها باستياء على سريرها وخرجت مسرعاً. وقد عرفت أنه بعد انتهاء عقدهن مع الفولي برجير، هربت الابنة البكر، ولم تكن بلغت الخامسة عشرة، مع مروض للكلاب، كان ألمانيا ضخماً في الستين من عمره.

لكنني لم أكن بالبراءة التي كنت أبدو بها. فبين الحين والآخر، كنت أمضي بصحبة أعضاء آخرين في الفرقة، ليلةً أعيِّد فيها في المواخير، منصرفاً إلى كل أنواع الطيش الخاصة بالشباب. وذات مساء، بعد أن شربت عدة كؤوس من الأبسنت[1]، رحت أتعارك مع ملاكم محترف قديم من الوزن الخفيف، اسمه أرني ستون. وقد بدأت المشادة في مطعم، وحين فصلنا الخدم ورجال الشرطة، قال لي: «سوف أراك من جديد في الفندق»، الذي كنا ننزل فيه نحن الاثنين. كانت غرفته فوق غرفتي، وقد عدت في الرابعة صباحاً وأنا أترنح، وفي طريقي عرَّجت على بابه ودققته.

ـ ادخل، قال بسرعة، وانزع حذاءك كي لا نحدث ضجة.

وفي صمت تام، عرّينا نصفنا الأعلى، ثم وقفنا أحدنا بمواجهة الآخر. وقد تبادلنا الضرب والفر خلال ما بدا لي وقتاً لا نهاية له. وقد ضربني مراراً على ذقني، لكن ذلك لم يؤثر بي إطلاقاً.

قلت له ساخراً:

ـ كنت أعتقد أن ضرباتك قاضية.

وهجم عليَّ، لكنه اخطأني وصدم رأسه بالحائط، الأمر الذي شله تقريباً. وقد حاولت «الإجهاز عليه»، لكن ضرباتي كانت رخوة. كان في وسعي أن أضربه من دون خطر الرد، لكنني لم أعد أملك القوة في قبضتي. وفجأة تلقيت ضربة على الفم مباشرة، صدَّعت فكي وأعادتني في الحال إلى الوعي، فقلت:

ـ يكفي! لست حريصاً على خسارة أسناني.

فاقترب وعانقني بقوة، ثم نظر في المرآة: كنت قد شطبت وجهه. كانت يداي منتفختين كقفازي ملاكمة، وكان هنالك دم على الأرض، وفوق الستائر والجدران. ولا أدري إطلاقاً كيف لطخنا هكذا كل الأمكنة.

وفي الليل، سال خيط من الدم من زاوية فمي ونزل على عنقي. وقد زعقت أول راقصة جاءتني في الصباح بفنجان شاي، ظانة أني انتحرت. ومنذ ذلك الحين لم أخض أي معركة جديدة.

ذات مساء، جاء المترجم ليقول لي إن موسيقياً مشهوراً يريد التعرف إليَّ، ويسأل إذا كنت أقبل بالذهاب إلى مقصورته. ولم تكن الدعوة تخلو من الفائدة، إذ كانت في مقصورته

---

(١) كحول تستخرج من الافسنتين (م).

امرأة جميلة جداً تبدو أجنبية بعض الشيء، وتعمل في فرقة الباليه الروسية. وقد قدمني المترجم، وقال السيد النبيل إنه أحب دوري كثيراً وإنه متفاجىء وهو يراني بهذه الفتوّة. وأمام هذه الإطراءات، انحنيت بتهذيب، ملقياً بين الحين والآخر نظرة خاطفة على صديقته.

قال:

ــ أنت موسيقي وراقص بالغريزة.

وقد قدرت أنه ليس ثمة جواب آخر عن هذا الإطراء سوى أن أرسم ابتسامة جميلة على وجهي، ثم نظرت إلى المترجم نظرة سريعة وانحنيت بمودة. ونهض الموسيقي ومد لي يده، ونهضت أنا بدوري.

ــ أجل (قال وهو يشد على يدي)، أنت فنان حقيقي.

وبعد أن انصرفت، استدرت نحو المترجم وسألته:

ــ من السيدة التي كانت معه؟

ــ هي راقصة باليه روسية، الآنسة... (كان اسمها طويلاً جداً وبالغ الصعوبة).

ــ وما اسم هذا السيد؟

ــ دوبوسي، المؤلف الموسيقي المشهور.

ــ لم أسمع باسمه من قبل.

كانت تلك سنة الفضيحة الكبرى، والمحاكمة المشهورة لمدام ستاينهايل، التي صدر الحكم بتبرئتها من تهمة قتل زوجها، سنة «البوم ـ بوم»، تلك الرقصة المثيرة التي كانت تُظهر أزواجاً يدورون بطريقة غير محتشمة؛ السنة التي جرى التصويت فيها على قوانين ضريبية غير معقولة تقضي باقتطاع ستة بنسات من كل ليرة من المداخيل؛ السنة التي قدَّم فيها دوبوسي في إنكلترا مقدمة موسيقية لبعد ظهر في حياة حيوان، فصفَّر الجمهور استهجاناً وغادر القاعة.

حين عدت إلى إنكلترا بعدئذ، وذهبت في جولة، لم يكن ذلك من دون حزن. فيا له من تناقض مع باريس! تلك الأمسيات الكئيبة لأيام الأحد في مدن الشمال: كان كل شيء مقفلاً، فيما تسمع الرنين الحزين الصادر عن الأجراس المؤنِّبة وهو يصاحب الصِّبية المبتهجين والبنات الضاحكات بعصبية، فيما هم يتجولون في الشوارع القاتمة الكبيرة وفي الأزقة. كانت تلك سلواهم الوحيدة مساء الأحد.

منذ ستة أشهر، كنت قد عدت إلى إنكلترا، واستأنفت عاداتي، حين جاءني خبر من مكتب لندن أعاد بعض الحيوية إلى حياتي. لقد أبلغني السيد كارنو أن علي الحلول محل هاري ويلدون في الموسم الثاني لماتش الفوتبول. كان لدي الآن شعور بأن نجمي يصعد. تلك كانت فرصتي. فمع أني حققت النجاح في العصافير المتمتمة واسكتشات أخرى، فلقد كانت تلك نجاحات صغرى إذا قيست بالدور الأول الذي بات علي أن أضطلع به في ماتش الفوتبول. كنا سنقدم، فضلاً عن ذلك، العرض الأول في الأوكسفورد، أهم ميوزيك هول في لندن. كنا سنشكل مركز الجذب المسرحي الرئيسي، وللمرة الأولى كان اسمي سيظهر

بحروف كبيرة في رأس الإعلانات. كانت تلك خطوة كبيرة إلى الأمام، فإذا حصلت على نجاح في الأوكسفورد، اكسب هكذا مركزاً متميزاً يسمح لي بالمطالبة بأجر ضخم، وبلعب اسكتشاتي الخاصة بي في الأخير. قد يفضي بي ذلك، في الواقع، إلى شتى أنواع المشاريع الرائعة. ولما كانت عملياً الفرقة ذاتها التي كانت تلعب **ماتش الفوتبول**، كان يكفينا أسبوع من التمرينات. وكنت قد فكرت طويلاً في الطريقة التي عليَّ أن أؤدي بها الدور. كان لهاري ويلدون لهجة اللانكشاير، وقد قررت أن أجعل من الشخص واحداً من سكان لندن.

لكن في العرض الأول، أصبت بالتهاب الحنجرة. وقد بذلت كل جهدي لتَدَبُّر أمر صوتي، لكنني كنت أتكلم همساً، وقد قمت باستنشاقات وتبخيرات إلى الحين الذي حرمني فيه القلق من كل الطلاوة، ومن كل المعنى الهزلي الذي كنت أحتاجه في دوري.

في ليلة الافتتاح، كان كل عصب وكل وريد في حلقي متوترين إلى حد الإنقصاف. لم أكن قادراً على إسماع صوتي، وقد جاء كارنو ليراني بعد ذلك وعلى وجهه تعبير تمتزج فيه الخيبة بالازدراء.

قال مؤنباً:

ـ لم يكن أحد يسمعك.

فأكدت له أن صوتي سيكون أوضح في الليلة اللاحقة، لكن لم يحصل شيء من ذلك، بل كان أكثر سوءاً، لأني قسوت عليه إلى حد أني بت على وشك فقده تماماً. وقد حل محلي في اليوم التالي ممثل بديل، بحيث توقفت العروض في نهاية الأسبوع الأول. كانت كل الآمال والأحلام التي كوّنتها حول هذا التمثيل في الأكسفورد قد انهارت، ومن الخيبة وجدت نفسي أنتقل إلى السرير بعد إصابتي بالكريب.

كان قد مر أكثر من عام وأنا لا أرى هيتي. وفي حالة الضعف والكآبة التي كنت فيها بعد إصابتي تلك عدت أفكر فيها، وغامرت ذات مساء لجهة بيتها في كامبرويل. لكن المبنى كان فارغاً وعليه لافتة كتب عليها: «للإيجار».

واصلت التيه في الشوارع من دون هدف واضح، وإذ يظهر فجأة خيال في الليل يجتاز الشارع ويقترب مني.

ـ شارلي! ماذا تفعل هنا؟

كانت هيتي. وكانت ترتدي معطفاً من جلد الفقمة أسود اللون مع قبعة صغيرة مستديرة من الجلد نفسه.

قلت مازحاً:

ـ جئت لأراك.

ـ أنت مهزول جداً، قالت وهي تبتسم.

قلت لها إني متعافٍ لتوي من كريب. كانت في السابعة عشرة، رائعة الجمال وشديدة الأناقة. وسألتها.

ــ وأنتِ، ماذا تفعلين هنا؟

ــ ذهبت لرؤية صديقة لي، وأنا ذاهبة الآن إلى بيت أخي. أتود أن ترافقني؟

روت لي في الطريق أن أختها تزوجت مليارديراً، هو فرانك ج. غولد، وأنهما يسكنان نيس، وأنها ستغادر لندن في اليوم التالي للالتحاق بهما.

في ذلك المساء، تأملتها ترقص بصورة مثيرة مع أخيها. كان سلوكها حياله سلوك حورية حمقاء قليلاً، ورغماً عني لم أتمكن من الامتناع عن القول في قرارة نفسي إن حدة المشاعر التي كنت أكنها لها قد خفَّت. هل أصبحت تافهة كأي فتاة أخرى؟ هذه الفكرة أحزنتني وبدأت أراقبها بموضوعية.

كانت قامتها قد امتلأت، ولاحظت تكويرة نهديها: بدوا لي صغيرين ومن دون شكل بارز. هل كنت أتزوجها لو قيِّض لي ذلك؟ كلا، لم تكن لدي رغبة في الزواج من أي كان.

فيما كنت أصحبها إلى بيتها في تلك الليلة الباردة والصافية، لا بد أني بدوت حزيناً ولا مبالياً حين تكلمت على إمكانية أن تعيش هي حياة سعيدة وزاخرة. وقد قالت:

ــ أنت تبدو كئيباً إلى حد أني أكاد أبكي.

في ذلك المساء، عدت وأنا أحس بالانتصار، لأني نجحت في ملامسة قلبها بحزني وفي إشعارها بشخصيتي.

من جديد، أعطاني كارنو دوراً في **العصافير المتمتمة**، ولسخرية القدر، استعدت صوتي بعد أقل من شهر. ومهما تكن خيبتي كبيرة بخصوص ماتش الفوتبول، حاولت ألا أتوقف طويلاً عندها. لكن كانت تسيطر عليّ فكرة أني ربما لست قادراً على الحلول محل ويلدون. وكان يتمايل خلف كل ذلك ما يشبه شبحاً لذكرى أول فشل لي في الفورسترز. وبما أني لم أستعد ثقتي بنفسي بالكامل، كان كل اسكتش جديد ألعب فيه الدور الأول بمثابة امتحان. إلى أن جاء اليوم المقلق جداً الذي اضطررت فيه لإعلام السيد كارنو بأن عقدي قد انتهى وأني أطلب زيادة.

كان في وسع كارنو أن يكون متهكماً وقاسياً مع الناس الذين لا يحبهم. وبما أنه كان يحبني، لم يقيض لي يوماً أن أرى هذا الوجه من وجوه شخصيته، لكنه كان يعرف أن يبدو ساحقاً في ابتذاله. فخلال عرض واحدة من تمثيلياته الهزلية، إذا لم يكن يحب ممثلاً معيناً، كان يقف في الكواليس ويقرص أنفه ويُخرج ضجة ضرْطٍ مسموع تماماً. لكنه فعل ذلك مرة أكثر مما ينبغي، فغادر كوميدي غاضب المسرح وهجم عليه؛ وكانت تلك المرة الأخيرة التي لجأ فيها إلى تدابير بهذا الابتذال. وجاء اليوم الذي وجدتني فيه أمامه لمناقشة عقد جديد.

ــ ماذا؟ قال وهو يبتسم ساخراً، تريد زيادة ومسارح الميوزيك هول تريد تنقيصاً. (وهز

كتفيه). منذ الفشل الذريع في الأوكسفورد، لم نتلق غير احتجاجات. يقولون إن الفرقة ليست على مستوى، إنها ليست مرودجة[1].

قلت:

ـ أنا لا أرى لماذا يجب تحميلي مسؤولية ذلك.

ـ لكن هذه هي الحال»، أجاب وهو يحملق فيّ.

ـ مم يتذمرون؟» سألت.

فتنحنح وتطلع إلى السقف:

ـ يقولون إنك ممثل رديء.

ومع أن الملاحظة أصابتني في الأعماق، وأثارت غضبي في الوقت نفسه، لكنني أجبت بهدوء:

ـ حسناً، هناك آخرون لا يعتقدون ذلك، وهم مستعدون لأن يدفعوا لي أكثر مما آخذ هنا (لم يكن ذلك صحيحاً، إذ لم يقدِّم لي أي عرض).

ـ يقال إن المشهد كان مريعاً وأن البطل رديء. انتظر، قال وهو يرفع الهاتف، سوف أكلم الستار، في برموندسي، وسوف يكون في وسعك أن تسمع بأذنيك... «يبدو أن الأمور لم تكن على ما يرام في الأسبوع الماضي»، قال في الجهاز.

ـ مريع!» أجاب صوت.

فنظر إليّ كارنو ساخراً.

ـ كيف تفسر هذا؟

ـ مشهد لا قيمة له!

ـ ما رأيك بشابلن، البطل؟ ألم يكن جيداً؟

ـ إنه رديء تماماً!» قال الصوت.

ـ وقرّب كارنو الجهاز من أذني بطريقة ماكرة.

ـ اسمع بنفسك».

ـ وأخذت الجهاز، وقلت:

ـ ربما هو رديء، لكن ليس بنصف رداءة مسرحكم القذر!

وذهبت جهود كارنو لاسكاتي سدى، قلت له إنه إذا كان من رأي المتكلم معه، فلا حاجة لتجديد عقدي. لقد كان كارنو محتالاً متواطئاً، من نواح عديدة، لكنه لم يكن عالم نفس مرهفاً. فحتى لو كنت رديئاً، كان من قبيل الرعونة أن يلجأ لشخص على الطرف الآخر من الخط يقول لي ذلك. كنت أقبض خمس ليرات في الأسبوع، ومع أن معنوياتي كانت منهارة، كنت أطلب ست ليرات. وقد فوجئت حين منحني إياها كارنو، ووجدت نفسي من جديد أحظى برعايته.

---

(١) كان يلزمنا، لدى كارنو، ستة أشهر على الأقل لنجد إيقاعنا، لنترودج.

عاد آلف ريفز، مدير فرقة كارنو الأميركية، إلى إنكلترا، وكان يشيع أنه يبحث عن دور أول يصحبه معه إلى الولايات المتحدة.

منذ فشلي المهين في الأوكسفورد، كنت أحلم بالرحيل إلى أميركا، ليس فقط لأجل المغامرة المشوقة التي قد يشكلها ذلك، بل كذلك لأن هذا يعني بالنسبة لي تجديداً للأمل، وبداية جديدة في عالم جديد.

ومن حسن الحظ أن في ميدان التزلج، أحد اسكتشاتنا الجديدة الذي كنت بطله، كان يمثل بنجاح كبير في بيرمينغهام، وحين جاء السيد ريفز ليلتقي فرقتنا هناك، أظهرت له كل ما لدي من سحر، حتى أن ريفز أبرق إلى كارنو أنه وجد ممثله الكوميدي الذي سيصطحبه إلى الولايات المتحدة، لكن كارنو كان لديه مشاريع أخرى بخصوصي. وقد تركني هذا الخبر المحزن في الحيرة أسابيع عديدة إلى اليوم الذي أثار فيه اهتمامه اسكتش بعنوان The Hou-Hous. كانت محاكاة ساخرة حول مسارّة[1] لعضو في جمعية سرية. وقد وجدنا، ريفز وأنا، هذه الكوميديا بلهاء، وحمقاء وتافهة. لكن كارنو لم يكن يريد الرجوع عن فكرته، وراح يؤكد أن أميركا مليئة بالجمعيات السرية، وأن محاكاة ساخرة حول هذا الموضوع قد تحظى بالكثير من النجاح هناك؛ حتى أنه اختارني، للعب الدور الرئيسي في The Hou-Hous في أميركا، مقدماً لي بذلك تعزية كبرى وفرحاً عظيماً.

كانت فرصة الذهاب إلى الولايات المتحدة مايلزمني بالضبط. فلقد كان لدي شعور بأني بلغت أقصى حدودي في إنكلترا؛ ومن جهة أخرى، كانت إمكاناتي محدودة. فمع التعليم المختصر الذي تلقيته، إذا فشلت كممثل في مسرح المنوعات، لا يعود أمامي من عمل غير الخدمة في البيوت. أما في الولايات المتحدة، فلقد كانت الآفاق أكثر تألقاً.

في المساء الذي سبق رحيلي، مضيت أتنزه في الوست أند، متوقفاً في لايستر سكواير، وفي كوفنتري ستريت، وعلى المال Mall وفي بيكاديلي، وفي داخلي شعور مفعم بالحنين بأن تلك ستكون آخر مرة أرى فيها لندن، لأني كنت قد قررت الإقامة نهائياً في أميركا. تنزهت حتى الثانية صباحاً، مستغرقاً في شعر الشوارع المقفرة وحزني الشخصي.

لم تكن لدي أي رغبة في توديع أي كان. فمهما عانى المرء حين يغادر أهلاً وأصدقاء، تصبح الأمور أشد مضاضة إذا جاؤوا يرافقونه إلى المحطة. لم أكلف نفسي إذاً عناء إيقاظ سيدني، لكنني اكتفيت بترك كلمة على الطاولة أقول فيها: «أنا ماض إلى أميركا. سوف أبلغك بالتطورات. كل محبتي، شارلي».

---

(١) احتفالات لإيقاف عضو جديد على بعض أسرار الديانات القديمة والجمعيات السرية الحديثة.

في طريقنا إلى كيبك، أمضينا ١٢ يوماً في عرض البحر في طقس مريع. بقينا ثلاثة أيام مختصرين الأشرعة، مع دفة محطمة. لكن قلبي كان مبتهجاً ومرحاً إزاء فكرة بلوغ قارة جديدة. وقد قمنا بالرحلة عن طريق كندا على متن سفينة شحن للمواشي، ومع أنه لم يكن ثمة حيوانات على متنها، كان هنالك عدد كبير من الجرذان التي تنتصب بكبرياء عند أسفل سريري إلى حين أرميها بحذاء.

في بداية أيلول، تجاوزنا الأرض الجديدة (تيرنوف) في الضباب. إلا أننا لمحنا اليابسة في الأخير. كان مطر خفيف يسقط طيلة النهار، وكانت سواحل سان لوران تبدو كئيبة. وكانت رؤية كيبك من السفينة تجعلك تفكر في الاسوار التي كان أمكن شبح هاملت أن يتنزه فيها، وبدأت أطرح على نفسي أسئلة بصدد الولايات المتحدة.

لكن كلما كنا نتقدم نحو تورنتو، كان الريف يصبح أكثر فأكثر جمالاً بألوانه الخريفية واستعدت الأمل. وما إن وصلنا حتى غيّرنا القطار ومررنا بمصالح الهجرة الأميركية. وفي العاشرة من صباح يوم أحد بلغنا نيويورك. وحين نزلنا من الترامواي في تايمز سكواير، خاب أملي قليلاً. كانت صحف طيّرتها الريح تملأ الشارع والأرصفة، وكانت برودواي تبدو كامرأة متروكة نهضت لتوّها من النوم. وفي كل زوايا الشارع تقريباً، كانت هنالك مقاعد عالية تطفو منها أشكال بأحذية، وأناس جالسون بصورة مريحة وأكمام قمصانهم بارزة، فيما ماسحون يلمّعون لهم أحذيتهم. كانوا يعطونك شعوراً بأنهم يستكملون ترتيب هندامهم وسط الشارع. وكان الكثيرون بينهم يبدون غرباء، متسمرين بصورة شاردة على الأرصفة كما لو كانوا خرجوا لتوهم من المحطة، وهم يقتلون الوقت بين قطارين.

تلك كانت نيويورك مع ذلك، نيويورك المخيبة للآمال، والمخيفة بعض الشيء، نيويورك التي كانت لها رائحة المغامرة. كانت باريس قد بدت أكثر وداً، فمع أني كنت عاجزاً عن تكلم اللغة، استقبلتني في كل زاوية شارع مع حاناتها وأرصفة مقاهيها. لكن نيويورك كانت قبل كل شيء مدينة أعمال. وكانت ناطحات السحاب ذات غطرسة لا ترحم، وكأنها تسخر بشغف من تقاليد الناس العاديين. حتى في البارات، لم تكن هناك كراسي للجلوس،

بل فقط درابزون نحاسي طويل تضع عليه قدمك. ومع أن المطاعم الشعبية كانت نظيفة وممتلئة بالمرمر الأبيض، فلقد كانت لها الهيئة الباردة لعيادة طبيب.

استأجرت غرفة تطل على حوش في أحد المباني بجانب الشارع رقم ٤٣، حيث ينتصب اليوم مبنى **التايمز**. كانت حزينة وقذرة وأشعرتني بالحنين إلى لندن وشقتنا الصغيرة. ولقد كان في الطابق الذي تحت الأرض مصبغة، وخلال الأسبوع بكامله، كانت رائحة الثياب المُخمَّة التي تكوى بالبخار تزيد من شعوري بعدم الارتياح.

في اليوم الأول، شعرت بدرجة عالية من الوحشة. ولقد كانت محنة أن أدخل إلى مطعم لأطلب شيئاً ما، بسبب لكنتي الإنكليزية، ولأني كنت أتكلم ببطء. كان الكثيرون يسرعون في كلامهم ويبترون تعابيرهم إلى حد أني أحسست بالانزعاج لدى فكرة أني سأتأتىء وأضيع وقتهم.

لم أكن أصل للتكيف مع هذا الإيقاع. ففي نيويورك، حتى مالك أصغر مؤسسة مليء بالحيوية والنشاط. ماسح الأحذية يفرقع بخرقته بحيوية، والساقي يقدم لك البيرة بنشاط، تاركاً إياها تزلق نحوك على سطح المبسط الصقيل. وخادم الدراغستور، حين يقدم لك حليباً منتَّشاً مع بيضة مخفوقة، يقوم بحركات بهلوان مجنون. ففي زوبعة حقيقية يستولي على زجاجة، مهاجماً كل ما يضعه فيها، كالفانيليا، ومغرفة من الكريما المثلجة، وملعقتين من الملت، وبيضة نيئة، يشق قشرتها بضربة واحدة، ثم يضيف الحليب، ويخض ذلك في رجّاجة، ويقدمه لك في أقل من دقيقة.

في الجادّة ذلك النهار، كان يبدو أن كثيراً من الناس يشعرون تماماً بما أشعر به، فلقد كانوا يحسون بالعزلة والضياع؛ وكان آخرون يسيرون بخطى ثابتة كما لو أن الشارع ملك لهم. كان لعدد كبير منهم سلوك قاس، كما لو كانوا أناساً آليين تقريباً، وكما لو أن التهذيب واللطف يكشفان ضعفاً. لكن في المساء، استعدت طمأنينتي فيما كنت أتنزه في برودواي مع الناس المرتدين ثياباً صيفية. كنا قد غادرنا إنكلترا في طقس أيلول البارد ووقعنا في نيويورك على صيف هندي حار، تصل فيه الحرارة إلى ٢٧ درجة تقريباً. وفي حين كنت أتجول في برودواي، راح الشارع يتألق بعدد لا يحصى من المصابيح الكهربائية الملونة، ويبرق كجوهرة. وفي نعومة الليل، تغير موقفي وبدأت أفهم أميركا. ملأتني ناطحات السحاب، والأضواء المرحة والساطعة، واللافتات المضاءة الخارقة، ملأتني فجأة بالأمل وبحس المغامرة، فقلت في نفسي: «هنا بالضبط! هنا مكاني!».

كان يبدو جميع الناس في برودواي على علاقة بالحياة المسرحية؛ ففي الشارع، والمطاعم، والفنادق والمحلات، وفي كل مكان تجد ممثلين وفناني ميوزيك هول، أو سيرك، أو كاباريه، يتحدثون جميعهم في قضايا المهنة. تسمع أسماء مدراء مسارح: لي شوبرت، مارتن بيك، وليم موريس، برسي وليامز، كلاو وإيرلنجر، فورمان، ساليفان وكونسيداين بانتاجز... الخ. والجميع يتكلمون كما لو كانوا اختصاصيين في المهنة: الخادمة المياومة،

وعامل المصعد، والخادم في المطعم، وسائق الترامواي، والساقي في البار، وبائع الحليب، والخباز. . . يسمع المرء أطراف أحاديث في الشوارع، وأمهات مسنات يبدين كنساء مزارعين، يقلن: «لقد أنهى جولة في الغرب لحساب بانتاجز، مع ثلاثة عروض يومياً. وفي دور كما يجب، لا بد أن ينجح هذا الفتى في مسرح منوعات كبير». «هل رأيتم أل جولسون في الوينتر غاردن؟ سأل بوّاب. يمكن القول إنه أنقذ العرض المسرحي لجاك».

كل يوم، كانت الصحف تخصص للمسرح صفحة بكاملها، مقدمة كجريدة سباق الخيل، مشيرة إلى عروض الميوزيك هول التي تصنف أولى، أو ثانية أو ثالثة على أساس النجاح وقوة التصفيق، تماماً كما بالنسبة لسباق الأحصنة. لم نكن قد دخلنا المنافسة بعد، وكنت مستعجلاً لمعرفة أي موقع سوف نأخذه في هذه اللوحة. كان علينا أن نقوم بجولة مع برسي وليامز خلال ستة أسابيع فقط. ولم يكن معنا عقود أخرى لما بعد ذلك، وكانت تتوقف إذاً على نتائج هذه الجولة مدة إقامتنا في أميركا، فإذا فشلنا نعود إلى إنكلترا.

استأجرنا ستوديو وتمرنا على امتداد أسبوع على اسكتش **The Hou-Hous**. كان يوجد في الفرقة ويمسيكال ووكرز العجوز، مهرج دروري لاين المشهور. كان في السبعين من العمر، ذا صوت خفيض ورنان، لكن من دون أي إلقاء، كما لاحظنا خلال التمرينات، وكان شخصه بوجه خاص هو المكلف بشرح العقدة. لم يتوصل أبداً إلى التفوه برد مثل: «سوف نتسلى كمجانين صغار». ففي المساء الأول، غمغم قائلاً: «كَمَجَـ ـ غار»، أصبحت في الأخير «كمنينغار»، لكنه لم يلفظ كلمات النص كما هي.

كانت شهرة كارنو كبيرة في أميركا. كنا إذاً نجوم تلك الفترة في برنامج لفنانين ممتازين. ومع أني كنت أكره الاسكتش، حاولت بالطبع أن أستخرج منه الحد الأقصى. كنت آمل أن يكون ما سماه كارنو «ما يصلح لأميركا بالضبط».

لن أصف التعصيب، والقلق اللذين سبقا دخولي المسرح في المساء الأول، ولا مدى ضيقي حين كان الفنانون الأميركيون يراقبوننا من الكواليس. كانت مزحتي الأولى تفجر الضحك في إنكلترا، وتلعب دور بارومتر يقيس الاستقبال الذي ستحظى به تتمة الاسكتش. كان المشهد مشهد مخيَّم، وقد خرجت من خيمة، بيدي فنجان من الشاي.

أرشي (أنا): صباح الخير، هيدسون. أيمكنك أن تعطيني قليلاً من الماء؟
هيدسون: بالطبع. ماذا تريد أن تفعل به؟

أرشي: أريد الاستحمام.
(سخرية خفيفة، ثم صمت بارد في القاعة).
هيدسون: كيف كان نومك، يا أرشي؟
أرشي: آه، سيئاً جداً. حلمت بأن يسروعة تطاردني.

صمت تام من جديد. كنا نواصل هكذا مواءنا الرتيب، وكنت أرى وجوه الأميركيين في الكواليس وقد بدا عليها الحزن. لكن تلك الوجوه اختفت قبل نهاية العرض بكثير.

كان استكشاً أبله ومضجراً وكنت نصحت كارنو بألا نبدأ به. كانت لدينا اسكتشات في جعبتنا أكثر إمتاعاً بكثير، مثل ميدان التزلج، والسارقون الغنادرة، وفي مكتب البريد، والنائب بركينز، وكان في وسعها أن تكون أكثر إضحاكاً بكثير لجمهور أميركي. لكن كارنو كان عنيداً.

إن أقل ما يمكن قوله هو أن فشلاً في بلد أجنبي هو مخيِّب للأمل ومثبط للمعنويات. فأن نلعب كل مساء أمام جمهور بارد وصامت هزليتنا الإنكليزية المرحة كان امتحاناً عسيراً. كنا ندخل المسرح ونخرج منه كأناس هاربين. وقد تحملنا هذا العار على مدى ستة أسابيع. وكان الفنانون الآخرون يعزلوننا، كما لو كنا الطاعون. وحين كنا نتجمع في الكواليس قبل دخول المسرح، واهني العزيمة وشاعرين بالإذلال، كنا كمن سوف يمثلون أمام مفرزة الإعدام.

ومع أني كنت أحس بالوحدة، وبقلة التقدير، إلا أني كنت أشكر السماء على العيش لوحدي. على الأقل لم يكن عليّ أن أتقاسم ذلك الإذلال مع الآخرين. كنت أقوم في النهار بنزهات طويلة على قدميّ في الجادات الطويلة التي كان يبدو أنها لا تقود إلى أي مكان، وكنت أزور حدائق الحيوانات، والحدائق العامة، والأكواريومات، والمتاحف. ومنذ فشلنا، كانت نيويورك تبدو مخيفة جداً، ومبانيها عالية جداً، وجوها القائم على المنافسة القاسية أكثر ثقلاً. لم تكن تلك المساكن الرائعة في الجادة الخامسة بيوتاً، بل أنصاباً تذكارية للنجاح. كانت المباني الكبرى المترفة والمحلات تبدو هنالك لتذكيري من دون رحمة بأني لست على مستوى المهمة.

كنت أقوم بمسيرات طويلة عبر المدينة، في اتجاه الضواحي، مجتازاً ماديسون سكواير حيث كان عجائز محطَّمون يجلسون على المقاعد في حالة ذهول يائس، وهم ينظرون إلى أقدامهم بلا انقطاع. كنت أمر في الجادة الثالثة، ثم في الثانية. كان الفقر هناك قاسياً، ومريراً ومتهكماً، كان فقراً يعرض نفسه،يعلن حضوره وسط الضحك والدموع،فقراً يتراكم حول بيوت المنازل، وعلى أدراج النجدة، وينتشر في الشوارع. وكان كل ذلك ممضاً، ويعطيني الرغبة في أن أعود إلى برودواي بسرعة.

إن الأميركي متفائل يحلم دائماً بحل مشاكله، ولا يتعب من المحاولات. وهو يأمل دائماً أن «يقوم بضربة موفقة». تحقيق نجاح باهر! التخلص من الورطة! تحويل كل شيء إلى مال! جمع النقود والهرب! إيجاد تركيبة أخرى! وبالرغم من الطابع المبالغ به لهذا الموقف، فقد بدأ يعيد إلي الشجاعة. ولقد كانت مفارقة غريبة أن فشلنا جعلني أبداً بالشعور بنفسي خفيفاً وحراً. كانت هنالك فرص كثيرة أخرى في أميركا. فلماذا الإصرار على البقاء في التمثيل! لم أنذر نفسي للفن، وما كان عليَّ سوى إيجاد تركيبة أخرى! ورحت أستعيد الثقة بنفسي. ومهما كان تطور الأحداث، كنت عازماً على البقاء في الولايات المتحدة.

ولنسيان فشلنا، أردت تثقيف نفسي وإكمال تعليمي؛ فبدأت إذاً أتسكع لدى بائعي

الكتب القديمة. وقد اشتريت عدة كتب مدرسية ـ **علم البلاغة** لكيلوغ، وكتاب قواعد إنجليزياً وقاموساً لاتينياً ـ إنجليزياً ـ مقرِّراً الانكباب على دراستها. لكن قراراتي الجميلة تبخرت، إذ حالما نظرت في تلك الكتب، أدخلتها إلى حقيبتي ونسيتها، ولم أفتحها من جديد إلا في رحلتنا الثانية إلى أميركا.

في إعلان أول الأسبوع في نيويورك، كان هنالك اسكتش بعنوان **غايس إدوارد في المدرسة**، تمثَّل فيه أدوار للأولاد. وكان في تلك الفرقة ولد مشاغب لديه ما يكفي من الظرف، ويبدو صغيراً بالنسبة لحركاته المصطنعة. كان مشغوفاً باللعب ويستعمل بمثابة نقد علاوات سجائر يمكن مبادلتها لدى مؤتمني يونايتد سيجار مقابل سلع تتراوح بين ركوة قهوة من النيكل وبيانو بذيل. كان مستعداً على الدوام للعب بزهور النرد مع سائقي الباص أو أي كان. وكان يتكلم بسرعة لا تضاهى، وكان اسمه والترويتشل؛ ومع أنه لم يفقد قدرته على الكلام كالرشّاش، غالباً ما أخطأ هدفه في السنوات اللاحقة، حين كان يفكر بقول الحقيقة.

مع أن عرضنا المسرحي كان فاشلاً، إلا أني حظيت من جهتي بانتقادات جيدة جداً. فلقد قال سايم سيلفرمان، من **Variety**، الكلام التالي عني: «كان هنالك، على الأقل، إنكليزي طريف في الفرقة، وسيكون جيداً بالنسبة لأميركا».

كنا قد عقدنا العزم على إقفال حقائبنا والعودة إلى إنكلترا في غضون ستة أسابيع. لكننا لعبنا في الأسبوع الثالث في مسرح الجادة الخامسة، أمام جمهور مؤلف بشكل أساسي من مدراء خدم، وخدم أنكليز. وقد تفاجأت يوم الافتتاح، الاثنين، حين حققنا انتصاراً. ضحك المشاهدون عند كل نكتة. وقد كان كل أعضاء الفرقة، بمن فيهم أنا مذهولين، لأني كنت أنتظر أن ألاقي اللامبالاة المعتادة. وإذ كنت ألعب من دون إرهاق نفسي، كنت مسترخياً بلا شك، وحصلنا على النجاح المطلوب.

وقد رآنا خلال الأسبوع أحد الوكلاء، وتعاقد معنا للعب ٢٥ أسبوعاً في الغرب مع ساليفان وكونسيداين. كان ذلك في مسارح منوعات صغيرة، وكان علينا تقديم ثلاثة عروض في اليوم.

مع أن جولة ساليفان وكونسيداين هذه لم تكن بالنسبة إلينا نجاحاً منقطع النظير، ظهرنا بمستوى عال بالمقارنة مع العروض الأخرى. في ذلك الحين، كان للميدل وست سحره وفتنته. كان إيقاع الحياة أكثر بطءاً، والجو حالماً؛ كانت عند مدخل كل دراغستور وحانة، حلبة يمكن أن يلعب فيها الناس بزهر النرد لكسب المنتجات التي تباع في المؤسسة. كان شارع ماين ستريت يدوي بتصادم زهور النرد، وقد كانت تلك ضجة ممتعة ومرحّبة؛ وقد حدث أن ربحت مراراً دولاراً من البضائع بعشرة سنتات.

كانت المعيشة رخيصة. ففي فندق صغير، كان يمكنك أن تستأجر غرفة مع الطعام بسبعة دولارات في الأسبوع. ولم يكن الطعام يكلف شيئاً. وكان مبسط الفطورات المجانية الخاص بالحانة نقطة التقاء فرقتنا. ومقابل ٢٥ سنتاً كان يمكن الحصول على كأس بيرة والاختيار من بين مجموعة من لحوم الخنزير المبسوطة أمامك. كان هناك أقدام خنزير،

وشرائح جامبون، وسلطة بطاطا، وسردين، وجبن إيطالي، وكل أنواع السجق، والسلامي، والمقانق. وكان بعضنا يستفيدون من ذلك لنصب أهرامات حقيقية على صحونهم إلى حين يتدخل الساقي قائلاً: «هي! إلى أين تنوون الذهاب بكل هذه الحمولة. . . إلى كلونديايك؟».

كانت فرقتنا تعد تقريباً ١٥ شخصاً على الأقل، وكان كل واحد يوفر نصف أجره تقريباً، حتى بعد أن يكون دفع مقابل منامته في القطار. كانت أجرتي ٧٥ دولاراً في الأسبوع، كانت ٥٠ منها تذهب بانتظام إلى مصرف مانهاتن.

وصلت بنا الجولة إلى ساحل المحيط الهادي. وكان معنا في الإعلان عن تلك الجولة في الولايات الغربية شاب وسيم من تكساس، وكان بهلواناً يتردد بين مواصلة دوره مع شريكه وأن يصبح ملاكماً. في كل صباح، كنت أضع القفازات بمواجهته، ومع أنه كان أكبر وأثقل مني، كنت أصيبه ساعة أريد. وقد صرنا صديقين حميمين، وبعد عدة جولات، صرنا نفطر معاً. وقد روى لي أن أهله كانوا مزارعين من ولاية تكساس وكان يتكلم على الحياة في المزرعة. ولم نتأخر في إقناع نفسينا بأن علينا التخلي عن مهنة التمثيل، ونتشارك في تربية الخنازير.

كان معنا، نحن الإثنين، ألف دولار وكنا نحلم بالثروة. كنا نخطط لشراء أرض في الأركنساس، على أساس الهكتار بدولار و٢٥ سنتاً. وهكذا نشتري ألفي هكتار في البداية وننفق الباقي على شراء الخنازير وتحسين الأرض. وقد حسبنا أنه، إذا تم كل شيء على ما يرام، يمكننا مع ولادة الخنازير، على أساس إنجاب أنثى الخنزير خمسة كل عام، أن يملك كل منا بعد خمس سنوات مئة ألف دولار.

وخلال المسافات التي كنا نقطعها بالقطار، كنا ننظر من النافذة، ونتفحص مزارع الخنازير، وكان ذلك يرتفع بنا إلى قمة الإثارة. كنا نأكل وننام ونحلم تحت برج الخنزير. ولو لم اشتر كتاباً حول تربية الخنازير العملية، ربما كنت تخليت عن الميوزيك هول لأصبح مربياً لها، لكن ذلك الكتاب الذي كان يصف بالتفصيل تقنية خصي الخنازير، برَّد حماسي، ولم أتأخر عن نسيان ذلك المشروع.

خلال تلك الجولة، كنت أحمل معي كمنجتي وفيولونسيلي. فمنذ سن السادسة عشرة، كنت أتمرن بين أربع وست ساعات كل يوم في غرفتي. وكنت آخذ دروساً كل أسبوع مع رئيس أوركسترا المسرح أو أحد يوصيني به. ولما كنت أيسر، كانت أوتار كمنجتي مقلوبة. كانت لدي طموحات كبيرة بأن أصير عازفاً في حفلات موسيقية أو، إذا لم يكن ذلك ممكناً، أن أستخدم مواهبي كعازف كمنجة في عروض الميوزيك هول. لكن مع مرور الوقت، بدأت أدرك أني لن أبرع يوماً في الموسيقى وتخليت عن المشروع.

عام ١٩١٠، كانت شيكاغو مدينة فاتنة ببشاعتها، وسوداء ومسوَّدة، مدينة كانت لا تزال تسود فيها روح الحدود، حاضرةً بطولية ونابضة بـ«الدخان والفولاذ» كما يقول كارل ساندبورغ. والسهول الفسيحة التي تحيط بها تشبه، في ظني، السهوب الروسية. كانت

شيكاغو تبتسم بفرح الـرواد الواضح الذي يثير الأحاسيس، ومع ذلك كان المرء يشعر بعزلة ذكورية جداً تختلج تحت ذلك الفرح. وكترياق ضد هذا الانفعال الجسدي، كانت هناك تسلية وطنية تحمل اسم المسرح الهزلي، كنا نجد فيها مجموعة من الكوميديين المغامرين محاطة بعشرين فتاة أو أكثر. كانت بعضهن جميلات، والأخريات استهلكتهن المهنة. وكان بعض الكوميديين طريفين، وكان معظم الاسكتشات قصص حريم سفيهة كفاية، مع نكات فاحشة ومتهكمة. كان الجو «ذكورياً» مثقلاً بنوع من التعارض بين الجنسين كان يضع الجمهور، عبر مفارقة غريبة، بمنأى عن أي رغبة جنسية عادية: فرد فعل الناس كـان بالأحـرى السخريـة والضحك. كانت شيكاغو ملأى بهذا النوع من المؤسسات. وكانت إحداها، وتسمّى **The Wastson's Beef Trust**، تضم عشرين امرأة متقـدمات في السن، كن يستعـرضن أنفسهن بالسراويل الداخلية. كانت الدعاية تقول إن وزنهن الإجمـالي بالأطنـان. وكانت صـورهن الملصقة على الباب، والتي تظهرهن بوِضعات متظارفة، كئيبة ومُمِضّة.

كنا نسكن في شيكاغو نزلاً صغيراً بجادة واباش، في وسط المدينة. ومع أنه كان وسخاً ومتصدعاً، كان له نوع من الفتنة الحالمة، لأن معظم بنات المسارح الهزلية كن يسكنَّ هناك. وفي كل مدينة، كنا نهرع في الحال إلى الفندق الذي تعيش فيه الفتيات، مفعمين بأمل شهواني لم يكن يتحقق يوماً. وكانت حافلات المترو الجوي تمر أمام نوافذي وتجعل الأضواء تتلاعب على جدار غرفتي، مثلما يفعل مِسْلاط سينمائي قديم. بيد أني كنت أحب ذلك الفندق، مع أنه لم يحدث لي فيه يوماً أي شيء يشبه المغامرة.

إحدى النزيلات الشابات، وكانت صامتة وجميلة، كانت لسبب لا أعرفه متوحدة دائماً، وتسير متضايقة. ومن حين لآخر، كنت التقيها في بهو الفندق، لكنني لم أمتلك يوماً شجاعة التعرف إليها، وينبغي أن أقول إنها لم تشجعني من جانبها أبداً.

حين غادرنا شيكاغو إلى الساحل، كانت في القطار ذاته؛ ففرق المسرح الهزلي التي كانت تذهب إلى الغرب كانت تتبع عموماً الطريق ذاته الذي كنا نسلكه في جولتنا، وتلعب في المدن نفسها. وإذ كنت أجتاز القطار، رأيتها تتكلم مع عضو في فرقتنا جاء بعد قليل فجلس قربي.

وسألته:

ــ ماذا عن هذه الفتاة، ومن أي نوع هي؟

ــ لطيفة جداً. لكني أرثي لحالها، يا للمسكينة!

ــ لماذا؟

ــ وانحنى مقترباً مني، ليقول:

ــ أتذكر؟ كانوا يقولون إن إحدى فتيات الفرقة مصابة بالسفلس. حسناً إنها هي.

ــ وفي سيتل، اضطرت لترك الفرقة لدخول المستشفى. وقد قمنا بحملة تبرعات من أجلها، وقدمت كل من الفرق التي كانت مشتركة في الجولة مساهمتها. يا للمسكينة، إذ إن

الجميع كانوا يعرفون ما بها. إلا أنها كانت عارفة جداً بالجميل، وقد انضمت مجدداً إلى زميلاتها، بعد أن عولجت بالسالڤارسان، وكان دواء جديداً تماماً في تلك الفترة.

في ذلك الحين، كانت المواخير عديدة في أنحاء أميركا، وكانت شيكاغو مشهورة بشكل خاص ببيت كل الأمم، الذي كانت تديره الأختان إيفرلي، وكانتا عانسين متقدمتين في السن. وكان البيت معروفاً بأن فيه نزيلات من شتى القوميات. كانت الغرف مرتبة على أساس كل الأنماط الممكن تخيلها: التركي، والياباني، وطراز لويس السادس عشر، لابل كانت هنالك خيمة عربية. كان البيت الأكثر اتقاناً في العالم، في هذا المجال، والأكثر كلفة وكان بين زبائنه أصحاب مليارات، وصناعيون كبار ووزراء وشيوخ وقضاة. وكان أعضاء مؤتمر ما ينهون عموماً اجتماعهم باستئجار كل المؤسسة لليلة بكاملها. وكان ذائعاً صيت سيباريسي[1] غني، طالما أوى إلى ذلك المكان، حيث كان يمضي ثلاثة أسابيع من دون أن يرى نور النهار طيلة تلك الفترة.

كلما ذهبنا أبعد إلى الجنوب، كان سروري يزداد. كان المشهد الذي أراه من القطار، مشهد الحقول الشاسعة غير المسكونة، يفعمني بالأمل، مع أن المنظر كان حزيناً ورتيباً. فالفضاء جيد للروح، إذ هو يوسِّعها، وقد كنت أحس بروحي تتهوّى. كانت مدن ككليفلاند، وسان لوي، ومينيا بوليس، وسان بول، وكانساس سيتي، ودنڤر، وبوت، وبيلينغس تنبض بدينامية المستقبل، وكنت متشبعاً بها بالكامل.

أصبح لنا أصدقاء عديدون بين أعضاء فرق ميوزيك هول أخرى. وفي كل مدينة، كنا نمضي بزمر من ستة أو أكثر إلى حي العلب الليلية. وكنا نكسب أحياناً مودة المسؤولة عن ماخور ما، فتقبل بأن تقفل المؤسسة طيلة الليل وتترك لنا احتكارها. ومن حين لآخر، كانت بعض الفتيات يعشقن بعض الكوميديين ويتبعنهم إلى المدينة التالية. وكان حيّ بوت للبغاء، في ولاية مونتانا، يشمل شارعاً طويلاً وعدة أزقة تضم حوالي المئة بيت صغير تقيم فيها فتيات أصغرهن في السادسة عشرة يمكن معاشرتهن لقاء دولار واحد. كانت بوت تتباهى بأن فيها أجمل بنات كل مؤسسات الميدل وست، وكان ذلك صحيحاً. وإذا رأى المرء مخلوقة جميلة أنيقة اللباس، يمكنه أن يكون متأكداً من أن هذه نزيلة تبحث عن زبائن. وخارج الخدمة، لم يكنَّ ينظرن ذات اليمين أو ذات الشمال، وكان مظهرهن يدعو للاحترام. وقد تناقشت بعد سنوات مع سومرست موغام بشأن بطلته سادي تومسون، في مسرحية المطر. كانت جاين إيغلز قد ألبستها بصورة مضحكة، حسبما أتذكر، مع حذاء نصفي من المطاط. وقد شرحت له أنه ما من عاهرة واحدة في بوت يمكنها أن تكسب سنتاً واحداً إذا كانت مرتدية هكذا.

عام ١٩١٠، كانت بوت لا تزال مدينة على طريقة نيك كارتر، مع عمال مناجم ينتعلون أحذية ذات ثنيات، ويعتمرون قبعة كبيرة بحروف، ويضعون وشاحاً أحمر. وقد شهدت إطلاق

---

(١) منغمس في اللذات على غرار سكان سيباريس، المدينة الإغريقية القديمة التي اشتهرت بالثراء والترف (م).

نار في الشارع، وشريفاً ضخماً وعجوزاً يطلق على سجين فار حوصر أخيراً في طريق مسدود، ولم يصب بجروح لحسن الحظ.

كان قلبي يزداد خفة كلما ابتعدنا نحو الغرب: فالمدن تبدو أنظف. كانت طريقنا تمر بوينبيغ، وتاكوما، وسيتل، وڤانكوڤر، وپورتلاند. وفي وينيبيغ وفانكوفر، كان الجمهور إنكليزياً بشكل أساسي، وبالرغم من ميولي الممالئة للأميركيين، كان شيئاً ممتعاً أن نلعب أمام هذا النوع من المشاهدين.

وأخيراً كاليفورنيا! فردوس من الشمس، وأشجار الليمون، وكروم العنب والنخيل تمتد على أكثر من ١٥٠٠ كيلومتر على طول ساحل المحيط الهادي. كانت سان فرنسيسكو، بوابة الشرق، مدينة حيث الأكل فاخر والأسعار بخسة. هناك تعرفت إلى أفخاذ الضفادع à la provençale[١]، والغاتو بالفريز، والأڤوكا. لقد وصلنا عام ١٩١٠، في حين كانت المدينة بالكاد تعافت من هزة عام ١٩٠٦ الأرضية، أو الحريق كما يفضلون أن يقولوا هناك. كان لا يزال هناك شقان في الشوارع الوعرة، لكن لم تكن باقية آثار أضرار. كل شيء كان جديداً بالكامل، وهو أمر ينطبق على الفندق الذي نزلت فيه.

لعبنا في الأمبريس Empress، الذي كان ملكاً لسيد غرومان ووالده، وهما رجلان لطيفان وحلوا المعشر. كانت تلك هي المرة الأولى التي يظهر فيها اسمي وحده على ملصق من دون ذكر كارنو. أما الجمهور، فيا للنشوة! مع أن الـ **Hou-Hous** كان اسكتشاً مضجراً، كانت القاعة ملأى عند كل عرض وكان المشاهدون يزعقون من الضحك. وقد قال لي غرومان مغتبطاً: «إذا تركت يوماً فرقة كارنو، عد إلى هنا ونخرج مسرحيات معاً» كان هذا الحماس جديداً بالنسبة لي. وفي سان فرانسيسكو، كان يسود التفاؤل والإقدام.

بالمقابل، بدت لي لوس أنجلوس مدينة مريعة، وحارة وخانقة، حيث بشرة الناس صفراء وتوحي بفقر الدم. كان المناخ أشد حرارة بكثير، لكن لم يكن يجد فيها المرء طراوة سان فرانسيسكو. لقد حبت الطبيعة شمال كاليفورنيا موارد سوف تدوم وتستمر في التفتح في حين تكون هوليود قد اختفت في آبار القطران ما قبل التاريخية في ويلشاير بولڤار.

أنهينا جولتنا الأولى في سالت لايك سيتي، مدينة المورمونيين[٢]، وهو الأمر الذي جعلني أفكر في موسى تاركاً أبناء إسرائيل. إنها مدينة كبيرة واسعة، تبدو ترتعش في حرارة الشمس كسراب، مع شوارع عريضة لا يتصور مثلها غير شعب اجتاز سهولاً شاسعة. والمدينة تتميز، على غرار المورمونيين، بشيء ما متقشق ومتعال... وقد كان هذا ينطبق أيضاً، مع الأسف، على الجمهور.

---

(١) **على الطريقة البروفانسية**، نسبة إلى منطقة البروفانس في فرنسا، أما المقصود هنا فهو أنها ممزوجة بالكثير من الثوم (م).

(٢) أعضاء شيعة دينية أسسها في الولايات المتحدة جوزف سميث عام ١٨٣٠، وقد قاموا ببناء مدينة سالت لايك سيتي على ضفاف البحيرة الكبيرة المالحة في ولاية أوتا (م).

بعد أن لعبنا الـ **Hou-Hous** في جولة ساليڤان وكونسيداين، عدنا إلى نيويورك مع العزم على العودة مباشرة إلى إنكلترا، لكن السيد وليم موريس، الذي كان يصارع احتكارات الميوزيك هول الأخرى، عرض علينا ستة أسابيع للعب كل ما في جعبتنا من المسرحيات في مسرحه الكائن في الشارع رقم ٤٢ في نيويورك. وقد كان في برنامج الافتتاح **أمسية في ميوزيك هول إنكليزي**، التي حققت نجاحاً منقطع النظير.

ذات مساء، كان شاب وأحد أصدقائه على موعد مع فتاتين في ساعة متأخرة، لذا دخلا صدفة، لقتل الوقت، إلى ميوزيك هول وليم موريس، حيث شاهدا مسرحيتنا وقد قال: «إذا حدث يوماً أن صرت شخصاً مهماً، هذا هو الشخص الذي سأتعاقد معه.» وكان يشير تلميحاً إلى دور السكير الذي كنت أمثله في **أمسيه في ميوزيك هول إنكليزي**. وكان آنذاك يعمل لحساب د. و. غريفيث، كممثل صامت في بيوغراف كومباني، مقابل ٥ دولارات في اليوم. كان ماك سينيت، الذي شكل في ما بعد الكيستون فيلم كومباني.

بعد حصولنا على نجاح كبير في الأسابيع السِّتة التي لعبنا خلالها لدى وليم موريس في نيويورك، جرى التعاقد معنا، لجولة جديدة تدوم ٢٠ أسبوعاً، من جانب ساليفان وكونسيداين.

كنت حزيناً حين اقتربت نهاية جولتنا الثانية. كان باقياً بعدُ ثلاثة أسابيع، نمر فيها في سان فرنسيسكو، وسان دييغو وسالت لايك سيتي قبل أن نعود إلى إنكلترا.

عشية اليوم الذي كنا سنغادر فيه سان فرنسيسكو، ذهبت أتنزه في ماركت ستريت، فوقعت على حانوت صغير مع ستار في الواجهة ولافتة كتب عليها: «بدولار واحد، نقرأ المستقبل بواسطة خطوط الكف وورق اللعب». فدخلت، وأنا منزعج قليلاً، ووجدت نفسي أمام مخلوق بدين في الأربعين من عمره، وصل من غرفة خلفية، وهو لا يزال يمضغ، لأني قطعت تناوله الإفطار. وقد دلني بلا مبالاة على طاولة صغيرة قرب الحائط مقابل الباب وقال لي من دون أن ينظر نحوي: «إجلس، من فضلك»، ثم جلس في الجهة المقابلة. كانت لديه تصرفات فظة مباغتة. «اخلط هذه الأوراق، واقطعها ثلاث مرات، ثم ضع يديك على الطاولة، مديراً راحتيك نحوي». وقد كشف الأوراق وتفحصها، ثم تطلع في يدي وقال: «أنت تفكر في رحلة طويلة، وهذا يعني أنك على وشك مغادرة الولايات المتحدة. لكنك ستعود قريباً وستقوم بنشاط جديد... شيء ما يختلف عما تفعله الآن». ثم تردد وبدا حائراً. «أخيراً، إنه الشيء ذاته تقريباً، لكنه مختلف. وأنا أرى نجاحاً منقطع النظير في هذا العمل الجديد؛ أمامك عمل خارق، لكنني لا أعرف ما هو». وللمرة الأولى، نظر نحوي ثم أخذ يدي. «آه! نعم، أرى ثلاث زيجات؛ الأول والثاني لن يكونا ناجحين لكنك ستنهي حياتك بسعادة في الزواج وبثلاثة أولاد». (كان مخطئاً بخصوص هذه النقطة الأخيرة!) ثم تفحص يدي من جديد. «نعم، ستجمع ثروة مهمة، وستموت بسبب التهاب في الشعب الرئوية في الثانية والثمانين. دولار، من فضلك. أليست لديك أسئلة أخرى؟

ـ كلا، قلت ضاحكاً، أعتقد أن الأمور جيدة هكذا.

في سالت لايك سيتي، لكم تكن الصحف تتحدث إلا عن أعمال سلب بالقوة وهجمات على المصارف. كان لصوص مقنعون بواسطة جوارب يَصُفّون زبائن علب الليل والمقاهي على الحائط لتجريدهم مما معهم. وقد حدثت ثلاث هجمات من هذا النوع في ليلة واحدة، وكان اللصوص يُرهبون المدينة بأسرها.

بعد العرض، كنا نذهب عموماً إلى بار مجاور لنأخذ كأساً، وكان يحصل أن نتعرف إلى بعض الزبائن. وذات مساء، دخل رجل ضخم بشوش الوجه، مستديره، مع رفيقين له. وقد اقترب الضخم، وكان الأكبر سناً وقال:

ـ ألستم أنتم الذين تلعبون هذه الكوميديا الإنكليزية في الأمبريس؟

قلنا بلى ونحن نبتسم.

فأشار إلى رفيقيه وبعد أن قدمهما لنا، عرض علينا أن نشرب كأساً.

كان الرجل البدين إنكليزياً، مع أنه فقد أي أثر للكنته الأصلية. كان رجلاً في الخمسينات من العمر، ذا طبع مرح، مع عينين صغيرتين متألقتين في وجه منشرح.

لما كان الليل يتقدم، ابتعد صديقاه وأفراد في فرقتنا باتجاه البار ووجدتني وحدي مع «فات» كما كان يسميه رفيقاه الأحدث سناً.

وقد بدأ يحدثني عن أسراره:

ـ لقد عدت إلى أوروبا قبل ثلاث سنوات، لكن الأمور لم تعد كما في السابق... وهنا يجب أن نعيش، وصلت إلى هنا قبل ثلاثين عاماً، وكسرت جذعي وأنا أعمل في مناجم النحاس في المونتانا... ثم قلت في نفسي: إنها مهنة أغبياء. الآن لدي رجال يعملون لحسابي (وأخرج كدسة سميكة من الأوراق المالية.) فلنقم بجولة أخرى.

قلت ممازحاً:

ـ خذ حذرك، فقد تتعرض لهجوم.

فنظر نحوي بابتسامة شيطانية، ثم غمز:

ـ أنا! ليس وارداً!

بعد هذه النظرة، اعتراني شعور غامر بالخوف. فلقد كانت تلك الغمزة تعني أشياء كثيرة. وقد واصل صاحبي الابتسام، من دون أن يزيح نظرة عني. ثم سأل:

ـ هل فهمت؟

فحركت رأسي بالإيجاب.

ثم ألصق فمه بأذني، وقال بلهجة من يفشي سراً، وهو يشير إلى صديقيه:

ـ أترى هذين الشخصين؟ إنهما فريقي، وهما أحمقان.. لا دماغ لديهما، بل جسارة.

فوضعت إصبعاً على شفتيَّ، لإفهامه بأن أحداً قد يسمعنا.

ـ لا أدنى مخاطرة، أيها الأخ العزيز، فنحن سنبحر هذا المساء. عجباً! كلانا إنكليزيان، أليس صحيحاً، إبنان للضباب؟ لقد رأيتك في ايسلينغتون آمباير أكثر من مرة. (وكشّر بوجهه) يا عزيزي، إنها مهنة قاسية.

وانفجرت بالضحك.

وبما أن أقواله باتت أكثر فأكثر حميمية، أراد أن يجعل مني صديقاً إلى الأبد وأن يعرف عنواني في نيويورك، قائلا:

ـ سأرسل إليك كلمة، لتذكيرك بالزمن القديم الطيب.

لحسن الحظ، لم أسمع بعد ذلك شيئاً من أخباره.

لم تكن فكرة مغادرة الولايات المتحدة تهزني هزاً عميقاً، لأني كنت قررت العودة إليها؛ متى وكيف، لم أكن أعرف. بيد أني كنت أتصور باستمتاع عودتي إلى لندن وإلى شقتنا الصغيرة المريحة. فمذ قمت بجولات في الولايات المتحدة، باتت بالنسبة لي نوعاً من المذبح تحرسه آلهتي البيتية.

لم تصلني أخبار سيدني منذ زمن طويل. وكانت رسالته الأخيرة تقول إن جدي يسكن في الشقة. لكن لدى وصولي إلى لندن، استقبلني سيدني في المحطة، وأخبرني أنه تخلى عن الشقة، وتزوج، وأنه يسكن في شقة مفروشة على بريكستون رود. وقد كانت تلك ضربة قاسية بالنسبة لي، أن أفكر بأن ذلك الملجأ الأمين الصغير الساحر الذي كان قد جسّد تذوقي للحياة، وكنت أعتز به، لم يعد موجوداً . . . كنت من دون مسكن. وقد استأجرت غرفة صغيرة على بريكستون رود، وكانت مشؤومة إلى حد أني قررت العودة إلى الولايات المتحدة، ما أن أتمكن من ذلك. وفي المساء الأول، بدت لي لندن غير مبالية بعودتي، بقدر ما تكون آلة فلوس فارغة جرى إدخال قطعة نقود إليها.

لما كان سيدني قد تزوج، ويعمل كل الأمسيات، لم أعد أراه أبداً. لكن يوم الأحد، كنا نذهب كلانا لزيارة أمنا: ولقد كان يوماً ممضاً، لأنها لم تكن على ما يرام. كانت قد مرت بمرحلة صاخبة راحت تنشد فيها الأناشيد، واضطروا لاحتجازها في حجرة منجّدة. وقد أخطرتنا الممرضة بذلك، فذهب سيدني لرؤيتها، لكنني لم أجد في نفسي الشجاعة وانتظرت. وقد عاد بالغ التأثر، ليخبرني بأنهم جربوا على أمنا معالجات بالصدمة على أساس حمّامات مجلدة، وأن وجهها أزرق بالكامل. وقد حزمنا أمرنا بنتيجة ذلك، وأدخلناها إلى مستشفى خاص كنا نملك الآن الامكانات الضرورية لأن ندفع له. وكان ذلك المصح هو ذاته الذي احتجز فيه الكوميدي الإنكليزي الكبير، المرحوم دان لينو.

كل يوم، كنت أحس بأني أكثر انحداراً واقتلاعاً. ولا شك أني لو عدت إلى شقتنا الصغيرة لكانت عواطفي مختلفة. بيد أن حياتي لم تكن بالطبع حزناً وحسب. فبعد الولايات المتحدة، كنت متأثراً لاستعادة الصلة بإنكلترا. عدت من جديد إلى صيف إنكليزي مثالي لم

يكن سحره الحالـم يشبه أي شي عرفته في مكان آخر.

دعاني السيد كارنو إلى تاغز آيلاند لإمضاء نهاية أسبوع على مركبه. كان الداخل مرتباً بشكل جيد، مع كوى من خشب الأكاجو وحجـرات للمدعـوين. وفي المساء، كـان حول المركب أشرطة من المصابيح الصغيرة التي وجدتها مرحـة وفاتنـة. فكانت الأمسيـة جميلة وفاترة، وبعد العشاء جلسنا على سطح السفينة تحت المصابيح الصغيرة مع قهوتنا وسجائرنا. كانت تلك إنكلترا القادرة على فصلي عن أي بلد آخر.

فجأة، شرع صوت مزأزيء نشاز يصرخ بوله: آه! انظروا جميعكم إلى مركبـي الجميل! انظروا إلى مركبـي الجميل! والأضواء! آه! آهاه!» وانقطع الصوت ليتحول إلى ضحك ساخر. وقد تطلعنا لنرى من أين تأتي هذه التعليقات فإذا بنا نلمح في زورق صغير رجلاً لابساً قميصاً داخلية بيضاء، ومعه سيدة مستندة إلى المقعد الخلفي. كان يشبه ذلك رسماً ساخراً في جريدة **البانش**[١]. وقد انحنى كارنو من فوق درابزين السفينة وأطلق نحو الـرجل بعض الأصـوات الفظة، لكن لا شيء كان يوقف ضحكه المجنون. قلت: «يبقى شيء واحد نفعله: أن نكون على الدرجة ذاتها من الابتذال التي يعتقد أننا نبلغها». ثم أطلقت سيلاً من الشتائم الماجنة، التي ضايقت رفيقته إلى حد أنه ابتعد مجذِّفاً بقوّة.

لم يكن الهجوم السخيف الذي شنه ذلك الأبله نقداً لذوق كارنو، بل تعبيراً عن فكرة مسبقة نفّاجة، ضد ما كان يعتبره تباهي البرجوازي الصغير. فهذا الرجل لن ينفجر يوماً من الضحك أمام قصر بكنغهام وهو يصيح: «آه! انظروا البيت الكبير الـذي أسكنه!» كمـا لن يضحك فيما تمر عربة التتويج. إن هذا التصنيف على أساس الطبقات، الموجود إلى الآن، إنما شعرت به بحدة حين كنت في إنكلترا. يبدو لي أن هذا النموذج من الإنكليز يستعجل أكثر من اللزوم في قياس دونية الغير الاجتماعية.

شرعت فرقتنا العائـدة من أميركـا في العمل، ولعبنـا خلال ١٤ أسبـوعاً في مسـارح المنوعات حول لندن. وقد قوبلت العروض بحفاوة، وكان الجمهور رائعاً. إلا أني لم أنفك أتساءل إذا كنا سنعود يوماً إلى الولايات المتحدة. كنت أعبد إنكلترا، لكن كان يستحيل عليَّ أن أعيش فيها. وبسبب سوابقي، كان لدي الشعور القاسي بالسقوط من جـديد في تفـاهة ممضة. هكذا حين أخبرونا بأننا مطلوبون لجولة جديدة في الولايات المتحدة، كدت أطير من الفرح.

يوم الأحد، رأيت، أنا وسيدني، أمنا التي كانت تبدو في صحة أفضل، وقبل انطلاق سيدني في جولة في المقاطعات، تعشينا معاً؛ وخلال أمسيتي الأخيرة في لندن، كنت مضطرباً قليلاً، وحزيناً وأشعر بالمرارة، فرحت مجدداً أتنزه في الوست أند، وأنا أقول في نفسي: «إنها المرة الأخيرة التي سأرى فيها هذه الشوارع».

وصلنا هذه المرة إلى نيويورك على متن **الأولمبيك** في الدرجة الثانية. تباطأ ارتجـاج

(١) جريدة ساخرة إنكليزية، تأسست عام ١٨٤١ (م).

الآلات، وكان ذلك يعني أننا نقترب من المكان الذي نقصده. كنت أحس بنفسي الآن في بيتي، في الولايات المتحدة: غريباً بين غرباء، متحالفاً مع الآخرين.

ومع أني كنت أحب نيويورك، كنت أنتظر بنفاد صبر أن أذهب إلى الغرب، لأرى من جديد أولئك المعارف الذين كنت أعتبرهم الآن أصدقاء حقيقيين: الساقي الإيرلندي في بوت، في ولاية مونتانا؛ وكيل الأموال غير المنقولة الملياردير، الودود والمضياف في مينيا بوليس؛ الفتاة الجميلة التي أمضيت معها في سان بول أسبوعاً حالماً؛ ماكابي، الاسكتلندي المالك منجماً في سالت لايك سيتي؛ وطبيب الأسنان اللطيف في تاكوما، وآل غرومان في سان فرنسيسكو.

قبل الذهاب إلى ساحل المحيط الهادي، قمنا بما يسمونه «الجولة الصغيرة»، الجولة على مسارح المنوعات في ضواحي شيكاغو، وفيلادلفيا، ومدن صناعية كفول ريڤر، ودولون، إلخ.

وكالعادة، كنت أعيش لوحدي. لكن كانت لذلك منافعه، لأنه كان يعطيني الفرصة لتثقيف نفسي، وهو قرار كنت اتخذته منذ شهور من دون أن أنقله إلى حيز التنفيذ.

هنالك أُخُوَّة بين أولئك الذين يريدون بشغف أن يصلوا إلى المعرفة. وقد كنت واحداً من هؤلاء. لكن حوافزي لم تكن بهذا النقاء؛ كنت أريد المعرفة، ليس حباً بالمعرفة، بل للدفاع عن نفسي ضد الاحتقار الذي يكنّه العالم للجهلة. لذا حين كانت تتوفر لي الفرصة كنت أذهب إلى حوانيت باعة الكتب.

في فيلا دلفيا، وقعت صدفة على طبعة لكتاب روبرت إنغرسول **Essays and Lectures**[١] وقد كان ذلك اكتشافاً رائعاً. وقد ثبَّت إلحاده لديَّ فكرة أن قساوة **العهد القديم** المريعة كانت مذلة للعقل الإنساني. واكتشفت بعد ذلك إيمرسون. وبعد أن قرأت بحثه عن الاستقلال، تولد لدي شعور بأنني تسلمت نوعاً من حق الولادة ذهبياً. وتلا ذلك شوبنهاور. اشتريت الأجزاء الثلاثة لكتابه **العالم كإرادة وكتمثّل**، الذي قرأت منه مقاطع من دون أن أقرأه كله منذ أربعين عاماً. أما ديوان والت ويتمان **Leaves of grass**[٢] فأزعجني وما يزال. إنه أكثر من اللزوم القلب ـ الطافح ـ بالحب، منشد صوفيّة قومية. وفي مقصورتي، بين عرضين، استمتعت أيضاً باكتشاف تواين، وبو، وهاوثورن، وإيرڤينغ وهازليت. وخلال تلك الجولة الثانية، لم أكن ربما أبتلع القدر من الثقافة الكلاسيكية الذي كنت أتمناه، لكنني امتصصت عياراً قوياً من الضجر في الطبقات الدنيا من مهنة الفنان.

كانت جولات الميوزيك هول البائسة تلك محزنة وممضة، وكانت الآمال التي عقدتها على مستقبلي في أميركا تتبخر في الرتابة التي كانت تضطرني لتقديم ثلاثة عروض يومية

(١) **أبحاث وقراءات** (م).

(٢) **أوراق العشب** (م).

وأحياناً أربعة، في سبعة أيام من الأسبوع. لقد كان الميوزيك هول في انجلترا نعيماً بالمقارنة. فعلى الأقل كنا نشتغل ستة أيام فقط في الأسبوع، مع عرضين فقط في المساء. أمّا تعزيتنا فكانت أن في وسعنا في أميركا أن نوفر قدراً أكبر من المال.

كنا نلعب من دون توقف، في جحور صغيرة، منذ خمسة أشهر، وبدأ الإحباط يتسلل إلى نفسي، حتى أني حين حصلنا على أسبوع عطلة في فيلا دلفيا، تلقيته بفرح. كنت أتطلع إلى تغيير، إلى وسط آخر: كان يلزمني فقدان هويتي وأن أصبح شخصاً آخر. كنت نافراً أشد النفور من الروتين الكئيب للميوزيك هول درجة ثانية وقررت أن أمنح نفسي أسبوعاً من الحياة المرفهة. كنت قد وفرت مبلغاً كبيراً من المال، وقررت في يأسي أن أعيش حياة باذخة لعدة أيام. لم لا؟ كنت قد عشت بتقشف لتوفير هذا المال، وحين ينتهي عقدي سأواصل حياة التقشف؛ إذاً لماذا لا أنفق منه قليلاً في هذا الحين؟

اشتريت مِبْذلاً فخماً وحقيبة صغيرة أنيقة، وكلفني ذلك ٧٥ دولاراً. وقد بدا البائع بالغ الود: «هل يمكننا أن نسلمك إياهما، يا سيدي؟» وقد كفت تلك الكلمات لإفراحي، وإعطائي نوعاً من التميّز. لقد اتخذت قراري: سأذهب إلى نيويورك، وأنسى على مدى أيام تلك العروض البائسة وكل هذه الحياة الكئيبة.

أخذت غرفة في فندق أستور، وكان في تلك الفترة فخماً للغاية. كنت أرتدي سترتي الأنيقة، وكان معي قبعتي وعصاي، وبالطبع كنت أحمل حقيبتي الصغيرة بيدي. وقد جعلني بهاء الردهة وثقة الناس، الذين يجتازونها، بأنفسهم، أرتعش قليلاً حين ملأت فيشتي في مكتب الاستقبال.

كانت الغرفة تكلف أربعة دولارات ونصفاً كل يوم. وقد سألت بحياء إذا كان علي أن أدفع سلفاً، فأجابني المستخدم بلهجة لطيفة ومطَمْئنة إلى أبعد الحدود:

ــ آه، كلا أيها السيد، ليس هذا ضرورياً.

كنت متأثراً جداً وأنا أجتاز البهو بكل ألوانه المذهّبة وأنسجته المخملية، حتى أني أحسست لحظة وصولي إلى غرفتي برغبة في البكاء. وقد بقيت هناك أكثر من ساعة، أتقصّى غرفة الحمّام مع منشآتها المعقدة المصنوعة من الرصاص، وأجرب شتى حنفيات الماء البارد والحار. كم أن الترف ممتع ومطَمْئن!

أخذت حمَّاماً ومشطت شعري ولففت حولي قميص الحمّام الجديد، وأنا عازم على الاستفادة من كل الرفاهية التي تعطيني الحق بها دولاراتي الأربعة والنصف. لو كان معي فقط شيء أقرأه، جريدة؟ . . . لكنني لم أكن أجرؤ على الاتصال بالهاتف وطلب واحدة. أخذت مقعداً إذاً وجلست في وسط الغرفة، منفحصاً كل شيء بشعورٍ بالكآبة المترفة.

بعد بعض الوقت، لبست ونزلت. سألت أين هي قاعة الطعام. كان الوقت مبكراً قليلاً للعشاء، فباستثناء زبون أو اثنين، كانت القاعة فارغة. وقد واكبني مدير الخدم إلى طاولة قرب النافذة.

ـ أيريد سيدي الجلوس هنا؟

ـ سيكون ذلك ممتازاً»، قلت بأفضل ما لدي من لكنة إنكليزية.

فجأة تدفق نحوي سيل من الخدم المستعجلين، مقدمين لي الماء المثلج، وقائمة الطعام، والخبز، والزبدة. كنت منفعلاً جداً بحيث لم أعد جائعاً. إلا أنى تظاهرت بذلك وطلبت المرق الدسم، والفروج المشوي، والبوظة بالفانيليا. وسلمني خازن الخمور بطاقة بأنواع النبيذ، وبعد أن تفحصتها بعناية، طلبت نصف قنينة شامبانيا. كنت مأخوذاً جداً بالدور الذي كنت أعيشه بحيث يصعب علي تقدير الخمر أو الطعام. وحين انتهيت تركت دولاراً بمثابة بقشيش، وكان ذلك حينذاك كرماً خارقاً. لكن الاحترام والتحيات التي أغدقت عليَّ ساعة خروجي كانت تعادل كل ذلك. ومن دون سبب ظاهر، عدت إلى غرفتي حيث بقيت عشر دقائق، ثم غسلت يديَّ وخرجت.

كانت أمسية صيفية لطيفة، تناسب مزاجي كثيراً، وكنت أتوجه إلى متروبوليتان أوبرا، حيث كانوا يلعبون أوبرا تانهاوزر. لم أكن حضرت أوبرا من قبل، لكن فقط مقتطفات منها في الميوزيك هول، وكنت أنفر من كل ذلك. لكنني أحسست هذه المرة برغبة في الدخول. فاشتريت بطاقة وجلست في البلكون الثاني. كانت الأوبرا بالألمانية ولم أفهم كلمة منها، مثلما لم أكن أعرف قصتها. لكن حين أخذوا الملكة الميتة، على أنغام جوقة الحجاج، بكيت بغزارة. كان لديّ شعور بأن ذلك يلخص كل آلام حياتي. بالكاد كنت قادراً على السيطرة على نفسي، ولا أعرف بم فكر الناس الجالسون بجانبي، لكني خرجت من هناك وساقاي رخوتان وأنا مضطرب تماماً.

تجولت في المدينة، مختاراً الشوارع الأكثر قتامة، لأني لم أكن أستطيع تحمل بريق برودواي المبتذل، مثلما لم أكن أستطيع العودة إلى تلك الغرفة البلهاء في الفندق قبل أن أكون هدأت. وحين حصل ذلك، عدت عازماً الذهاب مباشرة إلى النوم. فلقد كنت منهكاً جسدياً وأدبياً.

في لحظة دخولي إلى الفندق، صادفت أرثر كيلي، شقيق هيتي، الذي كان يقود الفرقة التي تلعب فيها، ولقد كنت سعيت دائماً، بسبب قرابته معها، لأن أبقي معه روابط صداقة، لكنني لم أكن رأيته منذ عدة أعوام.

ـ شارلي، إلى أين أنت ذاهب؟» قال. فأشرت برأسي بلا مبالاة إلى الأستور، قائلاً:

ـ كنت ذاهباً إلى النوم.

وقد ترك جوابي تأثيراً كبيراً في نفس أرثر.

كان بصحبة صديقين له، وبعد أن قدمني لهما، اقترح أن نذهب لشرب فنجان قهوة وتبادل أطراف الحديث في شقته في ماديسون أفينيو.

كانت الشقة مريحة جداً، فجلسنا في شكل دائرة نناقش أموراً شتى، بينما يتحاشى أرثر

بعناية أي إشارة إلى ماضينا. لكن لما كنت نازلاً في الأستور، كان لديه الفضول لجمع بعض المعلومات. لكنني كنت مقتضباً جداً، مكتفياً بالقول إني كنت قد جئت إلى نيويورك لإمضاء يومي عطلة أو ثلاثة أيام.

كان أرثر قد ترقّى منذ الفترة التي كان يسكن فيها كامبرول. ولقد كان الآن رجل أعمال ناجحاً، يعمل لحساب صهره فرانك غولد. وكان سماع أحاديثه الاجتماعية يزيد من كآبتي. ففي معرض كلامه على أحد أصدقائه، قال: «إنه شخص لطيف، من عائلة جيدة جداً، في ظني». وقد كنت أبتسم داخلياً بسبب اهتمامه بعلم الأنساب، وأدركت أنه لم يعد يجمعنا الشيء الكثير.

بقيت يوماً واحداً في نيويورك. ففي الصباح الباكر من اليوم التالي، قررت العودة إلى فيلا دلفيا. ومع أن هذا اليوم الواحد قدّم لي التغيير الذي كنت بحاجة إليه، كانت تلك ٢٤ ساعة من الانفعالات والشعور بالوحدة. كنت أرغب الآن في الصحبة، وانتظرت بفاقد صبر عرضنا لصباح الإثنين، واللقاء من جديد مع أعضاء الفرقة. وبالرغم من الانزعاج من العودة إلى الروتين المعتاد، كان ذلك اليوم الواحد من الحياة الباذخة كافياً لي.

منذ عودتي إلى فيلا دلفيا، مررت على المسرح. كانت هنالك برقية موجهة إلى السيد ريفز، وكنت هناك بالضبط حين فتحها. وقد قال:

ـ أتساءل إذا كان الأمر يتعلق بك.

كانت البرقية تقول: «هل هنالك في فرقتكم شخص يدعى شافن أو شيء من هذا القبيل. ستوب. إذا نعم فليتصل بكيسل وباومن، ٢٤ لونغاكر بيلدنغ برودواي.

لم يكن هنالك أحد بهذا الاسم في الفرقة لكن كما أوحى ريفز ربما أرادوا أن يضعوا شابلن. كنت مثاراً جداً، لأني اكتشفت أن لونغاكر بيلدنغ في قلب برودواي، ومليئة بمكاتب المحامين. وتذكرت أنه كانت لي خالة غنية في مكان ما من الولايات المتحدة، والتهب خيالي؛ ربما توفيت وتركت لي ثروة؟ وقد أبرقت في الحال إلى كيسل وباومان بأن هنالك شخصاً من آل شابلن في الفرقة وبأنه ربما هو المقصود. وانتظرت جواباً بفارغ الصبر، فوصل في اليوم ذاته. فتحت البرقية بانفعال شديد وقرأت: «من فضلكم الطلب من شابلن أن يجيء إلى مكتبنا في أسرع وقت ممكن!».

كنت في قمة الإثارة وأرتجف من نفاد الصبر، فأخذت أول قطار صباحي إلى نيويورك، التي كانت على بعد ساعتين ونصف من فيلا دلفيا. لم أكن أعرف ما ينتظرني، وقد تخيلت نفسي جالساً في مكتب رجل للقانون لأستمع إلى قراءة وصية.

بيد أني حين وصلت، شعرت ببعض الخيبة. لأن كيسل وباومن لم يكونا محاميين، بل منتجي سينما. إلا أن الحقيقة ستكون مثيرة للحماس.

شرح لي السيد تشارلز كيسل، أحد مالكي كيستون كوميدي فيلم كومباني، أن السيد

ماك سينيت، رآني ألعب دور السكير في الأميريكان ميوزيك هول في الشارع رقم ٤٢، وأنه يرغب، إذا كنت أنا الشخص المعني، في التعاقد معي للحلول محل السيد فورد ستيرلنغ. غالباً ما راودتني فكرة العمل في السينما، لا بل كنت عرضت التشارك مع ريفز، مديرنا، لشراء حقوق كل اسكتشات كارنو لتحويلها إلى أفلام. لكن ريفز بدا متشككاً، وبحق، لأننا لم نكن نعرف شيئاً على صعيد الإخراج.

وسألني السيد كيسل إذا كنت رأيت يوماً إحدى كوميديات كيستون. وبالتأكيد، كنت شاهدت العديد منها، لكني لم أقل له إني وجدت جانبها الكوميدي مبتذلاً؛ بيد أنه كانت تظهر فيه بين الحين والآخر فتاة جميلة عيناها قاتمتان واسمها مابل نورماند، كانت فاتنة وتبرر وجودها. لم أكن متحمساً للكوميديات من نمط كيستون، لكني أدركت قيمتها كوسيلة للدعاية: سنة واحدة في هذا النظام ويمكنني أن أعود إلى الميوزيك هول كنجم عالمي، فضلاً عن ذلك، سيعني هذا بالنسبة إلي حياة جديدة في إطار شيّق، وقد قال لي كيسل إنه وفقاً لشروط العقد، سيكون علي أن أمثل في ثلاثة أفلام في الأسبوع، بأجر مقداره ١٥٠ دولاراً. كان ذلك ضعف ما كنت أتلقاه مع فرقة كارنو. إلا أني أبديت تحفظاتي، وأعلنت أخيراً أني لا أستطيع القبول بأقل من مئتي دولار في الأسبوع. وقد أجابني السيد كيسل بأن هذا يتوقف على قرار السيد سينيت؛ وبأنه سيحيطه علماً في كاليفورنيا ويخبرني بالنتيجة.

عشت على أعصابي بانتظار أنباء من كيسل. ربما طلبت أكثر من المعقول؟ إلا أن الرسالة وصلت أخيراً وفيها أنهم مستعدون لتوقيع عقد لمدة سنة، على أن يدفعوا ١٥٠ دولاراً في الأسبوع على مدى الثلاثة أشهر الأولى، و ١٧٥ في التسعة أشهر الباقية، وهو مبلغ يمثل أكثر مما قُدّم لي طيلة حياتي. كان علي البدء منذ نهاية جولتنا مع ساليفان وكونسيداين.

حين لعبنا في الأمبرس، في لوس أنجلس، حصدنا، ولله الحمد، نجاحاً مدوياً. كانت تلك كوميديا بعنوان أمسية في النادي. وكنت ألعب دور سكير شائخ وكنت أبدو في الخمسين على الأقل. وقد جاء السيد سينيت لرؤيتي في الكواليس بعد العرض لتهنئتي. وخلال ذلك اللقاء القصير، لم أر غير رجل بدين، قوس حاجبيه محدَّب، مع فم ثقيل ذي شفتين سميكتين وفك قوي، وقد أثر ذلك فيَّ تأثيراً كبيراً. لكني كنت أتساءل في أي مناخ مودة ستكون علاقاتنا. وخلال كل تلك المحادثة، كانت أعصابي ثائرة تماماً وكنت عاجزاً عن معرفة ما إذا كان قد سرَّ مني أو لا.

وقد سألني بالمناسبة متى سأنضم إليهم، وقلت له إن في وسعي البدء في الأسبوع الأول من أيلول، الذي يوافق انتهاء عقدي مع كارنو.

كنت حزيناً بعض الشيء لترك الفرقة في كانساس سيتي. كانوا سيعودون إلى إنكلترا، بينما أذهب أنا إلى لوس أنجلس، حيث أترك لنفسي، ولم يكن ذلك شعوراً مطمْئناً جداً. وقبل العرض الأخير، عرضت القيام بجولة عامة، وقلبي منقبض بعض الشيء إزاء فكرة فراقنا.

أراد عضو في فرقتنا، هو ارثر داندو، وهو لم يكن يحبني لسبب أجهله، أن يحضّر لي

مقلباً، وتركني أفهم عن طريق تلميحات غامضة أني سأحصل على هدية صغيرة من الفرقة. وأنا أعترف بأن هذه الفكرة لامست قلبي، لكن شيئاً من ذلك لم يحدث. وحين غادر الجميع مكان تجمع الممثلين، اعترف فريد كارنو الابن أن داندو كان سيلقي خطاباً ويقدم لي الهدية، لكن حين دفعت عن الجميع ثمن الشراب، لم يجد في نفسه الشجاعة للمضي إلى نهاية المقلب وترك «الهدية» المزعومة خلف مرآة مقصورة الممثلين. كانت كيس نشوق فارغ، مغلفاً بورق الفضة، وفيه شذرات يابسة من كريم الماكياج.

ممتلئاً بنفاد الصبر والقلق في آن معاً، وصلت إلى لوس أنجلس وأخذت غرفة في فندق متواضع، هو الغرايت نورثرن. وفي المساء الأول، وبمثابة عطلة، ذهبت عن سابق وعي وتصميم لأحضر العرض الثاني في الأمبرس، حيث كانت قد عملت فرقة كارنو. وقد عرفتني عاملة المسرح وجاءت لتقول لي بعد لحظات إن السيد سينيت والآنسة مابل نورماند يجلسان ورائي بصفين وإنهما يسألان إذا كنت أريد الجلوس بقربهما. كان ذلك من دواعي سعادتي، وبعد تقديم قصير وبصوت خافت، تابعنا العرض معاً. وحين انتهى ذلك، سرنا بضع خطوات في ماين ستريت قبل الدخول إلى مطعم ومشرب لنتناول عشاء خفيفاً ونشرب كأساً. كان السيد سينيت منذهلاً لرؤية كم كنت شابا، وقال: «كنت أعتقد أنك أكبر سناً بكثير». وقد اكتشفت في صوته بعض القلق الذي أثار ذعري، لأني تذكرت أن كل كوميديي سنيت متقدمون في السن. كان عمر فردمايس يزيد عن الخمسين، وتجاوز فورد سترلينغ الأربعين. وأجبت: «يمكنني أن أبدو بالعمر الذي تريده بعد الماكياج» إلا أن مابل نورماند كانت أدعى للاطمئنان. فحتى لو كانت لديها تحفظات حيالي، لم تشر إلى أي شيء من ذلك. وقد أبلغني السيد سينيت بأني لن أبدأ في الحال، لكن علي المجيء إلى الستوديو، مع ذلك، في إيدندايل، للتعارف. وحين غادرنا المقهى، تكدسنا في سيارة السباق الخاصة بالسيد سينيت، وأوصلاني إلى فندقي.

في الصباح التالي، ركبت الترامواي إلى إيدندايل، وهي إحدى ضواحي لوس أنجلس. كان المكان غريباً لا يعرف المرء إذا كان معداً ليكون حياً سكنياً متواضعاً أو ضاحية صناعية. كانت موجودة فيه مناشر ومستودعات خرضة، بالإضافة إلى مزارع صغيرة تبدو متروكة، وقد بني عليها دكان خشبي أو دكانان على حافة الطريق. وبعد الاستعلام مراراً عن طريقي، وجدتني أمام ستديو كيستون. كان مبنىً خرباً محاطاً بحظيرة خضراء، ويشغل مساحة لا تزيد عن مئة متر مربع. وكان الناس يصلون إليه عبر ممر وعبر اجتياز بيت قديم من طابق واحد: كان لكل ذلك مظهر لا يقل غرابة عن إيدندايل. وقد بقيت متسمراً في الجهة الأخرى من الطريق، متردداً في الدخول.

كانت الساعة ساعة الفطور، ورحت أتأمل الممثلين والممثلات والماكياج لا يزال على

وجوههم، وهم يخرجون من البنغل[1]، ولا سيما شرطة كيستون. كانوا يعبرون الطريق للذهاب إلى محل بقالة صغير خرجوا منه وهم يأكلون ساندويشات ومقانق وكانوا يتنادون بصيحات عالية: «هي، هانك، تعال إذاً!» «قل لسليم أن يستعجل!».

وفجأة أحسست بالخجل، فابتعدت بسرعة نحو زاوية الشارع، لرؤية ما إذا كان السيد سينيت أو الآنسة نورماند سيخرجان من البنغل، لكنهما لم يفعلا، وقد بقيت هناك نصف ساعة، ثم قررت العودة إلى الفندق. كانت فكرة دخول الستوديو ومواجهة كل هؤلاء الناس تبدو لي مشكلة مستعصية. وعلى مدى يومين، كنت أصل إلى أمام الستوديو بالضبط، من دون التجرؤ على الدخول. وفي اليوم الثالث، تلفن السيد سينيت سائلاً لماذا لم أحضر، فاخترعت أعذاراً مبهمة.

ـ تعال في الحال. نحن بانتظارك.

بدا مسروراً برؤيتي وذهب بي في الحال إلى الستوديو. كنت مبهوراً. كان ضوء لطيف يغمر كل خشبة المسرح: كان يأتي من أشرطة عريضة من القماش الأبيض توزع أشعة الشمس وتضفي على كل شيء مظهراً أثيرياً. كان ذلك ضرورياً للتصوير على ضوء النهار.

بعد أن قدموني لعدة ممثلين، بدأت أهتم بما كان يجري. كانت هنالك ثلاث خشبات متجاورة، وكانت ثلاث فرق تعمل في الوقت نفسه. وكان في إمكان المرء أن يعتقد أنه في مشهد من المعرض الدولي. كانت مابل نورماند تقرع على الباب فوق إحدى الخشبات، وهي تصيح: «افتحوا لي!». ثم توقفت الكاميرا عن الدوران؛ انتهى. لا شك أنهم كانوا يصورون الأفلام هكذا، قطعاً قطعاً.

وعلى خشبة ثانية كان فورد سترلينغ الكبير، الذي كنت سأحل محله. وقد قدمني السيد سينيت. كان فورد يترك كيستون ليؤسس شركته الخاصة مع يونيفرسال. كان شعبياً للغاية والجميع في الستوديو كانوا يحبونه. كانوا يحيطون بالخشبة التي يمثل عليها وهم يضحكون عن طيب قلب.

وقد أخذني سينيت جانباً ليشرح لي طريقة عملهم.

ـ ليس لدينا سيناريو؛ إننا ننطلق من فكرة ونتبع المسار المنطقي للأحداث إلى حين نصل إلى ملاحقة، تشكل جوهر عملنا الكوميدي.

كانت تلك الطريقة بناءة، لكني كنت أكره من جهتي الملاحقات. فهذا يشتت الشخصية. ومع أني لم أكن أعرف الكثير في مجال السينما، كنت أعرف أنه لا شيء يحل محل الشخصية.

في ذلك اليوم، ذهبت من خشبة إلى أخرى، متأملاً شتى الفرق وهي تعمل. كان يبدو عليهم جميعاً أنهم يقلدون فورد سترلينغ. وكان ذلك يقلقني، لأن أسلوبه لم يكن يناسبني.

(١) بيت قديم من طابق واحد في الريف أو على البحر (م).

كان يلعب دور شخص هولندي منهك، مضيفاً ردوداً بلكنة هولندية، وهو أمر كان ممتعاً جداً، لكنه لا يعطي شيئاً للسينما الصامتة. وقد رحت أتساءل ما الذي ينتظره سينيث مني. كان قد رآني على المسرح، ويعرف بالضرورة أني لست معداً لأداء النوع الكوميدي ذاته الذي يؤديه فورد. فأسلوبي كان العكس تماماً. ومع ذلك، كل قصة، وكل وضع متصور في الستوديو، كان مصنوعاً عن وعي أو من دون وعي لأجل سترلينغ. حتى روسكو أرباكل كان يقلد سترلينغ.

لقد كان الستوديو بالتأكيد مزرعة في السابق. وكانت مقصورة مابل نورماند مقامة في كوخ قديم، وكانت هنالك بجانبها حجرة أخرى يتهيأ فيها الممثلون. وفي الجهة المقابلة، كان ينتصب ما كان في السابق هُريا قديماً، وبات يستخدم كحجرة ثياب للممثلين الثانويين كما لشرطة كيستون، وكان معظمهم مهرجين سابقين في السيرك، وملاكمين قدامى. وقد أعطوني مقصورة النجوم التي يستخدمها كل من ماك سينيت، وفورد سترلينغ، وروسكو أرباكل. كانت بناء آخر في شكل هري كانت توضع فيه سابقاً عُدَّة الجياد. وفضلاً عن مابل نورماند، كانت هنالك فتيات جميلات أخريات. وكان يسود في الستوديو جو غريب وفريد حيث تتجاور على الدوام الجميلة مع الوحش.

بقيت أياماً في الستوديو أتساءل متى سأبدأ العمل. ومن وقت لآخر كنت ألتقي سينيث مجتازاً إحدى الخشبات، لكنه كان يمر بي، منشغلاً، من دون أن يبدو عليه أنه يراني، كما لو كنت شفافاً وقد تولد لدي انطباع مزعج هو أنه اقتنع بكونه اقترف خطأ حين تعاقد معي، وهو الأمر الذي لم يكن يتدبر حالة التوتر العصبي الذي كنت أعيش فيه.

في كل يوم، كان هدوئي النفسي متوقفاً على سينيت. فإذا حدث صدفة أن رآني وابتسم لي، كنت أشعر بآمالي تكبر. أما أعضاء الفرقة الآخرون فكانوا يبدون كما لو كانوا يقولون في أنفسهم: «لننتظر حين نراه في العمل»، لكن كان يبدو لي أن بعضهم كانوا ينظرون إلي على أني بديل من نوعية سيئة لفورد سترلينغ.

حين جاء السبت، أظهر سينيت الكثير من الود. قال لي:

– إمض واستلم حوالتك في المكتب.

وقد أوضحت له أني متحرق للبدء بالعمل. ولقد كان بودي أن أكلمه بخصوص موضوع تقليد فورد سترلينغ، لكنه صرفني مضيفاً:

– لا تقلق، سنناقش ذلك في الأيام القادمة.

انقضت ستة أيام من البطالة، وكان ذلك التوتر ينهكني. أما فورد فكان يحاول تعزيتي ومن حين لآخر كان يوصلني بسيارته إلى المدينة، وكنا نتوقف في بار ألكسندريا لشرب كأس والتقاء أصدقاء له. وقد قال لي أحدهم، هو المدعو ألمر أيلسوورث، الذي بدا لي منذ البداية كريهاً وأحمق، قال لي ممازحاً:

– يبدو أنك ستحل محل فورد. حسناً هل أنت طريف؟

قلت متضايقاً جداً:

ـ إن تواضعي يمنعني من الإجابة.

لقد كان ذلك النوع من السخرية مربكاً للغاية، لا سيما أمام فورد. لكنه أنجدني بصورة أنيقة حين أبدى الملاحظة التالية:

ـ ألم تره في الأمبرس وهو يمثل السكير؟ كان طريفاً جداً.

حسناً، لا أزال أنتظر أن يضحكني»، قال إيلسوورث.

كان رجلاً قوياً كبير الجثة، غليظاً، ولا بد أنه يعاني من اضطرابات في الغدد. كان يبدو كئيباً وشاحباً، مع وجه أجرد وعينين حزينتين، وفم رخو وابتسامة تظهر أنه فقد سنين في الجهة الأمامية. وقد همس لي فورد بجدية أنه حجة في الأدب والمال والسياسة، وأحد الرجال الأكثر اطلاعاً في البلد، وأن لديه حس دعابة كبيراً. لكني لم أكن مستعداً لتقديره وكنت أحاول تحاشي صحبته. إلا أنه قال لي ذات مساء في الألكسندريا:

ـ إذاً، ألم يبدأ الإنكليزي بعد؟

ـ كلا، قلت مع ضحكة متضايقة.

ـ حسناً، حاول أن تكون طريفاً.

لما كنت قد تحملت الكثير من هذا الشخص، فقد قررت أن أرد له الصاع صاعين، وقلت:

ـ آه! إذا كنت طريفاً نصف ما تبدو عليه أنت، فهذا سيكون جيداً.

ـ عليك اللعنة! أنت حاضر الجواب! هيا، هذا يستحق كأساً.

دقت ساعتي أخيراً. كان سينيت يصور في الخارج مع مابل نورماند، والشيء نفسه تخضع له فرقة فورد سترلينغ، بحيث لم يبق أحد عملياً في الستوديو. وكان السيد هنري ليهرمان، المخرج الرئيسي لدى كيستون بعد سينيت، سيبدأ فيلماً جديداً كان يريد أن ألعب فيه دور مخبر صحفي. وكان ليهرمان معجباً بنفسه، واعياً جداً أنه حقق بعض السكتشات البارعة ذات الكوميديا الميكانيكية جداً: كان يؤكد طوعاً أنه ليس بحاجة إلى شخصيات، وأنه يثير الضحك بفضل تأثيرات ميكانيكية وبفضل المونتاج.

لم تكن لدينا قصة. كان الأمر يتعلق بفيلم وثائقي حول الآلة الطابعة مبهّر بشيء من الكوميديا. كنت أرتدي ردنغوتاً خفيفاً، وقبعة عالية، واضع شاربين، وأنا على متن دراجة. ومنذ البداية فهمت أن ليهرمان كان يبحث عن أفكار. ولما كنت جديداً عند كيستون، لم أكن أرغب إلا في تقديم اقتراحات. وهكذا تسببت لنفسي بعداوة ليهرمان. وفي مشهد التقيت فيه محرر جريدة، كدست كل الإثارات الهزلية التي مرت في بالي، وحتى اقترحت للآخرين. ومع أن الفيلم تم تصويره في ثلاثة أيام، كان يبدو لي أننا عثرنا على بعض الإشارات الهزلية الطريفة جداً. لكن حين رأيته ناجزاً، تحطم قلبي لأن المصوِّر أهلكه إلى حد أنه لم يعد بالإمكان التعرف إليه، قاطعاً بلا رحمة بعض المقاطع التي كنت فيها الأشد هزلية. وقد ذهلت وتساءلت

لماذا حصل ذلك، أما هنري ليهرمان فاعترف بعد سنوات بأنه فعل ذلك قصداً لأنه وجد، على حد قوله، أني أعرف أشياء كثيرة.

غداة اليوم الذي أنجزت فيه العمل مع ليهرمان، دخل سينيت. وكان فورد سترلينغ على خشبة، وأربو كل على أخرى. كان الأستوديو مشغولاً بالفرق الثلاثة وهي تعمل. وكنت بلباس المدينة، ولما لم يكن لدي ما أفعله، تسمّرت في مكان يمكن أن يراني فيه سينيت. كان يتأمل مع مابل ديكوراً يمثل بهو فندق، ويضع في فمه سيجاراً.

ـ تلزمنا بعض الاثارات الهزلية هنا ـ ثم استدار نحوي وقال لي ـ، إذهب وضع ماكياجاً هزلياً، أي شيء.

لم أكن أعرف إطلاقاً كيف عليَّ أن أضع الماكياج. لم يكن لباسي كمخبر صحفي يروق لي، لكن على طريق غرفة الثياب، قلت إني سأرتدي سروالاً واسعاً جداً وحذاء ضخماً، وأزين ذلك بعصا وقبعة. كنت أريد ن يكون كل شيء متناقضاً: السروال مبالغ في اتساعه، والثوب ضيق، والقبعة صغيرة جداً والحذاء ضخم. وكنت أتساءل إذا كان علي أن أبدو شاباً أو عجوزاً، لكن بما أني تذكرت أن سينيت كان قد ظنني أكبر سناً، أضفت شارباً صغيراً بدا لي أنه يعطيني عدة سنوات إضافية من دون أن يخفي تعبيري.

لم تكن لدي أي فكرة عن الشخص الذي سألعب دوره، لكن مـذ لبست، أشعرني اللباس والماكياج ماذا سيكون. وبدأت أكتشفه، وحين وصلت إلى الخشبة، كان قد أصبح جاهزاً. وحين ظهرت أمام سينيت كنت في جلد الشخص. وكنت أتقدم بخطى متعجرفة وأنا أدير العصا حول رأسي. كانت إثارات وأفكار هزلية تتزاحم في رأسي.

كان سر نجاح ماك سينيت يكمن في حماسه. كان جمهوراً رائعاً، وكان يضحك عن طيب قلب أمام ما يراه طريفاً. وقد تلوى من الضحك، فشجعني ذلك وعمدت إلى تفسير الشخص:

ـ تعلمون أن لهذا الشخص وجوهاً عدة. فهو متشرد، وجنتلمان وشـاعر، وحـالم، مفتون دائماً بما هو خيالي وبالمغامرة. يود أن يجعلكم تظنـون أنه عـالم، وموسيقي ودوق ولاعب بولو. لكنه لا يتوانى عن جمـع أعقاب سجـائر وعن نشـل سكر الشعيـر من طفل. وبالطبع، إذا وجد الفرصة سانحة، يوجّه طوعاً لبـطة إلى قفا سيـدة... لكن فقط إذا كان غاضباً!».

وقد واصلت على هذا المنوال عشراً من الدقائق، فيما سينيت لا يتوقف عن الضحك.

ـ حسناً، تعال إلى الخشبة ولنر ما أنت قادر عليه.

مثلما الحال مع فيلم ليهرمان، لم أكـن أعرف الشيء الكثير عن القصة، سوى أن مابل نورماند كانت تعاني من صعوبات بين زوجها وأحد العشاق.

وفي كل كوميديا، يكون الموقف الواجب اتخاذه بالغ الأهمية، لكن ليس من السهل

دائماً العثور عليه. لكن في بهو الفندق هذا، كان لدي انطباع بأني مخادع يقدم نفسه على أساس أنه زبون، في حين كنت في الواقع متشرداً يسعى فقط للحصول على المأوى. دخلت وتعثرت بقدم إحدى السيدات، فاستدرت، ورفعت قبعتي معتذراً؛ ثم انطلقت من جديد وتعثرت بمبصقة. واستدرت مرة أخرى رافعاً قبعتي أمام المبصقة. وقد بدأوا يضحكون خلف الكاميرا..

كان تجمُّع صغير قد تكوّن، وهو لم يكن يقتصر على الكوميديين في الفرق الأخرى الذين تركوا خشبتهم للنظر إلينا، بل كان يضم أيضاً الآلاتيين والنجارين وقيِّمي اللواحق. ولقد كان ذلك مدغدغاً جداً للكبرياء. وحين أنهينا التمرينات، كان هنالك جمهور كبير يضحك من أعماقه. ولم أتأخر في رؤية فورد سترلينغ ينظر من فوق أكتاف الآخرين، وعندما انتهى ذلك، كنت أعرف أني نجحت.

فيما كنت أعود إلى مقصورتنا في نهاية النهار، وجدت فورد سترلينغ وروسكو أرباكل ينزعان الماكياج عن وجهيهما. ونحن لم نتبادل إلا كلمات قليلة، لكن الأشياء المضمرة هي التي كانت مهمة بشكل خاص. لقد كان فورد وروسكو يحبانني حقاً، لكن كان لدي شعور واضح بأنهما تحت تأثير عواطف متناقضة.

كان المسرح طويلاً، بحيث يصل إلى ٧٥ قدماً. وقد ناقش السيدان سينيت وليهرمان في ما بعدما إذا كان يجب الاحتفاظ بهذا الطول، لأنه نادراً ما تجاوز مسرح كوميديا متوسطة العشرة أقدام.

قلت لهما:

ـ إذا كان ما يُمثَّل طريفاً ومضحكاً، هل يهم الطول حقاً؟

وقد قررا الاحتفاظ بالـ ٧٥ قدماً. ولما كان اللباس الذي اخترته أوحى لي بإحدى الشخصيات، قررت على الفور أن أحتفظ به مهما حصل.

في ذلك المساء، عدت بالتراموای مع أحد الممثلين الإضافيين. وقد قال لي:

ـ لقد عثرت حقاً، يا عزيزي، على شيء مهم، إذ لم يسبق أن أثار أحدهم على الخشبة هذا المقدار من الضحك، ولا حتى فورد سترلينغ... ولو رأيت هيئته وهو ينظر إليك، لكان ذلك يستحق العناء.

أجبته، وأنا أحاول التحكم بإثارتي:

ـ فلنأمل بأن يضحك المشاهدون في القاعة بالدرجة ذاتها.

بعد أيام قليلة، فاجأت فورد، في الألكسندريا بار، وهو يصف شخصيتي لصديقنا المشترك، إيلمر أيلسوورث:

ـ يرتدي الشخص سروالاً طويلاً جداً، ورجلاه مَسْحاوان، ويبدو كالشخص رث

الثياب الأكثر بؤساً الذي حدث أن رأيناه؛ كما أن لديه حركات متقطعة مهتزة كما لو كان ثمة سلاطعين تحت إبطيه . . لكنه طريف».

كانت شخصيتي المسرحية تقدم شيئاً مختلفاً لم يكن يعرفه الأميركيون، ولا حتى أنا. لكن بتلك البزة، التي كنت أرتديها، كان لدي شعور بأنها حقيقة، بأنها مخلوق حي. وفي الواقع، كانت تفجّر لديّ كل أنواع الأفكار المجنونة التي ما كنت لأحلم بها يوماً قبل أن أتنكر بشخص ذلك المتشرد.

لقد تصادقت مع ممثل إضافي، وفي كل مساء، حين كنا نعود كل إلى منزله بالتراموای، كان يعطيني بعض المعلومات عن ردود فعل الستوديو في ذلك اليوم، وكنا نتحدث عن أفكاري الهزلية. «لقد كانت إثارة هزلية رائعة حين غطّست أصابعك في القصعة ثم مسحتها على عوارض الشخص العجوز. . . لم يسبق أن رأوا هذا النوع من الهزل». وكان يواصل حديثه على هذا المنوال، الأمر الذي كان يرفعني في الريح.

كنت أحس بالارتياح تحت إدارة سينيت، لأن كل شيء كان ينبثق عفوياً على الخشبة. فلما لم يكن أحد جازماً أو واثقاً من نفسه (ولا حتى المخرج)، خرجت باستنتاج أني أعرف قدر ما يعرف جاري. وكان ذلك يعطيني الثقة بالنفس، فأبدأ بإبداء اقتراحات كان سينيت يوافق عليها طوعاً. وهكذا تكونت لدي فكرة أن لدي موهبة خلاقة وأن في وسعي أن أكتب سيناريواتي الخاصة بي. ولقد كان سينيث هو الذي أوحى لي بذلك. لكن إذا كنت أروق لسينيت، كان باقياً عليّ أن أعجب الجمهور.

هذا وقد عهدوا بي من جديد إلى ليهرمان، بخصوص الفيلم الجديد. كان على وشك أن يترك سينيث ليتبع سترلينغ؛لكنه قرر البقاء أسبوعين إضافيين لإسداء خدمة لسينيت. ولقد كانت لدي ألف فكرة حين بدأت العمل معه. وكان يصغي إليَّ مبتسماً، لكن من دون الموافقة على أي منها.

كان يقول:

ـ ربما هذا طريف على المسرح، لكن ليس لدينا الوقت في السينما. تلزم الحركة، فالكوميديا لا أكثر من ذريعة للقيام بمطاردة».

أما أنا فلم أكن أتفق معه في هذا الصدد، وقد قلت له:

ـ الفكاهة هي الفكاهة، سواء في السينما أو في المسرح.

لكنه كان مصراً على الاستمرار بفعل ما كنا قد فعلناه دائماً لدى كيستون. ففي رأيه، يجب أن يكون كل شيء سريعاً: بمعنى آخر، يجب الركض وتسلق سطوح البيوت والحافلات الكهربائية بأقصى السرعة، والقفز إلى الأنهر، والغطس من أعلى المكاسر من دون إضاعة لحظة واحدة. وعلى الرغم من نظرياته حول الكوميديا، توصلت لتمرير إثارة أو إثارتين هزليتين شخصيتين، لكنه نجح كما في السابق في إلغائهما خلال المونتاج.

لا أعتقد أن ليهرمان تحدث عني بطريقة مشجِّعة جداً أمام سينيث. وبعد ليهـرمان، ربطوني بمخرج آخر، هو المستر نيكولز، وكان رجلاً يقارب الستين من العمر، وقد اشتغل في السينما منذ بداياتها. وقد لاقيت معه الصعوبات ذاتها، فهو لم يكن يعرف غيـر إثارة هزلية واحدة، تكمن في أخذ الممثل الهزلي من عنقه ونقله من مشهد إلى آخر. وقد حاولت أن أقترح تقنية أكثر رهافة بقليل، ولكنه لم يرد، هو الآخر، الاستماع بصددها. وكان يصرخ:

ـ لا وقت لدينا!

كل ما كان يطلبه مني هو تقليد فورد سترلينغ. ومع أني لم أحتجَّ إلا بصورة لبقة، فقد ذهب المستر نيكولز، على ما يبدو، وقال لسينيت إن العمل مع شخص مثلي كريه ومزعج.

في تلك الفترة تقريباً عُرض في المدينة الفيلم الذي أخرجه سينيت، وكان بعنوان **مغامرة مابل الغريبة**. وقد حضرت أحد العروض مع الجمهور، خائفاً ومـرتعشاً. فحين كـان فورد سترلينيغ يظهر على الشاشة، كان هنالك دائماً انفجار للحماس وضحكٌ كثير، لكن الجمهور استقبل دخولي بصمت بارد. فكل الإثارات التي قمت بها في بهو الفندق، بالكاد انتـزعت بعض الابتسامات لكـن مع تقدم الفيلم، سُمعت في الصالة بعض الضحكات المخنوقة، ثم الأكثر وضوحاً، وعلى مقربة من النهاية حصل انفجار أو انفجاران بالضحك. وقد اكتشفت خلال ذلك العرض، أن الجمهور يعرف كيف يكون متحيّزاً ضد ممثل جديد. هذا وأنا أشك في أن تكون هذه المحاولة الأولى استجابت لما كان سينيت يتوقعه منها. لا بل أعتقد أن أمله قد خاب. وقد جاء لرؤيتي بعد ذلك بيوم أو يومين.

ـ أَصْغِ إليّ، يبدو أنه ليس من المريح العمل معك.

وقد حاولت جهدي أن أشرح لـه أني حي الضمير، وأني لـم أكن أفكـر إلا بمصلحة الفيلم. أما هو فقال ببرود:

ـ إذاً اكتف بالقيام بما يقال لك أن تقوم به، وسوف تكون راضياً.

لكن في اليوم التالي، حدث جدال جديد مع نيكولز، وانفجرت قائلاً:

ـ إن في وسع أول قادم يأتي، بثلاثة دولارات في اليوم، أن يقوم بما تطلبه مني. أريد أن أجد شيئاً له قيمة، لا أن أتعرض ببساطة لمعاملة قاسية وأسقط من أعلى الترامواي. أنا لا أحصل على ١٥٠ دولاراً في الأسبوع لأجل هذا.

كان «بابا نيكولز» المسكين، كما كنا ندعوه، في وضع مريع. وراح يصرخ:

ـ منذ عشر سنوات وأنا في هذه المهنة، فماذا تعرف أنت من أسرارها؟

وقد رحت أحاول تحكيم العقل معه، لكن عبثاً. وحاولت النقاش مع أعضاء في الفرقة، لكنهم هم أيضاً كانوا ضدي. وقد قال لي ممثل قديم:

ـ آه! إنه خبير، إنه خبير، فهو في المهنة قبلك بسنوات.

لقد صورت خمسة أفلام أو ستة، وبالرغم من جزّاري صالة المونتاج، نجحت في بعضها في تمرير فكرة أو فكرتين هزليتين شخصيتين. لما كنت قد بت أعرف طريقتهم في المونتاج، وضعت إثاراتي بالضبط في اللحظة التي أدخل فيها إلى غرفة أو أخرج فيها منها، لأني كنت أعرف أنهم في حال كهذه يجدون صعوبة في قطع تلك اللقطات. وكنت أستفيد من كل فرصة تتاح لي لتعلم مهنتي، منتقلاً من غرفة السحب إلى غرفة المونتاج، ومراقباً مسؤول المونتاج خلال عمله.

كانت لدي الآن رغبة شديدة في كتابة أفلامي الخاصة وإخراجها، وفاتحت سينيت بذلك. لكنه أدار لي أذنه الصماء، وبدلاً من ذلك عهد بي إلى مابل نورماند التي كانت قد بدأت للتو بإخراج أفلامها الخاصة بها. وقد طعنني ذلك في الصميم، لأني بالرغم من إعجابي بجمال مابل وسحرها، كنت أشك في كونها صالحة للإخراج. لذا شهد اليوم الأول انفجار الحادثة المحتومة. كنا نصور في العراء في ضواحي لوس أنجلس، وقد قالت لي مابل، بالنسبة لأحد المشاهد، أن أقف وسط الطريق مع سِنان للرش، بحيث تنزلق عربة الخائن على الممر المبلل. أما أنا فاقترحت السير على الأنبوب لمنع الماء من الخروج، ثم في حين أتفحص طرف السنان، أرفع قدمي من دون إنتباه، الأمر الذي يجعل الماء ينبجس في وجهي. لكنها أسكتتني في الحال، قائلة:

ــ لا وقت لدينا! إفعل ما يقال لك.

كان ذلك فوق طاقتي على الاحتمال... لا سيما من فتاة بهذا الجمال.

ــ يؤسفني، آنسة نورماند، أن أقول لك إني لن أفعل ما يقال لي. لا أعتقد أنك من الكفاءة بحيث تشرحين لي ما عليّ القيام به.

كان ذلك يتم في وسط الطريق، وقد ذهبت وجلست على الرصيف. يا لمابل اللذيذة: لم تكن قد تخطت العشرين عاماً في ذلك الحين، وكانت جميلة وفاتنة، وكان الجميع يعبدونها، وقد ذاع صيتها لدى الجمهور. لقد بقيت جالسة قرب الكاميرا، مصابة بالذهول، إذ لم يكن أحد قد كلمها من قبل بهذه الفظاظة. وأنا أيضاً، كنت حساساً إزاء سحرها وجمالها، لا بل كنت أميل إليها، في الواقع، لكن الأمر كان يتعلق بعملي. وفي الحال، أحاط التقنيون والممثلون بمابل وراحوا يتشاورون. وقد روت لي مابل في ما بعد أن واحداً أو اثنين من الممثلين الصامتين أرادوا تحطيم وجهي، لكنها منعتهما من ذلك. ثم أرسلت مساعديها لرؤية ما إذا كنت مستعداً لاستئناف التصوير. فعبرت الطريق في اتجاهها وقلت بلهجة الاعتذار:

ــ سامحيني، فكل ما هنالك أني لا أجد هذا طريفاً أو مسلياً. لكن إذا أردت أن تسمحي لي باقتراح بعض الأفكار الهزلية...

إلا أنها رفضت حتى النقاش:

ــ حسناً إذا لم تكن على استعداد للقيام بما يُطلب منك، نعود إلى الستوديو.

كان الوضع يائساً، لكني كنت مستسلماً، وهززت كتفيّ. لم نكن قد خسرنا الشيء

الكثير من يوم العمل، لأننا كنا نصوِّر منذ التاسعة صباحاً. كان الوقت الآن يتجاوز الخامسة بعد الظهر وكانت الشمس تهبط بسرعة في الأفق.

في الستوديو، كنت أنزع الماكياج حين دخل سينيت فجأة إلى المقصورة، وقال:

ـ عليك اللعنة! ما معنى هذا الذي يجري؟

وقد حاولت أن أوضح له، قائلاً:

ـ إن القصة بحاجة لإثارات هزلية إضافية، لكن الآنسة نورماند لا تريد سماع أي نصيحة.

ـ سوف تفعل ما يقال لك أو تغادر، بعقد أو بدون عقد.

وقد أجبته، محتفظاً بكامل هدوئي:

ـ سيد سينيت، لقد كسبت معيشتي قبل المجيء إلى هنا، وإذا طردت من العمل، أكون طردت من العمل. لكني حي الضمير، ولدي من الرغبة في صنع فيلم جيد بقدر ما لديك.

فصفق الباب، من دون أن يضيف شيئاً.

في ذلك المساء، وفيما كنت عائداً مع صاحبي بالتراموای، رويت له ما جرى. فقال:

ـ خسارة. كنت تطلق شرارات.

فقلت بلهجة مداعبة، لإخفاء قلقي:

ـ أتعتقد أنهم سيطردونني؟

ـ لن يفاجئني ذلك. فحين رأيته يخرج من مقصورتك، كان يبدو شديد الغضب.

ـ حسناً، لا يهمني. ففي حوزتي ١٥٠٠ دولار، وهذا أكثر مما يلزم لدفع ثمن بطاقة العودة إلى إنكلترا: مع ذلك سوف أعود في الغد، وإذا لم يكونوا يريدونني، **C'est la vie**[1].

كنا مدعوين للاجتماع الساعة الثامنة من صباح اليوم التالي، ولم أكن أعرف ما العمل، فجلست في مقصورتي من دون أن أضع الماكياج. وقد أدخل سينيت رأسه، حوالي الثامنة إلا عشر دقائق من انفراج الباب، وقال بلهجة ودية إلى درجة مدهشة:

ـ أريد أن أتحدث معك، يا شارلي، فلنذهب إلى مقصورة مابل.

قلت وأنا أسير خلفه:

ـ حسناً، سيد سينيت.

لم تكن مابل هناك، إذ كانت تنظر إلى اللقطات السينمائية في قاعة العرض. أما ماك فقال:

ـ اصغ إليَّ، إن مابل تحبك كثيراً، ونحن كلنا نحبك كثيراً، ونعتقد أنك ممثل ممتاز.

في الحال بدأت أتحلحل، وقد فاجأني هذا التبدل المباغت:

---

(١) بالفرنسية في النص الأصلي الإنكليزي، ومعناها **هذه هي الحياة**.

ـ لا شك أني أكن أقصى درجات الاحترام والإعجاب حيال الآنسة نورماند، لكني لا أعتقد أنها تمتلك الكفاآت المطلوبة للقيام بالإخراج . . . وعلى كل حال، هي صغيرة السن.

فقال لي سينيت، وهو يربت على كتفي :

ـ أياً يكن رأيك، اترك كبرياءك جانباً وكن متعاوناً.

ـ هذا بالضبط ما أحاول فعله.

ـ إذاً، إسعَ جهدك للتفاهم معها.

ـ اصغ إليَّ، إذا تركتني أديرها بنفسي، لن يتسبب لك ذلك بأي إزعاج.

فبقي ماك مفكراً للحظات، وقال :

ـ من يدفع نفقات الفيلم إذا رفض أي موزع توزيعه؟

قلت له :

ـ أنا. سوف أودع ١٥٠٠ دولار في مصرف، ويمكنكم الاحتفاظ بالمال إذا لم يُبَع الفيلم.

فأطرق ماك مفكراً، ثم سأل :

ـ لديك قصة؟

طبعاً، بل قصص كثيرة.

ـ حسناً، قال ماك ـ أكمل الفيلم مع مابل وسوف أرى.

وتصافحنا بمودة بالغة، ثم مضيت أفتش عن مابل لأقدم لها اعتذاري. وفي المساء، اصطحبنا سينيث للعشاء معاً. وفي اليوم التالي، كانت مابل رائعة. حتى أنها طلبت مني أفكاراً واقتراحات. وهكذا أنهينا الفيلم من دون خلاف، مثيرين دهشة التقنيين وباقي الفرقة. وأيّاً يكن، لقد فاجأني تبدل موقف سينيت السريع، الذي لم أعرف سببه إلا بعد عدة أشهر. قيل لي إن سينيت كان ينوي صرفي من العمل في نهاية الأسبوع، لكن غداة اليوم الذي تخاصمت فيه مع مابل، تلقى ماك برقية من مكتب نيويورك جاء فيها أن عليه في الحال تصوير أفلام أخرى لشابلن، لأن هناك طلباً كبيراً عليها.

كان متوسط عدد النسخ لكوميديا من إنتاج كيستون يصل إلى العشرين. وكان رقم ثلاثين يُعد نجاحاً. وقد وصل آخر فيلم، وهو الرابع الذي صوَّرته، إلى ٤٥ نسخة، فيما كانت الطلبات تزداد. وهذا هو تفسير موقف ماك الودي بعد تلقي البرقية.

كانت مبادىء الإخراج بسيطة في تلك الفترة. لم يكن عليَّ إلا أن أميز شمالي من يميني بالنسبة للدخول والخروج. فإذا جرى الخروج من اليمين في نهاية مشهد، يتم الدخول من الشمال في المشهد التالي؛ وإذا خرج الأشخاص في اتجاه الكاميرا، يجب أن يدخلوا من جديد وهم يديرون ظهرهم للكاميرا. كانت تلك، بلا ريب، القواعد الأساسية.

لكن مع التجربة، اكتشفت أنه ليس لموقع الكاميرا دور نفسي وحسب، بل إنه يشكل تمفصل المشهد بالذات: كان ذلك في الواقع قاعدة الأسلوب السينمائي، فإذا كانت الكاميرا

أقرب من اللازم أو أبعد، قليلاً، يكفي ذلك لإبراز تأثير معين أو إفساده. ولما كان الاقتصاد في الحركة مهما، يجب ألا يسير الممثل من دون جدوى، ولغير سبب محدد، لأنه ليس في السير أي جانب درامي. يجب إذاً أن يخلق موقع الكاميرا التأليف وأن يتيح للممثل الدخول، ضمن أفضل الشروط. إن مكان الكاميرا هو نبرة اللغة السينمائية. لا يمكن أن نفترض مبدئياً أن مجالاً واسعاً يزيد من حدة لعبة مسرحية أكثر مما يفعل مجال بعيد. إن هذه مسألة شعور: ففي بعض الحالات يُبرِز مجالٌ بعيدٌ الأشياءَ بصورة أقوى.

لن أعطي كمثال على ذلك غير مقطع من أفلامي الهزلية الأولى **Skating (شارلي يتزلج)**. يُدخل المتشرد رجليه في آلة التزلج ويبدأ بالتزلج، وأحد قدميه في الهواء، منزلقاً ومحوِّماً، متعثراً بالناس أو دافعاً إياهم بقوة، مثيراً الفوضى حوله، إلى حين ينقلب الجميع على ظهورهم أمام الكاميرا بينما هو يتزلج في اتجاه آخر الحلبة، ويتضاءل حجمه شيئاً فشيئاً مع المسافة إلى حين يأتي فيجلس بين المشاهدين ليتأمل ببراءة ما أحدثه من بلبلة. في هذه الحالة، كان خيال المتشرد الصغيرُ في البعيد أكثر طرافة مما لو كان في مجال واسع.

حين بدأت أُخرج فيلمي الأول، لم أكن واثقاً من نفسي بقدر ما كنت أعتقد، لا بل كنت مصاباً بعض الشيء بالذهول والخوف. لكن حين رأى سينيت نتائج اليوم الأول، أحسست بالطمأنينة. كان عنوان التصوير في الفيلم **Caught in the rain**، ولم يكن إحدى روائع النوع، لكنه كان طريفاً وحظي الفيلم بالكثير من النجاح. وحين أنجزته، كنت مستعجلاً لمعرفة رد فعل سينيت. وقد انتظرته عند مخرج صالة العرض. فقال لي:

ـ أأنت مستعد للبدء بفيلم آخر؟

مذاك، كتبت وأخرجت كل كوميدياتي. وقد منحني سينيت، على سبيل التشجيع، علاوة مقدارها ٢٥ دولاراً عن كل فيلم.

كان قد تبناني الآن عملياً، وكان يصطحبني كل مساء للعشاء معاً. كان يناقش معي سيناريوات الفرق الأخرى وكنت أقترح أفكاراً مجنونة أقدِّر أنها شخصية جداً بحيث يصعب على الجمهور فهمها، لكن سينيت كان يوافق عليها ضاحكاً.

حين كنت أشاهد أفلامي مع الجمهور، لم يعد رد فعل الجمهور مذاك هو ذاته. فالرعشة التي كانت تملأ الحضور لدى الإعلان عن كوميديا من إنتاج كيستون، وصيحات الفرح الصغيرة تلك التي كان يتسبب بها ظهوري على الشاشة حتى قبل أن أكون فعلت شيئاً، كل ذلك كان لذيذاً إلى أبعد الحدود. كنت شعبياً جداً لدى الجمهور، ولو كان في وسعي مواصلة هذه الحياة لكان ذلك أقصى امنياتي. فلقد كنت أكسب مئتي دولار أسبوعياً، إذا حسبنا العلاوة التي كنت أتقاضاها.

مذ بات عملي يستنفد وقتي، لم يعد لدي منه ما أكرسه للألكسندريا بار، أو لصديقي الساخر إيلمر إيلسوورث. بيد أني التقيته في الشارع بعد عدة أسابيع. وبادرني بالقول:

ـ قل لي، لقد رأيت أفلامك أخيراً، وفي الواقع، أنت ممتاز، هل تعرف ذلك! لديك

شيء أكثر مما لدى الآخرين. أنا لا أمزح. أنت طريف! لماذا لم تقل ذلك على الفور؟
وبالطبع، صرنا بعد ذلك صديقين حميمين.

لقد تعلمت الكثير لدى كيستون، وعلّمتهم أشياء كثيرة أيضاً. ففي ذلك الحين، لم يكونوا يعرفون الشيء الكثير على صعيد تقنية المشهد وفنه، ولا على صعيد الحركات التي كنت آتي بها إلى المسرح. كما لم يكونوا يعرفون أشياء كثيرة عن التمثيل الإيمائي الطبيعي. فالمخرج الذي يصور مشهداً، كان يجد نفسه مع ثلاثة أو أربعة ممثلين مصفوفين بصورة غير فنية أمام الكاميرا، وكان الممثل يقوم بحركات لا تحصى ليقول بالإيماء: «أريد أن أقترن بابنتك»، مشيراً إلى نفسه، ثم إلى خاتم الزواج، فإلى الشابة. وكانت الإيمائيات تفتقد الرهافة والقوة، لكنني لم أكن أشبه باقي المخرجين. في تلك الأفلام الأولى، كنت أعرف أن لديّ ميّزات، وأني كنت أدخل، على غرار عالم جيولوجيا، في ميدان غني ولم يجر اكتشافه بعد. ولقد كانت تلك، بلا ريب، هي الفترة الأكثر إثارة في حياتي المهنية، لأني كنت على عتبة شيء رائع وعجيب.

إن النجاح يجتذب التعاطف، وهكذا أصبحت صديق الجميع في الستوديو. كنت «تشارلي» بالنسبة للآلاتيين، والقيّمات على الثياب، كما بالنسبة للعمال الميكانيكيين. ومن دون أن يكون لدي ميل إلى الإفراط في المؤاخاة، كان ذلك يروق لي أياً يكن، لأني كنت أعرف أن تلك الدالّة تعني أني أحقق النجاح.

كانت لدي الآن ثقة في أفكاري، وفي وسعي أن أشكر سينيت على ذلك، لأنه وإن كان أمياً مثلي، كان يولي ذوقه ثقته، وينقل إليّ تلك الثقة بالنفس. كانت طريقته في العمل قد أعطتني الثقة، والجملة التي قالها في اليوم الأول الذي جئت فيه إلى الستوديو: «ليس لدينا سيناريو، ونحن ننطلق من فكرة ونتبع مسار الأحداث المنطقي»، تلك الجملة كانت قد حركت خيالي.

كانت طريقة الإبداع تلك تجعل تحقيق الأفلام أمراً مثيراً للحماس. لقد اضطررت في المسرح للاقتصار على تكرار الشيء نفسه كل يوم، من دون تغيير، فما أن يجري تجريب الألعاب المسرحية وضبطها، حتى يصبح من النادر محاولة ابتداع أخرى جديدة. كل ما كان يدفع بك إلى المسرح، إنما هو همّ تقديم عرض جيد وتحاشي أن يكون سيئاً، أما مع الأفلام فلقد كانت لديك حرية أكبر. كان ذلك يعطيني حس المغامرة. فسينيت كان يقول: «ما رأيك بهذه الفكرة؟»، أو «هناك فيضان على ماين ستريت، في وسط المدينة». وكانت ملاحظات كهذه نقطة انطلاق كوميديا من إنتاج كيستون. كانت روح الارتجال الساحرة تلك هي العجيبة والرائعة: كنا إزاء تحدٍّ لحس الإبداع. كان كل شيء حراً جداً وبالغ السهولة: لا أدب، ولا مؤلفون، بل فقط فكرة كنا نبني حولها إثارات هزلية، ثم نبني القصة شيئاً فشيئاً.

فعلى سبيل المثال، في **His Prehistoric Past**[1]، كنت أبدأ بإثارة هزلية، تسجّل دخولي

(١) ماضيه ما قبل التاريخي (م).

إلى المسرح. كنت أظهر مرتدياً، كرجل من مرحلة ما قبل التاريخ، جلد دب، وفيما كنت أتفحص المشهد، كنت أشرع بانتزاع وبر الجلد لحشو غليوني. كانت تلك فكرة كافية للانطلاق في كوميديا من فترة ما قبل التاريخ مع شغف، وتنافس، وقتال وملاحقة. تلك كانت طريقة العمل التي كنا نطبقها كلنا لدى كيستون.

يسهل علي أن أتذكر متى جاءتني الرغبة للمرة الأولى في أن أضيف إلى أفلامي بعداً غير ذلك الخاص بالكوميديا. كنت أمثل في فيلم بعنوان **The Janitor**[٢] مشهداً يصرفني فيه مدير المكتب. وإذ كنت أتوسل إليه ليشفق علي ويبقيني في العمل، رحت أشرح له بالحركات أن لدي عائلة كبيرة من الأطفال الصغار. ومع أني كنت أمثل عواطف مصطنعة، كانت أليس دايڤنبورت، الممثلة القديمة، موجودة بجانب الخشبة كمشاهدة، وكنت أنظر إليها خلال التمرينات، ولاحظتُ باندهاش أنها تبكي.

قالت لي:

ـ أنا أعرف أنه يفترض بهذا أن يكون للإضحاك، لكنك تدفع بي إلى البكاء، هذا كل شيء.

وقد أكدت لديّ فكرة كنت قد بدأت أحدس بها، ومفادها أني أملك موهبة التسبب بالبكاء، مثلما أملك موهبة الإضحاك.

كان جو الستوديو «الذكوري» بات شبه غير محتمل، من دون وجود تأثير لطيف. ومن البديهي أن حضور مابل كان يجمِّل الستوديو. كانت فائقة الجمال، مع عينين واسعتين وأهداب طويلة، وشفتين ممتلئتين مرفوعتين بلطف في زاويتي ثغرها، معبرتين عن الدعابة وكنوز الرحمة والحِلْم. كان مزاجها سهلاً ومرحاً، وكانت فتاة ظريفة، وطيبة وشهمة. وكان الجميع يعبدونها.

كانوا يتكلمون على سخاء مابل حيال ابنة مُلْبِستها، وعلى مزحاتها مع العامل الميكانيكي. كانت مابل تحبني، مثل أخت لي، لأنها كانت في تلك الفترة مغرمة جداً بماك سينيت. وبفضل ماك، كنت أرى مابل كثيراً. كنا نتعشى معاً، نحن الثلاثة، ثم يذهب ماك إلى النوم في بهو الفندق فيما نذهب نحن لقضاء ساعة في السينما أو في مقهى، ثم نعود لنوقظه. وبالإمكان أن يعتقد المرء أن هذا التقارب قد يؤدي مع الوقت إلى قصة حب، لكن ذلك لم يحصل، إذ بقينا، للأسف، لا أكثر من صديقين جيدين.

بيد أنه ذات يوم، إذ كنا نشترك أنا ومابل وروسكو أرباكل في حفلة خيرية في أحد مسارح سان فرنسيسكو، كدنا نغرم، مابل وأنا، أحدنا بالآخر. كانت تلك سهرة باهرة، وحصلنا نحن الثلاثة على نجاح كبير. كانت مابل قد تركت معطفها في مقصورتها وطلبت مني أن أذهب وأحضره لها. أما أرباكل والآخرون فكانوا ينتظرون في الأسفل في عربة، وفي إحدى

---

(٢) البوّاب (م).

اللحظات، كنا لوحدنا. كانت مابل رائعة الجمال، وإذ كنت أضع قطعة الفرو على كتفيها، قبَّلتها وبادلتني قبلتي. ولقد كان بالإمكان أن نمضي أبعد من ذلك، لكنهم كانوا ينتظروننا. وقد حاولت بعد ذلك بقليل أن أستأنف ما كان يمكن أن يكون بداية مغامرة، لكن عبثاً.

قالت لي بلهجة ناعمة:

ــ لا يا شارلي، لستُ النوع الملائم لك، والعكس صحيح.

في تلك الفترة تقريباً، وصل دياموند جيم برايدي إلى لوس أنجلس. كانت هوليوود لا تزال في وضعها الجنيني، وصل ومعه الأختان دوللي وزوجاهما، ونظم استقبالات فخمة. وعلى مائدة عشاء أقامه في الألكسندريا، كانت هناك الأختان التوأمان دوللي وزوجاهما، وكارلوتا مونتري، ولو تيليغن، شريك ساره برنار، وماك سينيت، ومابل نورماند، وبلانش سويت، ونات غودوين، وآخرون عديدون. كانت الأختان دوللي رائعتي الجمال. وكانتا لا تنفصلان عن زوجيهما وعن دياموند برايدي عملياً على الإطلاق؛ ولقد كان الاتحاد بينهم مدهشاً.

كان دياموند جيم نموذجاً للأميركي لا مثيل له، يبدو كجون بال عطوف. وفي ذلك المساء الأول، لم أكن أستطيع تصديق ما أرى، لأنه كان يضع أزراراً لكمَّيه ولواقية صدره من الألماس، وكل حجر أكبر من حجم شلن. وبعد أيام، تعشينا في مقهى نات غودوين، على المكسر، وفي تلك المرة، كان يُبرز دياموند جيم زينته الزمردية، وكل حجر فيها بحجم علبة الكبريت. وقد اعتقدت باديء ذي بدء أن الأمر لا أكثر من مزحة وسألته ببراءة إذا كانت جواهر حقيقية. فأجابني بالإيجاب.

ــ لكنها عجيبة»، قلت له مندهشاً.

ــ إذا أردت أن ترى زمردات جميلة، أنظر.

ورفع صدرته، مظهراً حزاماً من حجم ذلك المتصوَّر للمركيز دو كوينسبوري لبطولة الملاكمة، وقد رُصِّع بالكامل بأضخم زمردات رأيتها في حياتي. وأخبرني باعتزاز أن لديه عشر مجموعات من الحجارة الكريمة وأنه يضع كل مساءٍ واحدة منها.

كان ذلك عام ١٩١٤، وكان عمري ٢٥ عاماً. كنت في عز شبابي، أعشق عملي، ليس فقط بسبب نجاحي فيه، بل كذلك بسبب المتعة التي كان يمنحني إياها، لأنه كان يعطيني فرصة أن ألتقي كل نجوم السينما، وكنت دائماً متحمساً لهذه أو لتلك: ماري بيكفورد، وبلانش سويت، وميريام كوبر، وكلارا كيميال يونغ، والأختين جيش، وغيرهن أيضاً، وكلهن رائعات، بحيث كان أمراً عظيماً أن يلتقيهن المرء بلحمهن ودمهن.

كان توماس إينس ينظم مآدب لحوم مشوية وحفلات رقص في الستوديو الخاص به، الذي كان يوجد في المناطق غير المأهولة في شمال سانتا مونيكا، أمَام المحيط الهادي. كم كانت تلك الليالي عجيبة، يرقص فيها الصبا والجمال على أنغام موسيقى نائحة على منصَّة في الهواء الطلق، مع حفيف الأمواج اللطيف وهي تتكسر على الساحل الرملي القريب.

كانت بيغي بيرس مخلوقة فائقة الجمال ذات ملامح منحوتة برهافة، مع عنق ذي بياض باهر وقامة رائعة، وقد كانت الأولى التي خفق لها قلبي. وهي لم تظهر لدى كيستون إلا بعد وصولي بثلاثة أسابيع، لأنها كانت مصابة بالكريب. لكن منذ اللحظة التي تلاقينا فيها، أحببتها من أول نظرة، وكان حبّاً صاعقاً متبادلاً، في كل حال. كم كانت حالمة تلك الصباحات التي كنت أذهب فيها إلى العمل، متأملاً أن أراها كل يوم.

كنت أذهب يوم الأحد إلى بيت أهلها للبحث عنها. وكان كل مساء نتلاقى فيه اعترافاً بالحب، وكل نهاية سهرة ننفصل فيها معركة قاسية. أجل، كانت بيغي تحبني، لكنها كانت قضية خاسرة. كانت تقاوم وقاومت إلى الحين الذي تخليت فيه عن مساعيّ، يائساً. وفي ذلك الوقت، لم تكن لدي الرغبة في الزواج، إذ كانت الحرية مغامرة رائعة. ما من امرأة كانت على مستوى الصورة الغامضة التي كنت أحلم بها في أعماقي.

كان كل ستوديو شبيهاً بعائلة، ننجز فيه أفلاماً في مهلة أسبوع، أما الأفلام الطويلة فلم تكن تأخذ أكثر من أسبوعين أو ثلاثة أسابيع. كنا نعمل على ضوء النهار، ولهذا السبب كنا نقيم في كاليفورنيا، حيث يمكن الاعتماد على تسعة أشهر مشمسة في العام.

حوالي عام ١٩١٥، ظهرت بروجكتورات كليغ، لكن لم يجر استخدامها إطلاقاً لدى كيستون لأنها كانت تعطي ضوءاً مهتزاً، ولم تكن مشعة بقدر ضياء الشمس، وكان ضبطها يستغرق وقتاً طويلاً جداً. كان تصوير فيلم حربي من إنتاج كيستون نادراً ما يتطلب أكثر من أسبوع، لا بل أنجزت واحداً من تلك الأفلام في مهلة بعد ظهر، وكان بعنوان **عشرون دقيقة حب Twenty minutes of love**، ولم يكن غير قهقهة طويلة. أما Dough and Dynamite، وهو فيلم لقي نجاحاً كبيراً، فقد جرى تصويره في تسعة أيام وكلف ١٨٠٠ دولار. وبما أني تخطيت موازنة الألف دولار، التي كانت الحد الأقصى لكلفة كوميديا من إنتاج كيستون، فقد فقدت في القضية علاوة الـ ٢٥ دولاراً. وشرح سينيت كيف أن الطريقة الوحيدة بالنسبة لكيستون لاسترداد التكاليف هي إنتاج فيلم ببكرستين؛ وقد تم ذلك وأدخل ١٣٠ ألف دولار في السنة الأولى.

كنت قد حققت حتى ذلك الحين عدة أفلام ناجحة، من بينها **Twenty minutes of love**، و **Dough and Dynamite**، و **Lauphing gaz**، و **The Stage Hand**. **وخلال تلك** الفترة، كنت أنا ومابل نجمي فيلم كبير مع ماري درسلر. كان العمل مع ماري لذيذاً، لكنني لم أجد الفيلم جيداً جداً. كنت مبتهجاً بالعودة إلى الإخراج.

أوصيت سينيت بسيدني. ولما كان اسم شابلن رائجاً، كان سعيداً جداً بإضافة عضو آخر من العائلة. وقد وقّع له سينيت عقداً لمدة عام مقابل مئتي دولار في الأسبوع، وكان ذلك يعني ٢٥ دولاراً أكثر مما كنت أكسبه. وصل سيدني وزوجته مباشرة من إنكلترا إلى الستوديو في الوقت الذي كنت فيه على وشك المضي للتصوير خارج الستوديو. وقد تعشينا مساءً معاً، وسألته كيف كان رواج أفلامي في إنكلترا.

وقد أوضح لي أنه قبل القيام بالدعاية حول اسمي، حدثه العديد من فناني الميوزيك هول بحماس عن ممثل سينما أميركي شاهدوه. وأخبرني أيضاً أنه قبل أن يرى أيّاً من أفلامي، هاتف مركز السينما ليعرف متى سيتم توزيعها، وحين علموا من يكون دعوه لرؤية ثلاثة من تلك الأفلام في عرض خاص. كان لوحده في الصالة وضحك من أعماقه.

وسألته:

ـ ما رأيك في كل ذلك؟

لم يبد على سيدني أي أثر للمفاجأة، وقال لي بثقة:

ـ آه! كنت أعرف أنك ستتدبر أمورك جيداً.

كان ماك سينيت عضواً في نادي الرياضة البدنية (أتليتيك كلوب) في لوس أنجلس، الأمر الذي كان يتيح له تقديم بطاقة عضو مؤقت لأحد أصدقائه، وقد أعطاني واحدة منها. كان النادي هو المقر العام العام لكل العازبين ولكل رجال الأعمال في المدينة؛ كان نادياً أنيقاً مع قاعة طعام كبرى وصالونات في الطابق الأول، كانت تفتح في المساء للسيدات، بالإضافة إلى بار.

كانت لديَّ غرفة كبرى في الطابق الأعلى، مع بيانو ومكتبة صغيرة، وكان يجاورني موز همبرغر، مالك محلات ماي الكبرى (الأهم في لوس أنجلس). كانت المعيشة رخيصة جداً في تلك الفترة: كنت أدفع ١٢ دولاراً في الأسبوع عن غرفتي، الأمر الذي كان يتيح لي الاستفادة من كل ما يقدمه النادي لأعضائه، من صالات رياضة مجهزة بصورة ممتازة، ومسابح وخدمة جيدة. وبالإجمال، كنت أعيش بترف بالغ مقابل ٧٥ دولاراً في الأسبوع، علماً أن هذه المصاريف الإجمالية كانت تشمل الكوكتيلات وعشاء بين الحين والآخر.

كانت تسود في النادي روح رفاقية لم ينجح في تصديعها حتى إعلان الحرب في آب ١٩١٤. الجميع كانوا يعتقدون أنها ستنتهي خلال ستة أشهر. أما ما كان يقوله اللورد كيتشنر حول أن الحرب ستدوم أربع سنوات فكان يبدو سخيفاً بالكامل. ولقد كان كبيراً عدد الناس الذين كانوا مغتبطين إزاء إعلان الحرب، لأننا سنتمكن الآن من إعطاء درس للألمان. لم يكن ثمة شك حول نهاية النزاع: سوف يهزمهم الإنكليز والفرنسيون شر هزيمة خلال ستة أشهر. لم تكن الحرب قد بدأت بعد، بصورة حقيقية، وكانت كاليفورنيا بعيدة جداً عن مسرح العمليات.

في تلك الفترة تقريباً، شرع سينيت يتحدث عن تجديد عقدي وأراد معرفة شروطي. أما أنا فكنت أعرف إلى حد ما مدى شعبيتي، لكنني كنت أعرف أيضاً كم أن ذلك كان سريع العطب، وكنت مقتنعاً بأني في مدى سنة سوف أكون استنفدت الأفكار، لذلك كنت أعتقد أن عليَّ استنباح الفرصة قبل زوالها.

قلت صراحةً:

ـ أريد ألف دولار في الأسبوع!

وجن جنون سينيث، وقال:

ـ لكن حتى أنا لا أكسب هذا المبلغ.

ـ أعرف ذلك، قلت، لكن الجمهور لا يقف في الصف أمام الصندوق حين يكون اسمك على الملصق مثلما يقف حين يتعلق الأمر بي.

أجاب سينيت:

ـ ربما، لكن من دون دعم منظمتنا، سوف تتعرض للهلاك. أنظر ما حصل لفورد سترلينغ.

كان ذلك صحيحاً، لأن فورد لم يحقق نجاحاً باهراً منذ ترك مؤسسة كيستون. لكني قلت لسينيت:

ـ كل ما يلزمني لصنع فيلم حديقةٌ عامة، وشرطي وفتاة جميلة.

وفي الواقع، كنت قد حققت بعض أفلامي الأكثر نجاحاً بواسطة ذلك تقريباً.

إلا أن سينيت أبرق إلى كيسل وبومان، شريكيه، ليستشيرهما بصدد عقدي وشروطي. وقد قدم لي سينيت بعد أيام العرض التالي:

ـ أصغ إليّ. لا يزال أمامك أربعة أشهر قبل انتهاء مدة عقدك. سوف نمزقه ونعطيك خمسمئة دولار الآن، وسبعمئة في السنة القادمة، وألفاً وخمسمئة في السنة الثالثة. وهكذا سوف تصل إلى دولاراتك الألف وخمسمئة في الأسبوع.

فأجبته قائلاً:

ـ ماك، لو كنت تقلب ترتيب الأرقام فتعطيني ١٥٠٠ دولار في السنة الأولى، وسبعمئة في الثانية وخمسمئة في الثالثة، لقبلت.

ـ لكن هذا من قبيل الجنون، قال سينيت.

ولم نتحدث بعد ذلك عن عقد جديد.

كان لا يزال أمامي شهر أمضيه لدى كيستون، وحتى ذلك الحين لم تقدم لي أي شركة عرضاً. فبدأت أعصابي تثور، وأعتقد أن سينيت كان يدرك ذلك ويأخذ وقته. وعموماً، جاء إليّ بعد أن أنهيت فيلماً وراح يحثني ضاحكاً على البدء بإنتاج فيلم جديد. أما الآن فلم أكن قد صنعت شيئاً منذ أسبوعين، لكنه كان يتجنبني. كان مهذباً، لكن متحفظاً.

بالرغم من كل شيء، كنت أحتفظ بثقتي بنفسي. فإذا لم يقدم لي أحد عرضاً، سوف أعمل لحسابي الخاص. لم لا؟ لقد كنت واثقاً من نفسي، ومستقلاً. وأنا أتذكر اللحظة التي ولدت خلالها في نفسي تلك القناعة: في اللحظة التي كنت أوقع فيها قسيمة طلب للحصول على لواحق، فيما أنا مستند إلى جدار الستوديو.

أما سيدني فبعد تعاقده مع كيستون، قام بإنتاج عدة أفلام لقيت نجاحاً. وكان أحدها، وقد حقق أرقاماً قياسية في الإيرادات عبر العالم، بعنوان **غواصة القراصنة**، وقد نجح سيدني في الحصول على نتائج باهرة بواسطة الكاميرا. وإزاء هذا النجاح، سألته إذا كان يريد

الانضمام إلي لتأسيس شركتنا الخاصة، وقلت:

ــ كل ما يلزمني كاميرا وأرض فارغة.

لكن سيدني كان ذا روح محافظة، وقد قدَّر أن في ذلك مجازفة كبرى. وأضاف:

ــ فضلاً عن ذلك، لا أريد أن أتخلى عن أجرة هي أعلى من كل ما كسبته في حياتي.

وقد بقي إذاً عاماً آخر لدى كيستون.

ذات يوم، تلقيت مكالمة هاتفية من كارل لامل، من الأونيفرسال كومباني. كان مستعداً لإعطائي ١٢٠٠ سنت عن كل قدم فيلم، ولتمويل أفلامي، لكن بما أنه رفض إعطائي ألف دولار في الأسبوع، لم نصل إلى أي اتفاق.

وقد قال لي شاب اسمه جس روبنز، كان يمثل شركة إيساناي، أنه سمع أني أريد علاوة مقدارها عشرة آلاف دولار قبل توقيع أي عقد، و ١٢٥٠ دولاراً في الأسبوع. وقد كنت أول من تفاجأ بهذا الخبر، فأنا لم أكن قد فكرت في علاوة العشرة آلاف دولار قبل أن يتحدث عنها، لكن منذ تلك اللحظة السعيدة، بات ذلك بالنسبة لي فكرة متسلطة.

في ذلك المساء، دعوت روبنز إلى العشاء وتركته يتكلم. فأوضح لي أنه آت مباشرة كموفد من قبل ج. م. أندرسون، المسمّى برونشو بيلي، من شركة أيساناي، وشريك السيد جورج ك. سبور؛ أما مهمته فتنحصر في أن يعرض علي ١٢٥٠ دولاراً في الأسبوع، لكنه غير واثق من موضوع العلاوة. وقد هززت كتفي، وقلت:

ــ يبدو هذا عائقاً بالنسبة للعديد من زملائك. لديهم جميعاً عروض جميلة يقدمونها، لكنهم لا يريدون وضع فلس واحد على الطاولة.

بعد ذلك بقليل، كالم أندرسون في سان فرنسيسكو، قائلاً له إن المسألة على ما يرام، لكني أريد عشرة آلاف دولار كعلاوة عند توقيع العقد. وقد عاد وهو يبتسم ابتسامة واسعة، وقال:

ــ الموضوع مُنتهٍ، وستحصل على العشرة آلاف دولار غداً.

كنت في ذروة البهجة، فذلك كان من الروعة بحيث لا يمكن تصديقه. لقد كان صحيحاً في الواقع، لأن روبنز سلمني في اليوم التالي حوالة بمبلغ ستمئة دولار، موضحاً أن السيد أندرسون سيأتي بنفسه إلى سان فرنسيكو وأن موضوع العشرة آلاف دولار سوف يسوّى في ذلك الحين. ووصل أندرسون مليئاً بالحماس والثقة بصدد العقد، لكن من دون العشرة آلاف دولار:

ــ سوف يسوّي شريكي، السيد سبور، هذا الأمر حين سنذهب لرؤيته في شيكاغو.

وعلى الرغم من أني بدأت أشعر ببعض الشكوك، فضلت إخفاءها تحت ستار التفاؤل. كان لا يزال لدي أسبوعان لدى شركة كيستون، ولقد كانت محنة بالنسبة إليَّ أن أنهي فيلمي الأخير، **Lauphing gaz**، لأني كنت أجد صعوبة في التركيز، وفي رأسي كل تلك المشاريع المتراقصة أمامي. معُ ذلك، توصلت إلى إنهاء الفيلم.

الفصل الحادي عشر

لقد كان ترك كيستون بالنسبة لي نوعاً من التمزق، لأني كنت قد تعلقت بسينيت وبالجميع. لم أودع أحداً، وحدث كل شيء ببساطة لا ترحم. أنهيت تصوير فيلمي مساء السبت، ورحت يوم الإثنين مع السيد أندرسون إلى سان فرنسيسكو، حيث كانت تنتظرنا سيارته الجديدة من نوع مرسيدس، ذات اللون الأخضر. ولم نتوقف إلا لوقت قصير للغداء في فندق سانت فرنسيس، ثم واصلنا الطريق إلى نايلز حيث كان لأندرسون ستوديو صغير: هناك كان يصور أفلام الوسترن الخاصة ببرونشو بيلي لحساب الإيساناي (Essanay هي النقل الصوتي للأحرف الأولى من كلمتي سبور وأندرسون).

كانت نايلز على بعد ساعة عن سان فرنسيسكو بالسيارة، على امتداد سكة الحديد. كانت مدينة صغيرة مع سكان لا يتعدى عددهم الأربعمئة نسمة يهتمون بشكل رئيسي بالبرسيم وتربية الماشية. وكان الستوديو قائماً في وسط أحد الحقول، على بعد أكثر من ستة كيلومترات عن التجمع السكاني. وقد شعرت حين لمحته بأن قلبي ينقبض، لأن المشهد لم يكن مشجعاً. كان هناك سقف زجاجي يحوله إلى فرن في الصيف. وقد قال لي أندرسون إني قد أجد ستوديوهات شيكاغو ملائمة أكثر لذوقي، ومجهزة بشكل أفضل لإنجاز أفلام هزلية. وفي الواقع، لم أبق في نايلز أكثر من ساعة، في حين كان أندرسون يسوي بعض الأمور مع معاونيه. ثم عدنا باتجاه سان فرنسيسكو ومن هناك أخذنا القطار إلى شيكاغو.

كنت أحب أندرسون حقاً؛ فلقد كان يملك سحراً خاصاً. وقد سهر عليّ في القطار كما لو كان أخاً لي، مشترياً لي الملبَّس والمجلات عند كل توقف. كان رجلاً في الأربعين من عمره، حَيّياً وقليل التواصل، وحين بدأنا الكلام على الأعمال، أعلن بلهجة شهمة: «لا يهمَّنَّك هذا، فهو سيُسوَّى». لم يكن يتحدث إطلاقاً، وكان يبدو عليه الاهتمام الشديد. لكنني كنت أشعر أنه، في الواقع، عرّاب عركه الدهر.

كانت الرحلة مثيرة. كان هنالك بوجه خاص، في القطار، ثلاثة رجال لاحظناهم في المرحلة الأولى في حافلة الطعام. وكان يبدو الرخاء والنجاح على اثنين منهم، لكن الثالث، الذي كانت تبدو عليه الفظاظة والمظهر العادي، لم يكن يعطي الانطباع بأنه في المكان

الملائم معهما. كان غريباً أن يراهم المرء يتعشون معاً. وقد قلنا في قرارة أنفسنا إن الأولين لا بد أن يكونا مهندسين، بينما التاعس هو بلا شك عامل يرافقهما للقيام بالأشغال المتعبة. وحين غادرنا حافلة الطعام، جاء أحدهم إلى مقصورتنا، ليقدم نفسه. وقد أوضح لنا أنه شريف سانت لويس وأنه تعرَّف إلى برونشو بيلي. كان يخفر مجرماً من سجن سان كوينتين إلى سانت لويس، حيث سيجري شنقه، لكن لما كان لا يستطيع ترك السجين لوحده، سألنا أن نقبل الذهاب إلى مقصورته للتعرف إلى محامي الادعاء في المقاطعة.

قال الشريف بلهجة من يأتمنك على سر:

ــ لقد فكرت بأن القصة قد تهمكم، فهذا الشخص لديه سجل عدلي حافل. فحين أوقفه مفتش في سانت لويس، طلب السماح له بالصعود إلى غرفته لأخذ بعض الألبسة في حقيبته، وفي حين كان يبحث في أغراضه، استدار فجأة وفي يده مسدس، فصرع المفتش وهرب إلى كاليفورنيا حيث ألقي عليه القبض فجأة خلال عملية سطو، وحكم عليه بالسجن ثلاثة أعوام. ولدى خروجه، كنت أنتظره أنا ومحامي الادعاء الخاص بالمقاطعة.

وختم وهو يشعر بالرضى:

ــ إنها قضية بسيطة: سوف يتم شنقه.

تبعته أنا وأندرسون إلى مقصورتهم. كان الشريف رجلاً بديناً ومرحاً، يبتسم بلا انقطاع، وفي عمق عينيه بريق ماكر. أما محامي الادعاء فكان أكثر جدية. وقد دعانا الشريف، بعد أن قدمنا لزميله، للجلوس، ثم استدار نحو السجين وقال:

ــ وهذا هو هانك. ونحن نعيده إلى سانت لويس حيث تنتظره بعض الإزعاجات.

ضحك هانك ضحكة صغيرة ساخرة، لكنه امتنع عن التعليق. كان رجلاً يقارب الخمسين، طوله متر وثمانون سنتم. وقد شد على يد أندرسون قائلاً:

ــ لقد رأيتك مراراً، يابرونشو بيلي، وأضمن لك أنه بخصوص استخدام المسدس أو تنظيم هجوم مسلح، لا تنقصك البراعة.

أضاف هانك أنه لا يعرفني عملياً؛ فمنذ ثلاث سنوات وهم في سان كوينتين، «وثمة أشياء كثيرة تحدث في الخارج لسنا على علم بها».

بالرغم من الحيوية العامة، كان هناك، أياً يكن، نوعٌ من التوتر الكامن الذي يصعب تحمُّله. ولما كنت لا أدري ما أقول، اكتفيت بالابتسام حيال ملاحظات الشريف.

ــ الحياة قاسية»، قال برونشو بيلي.

ــ آه! قال الشريف، نريد جعلها أقل قساوة. وهانك يعرف ذلك.

قال هانك بجفاف:

ــ أعتقد ذلك.

وهنا تحول الشريف إلى الوعظ:

ـ هذا ما قلته لهانك حين خرج من سانت كوينتين. قلت له إنه إذا كان قانونيا معنا، نبادله بالمثل. فنحن لا نصر على أن نضع القيود في يديه، أو خلق المشاكل؛ لكنَّ لديه عائقاً بالضبط.

ـ عائق؟ كيف ذلك؟ قلت.

فقال الشريف:

ـ ألم تر شيئاً من هذا القبيل؟ إرفع سروالك، يا هانك.

رفع هانك أسفل سرواله ورأينا نوعاً من الطوق المطلي بالنيكل، طوله حوالي الـ ١٢ سم وسماكته بين السبعة والثمانية سم، يحيط بعرقوبه ويزن حوالي٢٠ كغ. وقد جعلنا ذلك نتحدث عن آخر نموذج من هذه الأجهزة. وشرح الشريف كيف أن هنالك طبقة من المطاط داخله، بحيث لا يتضايق عرقوب السجين.

وسألت:

ـ أينام به؟

فقال الشريف وهو يلقي نظرة حياء على السجين:

ـ آه! حسب الظروف.

أما هانك فلاحت على وجهه ابتسامة ساخرة ومليئة بالألغاز.

بقينا معهم حتى ساعة العشاء، وخلال النهار، توصلنا للحديث عن الطريقة التي أوقف بها هانك للمرة الثانية. وقد قال الشريف إنه بفضل تبادل المعلومات بين الإصلاحيات، تلقوا صوراً وبصمات أصابع، وقرروا أن هانك هو الرجل الذي يطلبونه. وهكذا وصل مع زميله وكيل الادعاء إلى أمام أبواب سجن سان كوينتين في اليوم ذاته الذي كان سيطلق فيه سراح هانك.

ـ نعم، قال الشريف وعيناه الصغيرتان تبرقان فيما ينظر نحو هانك، كنا ننتظره على الرصيف المقابل. وعلى الفور تقريباً خرج هانك من الباب الجانبي.

فرك الشريف أنفه وأشار بإصبعه، بصورة ماكرة، نحو هانك، وقال ببطء، وعلى وجهه ابتسامة شيطانية:

ـ أعتقد أن هذا رجلنا!

كنا، أنا وأندرسون، نصغي إليه، مفتونين.

واستأنف قائلاً:

ـ لقد عقدنا إذاً اتفاقاً: إذا كان قانونياً معنا، نعامله معاملة حسنة. لقد اصطحبناه لتناول الفطور، ودفعنا عنه ثمن الغاتو، والبيض بقديدة الخنزير. وهو يسافر في الدرجة الأولى. وهذا أفضل، أيًا يكن، من فعل ذلك بالطرق الجافية، مع قيود وسلاسل.

فابتسم هانك وغمغم:

ـ كان أمكنني الاحتجاج ضد تسليمي لو أردت ذلك.

فحدَّق الشريف به بنظرة من جليد، وقال له ببطء:

ــ لكن ذلك ما كان نَفَعَك كثيراً. وجل ما كان يمكنك أن تحصل عليه فترة إمهال صغيرة. أليس من الأفضل أن تسافر بطريقة مريحة في الدرجة الأولى؟

ــ طبعاً»، قال هانك بصوت متردد.

وكلما اقتربنا من المكان الذي سيصل إليه هانك، شرع يتحدث تقريباً بمودة حيال سجن سانت لويس. كان فرحاً كفاية وهو يفكر بالظهور أمام السجناء الآخرين:

ــ حين أفكر بما سيفعله بي هؤلاء الغوريلات حين سأمثل أمام محكمتهم هم! لا ريب أنهم سوف ينهبون كل تبغي وكل سجائري.

كانت علاقات الشريف ووكيل النيابة بهانك تذكِّر بحنان مصارع الثيران إزاء الثور الذي سوف يتولى قتله. وحين نزلوا من القطار، كان ذلك آخر يوم من كانون الأول، وفي لحظة افتراقنا، تمنى لنا الشريف ووكيل النيابة عاماً سعيداً. وهانك ذاته شد على يدنا، قائلاً بنبرة ساخرة إن لكل الأشياء الجيدة نهاية. لم نكن نعرف جيداً كيف نودعه. لا شك أنه كان قد تصرف بجبن وبلا رحمة، ومع ذلك فوجئت بنفسي أتمنى له حظاً سعيداً في حين كان ينزل من القطار وهو يعرج. وقد عرفنا في ما بعد أنه شُنِق.

بوصولنا إلى شيكاغو، استقبلنا مدير الستوديو، لكن السيد سبور لم يكن هنالك. وقد أوضح لنا أن السيد سبور في رحلة عمل ولن يعود قبل أعياد السنة الجديدة. بانتظار ذلك أمضيت ليلة رأس السنة مع أندرسون، وزوجته وأولاده. وفي يوم رأس السنة، سافر أندرسون إلى كاليفورنيا، مؤكداً لي أنه ما إن يعود سبور سوف يهتم بكل شيء، بما في ذلك علاوة العشرة آلاف دولار. كان الستوديو في الحي الصناعي، ومن المؤكد أنه كان في إحدى الفترات مستودعاً. وفي الصباح الذي جئت فيه إليه، كان سبور لا يزال غائباً، ولم يترك أي تعليمات تتعلق بترتيباتنا المالية. وقد أحسست في الحال أن ثمة في ذلك شيئاً ما غامضاً، وأنهم في المكتب، يعرفون أكثر مما ينوون قوله لي. لكنني لم أقلق بسبب ذلك، إذ كنت مقتنعاً بأن فيلماً جيداً قد يحل كل مشاكلي. وقد سألت إذاً مدير الستوديو إذا كان يعرف أن في وسعي الاعتماد على الدعم الكامل من جانب ملاك الستوديو، وأن معي موافقة مطلقة على استخدام كل الوسائل المتوفرة فيه.

فأجاب:

ــ بالتأكيد، فالسيد أندرسون ترك تعليمات بهذا الصدد.

ــ إذاً، بودي البدء فوراً بالعمل»، قلت.

ــ حسناً، أجاب. سوف تجد في الطابق الأول مديرة السيناريوات، الآنسة لويلا بارسونز، التي سوف تعطيك كُتَيِّباً.

فقلت له:

ــ أنا لا أستعمل سيناريوات الآخرين، بل أكتب تلك الخاصة بي.

كنت عدائياً، لأنهم كانوا يبدون كلهم غامضين، وكان غياب السيد سبور يـزعجني؛ فضلاً عن ذلك، كان المشتغلون في الستوديو متصنعين ويتحركون في المماشي كما لو كانوا أعضاء الغارانتي تراست كومباني: كان المظهر الإداري الخاص بالمؤسسة مؤثراً، لكن ليس الأفلام التي تنتجها. وفي الطوابق، كانت الـدوائر المتنـوعة مفصـولة بحـواجز مثـل نوافـذ الصناديق. ولم يكن بالإمكان القول إن ذلك يحفـز العمل الخلاق. ففي السادسة مساءً، كانوا يطفئون الأنوار، ويعود كـلٌ إلى بيته، حتى إذا كـان أحد المخـرجين في عز تصـوير أحـد المشاهد.

صباح اليوم التالي، جئت إلى نافذة الممثلين، وقلت بجفاف:

ـ بوُدّي أن أحصل على بعض الممثلين، فهل تتفضلون بأن ترسلوا إليَّ أعضاء فرقتكم الذين لا عمل لديهم؟

وقد قدموا لي أشخاصاً كانوا يعتقدون أنهم قد يلائمونني. وكان هناك شخص أحول، اسمه بن توربن، يبدو كما لو كان يعرف كل شيء، ولـم يكن يفعل آنذاك أشياء كثيرة لدى إيساناي. وللحال شعرت نحوه بالمودة، وجرى اختياره. لكن لم تكن لدي نجمة نسائية. وبعد استدعاء العديدات، وجدت مرشحة بدت لي ممكنة، وكانت شابة جميلة كفاية، تعاقدت معها الشركة للتو. لكن كان يستحيل الحصول منها على أي رد فعل، وكانت تبدو لي غير مرضية إلى حد أني تخليت عنها. وبعد سنوات، روت لي غلوريا سوانسون أنها هي تلك الفتـاة، وأنها قصدت أن تكون بتلك الـرداءة، لأنه كانت لديها طموحات درامية، وكانت تكره الكوميديا الهزلية كرهاً شديداً.

لقد حزر فرنسيس أكس. بوشمان، وكان آنذاك نجماً كبيراً لدى إيساناي، أن المؤسسة لا تروق لي. وقال:

ـ مهما اعتقدت بصدد الستوديو، فالواقع هو النقيضة بالضبط.

لكن لم يكن ثمة شيء من ذلك؛ فأنا لم أكن أحب الستوديو، ولم أكن أحب كلمـة «نقيضة». وكل شيء كان يذهب من سيىء إلى أسوأ. وحين أردت أن أرى لقطاتي، جرى عرض النسخة السلبية الأصلية لتوفير مصاريف سحب النسخة الإيجابية. وقد استهولت ذلك. وحين أصررت على السحب، احتجوا كما لو كنت أريد تفليسهم. كانـوا يبدون مغـرورين وراضين عن أنفسهم، إذ لما كانوا بين أوائل من دخلوا صنـاعة السينمـا، وكانت تحميهم الشهادات التي تمنحهم احتكاراً، كان إنتاج فيلم جديد آخر همومهم. ومع أن شركات أخرى كانت تعترض على شهاداتهم، وتنتج أفلاماً أكثر جودة، فقد كانت إيساناي مستمرة في توزيع سيناريوات كل صباح إثنين مثلما يوزعون بطاقات.

كنت قد انتهيت تقريباً أول فيلم لي، بعنوان **His New Job**، وكان أسبوعان قد انصرما، من دون أن يظهر المستر سبور، ولما لم أكن حصلت على علاوتي، ولا على أجري، فلقد تعاملت معهم بعجرفة، وسألت في المكتب:

ـ أين هو هذا المستر سبور؟

كان المستخدمون مرتبكين، وعجزوا عن إعطائي تفسيراً مرضياً. أما أنـا فلم أحاول إخفاء ازدرائي، وسألتهم إذا كان يتصرف دائماً بهذه الطريقة في ما يخص العمل.

بعد سنوات، أخبرني سبور بنفسه ما الذي حدث. ويبدو أنه حين علم سبور، الذي لم يسمع بي سابقاً، أن أندرسون وقّع معي عقداً مقابل ١٢٠٠ دولار فـي الأسبوع، وعلاوة عشرة آلاف دولار، أرسل إل هذا الأخير برقية مستعجلة يسأل فيها إذا كان أندرسون قد جن. وحين اكتشف أن أندرسون تعاقد معي، على سبيل المضاربة الصرفة، بتوصية من جس روبنز، زاد ذلك من قلقه. كان لديه كوميديون يقبضون ٧٥ دولاراً في الأسبوع وكانوا الأفضل، وكانت الأفـلام التي يصورونهـا تغطي أكـلافها بـالضبط. لكل تلك الأسبـاب، لم يكن سبور في شيكاغو.

لكن حين عاد أخيراً، تغدى في فندق كبير في شيكاغو مع بعض الأصدقاء الذين هنأوه لكونه تعاقد معي، مثيرين بذلك دهشته. فضلاً عن ذلك، كان يبدو أنهم كانوا في الستوديو يقومون بدعاية استثنائية حول اسم شارلي شابلن. وقد تخيل إذاً القيام بتجربة، فأعطى ٢٥ سنتاً لأحد صبية الفندق كي يناديني عبر كل أنحاء الفندق. وبما أن هذا كان يجتاز البهو وهو يصيح: «السيد شارلي شابلن مطلوب»، بدأ الناس يتجمعون، وساد نوع من البلبلة. وقد كان ذلك هو المؤشر الأول بصدد شعبيتي. أما الثاني فكان ما حصل على صعيد الموزعين في غيابه. فلقد لاحظ أنه حتى قبل أن أبدأ فيلمي، كان هناك طلب على ستين نسخة، وهو أمر لم يسبق له مثيل؛ وحين أنهيته، كانوا قد باعوا ١٣٠ نسخة، فيما الطلبات تتدفق أيضاً وأيضاً. وقد زادوا السعر، الذي انتقل من ١٣ إلى ٢٥ سنتاً مقابل القدم الواحد.

حين ظهر سبور في الأخير، حدثته عن أجرتي وعلاوتي، فلم يعرف كيف يعتذر، وراح يشرح أنه طلب من مكتب الستوديو الاهتمام بكل الترتيبات المالية. لم يكن قد رأى العقد بعد، لكنه كان يفترض أن المكتب على علم بالموضوع. وقد أثارت غيـظي تلك القصة التي لا تحتمل التصديق، وقلت له بإيجاز:

ـ ممّ تخاف؟ يمكنك أن تتحرر من عقدك إذا أردت. . . وفي الواقع، يبدو لي أنك نسخته.

كان سبور رجلاً قوياً طويل القامة بديناً، وكان صوته ناعماً، كما كان بالإمكان أن يكون وسيماً لولا نوع من الرخاوة والشحوب في الوجه، وشفة عليا قـوية جـداً تستند إلى الشفـة السفلى. وقد قال لي:

ـ يحزنني أنك في هذا الوضع، لكن يجب أن تعلم يا شارلي أننا شـركة شـريفة، ونحترم دائماً تعهداتنا.

فأجبت:

ـ حسناً، لكن ليس هذا ما يجري الآن.

ـ سوف نسوّي كل ذلك على الفور.

فقلت بلهجة ساخرة:

ـ لست مستعجلاً.

خلال إقامتي القصيرة في شيكاغو، فعل سبور ما في وسعه لتهدئتي، لكنني لم أتوصل أبداً إلى التخلص من برودتي أمامه. وقد أوضحت له أني لا أحب العمل في شيكاغو، وأنه إن كان يريد الحصول على نتائج، عليه ترتيب الأمور بحيث اشتغل في كاليفورنيا.

ـ سوف نفعل كل شيء لتكون مسروراً. أيعجبك الذهاب إلى نايلز؟

لم يكن ذلك الاحتمال يمتعني، لكنني كنت أفضل أندرسون على سبور. وهكذا بعد أن أنهيت **His New Job**، مضيت إلى نايلز.

كان برونشو بيلي ينتج هناك كلَ أفلام الوسترن الخاصة به، وكانت أفلاماً ببكرة واحدة يصورها في يوم واحد. كانت لديه سبع عُقد يستعيدها باستمرار، وقد ربح بها عدة ملايين من الدولارات. كان يعمل بطريقة غير منتظمة، مصوّراً أحياناً سبعة وسترنات ببكرة واحدة في أسبوع، ليذهب بعد ذلك في عطلة تمتد ستة أسابيع.

كان هنالك حول ستوديو نايلز عدة بناغل[1] كاليفورنية صغيرة ابتناها برونشو بيلي للكوميديين، وبنغل كبير كان يحتله بنفسه. وقد قال لي إن في وسعي الاستقرار هناك إذا أعجبني ذلك، فسرَّني ذلك العرض كثيراً. ذلك أن السكن مع برونشو بيلي، الكاوبوي الميليارديرالذي استقبلني في شيكاغو في الشقة الفخمة الخاصة بزوجته، قد يجعل حياتي محتملة في نايلز.

كان قد حل الظلام، حين دخلنا إلى بنغله، وحين أشعل النور، أحسست بالصدمة. فلقد كان البيت فارغاً وبائساً. ففي غرفته، كان هنالك سرير حديدي قديم على رأسه مصباح يتدلى من السقف. أما باقي الأثاث فكان يتشكل من طاولة متخلخلة وكرسي وحيدة. وقرب السرير كان هناك صندوق وضعت عليه مرمدة نحاسية مليئة بأعقاب السجائر. وكانت الغرفة المخصصة لي شبيهة تقريباً، لكن ينقصها الصندوق المستخدم بمثابة طاولة قرب السرير. ولم يكن ثمة شيء يعمل. فغرفة الحمّام في وضع لا يوصف، وكان يجب أخذ إبريق وملؤه من حنفية المغطس لتشغيل طرّادة الماء. ثم يقولون إن ذلك مسكن ج. م. أندرسون، راعي البقر الميلياردير الكبير!

وقد توصلت إلى خلاصة مفادها أن أندرسون شخص غريب الأطوار. فالبرغم من ثروته، لم يكن يهتم إطلاقاً بأن يعيش حياة باذخة. فما كان يسليه إنما هي سيارات ذات ألوان وهاجة، أو أن يطلق ملاكمين، أو أن يمتلك مسرحاً ويخرج كوميديات موسيقية. وحين لم يكن يعمل في نايلز، كان يمضي معظم وقته في سان فرنسيسكو، حيث ينزل في فنادق صغيرة

---

(١) البنغل (bungalow) بيت من طابق واحد، في الريف أو على البحر (م).

متواضعة. لقد كان شخصاً غريباً، متردداً، شاذاً، مضطرباً، يبحث عن المتعة في حياة متوحدة. ومع أنه كانت لديه في شيكاغو زوجة وابنة ساحرتان، فنادراً ما كان يراهما. كانوا يعيشون كلٌ حياته الخاصة.

كان أمراً شاقاً أن ننتقل مرة أخرى من ستوديو إلى غيره، وكان يجب أن أشكل فريقاً جديداً، أي أن أجد عاملاً ميكانيكياً جيداً، ومساعد مخرج وفرقة منتظمة. وكان ذلك صعباً بوجه خاص، لأنه لم يكن ثمة خيار في نايلز. فبالإضافة إلى فرقة الكاوبوي الخاصة بأندرسون، كانت هناك فرقة أخرى في نايلز: فرقة كوميديين من دون عمل محدد تسمح بتشغيل الستديو وتغطية النفقات حين لا يكون أندرسون يصوّر. وكان فيها ١٢ ممثلاً، معظمهم كاوبويات. ومن جديد وجدت نفسي إزاء مشكلة اكتشاف فتاة جميلة للعب أدوار النجمة النسائية. ذلك أني كنت مستعجلاً لبدء العمل. ومع أنه لم تكن في رأسي قصة، طلبت أن يصنعوا لي ديكور مقهى. فحين كانت تنقصني الأفكار أو الإثارات الهزلية، كان وجود مقهى يساعدني كثيراً. وفي حين كانوا يبنونه، ذهبت إلى سان فرنسيسكو مع ج. م. أندرسون للبحث عن فتاة سينما من بين فتيات كوميدياه الموسيقية. ومع أن ذلك العمل كان ممتعاً، لم تكن بينهن واحدة متألقة. وقد قال كارل ستراوس، وكان كاوبوياً ألمانياً - أميركياً شاباً ووسيماً يعمل مع أندرسون، إنه يعرف فتاة تذهب من حين لآخر إلى مقهى تايت في هيل ستريت. لم يكن يعرفها شخصياً، لكنها كانت جميلة وربما لدى مالك المقهى عنوانها.

لم تكن شخصاً مجهولاً بالنسبة للسيد تايت. فلقد كانت تسكن مع أختها المتزوجة، وكانت من لافلوك في ولاية نيفادا، وكان اسمها إدنا پورڤيانس، وقد اتصلنا بها في الحال وتواعدنا للقاء في فندق سانت فرنسيس. كانت أكثر من جميلة، كانت رائعة. وخلال ذلك اللقاء، كانت تبدو حزينة ورصينة. وقد علمت في ما بعد أنها كانت تتعافى لتوها من عذاب حب. كانت قد أخذت دروساً عليا، ومن ثم دروساً في التجارة. كانت صامتة ومتحفظة، مع عينين واسعتين رائعتين، وأسنان جميلة وفم لطيف. وكانت تبدو كئيبة إلى حد أني تساءلت إذا كانت ستتمكن من التمثيل أو امتلاك قدر من الفكاهة. إلا أننا تعاقدنا معها أياً يكن، فقد تُقدِّم لأفلامي الهزلية عنصراً تزيينياً.

في اليوم التالي، عدنا إلى نايلز، لكن ديكور المقهى لم يكن جاهزاً، وما بنوه كان مريعاً وبدائياً جداً. كان بالإمكان القول إن الستوديو ينقصه الكثير على الصعيد التقني. وبعد أن أعطيت تعليمات للقيام ببعض التعديلات، رحت أبحث عن فكرة. فكرت في العنوان التالي **A night Out** - سِكّير يبحث عن المتعة - وكان ذلك كافياً للبدء. وقد أضفت نبع ماء إلى الملهى الليلي، مقدراً أني قد أتمكن من أن أستمد من ذلك بعض الإثارات الهزلية، واتخذت بن توربن كممثل ثانوي. وعشية أول يوم تصوير، دعاني عضو في الفرقة للعشاء. كان استقبالاً متواضعاً: بيرة وسندويشات. وقد كنا حوالي العشرين، وبيننا الآنسة بورفيانس. وبعد العشاء، شرع البعض يلعبون بالورق في حين جلس آخرون يثرثرون. وقد وصلنا في حديثنا إلى موضوع التنويم المغناطيسي، وتبجحت بأن لدي مواهب منوِّم. زعمت أني قادر في دقيقة واحدة على

تنويم أي من الحاضرين. ولقد كنت مقنعاً إلى حد أن الجميع صدقوني تقريباً، باستثناء إدنا، التي انفجرت ضاحكة، وقالت:

ــ دعك من هذا الكلام! لا أحد يستطيع تنويمي!

ــ بالضبط، قلت، أنت الشخص المثالي. وأنا أراهن على عشرة دولارات بأني سأنوِّمك في ستين ثانية.

ــ حسناً، أجابت أدنا. أنا أقبل بالرهان.

ــ الآن، إذا لم تشعري بعد ذلك بأنك على ما يرام، لن تلوميني على ذلك... لكن، بالتأكيد، فإن ذلك لن يكون خطيراً.

حاولت إخافتها لجعلها تتراجع، لكنها كانت مصممة. وقد رجتها إحدى النساء ألا تخضع للتجربة، وقالت لها:

ــ أنت عديمة الحذر.

قالت أدنا بهدوء:

ــ أنا لا أزال عند موقفي.

ــ جيد جداً»، قلت. أطلب منك أن تقفي، وظهرك مستند بقوة إلى الحائط، بعيداً عن كل العالم، بحيث لا يحرف انتباهَك أيُّ شيء.

انصاعت بابتسامة ساخرة. وكل الذين كانوا في الغرفة بدأوا الآن يهتمون بالتجربة. أما أنا فسألت:

ــ هل من أحد يتأكد من الوقت؟

ــ لا تنس، قالت أدنا، عليك أن تنومني في ستين ثانية.

ــ في ستين ثانية، ستكونين فاقدة للوعي تماماً»، أجبتها.

ــ هيا!» قال الموقِّت.

وفي الحال، قمت بحركتي تنويم أو ثلاث مشهدية، وأنا أنظر إليها في العينين مباشرة. ثم اقتربت من وجهها وهمست لها بحيث لا يسمعني أحد: «تظاهري!»، ثم استأنفت تنويماتي وأنا أقول:

ــ سوف تفقدين وعيك... أنت تفقدين الوعي، لقد فقدت الوعي!

وهنا، رجعت إلى الوراء، وبدأت هي تترنح. فسارعت إلى الإمساك بها بين ذراعي. وأطلق اثنان من الحضور صرخة.

ــ بسرعة!» قلت. «فليساعدني أحد لحملها إلى الأريكة».

وحين استعادت وعيها، تظاهرت بالدهشة وقالت إنها تحس بالتعب. في حين كان في وسعها الفوز في نقاشنا وإعطاء البرهان للجميع، تخلت بشهامة عن نصرها لأجل القيام بمزحة جيدة. وقد حازت لأجل ذلك تقديري ومودتي وأقنعتني بأن لديها حس الفكاهة.

صوّرت أربعة أفلام هزلية في نايلز. لكن بما أن تجهيز الستوديو كان ناقصاً، لم أكن

أشعر بالرضى ولا بأني مستقر حقاً هناك. لذا اقترحت على أندرسون الذهاب إلى لوس أنجلس حيث كان هناك تجهيز أفضل لإنتاج الأفلام. وقد قبل، لكن كذلك لسبب آخر: ذلك أني كنت أحتكر الستوديو، الذي لم يكن كبيراً كفايةً ولم يكن يضم ملاكاً كافياً من حيث العدد لفرقٍ ثلاث. وقد فاوض إذاً لاستئجار ستوديو صغير في بويل هايتس، في وسط لوس أنجلس بالضبط.

في الوقت الذي كنا فيه هناك، جاء شابان، مبتدئان في المهنة للتو، واستأجرا ستوديو هما أيضاً. كانا يسمّيان هال روش وهارولد لويد.

وبما أن قيمةَ أفلامي الهزلية التجارية كانت تتزايد مع كل فيلم، بدأت إيساناي تفرض شروطاً لم يسبق لها مثيل، طالبة من المستثمرين حداً أدنى مقداره خمسون دولاراً في الأسبوع، لأجل استئجار أفلامي التي على بكرتين. وكان ذلك يعني أنهم كانوا يحصلون على خمسين ألف دولار سلفاً عن كل فيلم.

ذات مساء، كنت قد عدت للتو إلى فندق ستول حيث كنت أنزل، وكان منشأة متواضعة لكن جديدة ومريحة، حين وصلتني مخابرة مستعجلة من الـ **Examiner** بلوس أنجلس. وقد قرأوا لي برقية من نيويورك جاء فيها: «نقدم لشابلن ٢٥ ألف دولار مقابل ١٥ دقيقة كل مساء على مدى أسبوعين في مضمار نيويورك. وهذا لن يمنعه من التصوير».

وقد اتصلت في الحال بأندرسون في سان فرنسيسكو. كان الوقت متأخراً ولم أتمكن من الكلام معه إلا في الثالثة صباحاً. حدثته عن البرقية، وسألته إذا كان يمنحني عطلة لمدة أسبوعين كي أتمكن من كسب هذه الـ ٢٥ ألف دولار. وقلت له إني قد أتمكن من بدء تصوير فيلم في القطار الذي سيمضي بي إلى نيويورك وإنهائه هناك. لكن أندرسون رفض.

كانت نافذة غرفتي تطل على ساحة الفندق الداخلية، بحيث حين كان أحد يتكلم كان صوته يدوّي في كل الغرف. وقد كان الاتصال سيئاً واضطررت للصياح مراراً:

ــ لا أنوي أن أترك فرصة كسب ٢٥ ألف دولار بمدة أسبوعين تفوتني!»

وقد انفتحت نافذة فوقي بقليل، وصاح صوتٌ بي:

ــ إذهب إلى النوم، أيها المدعي!

قال لي أندرسون على الهاتف إني إذا صورت لإيساناي فيلماً جديداً ببكرتين، سوف يدفعون لي ٢٥ ألف دولار. وقد وافق على المجيء إلى لوس أنجلس في اليوم التالي، لإعطائي الحوالة وتوقيع عقد. وما إن انتهت المخابرة حتى أطفأت النور، ورحت أنام. إلا أني تذكرت الصوت الذي كان قد ناداني، فنهضت وفتحت النافذة وصرخت:

ــ دعني أرك يا... هذا!

وصل أندرسون إلى لوس أنجلس في اليوم التالي مع حوالة بقيمة ٢٥ ألف دولار، أما الشركة النيويوركية التي كانت قدمت لي ذلك العرض المدهش فأعلنت إفلاسها بعد أسبوعين. كان حظي كبيراً.

الآن وقد عدت إلى لوس أنجلس، كنت أسعد بكثير. فمع أن ستوديو بويل هايتس كان في حي متواضع، كان يسمح لي ذلك بأن أبقى قريباً من أخي الذي كنت أراه من حين لآخر، في المساء. كان لا يزال لدى كيستون، وكان عقده على وشك الانتهاء، وذلك قبل شهر من انتهاء عقدي مع شركة إيساناي. كان نجاحي قد بلغ حداً بات سيدني معه يخطط لتخصيص كل وقته للاهتمام بشؤوني. كان يقال إن شعبيتي تزداد مع كل فيلم جديد. ومع أني كنت أعرف مدى نجاحي في لوس أنجلس انطلاقاً من الصفوف الطويلة أمام صناديق صالات السينما، فأنا لم أكن أدرك مداه في الأمكنة الأخرى. ففي نيويورك، كانوا يبيعون في كل الصيدليات لُعباً وتماثيل صغيرة لشخصي. وكانت فتيات زيغفلد فوليز يؤدين أدواراً على طريقة شابلن، مشوهات جمالهن بالإكثار من استخدام الشاربين، والقبعات المستديرة المنتفخة، والأحذية الكبيرة جداً، والسراويل المفرطة في الاتساع، ومغنياتٍ أغنية بعنوان **Those Charlie Chaplin's Feet**[1].

كانت تتدفق علينا أيضاً عروض تجارية من شتى الأنواع، تتعلق بكتب، وألبسة، وشموع، وألعاب، وسجائر، ومعجون أسنان. وكانت اكداس البريد الذي يرسله «المعجبون» تتراكم أيضاً، بحيث باتت تطرح مشكلة في الأخير. وكان سيدني يؤكد أنه يجب الرد على كل شيء، حتى لو كان ذلك يفرض تكاليف سكرتيرة إضافية.

نصح سيدني أندرسون ببيع أفلامي خارج الإنتاج العادي. كان يبدو من غير العادل أن يذهب كل الربح إلى المستثمرين. فمع أن إيساناي كانت تبيع مئات النسخ من أفلامي، كان ذلك يتم وفقاً لنسق التوزيع الكلاسيكي. وقد اقترح سيدني اتباع تعرفات مختلفة في الصالات الكبرى، انطلاقاً من عدد المقاعد. فبفضل هذه الطريقة، يمكن أن تزيد إيرادات كل فيلم إلى حدود مئة ألف دولار أو أكثر. أما أندرسون فكان يعتقد باستحالة ذلك، إذ إنه سيتعارض مع سياسة كل الموشن بيكتشر تراست، الذي يجمع ١٦ صالة، والذي كانت قواعده وطرق شرائه للأفلام لا تتغير. فالقليل من المستثمرين قد يوافقون على شروط كهذه.

بعد وقت قصير، أعلنت الموشن بيكتشر هيرالد أن إيساناي تخلت عن طريقة بيعها القديمة، وأن الشروط ستكون متناسبة ـ تماماً كما نصح بذلك سيدني ـ مع عدد المقاعد في كل صالة. وبالضبط كما توقع سيدني، رفع ذلك الإيرادات إلى مئة ألف دولار لكل من أفلامي. وقد جعلني ذلك الخبر أنتبه إلى ما يجري. وبما أني لم أكن أقبض أكثر من ١٢٥٠ دولاراً في الأسبوع، في حين أنا الذي أقوم بدور واضع السيناريو، والممثل والمخرج، بالكامل، بدأت أقول إني أنهك نفسي، وإني بحاجة لوقت أكبر لتصوير أفلامي. كنت مرتبطاً بعقد لمدة عام، وأنتجت أفلاماً بوتيرة واحد كل أسبوعين أو ثلاثة أسابيع. وسرعان ما جاء الرد من شيكاغو، إذ ركب سبور قطاراً إلى لوس أنجلس، وبهدف التشجيع وقّع معي عقداً يمنحني

(٢) قدما شارلي شابلن هاتان! (م).

بموجبه علاوة مقدارها عشرة آلاف دولار عن كل فيلم. وبفضل هذا المنشط، تحسنت صحتي بسرعة.

في تلك الفترة تقريباً، أنتج د. و. غريفيث ملحمته، **ولادة أمة**، وهو الأمر الذي جعل منه أعظم مخرج في ذلك الزمن: لا شك أنه كان أحد عباقرة السينما الصامتة. ومع أن أسلوبه كان ميلودرامياً، لا بل مبالغاً به وعبثياً في بعض الأحيان، فلقد كانت لأفلامه فرادة تجعلها جديرة كلها بأن تشاهد.

وكان دوميل قد قام ببدايات واعدة، مع **The Whispering chorus** (الجوقة الهامسة)، ونسخة عن **كارمن**، لكن بعد **Male and Female** (الذكر والأنثى)، لم يتجاوز يوماً مستوى الصالون الصغير ومخزن البياضات. إلا أني كنت شديد التأثر بنسخته عن **كارمن**، بحيث جعلت منها كوميديا على بكرتين، كانت آخر فيلم لي في شركة إيساناي. وبعد رحيلي، أضافوا من جديد كل ما كنت ألغيته خلال المونتاج ليجعلوا من ذلك فيلماً على أربع بكرات، وهو الأمر الذي أرعبني وأمرضني لمدة يومين. ومع أن ذلك كان يفتقد الشرف من جانبهم، فقد أدى لي خدمة؛ إذ صرت أشترط بعد ذلك في كل عقودي ألا يجري أي بضع، أو إطالة، أو تعديل لأفلامي بعد إنجازها.

وبما أن عقدي كان يقترب من نهايته، وصل سبور من لوس أنجلس حاملاً عرضاً قال إن أحداً لا يمكنه أن يقدمه لي. بموجب ذلك العرض يعطيني ٣٥٠ ألف دولار إذا صورت ١٢ فيلماً ببكرتين، على أن يتحمل هو كل تكاليف الإنتاج. وقد أجبته بأني أريد أن يدفع لي سلفاً عند توقيع أي عقد، علاوة مقدارها ١٥٠ ألف دولار. وقد وضع ذلك حداً لنقاشاتي مع سبور.

المستقبل، المستقبل... المستقبل الرائع! إلى أين كان يقودني؟ كانت الآفاق المفتوحة أمامي باهرة. فالنجاح والمال كانا يتدفقان كالسيل، وكان كل ذلك مثيراً للجنون، مرعباً، لكنه رائع.

في حين كان سيدني في نيويورك لدراسة عروض متنوعة، كنت أنهي **كارمن**، وأسكن في سانتا مونيكا في بيت يطل على البحر. وفي بعض الأمسيات، كنت أتعشى في مقهى نات غودوين في طرف مكسر سانتا مونيكا. كان نات غودوين يعتبر كأعظم ممثل للكوميديا الخفيفة على المسرح الأميركي. كان قد أمضى حياة مهنية لامعة جداً كممثل شكسبيري، ثم ككوميدي. وكان صديق السير هنري إيرفينغ الحميم وتزوج ثماني مرات، وفي كل مرة امرأة مشهورة بجمالها. أما زوجته الخامسة فكانت ماكساين إيليوت التي كان يدعوها على سبيل المزاح «السناتور الروماني». «لكنها كانت جميلة ومرموقة الذكاء»، حسبما كان يقول. كان رجلاً ساحراً ومثقفاً، ويتمتع بحس عميق للفكاهة. وقد تقاعد عن العمل منذ بعض الوقت، بسبب تقدمه في السن. ومع أني لم أره يوماً على الخشبة، كان لدي احترام عظيم لشخصه، كما لصيته الكبير.

صرنا صديقين حميمين، وكنا نتنزه معاً في أمسيات الخريف الباردة على طول المحيط.

وكان ذلك البحر المحزن والكئيب يجعل حماسي أكثر اتقاداً. وحين عرف أني سأمضي إلى نيويورك بعد إنجاز فيلمي، قدم لي نصائح ممتازة.

ـ لقد حصلت على نجاح خارق، ولديك حياة رائعة أمامك إذا عرفت كيف تقود مركبك... حين تصل إلى نيويورك، تحاش برودواي، تحاش الجمهور. إن خطأ العديد من الممثلين الناجحين، هو الرغبة في أن يراهم الناس ويعجبوا بهم. لكن ذلك لا يفعل غير تدمير الأوهام! (كان يتكلم بصوت منخفض ورنان). سوف يوجهون إليك الدعوات من كل مكان، لكن تحاش القبول. اختر صديقاً أو صديقين، واكتفِ بتخيل الباقي. لقد اقترف أكثر من ممثل كبير خطأ قبول كل الدعوات. فجون درو، على سبيل المثال، كان شعبياً جداً في المجتمع، وكان يذهب إلى بيوت كل هؤلاء الناس، لكنهم، هم، لم يكونوا يذهبون إلى مسرحه، إذ كان موجوداً في صالوناتهم. لقد فتنت الناس، ويمكنك الاستمرار في ذلك إذا بقيت بعيداً عن ناس المجتمع.

هذا ما خلص إليه بكآبة.

لقد كانت تلك أحاديث رائعة، مع بعض الحزن، كنا نتبادل أطرافها في نزهاتنا في غسق الخريف على الرمال المقفرة؛ وكان نات في نهاية حياته المهنية، وأنا في بداياتي.

بعد أن أنهيت مونتاج فيلم كارمن حزمت حقيبة صغيرة وانطلقت مباشرة من مقصورتي إلى محطة القطارات، لأركب قطار الساعة السادسة إلى نيويورك، وقد أرسلت برقية في غضون ذلك إلى سيدني لإعلامه بالأمر.

كان قطاراً بطيئاً قطع المسافة في خمسة أيام. كنت وحيداً في مقصورة، وفي ذلك الحين لم يكن الناس يتعرفون عليَّ حين لا أكون واضعاً الماكياج. كنا نتبع طريق الجنوب، عبر آمارِيُو، في التكساس، إلى حيث وصلنا في السابعة مساء. كنت قد قررت الحلاقة، لكن ركاباً آخرين كانوا يشغلون المغاسل قبلي واضطررت للانتظار. لذا كنت لا أزال بلباسي الداخلي حين اقتربنا من أمارِيُو. كنا ندخل إلى المحطة حين فاجأتنا حركة مجنونة تعم المكان. وإذ ألقيت نظرة من نافذة المغاسل، رأيت أن الأرصفة مزدحمة بجمع كبير. كانت أعلام ورايات ترفرف في كل مكان، وعلى الرصيف كانت طاولات طويلة فوقها مرطبات. وقد قلت في نفسي إن من المؤكد أن الناس يحتفلون بقدوم واحد من أعيان المنطقة أو برحيله، فبدأت إذاً أصوبن وجهي. لكن الهياج كان يزداد باضطراد وسمعت فجأة بوضوح تام أصواتاً تقول: «أين هو؟». ثم تدفق جمهور داخل القطار، وراحوا يتحركون في المماشي وهم يزعقون:

ـ أين هو؟ أين هو شارلي شابلن؟

ـ أنا هنا»، قلت.

ـ باسم عمدة أماريُو وكل المعجبين بك، ندعوك للمجيء وأخذ المرطبات معنا.

فاجتاحني ذعر مفاجيء، وقلت وعلى وجهي رغوة صابون الحلاقة:

ـ لا أستطيع وأنا في هذا الوضع!

ـ آه! لا عليك، شارلي. ضع فقط مِبْذلاً وتعال.

شطفت الصابون بسرعة، وبوجه نصف حليق، وضعت قميصاً وربطة عنق ونزلت من القطار وأنا أزرر سترتي.

استقبلتُ بالهتافات، وحاول العمدة أن يتكلم:

ـ سيد شابلن، باسم المعجبين بك في أماريو...

لكن هتافات متواصلة غطت على صوته، فعاد من جديد:

ـ سيد شابلن، باسم المعجبين...

وفي تلك اللحظة، تزاحم الحشد، دافعاً العمدة في اتجاهي، وساحقاً إيانا على القطار، بحيث بات شغل العمدة الشاغل، في تلك اللحظة، حماية أمني الشخصي، وليس إلقاء خطاب ترحيبي.

ـ تراجعوا!»، كانت الشرطة تصيح وهي تندفع عبر الحشد لتشق طريقها إلينا.

كان العمدة قد فقد حماسه، وتوجه بالكلام، مع شيء من الحدة، إلى رجال الشرطة وإليّ.

ـ جيد جداً، يا شارلي، فلنكمل ما علينا، ثم يكون في وسعك العودة إلى قطارك.

وبعد تدافع عام نحو الطاولات، هدأت الأمور قليلاً، وتمكن العمدة أخيراً من إلقاء خطابه. فضرب على الطاولة بملعقة قائلاً:

ـ سيد شابلن، إن أصدقاءك في أماريو بالتكساس، يريدون إبداء اعترافهم بالجميل بسبب كل الفرح الذي منحتهم إياه، بدعوتك لشرب زجاجة كوكا ـ كولا وأكل ساندويش معنا.

وبعد هذا الخطاب القصير، سألني إذا لم أكن أريد أن أقول بضع كلمات، مصراً على أن أرتقي الطاولة التي غمغمت من فوقها شيئاً مفاده أني مسرور بوجودي في أماريو، وأني تأثرت كثيراً بهذا الاستقبال الحار جداً، وسوف أتذكره حتى آخر حياتي، الخ. ثم جلست وحاولت تبادل بعض الكلمات مع العمدة.

سألته كيف عرف بقدومي.

ـ بواسطة موظفي التلغراف»، أجاب، موضحاً أن البرقية التي أرسلتها إلى سيدني مرت بأماريو، فكانساس سيتي، فشيكاغو، لتحويلها في ما بعد إلى نيويورك، وأن موظفي دائرة التلغراف أوصلوا الخبر إلى الصحافة.

بعد أن عدت إلى القطار، جلست في مكاني بتواضع، وأنا أحس بالفراغ. ثم اكتسح الجمهور المقطورة، وراح الناس يتدفقون في المماشي، وهم يتأملونني ويضحكون. أما أنا فلم أكن أتوصل إلى استيعاب ما حدث في أماريو، ولا إلى الاستمتاع به حقاً. كنت مشدود الأعصاب كثيراً، وقد بقيت جالساً، متوتراً وفي الوقت ذاته مفتوناً ومكتئباً.

قبل رحيل القطار، جرى تسليمي عدة برقيات. كانت إحداها تقول: «أهلاً وسهلاً، شارلي،

ننتظرك في كانساس سيتي». وتقول أخرى: «سوف تنتظرك سيارة ليموزين في شيكاغو لنقلك من محطة إلى أخرى». وثالثة: «هل تسمح بقضاء الليل في بلاكستون أوتيل حيث ستكون في ضيافة الإدارة؟» وإذ كنا نقترب من كنساس سيتي، رأيت الناس متسمرين عند سكة الحديد، وهم يصرخون ويحيون بقبعاتهم.

. كانت المحطة الكبرى في كنساس سيتي مزدحمة بالمتسكعين. وكانت الشرطة تجد صعوبة في احتواء الحشد الذي كان يتجمع في الخارج. وقد وضعوا سُلَّماً على القطار كي أتمكن من الصعود إلى السقف والظهور أمام الجمهور. وفوجئت بنفسي وأنا أكرر السخافات ذاتها التي قلتها في أماريو. وكانت برقيات أخرى تنتظرني: هل أقبل بزيارة المدارس والمعاهد؟ وكنت أحشو حقيبتي بها على أمل أن أجيب عنها في نيويورك. ومن كنساس سيتي إلى شيكاغو، كان هناك أيضاً أناس في المحطات وفي الحقول يلوِّحون لدى مرور القطار. كان بودي أن أتلذذ بذلك بصورة كاملة، لكنني لم أنفك أفكر بأن العالم صار مجنوناً! فإذا كانت بضع كوميديات هزلية بائسة تتسبب بهذا القدر من الحماس، أليس ثمة شيء زائف في الشهرة؟ كنت قد فكرت دائماً بأني أحب أن أحظى بالشعبية، والآن وقد حصلت عليها، عبر مفارقة غريبة، كنت أحس بالعزلة وبنفسي فريسةً لشعور رازح بالوحدة.

وفي شيكاغو، حيث كان يجب تغيير القطار والمحطة، كانت الحشود تقيم سياجاً عند الخروج، وراحت تهتف لي في حين كنت أتخذ لي مكاناً في سيارة ليموزين. وقد ذهبوا بي إلى فندق بلاكستون حيث حجزت لي شقة كي أتمكن من أخذ قسط من الراحة قبل الانطلاق مجدداً إلى نيويورك.

وفي بلاكستون، كانت تنتظرني برقية من رئيس شرطة نيويورك، يرجوني فيها أن أنزل في محطة الشارع رقم ١٢٥، بدل الوصول إلى غراند سنترال ستاشن كما كان متوقعاً، لأن حشوداً كبيرة تتجمع هناك.

وفي الشارع ١٢٥، كان سيدني ينتظرني مع سيارة، وهو متوتر وثائر الأعصاب. وقد راح يتكلم بصوت مخنوق:

ــ ما رأيك؟ الناس يتجمعون منذ هذا الصباح حول غراند سنترال، والصحافة تصدر نشرات يومية مذ غادرت لوس أنجلس.

وقد أراني صحيفة تعلن بأحرف كبيرة: «لقد وصل!» وفي عنوان آخر: «شارلي يتخَفَّى!» وخلال قطع المسافة إلى الفندق، أخبرني أنه أجرى اتفاقاً مع الميوتوال فيلم كوربورايشن على مبلغ ٦٧٠ ألف دولار على أساس عشرة آلاف دولار أسبوعياً، وبعد أن تتم الزيارة الطبية لشركة التأمين، سوف أحصل على علاوة بقيمة ١٥٠ ألف دولار عند توقيع العقد. كان لديه موعد للغداء مع المحامي، وسيكون عليه العمل معه في بقية النهار. سوف يوصلني إذاً إلى البلازا، حيث حجز لي غرفة، على أن يراني في صباح اليوم التالي.

كما يقول هاملت: «الآن أنا وحدي». في بعد ظهر ذلك اليوم، تنزهت في الشوارع،

وأنا أتطلع إلى الواجهات وأتوقف في زاوية الشوارع. وقد قلت في نفسي: تُرى، ما الذي يحصل لي؟ كنت في ذروة حياتي المهنية... وأنا في الواحدة والثلاثين، وليس لديّ مكان أذهب إليه. كيف نفعل للتعرف إلى أناس مثيرين للاهتمام؟ كان لدي شعور بأن كل الناس يعرفونني، لكنني لم أكن أعرف أحداً. وقد بدأت أفكر في قدري، وأتأثر، ثم اكتسحتني موجة من الكآبة. تذكرت كوميدياً من فترة كيستون كان قد نجح في حياته المهنية، وقد قال لي يوماً:

ـ الآن وقد وصلنا، يا شارلي، إلى أين نتقدم؟

ـ وصلنا إلى أين؟»، أجبته.

كنت أفكر في نصيحة نات غودوين: «تحاش برودواي». بالنسبة لي، كانت برودواي صحراء. فكرت في أصدقاء قدامى قد يكون بودي التقاؤهم في غمرة هذا النجاح المجنون... لكن هل كان لدي أصدقاء قدامى في نيويورك، أو لندن، أو مدن أخرى؟ كنت أرغب في جمهور أختاره بنفسي: ربما هيتي كيلي. لم تصلني أخبارها منذ بدايات عملي في السينما. قد تسليني ردود فعلها.

كانت تعيش في نيويورك مع شقيقتها، السيدة فرانك ج. غولد. وقد رحت أسير صُعُداً في الجادة الخامسة: كانت أختها تسكن في ٨٣٤. توقفت أمام المنزل، متسائلاً إذا كانت هيتي هناك، لكنني لم أجرؤ على قرع الجرس. ربما ستخرج ويمكن أن ألتقيها صدفة. انتظرت نصف ساعة وأنا أروح وأجيء، لكن لا أحد دخل ولا أحد خرج.

ذهبت إلى مطعم تشايلدس، في كولومبوس سوركل، حيث طلبت حلويات وفنجان قهوة. وقد لبوا طلباتي بنوع من اللامبالاة إلى حين طلبت من النادلة مزيداً من الزبدة. بعد ذلك، حصل رد فعل متسلسل حقيقي إلى حين شرع كل الزبائن وكل مِلاك المطعم، بمن فيهم الطاهي، يتفحصون وجهي. وقد انتهى بي الأمر إلى الاضطرار لشق طريق عبر حشد تجمع في الداخل وفي الخارج، ومن ثم الهرب بعد أن أوقفت سائق تاكسي كان ماراً من هناك.

خلال يومين، تنزهت في نيويورك من دون مصادفة أي شخص أعرفه، متذبذباً بين إثارة مليئة بالفرح واكتئابٍ عميق. بيد أن طبيب شركة التأمين كان قد فحصني، ووصل سيدني بعد أيام إلى الفندق وهو مستبشر.

ـ كل شيء على ما يرام، فالفحص الطبي مُرض.

ثم جاءت شكليات توقيع العقد. وقد صورني وأنا أتسلم حوالة الـ ١٥٠ ألف دولار. وفي ذلك المساء، نظرت وسط جمهور تايمز سكواير إلى ذلك الخبر وهو يمر على صفحة الجريدة الضوئية لمبنى التايمز: «شابلن يوقع مع الميوتوال عقداً بقيمة ٦٧٠ ألف دولار سنوياً». وقد بقيت هناك أقرأ الخبر بصورة موضوعية كما لو كان الأمر يتعلق بشخص آخر. كانت قد حدثت لي أشياء كثيرة بحيث استنفدت انفعالاتي.

الوحدة هي نوع من العيب: يفوح منها عطر كآبة خفيف، شيء لا يجتذب أحداً ولا يثير اهتمام أحد؛ يخجل منها المرء قليلاً. لكنها، إلى حد يكبر أو يصغر، موضوعة يشترك بها الجميع. بيد أن وحدتي كانت مزعجة، لأنه كان لدي كل ما يلزم للحصول على أصدقاء. كنت شاباً، وثرياً، وشهيراً، ومع ذلك كنت أتيه في نيويورك وحيداً ومرتبكاً. أذكر أني التقيت الجميلة جوزي كولينز، النجمة الإنكليزية للكوميديا الموسيقية، فيما كنت أتنزه في الجادة الخامسة، فصاحت بلهجة يخالطها الرثاء:

ـ آه! ماذا تفعل هكذا لوحدك؟

تكوَّن لدي شعور بأنهم فاجأوني وأنا أرتكب جرماً صغيراً. فابتسمت قائلاً إني أستعد للذهاب وتناول الغداء مع أصدقاء. وقد كان بودي أن أقول لها الحقيقة، أي أني أحس بالكثير من الوحدة، وكم كنت أحب أن أصطحبها إلى الغداء، لكن حيائي منعني من ذلك.

بعد ظهر اليوم ذاته، ذهبت أتنزه في جهة المتروبوليتان أوبرا، وصادفت موريس غست، صهر دافيد بيلاسكو. سبق أن تعرفت إلى موريس في لوس أنجلس، وكان بدأ حياته المهنية في إعادة بيع البطاقات، وكانت مهنة مزدهرة حين وصلت إلى نيويورك: كان معيد البيع رجلاً يشتري أفضل المقاعد ويعيد بيعها على باب المسرح مع ربح. وكان موريس قد عرف صعوداً صاعقاً كمنتج مسرحي، ووصل إلى الذروة مع عرض مسرحي كبير، **الأعجوبة**، من إخراج ماكس راينهاردت. كان موريس سلافياً ذا وجه شاحب وعينين كستنائيتين كبيرتين، وكان لديه فم واسع وشفتان ضخمتان، يبدو معهما كما لو كان كاريكاتوراً لأوسكار وايلد. كان رجلاً سريع التأثر، إذا كلمك يبدو كما لو هو ينهكك، وقد فاجأني بالسؤال:

ـ من أين مررت؟

ومن دون أن يترك لي فرصة للجواب، أضاف:

ـ لماذا لم أتلق إذاً أي خبر منك؟

وقد شرحت له أني كنت أتنزه بكل بساطة.

ـ كيف ذلك؟ لا يجب أن تسير لوحدك؟ إلى أين تذهب؟

أجبت بطريقة تدعو للرثاء:
ــ لا أذهب إلى مكان محدد. كنت أتنشق الهواء في الخارج، هذا كل شيء.
ــ تعال!»، قال وهو يدور بـي في الاتجاه الذي يسلكه، وقد تأبط ذراعي بحيث لم أعد أستطيع الإفلات منه. ثم أضاف «سوف أقدمك لما أسميه أناساً. . . ذلك النوع من الناس الذين يجب أن تراهم».
ــ إلى أين نذهب؟» سألته بقلق. فقال:
ــ سوف تتعرف إلى صديقي كاروزو.
وقد ذهبت احتجاجاتي سدى.
ــ إنهم يعرضون اليوم كارمن في حفلة النهار مع كاروزو وجيرالدين فارار.
ــ لكنني. . .
ــ تبّاً! لن تقول لي إنك خائف! كاروزو شخص رائع. . . بسيط وإنساني مثلك أنت. وسوف يسره كثيراً أن يلتقيك، وسوف يرسمك، سترى. . . .
حاولت أن أُفْهمه أني أريد المشي واستنشاق الهواء.
ــ سوف ينفعك هذا أكثر من استنشاق الهواء!
ووجدت نفسي وهو يجرني بخطوات كبيرة عبر صالة المتروبوليتان أوبرا، متوجهاً بـي إلى مقعدين فارغين.
ــ إجلس هنا». همس لي غيست. سوف أعود عند الاستراحة.
ثم اجتاز المقاعد صُعُداً، وبسرعة، واختفى.
كنت قد سمعت مراراً موسيقى كارمن، لكني لم أتعرف عليها في ذلك اليوم. تأملت برنامجي: كان اليوم هو الأربعاء، وفي ذلك اليوم كان ثمة إعلان عن كارمن. لكن كان يجري عزف لحن آخر اعتقدت أني أتعرف عليه وكان يشبه بالأحرى ريغوليتو. كنت مضطرباً، وقبل دقيقتين من انتهاء أول فصل، انزلق غيست إلى المقعد الفارغ قربـي. فتمتمت:
ــ أهذه كارمن؟
ــ نعم»، أجاب. أليس معك برنامج؟
ثم انتزع البرنامج من يدي، وقال:
ــ لكن أجل، كاروزو وجيرالدين فارار، في الحفلة النهارية يوم الأربعاء، كارمن. . . . أنظر!
وسقط الستار ودفع غيست بـي نحو باب يؤدي إلى الكواليس.
كان هناك رجال ينتعلون أحذية من اللبد يغيّرون الديكورات بحيث تولد لدي الشعور بأني في ساقيهم. كان يخيل للمرء أنه في جو حلم غريب. ووسط كل ذلك، كانت تطفو قامة رجل كبير الجسم قويّه، رصين وصارم، مع لحية مروّسة وعيني جاسوس كانتا تراقبانني من عل. كان متسمراً وسط الخشبة، يبدو عليه الاهتمام، في حين تدور قِطَع ديكور حوله.

ـ كيف حال صديقي الممتاز السينيور غاتيكاسازا؟»، قال موريس غيست وهو يمد إليه يده.

شد غاتي ـ كاسازا على يده، وبدرت منه حركة متحررة من الوهم، وغمغم. واستدار غيست نحوي قائلاً:

ـ أنت على حق، لم تكن **كارمن** بل **ريغوليتو**. فلقد تلفنت جيرالدين فارار في اللحظة الأخيرة لتقول إنها أصيبت بالرشح»، ونظر غيست إلى غاتي ـ كاسازا وأضاف: «أقدم لك شارلي شابلن. أتيت به لرؤية كاروزو، ربما يجعله ذلك أكثر مرحاً. تعال إذاً معنا.

لكن غاتي ـ كاسازا هز رأسه.

ـ أين مقصورته؟

هنا نادى غاتي ـ كاسازا مدير المسرح:

ـ سوف يدلكم.

كانت غريزتي تنصحني بعدم إزعاج كاروزو في لحظة كتلك، وأعلمت غيست بذلك، فقال:

ـ أتعتقد!

ورحنا نتلمس طريقنا في الممشى وصولاً إلى مقصورة كاروزو.

ـ هنالك من أطفأ النور»، قال المدير. لحظة، فسوف أبحث عن مبدِّل التيار.

ـ أصغ إلي، قال لي غيست، هناك أناس ينتظرونني، ويجب أن أذهب.

فسألته في الحال:

ـ لن تغادر، أليس كذلك؟

ـ سوف تتدبر أمرك جيداً.

ومن دون أن يترك لي الوقت للإجابة، اختفى، تاركاً إياي في الظلام الكامل. فأشعل المدير عود ثقاب.

ـ ها قد وصلنا»، قال وهو يقرع بلطف على أحد الأبواب.

ومن الداخل، أرعد صوت باللغة الإيطالية، فأجاب دليلي باللغة ذاتها متلفظاً بجملة لم أفهم منها إلا الكلمتين الأخيرتين «شارلي شابلن».

وانفجر الإيطالي من جديد.

ـ إسمع»، تمتمت، «سوف أعود في مرة ثانية».

ـ كلا، كلا!»، قال المدير الذي كان يشعر الآن بأن لديه مهمة يجب أن يؤديها.

انشق الباب، وتفحصتنا المُلْبِسة، فشرح صاحبي بنبرة مغمومةٍ مَن أكون.

ـ آه!»، قالت الملبسة، ثم أغلقت الباب لتفتحه بعد ذلك مجدداً. أدخلوا، أرجوكم!

بدا ذلك النصر الصغير كما لو كان يعطي مرافقي أجنحة. وحين دخلنا، كان كاروزو

جالساً إلى منضدة الزينة الخاصة به أمام مرآة، وكان يشذب شاربيه مديراً لنا ظهره.

ـ آه، سينيور»، قال دليلي بمرح. أنا سعيد بأن أقدم لكم كاروزو السينما، السيد شارلي شابلن.

فهز كاروزو رأسه في المرآة، وبقي يشذب شاربيه.

وأخيراً نهض وقاسني من رأسي إلى قدميَّ فيما هو يشد حزامه.

ـ أنت تحوز نجاحاً كبيراً، أليس كذلك؟ أنت تكسب المال الكثير؟

ـ أجل»، قلت وأنا أبتسم.

ـ لا بد أنك مسرور جداً.

ـ بالطبع. (واستدرت نحو مدير المسرح).

ـ حسناً»، قال بمرح، وهو يفهمنا بأن الوقت حان لكي نغادر.

فنهضت، ثم ابتسمت لكاروزو.

ـ لا أريد أن يفوتني مشهد مصارع الثيران.

ـ هذا في كارمن، أما اليوم فنحن نلعب ريغوليتو»، قال وهو يشد على يدي.

ـ أجل، بالطبع! هاها!

كنت قد استوعبت من نيويورك كل ما أستطيع أن أستفيد منه بصورة ممتعة، مع أخذ الظروف بالاعتبار، وكنت أفكر بأنه آن أوان الرحيل قبل أن تبدأ بالشحوب لذائذ معرض الأباطيل. فضلاً عن ذلك، كنت مستعجلاً لبدء العمل وفقاً لبنود عقدي الجديد.

حين عدت إلى لوس أنجلس، نزلت في الألكسندريا أوتيل، في تقاطع ماين ستريت والشارع الخامس، وكان أفخم فندق في المدينة. كان من الأسلوب المحاري الأكثر نقاء: أعمدة من المرمر، وثريات من الكريستال تزين البهو، الذي كانت تمتد في وسطه السجادة الشهيرة، «سجادة المليون دولار» ـ مكة الأعمال الكبرى للسينما ـ التي كانوا يسمُّونها هكذا بصورة فكاهية بسبب جمهور مؤسسي الأعمال ومدراء المسارح الذين يزدحمون هناك ويتناقشون في أرقام خيالية.

لم يمنع ذلك أبراهامسون من كسب ثروة على تلك السجادة عن طريق بيع بالرخص لأفلام من إنتاج الستايت رايت كان يحققها في شروط اقتصادية، باستئجار ستوديوات وتشغيل ممثلين من دون عقد. وكانت تلك الأفلام نتاج ما كانوا يسمونه «بولفار المفلسين». وكان المرحوم هاري كوهن، مدير الكولومبيا، بدأ هو أيضاً في بولفار المفلسين.

كان أبراهامسون واقعياً؛ وكان يعترف بأنه لا يهتم بالفن بل بالمال فقط. كان ذا لهجة روسية رهيبة، وحين كان يُخرج أفلامه، كان يصيح بالنجمة النسائية: «هيا، هيا، سوف تصلين الآن من المؤخررة (أي من الجهة الخلفية). تقتربين من المرآآة، وتنظررين إلى نفسك. أووه! كم أنا جميلة! الآن، تطرررزين على عشرين قدماً (أي بتعبير آخر: ترتجلين على مدى عشرين قدماً من الفيلم)». وكانت البطلة عموماً شابة أنعمت عليها الطبيعة، وكان الديكولتيه

السَّخي يكشف أقصى الفتنة. كان يقول لها أن تستدير نحو الكاميرا، وتنحني لربط شريط حذاء، أو هز سرير طفل أو مداعبة كلب. وقد جمع أبراهامسون هكذا مليوني دولار، وكان من الحكمة بحيث تقاعد.

وقد جعلت السجادة السحرية سيد غرومان Sid Grauman يأتي من سان فرنسيسكو للتفاوض على بناء صالاته السينمائية بمليون دولار. كان سيد يزدهر وتزدهر معه المدينة في الوقت نفسه. كان لديه حس الدعاية الشاذة، وقد أذهل ذات يوم لوس أنجلس بأن أطلق عبر المدينة سيارتي تكسي تطاردان إحداهما الأخرى، ويتبادل ركابهما الرصاص الخلبي، في حين تعلن يافطة على ظهر السيارتين: «**طبقة اللصوص في** سينما غرومان الجديدة».

كان مزدحماً بالأفكار. وهو الذي تخيل أخذ بصمات أيدي نجمات هوليوود وأقدامهن وطبعها على الاسمنت الرطب أمام مسرحه الصيني؛ ولا ندري لماذا فعلت النجمات ذلك، وقد صار ذلك شيئاً مكرساً بأهمية تلقي الأوسكار.

يوم وصولي إلى أوتيل الكسندريا سلمني موظف الاستقبال رسالة من الآنسة مودفيلي، الممثلة المشهورة التي كانت شريكة السير هنري إيرفنتغ ووليم جيليت؛ وكانت تدعوني إلى عشاء تقيمه يوم الأربعاء اللاحق للباڤلوڤا، في أوتيل هوليوود. وبالطبع سرني ذلك كثيراً، فأنا لم يسبق أن التقيت الآنسة فيلي، لكنني كنت قد شاهدت بطاقات بريدية تحمل صورتها في كل لندن وكنت معجباً بجمالها.

عشية العشاء، طلبت من سكرتيرتي أن تخابر لمعرفة إذا كان الأمر يتعلق بعشاء غير رسمي أو أن عليَّ ارتداء اللباس الرسمي. فسألت الآنسة فيلي:

– مِن قبل من؟
– أنا سكريتيرة المستر شابلن الذي سيتعشى معك يوم الأربعاء....

فبدت الآنسة فيلي، عندئذ، كما لو طار صوابها، وقالت:
– أوه! من دون رسميات، إطلاقاً!

كانت الآنسة فيلي تنتظرني على مدخل فندق هوليوود. كانت لا تزال تحتفظ بسحرها، وقد بقينا حوالي نصف ساعة نثرثر في مواضيع شتى، وبدأت أتساءل متى سيصل باقي المدعوين. أما هي فقالت أخيراً:
– هل نبدأ بالعشاء؟

كنت بالغ الدهشة حين اكتشفت أننا سنتعشى لوحدنا!

فضلاً عن فتنة الآنسة فيلي، كانت عموماً شديدة التحفظ، وفيما كنت أنظر إليها عبر الطاولة، كنت أتساءل عن أسباب ذلك العشاء على انفراد. كانت أفكار جريئة وغير لائقة تدور في مخيلتي، لكنها كانت تبدو رفيعة المستوى إلى حد لا يتناسب مع الافتراضات التي رحت أبنيها. بيد أني بدأت أجس النبض لمعرفة ما هو مطلوب مني، فقلت بحيوية ومرح:

ـ إنه لطريف حقاً أن نتعشى هكذا على انفراد!

فلاحت على وجهها ابتسامة لطيفة. أما أنا فأضفت:

ـ فلنقم بشيء ما مسلٍ بعد العشاء. هلا ذهبنا إلى حانة ليلية.

فلاح على وجهها تعبير عن قلق خفيف، وترددت لتقول:

ـ ينبغي للأسف أن أنام باكراً هذا المساء، لأني سأبدأ غداً صباحاً تمرينات ماكبث.

أثار كلامها أضطرابي الشديد. ولحسن الحظ، قدموا لنا الطبق الأول، وأكلنا بصمت لبعض الوقت. كان ثمة شيء على غير ما يرام وكنا نعرف كلانا ذلك. وقد سكتت الآنسة فيلي برهةً ثم قالت:

ـ أخشى أن تكون هذه السهرة بدت لك حزينة.

ـ كلا، كلا، إنها لطيفة جداً»، أجبتها.

ـ آسف لأنك لم تكن هنا، قبل ثلاثة أشهر، على عشاء أقمته احتفالاً «بالپاڤـلوڤا، إحدى صديقاتك. لكن أظن أنك كنت آنذاك في نيويورك.

ـ اعذريني»، قلت وأنا أسحب رسالتها بسرعة من جيبي: وللمرة الأولى، تطلعت إلى التاريخ. ثم مددتها إليها وقلت ضاحكاً: «أنظري، لقد وصلت، متأخراً ثلاثة أشهر!»

كانت لوس أنجلس عام ١٩١٠ نهاية عصر الروّاد والأثرياء الكبار، ولقد سنحت الفرص ليستقبلني معظمهم.

كان هنالك، على سبيل المثال، المرحوم وليم أ. كلارك، وهو صاحب مليارات كان أحد أقطاب سكك الحديد وملك النحاس، وموسيقياً هاوياً يقدم كل عـام ١٥٠ ألف دولار للفيلارمونيك سيمفوني أوركسترا، التي كان فيها عازف كمنجة ثانياً.

وكان سكوتي، المولود في وادي الموت، شخصاً غريباً، رجلاً مفعماً بالفرح ذا وجه ممتلىء، يعتمر قبعة كاوبوي واسعة، ويرتدي قميصاً حمراء وبنطالاً من القطن الأزرق. كان ينفق آلاف الدولارات في الخمارات وعلب سبرينغ ستريت، منظماً سهرات، ومعطياً بقشيشاً بمئات الدولارات، ثم يختفي بصورة غامضة ليعود بعد شهر، ويعيد الكرة، وهو ما بقي يفعله على مدى سنوات. لم يكن أحد يعرف من أين يأتي بماله. لكن البعض كانوا يعتقدون أنه يملك منجماً سرياً في وادي الموت وحاولوا أن يلحقوا به إلى هناك، لكنه كان يفلت منهم دائماً ولم يتوصل أحد حتى هذا التاريخ إلى اكتشاف سره. وقبل وفاته عام ١٩٤٠، ابتنى قصراً منيفاً في وادي الموت، وسط الصحراء، وكان بناء خارقاً كلف أكثر من نصف مليون دولار. وهذا البناء لا يزال موجوداً، وهو يتفتت ببطء تحت أشعة الشمس.

أما السيدة كراني ـ غاتس، من الباسادينا، فكانت امرأة تملك ٤٠ مليون دولار، لكنها كانت أيضاً اشتراكية متوقدة، تدفع تكاليف الدفاع عن العديد من الفوضويين والاشتراكيين وأعضاء الـ I.W.W.

وكان غلين كورتيس يعمل لحساب سينيت في ذلك الحين: كان يقوم بألاعيب البهلوان

الهوائية ويبحث بصورة هستيرية عن رساميل لتمويل ما بات اليوم مصانع كورتيس للطيران.

وكان يملك أ. ب. غيانيني مصرفين صغيرين أصبحا، في ما بعد، إحدى أكبر المنشآت المالية في الولايات المتحدة: بنك أوف أميريكا.

وقد ورث هاوارد هيوغز ثروة ضخمة من والده، مخترع المثاقيب الحديثة المستخدمة في الصناعة النفطية. وقد وظف هاوارد ملايينه من الدولارات على صعيد الطيران. لقد كان رجلاً غريب الأطوار يدير منشآته الصناعية الكبرى من غرفة فندق من الدرجة الثالثة، ولا يُرى إلا نادراً. وكان يهتم قليلاً أيضاً بالسينما، وحصل على نجاح مرموق مع أفلام مثل **Hell's Angels**، الذي مثلت فيه دور البطولة المأسوف عليها جين هارلوو.

في ذلك الحين، كانت تسلياتي المعتادة تتمثل في متابعة معارك مساء الجمعة، لجاك دويل في فرنون؛ وفي حضور عرض الميوزيك هول مساء الإثنين في الأورفيوم، ومساء الخميس في موروسكو، وفي الذهاب من حين لآخر إلى كونشرتو في الفيلارمونيك أو ديتوريوم في كلون.

كان نادي الرياضة البدنية في لوس أنجلس مركزاً تتواجد فيه نخبة المجتمع ورجال الأعمال في ساعة الكوكتيل. حتى أن المرء ليتخيل نفسه في جالية أجنبية.

وكان ثمة شابُ، كوميدي إلى هذا الحد أو ذاك، جالس غالباً في البار؛ وكان ولداً متوحداً على العموم، جاء إلى هوليوود ليجرب حظه، لكنه لم يكن يحظى بالنجاح. وكان اسمه فالنتينو. وقد قدمه لي ممثل صامت آخر، هو جاك جيلبرت. ولم أر بعد ذلك فالنتينو على مدى عام تقريباً. في غضون ذلك كان قد أصبح نجماً. وحين التقينا من جديد، أبدى بعض الحذر إلى حين قلت له: «منذ آخر مرة رأيتك فيها، دخلت في صفوف الخالدين». عندئذ، راح يضحك، ثم تخلى عن تحفظه وبدا ودياً بالكامل.

كان فالنتينو ذا هيئة كئيبة. كان يقبل النجاح بلطف، ويبدو مكتئباً بعض الشيء بسبب نجاحه. لقد كان ذكياً، وهادئاً، وبعيداً عن الغرور، وكان فاتن النساء، لكنه لم يكن ينجح معهن أبداً، ومن كان يتزوجهن كن يتصرفن معه بصورة تفتقد اللياقة. فبعد إحدى تلك الزيجات، صارت زوجته عشيقة أحد تقني مختبر السحب، وكانت تختفي معه في الغرفة السوداء. لم يكن رجل يمارس على النساء إغراءً أعظم من إغراء فالنتينو، لكن لم تخدع النساء أحداً أكثر منه.

كنت أتهيأ آنذاك لتنفيذ عقد الـ ٦٧٠ ألف دولار. وقد استأجر السيد كولفيلد، الذي كان يمثل الميوتوال فيلم كوربوريشن ويهتم بكل قضايا الأعمال، ستوديواً في قلب هوليوود. وقد كنت أحس بالثقة مع فرقة صغيرة من الكوميديين ذوي الكفاءة، الذين كان من بينهم إدنا بورڤيانس، وأريك كامبل، وهنري برغمان، وألبرت أوستن، ولويد باكون، وجون راند، وفرانك جوكولمان، وليو وايت.

لحسن الحظ، حاز فيلمي الأول the Floor walker نجاحاً كبيراً. كان سير الأحداث يتم في ديكور محل كبير حيث نظمت مطاردة على سلَّم متحرك. وحين شاهد سينيت الفيلم، تساءل: «تباً! لماذا لم نفكر يوماً بالسلَّم المتحرك؟».

لم أتأخر في العثور على إيقاعي، وكنت أصوّر فيلماً ببكرتين كل شهر. فبعد الفيلم المذكور أعلاه، تم إخراج The Fireman (شارلو الاطفائي[1])، ومن ثم The vagabond (شارلو الموسيقار)، و One a. m. (شارلو يعود متأخراً)، ثم The Count (شارلو والكونت)، ثم The Pawn shop (شارلو عند المرابي)، ثم Behind the Screen (شارلو منتج سينما)، ثم The Rink (شارلو يتزلج)، و Easy street (شارلو رجل شرطة)، و The cure (شارلو يتعالج)، و The Immigrant (المهاجر)، و The Adventurer (شارلو يهرب). لقد لزم ١٦ شهرا فقط لانتاج هذه الأفلام الإثني عشر، مع حساب التوقفات الناجمة عن الرشح وإزعاجات صغيرة أخرى.

كانت تطرح إحدى القصص أحياناً مشكلة ما، وكنت أجد بعض الصعوبة في حلها. وفي تلك الحالة، كنت أوقف عملي وأحاول التفكير، متجولاً بعصبية في مقصورتي، أو أبقى جالساً ساعات طوالاً في عمق الخشبة، أتصارع مع تلك المشكلة. وكانت مجرد رؤية مدير المسرح أو الممثلين وهم ينظرون إليّ حائرين تربكني، لا سيما أن الميوتوال كانت تدفع نفقات الإنتاج، وأن السيد كولفيلد كان موجوداً للسهر على ألا تسوء الأمور.

كنت ألمحه من بعيد وهو يجتاز الستوديو. وبمجرد رؤيتي له، كنت أعرف تماماً بم يفكر: لا شيء يسير، والنفقات العامة تزداد. وقد كنت أفهم الآخرين، برهافةٍ مطرقةٍ إلية، أني لا أحب أن أرى أناساً يتحركون حولي حين أكون أفكر، وأني أستهول الشعور بأنهم قلقون.

وفي نهاية يوم عقيم، كان يرتب أموره بحيث يلتقيني صدفة حين أغادر الستوديو، فيقترب مني بنوع من الخفة المصطنعة ويسألني:

- كيف تسير الأمور؟
- بصورة سيئة! أعتقد أني أصبحت فارغاً! لم أعد قادراً على تكوين فكرة واحدة!

فكانت تصدر عنه عندئذ نغمة جوفاء تود أن تكون ضحكة، فيما يقول:

- لا تهتم، سوف تأتي!

وكان الحل يأتي أحياناً في نهاية النهار، في وقت أكون فريسة اليأس، بعد أن أكون تصفحت كل الاحتمالات واستبعدتها جميعاً؛ كان الحل يظهر إذاك، مثلما لو كنا كنّسنا للتو الغبار الذي يغطي أرضية من المرمر: كانت هناك، تلك الفسيفساء الرائعة التي أبحث عنها. وهكذا كان يتبدد التوتر، ويعود الستوديو إلى العمل، وتنشرح أسارير السيد كولفيلد!

لم يُجرح يوماً أي عضو من فرقتي، في أي من أفلامنا. كان يجري التمرن بعناية على مشاهد عنيفة، كما لو كان الأمر يتعلق بتوقيع للرقص. فالصفعة كانت مزوَّرة دائماً. وحتى في

---

(١) الكلمات التي بين هلالين تدل على العنوان الذي أعطي للفيلم بالفرنسية (م).

عز المشادة، كان يعرف كل واحد ما يفعله، وكان يقاس وقت كل شيء. كما أنه لم يكن مقبولاً أن يُجرح أحد، لأنه يمكن في السينما تزييف كل التأثيرات، من مشاهد العنف، إلى الهزات الأرضية، إلى حالات الغرق والكوارث.

وفي كل هذه السلسلة، لم يَجْرِ معنا غير حادث واحد، تم خلال تصوير فيلم **الشارع السهل Easy Street**. في اللحظة التي كنت أسحب فيها مصباحاً مركّزاً فوق الوحش البدين بهدف خنقه، انفصل القسم الأعلى من المصباح وسقطت حافته المعدنية الحادة على أرنبة أنفي، الأمر الذي استدعى تقطيب الجرح قطبتين.

أعتقد أن عملي في الميوتوال كان المرحلة الأشد سعادة في حياتي. كنت خفيفاً وحراً، وكان عمري ٢٧ عاماً، مع آفاق خيالية أمامي وعالم ودود وجذاب. لن يطول الوقت الذي سأصير فيه صاحب ملايين، وكل ذلك كان يبدو لي نوعاً من الجنون. كان المال يتدفق إلى خزائني، والعشرة آلاف دولار التي كنت أحصل عليها كل أسبوع كانت تتراكم لتتحول إلى مئات الألوف. كنت أساوي أربعمئة ألف، ثم خمسمئة ألف دولار. لم يكن في وسعي أن أتصور ذلك.

أذكر أن ماكسيم إيليوت، وكان صديقاً لج. ب. مورغان، قال لي ذات يوم: «ليس المال مفيداً إلا لكي ننساه». لكن أظن أيضاً أنه شيء يجب تذكره.

لا ريب أن أولئك الذين ينجحون يعيشون في عالم آخر. فحين كنت ألتقي أناساً، كان وجههم يشع بالاهتمام. ومع أني لم أكن أكثر من محدث نعمة، كانوا يتعاملون بجدية مع آرائي. ولم يكن معارف بعيدون يطلبون غير الارتباط معي بصداقة وثيقة، ومقاسمتي مشكلاتي، كما لو كانوا من الأهل. وكان ذلك يداعب الغرور إلى أبعد الحدود، لكن مزاجي لا يتجاوب مع هذا النوع من الحميمية القسرية. فأنا أحب الأصدقاء مثلما أحب الموسيقى، أي حين يكون مزاجي قابلاً. لكن حريةً كهذه كانت تؤدي أحياناً إلى بعض العزلة.

ذات يوم وعقدي على وشك الانتهاء، دخل أخي إلى غرفتي في نادي الرياضة وقال لي بمرح:

ــ هيّا!، يا شارلي، ها أنت من فئة أصحاب الملايين. فلقد وقّعت عنك عقداً مع الفورست ناشونال تنتج بموجبه ثمانية أفلام ببكرتين مقابل مليون ومئتي ألف دولار.

كنت قد أخذت حماماً، ورحت أسير في الغرفة وقد لففت خصري بمنشفة، فيما أنا أعزف **حكايات هوفمان** على كمنجتي. وقد رحت أدمدم، من دون اقتناع:

ــ هوم، هوم! هذا رائع، أليس كذلك؟ فانفجر سيدني بالضحك.

ـ سوف أروي هذا في مذكراتي: أنت، مع هذه المنشفة حول وركيك، فيما تعزف على الكمنجة، ورد فعلك وأنت تأخذ علماً بأني وقعت عقداً قيمته أكثر من مليون دولار!

أعترف أنه كان هنالك شيء من التكلف في مسلكي، لأني كنت أفكر في المهمة التي

يمثلها ذلك: كان من الضروري كسب ذلك المال.

في كل حال، لم تغير تلك الوعود بالثروة من نمط حياتي. كنت متصالحاً مع الثروة، لكنني لم أكن أعرف بعد كيف أستخدمها. كان المال الذي أكسبه خرافياً: كان رمزاً تعبر عنه أرقام، لأني لم أره في الواقع في يوم من الأيام. كان يجب إذاً أن أقوم بشيء ما لأثبت لنفسي أني أملكه حقاً. فاستحصلت على سكرتيرة، وخادم، وسيارة وسائق. وإذ كنت أمر ذات يوم أمام واجهة، لمحت سيارة لوكوموبيل بسبعة مقاعد، كانت تُعتبر في تلك الفترة أفضل سيارة في أميركا. كانت تبدو ذات أناقة شديدة الفخامة بحيث لا يمكن تصوُّر أنها للبيع. بيد أنني دخلت إلى المحل وسألت:

ـ بكم؟

ـ بـ ٤٩٠٠ دولار.

فقلت:

ـ سآخذها في الحال.

وقد صعق الرجل، وحاول إبداء بعض المقاومة لعملية بيع بهذه السرعة. وسأل:

ـ ألا تود رؤية المحرك؟

ـ لا يغير ذلك شيئاً. . . فأنا لا أعرف شيئاً بالميكانيك.

ومع ذلك، ضغطت بإبهامي على الدولاب، لأبدو محترفاً.

كان الاتفاق بسيطاً، وقد تمثّل بكتابة اسمي على ورقة، وباتت السيارة ملكي.

كان توظيف المال مشكلة لا أعرف شيئاً عنها تقريباً، لكن سيدني كان يعرف كل المصطلحات. كان يعرف ماذا تعني القيمة الحسابية، وتكاثر رأس المال، والأسهم العادية أو التفضيلية، والسندات الموسومة أو غير الموسومة، والبونات والقيم القابلة للتحويل، وعمليات التمويل، والودائع القانونية في صناديق التوفير. وفي ذلك الحين، كانت فرص توظيف المال كبيرة جداً. وقد توسل إلي وكيل عقاري من لوس أنجلس كي أتشارك معه، بحيث يضع كل منا ٢٥٠ ألف دولار لشراء أراض واسعة في وادي لوس أنجلس. ولو وظفت رساميل في هذا المشروع، كانت حصتي بلغت ٥٠ مليون دولار، لأنه كان يجري اكتشاف النفط هناك، وباتت تلك المنطقة إحدى أغنى مناطق كاليفورنيا.

في تلك الفترة، زار الستوديو عدد كبير من الأشخاص المشهورين، من مثل ميلبا، وليوبولد غودوفسكي، وباديريفسكي، ونيجنسكي والباڤلوڤا.

كان باديريفسكي شخصاً ساحراً، لكن مع بعض الملامح البرجوازية، وعنفوان مصطنع بعض الشيء. كان مؤثراً، بشعره الطويل وشاربيه الصارمين والمتدليين، والباقة الصغيرة من اللحية تحت الشفة السفلى، التي كانت تكشف، في رأيي، شكلاً من الغرور الصوفي. وخلال حفلاته الموسيقية، حين تكون الأضواء قد خُففت، وبات الجو قاتماً ووقوراً كما في هيكل، وهو على وشك الجلوس على مقعده أمام البيانو، كان يتولد لدي الشعور دائماً بأن على أحد أن يسحبه بغتةً بحيث يسقط المعلم على الأرض.

التقيته خلال الحرب في ريتز بنيويورك، واستقبلته بحماس سائلاً إياه إذا كان سيقدم حفلات موسيقية. وقد أجابني بوقار حبر من أحبار الكنيسة:

ـ أنا لا أقدم حفلات إلا إذا كنت في خدمة بلدي.

وقد أصبح باديريفسكي لاحقاً رئيس وزراء بولندا، لكنني كنت من رأي كليمنصو الذي قال له خلال إحدى جلسات المؤتمر الخاص بمعاهدة فرساي، سيئة الذكر:

ـ كيف يمكن أن ينزل فنان بموهبتك من عليائه ليصبح رجل سياسة؟

أما ليوبولد غودوفسكي، الذي كان عازف بيانو أعلى قدراً، فكان بسيطاً ومليئاً بروح الدعابة. لقد كان رجلاً صغيراً ذا وجه مستدير وباسم. وبعد عزفه في لوس أنجلس، استأجر هناك منزلاً وكنت أزوره باستمرار. وكل أحد، كنت أحظى بامتياز الاستماع إليه وهو يقوم بتمرينات، ومراقبة السهولة الخارقة، والتقنية المذهلة، التي كان يستخدم بهما يديه الصغيرتين بصورة استثنائية.

ولقد جاء نيجنسكي أيضاً إلى الستوديو مع أعضاء في الباليه الروسية. كان رجلاً رصيناً، مع وجه جميل بوجنتين عاليتين وعينين حزينتين، كانت تجعله يبدو كراهب بثياب مدنية. كنا نصور آنذاك **The cure**. كنت جالساً وراء الكاميرا، وكان ينظر إليّ وأنا أشتغل

مشهداً كنت أجده طريفاً، لكنه لم يكن يبتسم بتاتاً. ومع أن الآخرين ضحكوا كثيراً، بقي نيجنسكي هناك، وعلى وجهه أمارات الحزن المتزايد. وقبل أن يغادر، جاء يشد على يدي وقال لي بصوته العميق كم هو يقدر عملي، ثم سألني إذا كان في وسعه العودة.

ــ بالطبع»، أجبته.

وقد جاء على يومين متتاليين، وبقي هناك يراقبني. وفي اليوم الأخير، قلت للعامل الميكانيكي ألا يضع الفيلم في الكاميرا، إذ إن حضور نيجنسكي الكئيب قد يفسد جهودي لأكون مضحكاً. إلا أنه كان يهنئني في نهاية كل يوم، قائلاً:

ــ إن فيلمك الهزلي على علاقة بالباليه؛ أنت راقص.

لم أكن رأيت الباليه الروسية بعد، ولا أي باليه أخرى. لكن في نهاية الأسبوع، دعيت لحضور عرض نهاري.

وقد استقبلني دياغيليف في المسرح. كان رجلاً يبرق بالحيوية والحماس، وقد اعتذر لأن برنامج ذلك اليوم ليس في رأيه البرنامج الذي قد يحوز أكبر قدر من إعجابي. وقال:

ــ للأسف أنه ليس الاستهلال لما بعد ظهر في حياة حيوان[1]. أعتقد أن هذه القطعة كانت أعجبتك. (ثم استدار بحيوية نحو مدير المسرح وقال له) قل لنيجنسكي إننا سنقدم الاستهلال خصيصاً لشارلي بعد الاستراحة.

كانت الباليه الأولى شهرزاد. وقد كان رد فعلي سلبياً، بالأحرى: فبالنسبة لذوقي، كان هناك الكثير من الكوميديا، والقليل من الرقص، وكانت موسيقى ريمسكي كورساكوف تتكرر كثيراً. لكن جاءت بعد ذلك خطوة مزدوجة مع نيجنسكي. ومذ ظهر على المسرح، سحرني، فأنا رأيت القليل من العباقرة عبر العالم، وكان نيجنسكي أحدهم. كان يمارس على الجمهور تأثيراً شبه تنويمي، وكان له مظهر إله، وكانت هيئته الغامضة تفتح مطلات على مناخات عوالم ثانية؛ كل من حركاته كانت شعراً، وكل قفزة تحليقاً نحو فنتازيا غريبة.

كان قد طلب من دياغيليف أن يصطحبني إلى مقصورته خلال الاستراحة. كنت لا أدري ما أقول، إذ لا يمكن المرء أن يعبر بالكلمات عن التأثير الذي يحدثه الفن العظيم في نفسه. بقيت صامتاً في مقصورته، متأملاً وجهه الغريب في المرآة، في حين كان يضع الماكياج من أجل أداء قطعة دوبوسي، راسماً حول خديه دوائر خضراء. وقد حاول بصورة فاشلة أن يدخل في الحديث، طارحاً عليّ أسئلة تافهة حول أفلامي، كنت أجيب عنها باقتضاب شديد. ثم سمعت الجرس يعلن نهاية الاستراحة، واقترحت أن أعود إلى مقعدي، فقال:

ــ كلا، كلا، لم يحن الوقت.

وجاء من يقرع الباب ويقول:

ــ سيد نيجنسكي، لقد انتهت الافتتاحية.

---

(١) قطعة موسيقية للمؤلف الفرنسي كلود دوبوسي (م).

وبدأت أشعر بالقلق.

ـ جيد جداً، لدينا الكثير من الوقت.

كنت مذهولاً، ولم أكن أفهم لماذا يتصرف هكذا. وقد سألته:

ـ ألا تعتقد أني أحسن صنعاً إذا عدت إلى مكاني؟

ـ كلا، كلا، دعهم يعزفوا افتتاحية أخرى.

وقد دخل دياغيليف أخيراً بصورة مفاجئة إلى المقصورة وقال:

ـ تعال! تعال! فالجمهور يصفق.

فقال نيجنسكي:

ـ فلينتظروا، ما أفعله أكثر إثارة للاهتمام.

ثم واصل طرح أسئلة تافهة جداً علي. أما أنا فكنت أشعر بالضيق الشديد، وقلت:

ـ يجب أن أعود حقاً إلى مقعدي.

لم يصل أحد يوماً إلى مستوى نيجنسكي في الاستهلال لما بعد ظهر يوم في حياة حيوان. فالعالم المليء بالغموض الذي خلقه، والمأساوي الذي يجول بصورة غير مرئية في ظلال هذا الديكور الرعوي الفتّان، في حين كان يجتاز أسراره، كإله متوقد الحزن، كل ذلك كان يتوصل للتعبير عنه بحركات قليلة بسيطة ومن دون جهد ظاهر.

بعد ذلك بستة أشهر، أصيب نيجنسكي بالجنون. كانت بدأت تظهر عليه علامات جنون في بعد ظهر ذلك اليوم، في مقصورته، حين كان يجعل الجمهور ينتظر. كنت قد رأيت روحاً حساسة تقوم بخطواتها الأولى للابتعاد عن عالم فظ، تجتاحه الحرب، إلى عالم آخر ينبجس من أحلامه.

إن السمو نادر، وكانت الپاڤلوڤا أحد أولئك الفنانين النادرين الذين يمتلكون تلك الموهبة. كانت تلامس دائماً خلجات نفسي بعمق. ومهما كان فنها باهراً، لقد كان يتّسم بشحوب وضّاء، له رهافة تويجيات وردة بيضاء. وحين كانت ترقص، كانت كلٌ من حركاتها مركز ثِقَل. فما إن كانت تدخل إلى المسرح، ومهما بدت مرحة وفاتنة، كانت تتملكني الرغبة في البكاء، لأنها كانت تجسد في نظري مأساة الكمال.

تعرفت على «پاف»، كما كان يسميها أصدقاؤها، حين كانت في هوليود لتصوير فيلم في ستوديوات يونيفرسال، وبتنا صديقين حميمين. ولقد كان من المحزن أن سرعة مسار السينما في ذلك الحين لم تكن تسمح بالإمساك بغنائية رقصها، بحيث ضاعت اليوم موهبتها الهائلة، بالنسبة للعالم.

أقامت القنصلية الروسية ذات مساء حفلة عشاء على شرفها، وكنت مدعواً إليها. كان استقبالاً عالمياً، ورسمياً جداً. وخلال العشاء، شُربت أنخاب عديدة، وأُلقيت خطبٌ كثيرة، تارة بالفرنسية وطوراً بالروسية. وأظن أني كنت الإنكليزي الحاضر الوحيد. وقبل أن ألقي كلمتي مباشرة، قدم أستاذ بالروسية مديحاً آسراً لفن الباڤلوڤا. وفي إحدى اللحظات، انفجر

الأستاذ بالبكاء، ثم اقترب من الباڤلوڤا وعانقها بورع. وفهمت أن أي جهد من جانبي، بعدما حصل، سيبدو تافهاً. فنهضت إذاً وأعلنت أن لغتي الإنكليزية غير كافية إطلاقاً للتعبير عن عظمة فن الباڤلوڤا، وأني سأتكلم بالتالي باللغة الصينية. وارتجلت صينية هجينة، مرتفعاً كالأستاذ نحو تصعيد في النبرة، ثم ختمت معانقاً الباڤلوڤا بحماس أشد، آخذاً فوطة طاولة وواضعاً إياها على رأسينا، فيما أنا أواصل تقبيلها. وقد انفجر الحضور بالضحك، وقطع ذلك الطابع الرسميَّ للاستقبال.

وجاءت سارة برنار للتمثيل في الأورفيوم، وكانت طاعنة في السن، وفي نهاية حياتها المهنية، وبالتالي لن أستطيع إطلاق حكم ذي قيمة حول طريقتها في التمثيل. لكن حين جاءت الدوز[1] إلى لوس أنجلس، لم يكن حتى عمرها ونهايتها الوشيكة يتوصلان لكشف بريق عبقريتها. كان يدعمها توزيعٌ إيطالي ممتاز. وقد ألقى ممثل شاب، رائع الجمال، خطبة فخمة قبل أن تظهر على المسرح. ورحت أتساءل: كيف سيكون في وسع الدوز أن تجعلنا ننسى كمال هذا الكوميدي الشاب، اللافت للنظر.

حينئذ دخلت الدوز خِفْيَةً عبر قُبَّة ديكورية في أقصى الشمال. وتوقفت خلف سلة أقحوان موضوعة على بيانو مذيَّل، وراحت ترتب الزهور بصمت. وقد عمت الحضور همهمة، وابتعدتُ بنظري عن الممثل الشاب لينصبَّ انتباهي على الدوز. أما هي فمن دون أن تلتفت إلى شريكها الشاب أو أي من الأشخاص الآخرين، استمرت بترتيب الأزهار بهدوء، مضيفة زهوراً أخرى كانت قد جلبتها معها. وحين أنهت عملها؛ اجتازت المسرح ببطء بصورة منحرفة، ثم جلست في مقعد قرب المدخنة وراحت تنظر إلى النار. وهي لم تنظر إلى الشاب إلا مرة واحدة، وكانت في تلك النظرة كل حكمة البشرية وكل عذابها. ثم استمرت في الإصغاء، وفي تدفئة يديها، وكانتا يدين شديدتي الجمال، بالغتي الحساسية.

وحين أنهى خطبته المشبوبة، شرعت تتكلم بهدوء فيما هي تنظر إلى النار. لم يكن لإلقائها التفخيم المسرحي المتصنِّع، بل كان صوتها يجيء من جمار الشغف الأكثر مأساوية. لم أكن أفهم كلمةً، لكنني أدركت أني أمام أعظم ممثلة رأيتها في حياتي.

جرى التعاقد مع كونستانس كولييه، البطلة النِّسائية مع السير هربرت بيربوهم تري، وذلك للتمثيل في ماكبث مع السير هربرت لحساب الترايانغل فيلم. وكنت في صباي قد رأيتها غالباً من الرواق الأعلى لمسرح صاحب الجلالة، وطالما أعجبتني الطريقة المميَّزة التي كانت تمثل بها **The Eternal City**، وتلك التي كانت تلعب بها دور نانسي في **Oliver Twist**. لذا، حين جلبوا إلى طاولتي في مقهى ليڤي كلمة جاء فيها أن الآنسة كولييه تود التعرف إليّ، وترجوني القبول بالمجيء إلى طاولتها، طرت من الفرح. بتنا مذاك صديقين مدى الحياة. لقد كانت روحاً عطوفاً، مليئة بالدفء والمرح. وكانت تعشق العمل على تلاقي الناس، وكانت

---

(١) اليونورا دوز، ممثلة مأساوية إيطالية، ولدت في فيجفانو (١٨٥٨ ـ ١٩٢٤). مثلث مسرحيات لإبسن ودانونزيو (م).

ترغب والحالة هذه في تعريفي على السير هربرت، وشاب يسمَّى دوغلاس فايربانكس، أكدت أن بيني وبينه الكثير من التجانس.

لا شك أن السير هربت كان عميد المسرح الإنكليزي، والممثل الأشد رهافة، الذي يخاطب عقل المشاهد في الوقت ذاته الذي يخاطب فيه انفعالاته. فشخصية فاجين، في **أوليفر تويست**، كانت تجمع بين الدعابة والفظاعة. لقد كان يتوصل بسهولة إلى خلق توتر شبه غير محتمل. لم يكن عليه أكثر من أن يقرص بهدوء ذلك الداهية المرهف جون داوكينز، بواسطة شوكة، لينجح في الإيحاء بالرعب. كانت لديه دائماً طريقة ذكية جداً في تصور شخصية ما. هكذا سفينغالي المثير للضحك: كان يجعلك تؤمن بهذا الشخص غير المعقول، ولا يضفي عليه نوعاً من الدعابة وحسب، بل كذلك من الشعر. وكان النقاد يقولون إن أفضل ما لدى تري إنما هي عاداته المضحكة؛ وهذا صحيح، لكنه كان يعرف كيف يستعملها. كان أداؤه حديثاً إلى أبعد الحدود. ففي **يوليوس قيصر**، كان تمثيله عقلانياً. كان مارك أنطونيو يتكلم في مشهد الدفن، بصورة لامبالية من فوق كل تلك الجموع، بتهكمية وازدراء ينضحان من كل جملة يتلفظ بها، بدلاً من مخاطبة الجمهور بهوس من يسعى إلى القيادة.

كنت رأيت تري، في الرابعة عشرة من عمري، في عدد من أدواره الكبرى، لذا حين نظمت كونستانس عشاء صغيراً مع السير هربرت وابنته إيريس ومعي، سرتني تلك الفكرة كثيراً. كان علينا أن نلتقي في شقة تري، بالألكسندريا. وقد وصلت متأخراً عن قصد، أملاً في أن تكون كونستانس هناك فتذيب جليد الجو؛ لكن حين أدخلني السير هنري، كان وحده مع جون إيمرسوم، مخرجه السينمائي.

ــ آه! ادخل يا شارلي»، قال السير هيربرت. لقد سمعت عنك الكثير من كونستانس!

وبعد أن قدمني لإيمرسون، أوضح لي أنهم كانوا يضبطون بعض مشاهد ماكبث. وسرعان ما غادر إيمرسون، ووجدت نفسي فجأة وقد جمَّدني الحياء.

قال السير هربرت وهو يجلس في مقعده إزائي:

ــ آسف لأني جعلتك تنتظر، فلقد كنا نناقش أحد تفاصيل مشهد الساحرة.

ــ أوه ـ ه ــ!» تلعثمت.

ــ أظن أنه أمر جيد أن نضع غشاء رقيقاً على البالونات ونجعلها تطير خلال المشهد. ما رأيك؟

ــ ر ـ ر. . . رائع!

وسكت السير هربرت لحظة وهو يتفحص وجهي.

ــ لقد حظيت بنجاح منقطع النظير، أليس كذلك؟

ــ آه! كلا»، تمتمت بنبرة اعتذار.

ــ لكنك معروف في العالم أجمع! في إنكلترا وفرنسا، يغني الجنود أغاني تتحدث عنك.

ــ غير ممكن؟»، قلت، متظاهراً بأني لا أعرف شيئاً.
ــ ونظر إليَّ من جديد: كنت أحس بالشك وببعض التحفظ يكتسحان وجهه. ثم نهض.
ــ لقد تأخرت كونستانس. سوف أتلفن لمعرفة ما الذي جرى لها. في غضون ذلك، يجب أن تتعرف إلى ابنتي إيريس»، أضاف وهو خارج من الغرفة.

أحسست بالفرح، لأني كنت أتخيل طفلة يمكنني أن أتحدث معها على مستواي عن المدرسة والسينما، وإذ بشابة كبيرة تدخل مع فم سيكارة طويل، وتقول لي بصوت خفيض وجهوري في الوقت ذاته:

ــ مساء الخير، سيد شابلن. لا بد أني الشخص الوحيد في العالم الذي لم يسبق أن رآك على الشاشة.

فوافقت مبتسماً.

كانت إيريس تبدو سكندينافية، بشعرها الأشقر القصير وعينيها السماويتين. كانت في الثامنة عشرة من عمرها، فتاةً فتانة جداً، بأسلوب مايغير المزَيَّف؛ وفي الخامسة عشرة كانت قد نشرت ديوان شعر.

قالت لي:
ــ كونستانس تتحدث عنك كثيراً.

فوافقت مجدداً وأنا أبتسم.

عاد السير هربرت أخيراً، معلناً أن كونستانس لن تستطيع المجيء، وأنها تأخرت بسبب اضطرارها لتجريب ثياب، وعلينا بالتالي العشاء من دونها.

رباه! كيف سأتحمل الأمسية مع غرباء؟ وفيما تلك الفكرة تستحوذ عليَّ، لحقتُ بهما صامتاً في الممشى، وبصمتٍ صعدنا بواسطة المصعد، وبصمتٍ جلسنا إلى طاولة في قاعة الطعام كما لو كنا عائدين من دفن.

وقد بذل المسكين السير هربرت وابنته إيريس جهدهما لقطع حبل الصمت، لكن سرعان ما تخلت إيريس عن محاولاتها ورجعت بمقعدها إلى الوراء لمراقبة القاعة. ورحت أتمنى أن يبدأوا بجلب الطعام، إذ قد يبدد مجرد الأكل قليلاً من توتري... وقد تحدث الأب وابنته قليلاً، عن جنوبي فرنسا، وعن روما وسالزبورغ... هل حدث أن ذهبتُ إلى هناك؟ هل سبق أن رأيت مشاهد من إخراج ماكس راينهاردت؟

فهززت رأسي معتذراً، بينما راح تري يتأملني بإمعان:
ــ أتدري، ينبغي أن تسافر.

فقلت له إن وقتي لا يسمح لي بذلك، ثم انتقلت مباشرة إلى الموضوع الأساسي، قائلاً:

ـ إسمع، سير هربرت، لقد كان نجاحي مفاجئاً إلى حد أنه لم يتوفر لي وقت كاف للتكيف معه. لكن، حين كنت في الرابعة عشرة من عمري، شاهدتك في دور سڤنغالي، وڤاجِن، وأنتوني، وفالستاف، عدة مرار، ومنذئذ وأنا أنظر إليك كمعبود لي. لم يكن في وسعي الاعتقاد يوماً أنك توجد حقاً خارج المسرح. لقد كنت شخصاً أسطورياً في نظري. والعشاء معك هذا المساء في لوس أنجلس يربكني.

فتأثر تري وراح يردد:

ـ حقاً! حقاً!

ومنذ تلك الأمسية، بتنا صديقين حميمين. كان يخابرني من حين لآخر، ونتعشى معاً نحن الثلاثة هربرت وإيريس وأنا. وكانت كونستانس تنضم إلينا أحياناً، وكنا نذهب إلى مطعم فيكتور هوغو للحلم في وقت القهوة فيما نحن نصغي إلى الموسيقى العاطفية.

لقد أسمعتني كونستانس الكثير عن سحر دوغلاس فايربانكس ومواهبه: لم يكن ذا شخصية قوية وحسب، بل كان كذلك محدِّثاً لامعاً. وفي ذلك الحين، كنت أنفر من الشبان اللامعين، ولا سيما من المحدثين اللامعين. مع ذلك، جرى ترتيب عشاء معه.

ولكلٍّ منا، دوغلاس وأنا، روايته عن تلك السهرة. قبل الذهاب إليها، قلت لكونستانس إني مصاب بالصداع لكنها رفضت الاستماع إليّ. فقررت إذاً أن أتظاهر بالصداع كي أغادر باكراً. ويقول فاير بانكس إنه كان هو الآخر ثائر الأعصاب، وأنه حين قُرع الباب، هرع إلى القبو حيث كان يوجد بليار وشرع يلعب، ولقد كان ذلك المساء بداية صداقة ستدوم مدى الحياة.

لم يكسب دوغلاس محبة الجمهور مجاناً. فروح أفلامه، وتفاؤلها المحكم كانا يروقان جداً لذوق الأميركيين، لا بل لذوق الناس جميعاً. كان يمتلك جاذبية وسحراً وحماساً صادقاً وطفولياً يعرف كيف يجعل الجمهور حساساً حيالها. وحين بدأت أعرفه جيداً، وجدته يمتلك شهامة مهذِّبة، لأنه كان يعترف بأنه يسلّيه أن يكون نفّاجاً، وبأن الناس الذين يحققون النجاح يجتذبونه.

ومع أن دوغ كان عظيم الشعبية، كان يمتدح مقدرة الغير، ويبقى متواضعاً بخصوص مواهبه هو. غالباً ما كان يقول إنني أنا وماري بيكفورد نمتلك العبقرية، بينما ليس لديه هو أكثر من موهبة صغيرة. وبالطبع، لم يكن ذلك صحيحاً، فدوغلاس كان خلاقاً، وكان يصنع الأشياء بأحجام كبرى.

لقد ابتنى لروبن هود هضبة بمساحة أربعة هكتارات، وقصراً بأسوار ضخمة وجسور متحركة، أكبر ضخامة من أي قصر سبق بناؤه. وقد دلني دوغلاس باعتزاز على الجسر المتحرك الضخم.

ـ رائع، قلت. أي بداية رائعة لإحدى كوميدياتي: ينخفض الجسر المتحرك، فأُخرج الهر وآخذ قنينة الحليب.

كانت لديه مجموعة كاملة من الأصدقاء، تتراوح بين راعي البقر والملك، وكان يجد لهم جميعاً صفات مثيرة للاهتمام. وقد كان يسليه كثيراً صديقه، شارلي ماك، وكان راعي بقر مهذاراً، ولا يتوقف عن الكلام. وحين كنا نتعشى، كان شارلي يظهر في الباب ويقول:

ـ إنه بيت جميل هذا الذي تملكه، يا دوغ.

ثم يتفحص غرفة الطعام ويضيف:

ـ بيد أنه يصعب البصق من الطاولة إلى داخل المدخنة، بسبب البعد بينهما.

ثم كان يقرفص ويحدثنا عن امرأته التي تريد الطلاق بسبب «القو ـ ساوة».

ـ سيدي القاضي، قلت له، لهذه المرأة من «القو ـ ساوة» في إصبعها الصغير أكثر مما لدي في كل جسمي. ولا أحد أجاد استخدام المسدس بمقدار ما فعلت هذه المخلوقة. لقد جعلتني أقفز وأتسمر خلف الشجرة العتيقة التي قرب بيتنا إلى أن أصبحت هذه كالمصفاة!

وقد كان لدي انطباع بأن شارلي يتمرن على أدواره قبل أن يزور دوغلاس.

كان بيت دوغلاس ملتقىً قديماً للصيد، بنغلاً بطابق واحد، بشعاً، مبنياً على تلة وسط ما كان آنذاك هضاب بيڤرلي الشائكة والقفراء. كانت القويسة تمنح الأدغال رائحة قوية، وحادة بعض الشيء تجفف حلقك وتقرص منخريك.

وفي تلك الأيام، كانت تبدو بيڤرلي هيلز كأرضٍ مفرزة مهجورة. كانت تظهر أرصفة لتضمحل وسط الحقول، وكانت تزيّن مصابيحُ مجهزةٌ بكُرات بيضاء شوارعَ مقفرة. لكن معظم الكرات كانت غير موجودة، فلقد قنصها معيِّدون عائدون من فندقٍ صغيرٍ ريفي.

كان دوغلاس فايربانكس أول نجم سينمائي سكن بيڤرلي هيلز، وغالباً ما كان يدعوني لقضاء نهاية الأسبوع معه. وفي المساء، كنت أسمع من غرفتي قيابيط[1] عاوية وهي تهاجم النفايات زُمَراً. وقد كانت صيحاتها غريبة، تشبه رنين أجراس صغيرة.

كان لدوغ نديمان أو ثلاثة ندامى على الدوام: توم جيراغتي، الذي كان يكتب سيناريواته، وكارل، وكان مصارعاً أولمبياً قديماً، وراعيا بقر أو ثلاثة. وقد كنا، أنا وتوم ودوغ، نشبه فرساناً ثلاثة بعض الشيء.

كان دوغ ينظم صباح الأحد نزهة على متن خيول صغيرة. كنا نستيقظ في عز الظلام ونخيِّل عبر التلال إلى أن تشرق الشمس. وكان رعاة البقر يربطون الخيول، ويشعلون نار مخيم ويحضرون ترويقة مؤلفة من الغاتو، ولحم الخنزير المملح. وفي حين كنا نتأمل شروق الشمس، كان دوغ يتكلم ببلاغة، بينما أُطلق نكاتاً حول نقص نومنا وأُعلن أن الفجر لا يستحق إزعاج النفس لرؤيته إلا إذا كنا بصحبة شخص من الجنس الآخر. إلا أنه كان لتلك الطلعات الصباحية جانب حالم. لقد كان دوغلاس الرجل الوحيد الذي نجح في جعلي أمتطي

---

(١) ذئاب أميركية صغيرة، مفردها قيّوط (م).

الحصان، بالرغم من تأكيداتي بأنه يجري الإفراط في التعامل العاطفي مع ذلك الحيوان الخبيث والمشاكس ونصف الأحمق.

كان قد انفصل في تلك الفترة عن زوجته الأولى. وفي المساء، كان يتعشى مع أصدقاء، من بينهم ماري بيكفورد، التي كان متدلهاً بحبها. وكانا يتصرفان كلاهما كأرانب مجنونة، وقد كنت أنصحهما دائماً بألا يتزوجا وبأن يكتفيا بالعيش معاً وتهدئة نفسيهما؛ لكنهما لم يكونا يؤيدان أفكاري غير التقليدية. ولقد تحيزت ضد زواجهما إلى حد أنهما حين تزوجا أخيراً، دعي كل أصدقائهما باستثنائي.

كنا ننصرف في تلك الفترة، أنا ودوغلاس، لنقاشات حول فلسفة الحياة. فكنت أتحدث عن سخافة الوجود، بينما كان دوغلاس يعتقد أن حيواتنا تتبع مساراً محدداً سلفاً وأنَّ مصيرنا مهم. وحين كان دوغلاس ضحية ذلك الفيض الصوفي، كانت نتيجة ذلك عموماً أن يستيقظ في نفسي رد فعل تهكمي. وأذكر أننا تسلقنا ذات مساء، نحن الإثنين، خزان ماء كبيراً ورحنا نتحدث فيما نحن جالسون هناك، في عظمة بيفرلي المتوحشة. كانت النجوم تبرق بلمعان غامض، وكان القمر يلمع وكنت قد قلت للتو إن الحياة فاقدة للمعنى.

ــ أنظر! قال دوغلاس بورع، وهو يقوم بحركة تعانق السماوات. هذا القمر! وتلك الأعداد التي لا تحصى من النجوم! يجب أن يكون هنالك سبب لكل هذا الجمال! يجب أن يكون تحقيقاً لقدر! لا بد أن يكون هذا لأجل شيء نشكل أنا وأنت جزءاً منه! (ثم استدار نحوي، وقد نزل عليه الإلهام فجأة). لماذا مُنحت هذه الموهبة، هذه الأداة العجيبة المسماة سينما التي تصل إلى ملايين الناس عبر العالم؟

فقلت:

ــ لماذا هي ممنوحة للويس ب. ماير وللأخوين وارنر؟

وقهقه دوغلاس.

كان دوغلاس رومانسياً ميئوساً منه. وحين كنت أمضي نهايات الأسبوع معه، كنت أُسحب من نومي في الثالثة صباحاً وألمح عبر الضباب أوركسترا هاوائية[1] تعزف على المرج الأخضر، تحت نوافذ ماري. كان ذلك لطيفاً، لكن كان من الصعب التكيف مع الجو حين لا يكون المرء معنياً مباشرة. بيد أن تلك الجوانب الصبيانية هي التي كانت تعطيه سحره.

أصبحت هوليوود بسرعة مكة الكتّاب والممثلين والمثقفين. كان ثمة مؤلفون مشهورون يتوافدون من أرجاء العالم الأربعة، من مثل السير جيلبرت باركر، ووليم ج. لوك، وريكس بيتش، وجوزف هيرغشايمر، وسومرسيت موغام، وغوفرنور موريس، وبلاسكو ايبانيز، وايلينور غلين، وإيدث وارتون، وناتلين نوريس، وآخرين كثيرين.

لم يعمل سومرسيت موغام أبداً في هوليود، بالرغم من النجاح الذي كانت تحققه

(١) نسبة إلى جزر هاواي (م).

قصصه. إلا أنه أقام فيها عدة أسابيع قبل أن يذهب برحلة إلى بحار الجنوب حيث كتب أقاصيصه الرائعة. وقد روى إحداها، على مأدبة عشاء، لي ولدوغلاس، وكانت قصة سادي تومسون، المستندة إلى أحداث حقيقية، وجرى نقلها لاحقاً إلى الشاشة بعنوان **Rain**[1]. وقد اعتبرتُ **Rain** دائماً كقطعة نموذجية. إن المحترم دافيدسون وزوجته شخصيتان مرسومتان بصورة مدهشة، أكثر إثارة للاهتمام من سادي تومسون. وكم كان تميّز تري في دور المحترم دافيدسون (لو قام به[2])! كان جعل منه شخصية ناعمة ولا تلين، لذيذة ومرعبة، في الوقت ذاته.

كانت هذه المجموعة الصغيرة تتردد باستمرار على مؤسسة من الدرجة السادسة والثلاثين، هي نوع من الهري المتصدع كان معروفاً باسم هوليود هوتيل. وكان الفندق قد أصبح شهيراً تقريباً مثلما ترث فتاة ريفية ثروة باندهال. كان يجري التصارع على الغرف التي بأسعار فاحشة، لسبب واحد هو أن اجتياز الطريق من لوس أنجلس إلى هوليود كان شبه مستحيل، وأن كل أولئك المشاهير في الأدب كانوا يريدون السكن بقرب الستوديوات. لكن كان يبدو الجميع كما لو كانوا ضائعين، كما لو أن كلاً منهم أخطأ العنوان.

كانت إيلينور غلين تشغل هناك غرفتين، حولت إحداهما إلى صالون، بأن غطت المخدات بأنسجة رُسمت عليها صورٌ بقلم البستل، ونشرتها على السرير بحيث يبدو على شكل صوفا. وهناك كانت تستقبل مدعويها.

تعرفت إلى إيلينور مساء اليوم الذي أقامت فيه حفلة عشاء لعشرة مدعوين. كان علينا أن نتلاقى في «الشقة» الخاصة بها لأجل الكوكتيل قبل الانتقال إلى غرفة الطعام. وقد كنت أول الواصلين.

ــ آه! قالت، وهي تأخذ وجهي بيدها وتتأملني بعينين ثابتتين، دعني أتطلع إليك. كم هذا خارق! كنت أعتقد أن عينيك سوداوان، وإذ بهما شديدتا الزرقة.

ومع أنها بدت لي مربكةً بعض الشيء في البداية، لم أتأخر في الشعور نحوها بمودة عظيمة.

مع أن إيلينور كانت رمزاً للاحترام البريطاني، فقد أثارت فضيحة في المجتمع الادواردي حين نشرت روايتها **Three Weeks**[3]. فالبطل، بول، هو شاب إنكليزي من عائلة محترمة يعيش قصة حب مع إحدى الملكات، كانت آخر الحماقات بالنسبة لهذه الأخيرة قبل أن تتزوج الملك العجوز. وبالطبع، فولي العهد الشاب هو ابن بول، لكن لا أحد يعرف ذلك. وبانتظار المدعوين الآخرين، اصطحبتني إيلينور لرؤية غرفتها التي كانت معلقة على جدرانها رسوم داخل إطارات لضباط بريطانيين شباب من الحرب العالمية الأولى. وقد أشارت إليهم

---

(١) المطر (م).

(٢) الإضافة من وضعنا، بهدف التوضيح (م).

(٣) ثلاثة أسابيع (م).

جميعاً بحركة كبيرة وهي تقول: ـ هؤلاء جميعهم پولاتي[1].

كانت مولعة بعلوم السحر والتنجيم. وأذكر أنه ذات بعد ظهر، اشتكت ماري بيكفورد من التعب والأرق، وكنا في غرفة هذه الأخيرة.

فأصدرت إيلينور أوامرها، قائلة: ـ دلوني أين هو الشمال.

ثم وضعت إصبعها بلطف على جبين ماري وهي تردد: ـ الآن هي تنام!

فاقتربت أنا ودوغلاس بخطوات صامتة لنتأمل ماري التي كان جفناها في حالة انبهار. وقد روت لنا ماري في ما بعد أنها تظاهرت بالنوم على مدى أكثر من ساعة، لأن إيلينور بقيت في الغرفة تراقبها.

كان ذائعاً صيت إيلينور على أساس أنها غريبة الأطوار، لكن لم يكن أحد يفوقها رصانةً. ولقد كان المفهوم الذي تكوِّنه عن الحب في السينما ينم عن سذاجة فتاة في مقتبل العمر: كانت السيدات الجميلات يدغدغن بأهدابهن الطويلة خدَّي الحبيب، ويذبلن من العشق على جلود النمور.

كانت الثلاثية التي كتَبَتْها لهوليود لا تتناسب مع العصر. فالفيلم الأول كان عنوانه **ثلاثة أسابيع**، والثاني **ساعته هو**، والثالث **أوانها هي**. وكان يشمل هذا السيناريو الأخير أحداثاً خارقة. فالبطلة، التي لعبت دورها غلوريا سوانسون، هي مخلوقة مميَّزة على وشك الزواج من رجل لا تحبه. ويصدف أنهما موجودان في غابة استوائية. ذات يوم، تنطلق وحدها في نزهة على متن جواد، وبما أنها تهتم بالنباتات، تترجل لتفحص زهرة نادرة. وفيما تنحني، تنتصب أفعى سامة وتلسعها في ثديها. فتضع غلوريا يديها على صدرها وتصرخ، فيسمع صراخها الرجل الذي تحبه حقاً، والذي كان يمر على مقربة من ذلك المكان صدفة. إنه الشاب الوسيم تومي مايغان، الذي يبرز في الحال من بين النباتات المعترشة: ـ ماذا جرى؟

فتشير إلى الأفعى قائلة:

ـ لقد لسعتني!

ـ وأين؟

فتشير إلى ثديها. أما هو فيقول وهو يعني الأفعى بالطبع:

ـ هذا هو أحد الأنواع الأفتك سُمّاً! هيا بسرعة! يجب فعل شيء ما! ليس أمامنا لحظة واحدة نضيعها!

كان على بعد كيلومترات عن أقرب طبيب، وليس وارداً اللجوء إلى العلاج المعتاد، أي الماسكة، المصنوعة من محرمة لإيقاف دورة الدم جزئياً. وفجأة، يمسك بها، ويمزق القميص التي ترتديها، معرّياً كتفيها الأبيضين، ثم يبتعد معها عن عين الكاميرا المبتذلة، وينحني على الفتاة الجريح منتزعاً السم بفمه، باصقاً شيئاً فشيئاً. وبعد أن تنتهي تلك العملية بواسطة الفم، تتزوجه هو.

(١) جمع بول، وهي تقصد أنها كانت على علاقة بهم جميعاً (م).

مع انتهاء عقدي مع شركة ميوتوال، كنت مستعجلاً للبدء مع شركة فورست ناشونال، لكن لم يكن لدينا ستوديو فقررت شراء أرض في هوليود لبناء ستوديو. وكانت تلك الأرض عند تقاطع بولفار سانسيت والبريا، وتشتمل على بيت جميل جداً من عشر غرف وهكتارين من أشجار الليمون الحامض والليمون والدراقن. وقد بنينا هناك مجموعاً متناسباً تماماً، مع مختبر سحب، وصالات مونتاج ومكاتب.

وخلال بناء الستوديو، قمت برحلة إلى هونولولو مع أدنا بورفيانس لأرتاح شهراً. وكانت هاواي آنذاك جزيرة رائعة. غير أن فكرة الحياة هناك، على بعد ثلاثة آلاف كيلومتر عن القارة، كانت فكرة ممضة. وبالرغم من جمالها الباهر، وما فيها من أناناس، وقصب سكر، وثمار وأزهار غريبة، كان يسرني أن أعود، لأني كنت أشعر بنوع غامض من رهاب الاحتجاز، كما لو أني سجين داخل زهرة زنبق.

كان من المحتّم أن أتأثر أخيراً بجوار امرأة بجمال إدنا بورڤيانس. حين وصلنا إلى لوس أنجلس لأجل العمل، كانت إدنا قد استأجرت شقة قرب الأتليتيك كلوب، وكل مساء تقريباً كنت أصطحبها إليه للعشاء. كانت لدينا كلينا نوايا جدية، وكانت تراودني، في الأعمال، فكرة أننا قد نتزوج ذات يوم، لكنني كنت أطرح على نفسي أسئلة بخصوص إدنا. لم أكن واثقاً بها، وكان ذلك يجعلني أقل ثقة بنفسي.

في عام ١٩١٦، لم نكن ننفصل أحدنا عن الآخر، وكنا نذهب إلى كل الأعياد، وكل حفلات الصليب الأحمر. وكانت إدنا، في تلك المناسبات، تبدي غيرتها، وكانت لديها طريقة مرهفة وماكرة بإظهارها. فإذا أبدى أحد ما اهتماماً كبيراً بي، كانت تختفي، ويأتي رسول ليخبرني أنها أغمي عليها، وهي تطلبني الآن؛ وبالطبع كنت أهرع إليها، وأمضي معها ما تبقّى من السهرة. وذات يوم، كانت المضيفة الرائعة، التي أقامت حفلة راقصة في حديقة على شرفي، تنتقل بي من جميلة إلى أخرى وانتهى بها المطاف إلى مخدع. ومرة أخرى، جاء من يخبرني أن إدنا قد أصيبت بالإغماء. ومع أنه كان يداعب غروري أن تطلبني دائماً فتاة بذلك الجمال، حالما تستعيد وعيها، فقد باتت تلك العادة تضايقني بعض الشيء.

وقد حصل الحل خلال استقبال لدى فاني وارد، حيث كانت تلتقي جمهرة من الفتيات الجميلات والشبان الوسيمين. لقد أغمي على إدنا مرة أخرى، لكن حين عادت إلى وعيها طلبت توماس مايغان، النجم الكبير والجميل في الباراماونت، ولم أعرف شيئاً في تلك الليلة، لكن فاني وارد أخبرتني بكل شيء في اليوم التالي. ذلك أنها إذ كانت تعرف مشاعري نحو إدنا، لم تكن تريد أن تراني وقد صرت مَضْحَكَةً.

ولم أصدق أذنيَّ. لقد أصيب كبريائي في الصميم، وغضبت. إذا كان ذلك صحيحاً ستكون تلك نهاية العلاقة بيننا. إلا أني لم أكن أستطيع التخلي عنها بتلك السرعة. سوف تترك فراغاً كبيراً جداً. وقد رحت أشعر بنفسي أعيش مجـدداً كل ما مثلناه أحدنا للآخر.

غداة تلك الحادثة، كنت عاجزاً عن العمل. وبعد الظهر، خابرت إدنا للحصول منها على توضيح، وبنيتي أن أزمجر وأوبخ. لكن بدلاً من ذلك، رجحت كفة عنفواني وبدوت ساخراً. ذهب بـي الأمر حتى إلى حد التنكيت:

ـ يبدو أنك أخطأت الاسم حين أغمي عليك لدى فاني وارد. . . لا بد أنك فقدت الذاكرة!

فانفجرت ضاحكة، وأحسست ببعض الارتباك في لهجتها وهي تقول:

ـ عمَّ تتحدث؟

كنت أتمنى أن تنكـر بحـرارة، لكنهـا تصـرفت بحـذق وسـألتني من قصَّ عليَّ تلك الحماقات.

ـ لا يهم. لكن كنت أظن أني أمثل ما يكفي بالنسبة إليك بحيث لا تهزِّئينني على الملأ.

وبهدوء شديد، أكدت أنهم قالوا لي أشياء غير صحيحـة.

وقد أردت جرحها بالتظاهر باللامبالاة، فقلت:

ـ لستِ مضطرة للتمثيل معي. أنتِ حرة تماماً بأن تفعلي ما يروق لك. فنحن لسنا متزوجين، وطالما أنت حية الضمير في عملك، فهذا كل ما يهم.

ووافقت إدنا بتهذيب على كل ما قلته، قائلةً إنها لا تريد أن يضايق أي شيء عملنا. وختمت بالقول إن في وسعنا أن نبقى صديقين، وهو الأمر الذي جعلني أشد تعاسة ويأساً.

تكلمت لمدة ساعة على الهاتف، مثاراً ومبلبلاً، باحثاً عن ذريعة لكي نتصالح. وكالعادة في ظروف كتلك، شعرت نحوها بتجدد الشغف ودعوتها في نهاية حديثنا للعشاء معاً في المساء ذاته كي نناقش الوضع.

وترددت، لكنني أصررت، لا بل توسلت، تضرعت، متخلياً عن دفاعاتي وكبريائي. فانتهى بها الأمر إلى الموافقة. . . وأكلنا في ذلك المساء شـريحتين من الجامبـون والبيض حضّرتهما في بيتها.

وقد توصلنا لنوع من المصالحة وهدأت أعصابـي قليلاً. وأياً تكن الأحوال، نجحت في

العمل في اليوم التالي. إلا أني كنت أحمل معي قلقاً مُمِضّاً، في الوقت ذاته الذي أوبخ فيه نفسي. وجدت مثلاً أني أهملت إدنا أحياناً. كنت فريسة مأزق. هل عليَّ أن أقطع علاقتي بها نهائياً أم لا؟ ربما كانت هذه القصة بصدد مايغان غير صحيحة؟

بعد ثلاثة أسابيع، جاءت إلى الستوديو لتستلم حوالتها. وقد صادفتها في اللحظة التي كانت مغادرة فيها. كان معها شخص آخر. وقالت بهدوء:

ـ هل تعرف تومي مايغان؟

كانت تلك صدمة لي. وفي تلك اللحظة القصيرة، باتت إدنا غريبة، كما لو كنت ألتقيها أول مرة في حياتي.

ـ بالطبع، قلت. كيف الأحوال يا تومي؟

كان مرتبكاً بعض الشيء. وقد تصافحنا، وبعد تبادل المزاح، غادرا الستوديو معاً.

لكن الحياة ليست غير مرادف للصراع وهي لا تترك لنا فرصة للراحة. فحين لا تكون مشكلة الحب، تكون مشكلة أخرى. لقد كان النجاح مدهشاً، لكنه كان يستتبع جهداً للحاق بإيقاع تلك الحورية الخائنة، التي تسمّى الشعبية. إلا أني وجدت عزاءً لي في العمل.

لكن الكتابة والتمثيل والإدارة على مدى ٥٢ أسبوعاً في العام كانت تمثل إنفاقاً فاحشاً للطاقة العصبية. كنت أجد نفسي في نهاية فيلم مكتئباً، منهكاً، بحيث كان يلزمني إمضاء يوم في السرير لأرتاح.

قرابة المساء، كنت أنهض، وأقوم بنزهة قصيرة. وتحت وطأة الكآبة، كنت أتيه في المدينة، متأملاً الواجهات من دون أن أراها. لم أكن أحاول في تلك اللحظات أن أفكر إطلاقاً، كان دماغي خدِراً. لكن سرعان ما كنت أستعيد قواي. وعموماً، في الصباح التالي، حين كنت أنطلق نحو الستوديو، كنت أستعيد حيويتي، ويعود عقلي إلى العمل.

لما لم يكن لديَّ أكثر من فكرة غامضة في البدء، كنت أطلب ديكورات، وفيما كان يجري بناؤها، كان مصمّم الديكور يأتي لطلب تفاصيل أكثر دقة، وكنت أبلف، موضحاً له أين أريد أبواباً أو معابر. وبهذه الطريقة، بدأت أكثر من كوميديا.

كانت نفسي محبوكةً أحياناً كحبل، وكنت بحاجة للاسترخاء. وفي حالة كهذه، كانت سهرة في الخارج تبدو فعالة. وأنا لم أحب الكحول يوماً كمنشّط. وفي الواقع، حين كنت أعمل، كان لديّ اعتقاد متوسوس بأن أي منشط يؤثر على فطنة المرء سلباً. وكان يبدو لي أنه لا شيء يتطلب منك أن تكون يقظاً أكثر من تصوّر كوميديا وإخراجها.

أما بخصوص الحب، فالأكثر صفاء كان يتم في عملي. حين كان يرفع، أيًّا يكن، رأسه الرائع، كانت الحياة سيئة الإعداد بحيث إما أن تكون في مرحلة فيض أو في حالة قحط. لقد كنت، من جهتي رجلاً منضبطاً، وكنت أتعامل بجدية مع عملي. ومثل بالزاك، الذي كان يقدِّر أن ليلة حب تمثل التضحية بصفحة في رواية، كنت أعتقد أيضاً أن ذلك يعني التضحية بيوم عمل جيد في الستوديو.

حين علمت روائية معروفة أني أكتب سيرتي الذاتية، قالت لي: «آمل أن تكون لديك شجاعة قول الحقيقة». وقد كنت أظن أنها تتحدث عن آرائي السياسية، لكنها كانت تلمِّح إلى حياتي العاطفية. ولا شك أن الناس ينتظرون أن يجدوا في سيرة ذاتية حديثاً من جانب الكاتب عن حياته الجنسية، وأنا لا أعلم ما السبب. وفي رأيي أن ذلك لا يقدم عناصر تتيح فهم طبع ما أو توضيحه. وخلافاً لفرويد، لا أعتقد أن الحياة الجنسية تشكل العنصر الأهم في السلوك. فمن شأن البرد، والجوع والخجل الناتج من الفقر أن تؤثر أكثر على النفسيات.

مثلي مثل جميع الناس، كانت حياتي العاطفية تمر بأدوار. فتارة أكون شديد الحيوية وطوراً مثيراً للخيبة لكن لم يكن ذلك أكثر ما يثير اهتمامي في الحياة. كانت لدي موضوعات أخرى للاهتمام على صعيد الإبداع، وكانت تشدني بالدرجة ذاتها. إلا أنه ليس قصدي في هذا الكتاب إعطاء وصف مفصَّل لمبارزة عاطفية. فأنا أجد ذلك فاقداً للفن، وعادياً، وعديم الشعر. وأجد أن الظروف التي تفضي إلى ممارسة الحب أكثر إثارة للاهتمام.

ولقد كنت أريد التذكير على هذا الصعيد بحادثة مرتجلة جميلة كنت بطلها في الألكسندريا هوتيل، في أول مساء وصلت فيه إلى لوس أنجلس، عائداً من نيويورك. كنت قد صعدت باكراً إلى غرفتي وبدأت أخلع ثيابي وأنا أرندح نغماً كان شديد الرواج في ذلك الحين في نيويورك. ومن وقت لآخر، كنت أتوقف، شارداً مع أفكاري، فيستأنف صوت نسائي قادم من الغرفة المجاورة تلك الأغنية من النقطة التي توقفت عندها. وكنت أواصل بعد ذلك، إلى أن صار هذا نوعاً من اللعب. وهكذا وصلنا في الأخير إلى نهاية الأغنية. هل يجب القيام بالتعارف؟ كان في ذلك نوع من المخاطرة. ثم لم أكن أعرف بتاتاً ماذا تشبه جارتي. وعدت إلى الصفير، فعادت الكوميديا من جديد.

ــ ها ها ها!! كم هذا طريف!» قلت ضاحكاً وبصوت خافت، بحيث يمكن أن يبدو كما لو كنت أخاطبها، كما قد يبدو كما لو كنت أخاطب نفسي.

وجاء صوت من الغرفة المحاذية:

ــ عفواً!

فهمست عبر ثقب الباب:

ــ من البديهي أنك تصلين للتو من نيويورك.

أجابت:

ــ أنا لا أسمع ما تقول.

فقلت:

ــ افتحي الباب، إذاً.

ــ سوف أفتحه قليلاً جداً، لكن لا تفكِّرَنَّ بالدخول.

ــ حسناً، اتفقنا.

فشقت الباب دزينة سنتيمترات، ورأيت الشقراء الأكثر روعة التي يمكن أن يحلم بها

المرء وهي تتفحص وجهي. لا أذكر بالضبط ماذا كانت ترتدي، لكن بدا لي كما لو كانت تلبس ثياب بيت حريرية رائعة الأثر.

قالت بلهجة فاتنة وهي تُبرز أسنانها البيضاء الجميلة:

ــ لا تدخل أو أقتلك!

ــ مساء الخير»، تمتمت، وقدَّمت نفسي.

كانت تعرف من قبل من أنا، وأن غرفتينا متجاورتان.

وفي الليل بعد ذلك، قالت لي إن عليَّ في شتى الظروف ألا أعطي انطباعاً أمام الآخرين بأني أعرفها، وحتى ألا أحييها إذا تلاقينا في بهو الفندق. وهذا هو كل ما عرفته عنها.

في المساء التالي، حين وصلت إلى غرفتي، قرعَتْ صراحةً على الباب وعدنا إلى لهونا الليلي. وفي المساء الثالث، بدأتُ أشعر بالتعب، ثم كان هناك عملي ومهنتي اللذان كان عليَّ التفكير فيهما. لذا فتحت في اليوم الرابع بابي بتؤدة، ثم دخلت بخطوات صامتة، آملاً أن أنام من دون أن يشعر أحد بوجودي؛ لكنها سمعتني وبدأت تقرع الباب، فلم أجب هذه المرة، وذهبت مباشرة إلى النوم. وحين التقت بي في اليوم التالي في البهو، نظرت إليَّ بعينين من جليد.

وفي المساء التالي، امتنعت عن القرع، لكن قبضة الباب صرَّت، ورأيتها تدور ببطء، لكنني كنت قد أقفلت من جهتي. هزت القبضة عندئذ بعنف، ثم قرعت بنفاد صبر. وفي صباح اليوم التالي، رأيت من الأفضل أن أغادر الفندق، وعدت للإقامة في الأتليتيك كلوب.

كان فيلمي الأول في الستوديو الجديد بعنوان **A Dog's life**[1]. وكان في السيناريو عنصر هجائي، لأني كنت أقيم مقارنة بين حياة كلب وحياة متشرد. وكانت هذه اللازمة تشكل البنية التي بنيت عليها إثارات هزلية وتأثيرات ساخرة كلاسيكية. كنت بدأت أهتم ببناء كوميدياتي وبوعي هندستها. كانت كل متتالية[2] تستدعي المتتالية اللاحقة، وكان مجملها يشكل الكل.

كانت المتتالية الأولى تُظهر إنقاذ كلب جرى انتزاعه من معركة مع بعض أبناء جنسه. وفي المتتالية الثانية، جرى إنقاذ ابنة في قاعة رقص، كانت تعيش هي الأخرى «حياة كلب». وكانت هنالك أيضاً متتاليات عديدة أخرى تتبع كلها تسلسل الأحداث المنطقي. ومع أن هذه الكوميديات الساخرة كانت بسيطة وغير متكلفة، كان يدخل فيها الكثير من التفكير والإبداع. فإذا كانت إثارة هزلية تسيء إلى منطق الأحداث، مهما تكن طريفة، كنت أمتنع عن استخدامها.

كانت شخصية تشارلي، في مرحلة العمل مع كيستون، أكثر حرية، وأقل تبعية للعقدة. لم يكن دماغه يفيد إلا نادراً؛ ولم يكن يلجأ إلا إلى غرائزه التي لم تكن تهتم إلا بالجوهري:

---

(١) حياة كلب (م).

(٢) سلسلة من اللقطات السينمائية تشكل جانباً من الفيلم (م).

المسكن والغطاء، والدفء. لكن مع كل كوميديا ناجحة، كانت شخصية تشارلي تصبح أكثر تعقيداً، ذلك أن العاطفة بدأت ترشح عبرها. وكان ذلك يطرح مشكلة، لأنه كانت تحده، أيًّا يكن، حدود الكوميديا الساخرة. وربما بدا ذلك مدّعياً، لكن النوع الهزلي الساخر يتطلب سيكولوجيا أكثر دقة.

لقد وجدت الحل يوم تصورت تشارلي كنوع من البييّرو. مُذَّاك بت أكثر حرية في تعبيري وأصبحت قادراً، بسهولة أكبر، على تجميل الكوميديا بلمسات عاطفية صغيرة. لكن من الناحية المنطقية، كان من الصعب إيجاد فتاة جميلة يثير اهتمامَها متشرد. وقد كان ذلك هو المشكلة الكبرى في أفلامي. ففي The Gold Rush[1]، تبدأ البطلة بالاهتمام بتشارلي عن طريق تدبير مقلب له، الأمر الذي يحرك بعد ذلك شفقتها حياله، هذه الشفقة التي يفهمها على أنها الحب. أما فتاة أضواء المدينة فعمياء. وفي هذا المثل الأخير، كان يبدو لها حالماً ورائعاً إلى اليوم الذي استعادت فيه بصرها.

بمقدار ما كان ينمو حذقي في بناء قصة، كانت تضيق حرية الكوميديا بالنسبة لي. وقد كتب لي يوماً معجبٌ كان يفضل أفلامي الأولى من طراز كيستون على أفلامي الأكثر حداثة: «كان الجمهور عبداً لك في ذلك الحين، أما اليوم فأنت عبد الجمهور». حتى في تلك الكوميديات الأولى، كنت أحاول أن أخلق جواً؛ وكنت أنجح في ذلك بفضل الموسيقى. وقد قدمت لي أغنية قديمة بعنوان Mrs Grundy جوّ فيلم المهاجر The I mmigrant. كانت الميلوديا مطبوعة برقة مفعمة بالحنين كانت تجعل المرء يفكر بمتوحِّدَيْن بائسين تزوجا في نهار كئيب وماطر.

تُظهِر القصة تشارلي في طريقه إلى أميركا. وفي أنبار السفينة، يلتقي فتاة وأمها كانتا لا تقلان فقراً عنه. وحين يصلون إلى نيويورك يفترقون. ثم يجد الفتاة في الأخير، لكنها وحيدة، ولم تنجح، مثله. وفيما هما يثرثران، تسحب سهواً منديلاً مطرزاً بالأسود، إشارةً إلى أن أمها قد ماتت. وبالطبع، يتزوجان في النهاية في يوم كئيب وماطر.

لقد أعطتني هكذا ألحان قصيرة بسيطة جداً صورة كوميديات أخرى. في إحداها، وكانت بعنوان Twenty Minutes of love ، حيث تتعاقب مشاهد المناوشات والسخرية الهازلة في حديقة عامة، مع رجال شرطة ومربيات أطفال، انتقلت من متتالية لأخرى على ألحان Too Much Mustard، وكان لحناً راقصاً ذائع الصيت عام ١٩١٤. وقد ألهمتني أغنية Violetera أضواء المدينة، وAuld Lang Syne الهجوم على الذهب.

منذ عام ١٩١٦، كانت لديّ أفكار عديدة لأفلام كبرى: على سبيل المثال، رحلة إلى القمر، ومشهد كوميدي يُظهر الألعاب الأولمبية وإمكانات اللعب مع قوانين الجاذبية. كان أمكن أن يكون هجاءً للتقدم. فكرت في آلة للتغذية، وفي قبعة لاسلكية ـ كهربائية يمكنها أن تسجل الأفكار، وفي الإزعاجات التي قد أتسبب بها لنفسي بوضعها على رأس الإنسان الآتي

---

(١) الهجوم على الذهب (م).

من القمر، بعد تقديمي كزوجته الفاتنة. وقد استخدمت في الأخير آلة التغذية في فيلم **الأزمنة الحديثة**.

سألني صحفيون كيف تجيئني أفكار أفلامي، وإلى اليوم لم أتمكن من إجابتهم بصورة مُرْضية. وعلى مدى السنين، اكتشفت أن الأفكار تأتيك حين تشعر برغبة شديدة في العثور عليها. هكذا يصبح العقل نوعاً من برج الرصد، حيث نترقب كل حادثة من شأنها إثارة الخيال: يمكن الموسيقى أو غروب شمس إعطاء صورة لفكرة.

أظن أن الطريقة الجيدة تكمن في اختيار موضوع يحفزك، وفي تنميته وضبطه، ثم إزاحته لاختيار موضوع آخر، إذا كنت قادراً على المضي أبعد فأبعد. الطرح بعد الجمع والمراكمة: هكذا يمكن اكتشاف ما نريد.

كيف نأتي بالأفكار؟ بالمثابرة المدفوع بها إلى حدود الجنون. يجب أن تكون لدينا القدرة على تحمل القلق والاحتفاظ بحماسنا لمدة طويلة. ربما كان ذلك أسهل بالنسبة للبعض مما بالنسبة لآخرين، لكنني أشك في ذلك.

بالطبع، كل كوميدي بالقوة يمر بطور تعميمات فلسفية بصدد الكوميديا. كان «عنصر المفاجأة والترقّب القلق» جملة نسمعها كل يوم لدى كيستون.

لن أحاول الغوص في أعماق التحليل النفسي لتفسير سلوك الناس، الذي لا يمكن شرحه بقدر ما لا يمكن شرح الحياة بالذات. وأكثر من الحياة الجنسية أو الاضطرابات الطفولية، أعتقد أن التأسلية[1] هي التي في أصل معظم التصورات التي تقودنا؛ بيد أني لم أكن بحاجة لقراءة الكتب من أجل معرفة أن موضوعة الحياة الكبرى هي الصراع، وهي العذاب أيضاً. كانت كل تهريجاتي تستند فطرياً إلى ذلك. وكانت طريقتي لتنظيم عقدة كوميديا بسيطة: كانت تتمثل في إغراق الشخصيات في الإزعاجات وإخراجها منها.

لكن الفكاهة مختلفة وأكثر رهافة. لقد حللها ماكس إيستمان في كتابه **A Sense of Humour**[2]. وهو يحددها بصورة جوهرية كما لو كان يتسبب بها الألم الذي تشعر به فيما أنت تضحك. وهو كتب أن الـ **Homo Sapiens** مازوشي، يتلذذ بالألم بأشكال عديدة وأن الجمهور يحب الألم بالوكالة، مثلما الأولاد حين يلعبون لعبة الهنود: يعشقون السقوط صرعى بطلقات نارية، وأن يتلووا بعد ذلك في عذابات الاحتضار.

أنا موافق على كل هذا. لكن الأمر يتعلق بتحليل دراما أكثر مما بالفكاهة، مع أن الحالتين تتشابهان كثيراً. إن تصوري الخاص بي للفكاهة مختلف بعض الشيء: أرى أنه المَيَلان الخفيف الذي نميزه في ما يبدو السلوك العادي. بتعبير آخر، إن الفكاهة تسمح لنا بأن نرى ما هو غير عقلاني عبر ما يبدو عقلانياً. إنه يعزز أيضاً غريزة البقاء لدينا، ويحفظ صحتنا

---

(١) وراثة الأفكار والتصرفات المتحدرة من الأجيال السابقة (م).

(٢) حس الفكاهة (م).

العقلية. بفضل الفكاهة يصبح رزوحنا تحت تقلبات الحياة أقل حدة. إنها تنمي حس النُّسب لدينا وتكشف لنا أن العبث يجول دائماً خلف صرامةٍ مبالغ بها.

هكذا في دفن يجتمع فيه الأصدقاء والأهل في صمت ورع حول نعش الفقيد، يصل شخص متأخر في اللحظة بالذات التي سيبدأ فيها الاحتفال، ويسارع بخفة إلى مكانه الذي ترك فيه أحد المفجوعين قبعته العالية. وبسبب السرعة، يجلس المتأخر عليها مصادفةً، ثم بتعبير رسمي عن الاعتذار الصامت يمدُّها وقد انسحقت بالكامل إلى صاحبها الذي ينتـزعها بانزعاج ليس أقل صمتاً، في الوقت ذاته الذي يستمر فيه في متابعة الاحتفال. وهكذا تتخذ جدية اللحظة وصرامتها طابع المضحِك.

في بداية الحرب العالمية الأولى، كان الرأي العام يقدّر أن الأعمال القتالية لن تدوم أكثر من أربعة أشهر، وأن علم الحرب الحديثة يفرض ضريبة هائلة من الخسائر البشرية بحيث قد تضغط البشرية لوقف مجزرة بهذه الهمجية. لكننا كنا مخدوعين. لقد رأينا أنفسنا وسط جُرْفٍ من التدمير المجنون والمذبحة التي لا ترحم، دام أربع سنوات، وسط ذهول الإنسانية جمعاء. كنا قد تسببنا بنزيف ذي أحجام عالمية ولم نكن نعرف كيف نوقفه، فمئات الألوف من الكائنات البشرية كانت تقاتل وتموت، وكان الناس قد بدأوا يريدون أن يعرفوا لماذا اندلعت الحرب وكيف. وكانت التبريرات تفتقر إلى الوضوح. فالبعض قالوا إن السبب هو مقتل أرشيدوق؛ لكن كان يصعب القبول بأن هذا يمكن أن يكون سبباً لنزاع من هذا النوع. كان الناس يطالبون بتوضيح أكثر واقعية، فقيل عنئذ أن تلك حرب لضمان مستقبل الديمقراطية في العالم. وفي حين كانت الشظايا تحصد ملايين الجنود، كانت كلمة «الديمقراطية» تصعد ببطء. لقد تهاوت العروش، وخُلقت الجمهوريات، وتبدَّل بذلك وجه أوروبا.

لكن في عام ١٩١٥، أعلنت الولايات المتحدة أنها «معتزة بنفسها كثيراً بحيث لن تقاتل». وقد أوحى ذلك بأغنية **Idid'nt raise my boy to be a soldier**(١)، التي لقيت نجاحاً شعبياً هائلاً، إلى اليوم الذي فُجِّرت فيه اللوزيتانيا **Lusitania** بالطوربيد، فأوحى ذلك بأغنية مختلفة تماماً هي **overthere**(٢)، ولازمات أخرى كثيرة مطربة. وحتى إغراق لوزيتانيا، لم يكن الناس في كاليفورنيا يشعرون بعبء الحرب. لم يكن ينقصهم شيء، ولم يكن يخضع أي إنتاج للتقنين. كان يجري تنظيم أعياد وحفلات رقص في الجنائن، كانت ذرائع للقاآت اجتماعية. ففي أحد المهرجانات، تبرعت سيدة بعشرين ألف دولار للصليب الأحمر لتحصل على مقعد بقربي على عشاء مختار. لكن كلما كان يمضي الوقت، كان كل واحد يدرك حقيقة الحرب المشؤومة.

في عام ١٩١٨، كانت أميركا قد أطلقت حملتين لبيع قسائم للحرية، وطُلب منا، أنا

(١) لم أربِّ ابني ليصير جندياً (م).
(٢) أبعد أيضاً (م).

وماري بيكفورد ودوغلاس فيربانكس، أن نطلق رسمياً الحملة الثالثة في واشنطن.

كنت أنهيت للتو أول فيلم لي لحساب الفورست ناشونال، بعنوان حياة كلب. ولما كنت مضطراً وفقاً لبنود العقد لإنهائه في الوقت ذاته الذي كانت تبدأ فيه تلك الحملة، أمضيت ثلاثة أيام بنهاراتها ولياليها من دون أن أنام، لإنجاز المونتاج. وما إن انتهى ذلك، أخذت القطار وأنا منهمك تماماً، ونمت يومين. وحين وصلت، بدأنا نحن الثلاثة نكتب خُطبنا. وبما أني لم ألق من قبل خطاباً جدياً، كنت عصبياً بعض الشيء، ونصحني دوغلاس بالتمرن عليه أمام الحشود التي كانت تنتظرنا في المحطات. كنا نتوقف في مكان ما، ويتجمع الجمهور خلف آخر مقطورة. ومن موقف القطار، كان دوغ يقدّم ماري التي تلقي خطاباً صغيراً، ثم يقدمني، لكن بالكاد كنت أبدأ كلامي حتى كان القطار ينطلق، وكلما ابتعد عن الجمهور كنت أصبح أكثر بلاغة، وتأثيراً، وتزداد ثقتي بنفسي فيما الجمهور يختفي في البعيد شيئاً فشيئاً.

وفي واشنطن، مررنا في الشوارع كذوي سلطان، قبل أن نصل إلى ميدان كرة القدم حيث كان علينا أن نلقي خطبنا الأولى.

كانت منصة الخطباء مصنوعة من ألواح خشبية مجموعة بطريقة فظة، ومحاطة بالأعلام والرايات. وبين ممثلي القوات البرية والمارينز كان هناك شاب وسيم وطويل القامة يقف قربي، ورحنا نتبادل أطراف الحديث. وقد شرحت له أني لم أتكلم يوماً أمام الجمهور واني قلق جداً. فقال لي برباطة جأش:

ــ ليس هنالك من سبب لتخاف. تقدم مباشرة نحو الهدف، قل لهم أن يشتروا قسائم الحرية، ولا تحاول أن تضحكهم.

ــ حسناً، حسناً، لا عليك»، قلت له بلهجة ماكرة. وفي الحال تقريباً، سمعت أني أُقدَّم للجمهور، فقفزت إلى المنصة على طريقة دوغلاس فيربانكس ورحت أتكلم بسرعة الرشاش، ومن دون أن آخذ نَفَساً:

ــ الألمان على الأبواب! ويجب ايقافهم! وسوف نوقفهم إذا اشتريتم قسائم الحرية! لا تنسوا: كل قسيمة تشترونها تنقذون بها حياة جندي... ابن لكم! وتسرّعون النصر!

كنت أتكلم بسرعة كبيرة، وبحالة شديدة من الإثارة. بحيث انزلقت عن المنصة، وتشبثت بماري درسلر وسقطت معها على صديقي الشاب، الذي لم يكن غير السكريتير المساعد في المارينز، فرانكلين د. روزفلت.

بعد الاحتفال الرسمي، كانوا سيقدموننا إلى الرئيس ويلسون في البيت الأبيض، وكنا في قمة الاثارة حين أدخلونا إلى الصالون الأخضر. وقد انفتح الباب فجأة، وظهر سكريتير وقال بجفاف:

ــ أرجو أن تصطفّوا وتتقدموا خطوة واحدة.

ثم دخل الرئيس.

كانت ماري بيكفورد هي التي أخذت المبادرة، وقالت:

ــ سيدي الرئيس، لقد كان اهتمام الجمهور كبيراً، وانا واثقة من أن الحملة ستكون ناجحة جداً.

ــ هذا صحيح تماماً، وأنا واثق. . . »، قلت بعدها متلعثماً، وأنا ضائع تماماً.

فنظر الرئيس إليَّ غير مصدق، ثم روى نكتة عن وزير للديوان كان يحب الوسكي كثيراً. وضحكنا كلنا بتهذيب، قبل أن يخرج.

كان دوغلاس وماري قد اختارا الولايات الشمالية لحملتهما لبيع القسائم، بينما اخترت أنا الولايات الجنوبية. وبما أني لم أكن قد ذهبت إلى هناك من قبل، دعوت صديقاً من لوس انجلس، هو روب فاغنر، وكان رسَّام صور وكاتباً، لمرافقتي. وقد كانت تلك الجولة منظمة بحذق بحيث بعت قسائم بملايين الدولارات.

في إحدى مدن كارولاينا الشمالية، كان رئيس لجنة الاستقبال أكبر رجل أعمال فيها. وقد اعترف لي بأنه كان لديه عشرة صبية في المحطة مع فطائر بالكريما، على استعداد لقصفي بها، لكنه حين رأى موكبنا الوقور فيما كنا ننزل من القطار، وجد من الأفضل أن يغيِّر رأيه.

وقد دعانا الشخص ذاته للعشاء، وكان دعا أيضاً عدة جنرالات أميركيين من بينهم الجنرال سكوت الذي لم يكن يحبه بالطبع. وقد سأل خلال المأدبة:

ــ ما الفرق بين ضيفنا وموزة؟

وبعد توتر خفيف على صعيد الحضور، أضاف:

ــ حسناً، إن الموزة تقشر.

أما بصدد أسطورة الجنتلمان الجنوبي، فقد التقيت تجسيداً كاملاً له في أوغوستا، بجورجيا، هو القاضي هنشاو، رئيس لجنة الحملة. فلقد تلقينا رسالة منه يعلمنا فيها بأنه لما كنا سنصل إلى أوغوستا في يوم عيد ميلادي، فلقد نظم استقبالاً صغيراً لي في الكاونتري كلوب. وقد رحت أتصور نفسي وسط جمهور كبير، مضطراً لتحريك الأحاديث، ولما كنت منهكاً فقد قررت الرفض، والذهاب مباشرة إلى الفندق.

وفي العادة، حين كنا نصل إلى محطة، كان يستقبلنا جمهور كبير من الناس مع الجوقة الموسيقية، لكننا لم نجد في أوغوستا غير القاضي هنشاو، مرتدياً معطفاً أسود، وعلى رأسه قبعة باناما قديمة مال لونها إلى الأصفر بسبب أشعة الشمس. كان قليل الكلام، لكنه ودود لبق، وقد اصطحبنا، أنا وروب، إلى الفندق في عربة لاندو قديمة.

سارت بنا السيارة لبعض الوقت ونحن صامتون. وقد كان القاضي هو الذي قطع الصمت، قائلاً:

ــ إن ما أحبه في كوميدياتك، هو معرفتك للشيء الجوهري: فأنت تعرف أن القسم الأكثر عيباً في جسم الإنسان إنما هو قفاه، وكوميدياتك تثبت ذلك. فحين تلبط جنتلماناً محترماً على قفاه، تفقده كل كرامة. وحتى الطابع المؤثر لحفلة استلام رئيس تنهار إذا تسللت إلى

خلف الرئيس ولبطته على قفاه. (وفي حين كانت العربة تسير بنا تحت الشمس، أحنى رأسه جانبياً بطريقة ساخرة واستأنف مناجاة نفسه، خاتماً بالقول) ليس من شك في أن القفا هو مركز الكرامة.

نكعت روب بمرفقي وتمتمت في أذنه:

ــ سوف نحضر استقبال ذكرى مولدي.

وقد حدث ذلك في اليوم ذاته الذي تم فيه اللقاء الجماهيري. كان هنشاو قد دعاني مع ثلاثة أصدقاء آخرين، ورجاني أن نسامحه لأنه اقتصر في دعوته على هذا العدد القليل، قائلاً إنه أناني ويريد احتكار الاستمتاع بحضورنا.

كان نادي الغولف محاطاً بإطار رائع. كانت ظلال الأشجار الباسقة، التي تنتشر على المرج الأخضر، تضفي على المشهد جواً من الأناقة الهادئة كنا نتمتع به جالسين نحن الستة إلى طاولة مستديرة يتصدرها قالب غاتو، خاص بعيد ميلاد، مع شموع بالمناسبة.

أما القاضي ففيما كان يقضم ضلع كرفس، وعيناه تبرقان، نظر إلينا، أنا وروب، وقال:

ــ لا أدري إذا كنتم ستبيعون الكثير من القسائم في أوغوستا... فأنا لست ضليعاً جداً بشؤون التنظيم. لكن أعتقد أن السكان يعرفون أنكما وصلتما.

وبدأت أبدي انخطافي بروعة المنظر، فقال:

ــ أجل، لا ينقص غير شيء واحد: شراب الجلاّب.

وقد وصل بنا ذلك إلى الحديث عن احتمال منع المسكرات، ومنافع ذلك ومساوئه. فقال روب:

ــ إذا صدقنا التقارير الطبية، سيكون للمنع تأثير ملائم لصحة السكان. فالنشرات الطبية تؤكد أنه ستتناقص أمراض قرحة المعدة إذا توقفنا عن شرب الوسكي.

فأبدى القاضي استياءه، قائلاً:

ــ لا دَخْل للمعدة، حين يجري الكلام على الوسكي؛ فالوسكي غذاء الروح! (ثم استدار نحوي). تشارلي، هذا عيد ميلادك التاسع والعشرون وأنت لم تتزوج بعد؟.

ــ كلا، قلت ضاحكاً، وأنت؟

فقال وهو يتنهد بحنين:

ــ كلا. لقد سمعت بالكثير من حالات الطلاق. مع ذلك، لو عدت شاباً لتزوجت. فالمرء يحس بالكثير من الوحدة حين يبقى عازباً. أنا القاضي الأكثر تعرضاً للنقد في جورجيا. إذا لم يكن الناس يريدون الحياة معاً، فأنا لا أريد إجبارهم على ذلك.

بعد حين، نظر روب إلى ساعته، وقال:

ــ إذا كان اللقاء الشعبي سيبدأ في الثامنة والنصف، يجب أن نستعجل.

كان القاضي يقضم ضلع الكرفس من دون استعجال:

ــ لديكما فسحة طويلة من الوقت. إبقيا معي إذاً نقتل الوقت ببطء. أنا أعشق التباطؤ.

وإذ كنا ذاهبين إلى اللقاء، اجتزنا حديقة عامة صغيرة، كان فيها حوالى عشرين تمثالاً لشيوخ تبدو عليهم مظاهر بذخ مضحك، وبعضهم يضع يداً خلف ظهره، ويمسك بالأخرى رقّاً، واضعاً إياها على حوضه. وقد قلت مازحاً إنهم يمثلون بالضبط الأشخاص المناسبين لتلك اللبطة في القفا التي سبق أن تحدث عنها.

ــ أجل، قال بلا مبالاة، إنهم يبدون ممتلئين بالريح والجمل الكبيرة.

وقد دعانا إلى بيته، وكان منزلاً جورجياً حيث واشنطن «نام حقاً»، يمتلىء بأثاث أميركي قديم، من القرن الثامن عشر.

ــ «كم هذا جميل!»، قلت.

ــ أجل، لكن من دون امرأة، هو فارغ مثل علبة جواهر.

لقد زرنا في الجنوب عدة مخيمات تدريب ورأينا أكثر من وجه حزين ومفعم بالمرارة. أما انتصار جولتنا فكان في المرحلة الأخيرة في وال ستريت بنيويورك، حيث بعنا، أنا وماري ودوغلاس قسائم بأكثر من مليوني دولار.

كانت نيويورك تبدو مثيرة للكآبة، إذ كان غول النزعة العسكرية في كل مكان. لم تكن ثمة وسيلة للإفلات منه. لقد اندفعت أميركا إلى قالب الطاعة العمياء وبات دين الحرب فوق كل شيء. ولم يكن المرح الزائف للأبواق التي كانت تصدح في شِعْب ماديسون أفنيو الكئيب أقل إثارة للحزن حِين كنت أسمعها من نافذتي في الطابق الثاني عشر من فندقي، وهي تسير ببطء في اتجاه الباتري من أجل الإبحار.

لكن بالرغم من هذا الجو، كان يتسلل إلى كل ذلك أحياناً شيء من الفكاهة. كانت عدة أجواق عسكرية ستجتاز البال بارك وتمر أمام حاكم نيويورك. وأمام الملعب، عمد ويلسون ميزنر، وكان رفع شارة وطنية من صنعه، إلى إيقاف كل أجواق الموسيقى العسكرية طالباً منها أن تعزف النشيد الوطني فيما هي تمر أمام منصة الحاكم. وبعد أن وقف الحاكم وكل حاشيته للمرة الرابعة، وجد من الضروري إعلام باقي الأجواق بأنه لن يكون عليها بعد الآن أن تعزف النشيد الوطني.

قبل أن أغادر لوس أنجلس للقيام بالحملة الثالثة لبيع قسائم الحرية، التقيت ماري دورو. كانت قد جاءت إلى هوليود لتكون نجمة لأفلام شركة باراماونت. ولما كانت معجبة كثيراً بشارلي شابلن، قالت لكونستانس كولييه إنه الشخص الوحيد الذي ترغب في التعرف إليه في هوليود. . . غير منتبهة إطلاقاً إلى أني سبق أن مثلت معها في لندن، في مسرح دوق يورك.

رأيت ماري دورو إذاً من جديد، كما لو كنا في الفصل الثاني من مسرحية رومانسية. وحين قدمتني كونستانس قلت:

ــ لكننا نعرف أحدنا الآخر من قبل. لقد حطمتِ لي قلبي، إذ كنت أشعر نحوك بحب صامت.

كانت ماري لا تزال تحتفظ بجمالها كاملاً، وقد نظرت إليّ من وراء نظارتها وقالت:

ــ كم هذا رائع!

فأوضحت لها عندئذٍ أنني لعبت دور بيلي في **شارلوك هولمز**. وتعشينا بعد ذلك في الحديقة. كانت أمسية صيف ناعمة، وعلى ضوء الشموع حدثتها عن خيبات فتى كان متيماً بها من دون أن يقول لها ذلك، وكيف أنني كنت أحسب في مسرح دوق يورك وقت خروجها من مقصورتها بحيث التقيها على الدرج واغمغم: «مساء الخير». تحدثنا عن لندن وباريس، وكانت ماري تعبد باريس، وتذكّرنا معاً الحانات والمقاهي، ومكسيمز والشانزيليزيه. . . .

ولنفكر أن ماري موجودة حالياً في نيويورك! لقد كتبت لي رسالة، بعد أن علمت بأني نزلت في الريتز، تدعوني فيها للعشاء في شقتها:

عزيزي شارلي

لدي شقة تطل على الشانزيليزيه (ماديسون أفنيو)، يمكننا أن نتعشى فيها، أو أن نذهب إلى مكسيمز (ذا كولوني). وبعد ذلك يمكننا، إذا شئت، أن نقوم بنزهة في السيارة إلى الغابة (سنترال بارك). . .

لكننا لم نفعل شيئاً من كل ذلك: اكتفينا بالعشاء بهدوء على انفراد في شقة ماري.

عدت إلى لوس انجلس حيث أقمت مجدداً في الاتليتيك كلوب، وحيث بدأت أفكر بعملي، كان فيلم **حياة كلب** قد تطلب وقتاً أطول بقليل وكلف مبلغاً أكبر قليلاً مما توقعت. لكنني لم أكن قلقاً، لأن كل ذلك قد يبلغ في الأخير متوسطاً حين أكون أصبحت على وشك إنهاء العقد. بيد أن ما كان يشغل بالي إنما هو العثور على فكرة لفيلمي الثاني. ثم جاءتني الفكرة فجأة: لِمَ لا يكون كوميديا عن الحرب؟ وقد فاتحت بعض الأصدقاء بمشروعي، لكنهم هزوا رأسهم. قال لي دو ميل: «من الخطورة بمكان أن تجري السخرية الآن من الحرب». لكن سواء كانت الفكرة خطرة أو لا، لقد كانت تثير أعصابي.

لقد جرى تصور Shoulder Arms[1] في البداية بحيث يضم خمس بكرات. كان يجب أن تكون الفاتحة «الحياة المدنية»، وأن يكون الوسط «الحرب»، والخاتمة «المأدبة»، مبيّناً كل ملوك أوروبا وهم يكرمون العمل البطولي الذي حققته بأسر الكيزر[2] (الألماني). وبالطبع، استيقظت في النهاية.

---

(١) سلاح الكتف، وقد جرى إعطاء النسخة الفرنسية من الفيلم عنوان **شارلو في الجندية** أو **شارلو جندياً** (م).

(٢) أي امبراطور ألمانيا (م).

هذا وقد جرى إلغاء متتاليات ما قبل الحرب وما بعدها. ولم يتم تصوير المأدبة إطلاقاً، لكن لم يحصل الشيء ذاته بالنسبة للبداية. لقد كانت كوميديا قائمة كلها على تلميحات، مظهرة تشارلي العائد إلى بيته ماشياً، وحوله أولاده الأربعة. يتركهم لبعض الوقت، ثم يعود وهو يمسح فمه ويتجشأ. يدخل إلى البيت، وفي الحال تظهر مقلاة في الحقل وتضربه على رأسه. أما امرأته فلا نراها أبداً، لكن قميصاً واسعة جداً تتدلى على منشر المطبخ، وهذا يعطي فكرة عن قامتها.

في المتتالية اللاحقة، يمر تشارلي أمام مجلس المراجعة ويخلع ثيابه بالكامل. ويُرى على باب مزجَّج اسم «د. فرانسس». يظهر خيال ليفتح الباب، وبما أن تشارلي يظن أن هذا الشخص امرأة يهرب عبر باب آخر ويجد نفسه في متاهة مكاتب تفصل في ما بينها حواجز زجاجية حيث تغرق مستخدَمات في عملهن. ترفع إحداهن نظرها فيحتمي خلف مكتب، الأمر الذي يعرضه لأنظار أخرى. وفي الأخير يهرب عبر باب آخر يطل على مكاتب أخرى ذات جدران زجاجية، مبتعداً أكثر فأكثر عن قواعده، إلى حين ينتهي به المطاف إلى شرفة فوق شارع كبير يمر فيه سيل من أدوات النقل. ومع أن هذه المتتالية قد صُوِّرت، فهي لم تستخدم إطلاقاً. فلقد وجدت من الأفضل أن أجعل من تشارلي شخصاً لا يعرف عنه الناس شيئاً وإظهاره وقد بات في الجيش.

لقد جرى إنتاج **سلاح الكتف** خلال موجة حر خانقة. وكان العمل داخل جذع شجرة مموّه (كما كنت أفعل خلال أحد المشاهد) غير مريح بالتأكيد. أنا أكره العمل خارج الستوديو، لأن المرء يشرد ويُحرف انتباهه، فيتبدد التركيز والوحي.

لقد استغرق الفيلم وقتاً طويلاً من أجل تصويره، ولم أكن راضياً عن النتيجة، وانتهيت إلى إشراك كل عاملي الستوديو بهذا الشعور، إلى حد أن دوغلاس فايربانكس أراد رؤيته. جاء مع أحد الأصدقاء، وأخبرتهما بأني خائب الأمل إلى حد التفكير برمي البكرات في سلة المهملات. وقد جلسنا نحن الثلاثة لوحدنا في صالة العرض. ومنذ البداية، انفجر فاير بانكس ضاحكاً، ولم يكن ينقطع عن الضحك إلا لكي يسعل. لقد كان عزيزي دوغلاس جمهوري الأفضل. وحين انتهى العرض، خرجنا إلى الضوء، وكانت عيناه لا تزالان رطبتين من شدة الضحك.

قلت له، غير مصدِّق:

ـ أحقاً أنت تجده طريفاً؟

وقد كان تعليقه الوحيد أنه استدار نحو صديقه وسأله:

ـ ما رأيك بهذا الشخص الذي يريد رمي هذا الفيلم إلى المزبلة؟

لقد لقي **سلاح الكتف** (**أو شارلو في الجندية**) نجاحاً منقطع النظير، لا سيما على صعيد الجنود، لكن مرة أخرى، كان الفيلم قد تطلب من الوقت أكثر مما توقعت، وفضلاً عن ذلك زادت تكاليفه عن تكاليف حياة كلب. وكنت أريد الآن أن أتفوق على نفسي، وقلت في نفسي

إن الفورست ناشونال قد تستطيع مساعدتي. فمـذ تعاقدت معهم، كانت الشركة تحقق نجاحاً متواصلاً، مشغِّلة بصورة كثيفة منتجين ونجوماً، ودافعة لهم ٢٥٠ ألف دولار للفيلم الواحد، مع ٥٠٪ من الأرباح. كانت أفلامهم أقل كلفة وأسهل إنتاجاً من كوميدياتي، لكنها كانت أقل ربعاً بالتأكيد.

حين فاتحت السيد ج. د. وليامز بالموضوع، وكان رئيس الفورست ناشونال، قال لي إنه سيناقشه مع مجلس إدراته. لم أكن أطلب الشيء الكثير، بل فقط ما يكفي للتَّعويض عن النفقات الإضافية، التي لن ترتفع إلى أكثر من عشرة آلاف أو ١٥ ألف دولار بالفيلم. وقد قال لي إنه سيكون هنالك اجتماع للمجلس في لوس أنجلس بعد أسبوع، وسيكون في وسعي أن أشرح بنفسي وجهة نظري.

كان المستثمرون في تلك الأيام تجاراً مدققين، وكانت الأفلام بالنسبة إليهم سلعة تباع بالمتر. وقد بدا لي أنني تحدثت بشكل جيد أمامهم ودافعت عن قضيتي بصدق. أوضحت لهم أني بحاجة لاعتماد إضافي صغير لأني كنت أتكلف أكثر مما أتوقع، لكن ربما أمكن تشبيه وضعي بوضع عامل في الجنرال موتورز يطالب بزيادة. وحين أنهيت كلامي، ساد الصمت، ثم تحرك الناطق بلسانهم في مقعده وقال:

ــ أنت تعرف يا تشارلي بأن الأعمال هي شبيهة بذلك، وأنت وقَّعت عقداً ونحن نتوقع أن تحترم بنوده.

ــ إذا كان هذا هو نوع الأفلام الذي تريدونه، أجبت، يمكنني أن أقدم لكم منه ستة في شهرين.

ــ هذا يعود إليك، يا تشارلي.

ــ أنا أطلب زيادة، قلت، للإبقاء على مستوى عملي. أما لا مبالاتكم فتظهر قلة الحدسِ وبُعدِ النظر لديكم. فليست هذه تجارة مقانق، بل مسألة حماس فردي.

إلا أن أي شيء لم يكن قادراً على زحزحتهم. ولم أكن أتوصل لفهم موقفهم علماً أنهم كانوا يعتبرونني أكبر ورقة رابحة في صناعة السينما.

وقد قال لي أخي سيدني:

ــ أعتقد أن لذلك علاقة بمؤتمر السينما هذا. فثمة إشاعة تقول إن كل شركات الإنتاج ستندمج.

وفي اليوم التالي، رأى سيدني دوغلاس وماري، وكانا قلقين هما أيضاً، لأن عقديهما كانا على وشك الانتهاء، ولم تكن شركة البار اماونت قد فعلت شيئاً لتجديدهما. وكان دوغلاس يشارك سيدني الاعتقاد بأنّ ثمة علاقة بين ذلك ومشاريع الاندماج المشار إليها. وقال:

ــ إنها لفكرة جيدة أن نرسل من يتقفى الأثر لمعرفة ما الذي يجري.

واتفقنا جميعاً على تكليف أحد بهذه المهمة. وقد استأجرنا خدمات فتاة في منتهى

الذكاء، والحذق والجمال، ولم تتأخر في الحصول على موعد مع أحد مدراء شركة إنتاج مهمة. ووفقاً للتقرير الذي قدمته لنا، التقت السيد المشار إليه في بهو فندق الكسندريا وابتسمت له، ثم اعتذرت قائلة إنها خلطت بينه وبين صديق قديم. وفي المساء ذاته، دعاها للعشاء. وقد استنتجنا من قراءة التقرير أن السيد متبجح ثرثار، وذا شهوة جنسية مفرطة. وقد خرجت معه ثلاث ليال على التوالي، صارفة إياه بشتى الحجج والوعود. وفي غضون ذلك، حصلت على كل قصة ما يجري في صناعة السينما. فبفضل الاندماج، سيشكل هو وشركاؤه شركة إنتاج برأسمال قدره ٤٠ مليون دولار، وسوف يربطون كل مستثمري الولايات المتحدة بعقد لمدة خمس سنوات. وقد روى لها أنهم ينوون إعطاء صناعة السينما قاعدة تجارية سليمة، بدل إبقائها تحت إشراف عصابة من الممثلين المجانين الذين يحصلون على رواتب خيالية. كان هذا هو جوهر تقريرها، وكان كافياً بالنسبة إلينا. وقد أعلمنا بمضمونه كلاً من د. و. غريفيث وبيل هارت، اللذين كان رد فعلهما مشابهاً.

أوضح لنا سيدني أن في وسعنا إفشال اندماجهم، بأن نعلم المستثمرين بأننا سنشكل مؤسستنا الخاصة للإنتاج، وننوي بيع أفلامنا لمن يقدم أفضل العروض، وأن نبقى مستقلين. لقد كنا نمثل مؤقتاً العنصر الأهم في صناعة السينما، إلا أنه لم يكن وارداً بالنسبة إلينا أن ننتقل بمشروعنا إلى التنفيذ. كان هدفنا الوحيد هو منع المستثمرين من توقيع عقد لمدة خمس سنوات مع الشركة التي ستنبثق من الاندماج لأنها من دون النجوم لن تساوي شيئاً. وقد قررنا أن ندخل جميعنا، عشية المؤتمر، إلى قاعة الطعام الكبرى في الالكسندريا ونعطي تصريحاً للصحافة.

في ذلك المساء، جلسنا أنا وماري بيكفورد، ود. و. غريفيث، وو. س. هارت، ودوغلاس فايربانكس إلى طاولة في قاعة الطعام الكبرى. وقد كان لذلك تأثير كبير. فج. د. وليامز الذي وصل إلى المكان، بصورة بريئة، لتناول العشاء، رآنا ورجع أدراجه في الحال. وكان المنتجون يظهرون واحداً بعد الآخر على عتبة الباب، فينظرون ثم يقفلون عائدين بسرعة في حين كنا نناقش الأعمال ونحن نضع على غطاء المائدة أرقاماً خيالية. وكل مرة كان يظهر أحد المنتجين، كان دوغلاس يبدأ بالتلفظ فجأة بكل ما يتبادر إلى ذهنه: «الملفوف على فستق عبيد والبهارات للخنازير لها أهمية كبيرة في هذه الأيام». أما غريفيث وبيل هارت فكانا يظنان أنه أصيب بالجنون.

وقد جاء بعد ذلك نصف دزينة صحفيين، جلسوا إلى طاولتنا، وكتبوا ملاحظات، في حين كنا نعلن عن نيتنا في تأسيس شركة فنانين متحدين لحماية استقلالنا ومكافحة الاندماج الكبير الوشيك. وقد جرى نشر الخبر في الصفحة الأولى من الصحف اليومية.

في اليوم التالي، اقترح مدراء عدة مؤسسات إنتاج تقديم استقالاتهم ليصبح الواحد منهم رئيساً لشركتنا مقابل راتب متواضع ومشاركة في الأرباح. وامام هكذا رد فعل، قررنا تنفيذ مشروعنا، وهكذا تشكلت يونايتد ارتيست كوربوراشن أو شركة الفنانين المتحدين.

نظمنا اجتماعاً لدى ماري بيكفورد، ووصل كل منا مع محام ومدير مسرح. ولقد كانت

جمعية كبيرة العدد بحيث كانت كلماتنا تأخذ الطابع الخطابي. وفي الحقيقة، في كل مرة تكلمت فيها، كانت أعصابي تثور بشدة. لكنني ذهلت أمام بعد النظر القانوني والتجاري لدى ماري. كانت تعرف كل المصطلحات: الاستهلاكات والأسهم المؤجلة. وكانت تفهم كل أنظمة الشركات، والخطأ القانوني في الصفحة السابعة، الفقرة أ، البند ٢٧، وتشير بهدوء إلى التناقض الضمني في الفقرة د، البند ٢٤. وفي تلك الظروف، كانت تثير حزني أكثر مما تثير دهشتي، لأن ذلك كان أحد وجوه «عزيزة أميركا» التي لم أكن أعرفها. وثمة جملة لم أنسها أبداً، ففيما كانت تعظ ممثلنا بأبُهة، صاحت: «إن علينا نحن، أيها السادة، إنما يتحتَّم. . . » وانفجرتُ ضاحكاً وأنا أردد: «إنما يتحتم علينا! إنما يتحتم علينا!».

بالرغم من جمال ماري في تلك الفترة، كان ذائعاً صيتها على أنها قوية جداً في الأعمال. وأذكر أن مابل نورماند، التي قدمتني إليها، قالت: «هذه هيتي غرين[1]، أي ماري بيكفورد».

كانت مشاركتي في تلك النقاشات التجارية معدومة عملياً. ومن حسن الحظ أن أخي كان ضليعاً في الأعمال مثل ماري، وكان دوغلاس، بمظاهر اللامبالاة العَطوف التي يتميز بها، أكثر دهاءً منا جميعاً. ففي حين كان محامون يناقشون تفاصيل فنية، كان يقوم ببهلوانيات على طريقة تلميذ مدرسة، لكنه حين كان يقرأ أنظمة الشركة، لم يكن يترك فاصلة من دون تمحيص.

كان بين المنتجين المستعدين للاستقالة والانضمام إلينا أدولف زوكور، رئيس الباراماونت المؤسِّس. وكانت لديه شخصية قوية: كان رجلاً فاتناً ذا قامة قصيرة، ويشبه نابوليون، الذي كان يمتلك طبعه الحاد. وحين كان يتكلم في الأعمال، كان مسرحياً ولا يقاوَم.

كان يقول لك بنبرته الهنغارية:

ـ أنتم، يحق لكم أن تحصِّلوا كل الأرباح من جهودكم لأنكم فنانون! أنتم تبدعون! أنتم الذين يأتي الناس لرؤيتكم.

وكنا نبدي موافقتنا بتواضع، بينما يواصل كلامه:

ـ لقد توصلتم إلى أن تشكلوا ما أعتبره أعظم شركة لصناعة الفيلم، شريطة. . . شريطة أن تكون بإدارة جيدة. أنتم مبدعون من جهتكم، وأنا أيضاً من جهتي. ما عسانا نتخيل أفضل من ذلك؟.

وتابع كلامه بهذه الطريقة، حابساً أنفاسنا، متحدثاً إلينا عن تصوراته وأفكاره؛ أعترف بأنه كانت لديه مشاريع للدمج بين الصالات والستوديوات، لكنه أكد استعداده للتخلي عن كل شيء من أجل الانضمام إلى صفنا. كان يتكلم بصوت حاد، مثل بطريرك:

(١) كانت هيتي غرين، إحدى أغنى نساء العالم وكان يقال عنها إنها ربحت ١٠٠ مليون دولار بفضل حس الأعمال لديها.

ـ أنتم تعتقدون أني عدوكم! لكنني صديقكم، صديق الفنان! تذكروا أني أنا الذي كنت أول من تصور هذا المشروع! من الذي أزال صالاتكم الصغيرة البائسة؟ من جعلكم تستقرون في مقاعد مخملية؟ أنا الذي بنيت صالاتكم الكبيرة، وزدت الأسعار وأتحت لكم أن تقبضوا نسبكم المئوية من الواردات. ومع ذلك فأنتم تريدون أن تصلبوني!.

كان زوكور ممثلاً كبيراً ورجل أعمال مرموقاً في الوقت نفسه. كان قد أقام أكبر دائرة توزيع في العالم. لكن لما كان يريد الحصول على أسهم في شركتنا، لم تفض مفاوضاتنا إلى نتيجة.

في غضون ستة أشهر، كان ماري ودوغلاس يصوران أفلاماً للشركة الجديدة، لكن كان لا يزال عليَّ ان انجز ستة أفلام للفورست ناشونال. وكان موقفهم غير المساوم قد جعلني أحس بالمرارة إلى حد أن ذلك جعل تقدم عملنا يسير ببطء. وقد اقترحت استرجاع عقدي وترك مئة ألف دولار من الأرباح لهم، لكنهم رفضوا.

وبما أن ماري ودوغلاس كانا النجمين الوحيدين اللذين يوزعان أفلامهما عن طريق شركتنا، لم يكفا عن التذمر أمامي بسبب العبء الذي كانا ينوآن به بما أني لم أكن أقدم لهما شيئاً. كانا يوزعان أفلامهما بأسعار منخفضة جداً تصل إلى الـ ٢٠٪ فقط، بحيث بات عجز الشركة حوالي المليون دولار. مع ذلك، حين ظهر فيلمي الأول **The Golden Rush** (الهجوم على الذهب)، غطى كل ديونهما، وأدى ذلك بالتالي إلى ايقاف شكاوى ماري ودوغ، اللذين لم يعودا يتذمران أبداً.

كانت الحرب قد أصبحت بالغة القساوة. وكانت أوروبا تتعرض لمذبحة لا رحمة فيها ودمار لم يسبق له مثيل. وفي معسكرات التدريب، كانوا يعلمون المجندين القتال بالحراب، وإطلاق الصيحات، والاندفاع وغرز النصل في بطون العدو، وإذا انحصر في ثنية الفخذ أن يطلقوا النار لإخراجه. كان الناس يعيشون تحت سيطرة الهستيريا الجماعية. وكان يجري الحكم على المتهربين من الخدمة بخمس سنوات حبس، وكان على كل شخص أن يحمل معه بطاقة هويته. وكان اللباس المدني لباساً مخزياً لأن كل الشباب تقريباً كانوا بالزي العسكري، وكل من لم تكن تلك حالته كان يمكن طلب أوراقه منه، أو تقدم له امرأة ريشة بيضاء.

وقد أخذت عليَّ بعض الصحف عدم مشاركتي في الحرب. ودافعت عني صحف أخرى، معلنة أن كوميدياتي أكثر نفعاً من خدمتي للعلم.

كان الجيش الأميركي قد تأسس قبل وقت قصير، وحين نزل على الساحل الفرنسي، أراد المشاركة في الحال في العمليات، وبالرغم من نصائح الإنكليز والفرنسيين الحكيمة، انخرط في القتال بشجاعة وجرأة، لكن ذلك كلفه آلاف الضحايا. وعلى مدى أسابيع، كانت الأخبار محزنة؛ فالصحف كانت تنشر لوائح طويلة للقتلى والجرحى في الصفوف الأميركية.

ثم حصلت استراحة، ونزل الأميركيون وباقي الحلفاء إلى الخنادق لمدة أشهر، لأجل حياة يمتزج فيها الدم بالضجر.

ثم بدأ الحلفاء يتحركون أخيراً. كانت راياتنا الصغيرة تتقدم على الخارطة. وكل يوم؛ كانت حشود كبيرة تتابع ذلك التقدم بشراهة. ثم حدث التقدم الحاسم على كل الجبهات، لكن بكلفة مريعة! كانت تتصدر الصحف عناوين ضخمة: الكَيْزر[1] يهرب إلى هولندا! ثم كل الصفحة الأولى مع هذه الكلمات فقط: **توقيع الهدنة!** كنت في غرفتي في الاتليتيك كلوب حين وصل الخبر. كان هنالك في الأسفل، في الشوارع، نوع من الهستيريا: من زمامير السيارات، لصفارات المصانع، إلى الأبواق التي أطلق لها العنان، وقد امتدت تلك الجلبة لتصل الليل بالنهار. لقد جن الناس من الفرح، وكانوا يغنون ويرقصون، ويتعانقون، ويشدون بعضهم بعضاً، ويتحابون. أخيراً، لقد حل السلام!.

أن يعيش الناس من دون حرب، كان ذلك يشبه الخروج من السجن. كنا أخضعنا لدرجة من الانضباط، بحيث كنا نخاف، على مدى أشهر عديدات، أن نخرج من دون بطاقة هوية. لقد انتصر الحلفاء، مهما يكن معنى هذه العبارة، لكنهم لم يكونوا واثقين من أنهم كسبوا السلم. كان هناك شيء واحد مضمون، هو أن الحضارة كما كنا نعرفها لن تكون هي نفسها بعد الآن. فلقد انتهى عصر. وما كان يسمى لياقات ذلك العصر انتهى أيضاً. لكن لم يحصل في أي لحظة من لحظات التاريخ أن سطع الاحترام الإنساني ببريق حاد جداً.

---

(١) امبراطور ألمانيا (م).

الفصل السادس عشر

لقد دخل توم هارينغتون في خدمتي صدفةً تقريباً، لكنه لعب دوراً في إحداث تغيير مذهل في حياتي. كان حلاقاً ومساعداً في كل شيء لصديقي برت كلارك، الذي كان فنان ميوزيك هول انكليزياً تعاقدت معه شركة كيستون. وكان برت، عازف البيانو الممتاز لكن ذو الفكر الشارد، والمفتقر إلى أي حس عملي، قد أقنعني ذات يوم بمشاركته في قضية دار نشر موسيقية. وقد استأجرنا غرفة في الطابق الثالث من بناية مكاتب في مركز المدينة، ثم أصدرنا ألفي نسخة لأغان سيئة جداً كنت أنا الذي ألفت موسيقاها أيضاً، ورحنا ننتظر الزبائن. كانت مغامرة طلاب مدارس مجنونة بالكامل. وأعتقد أننا بعنا ثلاث نسخ منها، إحداها لشارل كادمان، المؤلف الموسيقي الأميركي، واثنتين لمجهولين مرا صدفة أمام مكتبنا فيما هما ينزلان الدرج.

كان كلارك قد عهد بالمكتب إلى هارينغتون، لكن بعد شهر، عاد إلى نيويورك وأقفله. إلّا أن توم بقي، وقال إنه يحب العمل معي مثلما سبق أن فعل مع كلارك. وفاجأني حين قال لي إنه لم يحصل يوماً على أي أجر من كلارك، باستثناء قليل من مال الجيب، أي لا أكثر من ٧ إلى ٨ دولار في الأسبوع، لأنه لما كان نباتياً، كان يعيش فقط على الشاي والخبز والزبدة والبطاطا. ولا جدوى من القول إن هذا الخبر أثار ذعري، وإنني دفعت له أجراً مناسباً عن الفترة التي اشتغل خلالها من أجل قضية الموسيقى الخاصة بنا، وقد أصبح توم مساعدي، وخادمي، وسكريتيري.

كان شخصاً لطيفاً، غير معروف عمره، ذا تصرفات ملغزة، وجبهة عالية وعينين تراقبان العالم بموضوعية كئيبة. وكان بوهيمياً غامضاً بعض الشيء من أصل إيرلندي، وقد جاء من الإيست سايد في نيويورك، لكنه كان يبدو معداً للحياة في دير أكثر مما في زوبعة عالم السينما والمسرح. كان يأتي كل صباح إلى الأتليتيك كلوب، حاملاً بريدي وصحفي، ثم يطلب المجيء لي بالفطور. وكان يترك عموماً قرب سريري، ومن دون أي تعليق، كتباً لبعض المؤلفين، كلافكاديو هيرن وفرانك هاريس، لم أكن قد سمعت عنهم شيئاً من قبل، وبفضل توم، قرأت حياة جونسون لبوزويل. قال لي ضاحكاً: «هاك شيئاً يساعدك على النوم مساء». لم يكن يتكلم إلا حين يوجَّه إليه الكلام، وكانت لديه موهبة الامحاء حين أكون أتناول الفطور.

وقد بات توم شخصاً لا يمكنني الاستغناء عنه. لم أكن بحاجة إلى أكثر من القول له أن يقوم بشيء ما، فيوافق ويتم المطلوب.

لو أن التلفون لم يرن في اللحظة بالضبط التي كنت أغادر فيها الأتليتيك كلوب، كانت حياتي أخذت منحى آخر. كان سام غولدوين، على الطرف الآخر من الخط، يسألني إذا كنت أود النزول إلى الشاطىء للاستحمام معه. كان ذلك في نهاية عام ١٩١٧.

لقد كان ذلك يوماً مرحاً وبريئاً. وأذكر أن الجميلة أوليف توماس وعدداً من الجميلات الأخريات كن هناك. ومع تقدم الوقت، بعد ظهر ذلك اليوم، وصلت فتاة شابة اسمها ميلدرد هاريس، وكان بصحبتها شخص يدعى السيد هام. وقد وجدتها جميلة، وقال أحدهم إنها تحب ايليوت ديكستر، الذي كان موجوداً هناك أيضاً، ولاحظت أنها تلاحقه بنظرات ولهى بلا انقطاع. لكنه لم يكن يلتفت إليها إطلاقاً. ولم أعد أفكر فيها إلى حين تحضرتْ للرحيل وطلبتْ مني أن أنقلها معي إلى المدينة، لأنها، كما أوضحت لي، تخاصمت مع صديقها ورحل لوحده.

في السيارة، قلت لها بلهجة مرحة إن صديقها ربما غار من إيليوت ديكستر، فاعترفت بأنها تجد ايليوت رائعاً.

كنت أعتقد أن ثرثرتها الساذجة حيلة نسائية تلجأ إليها لإعطاء نفسها أهمية. وقد قلت بلهجة بعيدة:

ــ إنه رجل محظوظ جداً.

كل ذلك، لأجل قطع الصمت، فيما السيارة تسير بنا. وقد روت لي أنها تشتغل للوا ڤيبير، وأنها نجمة أحد أفلام الباراماونت. إلا أني أنزلتها قرب شقتها، ولدي انطباع بأنها بلهاء صغيرة، وعدت إلى الأتليتيك كلوب وأنا سعيد باستعادة وحدتي. ولم أكن وصلت إلى غرفتي إلا منذ خمس دقائق حين رن الهاتف، وكانت على الطرف الآخر الآنسة هاريس، التي قالت لي بسذاجة:

ــ كنت أريد فقط أن أعرف ما الذي تفعله.

وقد فاجأني سلوكها، إذ قد يخيّل للمرء أننا صديقان حميمان منذ زمن بعيد. وقد أجبتها بأني كنت أنوي تناول العشاء في غرفتي، ثم الجلوس في السرير وقراءة كتاب.

ثم أرادت معرفة أي نوع من الكتب وأي غرفة لدي. كانت تتخيلني في وضع جيد وأنا في وحدتي، مرتاحاً بشكل لطيف في سريري.

وقد كانت لهجة ذلك الحديث الأبله إلى حدٍّ ما ذاتَ عدوى ورحتُ بدوري أثرثر وأغازلها. وقد سألتني:

ــ متى أراك من جديد؟

وفوجئت وأنا أوبخها ضاحكاً لأنها تخون إيليوت، وأصغي إليها وهي تؤكد لي أنها ليست

مهتمة به حقاً، وهو الأمر الذي ألغى مشاريعي لتلك الليلة، فدعوتها لتناول العشاء في الخارج.

ومع أنها كانت جميلة وناعمة في ذلك المساء، لم يكن لدي المرح أو الحماس اللذان يثيرهما في نفسي عموماً وجود فتاة جميلة معي. لم يكن ممكناً أن يكون اهتمامها بـي أكثر من اهتمام جسدي، وقد كان القيام في هذا الاتجاه بخطوات حالمة تولّد لديَّ شعور بأنها تتوقعها مني، أمراً يتطلب جهداً كبيراً.

لم أُعد التفكير فيها إلا في أواسط الأسبوع حين قال لي هارينغتون إنها هاتفتني. ولو لم يعط ملاحظة عابرة، ربما لم أكن كلفت نفسي رؤيتها من جديد، لكنه أشار، كما لو كان الأمر صدفة، إلى أن السائق قال له إني عدت من عند سام غولدوين مع أجمل فتاة سبق أن رآها. وقد دغدغت هذه الملاحظة غير المعقولة غروري... وتلك كانت البداية. لقد كانت هناك عشاآت، ومساءات قضيناها في الرقص، وليال تحت ضوء القمر، ونزهات في المحيط، وحصل المحتوم: لقد بدأت ميلدرد تشعر بالقلق.

كان توم هارينغتون يحتفظ لنفسه بكل ما قد يفكر فيه. وحين أعلنت له بلامبالاة، ذات صباح، بعد أن جاءني بالفطور، أني عازم الزواج، لم تطرف له عين، وسألني بهدوء:

ـ أي يوم؟

ـ في أي يوم نحن؟

ـ الثلاثاء.

ـ فلنقل يوم الجمعة، قلت من دون أن أرفع بصري عن الجريدة.

ـ أعتقد أن الأمر يتعلق بالآنسة هاريس.

ـ أجل.

فأبدى موافقته بالصورة الأكثر طبيعية، وسأل:

ـ هل معك محبس؟

ـ كلا، حسناً تفعل إذا اشتريت واحداً، وقمت بكل الترتيبات التمهيدية... لكن افعل ذلك بصمت.

ووافق من جديد ولم نعد نتكلم على ذلك إلى يوم الزواج. كان قد اتخذ ترتيباته بحيث نتزوج في الثامنة من مساء الجمعة.

في ذلك اليوم، اشتغلت إلى ساعة متأخرة في المكتب. وفي السابعة والنصف، حضر توم إلى خشبة التصوير وهمس في أذني: «لا تنس أن لديك موعداً في الثامنة». وتحت وطأة القلق، نزعت الماكياج عن وجهي ولبست بمساعدة هارينغتون. ولم نتبادل أي كلمة إلى حين أصبحنا في السيارة، فأوضح لي عندئذٍ أن علي التقاء الآنسة هاريس في منزل السيد سباركس، الذي كان يقوم بوظيفة مأمور نفوس للحي.

حين وصلنا، كانت ميلدرد جالسة في البهو. وقد استقبلتني بابتسامة صغيرة فيما نحن

ندخل وشعرت بأني حزين قليلاً لأجلها. كانت لابسة تايوراً رمادياً غامقاً بسيطاً، وتبدو جميلة جداً. وقد سارع هارينغتون إلى وضع محبس في باطن يدي، في حين ظهر رجل طويل ونحيف، لكنه ودود وحار، أدخلنا إلى غرفة أخرى. وقد كان ذلك الرجل هو السيد سباركس، الذي قال لي:

ـ قل إذاً، تشارلي، يمكنك الاعتزاز بأن لديك سكريتيراً مميّزاً. فمنذ نصف ساعة، كنت لا أزال أجهل أن الأمر يتعلق بك.

كان الاحتفال شديد البساطة، فلقد وضعت المحبس الذي سلمني إياه هارينغتون في إصبع ميلدرد، وبتنا مذاك زوجين. انتهى الاحتفال، وإذ كنا على وشك المغادرة قال السيد سبارك:

ـ لا تنس أن تقبِّل زوجتك، شارلي.

أجبت مبتسماً:

ـ آه! كلا، بالتأكيد.

كنت أحس بمشاعر مشوشة. تولّد لدي الانطباع بأني تورطت في مصادفة بلهاء، وبأن كل ذلك عديم النفع وليس مبرراً، وبأني عقدت زواجاً لا يقوم على أي شيء جوهري. ومع ذلك، كنت أريد دائماً أن تكون لدي زوجة، وكانت ميلدرد شابة وجميلة، ولم تكمل التاسعة عشرة من عمرها، ومع أني أزيدها عشر سنوات، فربما ستسير الأمور على ما يرام.

في الصباح التالي، ذهبت إلى الستوديو، منقبض القلب. كانت إدنا پورڤيانس هناك، وكانت قرأت صحف الصباح، وإذ مررت أمام مقصورتها ظهرت على العتبة وتمتمت:

ـ تهانيَّ.

ـ «شكراً»، أجبت وواصلت طريقي إلى مقصورتي.

كانت إدنا قد ضايقتني.

وقد اعترفت لدوغ بأن ميلدرد ليست نابغة، وبأني لا أرغب إطلاقاً بالزواج من موسوعة معارف، ففي وسعي أن أجد في مكتبة كل المحرِّضات الفكرية التي أنا بحاجة إليها. لكن تلك النظرية المتفائلة كانت تستند إلى نوع من القلق. هل سيضايق زواجي عملي؟ ومع أن ميلدرد شابة وجميلة، هل سأكون دائماً قريباً منها؟ هل هذه هي الفتاة التي كنت أريدها؟ كنت واقعاً في ورطة. فمع أني لم أكن في حالة عشق، كنت أريد الآن، وقد تزوجت، أن أصبح كذلك، وكنت أريد أن ينجح زواجنا.

لكن بالنسبة لميلدرد، كان الزواج مغامرة مثيرة كما الحال مع مباراة في الجمال. كان شيئاً يتحدثون عنه في الروايات، ولم يكن لديها أي حس بالواقع. وقد حاولت أن أكلمها جدياً على مشاريعنا، لكن لا شيء كان يؤثر فيها. كانت في حالة انبهار دائمة.

في اليوم الثالث بعد يوم زواجنا، بدأ لويس ب. ماير، من المترو غولدين ماير يتفاوض

على عقد، عارضاً على ميلدرد ٥٠ ألف دولار في العام لتصوير ستة أفلام. وقد سعيت جهدي لإقناعها بعدم التوقيع، وقلت لها:

ــ إذا كنت تريدين مواصلة العمل في السينما، يمكنني أن أحصل لك على ٥٠ ألف دولار عن فيلم واحد.

ووافقت وهي ترسم على وجهها ابتسامة شبيهة بابتسامة الموناليزا، لكن ذلك لم يمنعها من توقيع العقد بعدئذٍ.

كان ما يغيظني أشد الغيظ إنما هو هوس الموافقة هذا، ثم القيام بالعكس تماماً. وقد كنت غاضباً منها، لكن كذلك من ماير، لأنه سارع لتوقيع عقد معها بينما لم يجف الحبر بعد على وثيقة زواجنا.

بعد مرور شهر تقريباً، تعرضت لصعوبات مع الشركة وطلبت مني أن أذهب لرؤية ماير وترتيب الأمور. فقلت لها إني أرفض رفضاً قاطعاً أن التقيه. لكنها كانت قد دعته إلى العشاء، ولم تعلمني بأنه سيصل إلا قبل لحظات من حصول ذلك. وقد ثار غيظي واستيائي وقلت لها:

ــ إذا جئت به إلى هنا، فسوف استقبله بالشتائم.

وقفزت كالأرنب إلى المِصْرَى المحاذية لغرفة الجلوس، وكانت غرفة زجاجية لا تؤدي إلى أي مكان. وعلى مدى ما بدا لي زمناً لا نهاية له، اختبأت هناك في حين كانت ميلدرد جالسة مع ماير على بعد أمتار مني في غرفة الجلوس، يناقشان الأعمال. وقد كان لدي شعور بأنه يعرف أني موجود هناك، وكانت أحاديثه تبدو معتدلة وأبوية. وبعد فترة صمت، جرى تلميح إلى شخصي، وأوضحت ميلدرد أني قد لا أعود إلى البيت في ذلك المساء، ثم سمعتهما يتحركان، وارتعبت إزاء فكرة أنهما قد يدخلان إلى المصرى ويجدانني هناك. وقد تظاهرت بالنوم، ولحسن الحظ اخترع ماير حجة ومضى من دون أن يبقى لتناول العشاء.

بعد زواجي بميلدرد، تكشَّف أن حملها ليس أكثر من إنذار كاذب. كانت قد مرت عدة أشهر، ولم أكن قد صورت غير كوميديا بثلاث بكرات، عنوانها Sunny Side[1] **(حب بريء في الحقول)**، وقد كان ذلك بصعوبة اقتلاع ضرس. ولا شك أنه كان للزواج تأثير على طاقاتي الخلاقة. وبعد أن صورت هذا الفيلم، رحت أقدح زناد فكري لأعثر على فكرة.

في حالة اليأس التي كنت أعيشها، أثلج صدري الذهاب إلى الأورفيوم للتسلية، وأنا في مثل هذه الاستعدادات النفسية، رأيت راقصاً فانتازياً، لم يكن مبتكراً لكنه في نهاية رقصته، جاء بابنه الصغير، وكان في الرابعة من عمره، ليحيي معه الجمهور. وبعد أن حيَّى مع والده بدأ يؤدي فجأة بعض الخطوات المسلية جداً، ثم ألقى نظرة مفهومة على المشاهدين، وقام بحركات وداع كبيرة وخرج. فانفجرت القاعة بالتصفيق، بحيث اضطر الولد للعودة، وأدى هذه المرة رقصة مختلفة تماماً. ولقد كان يمكن أن تكون تلك الرقصة بشعة مع ولد آخر، لكن

(١) الجهة المشمسة (م).

جاكي كوغان كان ساحراً وأدهش المشاهدين. لقد كان لذلك الصبي شخصية جذابة جداً.

لم أفكر فيه من جديد إلا بعد أسبوع، حين كنت جالساً على خشبة المسرح مع فرقتنا، أواصل البحث بيأس عن فكرة لفيلمي القادم. في مثل تلك الحالات، كنت آتي لأجلس معهم غالباً، لأن حضورهم وردود فعلهم كانت تحرضني وتثير لديَّ الأفكار. كنت في ذلك النهار متخبطاً، وعصبياً، وبالرغم من ابتساماتهم المهذبة كنت أعرف أني أفتقد القناعة بجهودي. كان فكري في مكان آخر، ورحت أتحدث عن الأدوار التي رأيتها في الأورفيوم وعن هذا الصبي، جاكي كوغان، الذي جاء يحيي مع أبيه.

قال أحدهم إنه قرأ في الصحيفة ذلك الصباح أن روسكو أرباكل وقَّع للتو عقداً مع جاكي كوغان لتصوير فيلم، وقد صعقني ذلك الخبر:

ــ رباه! لماذا لم أفكر في ذلك؟.

لا شك أنه سيكون رائعاً في السينما! وبدأت أعدد إمكاناته، والإثارات الهزلية والقصص التي يمكنني أن أنفذها معه. كانت الأفكار تأتيني بكثرة.

ــ هل تتخيلون تشارلي زجَّاجاً، والولد الصغير يركض في الشوارع مكسراً ألواح الزجاج، وتشارلي يصل لإصلاحها؟ أتتخيلون قليلاً كم ستكون رائعة رؤية تشارلي والولد الصغير يعيشان معاً شتى أنواع المغامرات!.

بقيت هناك، مضيعاً يوماً بكامله وأنا أوضح السيناريو، واصفاً مشهداً بعد الآخر، في حين تنظر الفرقة إليّ بقلق، متسائلة لماذا أتحمس إلى هذا الحد لقضية خاسرة. بقيت ساعات وأنا أخترع مواقف وحالات، ثم استعدت ذاكرتي فجأة:

ــ لكن ما الفائدة؟ لقد تعاقد معه أرباكل ومن المرجَّح أن تكون لديه أفكار مشابهة لأفكاري. يالي من مغفل لم يفكر في ذلك قبل فوات الأوان!.

كل بعد ذلك الظهر، وطيلة تلك الليلة، لم استطع التفكير بغير إمكانات سيناريو مع الصغير كوغان. وصباح اليوم التالي، استدعيت الفرقة للتمرينات وأنا مغموم جداً: لا أدري لماذا، ذلك أنه لم يكن لديَّ شيء للتمرن عليه، وبقيت إذاً هناك مع الممثلين المجموعين على الخشبة، في حالة ركود بالكامل.

وقد نصحني أحدهم بمحاولة إيجاد صبي آخر، ربما زنجي صغير، لكني هززت رأسي بتشكك، إذ كان من الصعب العثور على صغير له شخصية جاكي القوية.

حوالي الحادية عشرة والنصف، وصل كارليسل روبنسون، المهتم بقضايا الدعاية، وهو يركض لاهثاً وشديد الإثارة، وقال:

ــ ليس جاكي كوغان هو الشخص الذي تعاقد معه أرباكل، بل والده جاك كوغان!.

فقفزت من مقعدي:

ــ بسرعة! نادوا لي الوالد بالتلفون واطلبوا منه أن يأتي إلى هنا في الحال. هذا مهم جداً!.

كهْرَبَنا الخبر كلنا، وجاء أعضاء في الفرقة يربتون على ظهري لشدة ما تحمَّسوا. وحين عرف بالأمر موظفو المكتب، هرعوا إلى خشبة المسرح لتهنئتي. لكنني لم أكن قد وقعت عقداً بعد مع جاكي، وكان يمكن أرباكل أن يفكر بذلك فجأة. فقلت إذاً لروبنسون أن ينتبه لما سيقوله على الهاتف، وألا يتحدث بخصوص الصغير: «حتى للأب قبل أن يصل إلى هنا، قل له فقط إن الأمر بالغ الإلحاح، وأننا بحاجة لرؤيته هنا في غضون نصف ساعة. وإذا لم يكن قادراً على المجيء، إذهب عندئذٍ إلى الستوديو الذي يعمل فيه. لكن لا تقل له أي شيء قبل أن يصل إلى هنا». وقد واجهوا بعض الصعوبات في العثور على الأب، الذي لم يكن في الستوديو، وأمضيت ساعتين على أحر من الجمر.

أخيراً وصل والد جاكي، متفاجئاً، مذهولاً. فقبضت على ذراعه وقلت له:

ــ سوف يكون مثيراً... أعظم اكتشاف جرت رؤيته إلى الآن! ليس عليه أكثر من تمثيل هذا الفيلم! (وواصلت حديثي بالاندفاع نفسه، بصورة مفككة طيلة الوقت. ولا شك أنه ظن أنني مجنون). سوف تمنح هذه القصة ابنك فرصة حياته!.

ــ ابني؟

ــ أجل ابنك، وإذا وافقت على أن تعهد به إليَّ من أجل هذا الفيلم.

ــ لكن بكل تأكيد، سيكون في وسعك الحصول على هذا الولد الصغير»، قال.

يبدو أن الأطفال والكلاب هم أفضل ممثلي السينما. ضعوا طفلاً ابن عام في مغطس مع صابونة صغيرة، وبمجرد محاولته التقاطها سوف يثير ضحك قاعة بكاملها. إن لكل الأطفال شيئاً من العبقرية. ولقد كان ذلك سهلاً مع جاكي، إذ كان عليه أن يتعلم بعض مبادىء التعبير بالإيماء الأولية، وكان من المؤكد أنه سرعان ما سيستوعبها. فلقد كان يعرف أن يُدخل التأثر في الفعل والفعل في التأثر والانفعال، وكان يمكنه أن يتمرن بلا نهاية من دون أن يفقد عفويته.

هنالك مشهد في **The Kid** (الغلام) يستعد فيه الصبي لرمي حجر على نافذة. وهنا ينسل خلفه شرطي، وفي اللحظة التي يحرك فيها الولد يده في الهواء استعداداً للرمي، تلامس رداء الشرطي. ويرفع بصره نحو هذا الأخير، ثم يطلق الحجر في الهواء ويلتقطه ثم يطلقه ببراءة ويبتعد بخطى لا مبالية، تصبح فجأة خطوات سباق.

تمرن على المشهد ثلاث مرات أو أربعاً، إلى حين بات واثقاً من حركاته، ومن أن الانفعال يأتي بشكل طبيعي في الوقت نفسه. بتعبير آخر، كانت آلية الحركات بالذات هي التي تفضي إلى الانفعال. وكان المشهد أحد أفضل المشاهد التي مثَّلها جاكي، وكان أحد مفاتيح الفيلم.

وبالطبع، لم تكن كل المشاهد سهلة التصوير بالمقدار نفسه. فالمشاهد الأكثر بساطة غالباً ما كانت تزعجه، كما الحال عموماً. ولقد حاولت في إحدى المرار أن أجعله يتأرجح

بشكل طبيعي على باب، لكنه لم يكن يفكر في غير ذلك، وارتبك، فتخلينا عن هذا المشهد في الأخير.

من الصعب أن يمثّل المرء بشكل طبيعي، إذا بقي الذهن متعطلاً. إن الإصغاء على خشبة التمثيل أمر صعب. فالهاوي يميل إلى أن يكون شديد الانتباه. وطالما كان ذهن جاكي منشغلاً، كان خارقاً.

سرعان ما انتهى عقد والد جاكي مع أرباكل، الأمر الذي أتاح له أن يكون مع ابنه في الستوديو الخاص بنا، وأن يلعب بعد ذلك دور النشّال في مشهد المأوى الليلي. ولقد كان إسهامه أحياناً قيّماً. ففي أحد المشاهد، كنا نريد من جاكي أن يبكي بالفعل حين يأتي مستخدمان من الميتم لخطفي. لكن جاكي كان ذا مزاج مرح وماكر جداً. وبعد مرور ساعة أعلن الوالد أنه سيجعله يبكي، فقلت له وأنا أحس بوخز الضمير:

ــ لا تُخِفْه، ولا تُؤْذه.

ــ «كلا، كلا»، قال الوالد.

كان جاكي ذا مزاج شديد الفرح بحيث لم أتجرأ على البقاء لرؤية ما سيفعله الوالد، وانتقلت إذاً إلى مقصورتي. ولم تمر لحظات حتى سمعت جاكي يجهش في البكاء، ووالده يقول إنه بات مستعداً.

كان مشهداً أنتزع خلاله الولد من ممثلي الميتم، وفيما هو يبكي، أشده إلى صدري وأعانقه. وبعد أن صورنا المشهد سألت الأب:

ــ كيف نجحت في دفعه إلى البكاء؟

ــ قلت له إنه إذا لم يبك، سوف نخرجه من الستوديو ونرسله حقاً إلى الميتم.

واستدرت نحو جاكي وأخذته بين ذراعي لأعزيه. وكان خداه لا يزالان مبللين بالدموع، فقلت له:

ــ لن يأخذك أحد.

فتمتم الصغير:

ــ كنت أعرف ذلك، فأبـي كان يشتري رأسي.

غالباً ما كان الحاكم موريس يدعوني إلى بيته. وكان كاتباً ومؤلف أقاصيص كتب العديد من السيناريوات للسينما. وكان «غافي» كما كنا نسميه، فتىً لطيفاً وجذاباً، وحين حدثته عن فيلم **الغلام**، والشكل الذي أخذه، بحيث يتناغم الهزل مع العاطفة، قال لي:

ــ لن ينجح ذلك، إذ يجب أن يكون الشكل خالصاً، فإما الهزل أو الدراما، ولا يمكن الجمع بينهما، وإلا تفتقد أحد عناصر قصتك.

وقد ناقشنا هذا الموضوع طويلاً. قلت له إن الانتقال من الهزل إلى العاطفة مسألة فارق صغير، ورويَّة في ترتيب المتواليات. وأكدت أن الشكل ينوجد بعد أن نكون خلقناه، وأنه إذا

تصور الفنان عالماً وآمن به حقاً، مهما تكن العناصر الداخلة في تركيبه، يصبح ذلك العالم مقنعاً. وبالطبع، لم تكن تلك النظرية تستند إلا إلى حدسي. كان الناس قد عرفوا الهجاء، والهرجة، والواقعية، والطبيعوية، والميلودراما والفانتازيا، لكن الهزل الصرف والعاطفة، اللذين يشكلان معاً فيلم **The Kid**، إنما كانا نوعاً من التجديد.

خلال مونتاج **الغلام** جاء صموئيل ريشيفسكي لزيارة الستوديو، وكان في السابعة من عمره بطل العالم في الشطرنج، للفئة الوسطى. وكان سيقدم عرضاً في الأتليتيك كلوب، لاعباً الشطرنج مع ٢٠ خصماً في الوقت نفسه، كان بينهم الدكتور غريفيث، بطل كاليفورنيا. وكان لديه وجه صغير هزيل، شاحب وحاد، مع عينين يحدق بهما بصورة عدائية حين يلتقي أناساً. وقد حذروني من أنه ذو طبع صعب، ونادراً ما يصافح أحداً.

بعد أن قام مدير أعماله بتقديمه إلينا وتلفظ الفتى ببعض الكلمات، بقي مسمَّراً أمامي وهو يتأمل وجهي بصمت. وقد واصلت أعمال المونتاج، متفحصاً أشرطة خاصة بالفيلم. ثم استدرت نحوه بعد لحظات وقلت:

ــ أتحب الدراقن؟

ــ «أجل»، أجابني.

ــ حسناً، لدينا شجرة دراقن في البستان ممتلئة بالثمار، يمكنك أن تتسلقها وتأكل منها... وأن تأتيني في الوقت نفسه بثمرة واحدة.

فانفرجت أساريره وسأل:

ــ أوه! أجل! أين هي؟

فقلت وأنا أشير بيدي إلى مسؤولنا لدى الصحافة:

ــ سوف يدلك كارل عليها.

وقد عاد بعد ربع ساعة، مسروراً، ومعه عدة دراقنات. وكانت تلك بداية صداقتنا.

سألني:

ــ هل تعرف اللعب بالشطرنج؟

فاضطررت للاعتراف بأني لا أعرف، فقال لي باعتزاز:

ــ سوف أعلمك. تعال لرؤيتي وأنا ألعب هذا المساء ضد ٢٠ خصماً في الوقت ذاته.

فوعدت بالمجيء وقلت له إني سأصطحبه بعد ذلك للعشاء.

ــ جيد جداً، سأتدبر أمري بحيث أنتهي في وقت مبكر.

لم يكن من الضروري معرفة قواعد الشطرنج ليفهم المرء ما كانت تنطوي عليه تلك الأمسية من مذهل ومثير: ٢٠ رجلاً متقدمون في السن، وهم ينحنون على رقعة الشطرنج، متورطين في مأزق وضعهم فيه ولد في السابعة من العمر كان يبدو أيضاً أكثر حداثة. ولقد كان مجرد النظر إليه وهو يتجول بين الطاولات المرصوفة على شكل حدوة حصان، منتقلاً من

واحدة إلى أخرى، مشهداً بحد ذاته. وكان هناك شيء ما خيالي وأنت ترى جمهوراً مؤلفاً من ٣٠٠ مشاهد أو أكثر وهم جالسون على درجات إلى جانبي الصالة، ويتطلعون بصمت إلى ولد يتبارى مع رجال ناضجين ووقورين. وكان يبدو على بعضهم مظهر المجاملة، وكانوا يتفحصون رقعة الشطرنج أمامهم راسمين ابتسامة ملغزة.

لقد كان صموئيل الصغير مذهلاً، لكنه كان يثير قلقي، لأني وأنا أرى ذلك الوجه الصغير المنكبَّ على التفكير وهو يحمّر فجأة، ثم يشحب، كنت أشعر بأنه يدفع من صحته ثمن كل تلك الجهود.

كان لاعب يصيح: «هنا!»، ويقترب الولد، فيدرس الرقعة خلال ثوان، ثم ينقل فجأة أحد البيادق أو يقول «كش!» فيضحك الحضور جميعاً. ولقد رأيته يهزم ثمانية لاعبين في وقت قصير جداً، الأمر الذي أثار الضحك والتصفيق.

وكان يتفحص الآن رقعة الدكتور غريفيث، وكان الجمهور صامتاً. فجأة قدّم الولد قطعة، ثم استدار ولمحني. فانفرجت أساريره، وقام بإشارة بيده ليعلمني بأنه لن يتأخر كثيراً.

وبعد أن هزم العديد من اللاعبين الآخرين، عاد إلى الدكتور غريفيث الذي كان لا يزال يفكر بصورة مركزة. وقد قال له الفتى بنفاد صبر:

ــ أنت لم تلعب بعد.

فهز الدكتور رأسه.

ــ آه! هيا! أسرع.

فابتسم الدكتور، وتطلع الولد إليه بشراسة، وقال:

ــ أنت لا تستطيع أن تهزمني! إذا حركت هذا البيدق، أحرّك ذلك! وإذا كذا أفعل كيت! (وأحصى بسرعة سبعة احتمالات أو ثمانية) ونبقى هكذا طيلة الليل، لذا دعنا نقل إننا متعادلان.

ووافق الدكتور.

بالرغم من محبتي لميلدرد، لم نكن من طينتين معدتين للتفاهم والانسجام. لم تكن خبيثة، لكن كان لديها مكر مثير للسخط. حتى أني لم أتوصل يوماً لملامسة روحها، التي كانت مربَكة بترهات صغيرة محبوكة بعلامات حب وردية. كانت تبدو مضطربة دائماً، ساعية دائماً وراء آفاق جديدة.

في نهاية عام من الزواج، ولدت طفلاً لم يعش أكثر من ثلاثة أيام. وقد سجل ذلك زوال اتحادنا، فمع أننا كنا نعيش تحت سقف واحد، نادراً ما كان يرى أحدنا الآخر، لأنها كانت منشغلة في الستوديو الذي تعمل فيه بقدر ما كنت منشغلاً في ذلك الخاص بي. وهكذا بات منزلنا حزيناً جداً. كنت أعود إلى البيت لأجد مائدة معدة لشخص واحد، وكنت آكل وحدي. وفي بعض الأحيان، كانت تتغيب أسبوعاً من دون إعلامي مسبقاً، ولم أكن أعرف ذلك إلا من

رؤيتي باب غرفتها الفارغة وقد بقي مفتوحاً.

وكنا أحياناً نلتقي يوم الأحد صدفة في اللحظة التي تكون فيها على وشك الخروج، وكانت تبلغني فيما هي خارجة بأنها ستمضي نهاية الأسبوع مع آل جيش أو مع صديقات أخريات، وكنت أذهب من جهتي إلى منزل آل فايربانكس (كان دوغلاس وماري قد أصبحا متزوجين). وقد أعلمني دوغلاس بالإشاعات التي تحوم حول ميلدرد. قال:

ـ أعتقد أن من واجبي إبلاغك بذلك.

لم أبحث أبداً لمعرفة إلى أي حد كانت تلك الإشاعات صحيحة، لكنها أحزنتني. وحين تحدثت بذلك مع ميلدرد، نفت ببرود. فقلت لها:

ـ في كل حال، ليس في وسعنا أن نواصل الحياة بهذه الطريقة.

وران صمت قبل أن تسألني وهي تنظر إليَّ بعينين من جليد:

ـ ماذا تريد أن تفعل؟

كانت تتكلم بلهجة هادئة إلى حدٍّ أحسست معه ببعض المفاجأة. وقد قلت ببساطة، وأنا أتساءل ماذا سيكون رد فعلها:

ـ أعـ. . . أعتقد أن أفضل حل قد يكون الطلاق. لكنها بقيت صامتة، فأضفت عندئذٍ:

ـ أعتقد أن كلينا سيكون هكذا أكثر سعادة. فأنت شابة، وفي مقتبل حياتك، ولا شك أن في وسعنا ترتيب الأمور حبياً. ولن يكون على محاميك أكثر من الاتصال بمحاميَّ لاتخاذ كل التدابير التي ترينها مناسبة.

ـ كل ما أطلبه هو ما يكفي من المال للصرف على أمي.

قلت لها بتردد:

ـ ربما تفضلين أن نتناقش في ذلك في ما بيننا؟

ففكرت قليلاً، ثم خلصت إلى القول:

ـ أعتقد أني أفضل رؤية محاميَّ.

ـ «حسناً»، أجبتها. وبانتظار ذلك، لن يكون عليك سوى البقاء في البيت، بينما سأعود من جهتي إلى الأتليتيك كلوب.

وانفصلنا ودياً، بعد أن اتفقنا على أن تطلب الطلاق بسبب قساوة ذهنية، وعلى ألا نقول شيئاً للصحافة.

في صباح اليوم التالي، نقل توم هارينغتون أغراضي إلى الأتليتيك كلوب. وقد كان ذلك خطأ، لأن إشاعة انفصالنا لم تتأخر في الانتشار، وبدأ الصحفيون يخابرون ميلدرد. كما أنهم خابروني إلى النادي، لكني رفضت رؤيتهم أو إعطاء أي تعليقات. لكن ميلدرد أعطت تصريحاً مدوياً، نُشر في الصفحة الأولى للصحف، تقول فيه إنني تخليت عنها، وإنها تطلب الطلاق

بسبب قساوة ذهنية. وإذا قورن كلامها بما يحدث اليوم، يبدو غير مؤذ، إلا أنني خابرتها لأعرف لماذا قابلت رجال الصحافة. وقد شرحت لي أنها بدأت بالرفض، لكنهم قالوا لها إني نشرت تعليقاً عنيفاً. وبالطبع، كانوا قد كذبوا سعياً وراء خلق العداوة في ما بيننا، وهذا ما أوضحته لها. وقد وعدت بالكف عن إعطاء التصريحات، لكنها نكثت بوعدها.

كان قانون كاليفورنيا يعطيها الحق في ٢٥ ألف دولار فعرضت عليها مئة ألف، ووافقت على ذلك على أن يكون تسوية نهائية. لكن يوم توقيع الأوراق، غيرت فجأة رأيها من دون إعطاء أي سبب.

وقد فاجأ ذلك محاميَّ، الذي قال لي إن شيئاً ما يُدبَّر في الخفاء.

ولقد كان على حق. كانت لديَّ إزعاجات مع الفورست ناشونال بصدد **The Kid**؛ كان فيلماً بسبع بكرات، وكانوا يريدون توزيعه على أساس ثلاثة أفلام كل منها ببكرتين، وبهذه الطريقة لا يدفعون لي عن **The Kid** أكثر من ٤٥٠ ألف دولار. وبما أن الفيلم كلف حوالى نصف مليون، ناهيكم عن ١٨ شهر عمل، أجبتهم بأن في وسعهم الانتظار. وقد هددوني بملاحقات قانونية. لكن على الصعيد القانوني، لم تكن أمامهم غير فرص قليلة وكانوا يعرفون ذلك. فقرروا إذاً استخدام ميلدرد سعياً وراء حجز الفيلم.

لم أكن أنهيت المونتاج بعد، وقد دفعتني غريزتي للتفكير بإنهائه في ولاية أخرى. وهكذا انطلقت إلى سالت لايك سيتي، مع مساعِدَيْن وأكثر من أربعمئة ألف قدم من الأشرطة، أي حوالى ٥٠٠ بكرة. وقد نزلنا في سالت لايك هوتيل، ومددنا الشريط في إحدى الغرف، مستخدمين كل ما يمكن بسطه عليه: أطراف الوطائد والكومودينات والجوارير. ولما كان من غير المشروع أن يكون لدى المرء مواد سريعة الاشتعال في فندق، كان علينا أن نعمل بصورة سرية وفي مثل ظروف كهذه، واصلنا مونتاج الفيلم. كان لدينا أكثر من ألفي لقطة يجب وضعها في الموقع المناسب، ومع أنها كانت مرقمة، كانت تضيع إحداها من وقت لآخر، وكنا نمضي الساعات بحثاً عنها فوق السرير وتحته، وفي الحمام، إلى حين نجدها. ووسط كل هذه الصعوبات، وفي مثل هذه الشروط غير المعقولة، أنهينا المونتاج بصورة تشبه المعجزات.

كان عليَّ الآن أن أواجه المحنة المريعة التي يمثلها عرض تمهيدي أمام جمهور. لم أكن رأيت الفيلم إلا بواسطة مِسلاط صغير للمونتاج، يتيح الحصول فوق منشفة على صورة لا يزيد حجمها على بطاقة بريدية. ومن حسن الحظ أني كنت رأيت اللقطات في الستوديو على شاشة من الحجم العادي، لكن كان لدي الآن شعور ممض بأني اشتغلت ١٥ شهراً في الظلام.

لم يكن رأى الفيلم أحد غير العاملين في الستوديو. وبعد أن مرَّرناه عدداً كبيراً من المرار في جهاز المونتاج، لم يعد شيء يبدو طريفاً ومثيراً بالقدر الذي كنا اعتقدناه. لم يكن في وسعنا الاطمئنان إلا بأن نقول لأنفسنا إن حماسنا الأولي قد خف.

واتخذنا قرارنا بالقيام باختبار وعرض الفيلم في صالة إحدى سينمات المدينة، من دون

أي إعلان. كانت صالة كبيرة، ممتلئة حتى ثلاثة أرباعها، وقد جلست يائساً، بانتظار بداية الفيلم. كان يبدو الجمهور عاجزاً عن التعاطف مع أي شيء يمكنني أن أقدمه له. وكنت قد بدأت أشك في الفكرة التي كنت أكوِّنها عن أذواق الجمهور ورد فعله إزاء كـوميديـا. ربما ارتكبت خطأً ما. ربما كان كل ذلك سيفشل، وسينظر المشاهدون إلى الفيلم وهم مذهولون. وتبادرت عندئذٍ إلى ذهني الفكرة المريعة بأنه يمكن أن يخطىء كوميديٌّ أحياناً خطأً ذريعاً في تصوراته للكوميديا.

وانقبضت معدتي فجأة. كان يمكن أن يقرأ المرء على الشاشة: «شارلي شابلن في فيلمه الأخير **The Kid**». وعلت في الصالة صيحات إعجاب، وتصفيقات مبعثرة. وقد أقلقني رد الفعل هذا، بمفارقة غريبة: ربما كانوا ينتظرون الكثير، وسيصابون بالإحباط؟.

كانت المشاهد الأولى عرضاً بطيئاً واحتفالياً، وأغرقتني في نفاد صبر قلق: تتخلى أُم عن طفلها، تاركة إياه في سيارة ليموزين. ثم يأتي من يسرق السيارة ويترك الطفل في الأخير قرب مـزبلة. وعندئـذٍ أظهر في شخص تشـارلي. فتنفجر ضحكـات، وتزداد شيئـاً فشيئاً. كـان المشاهدون قد فهموا المزحة! مذاك، لم يعد يمكن الأمـور إلا أن تسير سيـراً حسناً. لقـد اكتشفت الطفل، وتبنيته. وقد ضحك الناس حين رأوني أرتجل أرجوحة نوم انطلاقاً من قماشة كيس قديمة، وكانوا يصيحون ويزمجرون وهم يرونني أطعم الطفل بواسطة إبريق شاي على فمه حلمة. وانفجروا وهم يشاهدونني أحدث ثقباً في تقشيش كرسي قديمة وأضعها فوق وعاء للتبرز. وفي الواقع، لم يتوقفوا عن الضحك طيلة الفيلم.

الآن وقد نظَّمنا عرضاً للفيلم، تولد لدينا الشعور بأن المونتاج قد انتهى، فجمعنا أمتعتنا وغادرنا سالت لايك عائدين إلى الشرق. وفي الريتز بنيويورك، اضطررت للبقاء في غرفتي لأنني كنت أتعرض لمضايقات مباشـرين أرسلتهم شركـة فورست نـاشونـال، وكانت تـريد استخدام دعوى الطلاق التي أقامتها ميلدرد لوضع اليد على الفيلم. منذ ثلاثـة أيام، كـان المباشرون يقومون بالحراسة في بهو الفندق، وبعضهم كان فوق رأسي. لذا حين دعاني فرانك هاريس للعشاء في بيته، لم أتمكن من مقاومة التجربة. في ذلك المساء، اجتازت امرأة متلفعة بحجب كثيفة بهو فندق الريتز للصعود في سيارة تاكسي: هذه المرأة كانت أنا! لقد استعرت ثياب امرأة أخي، وارتديتها فوق ثيابي، ثم خلعتها في التاكسي قبل أن أصل إلى بيت فرانك.

كان فرانك هاريس، الذي قرأت كتبه وأعجبت بها، معبودي. ولقد كان يعيش في أزمة مادية دائمة؛ فكل أسبـوعين كانت مجلتـه، **Pearson's Magazine** على وشك التـوقف عن الصدور. وبعد أحد النداآت التي نشرها، أرسلت إليه حوالة مالية، وتعبيراً عن عرفان الجميل أرسل إليَّ جزأين من كتابه عن أوسكار وايلد، الذي قدَّمه بهذه الطريقة:

إلى شارلي شابلن
أحد الأشخاص النادرين الذين ساعدوني
حتى من دون معرفة، والشخص الذي غالباً ما أعجبني حس الدعابة النادر لديه،

لأن أولئك الذين يضحكون الناس
أفضل من أولئك الذين يبكونهم.
صديقه، فرانك هاريس،
الذي يرسل إليه كتابه الخاص به، آب ١٩١٩.
«لا يعجبني ولا يحظى بتقديري غير الكاتب الذي يقول الحقيقة عن الناس،
وعيناه تغرورقان بالدمع». باسكال.

في ذلك المساء، التقيت فرانك للمرة الأولى. كان رجلاً قصيراً ومربوعاً، مع وجه وسيم، وملامح قوية وبارزة وشاربين بشكل مقود الدراجة مخيفين قليلاً. وكان لديه صوت جميل خفيض يستخدمه بصورة فاعلة تماماً. كان آنذاك في السابعة والستين من عمره، وكان متزوجاً من شابة جميلة شقراء، شديدة الإخلاص له.

ومع أن فرانك كان اشتراكياً، فلقد كان شديد الإعجاب ببيسمارك، ويعبر عن ازدرائه للاشتراكي ليبنخت. وكان تقليده لبيسمارك، وهو يتوقف مراراً خلال الكلام، على الطريقة الألمانية، في رده على ليبنخت، دوراً باهراً. كان يمكن فرانك أن يكون ممثلاً كبيراً. وقد ثرثرنا حتى الرابعة صباحاً، وكان فرانك يتكلم معظم الوقت.

قررت في ذلك المساء أن أنزل في فندق آخر إذا كان المباشرون لا يزالون، حتى في تلك الساعة، يتسكعون في كل الأنحاء، لكن كل فنادق نيويورك كانت مزدحمة. وبعد أن سارت السيارة أكثر من ساعة، استدار سائق التاكسي نحوي، وكان رجلاً قوياً في الأربعين من العمر، وقال:

ــ أنت تعرف أنك لن تجد غرفة في مثل هذه الساعة. ومن الأفضل أن تمضي بقية الليل عندي.

كنت أطرح أسئلة على نفسي، لكنه حين حدثني عن زوجته وأولاده، فهمت أني لا أجازف بشيء؛ ثم سأكون هكذا بمنجى من المباشرين.

ــ «هذا لطيف جداً من جانبك»، قلت له، ثم قدَّمت نفسي.

ففوجىء الرجل وانفجر ضاحكاً:

ــ إن امرأتي هي التي ستصاب بالدهشة.

ووصلنا إلى مكان ما في البرونكس، في حي شديد الازدحام بالسكان. ودخلنا جناحاً فقير الأثاث، لكنه نظيف جداً. وقد قادني إلى غرفة تطل على الساحة، كان فيها سرير كبير ينام فيه فتى في الثانية عشرة من العمر، هو ابنه، وقد أغلق قبضتيه. «انتظر»، قال، ثم رفع الولد ووضعه على حافة السرير، من دون أن يوقظه، ثم استدار نحوي وقال: «تدبَّر أمرك».

كنت على وشك العودة عن قراري، لكن تلك الضيافة كانت مؤثرة بحيث لم أستطع الرفض. وقد أعطاني بذلة نوم نظيفة، وانسللت إلى السرير متخذاً كل أنواع الاحتياطات، وأنا شديد الخوف إزاء فكرة إيقاظ الولد.

لم يغمض لي جفن طيلة الليل. وحين استيقظ الفتى أخيراً، نهض وارتدى ثيابه، ورأيته عبر جفنيَّ نصف المغمضين يلقي عليَّ نظرة عابرة ثم يغادر الغرفة من دون أي رد فعل آخر. وبعد دقائق عاد بخطوات صامتة، ومعه شخص آخر في السابعة أو الثامنة من العمر لا بد أنها كانت شقيقته. وإذ كنت أتظاهر بالنوم، رأيتهما يتفحصان وجهي وهما ينظران مندهشين، وفي قمة الإثارة. ثم وضعت الصغيرة يدها على فمها لتحبس ضحكة مجنونة، وذهب الولدان من جديد.

ثم سمعت وشوشات في الممشى؛ جاء سائق التاكسي وفتح الباب بهدوء ليرى إذا كنت مستيقظاً. فطمأنته بهذا الصدد. وقال لي:

ــ لقد هيأنا لك الحمام، وهو في طرف المِسْطحة. (كان قد جلب لي مبذلاً، ومشاية، ومنشفة). ماذا تأخذ على الفطور؟.

فقلت بلهجة الاعتذار:

ــ لا فرق.

ــ كلّ ما تريد. . . بيض بالقديدة، وخبز محمص وقهوة؟

ــ رائع!

كانوا قد حسبوا كل شيء بصورة جيدة. وحين انتهيت من ارتداء ثيابي، دخلت زوجته إلى الصالون حاملة الفطور.

لم يكن هناك من أثاث غير طاولة ومقعد وديوان؛ وكانت صور عديدة للعائلة معلقة فوق المدخنة وعلى الجدار لجهة الديوان. وإذ كنت أتناول فطوري لوحدي، كنت أسمع أولاداً وأشخاصاً كباراً يروحون ويجيئون أمام البيت.

قالت زوجة سائق التاكسي مبتسمة، حين جاءتني بالقهوة:

ــ لقد بدأ الناس يعرفون هنا من تكون.

ثم دخل السائق، وهو منفعل. وقال:

ــ اسمع، هنالك تجمع كبير في الخارج وهو يتضخم باستمرار. إذا تركت هؤلاء الأولاد يلقون نظرة عليك، سوف يتفرقون، وإلا سوف يصل رجال الصحافة وينكدون عيشك!

ــ دعهم يدخلوا إذاً.

ووصل الأولاد، وهم يضحكون، وداروا حول الطاولة في حين كنت أتناول قهوتي. وفي الخارج، كان سائق التاكسي يقول:

ــ هيا! من دون تدافع، قفوا في الصف اثنين اثنين.

ودخلت امرأة شابة إلى الغرفة، ووجهها متوتر وممدود. وقد تفحصتني طويلاً قبل أن تنفجر بالبكاء.

ــ «كلا، ليس هو، كنت أظن أنه هو»، قالت وهي تبكي.

يبدو أن صديقة قالت لها بلهجة غامضة: «أتعرفين من هنا؟ لن تصدقي أبداً». ثم جاؤوا بها إلى أمامي، وكانت تتوقع أن ترى أخاها الذي اعتُبر مفقوداً منذ الحرب.

وأخيراً قررت العودة إلى الريتز، أكان المباشرون هناك أو لم يكونوا. ولم أجد في الواقع أياً منهم. لكن برقية من محاميّ في كاليفورنيا كانت تنتظرني، يعلن فيها أن كل شيء قد سُوِّي، وأن ميلدرد طلبت الطلاق.

في اليوم التالي، جاء سائق التاكسي وزوجته، بأزهى ثيابهما لزيارتي. وقد روى لي أن الصحافة لاحقته لكي يكتب مقالاً في صحف يوم الأحد بصدد نزولي عنده، وقال بلهجة حازمة:

ــ لكنني لم أرد أن أقول لهم شيئاً قبل أن تعطيني الإذن بذلك.

ــ «لا عليك»، قلت، إفعل ما تريد.

وجاء أولئك السادة في الفورست ناشونال لرؤيتي وهم خافضو الرأس. وقد قال أحد نواب الرئيس، السيد غوردن، وكان مالكاً كبيراً للصالات في الولايات الشرقية:

ــ أنت تريد مليوناً ونصف دولار، ونحن حتى لم نر الفيلم بعد.

وقد اعترفت بأن هذه حجة في محلها، ونظمنا عرضاً.

لقد كانت تلك أمسيةً مشؤومة، إذ دخل ٢٥ مستثمراً من الفورست ناشونال واحداً بعد الآخر قاعة العرض، كما لو كانوا سيشهدون تحقيقاً لضابط مباحث؛ مجموعة رجال فاقدين للظرف، ومتشككين، وغير جذابين إجمالاً.

وبدأ الفيلم. وكان يوضح عنوانه بالشكل التالي: «فيلم مع ابتسامة، وربما دمعة».

«غير عاطل»، قال السيد غوردون، ليبيِّن شهامته.

منذ العرض التمهيدي في سالت لايك سيتي، كنت استعدت بعض الثقة بالنفس، لكن لم نكن وصلنا إلى منتصف الفيلم، حين تبددت تلك الثقة: فحيث كان الفيلم تسبب بضحك متفجر في العرض التمهيدي، لم أسمع غير ضحكة أو ضحكتين. وحين انتهى العرض، وأعيدت الأضواء، ران الصمت لحظة. ثم بدأ الجميع يتثاءبون ويتغامزون ويتحدثون عن أشياء أخرى.

ــ ماذا ستفعل للعشاء، هذا المساء، يا هاري؟
ــ سأصطحب البورجوازية إلى البلازا، ثم سنذهب لرؤية مجلة زيغفيلد.
ــ يبدو أن هذه جيدة.
ــ هل تود المجيء؟
ــ كلا، سأغادر نيويورك هذا المساء. يجب أن أكون عدت لأجل توزيع جوائز ابني.

وسط كل هذه الثرثرة، كانت أعصابي متوترة. وقد انتهيت إلى السؤال بجفاف:

ــ أجل أيها السادة، ما هو حكمكم؟

فتحرك البعض في مقاعدهم بتضايق، ونظر آخرون إلى السجادة. أما السيد غوردن، الذي كان ناطقاً بلسانهم بالطبع، فشرع يمشي ببطء في كل اتجاه. كان رجلاً ثقيل الجسم وبديناً، مع وجه بومة مستدير ونظارتين سميكتي الزجاج.

ــ حسناً، تشارلي، يجب أن أستشير شركائي.

ــ أجل، أعرف، لكن هل أعجبك الفيلم؟» أجبته. وتردد، ثم قال مبتسماً:

ــ نحن هنا، يا تشارلي، لشرائه، لا لنقول كم أعجبنا.

وقد أثارت هذه الملاحظة ضحكة أو ضحكتين من العيار الثقيل. وواصلت أنا كلامي:

ــ لن يكلفكم أكثر إذا كان يعجبكم.

وتردد، ثم قال:

ــ بصراحة، كنت أنتظر شيئاً آخر.

ــ ماذا مثلاً؟

ــ حسناً، يا تشارلي، قال ببطء، حين يكون الثمن مليون دولار ونصف مليون... أعتقد أنه لا يمتلك الكثير من الفعالية.

ــ ماذا كنتم تريدون... انهيار جسر لندن؟

ــ كلا، لكن مقابل مليون ونصف... (وتقطَّع صوته).

ــ «تعرفون أيها السادة، هذا هو السعر. فإما أن تقبلوه كما هو أو ترفضوه»، قلت نافد الصبر.

وهنا وصل ج. د. وليامز، الرئيس، وشعر بما كان يحدث وبدأ يتملقني.

ــ شارلي، أنا أجد هذا الفيلم رائعاً. إنه إنساني، مختلف... (لم تعجبني كلمة «مختلف»). قليلاً من الصبر، وسنسوّي الأمر.

فقلت بجفاف:

ــ لا شيء للتسوية. وأنا أعطيكم أسبوعاً لتتخذوا قراركم.

وبعد الطريقة التي عاملوني بها، لم أعد أحترمهم إطلاقاً. وأياً يكن، لقد قرروا بسرعة، وحضّر محاميٍّ عقداً أحصل بموجبه على ٥٠٪ من الأرباح بعد أن يكونوا استعادوا المليون ونصف المليون دولار. وقد كان كل ذلك محسوباً على أساس إيجار لمدة خمس سنوات، يعود الفيلم بعدها ملكاً لي، ككل أفلامي الأخرى.

بعد أن نظمت أموري قليلاً، وحياتي الخاصة أيضاً، بات لدي شعور بالسير على الغيوم. كنت قد عشت كشخص منعزل، مختفياً على مدى أسابيع، لا أرى غير الجدران الأربعة الخاصة بغرفتي في الفندق. وبعد أن قرأ أصدقائي المقال حول مغامرتي مع سائق التاكسي، بدأوا يظهرون، واستؤنفت حياة حرة بصورة رائعة، ومن دون معيقات.

كانت نيويورك تستقبلني بذراعين مفتوحتين. وقد لعب فرانك كراونينشيلد، مدير Vogue و Vanity Fair، دور دليل لي وسط حياة نيويورك المشرقطة، وكان كونديه ناست، الذي يملك هاتين المجلتين ويصدرهما، يقيم الاستقبالات الباهرة. كان يسكن شقة ضخمة في أعالي ناطحة سحاب في ماديسون أفينيو، كانت تلتقي فيها نخبة الفنون والثروة، وتزينها أحياناً أجمل فتيات زيغفيلد وفوليز بحضورهن، ومن بينهن أوليف توماس الرائعة والجميلة دولوريس.

كنت أعيش في الريتز، حيث كنت قد نزلت، حياة مضطربة. فطيلة النهار، كان هنالك من يهاتفني لتوجيه الدعوة إلي. هل بودي أن أمضي نهاية الأسبوع هنا، أو أن أحضر سباق خيل هناك؟ وكان كل ذلك انخراطاً مفرطاً في الحياة الاجتماعية، لكنني كنت عظيم السرور. لم تكن نيويورك بالنسبة لي غير حبكات روائية، وعشاآت في منتصف الليل، وغداآت، ومآدب، ولم يكن كل ذلك يترك لي لحظة، إلى حد أني توصلت لأخذ مواعيد للفطور. وبعد أن رأيت سطح المجتمع النيويوركي، كنت أرغب الآن في دخول النسيج التحتجلدي لغرينويتش فيلادج.

إن العديد من الكوميديين يتوصلون، بعد كل الوثبات التي أفضت بهم إلى النجاح، إلى نقطة يريدون عندها أن يحسّنوا قدراتهم الذهنية، فهم بحاجة إلى مَنٍّ فكري. يتجلى الطالب حيث يكون الناس أقل انتظاراً له: بين الخياطين، وصانعي السيجار، والملاكمين، وخدم المقاهي، وسائقي الشاحنات.

اذكر أني تكلمت يوماً في منزل صديق، في غرينويتش ڤيلادج، على التضايق الذي يشعر به المرء وهو يحاول إيجاد الكلمة الدقيقة للتعبير عن الأفكار التي تجول في ذهنه، وقلت إن القاموس العادي غير كافٍ، مضيفاً:

ـ لا شك أنه يمكن وضع منظومة تصنيف معجمي للأفكار، انطلاقاً من كلمات مجردة، باتجاه الكلمات الملموسة، والوصول بواسطة سلسلة من سيرورات الاستنتاج والاستقراء، إلى الكلمات الصحيحة للتعبير عن الفكرة.

وقد قال سائق كميون أسود:

ـ هذا الكتاب موجود، وهو كتاب **The saurus** لروجيه.

وكان خادم يعمل في الالكسندريا يستشهد بماركس ووليم بلايك كلما أوصل إليّ طبقاً.

وقد أوصاني كوميدي بهلوان كان يؤدي دوره، بلهجة أهل بروكلين، بأن اقرأ كتاب **تشريح الكآبة** لبورتون، قائلاً إن شكسبير وقع تحت تأثيره، وسام جونسون أيضاً. وأضاف: «لكن يمكنك إعفاء نفسك من اللغة اللاتينية».

منذ الفترة التي كنت أشتغل خلالها في الميوزيك هول، قرأت كثيراً، لكن ليس بعمق. وبما أني أقرأ ببطء، فأنا أتنقل بين الكتب. ومنذ اللحظة التي أتعرف فيها جيداً إلى أطروحة كاتب وأسلوبه، أكف عن الاهتمام به. لقد قرأت الأجزاء الخمسة الأولى من مؤلّف بلو تارك

حياة مشاهير الرجال، المعروف بـ **حيوات متوازية**[1]، من أولها إلى آخرها؛ لكنني وجدتها أقل فائدة مما يبرر ذلك الجهد المطلوب لقراءتها، ولم أتصدَّ للأجزاء الأخرى. وأنا أقرأ بنباهة، وبعض الكتب أقرأها مراراً وتكراراً. وعلى مدى سنوات، تنقلت بين أفلاطون ولوك وكانت وبورتون، وأخذت منهم بهذه الطريقة كل ما كنت أريده.

وفي الفيلادج، تعرفت إلى ڤالدو فرانك كاتب المقالات، والمؤرخ والروائي، وإلى هارت كراين، الشاعر، وماكس إيستمان، مدير **The Masses**، ودادلي فيلد مالون، المحامي اللامع ومدير مرفأ نيويورك، وامرأته، مارغريت فوستر، المنادية بمنح المرأة حق الاقتراع. وتغديت أيضاً في مطعم **عند كريستين**، حيث رأيت مجدداً عدة أعضاء من فرقة بروفنستاون بلايرز، كانوا يتغدون هناك بانتظام خلال التمرينات على **Emperor Jones**، وهي دراما كتبها كاتب مسرحي شاب، هو أوجين أونيل (الذي سيصبح في ما بعد حَمْوي). وقد اصطحبوني لزيارة مسرحهم، وكان مبنى لا يزيد حجمه على حجم زريبة لستة أحصنة.

وقد تعرفت إلى ڤالدو فرانك عبر قراءة أبحاثه المجموعة في كتاب **Our America**، المنشور عام ١٩١٩. وأحد تلك الأبحاث، عن مارك تواين، هو تحليل عميق وثاقب للشخص؛ وقد كان ڤالدو، من جهة أخرى، أول من كتب بصورة جدية عني. وقد صرنا إذاً صديقين حميمين. إن ڤالدو مزيج من الصوفي والمؤرخ، ونَفَذَ حَدْسُه بعمق إلى روح الأميركتين، الشمالية والجنوبية.

وفي الفيلادج، كنا نمضي معاً أمسيات ممتعة. وعن طريق ڤالدو، تعرفت إلى هارت كراين، وغالباً ما تعشينا في شقة ڤالدو الصغيرة في الفيلادج، وكنا نتناقش طيلة الليل حتى ساعة الفطور. وكانت نقاشات مشوِّقة كنا نبذل خلالها، نحن الثلاثة، جهوداً للتوصل إلى تحديد دقيق لأفكارنا.

كان هارت كراين في أقصى درجات الفقر. وكان والده، صانع المُلبَّس الملياردير، يريد إدخاله في عمله، ويبذل جهوده لتثبيط اهتمامه بالشعر عن طريق قطع الإمدادات عنه. وأنا لا أتذوق الشعر الحديث، لكن في الوقت الذي أكتب فيه هذا الكتاب، قرأت ديوان هارت كراين **The Bridge** (الجسر)، وهو عمل صب فيه كل انفعالاته، كتاب غريب ودرامي، مفعم بقلق واخز، وحس حاد بالصورة، ربما أكثر مما أستطيع أن أتحمل. وربما هذا العنف عائد إلى شخص هارت كراين بالذات، لكن كان في ديوانه مع ذلك نعومة كبيرة. وقد ناقشنا هدف الشعر، وقلت إنه رسالة حب إلى العالم. فقال هارت حزيناً: «عالم صغير جداً». كان يقول عن أعمالي إنها تدخل في تراث الكوميديات الإغريقية. وقد أوضحت له أني حاولت قراءة ترجمة إنكليزية لأريستوفان، لكنني لم أستطع الوصول إلى نهايتها.

وقد حصل هارت في الأخير على منحة من جوغنهايم، لكن كان الأوان قد فات. فبعد

---

(١) سمي كذلك لأنه مجموع بمجلدات يتحدث كل منها عن رجلين مشهورين: ديموستين ـ شيشرون؛ الإسكندر ـ قيصر، الخ... (م).

سنوات من الفقر وسوء التغذية، انصرف إلى الكحول والشهوات، وإذ كان عائدا في الباخرة من المكسيك إلى الولايات المتحدة، قفز إلى البحر.

قبل انتحاره بسنوات، أرسل لي كتاباً يضم قصائد قصيرة، بعنوان **White Buildings**، من إصدار بوني وليفرايت. وقد كتب على الصفحة الأولى: «إلى تشارلز شابلن، تذكاراً لفيلم **The Kid**، هارت كراين، ٢٠ كانون الثاني ١٩٢٨» وكانت إحدى القصائد بعنوان **Chaplinesque**[1].

We make our meek adjustments,
Contented with such random consolations
As the wind deposits
In slithered and too ample pockets.

For we can still love the world, who find
A famished kitten on the steps, and know
Recesses for it from the fury of the street,
A warm torn elbow coverts

We will Sidestep, and to the final smirk
Dally the doom of that inevitable thumb
That slowly chafes its puckered index toward us,
Facing the dull squint with what innocence
And what surprise!

And yet these fine collapses are not lies
More than the pirouettes of any pliant cane;
Our obsequies are, in an way, no enterprise.
We can evade you, and all else but the heart
what blame to us if the heart live on?

The game enforces smirks; but we have seen
The moon in lonely alleys make
A grail of laughter of an empty ash can,
And through all sound of gaiety and quest
Have heard a Kitten in the wilderness.

نتكيَّف خاضعين
مكتفين بتعزيات جُزافية
كتلك التي تضعها الريح
في جيوبٍ عميقة وواسعة.

لأنه لا يزال في وسعنا أن نحب العالم، نحن الذين نجد
قُطَيْطاً جائعاً على العتبة ونعرف
كيف نحميه من قساوة الشارع
في فجوة دافئة مغطاة بالريش.

(١) شابلنية (أو قصيدة لشابلن) - م.

سوف نسير جانبياً، وحتى البسمةِ المتكلفةِ الأخيرة
نتحاشى حكم ذلك الإبهام المحتوم
الذي يدير نحونا ببطءٍ سبّابته المجعّدة
مواجهين النظرة الشزراء الفاترة ببراءة
وبالكثير من الدهشة!

ومع ذلك، فتلك السقطات البارعة ليست أكاذيب
أكثر مما هي استدارات أي خيزرانة مطواع؛
وليس مأتمنا، بصورةٍ ما، مشروعاً.
في وسعنا التملص منكم، ومن كل شيء آخر، لكن ليس من القلب:
ما ذنبنا إذا بقي القلب حيّا؟

تفرض اللعبة ابتسامات متكلفة؛ لكننا رأينا القمر يصنع في المعابر المقفرة كأس
ضحك مقدسة من منفضة فارغة
وعبر أصوات المرح والبحث جميعاً
سمعنا مواء قُطَيْطٍ في البرّية.

لقد أقام دادلي فيلد مالون استقبالاً شيِّقاً في الفيلادج، ودعا جان بواسفين، الصناعي الهولندي، وماكس إيستمان، وآخرين. وكان أحد المدعوين، وهو رجل لطيف كانوا يقدمونه باسم «جورج» (ولم أعرف يوماً اسمه الحقيقي)، كان يبدو عصبياً للغاية. وقد قال لي أحدهم في ما بعد إنه كان سميراً عالي المقام لملك بلغاريا، الذي كان قد دفع تكاليف تعليمه في جامعة صوفيا. لكن جورج رفض هذه الحماية الملكية ليصبح واحداً من الحُمْر. وقد هاجر إلى الولايات المتحدة حيث انخرط في الـ I.W.W، وحكم عليه في الأخير بالسجن ٢٠ عاماً. وقد نفذ سنتين، ثم حصل على الحق في استئناف الحكم، وكان الآن طليقاً بكفالة.

كان يلعب بالحزازير، وإذ كنت أراقبه، همس دادلي في أذني:

ـ ليس لديه حظ في الربح.

كان جورج متدثراً بغطاء خوان، وكان يقلد ساره برنارد. وكنا نضحك لكن الكثيرين كانوا يعتقدون في الواقع، مثلي، بأنه سيعود إلى السجن لقضاء ١٨ سنة أيضاً.

كانت سهرة غريبة ومجنونة، وإذ كنت أغادر، صرخ بـي جورج:

ـ أنت مستعجل إلى هذا الحد، يا تشارلي؟ لماذا تغادر مبكراً؟

فانفردتُ به، ولم أكن أعرف ما أقول. لكنني همست:

ـ أيمكنني أن أساعدك بشيء؟

فبدرت منه حركة كما لاستبعاد هذه الفكرة، ثم شد على يدي وقال لي متأثراً:

ـ لا تقلق لأجلي، يا تشارلي. سوف تتدبر الأمور.

كان بودي أن أبقى مدة أطول في نيويورك، لكن أعمالي كانت تدعوني إلى كاليفورنيا. وقد أردت باديء ذي بدء أن أتخلص بسرعة من عقدي مع الفورست ناشونال، لأني كنت مستعجلاً للبدء مع الفنانين المتحدين.

ولقد كانت العودة إلى كاليفورنيا خيبة للأمل بعد الحياة الحرة، والمرحة والأخّاذة التي عشتها في نيويورك. وكانت مشكلة إنهاء أربع كوميديات ببكرتين للفورست ناشونال تبدو لي مهمة كأداء. وقد بقيت عدة أيام أجرجر نفسي في الستوديو، وأنا أتمرن على التفكير. فالتفكير، مثله مثل العزف على الكمنجة أو البيانو، يتطلب ممارسة يومية، وأنا فقدت عادة ذلك.

كنت قد تشبّعت كثيراً من حياة نيويورك المثيرة جداً، ولم أعد أتوصل للاسترخاء. لذا قررت الذهاب مع صديقي الإنكليزي، الدكتور سيسيل رينولدز، إلى كاتالينا لأصطاد السمك قليلاً.

كانت كاتالينا جنة، بالنسبة لصياد سمك. وكان هنالك فندقان في أفالون، قريتها القديمة الوادعة. أما صيد السمك فكان جيداً على امتداد السنة، وحين كان الطون متوفراً، لم يكن يجد المرء مراكب يستأجرها. ومنذ الفجر، كان يصيح أحدهم: «ها هي!»، وكنت ترى أسماك طون يتراوح وزن الواحدة منها بين الـ ١٥ و الـ ١٥٠ كلغ وهي تتحرك بعنف وتدفع الماء إلى أبعد ما يمكن أن يصل البصر. وكان الفندق الغافي يمتلىء فجأة بالحيوية مثل خلية نحل. وبالكاد كان للمرء وقت ليلبس، وإذا كان ممَّن أسعفهم الحظ فأوصوا على مركب مسبقاً، كان يقفز إليه وهو يستكمل تبكيل أزرار سرواله.

وفي إحدى تلك المناسبات، اصطدنا أنا والدكتور ثماني أسماك طون قبل الغداء، كان يزن كل منها حوالى الـ ١٥ كلغ. لكنها كانت تختفي بالسرعة التي تظهر بها، ونعود نحن إلى الصيد العادي. وكنا نصطاد الطون أحياناً بطيارة ورق مربوطة إلى الصنارة وممسكة بالطعم، الذي كان خطّاف ماء، بحيث يبقى على سطح المياه. ولقد كان هذا النوع من الصيد محمِّساً، لأنه كان بالإمكان رؤية الطون يضرب، وهو يثير زوبعة من الزبد حول الطعم، ثم يطارده على مدى ستين متراً أو أكثر.

إن أسماك أبـي منقار التي يجري اصطيادها حول كاتالينا تزن ما بين ٥٠ و ٣٠٠ كلغ. وهذا النوع من الصيد أكثر دقة. فخيط الصنارة مرخى، وأبو منقار يمسك الطعم بهدوء، وهو سمكة صغيرة من نوع البكورة أو خطاف ماء، ثم يبتعد حوالى مئة متر. ثم يتوقف، فنوقف المركب وننتظر الدقيقة المناسبة لإتاحة المجال أمام أبـي منقار كي يبتلع الطعم، فيما نبرم البكرة ببطء إلى حين يصبح الخيط مشدوداً. ثم نعطيه عندئذٍ هزّتين أو ثلاثاً، ويبدأ الصَّيد يصير مسلياً، إذ يجتاز بأقصى السرعة مئة متر على أبعد حد، وتصِرّ البكرة التي يلتف عليها الخيط صريراً يائساً، ثم تتوقف السمكة عن الحركة. وهنا نعيد لف الخيط بسرعة كي يتوتر من جديد، وإلا ينقصف. وإذا قامت السمكة عَرَضاً بانعطافة مفائجة، خلال سباقها، يقطع احتكاك الماء الخيط. فتبدأ بالقفز عشرين مرة أو أربعين فوق

الماء، هازة رأسها ككلب البلدغ[1]. ثم تغوص في الأخير باتجاه الأعماق، وتصبح إعادتها إلى السطح عملية منهكة. كانت سمكتي تزن ٧٩ كلغ ولزمني ٢٢ دقيقة لجرها إلى المركب.

كانت نهارات صافية، وكنا أنا والدكتور نمسك بصنارتينا، ونستسلم للنعاس في مؤخرة المركب، في تلك الصُّبيحات الرائعة التي يذوب فيها الضباب والمحيط في اللانهاية، فيما يُسمع بوضوح، وسط العمق الهائل، صوت النوارس والضجيج اللامبالي الصادر عن محرك زورقنا.

كان الدكتور رينولدز أحد عباقرة جراحة الدماغ، وكان قد حصل في هذا الميدان على نتائج عجائبية. ولقد كنت على علم بالعديد من الحالات التي عالجها بالجراحة. وكانت إحداها حالة طفلة مصابة بورم في الرأس، كانت تتلاحق نوباتها عشرين مرة كل يوم وباتت بلهاء. وبفضل العملية الجراحية التي أجراها لها سيسيل، تعافت بالكامل وتابعت دراستها بنجاح باهر.

لكن سيسيل كان مجنوناً بالمسرح، وهذا الشغف النهم هو الذي دفعني لأصير صديقه.

كان يقول إن «المسرح يمد الروح بالقوة». وغالباً ما كنت أرد بأن فنه كجرّاح يجب أن يكون سنداً كافياً. فماذا يمكن أن يكون أكثر إذهالاً من أن يجعل المرء من بلهاء صغيرة طالبة لامعة؟

قال رينولدز:

ـ تكفي فقط معرفة أين توجد الألياف العصبية، لكن التمثيل تجربة نفسية تنمّي الروح.

وقد سألته لماذا تخصص في جراحة الدماغ فأجاب:

ـ لأجل الجانب المأساوي الصرف في الموضوع.

غالباً ما كان يؤدي أدواراً صغيرة في مسرح الهواة في باسادينا. وقد مثّل أيضاً دور القس الذي يزور السجن في فيلمي، **الأزمنة الحديثة**...

حين عدت من الصيد، علمت أن صحة والدتي تحسنت وأنه صار في وسعنا، بعد أن انتهت الحرب، أن نجيء بها إلى كاليفورنيا من دون مخاطر. وقد أرسلت توم إلى إنكلترا ليصطحبها خلال الرحلة. وجرى تسجيلها باسم آخر على لائحة الركاب.

وقد بدت طبيعية تماماً خلال السفر. كانت تتعشى كل مساء في القاعة الكبرى، وتشارك في النهار بالألعاب المنظمة على متن السفينة. ولدى وصولها إلى نيويورك، كانت ظريفة ومتحكمة تماماً بنفسها إلى حين جاء مدير مصالح الهجرة لاستقبالها.

ـ عجباً، عجباً، يا سيدة شابلن! كم نحن مسرورون! هكذا أنت والدة تشارلي الشهير؟

---

(١) كلب أقطم، مبطط الأنف (م).

فقالت أمي بلهجة عذبة:

ـ أجل، وأنت يسوع المسيح.

وقد بدا وجه الموظف مثيراً للدهشة. لقد تردد، ثم استدار نحو توم وقال بتهذيب:

ـ هل يمكن أن تخرجي من الصف لحظة، سيدة شابلن؟

وفهم توم أنهما سيتعرضان لإزعاجات. مع ذلك، وبعد ملء عدد كبير من الأوراق، تكرمت مصلحة الهجرة بإعطاء أمي إذناً لمدة عام قابلاً للتجديد، شرط ألا تضطر الدولة لإعالتها في يوم من الأيام.

لم أكن رأيتها منذ آخر إقامة لي في إنكلترا، قبل عشرة أعوام، ولقد صدمت وأنا أرى سيدة عجوزاً تنزل من القطار في باسادينا. وقد تعرفت إلينا أنا وسيدني في الحال، وتصرفت بشكل طبيعي جداً.

وقد تدبرنا الأمر بحيث تسكن قربنا في بنغل مطل على البحر، مع زوجين للاهتمام بالبيت وممرضة تحمل شهادة تمريض للإشراف عليها. وكنا أنا وسيدني نزورها من حين لآخر ونلعب الورق في المساء. أما في النهار، فكانت تحب الذهاب في نزهات، أو القيام برحلات قصيرة في سيارتها. وكانت تأتي أحياناً إلى الستوديو، وأتيح لها أن تشاهد عروضاً لأفلامي الهزلية.

وأخيراً، جرى عرض **The Kid** في نيويورك، فلقي نجاحاً كبيراً. ولقد كان جاكي كوغان مثيراً، مثلما تنبأت لأبيه أول مرة رأيته. وبعد نجاح جاكي في فيلم **The Kid**، ربح خلال حياته المهنية أكثر من أربعة ملايين دولار. وقد كنا نتلقى كل يوم قُصاصات صحفية رائعة، جاء فيها أن **The Kid** عمل كلاسيكي. لكني لم أجروء يوماً على الذهاب لرؤيته في نيويورك، إذ كنت أفضل البقاء في كاليفورنيا، والاستماع إلى ما يقال عنه.

هذه السيرة الذاتية التي لا رابط فيها لا يجب أن تستبعد بعض الملاحظات حول تصور الفيلم. فمع أنه كُتبت كتب كثيرة ممتازة حول هذا الموضوع، فإن المؤسف هو أن معظمها يريد فرض ذوق الكاتب بخصوص السينما، في حين يجب ألا يكون كتاب من هذا النوع أكثر من محاضرة تقنية أولية تعلم استخدام أدوات المهنة. بعد ذلك، يكون على الطالب الموهوب خيالاً أن يستخدم حسه الفني للعثور على تأثيرات درامية. وإذا كان الهاوي مبدعاً، لا يحتاج إلا إلى المبادىء التقنية الأكثر أولية. وبالنسبة للفنان، تكون الحرية الكاملة للقيام بما ليس تقليدياً مثيرةً جداً على وجه العموم، وهذا هو السبب في أن الفيلم الأول الذي يخرجه المخرج يكون في أغلب الأحيان مليئاً بالنداوة والفرادة.

إن عقلنة الخطِّ والمسافةِ، والتأليفَ، والإيقاعَ، الخ، أشياءُ جميلة وجيدة، لكن لا علاقة لكل ذلك بفعل التمثيل، ومن شأنه أن يقع في الدوغمائية الجافة. ووجهة النظر الأكثر بساطة هي الأفضل دائماً.

من جهتي، أستفظع التأثيرات الغريبة، كأن تقوم، مثلاً، بالتصوير عبر نار في المدفأة من زاوية قطعة فحم، أو أن تتبع ممثلاً في بهو فندق كما لو كنت تواكبه على ظهر درّاجة؛ فبالنسبة لي هذه تأثيرات سهلة ومكشوفة. منذ اللحظة التي يعرف فيها الجمهور الديكور، يريد أن نوفر عليه الإزعاج المتمثل في لطخة تتحرك على الشاشة لرؤية ممثل ينتقل من مكان إلى آخر. إن تأثيرات على هذه الدرجة من الإطناب تبطىء سير الأحداث، وتثير الضجر والانزعاج، وقد جرت المماهاة خطأً بينها وبين كلمة «فن» المتعبة.

إن وضعية الكاميرا التي أقوم باستخدامها معدة لتسهيل الكوريغرافيا في حركات الممثل. فحين تكون الكاميرا موضوعة على الأرض أو حين تدور حول أنف الكوميديّ، تكون هي التي تلعب وليس الممثل. يجب ألا تفرض الكاميرا نفسها.

إن كسب الوقت في السينما هو الفضيلة الجوهرية، وقد كان إيزنشتاين وغريفيث يعرفان ذلك جيداً. ويشكل مونتاجٌ سريع، وحلولُ الصور تدريجياً مكان صور أخرى بين مشهد وآخر، دينامية السينما وتقنيتها.

يفاجئني سماع بعض النقاد يقولون إن تقنية الكاميرا لديَّ باتت شيئاً من الماضي، وإني لا أساير تقدم العصر. أي عصر؟ إن تقنيتي هي ناتج تأملات شخصية، وهي ثمرة منطقي الخاص بـي ووجهة نظري الخاصة، وهي لا تدين بشيء لما يفعله الآخرون. وإذا كان علينا في الفن أن نتبع عصرنا، يكون رامبراندت متأخراً جداً بالنسبة لفان غوغ.

وبما أننا نتحدث بموضوع الأفلام، يمكن أن تكون بعض الكلمات المختصرة مفيدة لأولئك الذين ينوون تحقيق أقصى الخدعات فظاظة، وهو الأمر الأسهل صنعاً. فهو يتطلب القليل من الخيال والموهبة على صعيد اللعب أو الإخراج. تكفي عشرة ملايين دولار، وحشود عظيمة العدد، وألبسة وديكورات وحيل سينمائية معقدة. فباستخدام كمية كبيرة من القماش والغراء يمكن جعل كليوبترا الدَّنفة تطفو على مياه النيل، وتسيير عشرين ألف ممثل صامت بين أمواج البحر الأحمر أو إسقاط أسوار أريحا، حيث إن كل ذلك لا علاقة له إلا ببراعة المتعهدين. وفي حين يكون المارشال جالساً في مقعد المخرج مع مخطوطته وتقطيع نصها إلى مشاهد، يتعب الرُّقَباء ويَعْرقون على المنظر، وهم يصيحون بالأوامر إلى الفرق: تعني صَفْرة واحدة «عشرة آلاف من اليسار»، وصفرتان «عشرة آلاف من اليمين» وثلاث صفرات «هجوم عام».

إن موضوعة معظم هذه المشاهد، إنما هي السوبرمان. فالبطل يعرف أن يثب، ويتسلق، ويطلق النار، ويقاتل ويحب بصورة أفضل مما يفعل باقي أشخاص الفيلم. وفي الواقع، يجري حل كل المشكلات الإنسانية بهذه الطرائق . . . ما عدا التفكير.

وهاكُمْ كلمة أيضاً عن الإخراج. فمن أجل إدارة الممثلين في مشهد من المشاهد يكون علم النفس ورقةً رابحة ثمينة. فعلى سبيل المثال، قد يحصل أن ينضم أحد الكوميديين إلى الفرقة في عز تصوير أحد الأفلام. ومع أنه ممثل ممتاز، يمكن أن يكون ثائر الأعصاب في هذا

الجو الجديد. هنا بالضبط يمكن أن يكون تواضع المخرج مفيداً جداً، كما حدث أن لاحظت في هذه الظروف. فمع أني أكون أعرف تماماً ما أريد، كنت أنفرد بالممثل القادم حديثاً، وأسر له أني متعب وقلق ولا أعرف ما يمكن فعله بالنسبة لهذا المشهد؛ وسرعان ما ينسى تعصيبه ليحاول مساعدتي، ثم يلعب دوره بصورة رائعة.

لقد طرح مارك كونيللي، المؤلف الدرامي، هذا السؤال ذات يوم: ماذا يجب أن يكون موقف المؤلف حين يكتب للمسرح؟ هل يجب أن يكون عقلياً أو عاطفياً؟ وأنا أعتقد أنه يجب أن يكون عاطفياً قبل كل شيء، لأن هذه وجهة نظر أكثر إثارة للاهتمام في المسرح من العقل؛ فالمسرح جرى تصوره لأجل ذلك، بصفوف المقاعد فيه، ومقدمته، وستارته الحمراء: كل تصور بنيانه الهندسي إنما يتوجه إلى الانفعالات. وبالطبع، هنالك دور أيضاً للعقل، لكنه ثانوي. وقد كان تشيخوف يعرف ذلك، وكذلك مولنار والعديد من المؤلفين المسرحيين الآخرين. وكانوا يعرفون أيضاً أهمية فن المسرحة، الذي هو قبل كل شيء فن معرفة الكتابة لأجل المسرح.

بالنسبة لي، إن فن المسرحة هو مرادف للتجميل الدرامي: إنه فن التحفظ؛ معرفة إغلاق كتاب فجأة؛ إشعال سيجارة؛ فن التأثيرات في الكواليس، طلقة مسدس، صرخة، ضجة سقوط، جَلَبة ما؛ فن إتقان دخول وإتقان خروج... وكل ما قد يبدو أساليب وطرائق لا أهمية لها، لكن إذا جرى استخدامها بدراية وروية تشكِّل شِعْرَ المسرح.

إن الفكرة التي ليس فيها حس المسرح لا قيمة لها، والشيء الأكثر أهمية إنما هو الفعالية. وبوجود الحس المسرحي يمكن الحصول على تأثير من لا شيء.

ولإيضاح ما قلته أود ذكر استهلال أضفته في نيويورك إلى فيلمي[1] **A Woman of Paris**. في ذلك الحين، كانت كل الأفلام الكبرى تتضمن استهلالات تدوم حوالي النصف ساعة. لم يكن لديّ سيناريو ولا حتى قصة، لكني كنت أتذكر لوحة عاطفية بالألوان تتناول أسطورة «سوناتة بيتهوفن» ويظهر فيها ستوديو فنانين ومجموعة بوهيميين جالسين بعبوس في الغبش وهم يصغون إلى عازف كمنجة. وقد نقلت إذاً هذا المشهد إلى الخشبة، ولم يكن معي غير يومين لإعداد الديكور.

شغَّلت عازف بيانو، وعازف كمنجة، وراقصين ومغنياً من المتشردين، ثم لجأت إلى كل الحيل المسرحية التي كنت أعرفها. وكان الضيوف جالسين بصورة دائرية على كنبايات أو على الأرض، مديرين ظهرهم للجمهور، من دون الاهتمام بالمشاهدين، وكانوا يشربون الويسكي فيما يعزف عازف الكمنجة سوناتته، وكان يمكن أن يسمع المرء بين حركتين شخير أحد السكارى. وبعد أن عزف عازف الكمنجة، ورقص الراقصون المتشردون، وغنى المغني أغنية بالقرب من شقرائي، كان هناك سطران من الكلام. فأحد المدعوين يقول: «الساعة الآن الثالثة، ويجب أن أمضي». ويقول آخر: «أجل، آن أوان الرحيل»، وهكذا دواليك. وبعد أن

---

(١) امرأة من باريس، وقد كان عنوان النسخة الفرنسية الرأي العام (م).

ذهب آخر المدعوين، أشعل المضيف سيجارة وبدأ يطفىء أنوار المشغل، فيما كانت تُسمع في الشارع أصوات تغني بالقرب من شقرائي. وبعد أن باتت خشبة المسرح تغوص في العتمة، باستثناء ضوء قمر كان يتسلل عبر نافذة الوسط، خرج المضيف، وراح الستار ينزل ببطء، فيما أصوات الغناء تبتعد شيئاً فشيئاً.

خلال كل ذلك المشهد الذي لم يكن يعني شيئاً، كان الصمت العميق مخيّماً على الصالة. وعلى مدى نصف ساعة، لم يكن قد قيل أي شيء، ولم يَحْدُث على المسرح إلا بعض أدوار الميوزيك هول العادية. ومع ذلك، ففي مساء الافتتاح، طلب الجمهور الإعادة ثماني مرات.

أنا لا أدعي أني أحب شكسبير في المسرح، إذ أحس بنفسي مرتبطاً جداً بعصري. فلِلعب شكسبير، يلزم نوع من التمثيل الباهر الذي لا أحبه ولا أهتم به. يتولد لدي شعور بالإصغاء إلى خطاب متفقه.

اقترب، يا عزيزي اللطيف باك. أتذكرُ
ذات يوم حين كنت جالساً على شِناخ[1]
وسمعت حورية على ظهر دلفين
تغني لحناً عذباً ومتناغماً
فتهدىء أغنيتها البحر الهائج فجأة
وتهرع نجوم من أفلاكها بجنون
لتصغي إلى غناء الحورية.

ربما كان هذا رائع الجمال، لكنني لا أقدّر هذا النوع من الكوميديا في المسرح. وفي كل حال، أنا أستفظع الموضوعات الشكسبيرية مع كل هذه المواكب من الملوك والملكات والشخصيات المجيدة المحاطة بالبهرجة. وربما كان ذلك عائداً لنفسيتي الخاصة بي، ولشخصيتي. فحين كنت أسعى وراء معيشتي، نادراً ما كانت هناك تطورات يمكن أن يدخل فيها الشرف. وأنا عاجز عن مماهاة نفسي مع مشكلات أحد الأمراء. وقد كان في وسع أم هاملت أن تضاجع كل أفراد البلاط من دون أن أبالي بالألم الذي قد يكون شعر به هاملت.

أما بخصوص تفضيلي لتقديم عمل ما، فأنا أحب المسرح التقليدي، مع صدره الذي يفصل الجمهور عن عالم الأوهام. أحب أن يظهر مشهد لأن ستارة تُرفع أو تنزاح. وأنا أنفر من التمثيليات التي تتم أمام صف الأنوار في مقدمة المسرح وبمشاركة الجمهور، ومن تلك التي يشرح فيها الحبكة شخص مستند إلى صدر المسرح. فبالإضافة إلى أن هذا أسلوب تعليمي، أعتقد أنه يفسد متعة المسرح، وأن هذه طريقة غير شعرية للتخلص من العرض.

وعلى صعيد الديكورات، أفضل ذلك الذي يساهم فقط في إضفاء الواقعية على المشهد، لا أكثر. وإذا كان الأمر يتعلق بعمل حديث عن الحياة اليومية، أرفض التصاميم

(١) أنف جبل داخل في البحر (م).

الجيومترية. فهذه التأثيرات الغريبة تمنعني من الإيمان بصحة ما أراه.

لقد فرض بعض الفنانين المرموقين اندفاعاتهم المشهدية إلى حد جعل الممثل والعمل الفني عبدين لها في آن معاً. من جهة أخرى، تكون استخدامات بسيطة للستائر ودرجات صاعدة إلى ما لا نهاية له تدخلات أكثر مدعاة أيضاً للخوف. إن رائحة التفقه المزعجة تفوح منها صارخة: «نحن نترك مجالاً واسعاً لرهافة إحساسكم ولخيالكم!» وقد رأيت لورانس أوليفييه ذات يوم بثياب السهرة وهو يلقي مقتطفاً من مسرحية ريتشارد الثالث خلال مهرجان. ومع أنه نجح في خلق مناخ قروسطي بحذق الكوميدي لديه، فلقد كانت عقدة ربطة عنقه البيضاء وثيابه في غير محلها.

لقد قال أحدهم إن فن لعب الكوميديا إنما هو فن الاسترخاء. ومن المؤكد أن هذا المبدأ الأساسي يمكن أن يطبَّق على كل الفنون، لكن يجب على ممثل أن يعرف بوجه خاص ضبط عواطفه وازدراءها. ومهما كان المشهد الذي يلعبه التقني الموجود في كل ممثل مجنوناً، يجب أن يبقى هو هادئاً ومسترخياً، وأن يراقب صعود انفعالاته وهبوطها ويسيطر عليهما: يجب أن يكون الإنسان الخارجي مشبوب العواطف بينما يبقى الإنسان الداخلي متحكماً بها. ولا يمكن أن يصل الممثل إلى ذلك إلا بالاسترخاء. فكيف يكون الاسترخاء؟ هذه مسألة صعبة. أما طريقتي الشخصية فخاصة بي كفاية: قبل الظهور على خشبة المسرح، أكون دائماً في حالة عصبية بالغة الشدة والتوتر إلى حد أني حين أدخل أكون قد استرخيت.

لا أعتقد أن بالإمكان تعليم التمثيل الكوميدي. وأنا رأيت أناساً أذكياء عاجزين عن ذلك، بينما يمثل بعض الحمقى تمثيلاً جيداً جداً. لكن مهنة الممثل تتطلب رهافة الإحساس قبل كل شيء. لقد كان واينرايت، الرجل المعتبر مرجعاً في قضايا علم الجمال، وصديق شارل لامب ومشاهير كتاب عصره، كان قاتلاً عديم الرحمة سمَّم لابن عمه بدم بارد لأسباب تجارية جشعة. وهذا هو مثال الرجل الذكي الذي لم يكن في وسعه يوماً أن يكون ممثلاً جيداً، لأنه كان يفتقر إلى رهافة الإحساس.

إن الذكاء الصرف وغياب الإحساس يمكن أن يكونا صنعتين مميزتين للمجرم المبالغ في الإجرام، مثلما يكون الشخص عديم الذكاء وذو الحساسية المفرطة مثالاً للأبله عديم الأذى. لكن حين يكون الذكاء ورهافة الإحساس في توازن تام، يكون لدينا عندئذٍ أروع الممثلين.

إن الجوهري بالنسبة لممثل كبير هو أن يحب نفسه حين يمثل. وأنا لا أقول ذلك بمعنىً منتقِص. فغالباً ما سمعت ممثلاً يقول: «كم أحب أن ألعب هذا الدور»، وهذا يعني أنه سيحب نفسه في هذا الدور. وربما كان ذلك نوعاً من النرجسية، لكن الممثل الكبير يهتم قبل كل شيء ببراعته: إيرڤينغ في الأجراس (The Bells)، وتري في دور سفنغالي (Svengali)، ومارتن هارڤي في القصة العاطفية لصانع سجائر (A Cigarettes Maker's Romance)، وهي أدوار ممتازة في أعمال عادية جداً. إن حباً شديداً للمسرح ليس كافياً؛ يجب أن يضاف إليه حب شديد للذات وثقة بالنفس.

أنا لا أعرف الشيء الكثير عن المحاضرات الدرامية العائدة إلى الميتود سكول. ويبدو أنه يجري التركيز فيها على تنمية الشخصية؛ التي يمكن أن تكون أقل نمواً لدى بعض الممثلين. على كل حال، إن التمثيل هو التظاهر بأنك شخص آخر. والشخصية عنصر غير قابل للتحديد تَظْهَر، أيّاً يكن، في تمثيل الممثل. لكن كل الطرائق تقدم شيئاً ما. فستانيسلافسكي كان يبحثُ مثلاً عن «الحقيقة الداخلية، وهو أمر يعني على ما يبدو «أن تكون» الشخص بدلاً من «تمثيله». وهذا يتطلب معرفة الغير، وحدساً كبيراً: يجب أن تتمكن من الإحساس بكينونة أسد أو نسر، وأن تصبح بصورة غريزية روح شخص ما، لتعرف في كل الظروف ما ستكون ردود فعله. وهذا القسم من مهنة الممثل لا يمكن تعلّمُه.

حين نشرح لممثل حقيقي أو ممثلة حقيقية شخصية ما، غالباً ما تكفي كلمة أو جملة: «هذا فالستاف» أو «هذه مدام بوفاري حديثة». ويُروى أن جيد هاريس قال يوماً لممثلة: «هذه الشخصية التي تمتلك حركيّة زهرة خزامى سوداء تتماوج». إن هذا، أيّاً يكن، نوع من المبالغة.

إن النظرية القائلة بأنه يجب معرفة سيرة الشخص لا نفع فيها... فما من مؤلف يمكنه أن يُدخل إلى عمل مسرحي أو دور هذه الفروق اللافتة للنظر التي كانت الدوز تجعل الجمهور يشعر بها. يجب أن تكون هناك أبعاد تتجاوز تصور المؤلف. ويبدو أن الدوز لم تكن مثقفة.

إنني أكره المدارس والمحاضرات الدرامية التي تشجع على التأمل والاستبطان لتوليد الانفعال العاطفي الصحيح. فمجرد اضطرار تلميذ لأن يخضع لعملية ذهنية حقيقية كافٍ للبرهان على أنه يجب أن يتخلى عن التمثيل.

أما المصطلحات الميتافيزيائية كثيرة الاستعمال، الخاصة بكلمة «حقيقة»، فتوجد منها أشكال شتى، وكل حقيقة تعادل أخرى. واللعب الكلاسيكي للكوميديا الفرنسية قابل للتصديق بقدر ما هو اللعب الواقعي المزعوم لقطعة من تأليف إيبسن؛ فالاثنان هما في ميدان الاصطناعي ومتصوران لإعطاء وهم الحقيقة... وفي الواقع، توجد في كل حقيقة بذور الكذب.

لم أدرس يوماً مهنة الكوميديّ، لكن حين كنت فتى، كان من حظي أن عشت في حقبة ممثلين كبار، واكتسبت امتداداً لتجربتهم ومعارفهم. ومع أني كنت موهوباً، فوجئت أثناء التمرينات باكتشاف كم عليَّ أن أتعلم على صعيد التقنية. يجب تعليم ذلك حتى للمبتدىء صاحب الموهبة، لأنه مهما تكن مواهبه عظيمة، يجب أن يمتلك موهبة جعلها ذات فعالية.

وقد اكتشفت أن أفضل وسيلة للوصول إلى ذلك، إنما هي حس الاستشراق: أي معرفة أين نحن وما الذي نفعله، في كل لحظة نكون فيها على خشبة المسرح. وحين ندخل خلال مشهد، يجب أن تكون لدينا السلطة الكافية لمعرفة أين نتوقف؛ متى نستدير، وأين يجب أن ننهض؛ متى وأين يجب أن نجلس، وإذا كان يجب مخاطبة شخص ما مباشرة أو مداورة. إن حس الاستشراق هذا يعطي المرء رباطة الجأش ويميز المحترف من الهاوي. وقد شدّدت دائماً على طريقة الاستشراق هذه مع ممثليَّ لدى إخراج أفلامي.

إن ما أحبه لدى الممثل، إنما الرهافة والتحفظ. ولقد كان جون درو، بلا ريب، أفضل من وجد في هذا الميدان. كان طيب القلب، مفعماً بالدعابة المرهفة، وكان يمتلك سحراً كبيراً. من السهل أن يكون المرء متوقداً (وهذا أمر متوقع من ممثل جيد)، ولا شك أنه من الضروري امتلاك الإلقاء والصوت. ومع ذلك، كان لدافيد وورفيلد صوت رائع وموهبة التعبير عن الانفعال، لكنه كان يترك لديك الانطباع بأن كل ما يقوله يذكّر بالوصايا العشر.

غالباً ما سئلت من هم الممثلون والممثلات الذين أفضلهم في المسرح الأميركي. وهذا سؤال يصعب الجواب عنه، لأن خياراً ما يستتبع أن الآخرين دونه، وهذا ليس صحيحاً. إن المفضلين لديَّ لم يكونوا جميعاً ممثلين جديين. فبعضهم كانوا يمثلون أعمالاً كوميدية خفيفة، والآخرون لم يكونوا حتى أكثر من مُسَلِّين.

فلقد كان أل جونسون، مثلاً، فناناً فطرياً كبيراً، موهوباً حيوية سحرية. كان الفنان الأكثر تأثيراً في المسرح الأميركي، شاعراً موسيقياً طُلي وجهه بالأسود مع صوت باريتون قوي، وكان يروي نكات تافهة ويغني أغاني عاطفية. وأياً يكن ما يغنيه، كان يأتي بك إلى مستواه، رافعاً إياك أو نازلاً بك: حتى أغنيته السخيفة مامي حمَّست الجميع. والناس لم يروا منه في السينما أكثر من شبح، لكنه كان عام ١٩١٨ في أوج مجده، وكان كافياً لكهربة الحضور. كان لديه إغراء غريب، بجسمه المرن، ورأسه الضخم، وعينيه الثاقبتين والغائرتين في محجريهما. وحين كان يغني أغاني كـ **There's a rainbow round my shoulder** [1] **, When I leave the world behind**[٢] كان يحمِّس الحضور، بحيث يهبون واقفين. لقد كان يجسد شِعْر برودواي، حيويتها كما ابتذالها، وأهدافها كما أحلامها.

وكان كل شيء يثير غيظ سام برنارد، الكوميدي الهولندي، وكان فناناً مرموقاً آخر. «البيض! البيض! الدزينة بستين سنتاً... وهي فاسدة أيضاً أو ماذا عن سعر لحم البقر المحفوظ! تدفعون دولارين للحصول عليه! دولارين... لعلبة صغيرة بائسة من لحم البقر المحفوظ!» كان يبالغ بتفاهتها، كما لو هو يدخل خيطاً في إبرة، ثم ينفجر ويكثر من اللعنات: «أذكر أيام لم يكن يستطع المرء أن يشتري لحماً محفوظاً بدولارين!».

هذا ولقد كان فيلسوفاً في المدينة. فحين جاء فورد سترلينغ باكياً في حضنه، وهو يروي له أن امرأته قد خانته، قال له سام:

ـ وما المشكلة! حتى نابوليون تعرض للخيانة!

لقد رأيت فرانك تيني حين جئت للمرة الأولى إلى نيويورك. كان أحد الممثلين المفضَّلين في الونتر غاردن، وكان يأتمن الجمهور على أسراره. كان ينحني من فوق الدرابزون وهو يتمتم: «النجمة تحبني حبّاً عابراً»، ثم يلقي نظرة خفية في اتجاه الكواليس للتأكد من أنه لا أحد يستمع إليه، ويستدير بعد ذلك نحو المشاهدين وهو يقول: «هذا مثير للرثاء؛ إذ وصلت

(١) ثمة قوس قزح حول منكبي (م).

(٢) حين أترك العالم ورائي (م).

من مدخل الفنانين ذلك المساء، قلت لها «مساء الخير»، لكنها متدلهة بحبي إلى حد أنها كانت عاجزة عن الجواب».

حينئذٍ اجتازت النجمة المسرح ووضع تيني إصبعه بسرعة على شفتيه طالباً من المشاهدين ألا يخونوه. ويناديها بمرح: «تحياتي، أيتها المحبوبة!» فتستدير بغيظ وتخرج من المسرح مسرعة، تاركة مشطها يسقط.

فيتمتم عندئذٍ باتجاه الجمهور: «ألم أقل لكم! لكن في السر، نحن كالإصبعين في اليد الواحدة». وإذ يلتقط مشطها، يقول لمدير المسرح: «هل يمكن يا هاري أن تضع هذا في مقصورتنا؟».

وقد رأيته من جديد على المسرح في ما بعد، وأصبت بصدمة، لأن ربة الكوميديا كانت قد تخلت عنه. كان مرتبكاً إلى حد أني لم أكن أتوصل للتصديق بأن ذلك هو الرجل نفسه. وهذا التغيير في شخصه هو الذي أعطاني، بعد سنوات، فكرة فيلمي **Limelight**[1]. كنت أريد أن أعرف لماذا فقد حيويته وثقته بنفسه. كان السبب في **Limelight** هو التقدم في السن؛ كان كالفيرو قد بدأ يقوم بالاستبطان بصدد أيامه القديمة؛ وكان يكتسب نوعاً من العنفوان، وكان ذلك يحرمه من كل علاقة حميمة بالجمهور.

كانت بين الممثلات الأميركيات اللواتي كنت معجباً بهن أكثر من غيرهن السيدة فيسك، التي كانت تتألق دعابة وذكاءً، وابنة أخيها إميلي ستيفنس، وكانت ممثلة موهوبة تملك أسلوبها وخفةً عظيمة في ملامسة المشاعر. أما جاين كوول فكانت تمتلك المقدرة والكثافة، وكانت السيدة ليسلي كارتر ممثلة أخاذة أيضاً. وبين أولئك اللواتي كن يمثلن الكوميديا، كنت أحب تريكسي فريغانزا كثيراً، وفاني برايس، بالتأكيد، التي كانت تغتني موهبتها على صعيد التمثيل الهزلي بحس ألعاب المسرح لديها. كما كانت لدينا نحن الإنكليز ممثلاتنا الكبيرات أيضاً: ايلن تيري، وأداريڤ، وإيرين فانبرو، وسيبيل تورندايك والذكية السيدة پات كامپبل؛ وقد رأيتهن جميعاً باستثناء السيدة پات.

كانوا يقولون عن جون باريمور إنه يندرج في التراث المسرحي الحقيقي، لكن كان لدى جون ابتذال ارتداء موهبته كما لو كانت جوارب حريرية من دون مثبِّت جوارب: كانت لديه لا مبالاة تجعله يتعامل مع كل شيء بنوع من الازدراء، سواء تعلق الأمر بتمثيل **هاملت** أو بمضاجعة دوقة. كل شيء بالنسبة إليه كان مجرد نكتة.

في السيرة التي كتبَتْها عنه جين فاولر؛ يروى أنه جرى سحبه من سريره الدافىء بعد سكرة شامبانيا مريعة، ودَفْعُه إلى المسرح لتمثيل **هاملت**، وهو ما قام به بعد نوبتي تقيوء في الكواليس وعدة أقداح من الكحول. ويقال إن النقاد الإنكليز حيّوا في شخصه ذلك المساء أعظم **هاملت** في ذلك العصر. إن نكتة بهذه السخافة هي إهانة لذكاء الناس جميعاً.

---

(١) ضوء المسرح (م).

كانت أول مرة تعرفت فيها إلى جون في ذروة نجاحه، في حين كان جالساً بعبوس وتجهم في أحد مكاتب مبنى الفنانين المتحدين. وبعد تقديمنا الواحد للآخر، تُركنا لوحدنا، وبدأت أتحدث عن انتصاره في دور هاملت. قلت إن شخصية هاملت هي الشخصية الأكثر جاذبية بين كل أبطال شكسبير. فأطرق مفكراً برهة ثم قال:

ـ ليس الملك دوراً سيئاً، وفي الواقع أنا أفضله على هاملت.

وقد بدا لي ذلك غريباً، وتساءلت إلى أي حد هو صادق. لو كان أقل كبرياء وأشد بساطة، كان يمكن إدخاله في صف الممثلين الكبار: بوث، وايرفينغ، ومانسفيلد وتري. لكنهم، هم، كانوا يمتلكون الروح النبيلة ورهافة الإحساس. أما المحزن لدى جون فهو أنه كان يكوِّن عن نفسه صورة ساذجة وخيالية، كان يرى نفسه نابغة محكوماً عليه بالتدمير الذاتي، وهذا ما وصل إليه في الأخير بصورة مبتذلة وكثيرة الجلبة، إذ مات بسبب الإدمان.

مع أن فيلم **The Kid** حقق نجاحاً باهراً، لم تكن مشكلاتي قد حُلت بعد، وكان علي أن أعطي أربعة أفلام أخرى للفورست ناشونال. وقد كنت أتيه صامتاً ويائساً في محل اللواحق، قائلاً إني ربما سأجد شيئاً يقدم لي فكرة: بقايا ديكورات قديمة، باب سجن، بيانو، غسالة. وقد وقع نظري على لعبة نوادي غولف قديمة. وإذ بي أجد الفكرة! شارلي يلعب الغولف! وكان فيلم **The Idle class**[(١)].

كانت العقدة بسيطة. تشارلي ينصرف إلى كل ملذات الأغنياء. يذهب إلى الجنوب ليعثر على الدفء، لكنه يسافر تحت القطارات بدل السفر فيها. ويلعب الغولف بطابات يجدها في الملعب. وفي إحدى حفلات الرقص المقنَّعة، يندمج بالأغنياء، مرتدياً ثياب متشرد ويقع في حب فتاة جميلة. وبعد مغامرة خيالية فاشلة، يفلت من المضيفين الغاضبين ويرحل من جديد.

خلال أحد المشاهد، وقع لي حادث صغير مع مصباح للِّحام. وقد اخترقت حرارة اللهب قعر سروالي الذي من الأمَيَنْت، بحيث أضفنا طبقةً من المادة العازلة. وقد رأى كارل روبنسون في ذلك فرصة للدعاية وروى القصة للصحافة. وفوجئت ذلك المساء حين قرأت بعنوان كبير أني أصبت بحروق خطيرة في وجهي ويديَّ وجسمي. وانهالت على الستوديو مئات الرسائل والبرقيات والمخابرات، فأصدرتُ تكذيباً، لكن القليل من الصحف نشرته. وهكذا ضمن بريدي الآتي من انجلترا، تلقيت رسالة من هـ.ج. ويلز يعلن فيها أنه صدم حين عرف بخبر الحادث. وأضاف محدثاً عن إعجابه بعملي وكم سيكون مؤسفاً أن أعجز عن مواصلته. فأرسلت إليه برقية جوابية مقدماً له رواية الوقائع الحقيقية.

بعد إنجاز **الطبقة الخاملة** أو (**شارلو والقناع الحديدي**)، كانت لدي نية بدء فيلم آخر على بكرتين، وكانت تراودني فكرة كوميديا هزلية ساخرة حول مهنة المرصِّص المزدهرة. كان المشهد الأول سيُظهر وصول سيارة ليموزين يقودها سائق، وننزل منها أنا وماك سواين. ونلقى معاملة باذخة من سيدة المنزل الجميلة، إدنا بورفيانس. وبعد أن تعشّينا وتشربنا الخمر، تدلنا

(١) **الطبقة الخاملة**، وقد كان عنوان النسخة الفرنسية **شارلو والقناع الحديدي** (م).

على الحمّام، حيث أشرع في العمل في الحال بواسطة سمّاعة طبيب، أضعها على البلاط، متفحصاً الأنابيب وضارباً عليها بطريقة ناعمة كما يفعل طبيب يفحص مريضاً.

لم أمض أبعد من ذلك، فأنا لم أكن أتوصل إلى التركيز، ولم أكن أدرك إلى أي حد أنا متعب. في كل حال، منذ شهرين، كنت أحس بالرغبة الشديدة في القيام برحلة إلى لندن. كنت حلمت بذلك من قبل، وجاءت رسالة هـ.ج. ويلز تقدم لي سبباً إضافياً. وفي نهاية سنوات عشر، كنت تلقيت رسالة من هيتي كيلي تقول لي فيها: «هل تتذكر فتاة حمقاء...» كانت الآن متزوجة، وتسكن بورتمان سكواير، وإذا حصل أن جئت إلى لندن، هل آتي لزيارتها؟ لم تكن للرسالة أي لهجة خاصة ولم تكن تحرك أشياء كثيرة، اللهم إلا ذكريات عاطفية غامضة. على كل حال، في غضون عشر سنوات، كنت قد أغرمت مراراً. مع ذلك، فأنا لن أمتنع بالتأكيد عن المرور لرؤيتها.

قلت لتوم أن يهيىء حقائبي، ولريفز أن يغلق الستوديو ويعطي عطلة للفرقة، فلقد كنت على وشك السفر إلى انجلترا.

عشية سفري من نيويورك عن طريق البحر، أقمت سهرة في مقهى الإيليزيه لحوالى ٤٠ مدعواً كان بينهم ماري بيكفورد ودوغلاس فايربانكس ومدام ميترلينك. لعبنا بالحزازير. وقد أحيى دوغلاس وماري الأولى منها، فثقب دوغلاس بطاقة بوصفه مراقباً في الترامواي، وأعطاها لماري. وبخصوص المقطع الثاني مثّلا بالإيماء عملية إنقاذ، فصرخت ماري طالبة النجدة بينما سبح دوغلاس نحوها وأعادها سالمة إلى ضفة النهر. وقد صحنا جميعنا بالتأكيد «فايربانكس[1]!» وزادت حيوية السهرة أكثر فأكثر، ولعبنا أنا والسيدة ميترلينك المشهد الأخير من **سيدة الكاميليا**. أدت مدام ميترلينك دور مارغريت، بينما لعبت أنا دور أرمان. وفي حين كانت تحتضر بين ذراعيّ، بدأت تسعل بصورة خفيفة في البدء، ثم بصورة أشد فأشد حدة. وانتقلت عدوى سُعالها بحيث بدأت أنا أسعل بدوري وبات ذلك مباراة سعال في ما بيننا. وقد انتهى بي الأمر إلى أن أمثل الاحتضار بين ذراعي مارغريت.

في يوم سفري، استيقظت بصعوبة في الثامنة والنصف صباحاً. وبعد الحمّام، صفا ذهني وثارت مشاعري إزاء فكرة السفر إلى انجلترا. وقد كان مسافراً معي على متن **الأولمبيك** صديقي إدوارد كنوبلوك، مؤلف **كيسمت** ومسرحيات أخرى.

وقد صعد حشد من الصحفيين إلى متن السفينة، وتولد لدي الشعور الممض بأنهم سيبقون معنا على امتداد الرحلة. لكن بقي فقط اثنان منهم؛ بينما نزل الآخرون مع الربان.

وقد وجدت نفسي وحيداً من جديد في حجرتي المزدحمة بالأزهار وسلال الزهور من أصدقائي. . . كنت قد غادرت انكلترا قبل عشر سنوات، على متن هذا المركب ذاته مع فرقة كارنو، وكنا نسافر آنذاك في الدرجة الثانية. وأذكر أمين حسابات السفينة الذي رافقنا في جولة سريعة على مقاعد الدرجة الأولى، لإعطائنا صورة عن الطريقة التي يحيا بها الأغنياء. كان قد تكلم على ترف الشقق الخاصة وأسعارها الباهظة، وها أنا الآن أحتل إحداها وأسافر إلى انكلترا! كنت قد عرفت لندن حين كنت فتى مغموراً من لامبث يصارع ليعيش؛ أما الآن فكنت اذهب، مشهوراً وغنياً، لأرى لندن كما لو كانت تلك هي المرة الأولى.

(١) إن Fare (ثمن الرحلة) تُلفظ بالإنكليزية مثل fair؛ أما bauks فتعني حافتي نهر.

بعد أربع ساعات من السفر، كان الجو قد بات إنكليزياً. وكل مساء كنا نتعشى، أنا وإدي كنوبلوك في مطعم الريتز، بدلاً من قاعة الطعام الكبرى. وكانوا يخدموننا في الريتز على أساس اللائحة، مقدمين الشامبانيا، والكافيار، والبط المكبوس، وطيور العفدوالتدرج، والخمور، والصلصة على أنواعها وفطائر سوزيت.

وبما أن الوقت كان متوفراً بالنسبة لي، كنت أستمتع بارتداء السموكينغ كل مساء، فلقد كان ذلك الترف ونقاط الضعف تلك هي التي تجعلني أفهم مُتَع المال.

كنت أعتقد أنه سيكون في وسعي الاسترخاء. لكن على لوحة إعلانات **الأولمبيك** كانت هنالك نشرات أخبار تعلن وصولي إلى لندن، وإذ كنا في وسط المحيط الأطلسي، بدأت تتكدس أكوام من البرقيات والدعوات والالتماسات. كانت الهستيريا تنمو كعاصفة، وكانت نشرة أخبار **الأولمبيك** تستشهد بمقالات في **اليونايتد نيوز والمورنينغ تلغراف**. وكان يمكن أن نقرأ في إحدى تلك الصحيفتين: «شابلن يعود كالفاتحين! سوف تشبه الرحلة من ساوثامبتون إلى لندن انتصاراً رومانياً».

وكانت صحيفة أخرى تعلن: «إن النشرات اليومية حول تقدم المركب وحول نشاطات تشارلي على متنه قد استُبْدلت برسائل بالراديو تُرسَل كل ساعة من المركب، وتنشر الصحف مقالات خاصة عن هذا الرجل الصغير العظيم ذي القدمين المضحكتين».

وفي صحيفة أخرى: «تلخص الأغنية اليعقوبية القديمة، **Charlie is my darling** (شارلي هو محبوبي) صرعة شابلن التي تجتاز انكلترا منذ الأسبوع الماضي، والتي تزداد حدة من ساعة لأخرى كلما شقت **الأولمبيك** المياه معيدة تشارلي إلى البلد».

وفي صحيفة رابعة: «لقد أوقف الضباب **الأولمبيك** في عرض البحر في ساوثامبتون هذا المساء، وانتظر جيش من المعجبين في المدينة لاستقبال الكوميدي الصغير. وقد اتخذت الشرطة إجراآت لإبقاء الجمهور على الأرصفة وخلال الاحتفال الذي سيستقبل فيه العمدة تشارلي. . . وتشير الصحف، كما في الأيام التي سبقت استعراض النصر، إلى أفضل الأماكن التي يمكن الجمهور أن يرى شابلن منها».

لم أكن مهيأً لهذا النوع من الاستقبال. ومهما كان رائعاً وخارقاً، كنت فضلت تأخير زيارتي إلى حين يصبح لديَّ إحساس بأني على مستوى هذا الاستقبال. وما كنت أرغب في رؤيته بوجه خاص إنما كان الأمكنة المألوفة سابقاً. أن أتنزه بهدوء وأتأمل لندن، وأتيه لجهة كيننغتون وبريكستون، وارفع عيني نحو نافذة ٣ باونال تيراس، وإلقاء نظرة سريعة الى السقيفة المماثلة التي ساعدت فيها الحطابين، ورؤية نافذة أول طابق في ٢٨٧ كيننغتون رود حيث عشت مع لويز ووالدي؛ كانت تلك الرغبة قد تحولت فجأة إلى نوع من الاستحواذ.

بلغنا شربورغ أخيراً! كان الكثير من الركاب ينزلون، وصعد كثيرون إلى متن السفينة، عمال سينما ميكانيكيون وصحفيون. هل كنت أحمل رسالة إلى انكلترا؟ إلى فرنسا؟ هل سأزور إيرلندا؟ ما هو رأيي حول المسألة الإيرلندية؟ سرب حقيقي من الأسئلة المتشابكة.

غادرنا شربورغ ورحنا نشق الموج باتجاه انكلترا، لكن ببطء، ببطء مثير لليأس. لم يكن وارداً أن ننام. ساعة، ساعتان، ثلاث، وكنت لا أزال صاحياً. توقفت الآلات، ثم انطلقت من جديد في الخلف، ثم توقفت بالكامل. وسمعت ضجيج خطوات في الممر. لقد كنت متوتراً وصاحياً بالكامل، وقد نظرت عبر كوة السفينة. لكن العتمة كانت مسيطرة، ولم يكن يمكنني أن أرى شيئاً. إلا أني كنت أسمع أصواتاً إنكليزية!

طلع النهار، لكنني نمت، بسبب الإرهاق الشديد، لكن فقط لمدة ساعتين. وقد جاءني الخادم بالقهوة الحارة وصحف الصباح، كنت استعدت حيويتي مثل قُبَّرة.

كان عنوان ضخم يعلن:

استقبال الممثل الكوميدي
سيكون شبيهاً
بيوم الهدنة

وآخر:

كل لندن تتحدث
عن زيارة شابلن

وآخر:

نضمن لشابلن
استقبالاً ظافراً في لندن

وعنوان آخر بأحرف كبيرة:

تحياتنا إلى ابننا...

وبالطبع، كانت هناك بعض الانتقادات:

دعوة إلى العقل

«باسم السماء، فلنستعد عقلنا. فلا شك أن السيد شابلن هو شخص يستحق التقدير الشديد، ولا يهمني إطلاقاً أن أعرف لماذا هذا الحنين للوطن، الذي أصابه اليوم بصورة مؤثرة، لم يتجل خلال السنوات القاتمة، حين كانت عائلات بريطانيا العظمى واقعة تحت تهديد الهان. .ربما كان صحيحاً، كما أسبقنا، أن شارلي شابلن معد، بصورة أفضل، للعب دور المهرج أمام كاميرا، مما يكون وهو ينجز أعمالاً رجولية وراء بندقية».

استقبلني على الرصيف عمدة ساوثامبتون، ثم اقتادوني بسرعة إلى القطار. أخيراً، كنا نتحرك في اتجاه لندن! وقد كان أرثر كيلي، شقيق هيتي، في مقصورتي. وأذكر أني كنت أتطلع إلى بانوراما المروج الخضراء التي كانت تمر، في حين نحاول أنا وأرثر أن نبقي الحديث. وقد أخبرته بأني تلقيت رسالة من أخته تدعوني فيها للعشاء في بيتهم في بورتمان سكواير.

وقد نظر إليَّ بصورة غريبة وبدا مرتبكاً، ثم قال:

ـ لقد ماتت هيتي، هل تعرف ذلك؟

وقد هزني الخبر، لكنني لم أستوعب على الفور كل المأساة التي كان ينطوي عليها؛ كنت أعيش في زوبعة أحداث كبرى، لكن كان لدي الشعور بأني حُرمت من تجربة. لقد كانت هيتي الجمهور الوحيد الباقي من الماضي، الذي كان بودي رؤيته من جديد، لا سيما في تلك الظروف الخارقة.

وصلنا إلى ضواحي لندن، وكنت أنظر بشـرهٍ من النافذة، محاولاً عبثاً أن أتعرف إلى واحد من الشوارع فيما نحن عابرون. وكان يمتزج بإثارتي الخوفُ الغامض من أن تكون لندن تغيرت كثيراً منذ الحرب. وقد كانت تلك الإثارة تنمو باستمرار، والشعور الوحيد الذي كنت أحس به نفاد الصبر. نفاد صبر حيال ماذا؟ كانت نفسي في حالة تشوش كامل وكنت عاجزاً عن التفكير. كان في وسعي في أفضل الأحوال أن أرى سطوح لندن، لكن الواقع لم يكن هنا. كان نفاد الصبر يطغى على كل شيء؛ نفاد الصبر!

أخيراً دخلنا في سجن الضجيج هذا الذي تشكله محطة سكة حديد: محطة واترلو! وحين كنت أنزل من القطار، لمحت في طرف الرصيف حشداً كبيراً من الناس خلف صفوف من رجال الشرطة. كان كل شيء في حالة توتر شديد، وكان الجو مهتزاً. ومع أني كنت عاجزاً عن استيعاب شيء غير تلك الإثارة، أدركت أنهم يمسكون بخناقي ويجعلونني أجتاز الرصيف كما لو كنت قيد الاعتقال. وإذ رحنا نقترب من الحشد المتجمع، بدأ التوتر يتبدد: «هاهو! هاهو!» «هذا التشارلي الطيب العجوز!» ثم انفجر الناس بالتصفيق. ووسط كل ذلك، جرى إصعادي إلى سيارة ليموزين، مع ابن عمي أوبري، الذي لم أره منذ ١٥ سنة. ولم يكن لديّ من حضور الذهن ما يتيح لي الاحتجاج على كونهم يخفونني عن الجمهور الذي انتظر طويلاً ليراني.

طلبت من أوبري أن يتأكد من كوننا سنمر عبر جسر ويستمنسر. وبعد خروجنا من واترلو وإذ كنا ننزل يورك رود، لاحظت أن البيوت القديمة قد اختفت، وبات يقوم مقامها مبنى جديد، هو بناية الـ إل. سي. سي. لكن حين انعطفنا عند زاوية يورك رود، بدا جسر ويستمنستر، كإطلالة شمس! كان لا يزال هو نفسه مع قصر البرلمان الرسمي الباقي هناك، خالداً لا يزول. لقد عثرت مجدداً على الديكور ذاته الذي كنت قد تركته. وكادت دموعي تنهمر.

اخترت فندق ريتز، لأنه بني حين كنت طفلاً، ولأنني كنت ألمح وأنا أمر أمام مدخله ما في الداخل من بهاء وزخرف وترف، وكانت لديَّ منذ ذلك الحين رغبة في معرفة ماذا يشبه الباقي.

كان جمهور كبير ينتظر أمام الفندق وألقيت خطاباً قصيراً. وحين بت في شقتي أخيراً، كان نفاد صبري لأخرج وحدي وأتجول يزداد حدة. لكن الحشد كان لا يزال في الخارج، يطلق الهتافات، وقد اضطررت للظهور عدة مرات على الشرفة، لأشكر وأحيي، كما لو كنت

أحد أفراد العائلة الملكية. إنه لمن الصعوبة بمكان أن يصف المرء تلك الظروف الخارقة.

كانت شقتي مزدحمة بالأصدقاء، لكن رغبتي الوحيدة كانت في الإفلات منهم. كانت الساعة الرابعة بعد الظهر، وقد قلت لهم إني سأخلد إلى الراحة قليلاً قبل أن أراهم مجدداً على العشاء.

وما أن ذهبوا، حتى سارعت إلى تغيير ثيابي، وقد صعدت في آلة رفع الأحمال، وخرجت عبر باب الخدمة من دون أن يراني أحد. ثم ذهبت في الحال إلى جيرمين ستريت، وأخذت تاكسي عَبَرَ بي الهايماركت، فترافالغار سكواير، فشارع البرلمان وصولاً إلى جسر ويستمنستر.

وقد انعطف التاكسي عند إحدى الزوايا، وإذ بنا في كيننغتون رود. كان الأمر لا يصدَّق! لم يتغير أي شيء، فهذه كنيسة المسيح في زاوية ويستمنستر بريدج رود! وهذه حانة الكوب في زاوية بروك ستريت!

أوقفت التاكسي قليلاً قبل ٣ باونال تيراس، وقد اكتسحني هدوء غريب وأنا أتقدم نحو المنزل. وقفت لحظة لأتأمل جيداً ديكور ٣ باونال تيراس! كان المنزل هناك، وكان يشبه جمجمة عارية قديمة. ورفعت نظري نحو النافذتين أعلاه، نحو السقيفة التي جلست فيها أمي سابقاً، ضعيفة وسيئة التغذية، وراحت تفقد عقلها شيئاً فشيئاً. كانت النافذتان مغلقتين، ولم تكونا تكشفان أي سر، وبدتا لامباليتين بالرجل الذي كان يتسمر في الشارع، ويتأملهما طويلاً. ومع ذلك، كان الصمت أشدّ فصاحة من الكلمات، وقد انبجس في الأخير رهط من الأولاد الصغار الذين أحاطوا بي، فاضطررت لمواصلة طريقي.

اتجهت نحو الحظائر خلف كيننغتون رود، حيث كنت أساعد قاطعي الخشب، لكن كانت هنالك الآن جدران من القرميد، وكان قاطعو الخشب قد اختفوا.

وذهبت بعد ذلك إلى ٢٨٧، كيننغتون رود، حيث عشت أنا وسيدني مع والدي ولويز وابنهما الصغير. ورفعت بصري نحو نوافذ غرفة الطابق الأول، التي كانت تذكّرني بقوة بيأسي وأنا طفل. لكنها كانت تبدو الآن بريئة، وهادئة ومحاطة بالألغاز!

ثم ذهبت حتى كيننغتون بارك، ماراً أمام مكتب البريد حيث كان لدي حساب بقيمة ٦٠ ليرة في صندوق التوفير: كان ذلك هو المال الذي وفرته بصعوبة منذ عام ١٩٠٨، وكان لا يزال موجوداً هناك.

كيننغتون بارك! بالرغم من السنوات، كان لا يزال أخضر كئيباً. وقد أردت العثور على كيننغتون غايت من جديد، مكان موعدي الأول مع هيتي. ووقفت برهة لأتأمل تراموايا يتوقف. وقد صعد أحدهم لكن لم ينزل أحد.

ثم تبعت بريكستون رود، وصولاً إلى ١٥، غلينشاو مانشنز، ثمة حيث أثثت أنا وسيدني شقتنا. لكن تأثري كان قد استنفد، ولم يبق لدي سوى الفضول.

في طريق العودة، توقفت عند حانة الكور، لأشرب كأساً. لقد كانت في زمانها مؤسسة ظريفة، مع بارها المصنوع من الأكاجو المشمع، ومراياها الجميلة وصالة البليار فيها. في الصالة الكبرى جرى العرض الأخير لصالح والدي. كانت الكور الآن خربة بعض الشيء، لكن كل شيء كان لا يزال غير ملموس. وغير بعيد عن هذا المكان، عثرت مجدداً على المدرسة التي قمت فيها بسنتي دراستي، مدرسة كيننغتون رود كاونتري البلدية. وألقيت نظرة في حوش الاستراحة: كانت لطخة الاسفلت الرمادية قد ضاقت بين الأبنية الجديدة التي أقيمت هناك.

وإذ كنت أتنزه عبر كيننغتون، بدا لي كل ما حدث هناك شبيهاً بحلم، بينما كان ما حدث لي في الولايات المتحدة هو الواقع. بيد أنه كان لدي شعور بانزعاج خفيف، حين فكرت ربما بأن شوارع الفقر اللطيفة تلك كانت لا تزال تمتلك القدرة على إسقاطي في فخ رمال يأسها المتحركة.

لقد كُتبت سخافات كثيرة حول كآبتي العميقة وميلي إلى الوحدة. ربما لم أحتجْ يوماً لأن يكون لدي أصدقاء كثيرون، ذلك أن الشهرة تجتذبهم بصورة عمياء. وفي الواقع أنا أحب أصدقائي مثلما أحب الموسيقى، حين أكون في حالة الاستعداد النفسي الضرورية. إن مساعدة صديق محتاج مسألة سهلة، لكن إعطاءه وقتك أمر غير مناسب دائماً. وفي ذروة شعبيتي، كان الأصدقاء والمعارف يكتسحون حياتي بصورة مفرطة. لكن بما أني في الوقت نفسه منفتح على الغير ومنغلق على الذات، فحين كان يرجح هذا الجانب الثاني من مزاجي كنت أجدني مضطراً للإفلات منهم. وربما كان ذلك يفسر تلك المقالات التي كان يرد فيها أنه يتعذر الإمساك بي، وأني متوحد وعاجز عن الصداقة الحقيقية. وهذا كلام غير معقول. لدي صديق أو صديقان حميمان يضيئان أفقي وحين أكون معهما أمضي عموماً أوقاتاً جميلة وممتعة.

إلا أن شخصي قُدِّم بطرق مختلفة وفقاً لمزاج الكاتب. هكذا كتب سومرست موغام:

«شارلي شابلن... إنه يسلي بصورة بسيطة ولطيفة وعفوية. ومع ذلك، يشعر المرء طيلة الوقت أن ذلك يخفي كآبة عميقة. إنه شخص متبدل المزاج، ولا حاجة للتذكير بتصريحه المازح: «آه، كانت تساورني الهموم البارحة إلى حد أني لم أكن أعرف ماذا أفعل بنفسي»، لإفهامكم أن دعابته تمتزج بالحزن. إنه لا يشعركم بأنه إنسان سعيد، وأنا أحس أنه يعاني من حنين ما إلى الضواحي. إن الشهرة التي يستمتع بها وثراءه يسجنانه في نمط حياة لا يجد فيه غير الإكراه والقسر. وأنا أظن أنه يتذكر حرية فتوته الصعبة، الممتلئة بالفقر والحرمانات المرة، بحنين يعرف أنه لن يمكن إرضاؤه يوماً. إن شوارع جنوبي لندن هي بالنسبة إليه مسرح الكثير من التسليات والمغامرات المرحة والمجنونة... أتخيله داخلاً إلى بيته ومتسائلاً ما الذي يمكنه أن يفعله في بيت هذا الغريب. وأتصور أن المكان الوحيد الذي يمكنه اعتباره منزلاً شخصياً، إنما هو ذلك الطابق الأول المطل على ساحة كيننغتون رود. ذات مساء، كنت أتنزه معه في لوس أنجلس، وقادتنا خطانا في الأخير إلى أفقر حي في المدينة. كانت هناك بيوت

منفرة للإيجار وحوانيت بائسة ومضجاجة صاخبة، حيث تباع شتى السلع التي يشتريها الفقراء يوماً بيوم. وقد أشرق وجهه، وهتف بلهجة مفعمة بالحيوية والمرح: «انظر، هذه هي الحياة الحقيقية، ألا توافقني الرأي؟ وكل الباقي خداع»[1].

إن هذه الطريقة لجعل الفقر مغرياً للغير هي طريقة مزعجة، وأنا لم ألتق إلى اليوم أي فقير يحن إلى الفقر، أو يجد فيه الحرية. كما أنه لن يمكن السيد موغام أن يقنع فقيراً بأن الشهرة والثروة الكبيرة مرادفان للقسر، فأنا لا أجد أي إكراه في الثروة، بل أجد فيها على العكس الكثير من الحرية. وأنا لا أعتقد أن موغام قد ينسب أفكاراً خاطئة إلى هذا الحد إلى أي من أشخاص رواياته، حتى الأقل أهمية. أما هذه الجمل الكبيرة من نوع: «إن شوارع جنوبي لندن هي مسرح الكثير من التسليات والمغامرات المرحة والمجنونة»، فلها نبرة تهكمية وقحة على طريقة ماري انطوانيت.

لم أجد الفقر مغرياً ولا وجدته موجباً للعبرة. وهو لم يعلمني غير تشويه القيم، والمغالاة في تقدير فضائل الطبقات الغنية والمزعوم أنها راقية، ونِعَمها.

لقد سمحت لي الثروة والشهرة، على العكس، بأن أرى العالم بمنظوره الحقيقي، واكتشف وأنا أقترب من أناس رفيعي المقام أن لديهم عيوبهم مثلهم مثل الناس العاديين بيننا. ولقد علمتني الثروة والشهرة أيضاً ألا أعتبر علامة السيف والعصا والكرباج مرادفة للتنفج[2]، وأن أفهم الخطأ الذي يمكن أن يقترفه المرء، حين يقدِّر انطلاقاً من نبرة مدرسية ميزة واحد من الناس وذكاءه، وذلك التأثيرَ المُشِلَّ الذي مارسته هذه الخرافة على عقل البرجوازية الإنكليزية، إذ إن الذكاء ليس بالضرورة ناتج التربية أو معرفة الكلاسيكيين.

بالرغم مما يزعمه موغام، مثله مثل الجميع، فأنا ما أنا: فرد، نسيج وحده ومختلف، وخلفي كل ميراث الرغائب والحاجات السلفية، مع كل الأحلام والرغبات والتجارب الشخصية التي أنا محصلتها.

بعد وصولي إلى لندن، وجدت نفسي دائماً بصحبة أصدقاء من هوليود. كنت أريد تغييراً، وتجارب جديدة، ووجوهاً جديدة؛ كنت أريد الاستفادة من واقع كوني مشهوراً. كان لدي موعد واحد، وهذا الموعد كان مع هـ. ج. ويلز. بعد ذلك، كنت حراً، مع أمل غامض بالتقاء أناس آخرين.

قال لي إدي كنوبلوك:

– لقد نظمت لك عشاء في الغاريك كلوب.

---

(١) هذه الملاحظة التي جرت نسبتها إليَّ ليست صحيحة. كنا في الحي المكسيكي وقلت: «هنالك من الحيوية في هذا المكان أكثر مما في بيفرلي هيلز».

(٢) الكلمة العربية المقابلة لكلمة Snobisme الفرنسية، أو Snobism الإنكليزية، ومعناها تفاخر المرء بما لا يملك والإعجاب بما هو شائع (م).

فقلت مازحاً:

ــ ممثلون، وفنانون، وكتّاب. لكن أين هو هذا المجتمع الإنكليزي المغلق، وتلك المنازل الريفية والاستقبالات التي لست مدعواً إليها؟

كنت أتطلع للدخول في تلك الدائرة، الأكثر ندرة، من الحياة الدوقية. ولا يعني ذلك أنني متنفج، لكنني كنت سائحاً لديه فُضول الزيارات.

كان يسود في الغاريك كلوب جو من التدرج الضوئي، بين الجدران الملبَّسة بخشب السنديان القاتم واللوحات الفنية. لقد كان ميناءً أميناً غامضاً حيث التقيت السير جايمس باري، وإ. ف. لوكاس، ووالتر هاكيت، وجورج فرامبتون، وادوين لاتيينز، وسكواير بـرانكروفت وأشخاصاً مشهورين آخرين. ومع أن العشاء كان مضجراً للغاية، تأثرت إلى حد كبير بسبب تلك الضريبة المؤثرة التي كانت تتمثل بحضور أولئك النبلاء المتميزين.

لكنني شعرت بأن تلك السهرة لم تكن ناجحة تماماً. فحين يجتمع الناس الأَمْجاد، تتطلب الظروف نوعاً من وحدة الأذواق وكان من الصعب بلوغ ذلك حين يكون ضيف الشرف حديث نعمة مشهوراً شدَّد على ألا يكون هناك أحاديث بعد العشاء؛ وربما كانت الثغرة هنا. وخلال العشاء، حاول فرامبتون، النحات، أن يبدو خفيفاً، وكان لطيفاً، لكن كان يصعب عليه أن يلمع في غبش الغاريك كلوب، في حين كنا نأكل الجامبون المغلي والبودنغ بثفل قصب السُّكَّر.

خلال مقابلتي الأولى مع الصحافة الإنكليزية، أعلنت سهواً أني جئت لزيارة الأمكنة التي شهدت طفولتي في إنكلترا، ولأتذوق من جديد الحنكليس البحري والبودنغ بقصب السكر. وقد قدموا لي، بنتيجة ذلك، هذا الطبق الأخير، في الغاريك كلوب، وفي الريتز وفي بيت هـ.ج. ويلز؛ وحتى في العشاء الفاخر الذي أقامه السير فيليب ساسون، كان هناك، بمثابة تحلية، طبق البودنغ بقصب السكر.

وقد افترق المدعوون باكراً، وتمتم ادي كنوبلوك في أذني أن السير جيمس باري يتمنى دعوتنا إلى شقته في ادلفي تيراس لتناول فنجان شاي.

كانت شقة باري شبيهة بمشغل، غرفة كبيرة مع إطلالة رائعة على نهر التاميز. وكان يوجد في وسط الغرفة موقد مستدير مع قسطل يصعد إلى السقف. وقد قادنا باري إلى نافذة تطل على زقاق ضيق ونافذة في الجهة المقابلة.

قال بلهجة ماكرة بنبرته السكوتلاندية:

ــ هذه غرفة نوم شـو[1]. وحين أرى ضوءاً فيها، أرمي نُوى كرز أو خوخ على الزجاج. فإذا كان يريد أن يثرثر، يفتح النافذة ونتحدث قليلاً، وإلا يطفىء النور من دون تذمر. وعموماً أرمي ثلاث نُوى تقريباً، ثم أتوقف.

(١) جورج برنارد شو، الكاتب الساخر المشهور (م).

كانت الباراماونت تستعد لتصوير فيلم **Peter Pan** في هوليود. وقد قلت لباري:

ـ لبيتر بان إمكانات أكبر كفيلم مما كقطعة للمسرح.

وقد شاركني الرأي. وكان يركّز بوجه خاص على مشهد يظهر فيه ويندي وهو يكنّس جنّيات في لحاء شجرة. وقد قال لي باري أيضاً في ذلك المساء:

ـ لماذا أدخلت متتالية حلم في **The Kid**؟ إن ذلك يقطع مجرى الحكاية.

أجبته بصراحة:

ـ لأني كنت تحت تأثير قبلة لساندريلا.

في اليوم التالي، ذهبت أنا وادي كنوبلوك للتبضع. ثم اقترح علي أن نذهب لرؤية برنارد شو. ولم نكن أخذنا منه أي موعد. وقد قال لي إدي:

ـ يمكننا أن نمر بكل بساطة.

في الرابعة، ضغط إدي زر الجرس في ادلفي تيراس، وفيما كنا ننتظر تملكني خوف شديد، فقلت له «نأتي في مرة أخرى» ورحت أصعد الشارع عَدْواً، وخلفي إدي الذي كان يؤكد لي عبثاً أن الأمور ستجري على ما يرام.

هذا ولم أتعرف إلى شو إلا في عام ١٩٣١.

في صباح اليوم التالي، أيقظني رنين الهاتف في الصالون، ثم سمعت الصوت المعدني لسكريتيري الأميركي يقول لي: «مَن إذاً؟ . . . أمير الغال!».

كان إدي موجوداً، وبما أنه يزعم أن له خبرة في البروتوكول، كان هو الذي أخذ الجهاز. وقد سمعته يقول: «أنت هناك؟ آه! نعم. هذا المساء؟ شكراً!».

وقد أعلن، وهو شديد الإثارة، لسكريتيري أن أمير الغال يود أن يتعشى السيد شابلن معه هذا المساء، واتجه نحو غرفتي. فقال له سكريتيري:

ـ لا توقظه الآن.

فقال إدي مغتاظاً:

ـ عليك اللعنة، يا عزيزي، إنه أمير الغال.

واندفع يتحدث عن اللياقات البريطانية.

بعد ذلك بلحظات، سمعت قفل باب غرفتي يدور، فتظاهرت بأني استيقظت للتو. ودخل إدي ليعلن لي، وهو يسيطر على إثارته ويتظاهر باللامبالاة التي لم يكن يشعر بها في الحقيقة:

ـ يجب أن تبقى طليقاً هذا المساء، إذ إنك مدعو للعشاء مع أمير بلاد الغال.

وقد تظاهرت بالقدر ذاته من اللامبالاة وأجبته بأن ذلك سيكون صعباً لأن لدي موعداً مسبقاً للعشاء مع هـ.ج. ويلز. وقد تجاهل إدي كلامي وكرر الرسالة. وبالطبع كنت ثائر

الأعصاب بالدرجة ذاتها، إزاء فكرة العشاء مع الأمير، في قصر بكنغهام! وقلت:

ـ لكني أظن أن أحداً يمزح معنا، لأني قرأت مساء الأمس بالذات أن الأمير في رحلة صيد في اسكتلندا.

وفجأة بدا القلق على وجه إدي وقال:

ـ ربما من الأفضل أن أتكلم مع القصر للتأكد من الأمر.

وقد عاد ووجهه فاقد للتعبير، وأعلن من دون تردد:

ـ صحيح، لا يزال في اسكتلندا.

في ذلك الصباح، بلغني أن فاتي أرباكل، رفيقي في فترة كيستون، متهم بالقتل. وقد كان ذلك سخيفاً؛ فأنا كنت أعرف أن روسكو رجل مرح وطيب القلب لا يمكن أن يؤذي ذبابة، وعبرت عن رأيي هذا أمام الصحافة حين سئلت في هذا الموضوع. وقد برىء أرباكل في الأخير من هذا الاتهام بصورة كاملة، لكن حياته المهنية تدمرت؛ فمع أنه استعاد شعبيته حطمته تلك المحنة، وتوفي بعد ذلك بعشر سنوات.

كنت سألتقي ويلز بعد الظهر في مكاتب سينمات أوزوالد ستول، حيث كان علينا أن نرى فيلماً جرى إنتاجه انطلاقاً من إحدى قصصه. وإذ كنت أقترب، لاحظت وجود جمهور كثيف. وسرعان ما جرى دفعي بقوة ومن ثم الإلقاء بـي في مصعد، ومن ثم لفظي في مكتب صغير كان فيه هو أيضاً جمع كبير.

وقد فاجأني أن لقاءنا الأول تم بهذه الطريقة. كان ويلز جالساً بهدوء وراء أحد المكاتب، وكانت عيناه الزرقاوان ـ البنفسجيتان تبرقان طيبةً، فيما يبدو عليه بعض الارتباك. وقبـل أن نتمكن من المصافحة، تدفق جمهور من المصورين المسلحين بمصابيح على المغنيزيوم، من كل الاتجاهات. وقد انحنى ويلز نحوي وهمس:

ـ أنا وأنت نلعب دور الطعم.

وادخلونا بعد ذلك إلى صالة عرض، وعلى مقربة من نهاية الفيلم همس ويلز: «ما رأيك فيه؟» وأجبته بصراحة أنه ليس جيداً. وحين أضيئت الصالة من جديد، انحنى ويلز نحوي سراً وقال:

ـ قل شيئاً عن الممثل الشاب!

ولقد كان ذلك الممثل، جورج ك. أرثر، العنصر الوحيد المشجِّع في الفيلم.

لقد كان ويلز يتصنع أمام السينما موقفاً متسامحاً، ويقول:

ـ فيلم سيىء، هذا شيء غير موجود. فلمجرد أن تتحرك الصور، يكون ذلك رائعاً!

لم تتوفر لنا إمكانية التعارف في تلك المناسبة، لكنني تلقيت بعد وقت قصير، في اليوم ذاته، الرسالة التالية:

ـ لا تنس العشاء. إذا فضَّلت، يمكنك أن ترتدي معطفاً، وتخرج سراً من الفنـدق

حوالى السابعة والنصف ويمكننا أن نتعشى بهدوء.

في ذلك المساء، كانت ريبيكا وست موجودة. ولقد كانت المحادثة متكلفة في البدء، لكن الجليد ذاب في الأخير في ما بيننا، وتحدث ويلز عن روسيا، لأنه كان قد ذهب إلى هناك أخيراً:

ـ التقدم بطيء. ومن السهل نشر بيانات مثالية، لكن وضعها موضع التنفيذ أكثر صعوبة.

ـ «وما الحل؟»، سألته.

ـ التعليم.

ولقد أوضحت له أني لا أعرف الشيء الكثير عن الاشتراكية، وأضفت مازحاً أني لا أحب كثيراً منظومة يضطر فيها الإنسان للعمل من أجل العيش:

ـ بصراحة، أفضِّل منظومة تسمح له بالعيش من دون عمل.

وراح يضحك، ثم سألني:

ـ وأفلامك؟

فقلت ضاحكاً بدوري:

ـ ليس هذا عملاً، إنه لعب أولاد.

وقد سألني ماذا أنوي عمله خلال عطلاتي في أوروبا. وقلت له إني أنوي الذهاب إلى باريس، ومن هناك إلى إسبانيا لرؤية سباق للثيران:

ـ لقد قيل لي إن التقنية درامية ورائعة.

ـ في الواقع، لكن الأمر قاس جداً بالنسبة للأحصنة.

ـ ولماذا يكون المرء عاطفياً حين يتعلق الأمر بالأحصنة؟

كنت قاتلت نفسي بسبب صياغتي ملاحظة بهذه الحماقة؛ لقد كان السبب هو أعصابي، لكني أحسست أن ويلز يدرك الحقيقة. وهذا لم يمنعني من لوم نفسي، طيلة المسافة إلى الفندق، لأني كنت على تلك الدرجة من الحماقة.

في اليوم التالي، جاء صديق لإدي كنوبلوك، هو السير ادوين لاتيينز، المهندس المعماري المشهور، لرؤيتي في الفندق. كان يعمل على تصاميم مقر جديد للحكومة في دلهي، ويأتي مباشرة من قصر بوكنغهام، حيث استقبله الملك، وكان قد حمل معه نموذجاً تجريبياً للتواليت يمكن تشغيله: كان علوه حوالي الـ ١٥ سنتم، مع خزان صغير مليء بالماء وله تقريباً سعة كأس صغيرة؛ وحين يجري سحب السلسلة، يشتغل كل شيء كطرّادة ماء حقيقية. وقد فتن الملك والملكة وتسليا بهذا النموذج، وكان كل منهما يسحب السلسلة بدوره ويملأ الخزان، وقد اقترح لاتيينز بناء بيت للدمى حول ذلك. وقد حصل في ما بعد على موافقة فنانين إنكليز متنوعين على رسم لوحات صغيرة جداً معدة للغرف الرئيسية. وقد جرى تنفيذ الإنشاآت بأحجام صغيرة. وحين انتهى كل ذلك، سمحت الملكة بالعرض أمام الجمهور،

وهو الأمر الذي در مبالغ ضخمة من المال مقابل أعمال. . .

بعد مرور فترة قصيرة، بدأ نشاطي الاجتماعي يتضاءل. كنت قد التقيت المهتمين بالأدب والشخصيات المرموقة، وزرت أماكن طفولتي؛ ولم تكن باقية، على ما يبدو، أشياء أخرى كثيرة أقوم بها ما خلا القفز إلى تاكسي أو النزول منه لتحاشي الجمهور؛ وبما أن إدي كنوبلوك كان قد ذهب إلى برايتون، قررت فجأة أن أحزم حقائبي وأسافر إلى باريس هرباً من كل ذلك.

وقد رحلنا من دون دعاية، أو أن هذا ما كنت أظنه. لكن في كاليه، كان هناك جمهور كبير لتحيتنا. كان الناس يهتفون: «فليعش شارلو!»، حين نزلت إلى اليابسة. كنا قد قمنا برحلة قاسية، وتركت في بحر المانش نصفي؛ لكن مع ذلك حيَّيت الناس بيدي ورسمت على وجهي ابتسامة شاحبة. وقد دُفعت بقوة، وألقي بي في القطار. وفي باريس، استقبلني جمهور واسع كان شريط من رجال الشرطة يثبِّته في مكانه. ومرة أخرى وجدت نفسي أتعرض لتدافع الجمهور وضغطه تحت تأثير الحماس الشعبي، وبمساعدة الشرطة تمكنت من الوصول إلى سيارة تاكسي. وقد كان ذلك أكثر مما أطلبه، فبالرغم من حرارة الاستقبال، كانت الإثارة تنهكني.

في فندق كلاريدج، كان الهاتف يرن كل عشر دقائق وكانت تلك سكريتيرة الآنسة آن مورغان. وكنت أعرف أن الأمر لا بد أن يتعلق بطلب ما، لأنها كانت ابنة ج. ب. مورغان. وقد حاولنا إذاً أن نصرف السكريتيرة، لكنها لم تستسلم: هل أوافق على التقاء الآنسة آن مورغان؟ وقد تلقيت وعداً بألا تأخذ الكثير من وقتي. وأذعنت أخيراً، ووعدت برؤيتها في فندقي في الرابعة إلا ربعاً. لكن الآنسة مورغان تأخرت، وبعد مرور عشر دقائق، رحت أستعد للمغادرة. لكن حين كنت أجتاز البهو، هرع المدير ورائي وهو شديد الاهتمام، وقال:

ــ سيدي، إن الآنسة آن مورغان هنا.

كنت منزعجاً من رباطة جأش الآنسة مورغان وإلحاحها. . . وفوق كل ذلك، كانت متأخرة! وقد استقبلتها باسماً، وقلت:

ــ أنا متأسف، فلدي موعد في الرابعة.
ــ آه! حقاً؟ حسناً، لن آخذ منك أكثر من خمس دقائق.

وقد تطلعت إلى الساعة الجدارية، كانت الساعة هي الرابعة إلا خمس دقائق.

ــ «ربما أمكننا أن نجلس لحظة»، قالت، ثم بدأت تتكلم في حين كنا نبحث عن مكان نجلس فيه في البهو. أنا أحاول إيجاد أموال لإعادة بناء فرنسا المهدمة، وإذا أمكنني الحصول على فيلمك، **الغلام (The Kid)**، لأجل مهرجان في التروكاديرو، وإذا كان في وسعك المجيء لتقديمه، يمكننا أن نحصل على آلاف الدولارات.

وقد أجبتها بأنه يمكنها الحصول على الفيلم للمناسبة، لكنني أرفض المجيء لتقديمه.

فقالت بإلحاح:
ــ لكن هذا سوف يمثِّل آلاف الدولارات الإضافية، وأنا متأكدة من أنك ستحصل على وسام.

ولا أدري أي غريزة شيطانية استولت عليّ ونظرت إلى عينيها مباشرة:
ــ أنت متأكدة؟

فشرعت الآنسة مورغان تضحك، وقالت:
ــ لا يمكن تقديم أكثر من توصيات للحكومة، وبالطبع سوف أبذل كل ما استطيعه لأجل ذلك.

ونظرت إلى الساعة الدقاقة:
ــ أنا متأسف جداً، لكن يجب أن أرحل. مع ذلك سوف أكون في برلين في الأيام الثلاثة القادمة، لذا ربما سيكون في وسعك إطلاعي على التطورات.

وبعد هذه الملاحظة الغامضة، ودعتها. وأنا أعرف أن ذلك كان مزعجاً جداً من جانبي، وما إن غادرت الفندق حتى شعرت بالأسف بسبب وقاحتي.

إن دخولاً إلى المجتمع الراقي إنما يقدم مناسبته عموماً حادثٌ صغير يطلق كشرارةٍ انفجارَ نشاطات اجتماعية. . . وإذ بك «على الموضة».

أتذكر فتاتين من فنزويلا، وكانتا فتاتين بسيطتين جداً روتا لي كيف دخلتا المجتمع النيويوركي فجأة. كانتا تعرفتا على متن سفينة على أحد أفراد عائلة روكفلر، الذي أعطاهما كلمة إلى أصدقاء له، وكان ذلك بمثابة كرة ثلج. وقد قالت لي إحداهما بعد سنوات إن سر نجاحهما يعود إلى أنهما لم تكونا تهتمان أبداً بالرجال المتزوجين. لذا كانت المضيفات النيويوركيات يتعلقن بهما ويدعينهما إلى كل مكان؛ حتى أنهن وجدن لهما أزواجاً.

من جهتي، كان دخولي إلى المجتمع البريطاني بصورة غير منتظرة، في حين كنت أستحم في الكلاريدج. فجورج كارباتييه، الذي كنت التقيته في نيويورك قبل معركته ضد جاك ديمبسي، دخل إلى قاعة الاستحمام بعد أن طلب الإعلان عن مجيئه. وبعد تبادل السلام، همس لي بأن لديه صديقاً ينتظر في الصالون، وبأنه يود أن ألتقي إنكليزياً «**مهمّاً جداً في إنكلترا**». وقد ارتديت قميص حمَّام إذاً وتعرفت إلى السير فيليب ساسون. وكانت تلك بداية صداقة عظيمة جداً دامت أكثر من ثلاثين عاماً. في ذلك المساء، تعشيت مع السير فيليب وشقيقته، التي كانت آنذاك الليدي روكسافادج، وفي اليوم التالي سافرت إلى برلين.

كان رد فعل الجمهور البرليني مسلياً. لم يكن باقياً لي غير شخصيتي، ولم يكن ذلك كافياً حتى لأحصل على طاولة جيدة في علبة ليل، لأنهم لم يكونوا قد عرضوا أفلامي بعد هناك. وفقط حين تعرف إليّ ضابط أميركي وأعلن باستياءٍ إلى المالك من أكون، أعطونا طاولة في مكان لا يتعرض في كل حال للتيارات الهوائية. ولقد كانت مسليةً رؤيةُ كيف كان رد فعل

الإدارة حين تجمَّع من تعرفوا إليَّ حول طاولتنا. وقد صاح فجأة ألماني كان سجيناً في إنكلترا ورأى اثنين أو ثلاثة من أفلامي: «شاااارلي!» ثم استدار نحو الزبائن المذهولين، وقال:

ــ أتعرفون من هذا؟ هذا شاااارلي!

ثم هُرع ليشدني بين ذراعيه وعانقني. لكن هياجه لم يكن معدياً. وقد لزم أن تسألني بولا نيغري، نجمة السينما الألمانية، التي كانت محط أنظار الجميع، إذا كنت أود الجلوس إلى طاولتها، كي يبدأ بعض الاهتمام يظهر بخصوصي.

وغداة وصولي، تلقيت رسالة غامضة جاء فيها:

«صديقي العزيز شارلي

أشياء كثيرة حصلت لي منذ المساء الذي تلاقينا فيه في نيويورك عند دادلي فيلدمالون. أنا الآن في مستشفى، ومريض جداً، لذا أرجوك أن تأتي لرؤيتي. فهذا سيسعدني جداً...».

وقد أعطى صاحب الرسالة عنوان المستشفى، ووقّع «جورج».

لم أفهم في البداية من هو المقصود. ثم تذكرت فجأة: لا شك أن هذا هو جورج البلغاري، الذي كان سيعود إلى السجن لمدة ١٨ سنة. واستناداً إلى لهجة الرسالة، كان يبدو لي بديهياً أنه ستُطلب مني «سلفة»، فأخذت معي إذاً حوالى خمسمئة دولار. لكني فوجئت جداً في المستشفى، حين أدخلوني إلى غرفة واسعة مع مكتب وجهازي هاتف، واستقبلني مدنيان بلباس أنيق، كانا كما علمت في ما بعد سكريتيري جورج.

وقد أدخلني أحدهما إلى الغرفة التالية، حيث كان جورج مستلقياً في سريره.

قال لي وهو يستقبلني بتأثر:

ــ يا صديقي! كم أنا مسرور لأنك أتيت. فأنا لم أنس أبداً عطفك وطيبة قلبك في تلك الأمسية لدى دادلي مالون!

ثم وجّه أمراً مقتضباً إلى سكريتيره وصرنا على انفراد. وبما أنه لم يوضح لي إطلاقاً ظروف مغادرته الولايات المتحدة، شعرت أنه لن يكون من المناسب طرح أسئلة حول هذا الموضوع. ثم إنه كان شديد الاهتمام بسؤالي عن أخبار أصدقائه في نيويورك. لقد كنت مذهولاً، ولم أكن أفهم شيئاً بخصوص الوضع؛ تولّد لدي انطباع بأني قفزت فوق عدة فصول من كتاب. وقد جاء الحل حين أوضح لي أنه مكلف الآن بمشتريات للحكومة البلشفية، وأنه في برلين لشراء قاطرات وجسور معدنية. وهكذا عدت من دون أن تُمسَّ الخمسمئة دولار التي كانت معي.

كانت برلين مدينة مثيرة للكآبة، فقد كان يسود فيها جو هزيمة مع عقابيلها المأساوية المتمثلة بجنود كُتْعٍ أو بساق واحدة كانوا يتسولون في كل زوايا الشوارع تقريباً. وبدأت أتلقى من سكريتيرة الآنسة مورغان برقيات قلقة، لأن الصحافة كانت قد أعلنت عن وجودي في التروكاديرو. فأبرقت مجيباً بأني لم أقدم أي وعد بحضور المهرجان، وبأني سوف أصدر بياناً لأجل الوفاء بتعهداتي حيال الجمهور الفرنسي.

ووصلت برقية في الأخير: «أنا متأكدة بصورة مطلقة من أنك ستحصل على وسام إذا كنت حاضراً، لكن هذا كان تتويجاً لسلسلة من المناورات والأزمات ـ آن مورغان». لذا عدت إلى باريس، بعد ثلاثة أيام أمضيتها في برلين.

في مساء الافتتاح في التروكاديرو، كنت في مقصورة الشرف مع سيسيل سوريل وآن مورغان وعدة أشخاص آخرين. وقد انحنت سيسيل نحوي، كما لتبوح لي بسر كبير:

ــ سوف يقلدونك وساماً هذا المساء.

ــ «هذا رائع!»، قلت بتواضع.

وقد تواصل فيلم وثائقي مضجر حتى الاستراحة. وبعد هذا الامتحان العسير، اضيئت البروجكتورات، وواكبني شخصان رسميان إلى مقصورة الوزير. وكان عدة صحفيين يصحبوننا، واحد منهم، وكان مراسلاً أميركياً ماكراً، لم يكف عن الهمس في أذني: «سوف يقلدونك وسام جوقة الشرف، يا صاحبي». وفي حين كان الوزير يلقي خطابه القصير، كان صديقي يواصل الهمس: «لقد خدعوك، يا عزيزي، فهذا ليس اللون الجيد؛ هذا ما يعطونه للأساتذة، وهذا لا يعطيك حقاً في رتبة السيف[1]؛ إن ما يلزمك إنما هو الشريط الأحمر».

وفي الواقع، كنت سعيداً جداً بالحصول على وسام مخصص للأساتذة. كانت الشهادة تقول: «شارلي شابلن، مؤلف مسرحي، وفنان، رقي إلى درجة ضابط في التعليم العام... الخ».

وقد تلقيت رسالة شكر لطيفة من آن مورغان مع دعوة للغداء في اليوم التالي في فيلا تريانون، في فرساي. وقد كان هناك جمع من الأغنياء وكبار القوم: الأمير جورج من اليونان، الليدي سارة ويلسون، المركيز دو تاليران ـ بيريغور، الكوماندان بول ـ لوي وايلر، إلساماكسويل، وآخرون. ولا أتذكر أي حادثة، وأي نادرة بصدد ذلك الغداء، لأني كنت منشغلاً جداً بممارسة سحري.

في اليوم التالي، جاء صديقي ڤالدو فرانك إلى الفندق مع جاك كوبو الذي كان يبذل جهوداً لتجديد المسرح في فرنسا. وقد ذهبنا معاً إلى السيرك في ذلك المساء، وشاهدنا مهرجين ممتازين، ثم تعشينا بعد ذلك مع فرقة كوبو في الحي اللاتيني.

في اليوم التالي، كان علي أن أتغدى في لندن مع السير فيليب ساسون واللورد والليدي روكسافادج، لتقديمي إلى لويد جورج. لكن الطائرة اضطرت لأن تحط على الساحل الفرنسي لأنه كان هناك ضباب على المانش، ووصلنا متأخرين ثلاث ساعات.

وهذه كلمة عن السير فيليب ساسون. كان سكريتيراً للويد جورج خلال الحرب، وكان رجلاً من عمري تقريباً، شخصيةً مثيرة للإعجاب؛ وكان وسيماً ويبدو أجنبياً. كان له مقعده في البرلمان حيث مثَّل برايتون وهوف، ومع أنه كان أحد أكبر أثرياء انكلترا، لم يكن يسرُّه البقاء

(١) على كتف من يتسلم رتبة الفروسية (م).

عاطلاً عن العمل، بل كان يعمل بكد، ويعيش حياة مثيرة للاهتمام.

حين التقيته في باريس للمرة الأولى، قلت له إني منهك وأحتاج لأن لا أرى بعد الآن عدداً كبيراً من الناس، وإني فضلاً عن ذلك مثار الأعصاب إلى أبعد الحدود. لا بل توصلت إلى التذمر من لون جدران الفندق الذي كان يثير أعصابي. فأغرق في الضحك، وسألني:

ـ أي لون جدران تحبه؟

فقلت مازحاً:

ـ الأصفر والذهبي.

فقال لي عندئذٍ أن أذهب إلى ملكيته في ليمبن، حيث سأكون هادئاً وبعيداً عن المزعجين. وقد دهشت حين اكتشفت لدى وصولي إلى هناك أنه كان في غرفتي ستائر صفراء وذهبية.

كانت ملكيته رائعة الجمال، وكان المنزل مؤثثاً بجرأة متوهجة. ولقد كان في وسع فيليب أن يفعل ذلك بنجاح، لأنه كان يمتلك ذوقاً رفيعاً. وأنا أتذكر أي انطباع أثارته لديّ شقتي المترفة: سخّانة المائدة المشعلة لإبقاء الحساء ساخناً، تحسّباً لاحتمال أن أجوع خلال الليل؛ وفي الصباح، كان مديرا خدم قويان يدفعان إلى غرفتي بمطعم حقيقي على دواليب، مع مختارات من الزروع، وفتائل السمك، والباكون والبيض. وكنت لاحظت أنه منذ مجيئي إلى أوروبا لم أعد أعثر على الغاتويات الأميركية المصنوعة من القمح، وقد كانت هناك، ساخنة تماماً، مع الزبدة وشراب القبقب. وقد تولّد لدي شعور بأني أعيش إحدى قصص ألف ليلة وليلة.

كان السير فيليب ينظم شؤون البيت، وقد وضع يداً في جيب سترته، بينما أصابعه تلعب بلآلىء أمه ـ عقد يزيد طوله على المتر، وكل لؤلؤة بحجم ظفر الإبهام. وقد كان يقول: «أحملها لأبقيها على قيد الحياة».

حين تعافيت من تعبي، سألني إذا كنت أرافقه إلى أحد مستشفيات برايتون، لزيارة المشلولين نهائياً، الذين جرحوا خلال الحرب. ولقد كان أمراً مثيراً للحزن العميق أن ينظر المرء إلى تلك الوجوه الشابة ويقرأ فيها الأمل الضائع. وقد كان شاب مشلولاً إلى حد أنه كان يرسم وهو يضع الريشة في فمه، القسم الوحيد من جسمه الذي كان في وسعه استخدامه. وكانت قبضتا أحدهم متشنجتين إلى حد أنه كان ينبغي إعطاؤه مخدراً لقص أظافره بهدف منعه من غرزها في راحتيه. وكان بعض المرضى في حالة مريعة بحيث لم يُسمح لي برؤيتهم، لكن السير فيليب زارهم.

بعد ليمبن، عدنا معاً إلى لندن لنقيم في بيته في بارك لاين، حيث كان يقوم معرضه السنوي الخاص بالأربعة جورج، وكانت تُعرض هناك لوحات لصالح أعمال الخير. كان مسكناً رائعاً مع مِصْرى كبيرة مغطاة بياقوتيات زرقاء. وفي اليوم الثاني الذي كنت أتغدى خلاله هناك، كان قد جرى تبديل الياقوتيات بحيث صارت بلون آخر.

وقد زرنا مشغل السير وليم أورپن ورأينا رسماً لشقيقة فيليب، الليدي روكسا فادج، التي كانت ذات جمال رائع. ولقد كان رد فعلي أمام أوربن سلبياً، لأنه كان يتكلف تعبيراً منذهلا وغير مصدِّق وَجَدْتُه مليئاً بالعجرفة.

وذهبت أيضاً إلى بيت هـ. ج. ويلز الريفي، في أرض كونتة ڤارڤيك، حيث كان يعيش مع زوجته وولديه المتخرجين حديثاً من جامعة كامبردج. وقد دعيت لقضاء الليل هناك.

بعد الظهر، جاء أكثر من ثلاثين عضواً من جامعة كامبردج جلسوا متحاذين في الحديقة كصف تؤخذ له صورة، وكانوا يراقبونني صامتين كما لو كنت نموذجاً قادماً من كوكب آخر.

في الأمسية، لعبت عائلة ويلز لعبة بعنوان: «حيوان، أو نبات أو معدن»، اعطتني انطباعاً بأني أجتاز امتحان ذكاء. أما الذكرى الأكثر أهمية التي بقيت في ذهني من تلك الإقامة فهي ذكرى الأغطية المجلَّدة، والذهاب إلى النوم مع شمعة باليد. كانت تلك هي الليلة الأكثر برداً التي حدث أن أمضيتها يوماً في إنكلترا. وحين ذاب جليدي في صباح اليوم التالي، سألني ويلز كيف كان نومي، فقلت بتهذيب:

ــ جيداً جداً.

فقال ببراءة:

ــ الكثير من مدعوينا يتذمرون من أن الغرفة باردة.

ــ لن أقول إنها باردة، بل فقط مجلدَّة!

فأغرق في الضحك.

وإليكم بعض الذكريات الأخرى من تلك الزيارة لـ هـ. ج: حجرة عمله، وكانت غرفة صغيرة بسيطة جداً، وقرب النافذة مكتبه القديم وجزؤه الأعلى المنحني؛ وزوجته الرائعة التي زوَّرتني كنيسة من القرن الحادي عشر؛ وحديثنا مع نقّاش عجوز كان يأخذ بصمات على النحاس لبعض شواهد القبور؛ ومجموعات الأيّل التي كانت تتجول قرب المنزل؛ والملاحظة التي أبداها سانت جون إيرڤن على الغداء ذات يوم بصدد روعة التصوير الملوَّن، فأعلنت عندئذٍ أني أكرهه جداً؛ و هـ. ج. وهو يقرأ مقتطفات من محاضرة لأستاذ في كامبردج، بينما عقَّبت على ذلك قائلاً إن أسلوبه المطنب يذكرني بأسلوب راهب من القرن الخامس عشر؛ والقصة التي رواها ويلز عن فرانك هاريس. فحين كان لا يزال كاتباً شاباً مبتدئاً، كتب واحداً من المقالات العلمية الأولى بصدد البعد الرابع، ولكنه عرضه من دون نجاح على رؤساء تحرير عدة مجلات. وقد تلقى أخيراً كلمةً من فرانك هاريس يدعوه فيها للمجيء إلى مكتبه:

ــ مع أني كنت مفلساً، قال ويلز، اشتريت للمناسبة قبعة عالية. وقد استقبلني هاريس قائلاً: «أين وجدت هذا، عليك اللعنة؟ ولماذا تعتقد أنه يمكنك بيع مقالات من هذا النوع للمجلات؟» ورمى مخطوطتي على المكتب. «هذا مفرط في الذكاء: وليس من أسواق للذكاء في هذه المهنة!» كنت وضعت قبعتي على زاوية مكتبه، وخلال حديثنا، ما انفك فرانك يضرب

المكتب ضربات قوية للتأكيد على وجهات نظره، بحيث كانت قبعتي تقفز في مكانها. وقد أرعبتني فكرة أن قبضته قد تهبط عليها مباشرة. ومع ذلك، قبل مقالتي وكلفني بكتابة مقالات أخرى.

وفي لندن، تعرفت إلى توماس بورك، مؤلف **Limehouse Lights**. وكان بورك رجلاً قصيراً صامتاً وغامضاً، مع وجه يذكّرني برسم كيتس. كان يبقى جالساً من دون حراكٍ ونادراً ما يتأمل محادثه. إلا أنه كان يجتذبني. كانت لدي رغبة، على ما يبدو، في أن أسر إليه بهمومي، وهذا ما فعلته. كنت متفقاً تماماً مع بورك، وأكثر انشداداً إليه مما إلى ويلز. كنت أتنزه أنا وبورك في شوارع لايمهاوس وشايناتاون من دون أن ينبس ببنت شفة. وكانت تلك طريقته الخاصة بتركي أستمتع بزياراتي. لقد كان رجلاً حذراً، ولم أعرف تماماً موقفه حيالي إلا حين أرسل إليَّ، بعد ثلاث سنوات أو أربع، كتابه نصف السير ـ ذاتي، **The Wind and The Rain** (الريح والمطر). كان قد عاش طفولة ومراهقة شبيهين بسنيٍّ صباي، وفهمت عندئذٍ أنه يحبني كثيراً.

بعد أن مرت إثارة الأيام الأولى، تعشيت مع ابن عمي أوبري وعائلته، وفي اليوم التالي زرت جيمي راسل الذي كنت عرفته أيام فرقة كارنو، وبات يملك الآن خمارة. ثم بدأت التفكير بالعودة إلى الولايات المتحدة.

لقد وصلت إلى النقطة التي بت أدرك عندها أني سأبدأ بالشعور بأني عاطل عن العمل إذا مكثت وقتاً أطول في لندن. كنت أنفر من مغادرة إنكلترا، لكن لم يكن يمكن الشهرة أن تطلب مني أكثر. كنت أعود راضياً تماماً، وإنْ مع بعض الكآبة، لأني لم أكن أترك فقط خلفي ضجة الهتافات أو معانقات الناس الأغنياء والمشهورين الذين استقبلوني، بل المودة الصادقة والحماس من جانب الجماهير الإنكليزية والفرنسية التي انتظرت لتستقبلني في محطة واترلو ومحطة الشمال. ولقد كنت أشعر بالغم بسبب الإحباط الذي شعرت به حين دفعت بي شرطة المحافظة على النظام بعيداً عنها، وألقت بي في تاكسي من دون أن أتمكن من الرد على هتافاتها، لقد كنت أشعر كما لو أنني مشيت على زهور. كما أنني تركت خلفي ماضيّ. لقد وضعت تلك الزيارة إلى كيننغتون، إلى ٣ باونال تيراس، حداً لشيء في ذاتي؛ كان في وسعي أن أعود الآن بكل طمأنينة إلى كاليفورنيا وأستأنف عملي، لأني إنما سأجد في العمل بالذات حسَّ الاستشراق لديَّ، بينما الباقي أوهام بأوهام.

حين وصلت إلى نيويورك، خابرتني ماري دورو. ماري دورو تخابرني: أي حدث كان هذا لو أنه جرى قبل سنوات! دعوتها للغداء ثم ذهبنا لحضور العرض النهاري للقطعة التي كانت تمثل فيها: **Lilies of the field**[1]. وفي المساء، تعشيت مع ماكس إيستمان وشقيقته كريستال إيستمان، وكلود ماكاي، الشاعر ومفرِّغ البضائع الجامايكي.

عشية مغادرتي نيويورك، زرت سينغ ـ سينغ مع فرانك هاريس. وقد روى لي في الطريق أنه يكتب سيرته الذاتية، لكنه يعتقد أنه تأخر في ذلك كثيراً، قائلاً: «أنا أطعن في السن».

ـ «للعمر تعويضاته»، قلت مُخاطراً. وهو أقل احتمالاً لأن يُفزعه إفشاءُ الأسرار.

كان جيم لاركن، المتمرد الإيرلندي، والمنظم النقابي، ينفذ عقوبة خمس سنوات في سينغ ـ سينغ وقد أراد فرانك رؤيته. كان لاركن خطيباً لامعاً أدانه قاضٍ لا يقل تحيزاً عن هيئة المحلفين، بناءً على اتهام كاذب بأنه أراد قلب الحكم. هذا ما كان يؤكده فرانك، وقد تأكد لاحقاً حين كسر الحاكم أل سميث الحكم، علماً أن لاركن كان قد أمضى قسماً من مدة العقوبة.

يَسود في السجون جو غريب، كما لو كان العقل الإنساني قد أوقف عن العمل. ففي سينغ ـ سينغ، كان للزنازين مظهر يذكِّر بصورة مشؤومة بالقرون الوسطى: جحور صغيرة ضيقة محفورة في الصخر يتكدس فيها أربعة معتقلين إلى ستة. أي أدمغة شيطانية استطاعت أن تتصور بناء فظاعات كهذه! كانت الزنازين فارغة مؤقتاً، إذ إن السجناء كانوا في ساحة التريُّض، ما عدا شخصاً، في مقتبل الشباب، كان يستند لى باب زنزانته المفتوح، فريسةً لأفكار كئيبة كما كان يبدو. وقد شرح لنا الحارس أن القادمين الجدد المحكوم عليهم بعقوبات طويلة كانوا يمضون السنة الأولى في الزنازين القديمة قبل أن ينتقلوا إلى الحديثة. وقد مررت أمام الشاب لأدخل إلى زنزانته، فأصابني شعور مريع برُهاب الاحتجاز.

---

(١) زنابق الحقل (م).

قلت وأنا أخرج مسرعاً:

ــ رباه! هذا لا إنساني.

ــ «أنت على حق!»، تمتم الشاب بمرارة.

وقد شرح الحارس، وهو رجل شجاع، كيف أن سجن سينغ ـ سينغ مـزدحم، وتلزم اعتمادات لبناء زنازين جديدة:

ــ «لكن نحن آخر من يفكر في ذلـك؛ فما من سيـاسي يهتم بشروط المعيشـة في السجون.

كان المبنى القديم المخصّص للإعدامات يشبه غرفة مدرسـة، طويلة وضيقة مع سقف منخفض، ومكاتب لمراسلي الصحف، وفي الجهة المواجهة مبنى خشبـي صغير لا يوحي مظهره بالثقة. إنه الكرسي الكهربائي. وكان شريط كهربائي عار ينزل من السقف. أما ما كان يضفي الهول على القاعة فبساطتها. كان غياب أي جانب مأساوي يضفي عليها مظهراً أكثر شؤماً من مقصلة. وخلف الكرسي مباشرة كان يوجد حاجز من الخشب، يُنقل إليه المحكوم عليه بعد إعدامه مباشرة لتشريح جثمانه.

وقد أوضح لنا الطبيب أنه في حال عجزت الكرسي عن إنجاز عملها، يجري اللجوء إلى قطع الرأس جراحياً، مضيفاً أن حرارة الدم في الدماغ بعد الإعدام مباشرة تكون حوالى المئة درجة.

خرجنا من هناك ونحن نترنح قليلاً. هذا وقد سأل فرانك عن جيم لاركن، وقبل الحارس بإتاحة المجال أمامه ليرى السجين، علماً أن ذلك يتعارض مع الأنظمة. كان لاركن يعمل في مشغل الأحذية، وقد استقبلنا هناك. كان رجلاً وسيماً يصل طوله إلى المتر و ٨٠ سنتم، مع عينين زرقاوين ثاقبتين، لكن ابتسامة لطيفة.

بالرغم من استمتاعه برؤية فرانك، كان عصبياً وقلقاً، ومستعجلاً للعـودة إلى عمله. وحتى وعود الحارس لم تكن كافية لتبديد انزعاجه، وقد قال:

ــ هذا سيء أخلاقياً بالنسبة لباقي السجنـاء إذا كان من حقي رؤية زوار أثناء ساعات العمل.

وقد سأله فرانك كيف يعاملونه وإذا كان يمكن فعل شيء لأجله، فأجاب أنه يلقى معاملة معقولة لكنه قلق على مصير امرأته وعائلته، الذين بقوا في إيرلندا وانقطعت أخبارهم عنه منذ دخوله السجن. وقد وعد فرانك بالتدخل. وحين انصرفنا، قال لي فرانك إنه يحزنه أن يرى شخصاً بشجاعة جيم لاركن وحيويته وحماسه وقد بات خاضعاً لنظام السجون.

حين عدت إلى هوليوود، مررت لرؤية والدتي. كانت تبدو مرحة جداً وسعيدة للغاية، وتعرف كل شيء عن زيارتي الظافرة إلى لندن. فسألتها مازحاً:

ــ إذاً ما رأيك بابنك وبكل هذا الصخب؟.

ـ هـذا رائع، لكن ألا تفضـل أن تكون نفسـك بدلاً من أن تعيش في هـذا العالم المسرحي وغير الواقعي؟

فقلت ضاحكاً:

ـ أنت تبالغين بقولك هذا. فأنت مسؤولة عن هذه اللاواقعية.

فصمتت برهة ثم قالت:

ـ لو أنك وضعت موهبتك في خدمة السيد. . . كم من الأرواح التي كنت وفَّرت عليها عذاب الجحيم!

فقلت مبتسماً:

ـ كنت ربما وفرت أرواحاً، لكن ليس مالاً.

حين عدت إلى منزلي، روت لي السيدة ريڤز، زوجة مدير مسرحي، التي كانت تعيد أمي، أنها كانت في صحة ممتازة ونادراً ما تعرضت لنكسات. كانت مرحـة وسعيدة، وفي الوقت ذاته غير مسؤولة قليلاً. وكانت السيدة ريڤز تحب زيارة أمي، التي كانت تجدها مسلية جداً. فغالباً ما كانت تجعلها تنفجر ضحكاً وهي تخبرها نكاتاً من الماضي. وبالطبع، كان يحدث أحياناً أن تتشبث برأيها قليلاً. وقد أخبرتني السيدة ريڤز عن اليوم الذي اصطحبت فيه أمي، هي والممرضة، إلى المدينة كي تجرب فساتين جديدة. لقد استولت على أمي نزوة مفاجئة، فرفضت النزول من السيارة، وقالت:

ـ فليزعجوا أنفسهم. في انكلترا، يجيئون إلى عربتك.

لكنها نزلت أخيراً. وقد اهتمت بهن فتاة لطيفـة، وعرضت أمامهن شتى قطع الجوخ والنسيج. كان لإحداها لون أسمر باهت، وجدته السيدة ريڤز والممرضة ممتازاً، لكن أمي أبدت نفورها منه، وقالت بصوت سيدة إنكليزية راقية:

ـ كلا! كلا! هذا بلون البراز. . . أريني شيئاً أكثر فرحاً.

وانصاعت الفتاة المذهولة، وهي لا تصدق أذنيها.

وروت لي السيدة ريڤز أيضاً أنها كانت قد اصطحبت أمي إلى المزرعة حيث يربّـون نعامات. وقد أزارهما الحارس، وكان رجلاً ودوداً ولطيفـاً، حاضنـات البيوض. وقـال وهو يعرض بيضة نعامة:

ـ سـوف تتم حضانـة هذه البيضـة في غضون أسبـوع تقريبـاً. وهنا دعي للرد على الهاتف، فمدَّ البيضة إلى الممرضة ورجاها أن تعذره. وما إن مضى حتى انتزعت أمي البيضة من يد الممرضة قائلةً لها: «أعيديهـا إلى هذه النعامة المسكينة!»، ورمتها داخل الحظيرة حيث انفجرت محدثة ضجة قوية. وقد سارعت السيدة ريڤز والممرضة إلى إبعاد الزائرة قبل عودة الحارس.

ــ ذات نهار حار ومشمس، قالت السيدة ريفز، ألحت علينا كي نشتري قرون بوظة للسائق ولنا جميعاً.

وفي حين كانوا يمرون بهدوء أمام ثقب يعمل داخله مرقّم طرقات، ظهر رأس العامل، فانحنت أمي خارج السيارة وفي نيتها أن تعطيه قرن البوظة الذي معها، لكنها رمته في وجهه مباشرة، قائلة وهي تحييه بيدها:

ــ خذ يا ابني، فهذا سينعشك.

ومع أني لم أكن أحدثها عن أعمالي الشخصية، كان يبدو أنها تعرف كل ما يجري. فخلال مشاكلي المنزلية مع زوجتي الثانية، قالت فجأة خلال دق داما (كانت تربح دائماً، بالمناسبة):

ــ لماذا لا تتخلص من كل هذه الإزعاجات. سافر إذاً إلى الشرق واستمتع بحياتك.

وتحت تأثير المفاجأة، سألتها ماذا تعني، فقالت:

ــ كل هذه القصص التي ترويها الصحف عن حياتك الخاصة.

فانفجرت ضاحكاً:

ــ وماذا تعرفين عن حياتي الخاصة؟

فأجابت وهي تهز كتفيها:

ــ لو لم تكن شديد الحذر، لكنت قدمت لك بالتأكيد بعض النصائح.

كانت تكتفي بصياغة ملاحظات من هذا النوع من دون أي زيادة.

كانت تجيء غالباً إلى البيت في بيفرلي هيلز لترى ولديّ، تشارلي وسيدني. وأنا أذكر زيارتها الأولى. كنت قد ابتنيت المنزل، الذي كان مؤثثاً بصورة جميلة، ويضم العديد من المستخدمين: مدراء خدم، ووصيفات، الخ. وقد فتشت الغرفة التي كنا فيها، ثم نظرت من النافذة إلى المنظر الذي يظهر فيه المحيط الهادي على بعد ستة كيلومترات. وكنا ننتظر رد فعلها، فقالت:

ــ من المؤسف تعكير الصمت.

كان يبدو أنها تجد ثروتي ونجاحي طبيعيين، وتمتنع عن أي تعليق بصدد ذلك، إلى اليوم الذي كانت فيه لوحدها معي على الأرض الخضراء، قرب المنزل. وقد راحت تبدي إعجابها بالحديقة وبطريقة الاعتناء بها. فقلت لها:

ــ إن لدينا بستانيِّين.

فنظرت إليّ من دون أن تقول شيئاً. ثم قالت:

ــ لا بد أنك غني.

ــ حالياً، أملك يا أمي خمسة ملايين دولار.

وقد كانت أمي في صحة جيدة خلال العامين اللاحقين. لكن خلال تصوير فيلم

السيرك، تلقيت رسالة جاء فيها أنها تتألم. كانت قد تعرضت لإزعاجات في المرارة وتعافت منها، لكن الأطباء أبلغوني هذه المرة أن انتكاستها خطيرة. وقد نقلوها إلى مستشفى، غليندال، لكن الأطباء رأوا من الأفضل عدم إجراء جراحة لها بسبب ضعف قلبها.

حين وصلت إلى المستشفى، كانت في حالة إغماء نصفي، لأنهم كانوا قد أعطوها مخدراً لإزالة الآلام.

همستُ في أذنها: «أماه، أنا شارلي»، وأخذت يدها بلطف.

فأجابت بضعف وهي تشد يدي، ثم فتحت عينيها. كانت تريد الجلوس، لكنها كانت ضعيفة جداً. كانت عصبية وتتذمر من كونها تتألم، وقد أكدتُ لها أنها ستتعافى قريباً.

ــ «ربما»، قالت بلهجة متْعَبَة، ثم شدَّت مجدداً على يدي، واستغرقت في الغفلة والهمود.

في اليوم التالي، كنت منهمكاً في العمل حين أبلغوني بوفاتها. كنت أتوقع ذلك، لأن الطبيب كان قد نبّهني إلى الموضوع، فأوقفت العمل، ونزعت الماكياج، ثم هرعت إلى المستشفى، ومعي هاري كروكر، مساعدي في الإخراج.

انتظرني هاري في الممشى، فدخلت إلى الغرفة وجلست على كرسي بين النافذة والسرير. كانت الستائر نصف مفتوحة، وكان ألق الشمس قوياً جداً في الخارج، وكان الصمت المخيم على الغرفة عميقاً. وقد بقيت جالساً هناك أتطلع إلى ذلك الطيف الصغير على السرير. كان وجهها مستديراً ناحية السقف، وعيناها مغمضتين. حتى في الموت، كان يبدو عليها القلق، كما لو أنها تفكر في مآسٍ جديدة على أهبة الانقضاض عليها. كم كان غريباً أن تنتهي حياتها هنا في ضواحي هوليوود، مع كل هذه القيم الباطلة، على بعد ١٢ ألف كلم تقريباً عن لامبث، ثمة حيث تحطم قلبها. ثم تدفق سيلٌ من الذكريات في نفسي، فتذكرتُ المعركة الطويلة التي لازمت وجودها، والآلام التي كانت لا تنفك تعانيها، وشجاعتها وحياتها المأساوية الضائعة... وانفجرتُ بالبكاء.

بقيت ساعة كاملة على تلك الحال قبل أن أستعيد رباطة جأشي وأغادر الغرفة. كان هاري كروكر لا يزال ينتظرني، وقد اعتذرت لأني تركته ينتظر كل ذلك الوقت. وبالطبع، تفهَّم ذلك، وغادرنا المكان من دون أن ننبس ببنت شفة.

كان سيدني في تلك الفترة في أوروبا مريضاً، ولم يكن في وسعه أن يحضر الدفن. أما ولداي، تشارلي وسيدني فكانا هنالك مع والدتهما، لكنني لم أرهما. وقد جاء من يسألني إذا كنت أريد أن يُحرق جثمان والدتي، فأرعبتني تلك الفكرة! كلا، بل كنت أفضل أن تدفن في الأرض المخضوضرة التي لا تزال راقدة فيها في مقبرة هوليوود.

لست أدري إذا كنت أعطيت عن أمي صورة جديرة بها، لكن ما أعرفه هو أنها تحملت دائماً قِسْمتها الثقيلة من الحياة بمرح. كانت الطيبة والرحمة فضيلتيها الرئيسيتين. ومع أنها

كانت تقية ورعة، كانت تحب الخطأة وتتماهى معهم دائماً. لم يكن ثمة ذرة واحدة من الابتذال في شخصها، وأياً كان التعبير على طريقة رابليه(*) الذي تستخدمه كانت تلجأ دائماً إلى الصيغة المناسبة. وبالرغم من البؤس الذي كنا مجبرين على أن نعيش ضمن ظروفه، حالت بيننا، سيدني وأنا، وبين أن نصير من السوقة، وأفهمتنا بأننا لسنا ناتج الفقر وحسب، بل أننا كائنان فريدان ومهمّان.

حين جاءت كلير شيريدان إلى هوليوود، وكانت امرأة نحّاتة لفتت الأنظار إليها بقوة بكتابها **من مايفير إلى موسكو**، أقام سام غولدوين على شرفها مأدبة عشاء دعيتُ إليها. كانت كلير طويلة القامة وجميلة، وكانت ابنة أخ ونستون تشرشل وزوجة سليل مباشر لريتشارد برينسلي شيريدان. كانت أول إنكليزية تدخل روسيا بعد الثورة، وطُلب إليها أن تنحت تماثيل نصفية لقادة الحزب البلشفي الرئيسيين، ومن بينهم لينين وتروتسكي.

ومع أن كتابها كان مؤيداً للبلاشفة، لم يثر غير عداء ملطَّف. لقد أحس الأميركيون بالخيبة والبلبلة، لأنه كان من المفترض أن الكاتبة أرستقراطية إنكليزية. لقد استقبلها أفراد المجتمع النيويوركي، ونحتت للعديد منهم تماثيل نصفية. كما أنها نحتت تماثيل نصفية لبايارد ووب وبرنارد باروخ وآخرين عديدين. وحين تعرفتُ إليها، كانت تقوم بجولة تلقي خلالها محاضرات، وبصحبتها ابنها ديكي البالغ العاشرة من عمره. وكانت تتذمر من صعوبة أن يكسب المرء معيشته في الولايات المتحدة عن طريق النحت.

ــ لا يهتم الأزواج الأميركيون إذا توضَّعت نساؤهم من أجل نحت تماثيل نصفية لهن، لكنهم لا يحبون أن يتوضعوا هم أنفسهم، فهم شديدو التواضع.

فقلتُ:

ــ أما أنا فلست متواضعاً.

اتفقنا إذاً أن تأتي بطينها الصلصالي ومعداتها إلى بيتي، بحيث أتوضّع بعد الغداء حتى نهاية ما بعد الظهر. وكانت تتميز كلير بموهبة حفز الحديث وتفاجَأتُ بنفسي وأنا أُبرز ميّزاتي الفكرية. وحين أشرف تمثالي النصفي على الانتهاء، تأمّلتُه فاحصاً، وقلت:

ــ كما لو كان رأسَ أحد المجرمين.

أجابت بوقار متصنَّع:

ــ على العكس، إنه رأس رجل عبقري.

فانفجرتُ ضاحكاً وفصَّلت نظرية كاملة لأوضح لها أن العبقري والمجرم متشابهان للغاية، إذ كلاهما يتميز بنزعة فردية قصوى.

وقد روت لي أنها مذ كانت تلقي محاضرات في روسيا، كانت تشعر بنفسها منبوذة.

(*) كاتب فرنسي ساخر، من القرن السادس عشر (م).

وكنت أعرف أن كلير لم تكن هجَّاءة ولا متعصِّبة إطلاقاً على المستوى السياسي. قلت لها:

ــ لقد وضَعتِ كتاباً مثيراً جداً للاهتمام عن روسيا.. فلماذا تدخلين الحلبة السياسية؟ سوف تُثخنين عليها بالجراح، حتماً.

فقالت:

ــ أنا ألقي محاضرات لكي أعيش، أما الناس فلا يريدون سماع الحقيقة، وحين أتكلم بصورة عفوية، لا يسعني سوى أن أترك الحقيقة تقودني. من جهة أخرى (أضافت بلهجة مرِحة)، أنا متيَّمة حباً ببلاشفتي الأعزاء.

فردَّدتُ من ورائها وأنا أبتسم:

ــ بلاشفتي الأعزاء!

إلا أني أدركت مع ذلك أن لدى كلير في الواقع رؤية واضحة وواقعية لوضعها، لأني حين التقيتها في ما بعد، عام ١٩٣١، أوضحت لي أنها تعيش قريباً من تونس العاصمة. فسألتها:

ــ لكن لماذا تعيشين هناك؟

ــ الحياة أقل كلفةً، أجابت في الحال. ففي لندن، لا يكفي دخلي المتواضع لأكثر من استئجار غرفتين صغيرتين في بلومسبوري، أما في تونس فيمكنني أن أحصل على بيت وخدم، وحديقة رائعة لديكي.

وقد توفي ديكي في التاسعة عشرة من عمره، وكانت تلك ضربة رهيبة لم تتعاف منها إطلاقاً. وقد اهتدت إلى الكاثوليكية، وعاشت بعض الوقت في أحد الأديرة، باحثة بلا ريب عن تعزية في الدين.

ذات يوم، رأيت على ضريح في جنوبي فرنسا صورة فتاة باسمة في الرابعة عشرة من عمرها، وكانت منقوشة على بلاطة الضريح كلمة واحدة: «**لماذا؟**» وفي البلبلة التي تصاحب الشجن والغم، من غير المجدي البحث عن جواب، فهذا لن يقودك إلى غير إطلاق المواعظ كيفما اتفق، وتعذيب نفسك... لكن هذا لا يعني مع ذلك أنه ليس ثمة جواب، فأنا لا أعتقد أن حياتنا بلا معنى، وأنها حدثٌ عرضي صرف، كما يود بعض العلماء أن يؤكدوا. إن الحياة والموت حدثان واضحان جداً وعنيدان للغاية، بحيث لا يمكن أن يكونا عرضيَّين.

إن صُدف الحياة والموت ـ نابغة يموت في ميعة العمر، خضّات عالمية هائلة، تضحيات كبرى وكوارث ـ كل ذلك قد يبدو باطلاً وعبثياً. لكن كون ذلك حَدَثَ فعلاً، يقدم البرهان على هدف ثابت ودقيق يتجاوز إدراك عقولنا ذا الأبعاد الثلاثة.

يزعم بعض الفلاسفة أن كل شيء هو مادة بشكل أو بآخر، وأن لا شيء في الوجود يزول، ولا شيء يُخلق. فإذا كانت المادة فِعْلاً، يجب أن يتحكم بها قانونا السبب والنتيجة. وإذا كنت أسلِّم بذلك، يكون كل فعل محدداً سلفاً. وإذا كان الأمر هكذا، ألا يكون قيامي

بحك أنفي محدداً سلفاً بقدر ما يكـون عبورُ نيزك محـدداً سلفاً هـو الآخر؟ يتنـزه القط حول المنزل، تسقط الورقة من الشجرة، يتعثر الولد. ألا يمكن أن نعثر في اللانهاية على أصل كل هذه الأفعال؟ أليست محددة سلفاً وألا تتواصل في الأبد؟ إننا نعـرف السبب المباشـر لسقوط الورقة وتعثر الولد، لكننا عاجزون عن المضي إلى المصـدر الأصلي لكل هـذه الأفعال وإلى نتائجها النهائية.

لستُ عقلاً دينياً بمعنى الكلمة الدوغمائي، وموقفي شبيه بموقف ماكوليه الذي كتب أن الناس كانوا يناقشون في القرن السادس عشر المشكلات الدينية ذاتها بالبراعة الفلسفية ذاتهـا التي يناقشونها بها اليوم؛ وأنه بالرغم من مـراكمة المعـرفة ومن التقـدم العلمي، لم يقدم أي فيلسوف سابق أو حالي، مساهمة معبِّرة في هذا الميدان.

لست مؤمناً، لكنني لست عديم الإيمان أيضاً، وما يمكن تخيله يقترب من الحقيقة قدر ما يقترب منها ما يمكن البرهان عليه بصورة رياضية. يمكن الاقتـراب دائماً من الحقيقـة عن طريق الاستدلال. وهذا يُدخلنا في قالب أفكار هندسية تتطلب المنطق وقابلية التصديق. إننا نرى موتى في أحلامنا ونَقْبَل بهم كأحياء، في حين نعرف أنهم موتى. ومع أن النفس تلغي كل عقل في الحلم، أليست لهذا الأخير قابليته الخاصة به للتصديق؟ هنالك أشياء تتخطى العقل، فكيف يمكننـا أن نفهم ماهيـة الجزء من الألف الخـاص بجزء من مليـار من الثانيـة؟ بيـد أن الرياضيات تقول لنا إن هذا أمر موجود بالضرورة.

بمقدار ما أشيخ، أزداد اهتماماً بالإيمـان، فهو يلعب في حيـاتنا دوراً أهم ممـا نعتقد، ويتيح لنا أن ننجز أكثر مما في وسعنا أن نتخيل. إنني أعتقد أن الإيمان هو العنصر الرائد في كل أفكارنا، من دونه ما كان أمكننا يوماً أن نبتكر فرضيات أو نظريات أو علوماً أو رياضيات. إنني لمقتنع بأن الإيمان امتداد للروح، وإنكارُه هو حكمٌ على الذات كما على الروح الذي يولِّد كل قوانا الخلّاقة.

إنني مؤمن بالمجهول، بكل ما لا نفهمه بواسطة العقل. إنني أؤمن بأن ما يتجاوز إدراكنا هو واقعة بسيطة في أبعاد أخرى، وأنه توجد في مملكة المجهول احتياطيات هائلة من الطاقة لأجل الخير.

في هوليوود، كنت منعزلاً على الدوام، أعمل في محترفي الخاص بي، ولم تكن تتوفر لي الفرص إذاً لالتقاء الناس العاملين في ستـوديوات أخـرى، وكان يصعب عليَّ إذاً أن أبني صداقات جديدة. وقد أنقذني دوغلاس وماري على هذا الصعيد.

فمنذ زواجهما، كانا في أقصى السعادة. كان دوغلاس قد أعاد بناء بيته القديم، وأثَّثه بصورة مغرية، مضيفاً عدة غرف لاستضافة الأصدقاء. كـانا يعيشـان بطريقـة فخمة، وكـانت الخدمة بالغة الاتقان مثلها مثل المطبخ، وكان دوغلاس مضيفاً رائعاً.

كانت لديه في الستوديو شقة باذخة، تضم مقصورة وحمّاماً تركياً ومسبحاً. هنالك كـان يستقبل الناس المهمين، داعياً إياهم إلى الغداء في الستوديو، ومجيلاً إياهم فيه، ومبيِّنـاً لهم

كيف تتم صناعة فيلم، ليدعوهم بعد ذلك لأخذ حمّام بخار، ثم للغطس في المسبح. ثم يستقرون بعد ذلك في مقصورته، متلفعين بمناشف حمّام على طريقة الشيوخ الرومانيين.

كان أمراً مثيراً للفضول أن يقدِّموك لملك سيام في اللحظة التي تخرج فيها من حمّام البخار وتتوجه إلى المسبح. لقد التقيت عدداً من الشخصيات المهمة في الحمّام التركي، من بينهم دوق ألب، ودوق سوذرلند، وأوستن شامبرلن، وماركيز فيينا، ودوق باناراندا وآخرين كثيرين. وحين يكون المرء عارياً من كل زينة دنيوية، يمكن تقديره حق قدره، وقد ارتفع دوق ألب في نظري كثيراً، على سبيل المثال.

كل مرة كان يتلقى دوغلاس فيها زيارة أحد هؤلاء الأعيان، كنت بين المدعوين، لأني كنت أشكل أحد مصادر الجذب. وعموماً، كان الناس يصلون بعد الحمّام إلى بيكفاير حوالي الثامنة مساء، ويتعشون في الثامنة والنصف تقريباً، ثم يشاهدون فيلماً بحيث لم يقيِّض لي يوماً أن أتعرف إلى المدعوين بصورة وثيقة. إلا أنني بين حين وآخر، كنت أخفف عن آل فيربانكس هذا السيل من الاجتماعيات بإنزال بعضٍ من زوارهم في بيتي. لكن عليَّ أن أعترف بأني لم أكن أعرف استقبال الناس بالكفاءة التي يتحلى بها آل فيربانكس.

حين كان دوغلاس وماري يستقبلان كبار هذا العالم، كانا مدهشين. فلقد كانا يعرفان كيف يسلكان حيالهم سلوكاً مألوفاً وحراً كنت أجد من الصعب اتخاذه. فبالطبع، في الليلة الأولى التي كان يحل فيها عليهم أدواق(*)، بين مدعويهم، كانت تتردد في كل لحظة عبارة «سموُّكم»، لكن سرعان ما كانت تصبح هذه العبارة، بكل بساطة، «جيورجي» أو «جيمي».

غالباً ما كان يظهر عند العشاء كلب دوغلاس الهجين الصغير، وكان سيده يدفعه، بصورة ممتعة جداً، للقيام ببعض الألعاب الصَّغيرة المسلية التي كانت تضفي المزيد من الانشراح على ما لم يكن في الإمكان أن يكون أكثر من استقبال متصنّع. وغالباً ما كان المدعوون يهمسون في أذني أنا كل الأشياء الجيِّدة التي تراود أفكارهم بخصوص دوغلاس. فالسيدات كن يقلن لي كما لو هنَّ يفشين سراً: «إنه رجل ممتع للغاية!» وكان هذا صحيحاً جداً، إذ لم يكن أحد غيره يستطيع أن يبدو بكل ذلك السِّحر معهن.

لكنه شهد ذات مرة هزيمته. ولأسباب بديهية لن أذكر أيّاً من الأسماء، لكن الحضور كانوا مختارين بأقصى العناية، وكان عدد ذوي الألقاب لا يحصى، وقد كرّس دوغلاس أسبوعاً كاملاً وهو يستقبلهم ويسليهم. أما ضيفا الشرف فكانا زوجين شابين في رحلة العرس، وقد بُذل كل ما يمكن تخيله لأجل تسليتهما. كانت هنالك حفلة صيد سمك على متن يخت، في كاتالينا، حيث أمرَ دوغلاس بقتل عجل ورميه في البحر من أجل اجتذاب الأسماك (لكن هذه لم تَعْلَقْ)، ثم حصلت مصارعة ثيران على أراضي الستوديو. لكن العروس الشابة، وكانت طويلة القامة وجميلة، كانت شديدة التحفظ في حين بقيت محبَّبة ولطيفة. كانت تبدي القليل من الحماس.

(*) جمع دوق (م).

كل مساء، كان دوغلاس يبذل أفضل ما عنده لتسليتها، لكن كل روح النكتة لديه، وكل مرحه، بقيا عاجزين عن إذابة جليدها. وقد تحدث دوغلاس معي، في الليلة الرابعة، على انفراد، قائلاً لي:

ـ إنها تحيّرني، وأنا لا أعرف ما أقول لها، لذا تدبرت الأمور بحيث تكون بجانبك هذا المساء على العشاء، (وضحك ضحكة صغيرة). وقد قلت لها كم أنت لامع وممتع.

بعد الدعاية التي عملها دوغلاس لي، شعرت تقريباً، حين أخذت مكاني على المائدة، بأني على الدرجة ذاتها من الراحة التي يشعر بها مظلي على وشك أن يقفز. لكنني قلت في نفسي إني سأحاول الاقتراب منها بواسطة الباطنية. لذا وضعت فوطتي على ركبتيَّ، وانحنيت نحو السيدة وهمست قائلاً:

ـ قليلاً من المرح، عجباً!

فاستدارت نحوي، غير متأكدة تماماً مما قلته:

ـ عفواً؟

فكررت بلهجة تكتنفها الألغاز:

ـ قليلاً من المرح!

فبدت عليها الدهشة:

ـ من المرح؟

ـ «أجل»، أجبت، وأنا أطوي فوطتي على الركبتين، ناظراً إلى الأمام مباشرة.

فسكتت لحظة، فيما هي تتأملني، ثم سألت:

ـ لماذا تقول هذا؟

فاندفعت أتكلم:

ـ لأنك حزينة جداً، ومن دون أن أترك لها الوقت لكي تجيب، واصلت كلامي: «فليكن معلوماً لديك، إن دم الغجر يسري في عروقي وأنا أعرف هذه الأمور... في أي شهر ولدتِ؟

ـ في شهر نيسان.

ـ طبعاً، الحمل! كان يجب أن أتوقع ذلك.

فانتعشت، وكان ذلك يناسبها إلى حد الفتنة. ثم قالت مبتسمة:

ـ تتوقع ماذا؟

ـ في هذا الشهر، تكون حيويتك في النقطة الأدنى.

ففكرت لحظة وقالت:

ـ هذا أمر خارق أن تقول ذلك.

ـ إنه من البساطة بمكان حين نتمتع بالحدس: إن النسمة التي تهب عليك الآن هي نسمة امرأة حزينة.

ـ هل هذا واضح للعيان؟

ـ ربما ليس للآخرين.

وابتسمت، ثم بقيت تفكر لبعض الوقت، لتقول لي بعد ذلك بلهجة حالمة:

ـ إنه لغريب جداً أن تقول هذا. فبالتأكيد، هذا صحيح. أنا مكتئبة جداً.

ورحت أهز رأسي مؤاسياً:

ـ إنه الشهر الأسوأ بالنسبة إليك.

فاستأنفت قائلة: ـ أحس بنفسي مثقلة بالكآبة، وأنا في قمة اليأس.

فقلت، وأنا لا أتوقع إطلاقاً ما عساها تقول: ـ يبدو أنني أفهم.

وواصلت من ناحيتها الكلام بلهجة حزينة:

ـ لو كان في وسعي أن أغادر، أن أهرب من كل شيء ومن كل العالم... كنت أفعل أي شيء: أعمل، أقوم بأدوار صامتة في الأفلام، لكن ذلك سيسيء إلى الجميع، وهم لا يستحقون ذلك.

كانت تتكلم بصيغة الجمع، لكنني كنت متأكداً من أنها تلمِّح إلى زوجها. فبدأت أشعر بالقلق، وبعد أن توقفت عن لعب دور الرائي، حاولت أن أعطيها نصائح جدية، لكن ذلك كان تافهاً بالتأكيد.

قلت لها:

ـ لا جدوى إطلاقاً من الهرب، فالمسؤوليات ستلاحقك دائماً. إن الحياة رغبة متواصلة، ولا أحد يحس يوماً بالرضى، لذا لا تتصرفي من دون روية، ولا تقومي بشيء قد تندمين على فعله طيلة حياتك.

فقالت بلهجة الحنين:

ـ أنت على حق بلا ريب. في كل حال، أنا مرتاحة للكلام مع شخص يفهمني.

بين الحين والآخر، كان دوغلاس ينظر بطرف عينه في اتجاهنا فيما هو يثرثر مع المدعوين الآخرين. وقد استدارت نحوه ذلك المساء باسمة.

بعد العشاء، انفرد دوغلاس بي وقال:

ـ عمَّ كنتما تتحدثان، عليكما اللعنة؟ كان الأمر محاطاً بالسرية بحيث اعتقدت أن كلاً منكما سيقضم أذن الآخر!

فأجبت بلهجة الرضى عن النفس: ـ آه! العموميات المعتادة!

كان عقدي مع شركة فورست ناشونال يشرف على الانتهاء وكنت أنتظر تلك اللحظة بنفاد صبر. فمنتجو أفلامي كانوا يبدون عديمي الاحترام وكريهين، مع نظريات قصيرة النظر، وكنت أريد التخلص منهم. فضلاً عن ذلك، كانت لديّ رغبة شديدة بإنتاج أفلام طويلة(*).

كان إنجاز الأفلام الثلاثة الأخيرة التي يلزمني تصويرها يبدو بالنسبة لي مهمة لا يمكن التملص منها. كنت أعمل على فيلم **Pay Day** (يوم الدفع)، وكان فيلماً ببكرتين، ولم يكن باقياً غير إنجاز فيلمين. وقد أخذ فيلم **الحاج The Pilgrim** قياس فيلم طويل. وكان يعني ذلك مرة أخرى مفاوضات جديدة ومغيظة مع الفورست ناشونال. لكن كما قال سام غولدوين ذات يوم عني: «ليس شابلن رجل أعمال: كل ما يعرفه هو المستوى الذي لا يمكنه أن ينزل تحته». وقد انتهت المفاوضات بطريقة مُرْضية. فبعد النجاح الباهر لفيلم **The Kid** (الولد)، لم أصادف غير القليل من المقاومة لنقاش شروط فيلم **The Pilgrim**: سوف يأخذ مكان فيلمين وتؤمّن لي ضمانة ٤٠٠ ألف دولار ومشاركة في الأرباح. أخيراً، لقد بت حراً في الانضمام إلى أصدقائي، **الفنانين المتحدين**.

بناءً على نصيحة دوغلاس وماري، انضم هونست جو، واسمه الحقيقي جوزف شنك، إلى الفنانين المتحدين مع زوجته نورما تالمادج، التي كانت شركتنا ستوزع أفلامها. وكان جو سيشغل منصب رئيس للشركة. وبالرغم من المودة التي كنت أكنّها له، لم أكن أعتقد أن إسهامه كاف لتبرير هذا التعيين. ومع أن زوجته كانت نجمة كبيرة إلى هذا الحد أو ذاك، لم يكن بالإمكان مقارنتها بماري ودوغلاس على صعيد النجاح. كنا قد رفضنا إعطاء أدولف زوكور أسهماً في شركتنا، فلماذا نعطي جو شنك الذي لم يكن بأهمية زوكور؟ بيد أن الغلبة كانت لحماس دوغلاس وماري، وبات جو رئيساً **للفنانين المتحدين** ومساهماً في الشركة بصورة كاملة.

(*) الفيلم الطويل يبلغ طوله ٢٥٠٠ متر، بينما طول القصير ٦٠٠ متر (المعرب).

وقد تلقيت بعد ذلك بوقت قصير رسالة مستعجلة تطالب بحضوري اجتماعاً يتعلق بمستقبل **الفنانين المتحدين**. وبعد عدة جمل بالمناسبة وبضع ملاحظات متفائلة على لسان رئيسنا، وجهت ماري إلينا نداءً رسمياً، فقالت إنها قلقة بسبب ما يحصل في صناعة السينما - كانت قلقة على الدوام - وإن دوائر التوزيع تندمج، فإذا لم نأخذ التدابير المناسبة لمواجهة ذلك، لن يكون مستقبل الفنانين المتحدين مشرقاً. بيد أن هذا التصريح لم يثر قلقي إطلاقاً، لأني كنت مقتنعاً بأن جودة أفلامنا هي الرد على كل منافسة. لكن الآخرين لم يكونوا مستعدين للاطمئنان، وقد حذّرنا جو شنك برصانة، قائلاً: إنه بالرغم من الأسس السليمة التي تقوم عليها الشركة، علينا أن نضمن مستقبلنا بالامتناع عن الاضطلاع بأنفسنا بكل المخاطر، وبترك الآخرين يشاركون قليلاً في أرباحنا. كان قد اتصل بديلون ريد وشركاه، في وول ستريت، الذين أبدوا استعدادهم لمنحنا ٤٠ مليون دولار مقابل إصدار أسهم وفائدة في شركتنا. وقد أجبت بصراحة بأني أعارض فكرة أن تكون لوول ستريت أي علاقة بعملي، وأكدت مجدداً أننا يجب ألا نخشى الاندماجات إطلاقاً طالما نحن ننتج أفلاماً جيدة. أما جو فسيطر على غيظه وأعلن بلهجة هادئة ومتعالية أنه يحاول القيام بشيء بناء بالنسبة للشركة وأننا سوف نربح جميعاً من ذلك.

وتكلمت ماري من جديد. كانت لديها طريقة عتابية في التحدث عن الأعمال، فيما هي تمتنع عن مخاطبتي مباشرة، إنما تتوجه إليَّ عبر وساطة الآخرين، الأمر الذي كان يجعلني أشعر بأني أناني بصورة مخيفة. وقد امتدحت صفات جو، مشددة على العمل الذي قدمه، وعلى الجهود المضنية التي بذلها لتعزيز وضع شركتنا. وختمت قائلةً:

ــ علينا أن نحاول جميعاً أن نكون بنّائين.

لكنني لم أرضخ، مؤكداً أني لا أريد رؤية آخرين يشاركون في جهودي الشخصية. كنت واثقاً من نفسي، وعلى استعداد لتوظيف رساميلي الخاصة من أجل دعم هذه الجهود. وقد تحول الاجتماع إلى نقاش حاد - تغلب فيه الحدة على النقاش -، لكنني بقيت على مواقفي، قائلاً إنه إذا كان الآخرون يريدون الاستمرار من دوني، فهذا شأنهم، وأنا سأقدم استقالتي إذاك. وقد أثار ذلك إعلاناً رسمياً للإخلاص في ما بيننا، وأكد جو أنه لا يريد أن يقوم بأي شيء قد يحطم صداقتنا أو انسجام شركتنا. ولم يعد يتكلم أحد على دعم وول ستريت.

قبل بدء فيلمي الأول لشركة **الفنانين المتحدين**، كان في نيتي أن أجعل من إدنا بورفيانس نجمة، فمع أننا انفصلنا على المستوى العاطفي، بقيت أهتم من ناحيتي بحياتها المهنية. لكنني أدركت، وأنا أتأمل إدنا موضوعياً، أنها تتصرف شيئاً فشيئاً كما لو كانت ربة عمل، وهو الأمر الذي لن يتناسب مع العنصر الأنثوي الضروري بالنسبة لأفلامي القادمة. فضلاً عن ذلك، لم أكن أرغب في قصر مشاريعي وشخصياتي على حدود شركة هزلية، لأنه كانت لديّ أفكار غامضة ومفعمة بالطموح بخصوص أفلام طويلة تتطلب توزيعاً أكثر غزارة.

كانت تراودني منذ أشهر فكرة إخراج **الطرواديات** مع إدنا، مستخدماً اقتباسي الخاص

بي. لكن كلما تقدمت أبحاثنا، كنا نرى أكثر فأكثر أن الإنتاج سيكون مكلفاً، لـذا تخلينا عن الفكرة.

بدأت عندئذ أفكر بنساء أخريات مثيرات للاهتمام يمكن إذنا أن تجسدهن. جـوزفين، بالتأكيد! أما واقع أن ذلك سيتطلب ثياباً مناسبة، وسوف يكلف ضعفي كلفة الطرواديات فكان أمراً عديم الأهمية. لقد كنت مفعماً بالحماس.

وانـطلقنا في أبحـاث مكثفة، قـارئين مذكـرات بوريين، ومـذكرات كـونستان، خـادم نابوليون. لكن كلما كنا نزداد غوصاً في حياة جوزفين، كلما كان نابوليـون يزداد أهميـة. وقد شدّني هذا العبقري الباهر إلى حد أن فيلماً عن جوزفين انتهى إلى الظهور لي بمظهر الشحوب الشديد، وأن نابوليون بدا أكثر فأكثر كدور يمكنني أن ألعبه بنفسي. سوف يكـون الفيلم قصة حملته الإيطالية: ملحمة الإرادة والشجاعة لدى شاب في السـادسة والعشـرين، يتغلب على معارضة هائلة، وعلى غيرة جنرالات شائخين ممتلئين خبرة. لكن للأسف، سـرعان مـا هدأ حماسي، واختفى نابوليون، مثله مثل جوزفين، من مشاريعنا.

في تلك الفتـرة تقريبـاً، برزت پيغي هـوبكينز جـويس الجميلة المشهورة المكثـرة من الزيجات، على مسرح هوليوود، مزدانة بالجواهر وفي جعبتها ثروة صغيرة مقدارها ثلاثة ملايين دولار جمعتها من أزواجها الخمسة المتعاقبين، كما قالت لي بنفسها. لقد كانت پيغي من أصل متواضع، ابنةً لأحد الحـلاقين. ثم أصبحت فتاةً في كـورس زيغفلد، واقترنت على التـوالي بخمسة أصحاب مليارات. ومع أن پيغي كانت لا تزال رائعة الجمال، كان يبدو عليهـا بعض التعب. لقد وصلت للتو من باريس، مرتدية فستاناً أسود فتاناً، ذلك أن شاباً كان قد انتحر قبل ذلك مباشرة من أجلها. وفي هذه الصورة الجذابة لحدادٍ أنيق، اكتسحت هوليوود.

خلال عشاء هادىء، لا يشاركنا فيه أحد، أسرَّت لي أنها شديدة النفور من لفت الأنظار، قائلةً:

ــ كل ما أبغيه هو أن أتزوج وأنجب أطفالاً. ففي الواقع، أنا امرأة بسيطة.

في غضون ذلك، كـانت ترتب الإلمـاسة ٢٠ قيـراط والأساور من الـزمرد التي تغـطي ذراعها. (كانت پيغي تدعوها «شاراتي»، حين لا يكون مزاجها جدياً).

وقد روت بصدد أحد أزواجها أنها في ليلة عرسها أقفلت على نفسها في غرفتها قائلـة إنها لن تدعه يدخل إلا إذا مرَّر من تحت الباب شيكاً بقيمة خمسمائة ألف دولار. وسألْتُها:

ــ وهل فعل ذلك؟

ــ أجل، قالت بتضايق، وأضافت ببعض الدُّعابة: وقد قبضته في الصباح الباكر، قبل أن يستيقظ. لكنه أحمق وكان يشرب بإفراط. وقد ضربته ذات يوم على رأسه بقنينـة شامبـانيا واضطر لدخول المستشفى.

ــ وهكذا انفصل أحدكم عن الآخر؟

ــ كلا، قالت ضاحكةً، إذ يبدو أن ذلك راق له فازداد تعلقاً بي.

دعانا توماس إينس إلى متن يخته، ولم يكن هنالك غير ثلاثة أشخاص، بيغي وتوم وأنا، جالسين إلى طاولة في حجرة اليخت، نشرب الشامبانيا. كان الوقت مساء، وكانت هنالك زجاجة كبيرة على مقربة من بيغي. ومع تقدم الليل، رأيت اهتمام بيغي يتحول مني إلى توم إينس، وبدأت أقلق، لأني تذكرت ما فعلته بزوجها بواسطة زجاجة شامبانيا وقلت في قرارة نفسي إنها قد تفعل الشيء نفسه معي.

ومع أني كنت قد شربت قليلاً، لم أكن سكران، وقلت لها بلطف إني إذا رأيت أقل علامة تشير إلى مرور فكرة كهذه تحت جبهتها الجميلة، سوف أقذف بها إلى البحر. ثم توقفت عن الانتساب إلى دائرة المقربين منها، وبات إيرفينغ ثالبرغ، من المتروغولدين ماير (م. غ. م.)، صديقها الحميم. وقد بهرت شخصية بيغي إيرفينغ لبعض الوقت، لأنه كان في مقتبل شبابه. وكانت تُتداول في استوديوهات م. غ. م. شائعات مقلقة بصدد الزواج، لكنه انتهى إلى الصحو من سكرته ولم تذهب الأمور إلى أبعد من ذلك.

خلال صداقتنا الغريبة، لكن القصيرة، روت لي بيغي عدة نوادر بصدد علاقتها بناشر فرنسي معروف. وقد أوحى لي ذلك بفكرة كتابة قصة **A Woman of Paris** (امرأة من باريس)(*) التي ستكون إدنا بورفيانس بطلتها. لم أكن أنوي لعب دور في الفيلم، بل إخراجه وحسب.

لقد كان بعض النقاد يؤكدون أنه لا يمكن التعبير عن علم النفس في فيلم صامت، وأن حركات بديهية، كتلك التي يُرى فيها الأبطال، على سبيل المثال، يضغطون سيدات جميلات على جذوع الأشجار وينفخون بحماس وصولاً إلى لوزتي حلوقهن، أو كراسي يجري تبادل الضرب بها على الوجوه في مشاهد الشجارات، هي الوسائل الوحيدة للتعبير. لقد كانت امرأة من باريس إذاً تحدّياً، في نظري، وكنت أنوي جعل علم النفس محسوساً بواسطة ألعاب مسرحية مرهفة. وهكذا لعبت إدنا دور غانية، وتدخل صديقة إدنا وتريها مجلة تتحدث عن زواج عشيق إدنا. تأخذ هذه المجلة بلا مبالاة، وتتطلع إليها، ثم ترخيها مجدداً بسرعة، وبلا مبالاة، وتشعل سيجارة. لكن الجمهور يفهم أنها أصيبت بصدمة. وبعد أن تشيّع صديقتها إلى الباب باسمةً، تسارع إلى التقاط المجلة من جديد، وتقرأها بقوة درامية. لقد كان الفيلم مليئاً بالتلميحات المرهفة. وفي مشهد يتم في غرفة إدنا، تفتح إحدى الوصيفات صواناً فتسقط ياقة رجل عَرَضاً على الأرض، وهو الأمر الذي يكشف علاقة إدنا بممثل دور العاشق (الذي يلعبه كارل ميلر).

وقد حاز الفيلم نجاحاً كبيراً لدى المشاهدين المستنيرين. كان أول فيلم صامت يعبر عن السخرية والسيكولوجيا. وتلته أفلام من الطبيعة ذاتها، بما فيها **The Marriage** لإرنست لابيتش، مع مينجو وهو يلعب عملياً دوراً مشابهاً.

(*) كان اسم هذا الفيلم بالفرنسية **L'opinion Publique** (أو الرأي العام) (م).

لقد غدا أدولف مينجو نجماً بين ليلة وضحاها، لكن إدنا لم تحز بالكامل نجاحاً باهراً إلى هذا الحد. إلا أنه عرضت عليها عشرة آلاف دولار للتصوير خمس أسابيع في إيطاليا، وقد سألتني إذا كان عليها أن تقبل بذلك. وبالطبع، أبديت حماسي، لكن إدنا كانت تشمئز من القطع الكامل للجسور. وقد نصحتها إذاً بقبول العرض، فإذا لم تسر الأمور على ما يرام يمكنها العودة للعمل معي، في حين تكون كسبت في غضون ذلك عشرة آلاف دولار. ووافقت أدنا، وتم تصوير الفيلم، لكنه لم يحظ بالنجاح، وانضمت هي مجدداً إلى فريقنا.

لم أكن أنجزت بعد امرأة من باريس حين بدأت بولا نيغري خطواتها الأولى في أميركا، بالأسلوب الهوليوودي الحقيقي. وقد أفرطت مصلحة الدعاية في الپاراماونت في الحماقات. ففي جو من الحسد المغذّى بعناية والخصومات الدعاوية إلى هذا الحد أو ذاك، حصلت دعاوة صاخبة بصدد غلوريا سوانسون وبولا. كانت عناوين ضخمة تقول: «نيغري تشترط الحصول على مقصورة سوانسون». «غلوريا سوانسون ترفض لقاء بولا نيغري». «نيغري توافق على استقبال سوانسون». وهكذا دواليك إلى حدود القرف الشديد.

لا غلوريا ولا بولا كانتا تستوجبان اللوم بسبب هذه القصص المختلقة. ففي الواقع، منذ البداية كانتا تقيمان في ما بينهما علاقات صداقة صادقة. لكن الجانب الرشيق قليلاً في شخص الممثلتين شكّل ما يشبه المنّ لمصلحة الإعلانات. فلقد جرت استقبالات وأمسيات على شرف بولا، وخلال ذلك المهرجان الفني المرتجل، التقيت بولا في كونسرتو في هوليوود باول. كانت جالسة بالقرب من مقصورتي مع مرافقيها من مهتمين بشؤون الصحافة ومن مدراء للباراماونت.

ــ تشارلي! لماذا لم تصلني إذاً أخبارك؟ فأنت لم تخابرني على الإطلاق. ألا تدرك أني قطعت كل المسافة من ألمانيا إلى هنا لأراك؟

لقد داعبت غروري، مع أني وجدت صعوبة في تصديق ملاحظتها الأخيرة، لأني لم أرها إلا مرة واحدة في برلين لمدة عشرين دقيقة.

ــ أنت قاس جداً، يا تشارلي، لأنك لم تخابرني، فمنذ زمن طويل وأنا أنتظر أخبارك. أين تعمل؟ أعطني رقم هاتفك وأنا أخابرك بنفسي».

كان كل ذلك الحماس يبدو لي مشبوهاً. لكن التفاتات من هذا القبيل من جانب بولا الجميلة لم يكن في وسعها أن تتركني لا مبالياً. وقد دعيت بعد ذلك بأيام إلى سهرة أقامتها في البيت الذي استأجرته في بيفرلي هيلز. وحتى بالنسبة إلى هوليوود، كان ذلك استقبالاً رائعاً، وبالرغم من حضور عدة نجوم من جنس الذكور، كنت أنا الذي أولتني كبير اهتمامها. وسواء كان ذلك صادقاً أو غير صادق، لقد سرّني ذلك كثيراً. وقد شكل ذلك بداية علاقاتنا المضطربة. فخلال أسابيع عديدة، ظهرنا معاً علانية، وبالطبع، فعل ذلك فعل المهيِّجات بالنسبة للمخْبرين ووسائل الإعلام. فسرعان ما ظهرت عناوين تعلن: «بولا مخطوبة إلى تشارلي». وكان ذلك شديد الإزعاج لبولا، وقالت لي إن عليَّ أن أنشر تكذيباً. فقلت لها:

ـ يجب أن يصدر هذا عن السيدة.

ـ ماذا يجب أن أقول لهم.

فهززت كتفيَّ، إذ لم أكن أود الالتزام.

في اليوم التالي، تلقيت رسالة تعلمني بأنه لا يسع الآنسة نيغري أن تراني، من دون توضيح. لكن في المساء ذاته، خابرتني وصيفتها شديدة الاضطراب لتقول لي: إن سيدتها مريضة جداً، وسألتني إذا كان في وسعي المجيء على الفور. وحين وصلت، أدخلتني وصيفة مجهشة بالبكاء إلى الصالون حيث وجدت بولا ممددة على أريكة، مغمضة العينين. وحين فتحتهما، تنهدت قائلة:

ـ يا للرجل القاسي!

وفوجئت بنفسي ألعب دور كازانوفا.

بعد يوم أو يومين، خابرني تشارلي هايتون، مدير استوديوهات الباراماونت، قائلاً:

ـ أنت تسبّب لنا الكثير من الإزعاجات، يا تشارلي، وبودّي أن أتحدث معك بهذا الخصوص.

فقلت:

ـ لكن كيف ذلك! تعال إذاً إلى بيتي.

وهو ما فعله. كان الوقت منتصف الليل تقريباً حين وصل هايتون. كان رجلاً بديناً، من النوع التافه كفاية، والذي قد يجد مكانه المناسب تماماً في مستودع صالة مبيعات. وقد جلس، وبدأ من دون أي تمهيد:

ـ تشارلي، إن كل هذه الإشاعات التي تنقلها الصحافة تُمْرض بولا، فلماذا لا تنشر بياناً يضع حداً لها؟

لقد هاجمني هكذا بصورة جَبْهية، فتطلعت في عينيه مباشرة وسألته:

ـ ماذا تريد أن أقول؟

وقد حاول أن يخفي ضيقه وهو يتصنع الجرأة:

ـ أنت تحبها، أليس كذلك؟

فأجبته:

ـ لا أعتقد أن هذا يعني أحداً من الناس.

ـ لكننا وظفنا ملايين الدولارات في هذه المرأة! وهذه دعاوة سيئة بالنسبة إليها. (وهنا توقف) تشارلي، إذا كنت تحبها، لماذا لا تتزوجها؟

لأول وهلة، لم أجد ذلك مسلياً، وقلت:

ــ إذا كنتم تتخيلون أني سأتزوج من واحدة لمجرد حماية توظيفات الباراماونت، فأنتم تخطئون كثيراً!

ــ إذاً توقَّفْ عن رؤيتها.

ــ هذا أمر عائد إليها، أجبت.

وقد انتهى الحديث الذي جرى بيننا في ما بعد بملاحظة فيها دعابة جافة أبديتها قائلاً: إني لا أرى لماذا يتوجب عليّ الزواج من بولا، طالما أنا لا أملك أسهماً في الباراماونت. وهكذا انقطعت علاقتي ببولا بالطريقة المفاجئة التي بدأت بها. لقد توقفت عن الاتصال بي إلى الأبد.

خلال تلك المغامرة الصاخبة مع بولا، وصلت شابة مكسيكية إلى الستوديو، وكانت قد جاءت من مكسيكو سيراً على الأقدام للقاء تشارلي شابلن، ولما كنت عرفت عدة تجارب من هذا النوع مع أناس غريبي الأطوار أو مجانين، فقد قلت لمدير أعمالي أن «يتخلص منها بلطف».

ولم أعد أفكر فيها إلى حين تلقيت مخابرة في منزلي علمت بواسطتها أن الشابة جالسة على عتبة بابي، فاقشعر رأسي، وقلت لرئيس الخدم أن يتخلص من الشابة وأوضحتُ أني سأنتظر في الستوديو إلى أن تخلي طريقي.

وبعد عشر دقائق تلقيت نبأ ذهابها.

في ذلك المساء، كان كل من بولا والدكتور رينولدز وزوجته يتعشون عندي، فأخبرتهم بالحادثة، وفتحنا الباب المطل على الحديقة وتطلعنا للتأكد من أن الفتاة لم تعد من جديد. لكن في عز مأدبة العشاء، دخل رئيس الخدم إلى صالة الطعام، شديد الشحوب، وقال:

ــ إنها في الطابق العلوي، في سريرك، يا سيدي!

وأوضح أنه كان قد صعد لإعداد غرفتي للنوم فوجدها في السرير، مرتدية بيجامتي. وقد كنت في أقصى حيرتي.

ــ «سوف أذهب لرؤيتها»، قال رينولدز، ثم نهض وصعد الدرج قفزاً.

وقد انتظرنا تتمة الأحداث. فنزل بعد قليل وقال:

ــ لقد أجريت معها حواراً طويلاً. إنها شابة، وجميلة، وكلامها ينم عن الذكاء. سألتها ماذا تفعل في سريرك؟ فقالت: «أريد رؤية السيد شابلن». أجبتها: «أتدرين أن بالإمكان وصمك بالجنون ثم احتجازك بعد ذلك في مأوى للمجانين؟» لكنها لم تضطرب إطلاقاً، وقالت: «أنا لست مجنونة، بل أنا معجبة بفن السيد شابلن، بكل بساطة، وقطعت كل الطريق من مكسيكو للتعرف إليه». فقلت لها: إن من الأفضل أن تخلع بيجامتك، وترتدي ثيابها وتذهب في الحال، وإلا استدعينا الشرطة.

فقالت بولا بلهجة طليقة:

ـ أود أن أرى هذه الفتاة. دعها تنزل إلى الصالون.

فاعترضتُ، لأنه تولد لدي انطباع بأن ذلك قد يزعج الجميع. إلا أن الفتاة دخلت المكان برباطة جأش كاملة. ولقد كان رينولدز على حق، إذ كانت شابة وفاتنة. وروت لنا أنها حامت حول الستوديو طيلة النهار. فعرضنا عليها أن نتعشى، لكنها لم تقبل غير كوب من الحليب.

وفيما كانت تشربه، راحت بولا تمطرها بالأسئلة:

ـ هل أنت تعشقين السيد شابلن؟

وقد شعرتُ بالانزعاج من هذا السؤال، أما الفتاة فانفجرت بالضحك:

ـ عاشقة! آه! كلا، إنما أنا معجبة به فقط لأنه فنان عظيم.

وواصلت بولا أسئلتها:

ـ هل شاهدتِ أفلامي؟

ـ «أجل، أجل»، أجابت بلهجة لا مبالية.

ـ ما رأيك فيها؟

ـ إنها ممتازة. . . لكن لستِ فنانة بأهمية السيد شابلن.

لقد كانت تعابير وجه بولا تستحق أن تُرى.

وقد حذرتُ الفتاة من أن سلوكها قد يساء تفسيره، ثم سألتها إذا كان معها ما يكفي للعودة إلى مكسيكو. فأجابت بالإيجاب، وبعد أن أغدق رينولدز عليها بعض النصائح الإضافية، غادرت المنزل.

لكن في اليوم التالي وصل رئيس الخدم في ساعة الغداء، على عجل، وأخبرنا بأنها ممددة وسط الطريق، وقد سمَّمت نفسها، فخابرنا الشرطة في هذه المرة، وجاءت سيارة إسعاف فنقلتها إلى المستشفى.

في اليوم التالي، وضعت الصحف يدها على القصة، ونشرت صوراً لها جالسة في سريرها في المستشفى. كانوا قد أجروا لها غسيل معدة، وكانت الآن تستقبل رجال الصحافة. وقد أعلنت أنها لم تشرب السم، إنما أرادت فقط أن تلفت الانتباه، وأنها لا تعشق تشارلي شابلن، لكنها جاءت فقط إلى هوليوود سعياً وراء العمل في السينما.

بعد أن خرجت من المستشفى، عُهد بها إلى حراسة جمعية بر وإحسان، كتبت لي رسالة لطيفة سائلة إياي إذا كان لا يزعجني أن أشارك في تكاليف رحلة عودتها إلى مكسيكو. «إنها غير مؤذية، وليست فتاة سيئة»، هذا ما جاء في الرسالة، وقد دفعنا إذاً معاً ثمن بطاقة العودة.

كنت الآن حراً في إنجاز فيلمي الأول لشركة الفنانين المتحدين، وكنت مصراً على تحقيق نجاح يفوق ذلك الذي حققه فيلم **The Kid**. وقد بحثت على مدى أسابيع، مشغلاً

ذهني بيأس، بحثاً عن فكرة. ولم أنفك أقول في نفسي: «يجب أن يكون الفيلم القادم ملحمة! شيئاً عظيماً للغاية!» لكن الأفكار كانت تقاوم. ثم في يوم أحد، صباحاً، وكنت أمضي عطلة نهاية الأسبوع عند آل فيربانكس، جالساً بعد تناول الفطور مع دوغلاس، رحنا نتأمل بواسطة منظار مجسّم، مشاهد مصوَّرة من الأسكا وكلونדايك. كان أحدها يُظهر ممر شيلكوت الجبلي، وعليه جمهور طويل من المنقّبين الذين يتسلقون منحدراته المجلّدة، بينما تصف أسطورة مطبوعة على القفا المحن القاسية التي كان عليهم أن يتغلبوا عليها لأجل اجتيازه. وقد قلت في نفسي إن هذه موضوعة رائعة، كافية لحفز خيالي. وشرعت الأفكار تنمو في رأسي في الحال، ومع أني لم أكن قد كوَّنتُ قصةً بعد، بدأت صورة ما تتوضح في رأسي.

في عملية خلق عمل هزلي، تكون الأمور مبنية على مفارقات، لكن المأساة تحفز حسَّ المثير للضحك؛ لأن المثير للضحك هو بلا ريب موقف تحدٍّ: علينا أن نضحك بمواجهة عجزنا إزاء قوى الطبيعة... أو نصاب بالجنون. لقد قرأت كتاباً حول قصة موكب دونر، الذي أخطأ طريقه، وهو متجه إلى كاليفورنيا، وحاصرته الثلوج في جبال السييرا نيفادا. ومن أصل ١٦٠ رائداً، بقي ١٨ فقط على قيد الحياة، إذ توفي الباقون إما من الجوع أو من البرد. لا بل توصل البعض إلى حد أكل لحوم موتاهم، بينما شوى آخرون أحذية الموكاسان الخاصة بهم لتهدئة جوعهم. وقد أعطتني هذه المأساة المريعة فكرة أحد المشاهد الأكثر تسلية في الفيلم. فإذ كنت فريسة جوع رهيب، غليت حذائي وأكلته، ورحت أمص المسامير كما لو كانت عظام طير خصيٍّ لذيذ، وآكل السيور كما لو كانت معكرونة. وفي هذا الهذيان الذي تسبَّب به الجوع، يقتنع رفيقي بأني فروج ويريد أكلي.

هكذا ضَبَطْت على مدى ستة أشهر سلسلة من المتتاليات الهزلية وبدأت أصوِّر من دون سيناريو، لأنه كان يبدو لي أنَّ قصة ستَنْتُج من كل ذلك. ولا شك أني وجدت نفسي مراراً إزاء مأزق، وكان عليّ أن أنحّي العديد من المتتاليات المسلية. كان هنالك بوجه خاص مشهد حب تلقِّن فيه امرأةٌ من الأسكيمو تشارلي كيف يحصل العناق على طريقة الأسكيمو، بأن يفرك كل واحدٍ أنفه على أنف شريكه. وحين ينطلق بحثاً عن الذهب، يفرك أنفه بشغف على أنف الامرأة في وداع حنون. وفيما هو يبتعد، ينظر إلى الوراء، ويضع إصبعه على أنفه ويرسل قبلة أخيرة، ثم يمسح إصبعه بسرواله خِفْيةً، لأنه مصاب بالرشح. لكن جرى إلغاء دور امرأة الأسكيمو لأنه لا يتناسب مع قصة الراقصة الأكثر أهمية.

تزوجت للمرة الثانية، أثناء تصوير **The Gold Rush** (الهجوم على الذهب)، وبما أن لدينا ابنين كبيرين أحبهما كثيراً، لا أريد الدخول في التفاصيل. لقد بقينا متزوجين عامين، وحاولت أن أجعل من زواجنا عملاً ناجحاً، لكن ذلك كان أمراً ميؤوساً منه، وانتهى وسط الكثير من المرارة.

كانت الحفلة الأولى لفيلم **الهجوم على الذهب** في مسرح الستراند في نيويورك، وكنت حاضراً. ومنذ اللحظة التي بدأ فيها الفيلم، مظهراً إياي وأنا أدور بمرح حول هاوية، غير مدرك

أن دباً يتبعني، بدأ الجمهور يطلق الهتافات ويصفق. ووسط الضحك، كان هناك تصفيق متفرق حتى نهاية الفيلم. وقد اقترب مني حيرام أبرامز، مدير مبيعات الفنانين المتحدين، وشدني بين ذراعيه.

ـ تشارلي، أنا أضمن لك أن هذا الفيلم سيؤمن لا أقل من ستة ملايين دولار من الموارد.

وقد كان على حق.

بعد الحفلة الأولى، أصبت بالإغماء. كنت قد نزلت إلى الريتز، ولم يعد في وسعي أن أتنفس. وقد خابرت أحد الأصدقاء بطريقة هستيرية، وقلت له وأنا ألهث:

ـ أنا على وشك الموت، نادِ محاميَّ!

ـ «محاميك! أنت بحاجة إلى طبيب»، قال وهو مصاب بالقلق.

ـ كلا، كلا، محاميَّ، يجب أن أكتب وصيتي.

وفي ذروة القلق، استدعى صديقي الاثنين، لكن بما أن محاميَّ كان في أوروبا، لم يصل غير الطبيب.

وبعد فحص سريع، وجد فقط أن أعصابي متعبة. وقال:

ـ إنها الحرارة. غادر نيويورك واذهب إلى شاطىء المحيط حيث يمكنك أن تحصل على الهدوء وتستنشق هواء البحر.

وبعد نصف ساعة، جرى إرسالي إلى برايتون بيتش. وخلال المسافة، بكيت بلا مبرر. وقد أخذت في الفندق غرفة تطل على البحر وجلست قرب النافذة، مستنشقاً دفقات كبيرة من الهواء. لكن حشداً من الناس سرعان ما تجمَّع أمام الفندق: «تحياتنا يا تشارلي!». «عجباً، هذا تشارلي!»، بحيث اضطررت لمغادرة النافذة كي لا يراني أحد.

فجأة، حدث صوت منكر كما لو كان نباح كلب. كان هناك رجل يغرق، وقد أعاده المنقذون، تحت نافذتي بالضبط، وقدموا له الإسعافات الأولية، لكن الأوان كان قد فات، وتوفي الرجل. وما أن نقلته سيارة الإسعاف، حتى كان رجل آخر يشرع بالنباح. وقد أعادوا هكذا ثلاثة أشخاص جرى إنقاذ اثنين منهم. وقد كنت في حالة من الكآبة القصوى، لذا قررت العودة إلى نيويورك. وبعد يومين، كنت قد تعافيت كفاية بحيث عدت إلى كاليفورنيا.

الفصل العشرون

بعد عودتي إلى بيفرلي هيلز، دعيت للتعرف إلى جرترود ستاين لدى أحد أصدقـائي. وحين وصلت، كانت الآنسة ستاين متبوِّئةً أحد المقاعد وسط الصالون، مرتدية ثياباً داكنة، مع ياقة مخرَّمة بالدانتيلا، وكانت يداها على ركبتيها. كانت تشبه مدام رولين بريشة ڤان غوغ، غير أنه بدلاً من الكُعَيْكة ذات اللون الأحمر كان شعر جرترود كستنائياً قصيراً.

كان المدعوون واقفين، ويشكلون دائرة حولها من على مسافة تدل على الاحترام. وقد همست إحدى سيدات الشرف شيئاً ما، ثم اقتربت مني:

ـ تود الآنسة جرترود ستاين التعرف إليك.

فقفزت إلى الأمام. لم يكن ممكناً على الإطلاق الثرثرة في تلك اللحظة، لأن أناساً آخرين كانوا يصلون وينتظرون تقديمهم.

على الغداء، جعلت سيدة الدار مقعدي بمحاذاتها، ولم أعد أعرف كيف شرعنا نتحدث في شؤون الفن، وأظن أن ذلك حدث لكوني أُعجبت بالمشهد كما كان يظهر من نافذة غرفة الطعام.

لكن جرترود ستاين لم تكن تشاركني حماسي، وقالت:

ـ الطبيعة عادية، والمحاكاة أكثر إثارة للاهتمام.

وقد راحت تفصِّل هذه الأطروحة، معلنة أن المرمر الزائف أجمل من المرمر الحقيقي، وأن غروب شمس لتورنر أروع من أي سماء حقيقية. وعلى الرغم من الجانب الغريب بعض الشيء في هذه الأقوال، فقد كنت أوافق بتهذيب.

واندفعت بعد ذلك تتحدث عن تصورها بخصوص الحبكة في السينما:

ـ إنها محشوّة دائماً بالكليشيهات، وكثيرة التعقيد، وغير مقنعة.

قـالت إنه كان بودها أن تراني في فيلم وأنا أصعد من جديد في أحد الشوارع، ثم ألفُّ كوعاً، فكوعاً آخر، فكوعاً ثالثاً أيضاً. وقد كنت على وشك أن أقـول لها: إن فكـرتها تفسيـر لجملتهـا الشهيرة: «وردة هي وردة هي وردة». لكن لا أدري أي غـريزة منعتني من ذلك.

كان الغذاء موضوعاً على غطاء من دانتيلا بروج، الأمر الذي دفع الضيوف لإطلاق هتافات الإعجاب والدهشة. وخلال حديثنا، قُدمت القهوة في فناجين من البرنيق الصيني خفيفة جداً، وكان فنجاني قريباً للغاية من كمّي بحيث إنني حين حرّكت يدي قليلاً قلَبْتُ قهوتي على الغطاء. وقد تضايقت إلى أبعد الحدود! وفي حين كنت أقدم اعتذاري لمضيفتنا، فعلت جرترود الشيء نفسه، وقلبت قهوتها هي الأخرى. وقد أراحني ذلك قليلاً، لأني لم أعد لوحدي في مثل ذلك الوضع المربكِ. لكن جرترود لم تكن لتدع نفسها تضطرب من أجل موضوع بتلك التفاهة، وقالت:

ــ لا بأس، فأنا لم ألوِّث فستاني.

جاء جون مانسفيلد لزيارة الستوديو. كان رجلاً وسيماً، طويل القامة وَدوداً، ومحبَّباً ومتفهِّماً. لكن لأسباب غير مفهومة، كانت كل تلك الصِّفات تُخْجلني. ولحسن الحظ، كنت قد قرأت **The Window in the Bye Street** الذي كان يثير إعجابي. لذا لم أبق صامتاً وتلوت بعضاً من أبياتي المفضَّلة:

«There was a group outside the prison gate,
Waiting to hear them ring the passing bell,
Waiting as empty people always wait,
For the strong toxic of an other's hell».

«كان ثمة حشد أمام باب السجن
ينتظرون سماع جرس المرور يرن
ينتظرون كما يفعل الناس الفارغون دائماً
ذلك السمَّ القويَّ لجحيم الآخرين».

خلال تصوير فيلم **الهجوم على الذهب**، تلقيت مخابرة من إيلينور غلين: «عزيزي تشارلي، يجب أن تتعرف حتماً على ماريون دايفيس، فهي رائعة حقاً وسوف يسرها جداً أن تتعرف إليك. لذا أدعوك للعشاء معنا في فندق أمباسادور وللمجيء بعد ذلك معنا إلى باسادينا لرؤية فيلمك **The Idle Class**(*)».

لم أكن قد التقيت ماريون قبل ذلك، لكنني كنت أعرف الدعاوة المذهلة التي كانت تدور حول اسمها. كانت تعرض نفسها في كل الصحف والمجلات الخاصة بصحافة هورست، وتصدمك في وجهك مباشرةً إلى حد إثارة الاشمئزاز. وكان أمراً فاحشاً جداً أن يكون اسم ماريون دايفيس مَثاراً لنكات لا تحصى ولا تعد. هاكم مثلاً ملاحظة بياتريس ليلي حين أروها أضواء لوس أنجلس. لقد قالت: «هذا رائع. وأنا أتخيل أن كل ذلك سيذوب في ما بعد لنقرأ «ماريون دايفيس»! لم يكن يمكن فتح جريدة أو مجلة لصحافة هورست من دون العثور على صورة كبيرة لماريون دايفيس. ولم يكن ذلك ينجح إلا في إبعاد الجمهور عن شبابيك تذاكر السينمات.

(*) كان عنوان هذا الفيلم في نسخته الفرنسية **شارلو والقناع الحديدي** (م).

لكن ذات مساء، كنا لدى آل فيربانكس وعُرض فيلم ماريون دايفيس When Knigthood was in Flower. وقد كانت دهشتي عظيمة حين بدت فيه ممثلة ممتازة، مليئة بالسحر والفتنة، وكان بإمكانها أن تبدو نجمة حقيقية من دون كل الدعاوة الكاسحة لمؤسسة هورست. وقد وجدتها بسيطة وفاتنة في عشاء إيلينور غلين، وكانت تلك بداية صداقة كبيرة.

إن العلاقة بين هورست وماريون تنتمي إلى الأسطورة، في الولايات المتحدة كما في العالم أجمع. ولقد دامت أكثر من ثلاثين عاماً، وحتى وفاة هورست.

وإذا سُئلت أي شخص ترك في نفسي خلال حياتي أعمق الأثر لقلت: إنه المرحوم وليم راندولف هورست. سوف أوضح أن العلاقات معه لم تكن دائماً لطيفة، مع أنه كان يتمتع بصفات مرموقة. فاللغز المحيط بشخصه هو الذي كان يثيرني، وفتوّةُ طبعه، وفطنته، وطيبته، وفظاظته، وسلطته وثروته الهائلتان، وخصوصاً صدقه غير المموَّه: إنه الرجل الأكثر حرية الذي حدث أن تعرفت إليه. كانت امبراطوريته أسطورية ومتنوعة، تضم مئات المنشورات، ومصالح ضخمة في قضايا عقارية في نيويورك، وفي مناجم وأراض واسعة في المكسيك. وقد قال لي سكرتيره ذات يوم إن مشاريع هورست بقيمة ٤٠٠ مليون دولار تقريباً، وقد كان ذلك أمراً مهماً في تلك الفترة.

إن الآراء تتباين بشأن هورست. فالبعض يؤكدون أنه كان وطنياً أميركياً صادقاً، بينما يقول آخرون إنه كان انتهازياً لا يهتم إلا بعدد نسخ الصحف، وبتزايد ثروته. لكنه كان في شبابه مغامراً وليبرالياً. من جهة أخرى، كان دفتر شيكات الوالد في متناول يده دائماً. ويقال إن المتموِّل راسل سادج التقى فوب هورست، والدة هورست، في الجادة الخامسة، فقال لها:

ـ إذا ظل ابنك يهاجم وول ستريت، سوف تخسر صحيفته مليون دولار سنوياً.

ـ بهذه الوتيرة، يمكنه يا سيد سادج أن يصمد ثمانين عاماً إضافية.

في المرة الأولى التي التقيت فيها هورست، اقترفت هفوة، فلقد اصطحبني سايم سيلفرمان، رئيس تحرير **Variety** ومديرها، إلى الغداء في الشقة التي يملكها هورست على الريفرسايد درايف. كانت المسكن الكلاسيكي لرجل غني، شقةٌ على طابقين، مع لوحات رسامين كبار، وسقوف عالية، وجدران ملبَّسة بالأكاجو، وواجهات مليئة بقطع البورسلين الثمينة. وقد قدموني لأسرة هورست، ثم جلسنا جميعاً إلى المائدة.

كانت السيدة هورست امرأة فاتنة تتصرف بطريقة ناعمة وتعرف كيف تجعلك تشعر بالارتياح. أما هورست فكان يحملق بي ويتركني أتكلم. قلت:

ـ أول مرة رأيتك فيها، يا سيد هورست، كان ذلك في مطعم الفنون الجميلة، مع سيدتين. وقد دلّني عليك أحد الأصدقاء.

وأحسست في تلك اللحظة بضغط على قدمي، تحت الطاولة، فافترضت أن الفاعل لا بد أن يكون سايم سيلفرمان.

ـ «أوه!» قال هورست متسلياً.

ورحت أغمغم، بسذاجة:

ـ في كل حال، إذا لم يكن أنت، فقد كان شخصاً يشبهك كثيراً. . . وبالتأكيد، لم يكن صديقي متأكداً تماماً.

ـ آه! قال هورست، وعيناه تبرقان، إنه لأمر ملائم جداً أن يكون للمرء صِنْوُه.

ـ «أجل!»، قلت ضاحكاً ربما بصورة مبالغ بها.

وهنا أنجدتني السيدة هورست، فرددت وهي تبتسم:

ـ في الواقع، إن هذا ملائم تماماً.

وأخيراً، مرت الأشياء من دون صعوبة، وانتهى الغداء جيداً.

لقد جاءت ماريون دايفيس إلى هوليوود لتكون نجمة كوسموبوليتان برود اكشنز، التي كان يملكها هورست. وقد استأجرت بيتاً في بيفرلي هيلز، وجاء هورست إلى مياه كاليفورنيا بيخته البالغ طوله ٨٥ متراً، والذي عبر به قناة باناما، ومُذاك عاشت أوساط السينما في كاليفورنيا حياة ألف ليلة وليلة. فمرتين أو ثلاث مرات، في الأسبوع، كانت تقيم ماريون مآدب عشاء باذخة يصل عدد المدعوين إليها أحياناً إلى المئة، كانوا خليطاً من الممثلين والممثلات، والشيوخ، ولاعبي البولو، وغلمان المجلات، وكبار القوم الأجانب، فضلاً عن مساعدين لهورست ومتعاونين معه. وكان يسيطر على تلك الأمسيات جو مثير للفضول يجمع بين التوتر والطيش، لأنه لم يكن في وسع أحد أن يتوقع أي مزاج سيكون مزاج هورست القدير، وكان الناس يحكمون بواسطة هذا البارومتر بالذات إذا كان الاستقبال ناجحاً أو غير ناجح.

أذكر حادثة على عشاء أقامته ماريون في البيت الذي كانت قد استأجرته. كنا حوالي الخمسين وقوفاً في حين كان هورست جالساً بصمت في مقعد ذي مسندٍ عالٍ يحيط به معاونوه. أما ماريون، المرتدية فستاناً على طريقة مدام ريكامييه، والمتمددة على أريكة، فكانت رائعة الجمال، لكنها كانت تزداد صمتاً بمقدار ما يواصل هورست مناورته. وفجأة، صرخت بغضب واستنكار:

ـ أنت، هناك!

فرفع هورست نظره وقال:

ـ تخاطبينني أنا؟

ـ «أجل، بالضبط! تعال إلى هنا!»، أجابت وهي تحدِّق فيه بعينيها الكبيرتين الزرقاوين.

فابتعد معاونو هورست وصمت الجميع.

بقي هورست جالساً كأبي الهول، وقد تصلبت نظراته، وبات أكثر عبوساً، وتشنجت شفتاه بحيث باتتا لا أكثر من خط دقيق، فيما كانت أصابعه تنقر بعصبيةٍ ذراع مقعده الذي يشبه العرش، وهو لا يعرف إذا كان عليه أن يغضب أو يبقى هادئاً. وقد شعرتُ بالرغبة في أن أطلب

ثيابي. لكنه نهض فجأة وقال وهو يتقدم بتثاقل نحوها:

ــ حسناً، أعتقد أن عليَّ المجيء. وماذا تريد سيدتي المبجَّلة؟

فقالت ماريون بلهجة الازدراء:

ــ صرِّف أعمالك في المدينة، فضيوفي ليس لديهم ما يشربونه، وعليك المسارعة إلى خدمتهم.

ــ «حسناً، حسناً»، قال وهو يبتعد بخطى مهرِّج إلى المطبخ، فيما ابتسم الجميع وهم يتنفسون الصعداء.

كنت ذاهباً ذات يوم من لوس أنجلس إلى نيويورك بالقطار، لأجل قضية ملحّة لم أعد أذكرها، فتلقيت برقية من هورست يدعوني فيها لمرافقته إلى المكسيك. فأبرقت إليه مجيباً بأني متأسف، إذ لديّ أعمال يجب أن أقوم بها في نيويورك، إلا أن رسولين من عند هورست تقدما مني في كانساس سيتي، وقالا وهما يبتسمان: «جئنا نخطفك من القطار»، ثم أوضحا لي أن السيد هورست سيكلف محاميه في نيويورك بأن يهتمُّوا بقضاياي. لكنني لم أكن قادراً على الموافقة.

لم أر يوماً أحداً يوزِّع المال حوله بالطريقة اللامبالية التي يفعل بها هورست ذلك. فروكفلر كان يشعر بعبء المال الأخلاقي، وكان پيرپونت مورغان يعي السلطة التي يمثلها، لكن هورست كان ينفق ملايين الدولارات بطريقة لاهية كما لو كان ذلك مصروف الجيب.

كانت ڤيلا سانتا مونيكا التي قدمها لماريون قصراً بناه على الرمل ـ انظروا الرمز ـ صُنّاعٌ جرى استقدامهم من إيطاليا، بناءً من النموذج الجورجي مؤلفاً من سبعين غرفة، عرضه تسعون متراً وعلوه ثلاثة طوابق، مع قاعة رقص مذهّبة مثل قاعة الطعام. كانت هناك في كل مكان لوحات لرينولدز ولورنس، ولوحات أخرى لرسّامين كبار، بعضها مزيّف. وفي المكتبة الواسعة الملبَّسة بخشب السنديان، كان مجرد الضغط على زر يؤدي إلى ارتفاع جزء من أرض القاعة ليصبح شاشة سينما.

كان يمكن قاعة الطعام في بيت ماريون أن تستقبل بسهولة خمسين مدعواً. وكان في وسع العديد من الشقق الباذخة أن تتيح إقامة عشرين شخصاً على الأقل. وكان في حديقة تواجه المحيط مسبح من المرمر الإيطالي طوله أكثر من ثلاثين متراً، يعلوه في الوسط جسر بندقاني من المرمر. وبجانب المسبح، كان يوجد بار مع حلبة رقص صغيرة.

كانت سلطات سانتا مونيكا تريد بناء ميناء للمراكب الصغيرة وسفن النزهة، وهو مشروع كانت تدعمه مجلة تايمز الخاصة بلوس أنجلس. وبما أنني كنت أملك يختاً صغيراً، بدت لي تلك فكرة جيدة وفاتحت هورست بالأمر ذات صباح على الفطور. فقال باستنكار:

ــ قد يسيء إلى الأخلاق في كل المنطقة أن يكون هنالك بحّارة ينظرون بطرف أعينهم من النوافذ، كما لو كان ذلك ماخوراً!

وطُوي الموضوع.

كان هورست طبيعياً بصورة ملفتة للنظر. فإذا كان ذا مزاج جيد، كان يؤدي خطوة الشارلستون المفضلة بالنسبة إليه بارتباكٍ ساحر، ساخراً مما قد يفكر الناس بشأنه. كان أبعد ما يكون عن التكلف، لذا لم يكن مدفوعاً إلا بما يثير اهتمامه. لقد كان يعطيني انطباعاً بأنه رجل مضجر، وربما كانت تلك حاله، لكنه لم يكن يبذل أي جهد للظهور خلاف ذلك. كان الكثيرون يظنون أن الافتتاحيات اليومية التي تحمل توقيع هورست إنما يكتبها أرثر بريسبان، لكن بريسبان ذاته أكد لي أن هورست كان كاتب الافتتاحيات الأكثر براعة في الولايات المتحدة.

كان أحياناً صبيانياً بصورة مدهشة، تثور أعصابه لأسباب تافهة. وأنا أذكر أنه تذمر ذات مساء، فيما كنا نختار شركاءنا للعب بالحزازير، لأننا تجاهلناه.

ــ «حسناً!»، قال جاك جيلبرت مازحاً، سوف نصنع حزورةً أناوأنت بشأن كلمة «علبة أقراص»: سوف أكون أنا العلبة وأنت القرص.

لكن و. ر. أخذ الموضوع على محمل سيىء. وقال بصوت مرتجف وهو يخرج ويصفق الباب خلفه:

ــ أنا لا شأن لي مع حزازيركم القذرة.

كانت مساحة المزرعة التي يملكها هورست في سان سيميون ١٦٠ ألف هكتار، وتمتد على ساحل المحيط الهادىء بطول خمسين كيلومتراً. وكانت المباني السكنية تقوم على هضبة مثل قلعة، على ارتفاع ١٥٠ متراً فوق مستوى البحر وعلى بعد ستة كلم عن المحيط. وكان القصر الرئيسي قد بني انطلاقاً من عدة مساكن جرى إرسالها في صندوق من أوروبا. وكانت الواجهة تشبه كاتدرائية رايمز وشاليه سويسرية عملاقة في الوقت ذاته. وكانت تحيط به خمس ڤيلات إيطالية كما لو كانت مراكز متقدمة، مبنية على حافة الهضبة، ويقيم في كلٍّ منها ستة مدعوين. كانت مؤثثة بالطريقة الإيطالية، مع سقوف باروكية تنظر إليك من عليائها ملائكة الساروفيم والكاروبيم المنحوتة، وهي تبتسم. وكانت في القصر الكبير غرف لثلاثين ضيفاً آخر. أما صالة الاستقبال فكانت بطول ثلاثين متراً تقريباً وكانت مفروشة بأغطية الزينة من طراز غوبلين، بعضها أصلي والآخر مزيف. وفي جو الأسياد هذا، كنت تجد طاولات جاكت وطاولات بليار كهربائية في كلا طرفي القاعة، وكانت قاعة الطعام صورة مصغرة عن دير وستمنستر، وتستقبل بسهولة ثمانين مدعواً. وكان هنالك ستون خادماً.

وغير بعيد عن القصر، كانت توجد حديقة حيوانات تضم أسوداً، ونموراً، ودببةً وسعادين، وسعلايات (أوران ـ أوتان)، وطيوراً وزحافات. ومن الحاجز المشبَّك على المدخل، وصولاً إلى القصر، يمتد ممر طوله ثمانية كيلومترات مزروع بلافتات كتب عليها: «الأولوية للحيوانات». كنت تنتظر إذاً في سيارتك في حين يكون زوج زرافات يتردد في

العبور. كانت شياه، وأيائل، وعلندات، وجواميس تجول في المزرعة، وكيفما تحركت تجد منها على طريقك.

كانت سيارات تنتظر المدعوين في المحطة، وإذا تم المجيء بالطيارة، كان هناك مهبط صغير خاص للطيارات: وإذا وصلتَ بين وجبتين يقودونك إلى شقتك موضحين أن العشاء في الثامنة مساء، وأنه ستقدَّم كوكتيلات في الرواق الكبير بدءاً من الساعة السابعة والنصف.

ولأجل التسلية، كان يمكن السباحة، أو ركوب الخيل، أو لعب التنس، أو أي نوع آخر من الألعاب، أو زيارة حديقة الحيوانات. وكان هورست يفرض قاعدة مطلقة يمنع بموجبها شرب كوكتيل قبل السادسة مساء. لكن ماريون كانت تجمع أصدقاء في شقتها حيث يجري تناول الكحول خلسة.

كانت مآدب العشاء باذخة. فقائمة الطعام تشبه تلك التي كانت تقدّم في مأدبة في ظل الملك شارل الأول. فلقد كانت هناك طرائد وفقاً للفصول: تدرج، بط بري، حجل، شحم الأيّل. لكن وسط كل هذا الرخاء، كانوا يقدمون لنا محارم ورق، ولم يكن يحق للمدعوين أن يحصلوا على فوَط مائدة حقيقية إلا حين يكون السيد هورست موجوداً.

كانت السيدة هورست تذهب كل عام إلى سان سيميون، ولم يكن ذلك يتسبب بأي نزاع فلقد كانت ماريون والسيدة هورست تعيشان حالة تعايش سلمي، وحين كان يقترب أوان مجيء السيدة هورست، كنا نختفي جميعاً وماريون معنا، أو ننطلق إلى ڤيلا ماريون في سانتا مونيكا. كنت أعرف ميليسنت هورست منذ عام ١٩١٦، وكنا صديقين حميمين، لذا كان في وسعي الدخول إلى كلا المنزلين. وحين كانت تقيم في المزرعة مع أصدقائها من مجتمع سان فرانسيسكو الراقي، كانت تدعوني للويك ـ إند، وكنت أظهر كما لو كنت أقوم بالزيارة الأولى خلال الفصل. بيد أن ميليسنت لم تكن تنخدع، ومع أنها كانت تتظاهر بعدم معرفة شيء عن النزوح الحديث، فقد كانت تشير إليه بالكثير من الدعابة، قائلة: «إذا لم تكن ماريون، لا بد أن يكون ثمة شخص آخر». وكانت تحدثني غالباً، بلهجة من يستودعك أسراره، عن العلاقات بين ماريون و و. ر.، لكن دائماً من دون مرارة. «إنه يستمر في التصرف كما لو أن شيئاً لم يحدث يوماً بيننا، وكما لو لم تكن ماريون موجودة. فحين أصل، يكون دائماً ودوداً ولطيفاً، لكنه لا يبقى أبداً أكثر من عدة ساعات. ويتكرر المشهد ذاته على الدوام، إذ أثناء العشاء يسلِّمه رئيس الخدم بطاقة فيعتذر في تلك اللحظة ويغادر المائدة. وحين يعود يتحدث بلهجة مرتبكة عن قضية ملحة تستدعي حضوره العاجل إلى لوس أنجلس، ونتظاهر جميعاً بتصديقه، بينما نكون عارفين، بلا ريب، بأنه ذاهب للانضمام إلى ماريون».

ذات مساء، بعد العشاء، رافقتُ ميليسنت في نزهة إلى الحديقة. كان القصر مغموراً بضوء القمر وكان له مظهر غريب خلّاب في الديكور الخيالي للقمم الجبلية السبع المحيطة به. وكانت النجوم تلمع كمسامير في سماء صافية جداً. وقد بقينا لبعض الوقت نبدي إعجابنا بهذه البانوراما الرائعة. وكنا بين الحين والآخر نسمع زئير أسد يأتي من حديقة الحيوانات، أو

عواء أوران ـ أوتان ضخم يدوّي ويتصادى في القمم. كان ذلك غريباً ومخيفاً، لأنه كل مساء، مع غروب الشمس، كان الأوران ـ أوتان يبدأ بالاضطراب، بصورة صامتة في البدء، ثم يشرع في إطلاق تلك الصيحات المريعة التي كانت تستمر طيلة الليل.

قلت:

ــ لا بد أن يكون هذا الحيوان مجنوناً.

ــ «كل شيء هنا مجنون. أُنظر!»، قالت وهي تتطلع إلى القصر. إنه إبداع أوتو المجنون... وسوف يواصل البناء وإضافة التفاصيل حتى وفاته. ماذا ستكون الفائدة عندئذ من هذا القصر؟ لا أحد يملك الإمكانات الضرورية للإنفاق عليه. فكفندق، يستحيل استخدامه، وإذا أوصى به للدولة، أشك في أن يكون بالإمكان الاستفادة منه في غرض من الأغراض... حتى بصفة جامعة.

كانت ميليسنت تتحدث دائماً عن هورست بلهجة الأم، وهو الأمر الذي سمح لي بالاعتقاد أنها لا تزال متعلقة به. كانت امرأة طيبة ومتفهمة، لكن في ما بعد، حين بت غير مرغوب بي سياسياً، راحت تتجاهلني.

وصلت ذات مساء إلى سان سيميون لقضاء نهاية الأسبوع، فاستقبلتني ماريون عصبيةً ومثارة. لقد تعرض أحد مدعويها لاعتداء بموسى الحلاقة فيما كان يجتاز المنتزه. وفي كل مرة كانت تثور فيها أعصاب ماريون، كانت تتأتىء، فيضيف ذلك فتنة إلى فتنتها ويضفي عليها طابع سيدة في شِدَّة:

ــ لا. نـ ـنـ ـ نعرف بعـ ـ عد من فعل ذلك. لكن لدى و. ر. عدة رجال تحرٍّ يفتشون المزرعة، ونحن نحاول إخفاء الخبر عن باقي المدعوين. والبعض يعتقدون أن المعتدي فيليبيني، لذا أبعد و. ر. عن المزرعة كل الفيليبينيين، بانتظار نتائج التحقيق.

وسألتها:

ــ من الذي تعرض للهجوم؟

ــ ستراه هذا المساء على العشاء.

على العشاء، وجدتني جالساً مقابل شاب لُفَّ وجهه بالضمادات، ولم يكن في وسعي أن أرى غير عينيه اللامعتين وأسنانه البيضاء التي كانت تكشفها ابتسامة دائمة.

ركلتني ماريون ركلة صغيرة من تحت الطاولة وهمسَتْ:

ــ هذا هو.

لم يكن يبدو عليه أيُّ تأثر بسبب حادثته المزعجة وتعشى بشهية. وكان يكتفي بهز كتفيه مبتسماً، رداً على الأسئلة التي كانت تلقي عليه.

بعد الأكل، دلتني ماريون أين حصل الاعتداء، قائلة وهي تشير إلى نسخة من المرمر لانتصار ساموتراس:

ـ حصل ذلك خلف هذا التمثال. هاك آثار الدم.

فسألتها:

ـ ماذا كان يفعل خلف التمثال؟

أجابت:

ـ كان يحاول الهـ ـ ـهـ ـ ـرب من المعـ ـ ـعتدي.

فجأة خرج الرجل من الظلمة، ومر متعثراً، ووجهه يقطر دماً. فأطلقت ماريون صيحة وقفزتُ قرابة متر. وفي الحال وصل عشرون رجلاً من أمكنة مجهولة وأحاطوا به. فقال وهو يئن:

ـ لقد تعرضت لهجوم جديد.

وهنا سنده تحرِّيان، وأُخذ إلى غرفته حيث جرى استجوابه. واختفت ماريون لأعود فأراها في الرّواق الكبير بعد ساعة.

ـ «ماذا حدث؟» سألتها.

فقالت متشككة:

ـ يقولون إنه فعلها بنفسه. هو شاذ يرغب في لفت الانتباه.

ومن دون أي محاكمة، جرى تسفير الشاب غريب الأطوار في المساء ذاته واستأنف الفيليبينيون المساكين عملهم منذ الصباح التالي.

غالباً ما كان السير توماس ليبتون ضيف ماريون في سان سيميون وفي سانتا مونيكا. كان اسكوتلندياً ساحراً كبيراً في السن، لا يتوقف عن الكلام، مع نبرة لذيذة. وكان يستعيد ذكرياته بلا انقطاع. وقد قال لي:

ـ تشارلي، لقد جئت إلى أميركا ونجحت... وأنا أيضاً. في المرة الأولى، وصلت على ظهر سفينة شحن تنقل المواشي، وقلت في نفسي: «في المرة القادمة، سأصل على متن يختي الشخصي». وهذا هو ما حصل.

وراح يتذمر من أنهم سرقوا منه ملايين الليرات في قضية الشاي الخاصة به. وغالباً ما كنت أتعشى مع الكسندرمور، سفير بريطانيا في أسبانيا، والسير توماس ليبتون، في لوس أنجلس. وكان الكس والسير توماس يرويان ذكرياتهما، ويترك كل منهما، بدوره، اسم مملكة يسقط كما لو كان عقب سيجارة، بحيث كان يتولد لديّ انطباع بأن الأشخاص الملكيين يتلفظون دائماً بالأهاجي.

في تلك الفترة، كنت أرى هورست، وماريون كثيراً، لأنني كنت أحب الحياة المجنونة التي يعيشانها، وبما أني كنت أدعى دائماً لإمضاء نهاية الأسبوع في ڤيلا ماريون، كنت أستنح الفرصة في أغلب الأحيان، لا سيما أن دوغ وماري كانا في أوروبا. وذات صباح، فيما كنت وأشخاصاً آخرين نتناول الفطور مع ماريون، سألتني عن رأيي في مخطوطتها السينمائية، لكن

كلامي لم يعجب و. ر. لقد كانت موضوعة السيناريو هي النسوية، وأكدتُ أن النساء هن اللواتي يخترن شركاءهن بينما ليس للرجال دور كبير في هذا الموضوع.

لم يكن و. ر. من هذا الرأي، وقال:

ــ آه! كلا، فالرجل هو الذي يختار دائماً.

ــ إننا نظن ذلك، أجبت، لكن شخصاً صغيراً يدل بإصبعه عليك وهو يقول: «هذا هو الشخص الذي أريده»، وهذا ما يحصل.

ــ أنت على خطأ مبين، قال هورست بثقة.

فواصلت كلامي قائلاً:

ــ المشكلة أن تقنيتهن مموّهة إلى حد أنهن يجعلننانصدِّق أننا نحن الذين نختار.

فضرب هورست فجأة بقبضته على الطاولة، هازاً بعنف كل أدوات المائدة الخاصة بالفطور، وصرخ:

ــ عندما أقول أبيض، تقول أنت أسود!

أظن أني شحبت قليلاً. كان رئيس الخدم يصب لي الشاي، فرفعت رأسي وقلت:

ــ أرجو أن تأمر بحزم حقائبي واستدعاء تاكسي لي.

ثم نهضت من دون أن أنبس بكلمة، وانتقلت إلى قاعة الرقص، حيث شرعت أروح وأجيء، أخرس من الغضب.

ولم تمر لحظات حتى كانت ماريون بقربي:

ــ ما الذي يحصل، يا تشارلي؟

فقلت بصوت مرتجف:

ــ ليس لأحد الحق بأن يكلمني بهذه اللهجة. من يظن نفسه؟ نيرون؟ نابوليون؟

ومن دون أن تجيب عادت على أعقابها، وخرجت من القاعة مسرعة. ولم تمر لحظة حتى كان و. ر. يصل كما لو أن شيئاً لم يكن.

ــ هيا، يا تشارلي، ماذا دهاك؟

ــ لست معتاداً أن أُخاطَب بهذه الطريقة، لا سيما حين أكون ضيفاً. لذا أنا ذاهب. أنا. . . .

واختنق صوتي ولم أتمكن من إنهاء الجملة. ففكر و. ر. بضع لحظات، ثم شرع يروح ويجيء في القاعة، بدوره.

ــ «فلنتناقش قليلاً»، قال بصوت مرتجف قليلاً هو الآخر.

فلحقت به إلى زاوية كان فيها مقعد صغير من طراز شيبندال. كان طول هورست متراً وتسعين سم وكان قوياً، فجلس وأشار إلى المكان الصغير الباقي:

ـ إجلس، يا تشارلي، ولنتفاهم.

فجلست قربه، لكني كنت محصوراً بصورة قاسية. وفجأة مد لي يده بصمت، ومع أني كنت مضغوطاً بتلك الطريقة، تمكنت من الشد عليها. ثم راح يشرح لي بصوت لم ينفك متردداً:

ـ أنت تفهم، يا تشارلي، أني حقاً لا يهمني أن تمثل ماريون هذا الفيلم. لكنها تحترم رأيك، وحين تقول إنك تجده جيداً... في الحقيقة هذا هو السبب الذي دفعني لأكون جافاً معك بعض الشيء.

وفي الحال، ذاب الجليد في ما بيننا، ورحت أطيِّب خاطره، قائلاً: إني أنا المخطىء. ولختم حديثنا نجحنا مرة أخرى في مصافحة أحدنا الآخر، ثم حاولنا أن ننهض، لكننا كنا مضغوطين في المقعد الذي بدأ يطلق أصواتاً مشؤومة. وبعد محاولات عديدة غير مجدية، تحررنا أخيراً، وبقي المقعد سليماً.

ويبدو أن ماريون ذهبت إلى هورست، بعد رحيلي، ووبخته بقسوة آخذةً عليه فظاظته، وقالت له: إن عليه أن يعتذر لي. كانت ماريون تعرف اختيار اللحظة المناسبة، مثلما تعرف متى يكون عليها ألا تقول شيئاً، كما يحدث لها أحياناً.

كانت تقول ماريون:

ـ حين يكون مزاجه سيئاً، تهب العاصفة فـ ـ ـفجأةً كـ ـ كإعصار.

كانت ماريون مرحة وفاتنة، وحين كانت أعمال و. ر. تدعوها إلى نيويورك، كانت تجمع كل أصدقائها في بيتها في بيفرلي هيلز (كان ذلك قبل بناء فيلا سانتا مونيكا) وكنا نمضي أمسيات وليالي ونحن نلهو ونلعب بالحزازير حتى الفجر. ثم كان رودولف فالانتينو يفعل الشيء نفسه في بيته، ونمضي بعد ذلك إلى بيتي. وأحياناً كنا نستأجر عربة عامة نكدس فيها مؤناً، ونتعاقد مع عازف أرمونيكا ثم نمضي عشرة أو عشرين إلى شاطىء ماليبو حيث نوقد ناراً ونتحلق حولها عند منتصف الليل، فيما نصطاد الغرونيون.

كانت لويلا بارسونز، ثرثارة هوليوود، موجودة دائماً، ومعها هاري كروكر الذي بات في الأخير أحد مساعديّ في الإخراج. وبعد هكذا غزوات لم نكن نعود قبل الرابعة أو الخامسة صباحاً. كانت ماريون تقول للويلا:

ـ إذا عرف و. ر. بهذا الأمر، سوف تخسر إحدانا مكانتها، ولـ ـلن أكون أنا الخـ ـخاسرة.

خلال عشاءٍ مرِح لدى ماريون، تلفن و. ر. من نيويورك. وحين عادت ماريون، كانت غاضبة، وصرخت متعجبةً:

ـ أتعرفون؟! و. ر. كلَّف من يقوم بمراقبتي!

لقد قرأ لها على الهاتف تقرير جاسوس يروي كل ما فعلته مذ غادر هورست، موضحاً أنها

تركت بيت أ. في الرابعة صباحاً، وبيت ب. في الخامسة، وهكذا دواليك. وأوضحت لي في، ما بعد أنه عائد فوراً إلى لوس أنجلس لتصفية أموره معها وأنهما سيقطعان العلاقة في ما بينهما. وبالطبع كانت ماريون غاضبة، لأنها لم تفعل أكثر من الذهاب للتسلية مع أصدقاء. كان تقرير المخبر دقيقاً على صعيد الوقائع، لكنه كان مشوّهاً بحيث يعطي انطباعاً سيئاً. وقد أبرق و. ر. من كانساس سيتي: «غيّرت رأيي ولن أعود إلى كاليفورنيا لأني سعدتُ هناك كثيراً في الماضي، لذا أنا عائد إلى نيويورك». لكن بعد قليل أرسل برقية جديدة يعلن فيها وصوله إلى لوس أنجلس.

كانت لحظة توتر شديد بالنسبة لكل المعنيين حين عاد و. ر.، لكن كان للقائه مع ماريون أثر ملائم، لأن كل شيء انتهى بمأدبة هائلة للاحتفال بعودة و. ر. إلى بيفرلي هيلز. وقد أقامت ماريون قاعة طعام مؤقتة أمام منزلها لاستقبال ١٦٠ مدعواً، وجرى ترتيب كل ذلك في مهلة يومين: الديكور، التوصيلات الكهربائية، وحتى بناء حلبة رقص. في ذلك المساء، ظهرت وفي أصبعها زمردة ثمنها ٧٥ ألف دولار، قدّمها لها و. ر.، ونقول في طريقنا إن أحداً لم يفقد مكانته.

ولأجل التغيير وعدم الاقتصار على سان سيميون وسانتا مونيكا، كنا بين الحين والآخر نمضي نهاية الأسبوع على يخت هورست، فنصل إلى كاتالينا أو نذهب نحو الجنوب وصولاً إلى سان دييغو. وخلال إحدى تلك الرحلات البحرية، جرى إنزال توماس هـ. إينس، الذي تسلّم إدارة الكوسمو بوليتان فيلم برود اكشنز، في سان دييغو. لم أكن من المشتركين في تلك الرحلة، لكن إيلينور غلين، التي كانت ضمنها، قالت لي: إن إينس بدا مرحاً وجيد المزاج، لكن خلال الغداء، أصيب فجأة بآلام شلّته وأرغمته على مغادرة المائدة. وقد تصوّر الجميع أن الأمر ناتج من سوء هضم، لكنه بدأ شديد المرض إلى حد أنهم وجدوا من الأفضل إنزاله إلى البر وإدخاله المستشفى. وقد تبيَّن عندئذ أنه أصيب بنوبة قلبية. وقد جرت إعادته إلى بيته في بيفرلي هيلز حيث أودت بحياته نوبة ثانية أصابته بعد ثلاثة أسابيع.

هذا وقد شاعت أخبار قبيحة: قيل إن إينس أصيب برصاصة، وإن هورست لم يكن بريئاً تماماً من الموضوع. لكن تلك الإشاعات كانت عارية تماماً من الصحة. وأنا أعرف ذلك، لأن هورست وماريون وأنا عدنا إينس في بيته قبل وفاته بأسبوعين، وكان سعيداً برؤيتنا نحن الثلاثة ومقتنعاً بأنه سيشفى عما قريب.

لقد زلزل موت إينس خطط كوسمو بوليتان بروداكشنز، التي اشتراها من جديد وارنر إخوان. لكن في غضون عامين، استعادت متروغولدين ماير البرود اكشنز هورست، وكان بنغلٌ أنيقٌ فيها يقوم مقام مقصورة لماريون، وكنت أسمّيه التريانون.

كان هورست يرتِّب من هناك معظم أموره الصحفية. ولقد رأيته مراراً جالساً وسط صالون ماريون، مع عشرين جريدة مبسوطة على الأرض. وكان يتصفح من مقعده المانشيتات المتنوعة.

كان يقول بصوته الحاد وهو يشير إلى إحدى الصحف:

ــ هذا تركيب سيّىء لصفحات الجريدة. ولماذا يولي فلان كل هذه الأهمية لهذا المقال؟

ويأخذ مجلة، ثم يقلب صفحاتها، ويزنها بيديه:

ــ ماذا يحدث لإعلانات ردبوك؟ إنها تبدو لي هزيلة جداً هذا الشهر.

وفي منتصف هذا المشهد، تظهر ماريون بكل بهائها، واصلة مباشرة من خشبة التمثيل، وبطريقة ساحرة، تتقصد السير على الصحف وهي تقول:

ــ خلِّصني من كل هذه الجرائد، فهي تربك مقصورتي.

كان هورست أحياناً في منتهى السذاجة. فحين كان يذهب إلى العرض الأول لأحد أفلام ماريون، كان يدعوني للذهاب معهما في السيارة، وقبل الوصول إلى السينما، كان ينزل بحيث لا يُرى واصلاً بصحبة ماريون. ومع ذلك، حين انطلقت **هورست إيكزاماينر ولوس أنجلس تايمز في** نزاع سياسي، وراح **هورست** يهاجم بقوة بينما **التايمز لا** تحرز الغلبة، استخدمت الصحيفة حججاً ذات طابع شخصي، متهمةً هورست بأنه يحيا حياة مزدوجة، ويملك عشاً للحب في سانتا مونيكا، وذاكرة بالطبع اسم ماريون. وقد امتنع هورست عن الرد في صحيفته، لكنه جاء لرؤيتي في اليوم التالي (وكانت أم ماريون توفيت للتو) وقال لي:

ــ تشارلي، هل تمسك معي بساط الرحمة في دفن مسز دايفيس؟

وبالطبع، وافقت.

حوالي عام ١٩٣٣، دعاني هورست للقيام معه برحلة إلى أوروبا، وكان قد استأجر لمدعويه جناحاً بكامله في باخرة لشركة كونار. لكنني رفضت، لأن ذلك كان يعني أن أكون واحداً من مجموعة مرافقين يصل عددهم إلى العشرين، فنتأخر حيث يود هورست أن يضيع وقته ونستعجل حيث يريد الاستعجال.

كان لديّ نموذج من هذا النوع من الرحلات حين ذهبت معه إلى المكسيك وكانت زوجتي حاملاً. كانت قافلة من عشر سيارات تلحق بهورست وماريون على طرقات رجّاجة، الأمر الذي جعلني ألعن الرحلة من أولها إلى آخرها. وقد كانت الطرقات من الوعورة بمكان بحيث اضطررنا للتخلي عن بلوغ مقصدنا وتوقفنا ليلاً في مزرعة مكسيكية. لم يكن هنالك غير غرفتين وكنا عشرين. وقد أنعموا عليّ بواحدة منهما لزوجتي ولإيلينور غلين ولي. ونام البعض على طاولات وكراسي، والآخرون في خم الدجاج أو في المطبخ. ولقد كان مشهداً خارقاً في تلك الغرفة الصغيرة، مع زوجتي وهي تشغل السرير الوحيد، وأنا مستقراً على كرسيين، وإيلينور مرتدية ثيابها كما لو كانت نازلة في الريتز، وراقدة على أريكة متداعية، مع قبعتها وغلالة وجهها وقفازيها. ولقد بقيت متمددة، ويداها متصالبتان على صدرها مثل شاهدة قبر ونامت بهدوء في هذا الوضع. وهو أمر أعرفه لأني لم أغمض عيني طيلة الليل. وفي الصباح،

رأيتها تنهض، كاملةً، وشعرها محكم الترتيب، وبشرتها بيضاء كما لو أنهـا مطليـة بالمينـاء، وكانت شديدة الحيوية والمرح كما لو كانت تجتاز صالون الشاي في فندق البلازا.

في تلك الرحلة إلى أوروبا، اصطحب هورست معه هاري كروكر، مساعدي السابق في الإخراج. كان هاري قد أصبح سكرتير هورست الاجتماعي وسألني إذا كنت أود إعطاء و. ر. رسالة توصية إلى السير فيليب ساسون، وهو ما فعلته بطيبة خاطر.

هذا وقد دبّر فيليب حيلة لهورست. لما كان يعرف أن هذا الأخير يعبّر منذ سنوات عن عداء مكشوف لبريطانيا، تدبّره أمره بحيث يجعله يلتقي أمير الغال. وقد أغلق عليهما كليهما في مكتبته، فسأل الأمير هورست من دون لف أو دوران، بحسب رواية فيليب، لماذا لديه كل ذلك العداء لبريطانيا. وقد بقيا هناك ساعتين، وكان فيليب مقتنعاً بأن اللقاء مع الأمير أثّر في هورست تأثيراً ملائماً.

لم أتمكن يوماً من فهم المشاعر المعادية لبريطانيا لدى هورست، لأنه كـانت لديـه في انجلترا مصالح مهمة يحصل منها على أرباح ضخمة. كانت ميوله الموالية للألمـان تعود إلى الحرب العالمية الأولى، وفي تلك الفترة الحرجة، قاربت صداقتـه مع الكـونت برنسـدورف ـ سفير ألمانيا آنذاك في الولايات المتحدة ـ حدود الفضيحة، بحيث بالكـاد استطاعت سلطة هورست الواسعة أن تسترها. فضلاً عن ذلك، كان مراسله الأميركي في الخارج، كارل فون ڤيغان، يكتب دائماً مقالات لصالح ألمانيا، إلى حين انفجار الحرب العالمية الثانية تقريباً.

خلال رحلة هورست إلى أوروبا، زار ألمانيا والتقى هتلر. في تلك الفترة، لم يكن أحد يعرف الشيء الكثير عن معسكـرات الاعتقال الهتلريـة، وكانت الإشـارة الأولى إلى ذلك في مقالات كتبها صديقي كورنليوس ڤاندر بيلت، الذي دخل إلى أحد تلك المعسكرات، بذريعة لا أعرف ماهيتها، ووصف أعمال التعذيب التي كان يمارسها النازيون. لكن تلك الروايات عن الفظاعات السادية كانت تبدو خيالية إلى حد أن القليل من الناس صدقوها.

لقد أراني ڤاندر بيلت سلسلة من البطاقات البريـدية التي تـظهر هتلر في معـرض إلقاء خطاب. كان الوجه هزلياً بصورة مخيفة: تقليداً رديئاً لي، مع شاربه المضحك، وشعره سيىء التصفيف الذي كان يتدلى خصلاً مقرفة، وفمه الرقيق الصغيـر. لم أكن أتمكن من أخذ هتلر على محمل الجد. كانت كل بطاقة بريدية تظهره في وضع مختلف، ففي إحداها كان يخطب في الحشود، ويداه متشنّجتان كالمخالب، وفي أخرى كانت إحدى ذراعيه مرفوعة والأخـرى مخفوضة، مثل لاعب كريكت على وشك الضرب، وفي ثالثة، كانت يداه مضمومتين أمامه، كما لو كان يرفع ثقالة وهمية. أما التحية الهتلرية، مع اليد المقلوبة بـاتجاه الكتف، والـراحة المتجهة إلى السماء، فقـد أعطتني الـرغبة في أن أضـع فوقهـا طبق آنية مـائدة وسخـة. «إنه مجنون»، فكّرت في قرارة نفسي. لكن حين اضطر إينشتاين وتوماس مان لمغادرة ألمانيا، لم يعد وجه هتلر هذا يبدو لي هزلياً، بل بات يبدو مشؤوماً.

التقيت إينشتاين للمرة الأولى عام ١٩٢٦، حين ذهب إلى كاليفورنيا لإلقاء محاضرات.

بالنسبة لي، إن العلماء والفلاسفة روائيون سامُون يُقَنُّون أهواءهم في اتجاه آخر. وقد كانت هذه النظرية تناسب شخصية إينشتاين بامتياز. لقد كان نموذجَ ألمانيٍّ جبال الألب، بمعنى الكلمة الأكثر أنساً وفرحاً ومودة. وبالرغم من تصرفاته الهادئة والناعمة، كنت أحس أنه يخفي تحتها مزاجاً عاطفياً إلى أبعد الحدود، ويستمد من هناك بالذات طاقته الفكرية الهائلة.

خابرني كارل ليمل، وهو من الأونيفرسال، ليقول لي: إن البروفسور إينشتاين يود التعرف إليّ. وقد سرني ذلك كثيراً. فالتقينا إذاً في استوديوهات الأونيفرسال على الغداء، أنا والبروفسور، وزوجته، وسكرتيرته، هيلن دوكاس، ومساعده والتر ميير. كانت السيدة إينشتاين تتكلم الإنكليزية جيداً، وفي الواقع بصورة أفضل مما يتكلمها البروفسور. كانت امرأة عريضة القامة، فيّاضة بالحيوية، وكانت عظيمة السرور لكونها زوجة الرجل العظيم ولم تكن تبذل أي جهد لإخفاء ذلك. لقد كان حماسها فتاناً.

بعد الغداء، وفيما المستر ليمل يزوِّرهم الستوديو، أخذتني السيدة إينشتاين على انفراد وهمست:

ــ لماذا لا تدعو البروفسور إلى بيتك؟ أنا أعرف أنه سيكون مسروراً جداً إذا تمكنا من الثرثرة بهدوء.

وبما أن السيدة إينشتاين طلبت أن تكون تلك سهرةً غير رسمية، لم أدع إلا صديقين آخرين. وعلى العشاء، روت لي كيف مضى الصباح الذي تصوَّر فيه زوجُها نظرية النسبية.

كان البروفسور قد نزل كالعادة بالروب دو شامبر لتناول الفطور، لكنه لم يأكل عملياً أي شيء.

«اعتقدت أن ثمة شيئاً ما ليس على ما يرام، فسألته ما الذي يشغل باله، فأجاب: «لدي فكرة رائعة، يا عزيزتي». وبعد أن شرب قهوته، توجه إلى البيانو، وراح يعزف. وكان يتوقف بين الحين والآخر، فيخربش بعض الملاحظات، ثم يردد: «لدي فكرة رائعة، فكرة رائعة!»، فقلت له: «إذاً، بحقِ السماء، قل لي ما هي، لا تتركني معلقة في الفضاء». أجابني: «هذا صعب، يجب أن أركِزها أولاً».

وقد روت لي أنه ظل يعزف على البيانو ويكتب الملاحظات خلال حوالى نصف ساعة، ثم صعد إلى مكتبه، بعد أن قال لها: إنه لا يريد أن يزعجه أحد، وأنه سيبقى هناك أسبوعين.

«كل يوم، كنت أحمل إليه طعامه، وفي المساء، كان يخرج للسير قليلاً من أجل تمرين جسمه، ثم يستأنف العمل».

«أخيراً، نزل من مكتبه شديد الشحوب. «هاكِ»، قال لي وهو يضع على الطاولة ورقتين، وقد بدا عليه التعب. وكانت تلك نظرية النسبية الخاصة به».

خلال العشاء، الذي كنت دعوت إليه أيضاً،ذلك المساء، الدكتور رينولدز، لأنه كانت

لديه بعض المعارف في الفيزياء، سأل الدكتور البروفسور إذا كان قرأ يوماً **تجارب مع الـزمن Experiments with Time**.

فهز إينشتاين رأسه.

ـ هناك نظرية مثيرة لـلاهتمام بخصـوص الأبعاد، قـال رينولـدز بلهجة مـرحة. نـوع من . . . (وتردد قليلاً). . . نوع من توسع بُعْدٍ ما.

فاستدار إينشتاين نحوي وهمس بخبث:

ـ توسع بُعْدٍ ما، **was ist dast?**.

وتوقف رينولدز بعد ذلك عن الحديث عن الأبعاد وسأل إينشتاين إذا كان يؤمن بالأشباح. فاعترف إينشتاين أنه لم ير يوماً شبحاً، وأضاف مبتسماً:

ـ حين يكون ١٢ شخصاً شهدوا الظاهرة ذاتها في الوقت ذاته، يمكنني أن أؤمن بهـا عندئذ.

في تلك الفترة، كانت الظاهرات النفسية رائجة وكانت طبقات الهيولى البرّانية تطفو فوق هوليوود كالضباب، لا سيما في مساكن نجوم السينما، حيث كانت تتم اجتماعات لاستحضار الأرواح وبرهنات على الاسترفاع(*) والظاهرات النفسية. لم أكن أحضر تلك الأمسيات، لكن فاني برايس، الممثلة المشهورة، أقسمت أنها رأت خلال اجتماع روحاني طاولة ترتفع وتطفو في جو الغرفة. وقد سألت البروفسور إذا كان شهد يوماً ظاهرة كهذه، فابتسم بلطف وهو يهـز رأسه. وسألته أيضاً إذا كانت نظريته حول النسبية تتناقض مع تصور نيوتن، فقال:

ـ على العكس، إنها امتداد له.

خلال العشاء، كشفت للسيدة إينشتاين أني أنوي السفر إلى أوروبا بعد العـرض الأول لفيلمي القادم. فقالت:

ـ إذاً، يجب أن تأتي لرؤيتنا في برلين. ليس لدينا منزل كبير، فالبروفسور ليس غنياً، ومع ذلك فمؤسسة روكفلر وضعت تحت تصرفه أكثر من مليون دولار لأجل أشغاله العلميـة، لكنه لم يستخدم شيئاً من المبلغ.

حين ذهبت إلى برلين في ما بعد، زرتهما في شقتهما الصغيرة المتواضعة. كان بالإمكان أن يـظن المرء نفسـه في البرونكس، مـع الصالـون المستخـدم في آن معـاً قـاعـة للطعـام، والسجادات القديمة المستهلكة. كانت قطعة الأثاث الأكثر فخامة هي البيانو الأسود الذي كان قد أخذ عليه ملحوظاته التاريخية الأولى حول البعد الرابع. وقد تساءلت غالباً حول مصير ذلك البيـانو. ربمـا هو في السميثسـونيان إنستيتـوت أو في المتروبـوليتان ميـوزيوم ـ وربمـا أيضـاً استخدمه النازيون وقوداً للتدفئة.

حين اكتسح الإرهاب النازي ألمانيا، لجأت عـائلة إينشتاين إلى الـولايات المتحـدة.

(*) رفع أشياء بقوة الإرادة وحدها (م).

والسيدة إينشتاين تروي نكتة تُبيِّن مدى جهل البروفسور بشؤون المال. فلقد طلبت منه جامعة برينستون أن يأتي لإعطاء محاضرات وسألته عن الشروط التي يرغب في الحصول عليها، فاقترح البروفسور مبلغاً متواضعاً إلى حد أن مدراء برينستون أجابوه بأن ما يطلبه لا يكفيه للعيش في الولايات المتحدة، وبأنه سيكون بحاجة إلى ثلاثة أضعافه على الأقل.

حين عاد آل إينشتاين إلى كاليفورنيا عام ١٩٣٧، جاؤوا لزيارتي. عانقني بمودة وأبلغني أن معه ثلاثة موسيقيين:

ــ سوف نعزف لك بعد العشاء.

في تلك الأمسية، كان إينشتاين واحداً من عازفي رباعية صغيرة لموزار. ومع أن قوسه لم تكن واثقة تماماً، وكانت تنقص فنه المرونة، عزف مع ذلك بانخطاف، مغمضاً عينيه ومتأرجحاً. أما الموسيقيون الثلاثة الذين لم يتحمسوا إطلاقاً لمساهمة البروفسور، فقد اقترحوا باحتشام أن يرتاح قليلاً فيما يعزفون بأنفسهم قطعة أخرى، فوافق وجاء يجلس معنا ويصغي. لكن بعد أن عزفوا عدة مقطوعات، استدار نحوي وهمس: «متى أعود إلى العزف؟» وبعد أن رحل الموسيقيون، التفتت السيدة إينشتاين نحو زوجها، غاضبة بعض الشيء، وأكدت له:

ــ لقد عزفت أفضل منهم مجتمعين!

بعد بضع ليالٍ، عاد إينشتاين وزوجته للعشاء معنا، ودعوت ماري بيكفورد ودوغلاس فايربانكس، وماريون دايفيس، و و. ر. هورست وصديقاً أو صديقين آخرين. كانت ماريون دايفيس جالسة بجانب إينشتاين، وكانت السيدة إينشتاين إلى يميني وإلى شمال هورست. وقد بدا قبل العشاء أن كل شيء على ما يرام. كان هورست ودوداً وإينشتاين مهذباً. لكن كلما كان العشاء يتقدم، كنت أحس بالجو يبرد ببطء إلى حين توقفا بالكامل عن تبادل الكلام. وقد بذلت ما وَسَعَني لإحياء الحديث، لكن عبثاً. كان صمت ثقيل يرفرف على قاعة الطعام، ورأيت هورست يتطلع إلى صحف الحلوى خاصته بكآبة، في حين كان البروفسور يبتسم، غائصاً بهدوء في أفكاره.

كانت ماريون، بحيويتها المعهودة، قد مازحت كل المدعوين، ما عدا إينشتاين. فجأة استدارت نحو البروفسور وقالت بلهجة خبيثة: «مرحبا!» ثم مررت إصبعين فوق رأسها مقلدة حركة المقص وقالت له:

ــ لماذا لا تقص شعرك؟

فابتسم إينشتاين، وقلت في نفسي إن الأوان قد حان للانتقال إلى الصالون وتناول القهوة.

جاء إيزنشتاين، المخرج الروسي، إلى هوليوود مع فريقه الذي يضم غريغور الكسندروف وشاباً إنجليزياً اسمه إيغور مونتاغو كان صديقاً له. وقد رأيتهم كثيراً، إذ كانوا يلعبون في ملعب كرة المضرب الخاص بي، بصورة سيئة جداً، وفي كل حال الكسندروف.

كان على إيزنشتاين أن ينتج فيلماً للباراماونت. لقد وصل محاطاً بمجد **المدرعة بوتمكين وعشرة أيام هزت العالم**. وظنت الباراماونت أن من البراعة بمكان التعاقد معه لإخراج سيناريو يكتبه بنفسه. فكتب واحداً ممتازاً، هو **Sutter's Gold**، انطلاقاً من وثيقة مثيرة للاهتمام حول ماضي كاليفورنيا. لم تكن هنالك دعاوة في تلك القصة، لكن بما أن إيزنشتاين كان قادماً من روسيا، سرعان ما جن جنون الباراماونت، وبقي المشروع مجرد مشروع.

إذ كنت أناقشه ذات يوم حول الشيوعية، سألته إذا كان يعتقد أن البروليتاري المثقف يتساوى ذهنياً مع الأرستقراطي الذي خلفه أجيال من الثقافة. وأعتقد أنه فوجيء بجهلي، فإيزنشتاين، المتحدر من عائلة بورجوازية، عائلة مهندسين، قال:

ــ مع التعليم، تكون قوة الجماهير الدماغية شبيهة بأرض مسمّدة بكثافة.

إن فيلمه، **إيڤان الرهيب**، الذي رأيته بعد الحرب العالمية الثانية، هو بالنسبة لي قمة كل الأفلام التاريخية. هو يعالج التاريخ بصورة شعرية، وهذه طريقة ممتازة. وحين أدرك كم شُوِّهت أحداثٌ قريبة إلينا، يثير التاريخ، بما هو تاريخ، نزعة التشكك لدي، في حين أن أداءً شاعرياً يعطي الجو العام للفترة المعنية. بعد كل شيء، هنالك في الأعمال الفنية وقائع وتفاصيل قيِّمة أكثر مما في كتب التاريخ.

الفصل الواحد والعشرون

كنت في نيويورك حين قال لي صديق إنه شهد تجارب مزامنة للصوت مع الصورة، وتنبأ لي ألا تتأخر هذه الطريقة في تثوير كل الصناعة السينمائية.

لم أُعِد التفكير بذلك إلا بعد مرور عدة أشهر، حين أنتج وارنر إخوان أول متتالية ناطقة. كان فيلماً بالأزياء، يُظهر ممثلة رائعة جداً ـ من المفضل كَتْم اسمها ـ يمزقها همٌّ كبير بصمت، فيما تعبِّر عيناها الذابلتان عن قلق يتجاوز بلاغة شكسبير بأشواط. ثم فجأة، دخل في الفيلم عنصر جديد، هو الضجيج المسموع حين يضع المرء صدفة على أذنه. كانت الأميرة الرائعة تتكلم عندئذ كما من خلال الرمل: «سوف أتزوج غريغوري، حتى إذا كان عليّ التنازل عن العرش». كانت تلك صدمةً رهيبة، لأننا حتى ذلك الحين كنا مأخوذين بالأميرة. وبمقدار ما كان الفيلم يتقدم، كان الحوار أكثر فأكثر إثارة للضحك، لكن ليس بقدر التأثيرات الصوتية. فحين كانت تدار قبضة باب الصالون الصغير، كان يخيّل إليَّ أن أحداً أدار محرك جرّار زراعي، وحين كان يُغلق الباب، كنت أظن أنني أسمع اصطدام شاحنتين محمَّلتين بألواح السنديان. ففي البداية، لم يكن بالإمكان التحكم بالصوت: فالفارس المتشرد بلأمته المعدنية كانت تصدر عنه لوحده ضجة شبيهة بضجة مصنع للفولاذ، وكان عشاء عائلي بسيط يجعلك تفكر في لحظة الازدحام القصوى في مطعم صغير، وكانت ضجة الماء الذي يُسكب في قدح يشبه سُلَّم أنغام يتسلق المدى النغمي وصولاً إلى الدو المضادة(*). وقد غادرت القاعة وأنا مقتنع بأن أيام السينما الناطقة معدودات.

لكن بعد شهر، أنتجت م. غ. م. **The Broadway Melody**، وكان فيلماً طويلاً، وناطقاً، وموسيقياً، من النوع غير الممتاز، لكنه أمَّن موارد هائلة. كانت تلك نقطة الانطلاق، فبين ليلةٍ وضحاها بدأت كل القاعات تتجهَّز للسينما الناطقة. لقد كانت تلك نهاية الأفلام الصامتة، وذلك مؤسف، لأنها كانت قد بدأت تتحسن. كان المخرج الألماني، مورنو، قد

(*) نوطة أعلى بمقدار أوكتاف واحدة من الدو العليا في السلَّم العادي (م).

استخدم نمط التعبير هذا بصورة ملفتة للنظر، وبدأ بعض مخرجينا الأميركيين يفعلون الشيء ذاته. كان فيلمٌ صامت جيد يجتذب في الوقت ذاته المثقّف والجمهور، وكل ذلك كنا سنخسره الآن.

لكنني كنت عازماً على مواصلة إنتاج أفلام صامتة، لأني كنت مقتنعاً بأن هنالك مكاناً لكل أنواع الألهيات. من جهة أخرى، كنت ممثلاً إيمائياً، وكنت فريداً في هذا الميدان، وأجرؤ أن أقول، من دون تواضع زائف، معلّماً. لذا واصلت إنتاجي فيلماً صامتاً جديداً هو أضواء المدينة City Lights.

كان الفيلم ينطلق من قصة مهرج فقد بصره بعد حادث سيرك. هذا الشخص لديه ابنة صغيرة، مريضة وعصبية، وحين يغادر المستشفى يحذره الطبيب بأن عليه إخفاء عماه عنها إلى حين تصبح من القوة بحيث تتفهم ذلك، لأن الصدمة قد تكون قاسية جداً بالنسبة إليها. والطريقة التي كان يتعثر بها ويصطدم بقطع الأثاث كانت تُضحك الصغيرة بصورة بهيجة. لكن ذلك كان مُمِضّاً جداً. غير أن عمى المهرِّج حُوِّل إلى شخص بائعة الزهور في **أضواء المدينة**.

كان جوهر الحبكة فكرةً راودتني على مدى سنوات: يدور نقاش بين عضوين في نادٍ للأغنياء حول عدم استقرار الوعي الإنساني ويقرران إجراء تجربة على متشرد يجدانه نائماً على أرصفة الميناء. يصطحبانه إلى شقتهما الباذخة، ويقدمان له الخمرة والنساء والأغاني، وحين يتعتعه السكر يعيدانه إلى المكان الذي وجداه فيه سابقاً، فيستيقظ ظاناً أن كل ذلك لم يكن إلا مجرد حلم. ومن هذه الفكرة جاءتني قصة ملياردير **أضواء المدينة** الذي يصادق تشارلي وهو سكران ولا يعود يتعرف إليه وهو صاحٍ. هذا هو دافع الحبكة وهو يتيح لتشارلي أن يستمر في الزعم أمام الشابة العمياء أنه غني.

بعد يوم من العمل على **أضواء المدينة**، كنت أذهب إلى ستوديو دوغ لآخذ حمّام بخار. وكان العديد من أصدقائي، ممثلين ومنتجين ومخرجين، يتجمعون هناك، وكنا نبقى معاً نرشف مشروب الجن تونيك(*)، ونثرثر ونتناقش في موضوع الأفلام الناطقة. وقد كان معظمهم يتفاجأون حين يرونني أصوّر فيلماً صامتاً جديداً، قائلين:

ـ أنت تملك الشجاعة حقاً.

كان عملي في السابق يهم المنتجين عموماً. لكنهم كانوا منشغلين هذه المرة بنجاح السينما الناطقة، ومع مرور الوقت بدأ يتولد لديّ الشعور بأني أجهل ما الذي يحدث: أظن أني تدلّلت بصورة مبالغ بها.

كان جو شنك، الذي عبَّر علانيةً في الماضي عن عدم تذوقه الأفلام الناطقة، قد ألقى سلاحه الآن. قال لي: «أخشى أن ذلك سيدوم، يا تشارلي»، وغامر بفرضية أن شابلن وحده قادر على إنجاز فيلم صامت يحقق النجاح. كان ذلك يداعب غروري، لكنه لم يكن مشجعاً

(*) مشروب مسكر يُمزج بسائل مقوٍّ (م).

جداً، لأني لم أكن أرغب في أن أكون الوحيد الذي يمارس فن السينما الصامتة. كما لم يعد مطَمْئِناً أن يقرأ المرء مقالات في مجلات تعبر عن الشكوك والمخاوف بصدد مستقبل سينما تشارلي شابلن.

إلا أن **أضواء المدينة** كانت فيلماً صامتاً مثالياً، ولم يكن أي شيء قادراً على حرفي عن مشروعي. لكنني كنت أصطدم بمشكلات متنوعة، فمنذ صعود السينما الناطقة، قبل ثلاث سنوات، كان الممثلون قد نسوا الإيماء تقريباً، وكل إيقاعهم كان قد انتقل إلى الكلام ولم يعد يصب في الفعل. وكانت هنالك صعوبة أخرى تتمثل في إيجاد شابة يمكنها أن تبدو عمياء من دون أن تبدو أقل جمالاً. كانت مرشحات كثيرات ينظرن إلى السماء مُظهرات بياض أعينهن، وكان ذلك مُمِضّاً حقاً. إلا أن الحظ حالفني مع ذلك، فذات يوم، رأيت فرقة تصوِّر على شاطىء سانتا مونيكا. كان هنالك العديد من الفتيات بثياب الاستحمام، وأومأت لي إحداهن. كانت فيرجينيا شيريل، التي سبق أن التقيتها، وقالت لي:

ــ متى سأشتغل معك؟

كانت أشكالها الفاتنة، المقولبة في ثوب بحر أزرق، لا تدفع إلى التفكير إطلاقاً بكونها قادرة على لعب دور أثيري بالقدر الذي يتطلبه دور الشابة العمياء. لكن بعد محاولة أو محاولتين صُوِّرتا مع ممثلات أخريات، استقدمتُها يائساً. ولَشُدَّ ما كانت دهشتي حين رأيت أنها تمتلك موهبة الظهور بمظهر فتاة عمياء. سألتُها أن تنظر إليَّ لكن أن تنظر إلى الداخل من دون أن تراني، وكانت قادرة على ذلك. كانت الآنسة شيريل جميلة وملائمة للتصوير الجمالي، لكن لم تكن لديها خبرة في التمثيل. وهذا امتياز أحياناً، لا سيما في السينما الصامتة حيث تلعب التقنية دوراً أساسياً، فالممثلات اللواتي يمتلكن التجربة هن أحياناً أسيرات جداً لعاداتهن، وتقنية الحركة في السينما الإيمائية آلية إلى درجة يتضايقن معها. أما أولئك اللواتي يمتلكن خبرة أقل فأقدر على التكيف مع هذه الآلية.

كان لديّ مشهد يتخلص خلاله تشارلي من عرقلة سير بأن يصعد إلى سيارة ليموزين ويخرج من جهتها الأخرى. وحين يَصْفق الباب، تسمعه بائعة الزهور العمياء وتعرض عليه زهوراً، معتقدة أنه مالك السيارة. فيشتري عروة مع الإكليل النصفي الأخير الذي كان باقياً معها، لكنه يصطدم عَرَضاً بزهرة كانت تمسكها بيدها تسقط على الرصيف. فتركع وتتلمس الأرض لتلتقطها. فيدلها عليها، لكنها تواصل البحث. فيلتقطها حينئذ بنفاد صبر، وينظر نحوها غير مصدق. لكنه يدرك فجأة أنها لا ترى، ويمرّر الزهرة أمام عيني الفتاة، ويدرك أنها عمياء، ويساعدها على النهوض مكثراً من الاعتذارات.

كان طول المشهد بكامله سبعين ثانية، لكنه تطلّب خمسة أيام من اللقطات لتركيزه. ولم يكن ذلك خطأ الممثلة الشابة، بل خطأي أنا جزئياً، لأني وصلت إلى حد البحث عن الكمال في حالة من شبه العصاب. لقد استغرق تصوير **أضواء المدينة** أكثر من سنة كاملة.

خلال التصوير، حصل انهيار وول ستريت المالي الشهير. ولحسن حظي، لم أتأثر به

لأني كنت قرأت **Social Credit** لـ هـ. دوغلاس، حيث يحلل منظومتنا الاقتصادية وينتقدها، شارحاً أن كل ربح يأتي بشكل أساسي من الأجور. وبالتالي، كانت البطالة تعني خسارة للربح وانخفاضاً في رأس المال. وقد أثرت نظريته فيَّ إلى حد أني في عام ١٩٢٨، حين بلغ عدد العاطلين عن العمل في الولايات المتحدة ١٤ مليوناً، بعت كل سنداتي وأسهمي واحتفظت برأسمالي في حالة السيولة النقدية.

عشية الانهيار المالي، كنت أتعشى مع إيرفينغ برلين، الذي كان مفعماً بالتفاؤل بخصوص البورصة. وقد روى لي أن خادمة في المطعم الذي يتردد عليه في العادة ربحت ٤٠ ألف دولار في أقل من عام، عن طريق مضاعفة توظيفاتها. وهو نفسه كان معه أوراق مالية تشتمل على أسهم بقيمة عدة ملايين من الدولارات تعطيه كل عام أكثر من مليون دولار. وقد سألني إذا كنت أضارب في البورصة، فقلت له: إني لا أستطيع الإيمان بالأسهم حين يكون هنالك ١٤ مليون عاطل عن العمل. وحين نصحته ببيع أوراقه والانسحاب في وقت لا يزال فيه يربح، استشاط غضباً ودخلنا في نقاش طويل. قال لي متهماً إياي بافتقاد الوطنية: «هيا، أنت لا تؤمن بأميركا!». وفي اليوم التالي، هبطت البورصة ٥٠ نقطة وقضي على ثروة إيرفينغ بسبب ذلك. وقد جاء إلى الستوديو بعد يومين، مذهولاً ومرتبكاً تماماً، وسألني من أين حصلت على معلوماتي.

وأخيراً أنجزت **أضواء المدينة**، ولم يكن باقياً غير تسجيل الموسيقى. وقد كان أحد امتيازات السينما الصوتية، أن في وسعي التحكم بالموسيقى؛ وقد ألفت إذاً الموسيقى الخاصة بي.

بذلت جهدي لتأليف موسيقى أنيقة، وخيالية لمصاحبة كوميدياتي، بالتناقض مع شخصية تشارلي، لأن موسيقى أنيقة تضفي على أفلامي بعداً عاطفياً. ونادراً ما كان معدِّلو الموسيقى يفهمون ذلك. كانوا يريدون موسيقى مضحكة، لكني شرحت لهم أني لا أريد منافسة، وأني أطلب من الموسيقى أن تكون جامعة بين الأناقة والسحر، وأن تعبر عن عاطفة من دونها يكون العمل الفني ناقصاً، بحسب تعبير هازليت. كان أحد الموسيقيين يشرع أحياناً يتبجَّح ويتحدث عن مسافات السلَّم النغمي الملوَّن، والسلَّم النغمي منتظم القوة (الدياتوني)، وكنت أقاطعه بملاحظة جاهل بأصول الفن: «أيّاً تكن الميلوديا، ليس الباقي غير عزف رديء على البيانو». وبعد أن أدخلت الموسيقى إلى فيلم أو فيلمين، بدأت أنظر بعين محترفٍ إلى توزيع قائد أوركسترا وأعرف إذا كان التأليف مجوَّفاً جداً أو لا. فإذا رأيت الكثير من النوطات في الآلات النحاسية والآلات الخشبية، كنت أقول: «هذا شديد السواد في الآلات النافخة»، أو «الكثير من الآلات الخشبية».

ليس ثمة ما يكون أكثر إثارة من سماعك الألحان التي ألفتها وقد عزفتها للمرة الأولى أوركسترا من خمسين عازفاً.

بعد أن أنهيت عملية المزامنة في **أضواء المدينة**، كنت مستعجلاً لمعرفة المصير الذي

ينتظر فيلمي. لذا نظمنا عرضاً تمهيدياً في إحدى صالات المدينة، من دون أي إعلان مسبق.

كانت تجربة مرعبة، لأن فيلمنا عُرض في صالة نصف فارغة. كان الجمهور قد جاء ليرى دراما لا ليرى كوميديا، ولم يخرج من ذهوله إلا في منتصف الفيلم. كانت هنالك ضحكات، لكنها ضعيفة جداً، وقبل نهاية الفيلم، رأيت خيالات تتجه نحو الخارج. ونكعت بمرفقي مساعدي في الإخراج وقلت له:

ــ إنهم يغادرون.

فتمتم:

ــ ربما يذهبون إلى الحمَّام.

بعد ذلك، بت عاجزاً عن تركيز انتباهي على الفيلم، لأني كنت أنتظر لرؤية ما إذا كان من صعدوا في الممشى سيعودون.

وقد تمتمتُ بعد مرور دقائق قليلة:

ــ لم يعودوا!

ــ «هنالك من عليهم الالتزام بمواعيد القطارات»، أجاب.

غادرت القاعة ولديّ انطباع بأني رميت إلى الساقية بعامين من العمل ومليوني دولار. وفيما أغادر القاعة، حيّاني المدير، المتسمر في الرواق:

ــ «هذا جيد جداً»، قال وهو يبتسم، وليجعل تهانيه أكثر التباساً أضاف: «بودي الآن أن أراك تنتج فيلماً ناطقاً، يا تشارلي... هذا ما ينتظره الجميع».

وقد بذلت جهدي لأبتسم.

كانت فرقتنا قد خرجت من الصالة وباتت تنتظر على الرصيف، فاتجهت نحوها للانضمام إليها. فاستقبلني ريفز، مدير أعمالي، الجدي دائماً، وفي صوته ارتجافات: «لقد تمت الأمور بشكل جيد، إذا أخذنا بالحسبان...» كانت هذه الكلمات تبشّر بتحفظ مهدِّد، لكني أبديت موافقتي بثقة. «مع صالة ممتلئة، سيكون الأمر هائلاً... طبعاً (أضفت) يجب أن نقطع متتالية أو متتاليتين».

ثم جاءتني الفكرة غير المطْمَئِنة أننا لم نحاول بعد بيع الفيلم. لكن ذلك لم يكن يقلقني كثيراً، لأن اسمي كان لا يزال يحقق نجاحاً: كنت آمل ذلك على الأقل. وقد حذرني جوشينك، رئيس **الفنانين المتحدين**، من أن الموزعين غير مستعدين لمنحي الشروط نفسها التي منحوني بخصوص **الهجوم على الذهب**، وأن الدوائر الكبرى لا تتحرك، وهي تتبنى موقفاً انتظارياً. ففي الماضي، كان الموزعون قد أظهروا دائماً اهتماماً شديداً بكلٍّ من أفلامي، إلا أن اهتمامهم هذه المرة كان فاتراً. فضلاً عن ذلك، كنا نصطدم بصعوبات بالنسبة لعرض في نيويورك، فلقد قيل لي: إن كل صالات السينما في المدينة مستأجَرة وعليّ انتظار دوري إذاً.

الصالة الوحيدة الشاغرة كانت مسرح جورج ن. كوهان، التي تضم ١١٥٠ مقعداً وتوجد في حي بعيد عن المركز، وكانت تُعتبر نوعاً من الفيل الأبيض. لم تكن حتى صالة سينما حقيقية. كان في وسعي استئجار الجدران الأربعة مقابل سبعة آلاف دولار أسبوعياً، مع ضمان ثمانية أسابيع حجز، كما سيكون عليّ أن أقدم كل الباقي: قيّماً على الصالة، وأمين صندوق، ومُجْلِسات، واختصاصياً بعرض الفيلم، وآلاتيين، مع دفع تكاليف اليافطات الضوئية والدعاية الإعلانية. وبما أنه كان لدي مليونا دولار في خطر في هذه القضية ـ ومن مالي الخاص فضلاً عن ذلك ـ كان من المستحسن المغامرة وحجز الصالة.

بانتظار ذلك، كان ريفز وقَّع في لوس أنجلس اتفاقاً على تقديم العرض الافتتاحي في صالة جديدة بنيت للتو. وبما أن إينشتاين وزوجته كانا لا يزالان هناك، عبّرا عن رغبتهما في حضور ذلك العرض، لكنني لا أظن أنهما كانا يدركان المغامرة التي يُقْدِمَان عليها. في مساء عرض الافتتاح تعشيا عندي، ثم ذهبنا جميعاً إلى المدينة. كان الشارع الكبير مزدحماً بالناس على امتداد مئات الأمتار، وكانت سيارات شرطة وسيارات إسعاف تحاول شق طريقها بين الجمهور، الذي كان قد حطم الواجهات المجاورة للصالة. وبمساعدة مفرزة من البوليس، تمكنا من الوصول إلى المقاعد الأمامية. كم أستفظع عروض الافتتاح! فالتوتر الذي يشعر به المرء، ومزيج العطور، والمسك وخضاب الجفون، كل ذلك يثير اشمئزازك وعصبيتك.

كان المالك قد بنى صالة رائعة، لكنه كالكثير من الموزعين في تلك الأيام، لم يكن يعرف إلا القليل حول تقديم الأفلام. وبدأ العرض. أولاً مقدمة الفيلم، مع التصفيق المعتاد في الافتتاحيات. ثم جاء المشهد الأول، فبدأ قلبي يخفق. كان مشهداً هزلياً يصف نزع الستار عن تمثال، وبدأ المشاهدون يضحكون! كانت الضحكات تتدفق في كل اتجاه. لقد ربحت! وبدأت تتبدد كل شكوكي ومخاوفي. وأحسست بالرغبة في البكاء. لقد ضحكوا على امتداد ثلاث بكرات. وضحكت معهم من النرفزة.

لكن حدث في تلك اللحظة شيء لا يصدَّق. فجأة، في عز الضحك، توقف الفيلم! أضيئت الصالة، وأعلن أحدهم بمكبر الصوت: «قبل مواصلة عرض هذه الكوميديا الفريدة، سوف نأخذ خمس دقائق من وقتكم لإمتاعكم برؤية محاسن هذه السينما الجديدة». ولم أصدق أذنيّ، وقفزت من مقعدي، في قمة الغضب، واندفعت في صف المقاعد المركزي صارخاً:

ـ أين هذا المدير الأحمق؟ سوف أقتله!

وتحمّس المشاهدون لموقفي، وراحوا يضربون الأرض بأقدامهم، ويصفقون، في حين واصل الأحمق امتداح روائع صالته. إلا أنه سرعان ما توقف حين بدأ الجمهور يصفر. وقد احتاج لبكرة كاملة قبل أن يستعيد وتيرة ضحكه الأساسية. ونظراً للظروف، اعتبرت أن الفيلم نجح. وقد رأيت إينشتاين يمسح عينيه قبل المشهد الأخير، وكان ذلك برهاناً على أن العلماء عاطفيون ثابتون في موقفهم هذا.

في اليوم التالي، ذهبت إلى نيويورك من دون انتظار الاتفاقات، لأنني كنت أريد أن أكون هناك قبل أربعة أيام من موعد الافتتاح. ومنذ وصولي، أرعبني أن ألاحظ أنهم لم يفعلوا شيئاً للإعلان عن الفيلم، باستثناء لافتة تقول بصورة لا مبالية: «صديقنا القديم يعود إلينا!» وصيغ أخرى لا تقل ضعفاً. وقد هززت بشدة فريقنا في الفنانين المتحدين:

ــ لا تهم العاطفة، يجب إعلام الناس. إننا نقدم عرض الافتتاح في صالة ليست صالة سينما، وواقعة في حي بعيد عن المركز.

وقد مرَّرتُ إعلاناتٍ بحجم نصف صفحة، كل يوم، في أكبر صحف نيويورك، تعلن دائماً بالأحرف الكبيرة ذاتها:

تشارلي شابلن
في مسرح كوهان
فـــي
أضواء المدينة
على امتداد النهار
المقعد بـ ٥٠ سنتاً وبدولار واحد

لقد أنفقت ٣٠ ألف دولار إضافية على الإعلانات في الصحف، ثم استأجرت لافتة ضوئية للصالة كلفت هي الأخرى ٣٠ ألف دولار. وبما أن الوقت كان ضاغطاً، أمضيت طيلة الليل واقفاً، أتحقق من طريقة عرض الفيلم، وأقرر حجم الصورة وأصحح الاعوجاج. وفي اليوم التالي، عقدت مؤتمراً صحفياً وشرحت للصحفيين لماذا صورت فيلماً صامتاً وكيف.

لم يكن جماعة الفنانين المتحدين موافقين على سعر المقاعد الذي حددته، لأن السعر الأعلى كان دولاراً والأدنى ٥٠ سنتاً في حين كانت تتراوح أسعار مقاعد كل السينمات الكبرى بين ٣٥ و ٨٥ سنتاً، مع أفلام ناطقة ومنوعات مسرحية. وكان استدلالي يستند إلى الواقعة الأساسية المتمثلة في أن الأمر يتعلق بفيلم صامت وفي أن ذلك يبرر زيادة أسعار المقاعد، وفي أنه إذا كان الجمهور يريد أن يرى الفيلم فلن يوقفه الفرق بين ٨٥ سنتاً ودولار واحد. وقد رفضت إذاً أي مساومة.

في عرض الافتتاح، جرت الأمور بشكل جيد جداً. لكن عروض الافتتاح لا تعني شيئاً، إذ إن الجمهور العادي هو الذي يهم. هل سيهتم بفيلم صامت؟ لقد منعتني تلك الأفكار من النوم نصف الليل. إلا أن وكيل الدعاية الخاص بي أوقظني من رقادي في الصباح حين دخل غرفتي كالأعصار في الحادية عشرة، وهو يصيح شديد الإثارة:

ــ يا عزيزي، الأمور بأحسن حال! يا له من نجاح! فمنذ العاشرة صباحاً، يقف الناس في الصف حول مجموعة البيوت، الأمر الذي يمنع السير. هنالك حوالى عشرة رجال شرطة يحاولون الحفاظ على النظام، والناس يتصارعون ليدخلوا. وكم كان بودي أن تسمعهم يصيحون!

كنت سعيداً، ومنشرحاً، فطلبت فطوري وارتديت ثيابي.

ــ «أخبرني، أين ضحك الناس أكثر ما ضحكوا»، قلت له..

فوصف لي بدقة المقاطع التي ضحك عندها الجمهور، واختنق من الضحك وصاح بأعلى صوته:

ــ تعال انظر بنفسك، فسوف يعيد ذلك شبابك.

لم تكن لدي رغبة في الذهاب إلى هناك، لأنه ليس في وسع أي شيء أن يكون بمستوى حماسي. إلا أني حضرت نصف ساعة عرض، واقفاً مع الجمهور في عمق الصالة، في ذلك الجو الكثيف الذي لم تنفك تقطعه انفجارات ضحك مفاجئة. كان ذلك يكفيني، فغادرت المكان راضياً، ولاستعادة هدوئي، مشيت أربع ساعات في شوارع نيويورك. ومن وقت لآخر، كنت أمر أمام الصالة وأرى الصف الطويل غير المنقطع الذي كان يدور حول مجموعة البيوت. ولقد لقي الفيلم انتقادات جنونية وإجماعية.

لقد حصلنا في صالة من ١١٥٠ مقعداً على ٨٠ ألف دولار في الأسبوع على مدى ثلاثة أسابيع. أما الباراماونت، في الجهة المقابلة مباشرة، حيث كانوا يعرضون فيلماً ناطقاً يمثل فيه موريس شوفالييه شخصياً، فلم تتعد مواردها ٣٨ ألف دولار في الأسبوع نفسه، وقد بقي يُعلن عن **أضواء المدينة** ١٢ أسبوعاً، مع ربح صافٍ، زاد عن أربعمائة ألف دولار، بعد دفع كل التكاليف. ولم يُوقف العرض إلا لأن دوائر التوزيع في نيويورك، التي استأجرت الفيلم بسعر جيد جداً، لم تكن تريد أن يستنفدَ نجاحه قبل وصوله إليها.

كنت أنوي الآن الذهاب إلى لندن لعرض **أضواء المدينة** هناك. وإذ كنت في نيويورك، رأيت كثيراً صديقي رالف بارتون، أحد محرري **نيو يوركر**، الذي كان قد زيّن بالرسوم للتو طبعة جديدة من كتاب بالزاك **Contes Drolatiques**. لم يكن رالف قد تجاوز السابعة والثلاثين من العمر، وكان فتىً غريب الأطوار، شديد الرهافة، سبق أن تزوج خمس مرات. كان مصاباً بالكآبة منذ بعض الوقت، وحاول الانتحار بابتلاع عيار قوي جداً من دواء لا أعرف ما هو. وقد دعوته لمرافقتي إلى أوروبا، قائلاً له إن التغيير قد يلائمه. وأبحرنا إذاً كلانا على متن **الأولمبيك**، السفينة التي رجعت على متنها للمرة الثانية إلى أميركا.

كنت أتساءل أي استقبال سألقاه في لندن بعد غياب عشر سنوات. لقد كان بودي أن أصل خِفيةً ومن دون ضجة، لكنني كنت قادماً لحضور العرض الافتتاحي لفيلم **أضواء المدينة** وكان ذلك يعني القيام بالدعاوة له. بيد أني لم أشعر بالخيبة بسبب ضخامة الجمهور الذي استقبلني.

نزلت هذه المرة في الكارلتون، لأنه كان ينعش لديّ ذكريات أبعد من تلك التي كان يحركها الريتز، ويجعل لندن أقرب إليّ. إن الشيء الأكثر مدعاة للكآبة بالنسبة لي إنما هو اعتياد الرفاهية والترف. كلّ يوم كنت أدخل الكارلتون كما لو كنت أدخل جنّة مذهّبة، فأن أكون غنياً في لندن كان يجعل من كل لحظة من لحظات حياتي مغامرة مشوّقة. كان العالم تسلية، وكان المشهد يبدأ منذ الصباح. كنت ألقي نظرة من نافذة غرفتي، فأرى عدة إعلانات ملصقة في الشارع، يقول أحدها: «تشارلي لا يزال المفضّل لديهم». وقد أظهرت الصحافة الكثير من المودة، لأني ارتكبت هفوة خلال إحدى المقابلات حين سئلت إذا كنت أنوي زيارة إلستري. لقد أجبت بسذاجة: «أين هذا؟»، فتبادل الصحفيون النظرات مبتسمين، ثم قالوا لي: إن إلستري مركز الصناعة السينمائية الإنجليزية. وقد كان ارتباكي صادقاً إلى حد أن أحداً لم يصدمه ذلك.

كانت هذه الزيارة الثانية مؤثرة ومثيرة بمقدار ما كانت الزيارة الأولى، ومما لا شك فيه أنها كانت أكثر إثارة للاهتمام، لأني حظيت بفرصة التقاء عدد أكبر بكثير من الناس المشوِّقين.

اتصل فيليب ساسون بنا، أنا ورالف، ليدعونا إلى عدة مآدب عشاء في فندقه الخاص في پارك لاين، وفي منزله الريفي بليمبن. كما أننا تغدينا معه في مجلس العموم حيث التقينا الليدي أستور في الرواق. وبعد يوم أو يومين، دعتنا إلى الغداء في الرقم واحد، سانت جايمس سكواير.

حين دخلنا إلى الصالون، شعرنا كما لو كنا ندخل قاعة الشُّهرة لدى مدام توسّو، فلقد

وجدنا أنفسنا أمام برنارد شو، وجون مايناردكاينز ولويد جورج وآخرين، لكن كلهم بلحمهم ودمهم. كانت الليدي أستور تُحْيي الحديث بحذقها الذي لا يخطىء، إلى حين دعيتُ فجأةً للرد على مخابرة هاتفية، فلقد ران عندئذ صمت مثير للارتباك. لكن برنارد شو تدخل وروى نكتة مسلية عن العميد إنج، الذي قال في معرض استيائه من التعليم في سانت بول: «لقد شوَّه تعاليم مخلِّصنا إلى حد أنه كما لو عمد إلى صلبه ورأسه إلى الأسفل». ولقد كان ذلك الظَّرْف وذلك المرح في إغناء الحديث أحد الجوانب الساحرة لدى شو.

خلال الغداء، ثرثرت مع عالم الاقتصاد، ماينارد كاينز، ورويت له أني قرأت في مجلة إنكليزية كيف يشتغل التسليف في مصرف إنجلترا، الذي كان آنذاك مؤسسة خاصة؛ يبدو أن المصرف كان قد استنفد خلال الحرب احتياطيه من الذهب، ولم يعد لديه غير أربعمائة مليون ليرة أسترلينية من العملات الأجنبية. وحين طلبت الحكومه من المصرف قرضاً بقيمة خمسمائة مليون ليرة، اكتفى بإخراج عملاته الأجنبية والنظر إليها، ثم إعادتها إلى الصناديق. وقد منح الحكومة القرض الذي طلبته، وكرر ذلك مراراً. أما كاينز فوافق وقال:

ــ هذا تقريباً ما حدث.

وسألته بأدب:

ــ لكن كيف جرى تسديد هذه القروض؟

ــ «العملة الائتمانية ذاتها»، قال كاينز.

وحوالي نهاية الغداء، ركّبت الليدي أستور أسناناً اصطناعية فوق أسنانها وقلّدت سيدة من العصر الفيكتوري تخطب في نادٍ للفروسية. كانت الأسنان تشوه وجهها وتضفي عليها تعبيراً هزلياً جداً، وقد راحت تقول بحماس:

ــ في عصرنا، كنا نحن نساء بريطانيا نتبع كلاب الصيد كما يليق بسيدات، لا بهذا الأسلوب المبتذل، الخاص بالنساء الأميركيات السخيفات، اللواتي يضعن رجلاً هنا ورجلاً هناك. لقد كنا نمتطي ظهور خيلنا، كالأمازونيات، بكرامة وبالأسلوب الذي يليق بامرأة.

كان في وسع الليدي أستور أن تكون ممثلة رائعة. فلقد كانت مضيفة فاتنة، وعليَّ أن أشكرها على أمسيات فريدة عديدة أعطتني فرصة لقاء أشخاص مجيدين في انكلترا.

بعد العشاء، وبعد أن غادر جميع المدعوين الآخرين، اصطحبنا اللورد أستور لرؤية الصورة التي رسمها له مانينغز. حين وصلنا إلى المحترف، رفض مانينغز السماح لي بالدخول، لكن اللورد أستور أقنعه في الأخير. كان مرسوماً بهيئة صياد، وحوله رهط من كلاب الصيد. وقد اكتسبت ثقة مانينغز، لأني أبديت إعجابي بالقدر ذاته بالعديد من الرسوم الأولية التي وضعها لحركة الكلاب. وقد قلت:

ــ العمل هو نوع من الموسيقى.

وانشرحت أسارير مانينغز، وأراني العديد من الرسوم التخطيطية الأخرى.

بعد ذلك بيومين، تغدينا عند برنارد شو، وقد اصطحبني جورج برنارد إلى مكتبته ـ على انفراد ـ تاركاً الليدي أستور والضيوف الآخرين في الصالون. وكانت المكتبة غرفة نيِّرة وفرحة تطل على نهر التاميز، وإذ بي أجدني أمام مجموعة رفوف لكتب شو فوق المدخنة، ومثل شخص أبله، اقتربت أنا الذي لم أقرأ أيّاً منها وهتفت مندهشاً: «آه! هذه كل أعمالك!» ثم جاءتني فكرة أنه ربما أتى بي إلى هناك ليكتشف تفكيري عن طريق نقاش كتبه. وقد تخيلت أننا نغوص عميقاً في حديثنا بحيث يأتي المدعوون الآخرون لقطعه، وهو ما كنت أتمناه! لكن بدلاً من ذلك، ران صمت قصير وابتسمت ثم غيّرت اتجاهي وتفحصت الغرفة، وأبديت بعض التعليقات الباهتة حول جوِّها الفرح. ومضينا بعد ذلك لننضم إلى الضيوف الآخرين.

وقد التقيت السيدة شو بعد ذلك مراراً. وأذكر أني ناقشت معها مسرحية جورج برنارد، **عربة التفاح**، التي استقبلها النقاد ببعض اللامبالاة. كانت السيدة شو ساخطة، وقالت: «لقد قلت لجورج إن عليه الكف عن كتابة مسرحيات بعد الآن، فالجمهور والنقاد لا يستحقونه!».

خلال الأسابيع الثلاثة اللاحقة، غرقنا في الدعوات. كانت إحداها من رئيس الوزراء، رامسي ماكدونالد، وأخرى من ونستون تشرشل، وغيرها من الليدي أستور، والسير فيليب ساسون وشخصيات رفيعة أخرى.

كنت قد التقيت ونستون تشرشل للمرة الأولى في فيلا ماريون دايفيس. كان خمسون مدعواً يتجولون بين قاعة الرقص والصالون الكبير حين ظهر على العتبة مع هورست وانتصب في وقفة على طريقة نابوليون، ويده في صديريته، وهو يتأمل الراقصين. كان يبدو ضائعاً وفي غير مكانه إطلاقاً. وقد لمحني، فأشار عليّ بالاقتراب وجرى تقديم أحدنا للآخر.

بالرغم من تصرفات تشرشل الودية، كان لديه ما يكفي من الفظاظة، وقد تركنا هورست وبقينا لبعض الوقت نتبادل التفاهات المعتادة فيما يدور الراقصون حولنا. وهو بقي هادئاً إلى حين بدأت أتكلم على حكومة العمال. فقد قلت:

ــ ما لا أفهمه هو أن انتخاب حكومة اشتراكية في انكلترا لا يغيِّر من وضع الملك أو الملكة.

فبرق في نظرته ألقٌ تسلية وقال:

ــ بالطبع لا.

ــ كنت أظن أن الاشتراكيين معادون للملكية؟

فقال ضاحكاً:

ــ لو كنت في انكلترا، كانوا قطعوا رأسك بسبب ملاحظة كهذه.

بعد أمسية أو أمسيتين، دعاني للعشاء في جناحه في الفندق. وكان هنالك مدعوان آخران، فضلاً عن ابنه رادولف، وهو فتى وسيم في السادسة عشرة من العمر، متعطش للنقاشات الفكرية ويتميز بكل تعصب الشباب. وقد لاحظت أن ونستون فخور جداً به. كانت

سهرة رائعة ثرثر خلالها الوالد والولد في كل المواضيع. وقد التقينا بعد ذلك مراراً في فيلا ماريون قبل عودته إلى انكلترا.

بعد أن أصبحنا في لندن، دعاني السيد تشرشل، أنا ورالف، إلى شارتويل لقضاء نهاية الأسبوع. وللوصول إلى هنالك، كان علينا أن نقطع الطريق في برد قارس. كانت شارتويل دارة قديمة رائعة، مؤثثة بشكل متواضع لكن بذوق جيد، وكان يسود فيها جو عائلي. وفقط في تلك الزيارة الثانية إلى لندن بدأت أعرف تشرشل حقاً، وقد كان في تلك الفترة عضواً من دون حقيبة في مجلس العموم.

يبدو لي أن السير ونستون عاش حياة أكثر تسلية من حياة معظمنا. فعلى مسرح الحياة، لعب العديد من الأدوار بشجاعة وحزم وحماس ملفت للنظر، ولم تفته غير متع قليلة من متع هذا العالم. لقد كانت الحياة سخية معه، وهو عاش جيداً ولعب أدواره جيداً - راهن رهانات كبرى وربح. عرف السلطة لكن من دون أن تستولي على لبِّه في يوم من الأيام. وفي حياته المليئة جداً وجد وسيلة لتمضية الوقت: البناء، والسباقات والرسم. وقد لاحظت وجود طبيعة ميتة في غرفة الطعام فوق المدخنة. ورأى ونستون أنها تثير اهتمامي فقال:

ـ هذا من صنعي أنا.

فقلت متحمساً:

ـ كم هو ملفت للنظر وفريد!

ـ أتظن؟! لقد رأيت رجلاً يرسم منظراً في جنوب فرنسا وقلت في نفسي: «في وسعي أن أفعل الشيء نفسه».

في صباح اليوم التالي، دلني على الجدران المحيطة بشارتويل، والتي بناها بنفسه. وقد أذهلني ذلك وقلت له: إن البناء ليس بالتأكيد بالسهولة التي يبدو بها.

ـ سوف أريك، وستعرف في غضون خمس دقائق.

كان هنالك على العشاء، في المساء الأول، العديد من البرلمانيين الشباب، الذين كانوا تقريباً عند قدميه: المستر بوثبي، الذي أصبح اليوم اللورد بوثبي، والمرحوم برندان براكن الذي أصبح اللورد براكن، وكانا كلاهما محدثين فاتنين ومشوِّقين. وقد قلت لهما: إني سوف ألتقي غاندي الذي كان آنذاك في لندن.

قال براكت:

ـ لقد تحملنا هذا الرجل طويلاً. سواء أضرب عن الطعام أو لم يضرب، يجب إيداعه السجن وتركه فيه. فإذا لم نكن حازمين، سوف نخسر الهند.

فقلت:

ـ إن وضعه في السجن حل بسيط جداً لو كان كافياً، لكن إذا سجنتم شخصاً كغاندي،

سوف يطلع غاندي آخر. إنه رمز لما يريده الشعب الهندي وطالما لم يحصل على ما يريد، سوف ينتج غاندي بعد الآخر.

فاستدار تشرشل نحوي مبتسماً:

ـ يمكنك أن تكون عضواً جيداً في حزب العمال.

إن سحر تشرشل يكمن في تسامحه واحترامه لآراء الآخرين. يبدو أنه لا يحقد على من لا يكونون متفقين معه.

غادر براكت وبوثبي في المساء ذاته، وفي اليوم التالي، عشت على مقربة وثيقة من عائلة ونستون. كان نهاراً من الجلبة السياسية، حيث تلفن اللورد جيفر بروك طيلة النهار إلى شارتويل وكان ونستون يقاطع مراراً خلال العشاء، فلقد كان ذلك خلال الانتخابات وفي عز الأزمة الاقتصادية.

كنت أستمتع خلال الوجبات، لأن ونستون كان يلقي خطباً سياسية حقيقية على المائدة، فيما العائلة تصغي برصانة. كان ثمة انطباع بأن ذلك يحدث في الغالب وأنهم معتادون عليه.

قال تشرشل وهو يلقي نظرة خاطفة على عائلته ثم عليَّ:

ـ إن الوزارة تتحدث عن صعوبات في موازنة الموازنة، وتزعم أنها بلغت حدود اعتماداتها، ولم يعد لديها ما تفرض عليه ضرائب إضافية، في حين تحرك انكلترا شايها كما لو كان شراب السُّكَّر. (وتوقف لحظة).

فسألته:

ـ هل يمكن موازنة الموازنة عن طريق فرض ضريبة إضافية على الشاي؟

فنظر إليَّ بتردد. وقال، لكن من دون قناعة على ما بدا لي:

ـ أجـل.

لقد سحرني الذوق والبساطة شبه الأسبارطيين في شارتويل. كانت غرفة ونستون مكتبة في الوقت ذاته، وكانت الكتب تفيض من الرفوف، وتتكدس في كل الجهات على امتداد الجدران. وكانت ثمة مأطورة مخصصة بالكامل لتقارير هانسارد بخصوص أعمال البرلمان. وكانت هناك أيضاً مجلدات عديدة حول نابوليون.

ـ أجل (اعترف لي تشرشل)، أنا عظيم الإعجاب بنابوليون. (واستأنف قائلاً): يبدو أنه قد يثير اهتمامك إنتاج فيلم عنه. سوف يكون عليك... ثمة إمكانات هزلية كبيرة: نابوليون وهو يأخذ حمّاماً، وفجأة يصل أخوه جيروم مرتدياً بزّة نظامية مزخرفة جداً، وينتهز المناسبة لمعانقة نابوليون وجعله يقبل بمطالبه. لكن نابوليون يتقصد الانزلاق في المغطس ويرش الماء على بزّة شقيقه، ثم يأمره بالانصراف، فيخرج الأخير مذهولاً ومرتبكاً.. سوف يكون ذلك، مشهداً هزلياً رائعاً.

أتذكر السيدة تشرشل وهي تتغذى عند كواغينو. كان ونستون جالساً وعلى وجهه ملامح

ولد حردان. وقد اقتربت من طاولتهما لألقي عليهما التحية، وقلت لهما مبتسماً:

ــ يبدو عليكما دائماً كما لو أنكما تحملان كل هموم العالم.

فقال لـي إنه خرج للتو من مجلس العموم، وإن ما قيـل هناك عن ألمـانيا لم يعجبـه. فعلَّقت على الموضوع بمرح، لكنه هز رأسه وقال:

ــ آه! كلا، فالأمر جدّي للغاية، جدي جداً في الحقيقة.

التقيت غاندي بعد قليل من إقامتي لدى عائلة تشرشل. لقد احترمت غاندي وأعجبت به دائماً بسبب مهارته السياسية وإرادته الحديدية، لكنني رأيت أن زيارته للندن تنطوي على خطأ، ذلك أن معناه الأسطوري كان يتبدد في الساحة اللندنية، ولم يعد لورعه العميق أي إثارة. ففي مناخ انكلترا البارد والرطب، حيث كان يرتدي وزرته التقليدية التي يجمّـع ثنياتهـا المشوشـة حوله، كان يبدو غير لائق، وكان وجوده في لندن يعرِّضه للنكات والسخرية. إن المرء ليكون أقدر دائماً على التأثير بعيـداً عن لندن، وقـد سئلت إذا كنت أود التقاءه فـأجبت بالإيجـاب، وسرَّني ذلك كثيراً.

وجـدته في مسكن متـواضع صغيـر في الضواحي لجهـة إيست إنديـا دوك رود. كـان الجمهور يملأ الشوارع. وكان رجال الصحافـة والمصورون يـزدحمون في المسكن المشـار إليه. وقد تم اللقاء في غرفة صغيرة في الطابق الأول. لم يكن المهاتما قد وصل بعد، وخلال الانتظار، شرعت أفكر بما سوف أقوله له. كنت قد سمعت بسجنه وبإضرابـاته عن الـطعام، وبالمعركة التي يخوضها لتحرير الهند، وكانت تتناهى إلى سمعي بصورة غامضة أحاديث عن عدائه للمَكْنَنة.

حين وصل أخيراً، تصاعدت الهتافات! وراح الجمهور يطلق صيحات التحية حين نزل من التاكسي وهو يشد وزرته حول وسطه. ولقـد كان مشهـداً غريبـاً في ذلك الشـارع الصغير المزدحم في إحدى الضواحي أن يرى المرء ذلك الخيال الأجنبي يدخل إلى منزل متواضع، وسط هتاف الجمهور. وقد صعد إلى الـطابق الأول وظهر عبـر النافـذة، ثم أومأ لي، وحيّينـا الجمهور معاً.

ذهبنا إلى الديوان، وانصبَّت علينا فجأةً من كل الجهات أضـواء آلات التصوير. كنت إلى يمين المهاتما، وحانت اللحظة المخيفة التي كان عليَّ فيهـا أن أقول شيئـاً لطيفـاً وفطنـاً بخصوص موضوع لم أكن أعرف عنه إلا القليل القليل. وكانت تجلس إلى جانبي فتاة مصرّة على أن تروي لي قصة طويلة لم أكن أصغي إلى كلمة من كلماتها، لكني كنت أهز رأسي موافقاً من دون أن أكف عن التساؤل ما عساي أقول لغاندي. لقد كنت أعرف أن عليَّ أنا بدء الحديث وأنه ليس على المهاتما أن يقول لي كم أحبَّ فيلمي الأخير. ولقد كنت أشك في كل حال إذا حدث يوماً أن رأى أحد أفلامي. في تلك اللحظة، قطع صوتٌ آمر لامرأة هنـدية فجـأة سيلَ الكلام الصادر عن الفتاة:

ــ آنستي، هل تتفضلين بإنهاء حديثك وترك السيد شابلن يتحدث مع غاندي؟

وفجأة خيَّم الصمت على الغرفة، وبما أن وجه المهاتما الهادىء كان ينمّ عن الانتظار، تولَّد لدي انطباعٌ بأن الهند بأسرها تنتظر أيضاً ما سأقول، فتنحنحت إذاً وقلت:

ـ أنا أتعاطف طبعاً مع تطلعات الهند ومع النضال الذي تخوضه لأجل الحرية، إلا أنني أشعر ببعض البلبلة بسبب كرهك للآلات.

هزَّ المهاتما رأسه موافقاً وهو يتبسم، فيما تابعت القول:

ـ على كل حال، إذا جرى استخدام الآلات بصورة غيرية، لا بد أن يساعد ذلك على تحرير الإنسان من العبودية، ويتيح له أن يشتغل وقتاً أقل، ويوفر له الفرصة بالتالي لتنمية معارفه والانتفاع بالحياة.

فقال بهدوء:

ـ أنا فاهم، لكن قبل أن تتمكن الهند من بلوغ هذه الأهداف، يجب أن تتخلص أولاً من النير الإنكليزي. فالآلات هي التي جعلتنا في الماضي نخضع لانكلترا، والطريقة الوحيدة التي نستطيع بها أن نتخلص من هذه التبعية إنما هي مقاطعة كل المنتجات التي تصنعها الآلات. لذا أعلنّا أن واجب كل مواطن هندي يقضي بأن يغزل قطنه وينسج الأقمشة التي هو بحاجة إليها. هذه هي طريقتنا في الهجوم على أمة قوية جداً كإنكلترا ـ وبالطبع، هناك أسباب أخرى. فللهند مناخ يختلف عن مناخ إنكلترا، وعاداتها وحاجاتها مختلفة أيضاً. إن الطقس البارد في إنكلترا يتطلب صناعة نشطة واقتصاداً معقداً، فأنتم بحاجة إلى صناعة تنتج ملاعق وشوكاً، بينما نحن نستخدم أصابعنا، وهذا يعبر عن نفسه باختلافات عديدة.

وهكذا تلقيت درساً شديد الوضوح عن تكتيك معركة الهند من أجل الحرية، وهي معركة ألهمها، على سبيل المفارقة، راءٍ واقعي، يتمتع بروح مفعمة بالرجولة وبإرادة من حديدٍ لقيادة تلك المعركة إلى النهاية. وقد شرح لي أيضاً أن الاستقلال الأسمى يكمن في التخلص من النوافل، وأن العنف ينتهي إلى تدمير نفسه بنفسه.

حين فَرُغت الغرفة، سألني إذا كان يوَدّي البقاء لحضور الصلوات. وقد جلس المهاتما متربعاً على الأرض، فيما كان خمسة أشخاص آخرون يجلسون على شكل دائرة. كان المشهد مثيراً للفضول: ستة أشخاص يقرفصون على أرض تلك الغرفة الصغيرة، في قلب ضواحي لندن، في حين تتوارى شمس صفراء بسرعة خلف السطوح، وأنا أجلس على ديوان أتأملهم وهم يتمتمون صلواتهم بورع. «يا لها من مفارقة»، قلت في نفسي وأنا أتأمل ذلك الرجل الواقعي إلى أبعد الحدود، بروحه الحاذقة كرجل قانون وحسه العميق بخصوص الواقع السياسي، في حين بدا كل ذلك يتبدد في تراتيلهم.

في حفلة العرض الأولى لفيلم **أضواء المدينة**، كان المطر يهطل بغزارة، لكن كانت هنالك حشود، وجرى استقبال الفيلم استقبالاً جيداً جداً. جلست على الشرفة قرب برنارد شو، الأمر الذي أثار الضحك والتصفيق. وقد جعلونا ننهض نحن الاثنين ونحيي، وهو الأمر الذي تسبب بالمزيد من الضحك.

حَضر تشرشل عرض الافتتاح والعشاء الذي تلاه. وقد ألقى خطاباً قال فيه: إنه يشرب نخب رجل بدأ حياته كأحد أولاد الأزقة لكنه اكتسب في ما بعد محبة العالم بأسره، هذا الرجل هو تشارلي شابلن! كان هذا الكلام غير متوقع وقد شعرت ببعض الذهول، لا سيما بعد أن سمعته يبدأ بالقول: «My Lords, Ladies and Gentlemen» بيد أني، تحت تأثير طابع المناسبة الاحتفالي، أجبت بالأسلوب ذاته: «My Lords, Ladies and Gentlemen بما أن صديقي وزير المال القديم. . .» وتوقفت، فانفجر الجميع ضاحكين وسمعت صوتاً راعداً يردد: «القديم، القديم! أنا أحب هذا، القديم!» وبالطبع، كان ذلك صوت تشرشل. وحين استعدت رباطة جأشي، واصلت كلمتي: «ذلك أنه يبدو لي غريباً أن أقول وزير المال السابق»[1].

دعانا مالكولم ماكدونالد، ابن رئيس الوزراء العمالي، رامسي ماكدونالد، لنلتقي أنا ورالف والده ونمضي ليلتنا في الشيكرز. وقد وجدنا الوزير الأول على الطريق في حين كان يقوم بنزهته القصيرة الصحية بسروال الغولف وهو يضع وشاحاً، وكاسكيتاً، ويحمل غليوناً وعصاً، أي نموذج السيد الريفي بالذات، بحيث ما كان المرء ليستطيع تخيل أنه زعيم حزب العمال. وقد كان انطباعي الأول عنه أنه جنتلمان عظيم الهمة، واعٍ إلى أبعد الحدود ثقل عبء منصبه كرئيس للوزراء، ومتحلٍّ برباطة جأش نبيلة لا تستبعد روح الدعابة.

كان نوع من الضغط قد ساد خلال الجزء الأول من الأمسية، لكن بعد العشاء ذهبنا لتناول القهوة في اللونغ روم الشهيرة، وبعد أن أبدينا إعجابنا بقناع الموت الخاص بكرامويل وأشياء تاريخية أخرى، جلسنا نثرثر بهدوء. وقد أوضحت له أن أشياء كثيرة تغيرت منذ زيارتي الأولى لإنكلترا، وذلك نحو الأفضل. ففي عام ١٩٢١، كنت قد رأيت الكثير من الفقر في لندن، وعجائز شائبات يضطجعن على أرصفة ضفاف التاميز، لكن هؤلاء العجائز اختفين الآن، ولم يعد هنالك متشردون على الأرصفة. وكانت المحلات تبدو جيدة التموين، فيما الأولاد ينتعلون أحذية جيدة، وهو أمر يدان به بلا ريب إلى حكومة العمال.

كان وجهه غامضاً، وتركني أواصل كلامي من دون أن يقاطعني. وقد سألته إذا كان في وسع الحكومة العمالية، التي بدا لي أنها حكومة اشتراكية، أن تغيِّر دستور البلاد بصورة أساسية. فأبرقت عيناه وأجابني بدعابة:

ــ قد يكون عليها القيام بذلك، لكن من غرائب السياسة البريطانية أنه منذ اللحظة التي تمتلك فيها السلطة تصبح عاجزاً.

وأغرق في التفكير قليلاً، ثم روى لي قصة جلسته الأولى في قصر بكنغهام بوصفه رئيساً للوزراء. قالت له صاحبة الجلالة وهي تستقبله بحفاوة:

---

(١) كان ذلك تطلَّب منه أن يضيف بادئة ex إلى كلمة exchequer الإنكليزية التي تشير إلى وزارة المال، بحيث تصبح الكلمة ناشزة ex-exchequer (المعرِّب).

ـ ماذا ستفعلون بي إذاً، أنتم الاشتراكيين؟

فشرع رئيس الوزراء يضحك وقال:

ـ لا شيء سوى محاولة خدمة جلالتك ومصلحة البلد.

خلال الانتخابات، دعتني الليدي أستور، أنا ورالف، لقضاء نهاية الأسبوع في دارتها في بلايموث، للقاء تي. إي. لورنس الذي كان سيأتي هو الآخر إلى هناك، لكن لا أدري لأي سبب لم يأتي لورنس. لقد دعتنا مع ذلك إلى دائرتها الانتخابية ولا سيما إلى لقاء جماهيري في أحواض السفن حيث كانت ستخاطب صيادين للأسماك. وقد سألتني إذا كنت أود إلقاء كلمة، فحذّرتها قائلاً: إني أؤيد حزب العمال، ولا أستطيع دعم سياستها.

ـ ليس هذا بالمهم، قالت؛ كل ما هنالك أنهم قد يودون رؤيتك؛ هذا كل شيء.

كان لقاءً في الهواء الطلق، وكانت شاحنةٌ كبيرةٌ تُستخدم كمنصة. كان أسقف دائرتها هناك، وبدا أن مزاجه سريع الغضب بالأحرى، وقد استقبلنا، كما ظهر لي، بفظاظة. وبعد الخطاب القصير الذي قدمتني به الليدي أستور، صعدت إلى الشاحنة وقلت:

ـ كيف حالكم يا أصدقائي؟ إنه لأمر جيد جداً بالنسبة لنا نحن أصحاب الملايين أن نقول لكم كيف تصوّتون، لكن ظروف حياتنا مختلفة جداً عن ظروف حياتكم.

وفجأة سمعت الأسقف يهتف: «برافو!».

وواصلت كلامي:

ـ ربما هنالك بينكم وبين الليدي أستور شيء مشترك: شيء أجهل ما هو. وأعتقد أنكم تعرفون هذا الشيء أكثر مما أعرفه أنا.

ـ «ممتاز! جيد جداً»، هتف الأسقف.

ـ أما بخصوص سياستها وحالات خدمتها بوصفها ممثلة لهذه هذه... («الدائرة»، قال الأسقف: في كل مرة كنت أتردد، كان يهمس لي الكلمة المقصودة).... لا بد أن تكون أفعال الليدي أستور مُرْضية». وأنهيت كلمتي قائلاً إني أعرف أنها امرأة طيبة ولطيفة وتحركها أفضل النوايا.

حين نزلت، كان الأسقف شديد الابتهاج، وعلى وجهه ابتسامات عريضة، وقد شدَّ على يدي بمودة.

إن لدى رجال الدين الإنكليز حساً شديداً بالصراحة والصدق هو انعكاس لانكلترا بمظهرها الأفضل. إن رجالاً كالدكتور هوليت جونسون والكاهن القانوني كولينز ورجال دين آخرين يعطون الكنيسة الإنكليزية حيويتها.

كان صديقي رالف بارتون يتصرف بصورة غريبة، فقد لاحظتُ أن ساعة الحائط الكهربائية في الصالون قد توقفت، إذ جرى قطع أسلاكها. وحين تحدثت بذلك إلى رالف، قال: «أجل أنا الذي قطعتها، فأنا أستهول دقات ساعات الحائط». وقد أزعجني ذلك وأغاظني

قليلاً، لكنني عزوته إلى طبع رالف الغريب كفايةً. منذ مغادرتنا نيويورك، كان يبدو أنه تعافى كلياً من انهياره العصبي، وقد قرر فجأة العودة إلى الولايات المتحدة.

قبل رحيله، سألني إذا كنت أريد مرافقته لزيارة ابنته التي ترهَّبت قبل عام وكائنت الآن في دير كاثوليكي في هاكني. كانت ابنته البكر، من زواج أول، وغالباً ما كان رالف حدثني عنها، قائـلاً إنها كانت تشعر منذ الرابعة عشرة من عمرها بدعوتها الدينية، مع أنه بـذل هو وامـرأته أقصى ما في وسعهما من أجل ثنيها عن قرارها. وقد أراني صورة أخذت لها في السادسة عشرة من عمـرها، فـأذهلني جمالهـا في الحال: عينـان واسعتان قـاتمتان، وفم ممتلىء وحسـاس وابتسامة جذابة.

أوضح لي رالف أنه أخـذها إلى بـاريس، إلى أمسيات ومـلاهٍ، أملاً في جعلهـا تنسى دعوتها الدينية. وقد قدموا لها راغبين في الزواج وبذلوا جهدهم لإلهائها وبدا عليها أنها مسرورة جداً، لكن لم ينجح شيء في صرفها عن دعوتها الدينية. كان قد مر ١٨ شهراً لم يرها رالف خلالها، وكانت قد أنهت الآن مرحلة الابتداء الرهبانيةونذرت نذورها.

كان الدير مبنى قاتماً وكئيباً في قلب أحد أحياء هاكني. وحين وصلنا إلى هناك استقبلتنا الأم الرئيسة وأدخلتنا إلى غرفة صغيرة تميل إلى الحزن، فجلسنا هناك وانتظرنا فترة من الزمن بدت لي دهوراً. ودخلت ابنة رالف أخيراً إلى الغرفة، فأُصبت حالاً بالحزن لأنها لم تكن تقل جمالاً عن صورتها. إلا أنها حين كانت تبتسم كان يظهر أنها فقدت سنين من أسنانها الجانبية.

كان المشهد غريباً؛ فقد كنا جالسين نحن الثلاثة في تلك الغرفة الصغيرة الكئيبة، وكان ذلك الأب الرحوم والاجتماعي ابن السبعة والثلاثين عاماً مصلِّباً ساقيـه وهو يـدخن سيجارة، بينما ابنته، تلك الراهبة الجميلة التي لم تتجاوز التاسعة عشرة من عمرها، تجلس قبالتنا. وقد تملكتني الرغبة في الاعتذار والانتظار في الخارج داخل السيارة، لكنهما رفضا كلاهما سماع أي شيء.

مع أنها كانت ذكية وذات حيوية، إلا أني كنت أشعر بأنهـا منفصلة عن الحياة. كـانت حركاتها عصبية ومتقطعة، وقد راحت تتحدث عن واجباتها كمعلمة مدرسة بنوع من التوتر.

ــ إنه لصعب جداً تعليم الأولاد الصغار، لكنني سأعتاد على ذلك.

كانت عينا رالف تبرقان كبرياءً في حين كان يكلمها وهو يدخن سيجارته. ومع أنه كـان وثنياً، أدركتُ أنه لم يكن مستاء من أن تكون ابنته راهبة.

كان لقاؤهما موسوماً بتجرد مشبع بالحنين. وما لا ريب فيه أنها عـاشت محنة روحيـة، فمع أنها كانت في عز صباها وعلى درجة عالية من الجمال، كان وجهها حزيناً وموسوماً بالتُقى والعبادة. كانت تتكلم على المقالات الحارة التي قرأتها بصدد استقبالنا في لندن وسألت عن أخبار جرمين تايفير، زوجة رالف الخامسة، فقال لها رالف إنهما انفصلا.

فقالت بدعابة وهي تستدير نحوي:

ـ طبعاً، فأنا لا أتمكن من اللحاق بوتيرة زيجات بابا.

فضحكنا، رالف وأنا، ضحكةً ممزوجة بالانزعاج.

وقد سألها إذا كانت ستبقى وقتاً طويلاً في هاكني، فهزّت رأسها بصورة حالمة وقالت: إنهم قد يرسلونها إلى أميركا الوسطى.

ـ لكنهم لا يقولون لنا أبداً متى أو أين.

ـ حسناً، قلتُ معترضاً، يمكنك أن تكتبي لوالدك حين تصلين إلى هناك.

فترددت:

ـ ليس مفترضاً بنا الاتصال بأي كان.

ـ حتى بأهلك؟، سألتها.

ـ حتى بهم، قالت بلهجة أرادت أن تكون متجردة، ثم استدارت باسمةً نحو أبيها.

وران صمت لبعض الوقت.

حين حان موعد الافتراق، أمسكت بيد والدها وشدَّت عليها وقتاً طويلاً، وبمودة، كما لو كان لديها حدسٌ ما. وخلال طريق العودة، بقي رالف صامتاً، في حين كان يبذل جهده لكي لا يظهر عليه التأثر الشديد. وبعد أسبوعين، انتحر في شقته في نيويورك بإطلاق رصاصة على نفسه فيما كان ممدداً على فراشه وعلى رأسه غطاء سرير.

كنت الآن أرى إيتش. جي. ويلز باستمرار. كانت لديه شقة في بايكر ستريت، وحين كنت أذهب لزيارته، كنت أجد أربع سكرتيرات يغصن في مراجع، للتحقق من واقعة، ويأخذن ملاحظات وهن يتصفحن دوائر المعارف، والمؤلفات التقنية، والمستندات والكراريس.

قال:

ـ هذا كتابي الجديد، **The Anatomy of Money**(*)، وهو صناعة متقنة.

ـ ما يذهلني ـ قلت ممازحاً ـ هو أنهن يقمن بالجزء الأساسي من العمل.

على رفٍّ عالٍ، يلفُّ كامل مكتبته، كانت مصفوفةً علبُ بسكويت كبيرة، حسبما بدت لي، على كلٍّ منها بطاقةٌ يُقرأ عليها «مواد سرية»، «رسائل شخصية»، «فلسفة»، «معلومات علمية»، وهكذا دواليك.

بعد العشاء، كان يأتي أصدقاء من بينهم البروفسور لاسكي، الذي كان يبدو في مقتبل شبابه حتى ذلك الحين. كان هارولد خطيباً لامعاً، وقد سمعته يتكلم أمام جمعية المحامين الأميركيين في كاليفورنيا، وتكلم ببراعة ومن دون تردد على مدى ساعة من دون الاستعانة بملحوظات. حدثني هارولد ذلك المساء، في بيته، عن التجديدات المذهلة في فلسفة الاشتراكية، موضحاً لي أن أخفَّ تسارع في ميدان السرعة يعبر عن نفسه بفروق اجتماعية

(*) تشريح المال (م).

مخيفة. وتواصل الحديث على هذا المنوال، مشوِّقاً، إلى حين حان الوقت ليذهب إيتش. جي. إلى النوم، وهو ما كان يترك ضيوفه يفهمونه، بطريقة لا تخلو من الفجاجة، إذ كان يتطلع إليهم ثم إلى ساعته، إلى أن يغادر الجميع.

حين جاء ويلز لزيارتي عام ١٩٣٥ في كاليفورنيا، دَفَعْته للكلام على الانتقادات التي لديه تجاه روسيا. كنت قرأت بعض مقالاته الحادة، لذا كنت أريد تقريراً من المصدر، وأذهلني أن أجده يتحدث بمرارة تقريباً حول هذا الموضوع. وسألته:

ـ لكن أليس الأوان مبكِّراً لإصدار الأحكام؟ لقد كانت مهمتهم صعبة، مع معارضة ومؤامرات في الداخل ومن الخارج؛ ومن المؤكد، مع مرور الوقت، أننا سنرى نتائج جيدة. أليس كذلك؟

في تلك الفترة، كان ويلز يتحدث بحماس عما أنجزه روزفلت مع النيو ديل، وكان يرى أنه من الرأسمالية المحتضرة في أميركا ستولد اشتراكية تقريباً. وكان يبدو أنه ينتقد ستالين بوجه خاص، الذي سبق أن التقاه، وقال لي: إن روسيا باتت تحت نيره ديكتاتورية قائمة على الطغيان.

قلت:

ـ إذا كنت تعتقد، أنت الاشتراكي، أن الرأسمالية ميؤوس منها، فأي أمل للعالم إذا أخفقت الاشتراكية في روسيا؟

ـ لن تفشل الاشتراكية، لا في روسيا ولا في أي مكان آخر، لكن الحاصل أن النظام هناك تحول نحو الديكتاتورية.

ـ هذا مؤكد ـ قلت ـ فروسيا اقترفت أخطاء وهي ستستمر في فعل ذلك، مثلها مثل الأمم الأخرى. لكني أعتقد أن الخطأ الأكبر الذي اقترفته هو التنصل من ديونها الخارجية، البونات الروسية، والقول بعد الثورة إن تلك كانت ديون القيصر. وحتى إذا كان لهذا القرار ما يبرره، أظن أن روسيا ارتكبت خطأ جسيماً، لأن ذلك عاد عليها بعداء العالم، والمقاطعات، والغزوات الخارجية. ومع الوقت، كلفها ذلك أكثر من ضعفي ما كان عليها أن تدفعه.

كان ويلز موافقاً جزئياً ويقول إن تعليقاتي صحيحة نظرياً، لكن ليس في الواقع، لأن إلغاء ديون القيصر من جانب واحد كان تدبيراً أوحت به روح الثورة. فلقد كان الناس تعرضوا للتشكُّك فيما لو كان عليهم أن يسددوا ديون النظام السابق.

فاحتججت قائلاً:

ـ لكن لو لعبت روسيا اللعبة، لو كانت أقل مثالية، كان أمكنها أن تقترض مبالغ ضخمة من المال من البلدان الرأسمالية وتعيد بناء اقتصادها بسرعة أكبر. فمع التقلبات التي عاشتها الرأسمالية منذ الحرب، والتضخم وما إليه، كان أمكنها أن تتخلص بسهولة من ديونها في الوقت ذاته الذي تحتفظ فيه بإرادة العالم الطيِّبة.

فقال ويلز ضاحكاً:

ـ فات الأوان الآن.

لقد رأيت إيتش. جي. كثيراً بوجوه مختلفة عديدة. كان قد ابتنى في جنوب فرنسا منزلاً لعشيقته الروسية، وكانت شخصاً شديد النزق. وقد كتب فوق المدخنة بحروفٍ قوطية: «لقد بنى هذا المنزل عاشقان».

ـ أجل، قال، بعد أن استمع إلى تعليقاتي في هذا الصدد. لقد كتبنا هذا، ومحوناه مراراً. ففي كل مرة كنا نتخاصم فيها، كنت آمر البنّاء بنزعه، وحين يحل الوفاق بيننا من جديد تطلب هي إلى البنّاء أن يعيد الكتابة. وقد محي النقش وأعيد عدداً من المرات بحيث انتهى البنّاء إلى تجاهل ما كان يقال له، وتركه هناك.

عام ١٩٣١، أنهى ويلز كتابه **The Anatomy of Money** وهو عمل اقتضى عامين، وكان يبدو عليه التعب.

وسألته:

ـ والآن، ماذا ستفعل؟

ـ «سأكتب كتاباً آخر»، قال وهو يبتسم بضجر.

فهتفت متعجباً:

ـ يا معاذ الله! ألا تود أن ترتاح قليلاً أو تقوم بشيء آخر؟

ـ أقوم بماذا؟

كانت أصول ويلز المتواضعة قد تركت سماتها، لا في عمله ولا في هيئته الجسدية، بل كما في حالتي الخاصة، أعطته حساسية شخصية بالغة الحدة. أذكر ذات يوم أنه لفظ بملء النَّفَس حرف H حيث لا يجب ذلك فاحمرَّ وجهه كثيراً، علماً أنه لم يكن ثمة ما يستوجب الاحمرار لدى رجل كبير. وأذكر أنه كان يتكلم على عمٍّ كان بستانيَّ أحد النبلاء الإنكليز، وكان طموح العم أن يعمل ويلز خادماً.

قال إيتش. جي ساخراً:

ـ لولا حسن الحظ، لكان أمكن أن أصبح مساعد رئيس خدم.

كان ويلز يريد أن يعرف كيف اهتممت بالاشتراكية. وقد كان ذلك حين جئت إلى الولايات المتحدة وتعرفت إلى أبتون سينكلاير، حسبما شرحت له. ذهبنا بالسيارة إلى بيته في باسادينا لتناول الغداء، وسألني بصوته الناعم إذا كنت أؤمن بمنظومة الأرباح. فأجبته ممازحاً أنه يلزم محاسب للرد على هذا السؤال. كان سؤالاً ينزع سلاحك، لكنني شعرت بالفطرة أنه يصيب قلب المشكلة بالذات، ومنذ تلك اللحظة، اهتممت بالسياسة، التي لم أنظر إليها من الزاوية التاريخية بل من الزاوية الاقتصادية.

لم يكن ويلز يؤمن بأنني موهوب، حسبما كنت أعتقد، إدراكاتٍ خارج نطاق الوعي الحسي. وقد رويت له حادثة كان بالإمكان أن تشكل أكثر من مصادفة. فلقد دخلنا أنا ولاعب كرة المضرب هنري كوشيه، وصديق آخر إلى بار في بياريتز. كان هنالك ثلاثة دواليب سحب على حائط البار، وكل واحد مرقَّم من واحد إلى عشرة. فأعلنت بلهجة درامية أنني أمتلك مقدرة نفسية وسوف أدير الدواليب الثلاثة، فيتوقف الدولاب الأول على الرقم ٩، والثاني عند الرقم ٤ والثالث عند الرقم ٧. وهو ما حصل بالتمام والكمال، الأمر الذي كان يمثل تقريباً حظّاً على ألف.

قال لي ويلز إنها لا أكثر من مصادفة. فأجبت:

ــ لكن تكرار المصادفات أمر يستحق دراسته.

ثم رويت له قصة حصلت لي عندما كنت ولداً:

ــ كنت أمر أمام محل بقالة في كامبرويل رود، ولاحظت أن المصاريع قد أُغلقت، وهو أمر لم يكن مألوفاً، فحثني شيء ما على تسلق حافة النافذة والنظر عبر المعيَّن المنشور في المصراع. كان الداخل قاتماً ومقفراً، لكن منتجات البقالة كانت كلها هناك، وكانت ثمة حقيبة كبيرة وسط الغرفة، فقفزت إلى الأرض مع إحساس بالقرف وواصلت طريقي. بعد ذلك بوقت قصير، انفجرت قضية جنائية، فلقد حصل ادغار ادواردس، وهو عجوز لطيف في الخامسة والستين من عمره، على خمس بقالات عن طريق قتل مالكيها والاستيلاء على ممتلكاتهم. وفي تلك البقالة في كامبرويل، داخل تلك الحقيبة، كانت توجد جثث ضحاياه الثلاث الأخيرة، السيد والسيدة داربي، وطفلهما.

لكن ويلز رفض الاستماع إليّ، وقال: إن مصادفات كهذه أمر شائع في حياة كل الناس ولا تثبت شيئاً. وقد وضع ذلك حداً للنقاش، لكن كان في وسعي أن أحدثه عن تجربة أخرى، وبالتحديد عن ذلك اليوم الذي توقفت فيه وأنا بعد ولد في مقهى بلندن بريدج رود لأطلب قدح ماء. وقد أعطاني القدح سيدٌ ودود ضخم الجثة ذو شاربين أسودين. ولا أدري لماذا عجزت عن شرب الماء، فتظاهرت بالشرب وما أن استدار الرجل للكلام مع أحد الزبائن حتى أعدت وضع القدح وخرجت من المكان. بعد أسبوعين، وُجِّه الاتهام إلى جورج شابمان، مالك حانة تاج لندن بريدج رود، بقتل خمس زوجات عن طريق تسميمهن بالستريكنين. وكانت ضحيته الأخيرة تحتضر في غرفة فوق المقهى يوم أعطاني قدح الماء. وقد شُنق شابمان وإدواردس كلاهما.

وبخصوص الباطنية، تلقيت قبل عام تقريباً من ابتناء بيتي في بيفرلي هيلز رسالة مغفلة تعلن أن كاتبها راءٍ ورأى في الحلم بيتاً جاثماً على قمة إحدى الهضاب، مع مرجة خضراء في مقدمته التي تتخذ شكل مقدمة سفينة، كان بيتاً بأربعين نافذة وقاعة موسيقى كبيرة ذات سقف عالٍ جداً. كانت الأرض موقعاً مقدساً طالما قدّمت فيه قبائل هندية تضحيات بشرية، قبل ألفين من الأعوام. كان المنزل مسكوناً بالأرواح ولا يجب إبقاؤه بتاتاً في الظلمة. وقد أوضحت

الرسالة أنه طالما لا أكون وحدي في المنزل، وتكون هناك إضاءة، لن تحدث تجليات. وللوهلة الأولى لم أعر أي اهتمام لتلك الرسالة التي اعتبرت أن كاتبها شخص معتوه، واحتفظت بها لأني وجدتها غريبة ومسلية. لكن فيما كنت أعيد ترتيب مكتبي بعد عامين، وجدتها من جديد وأعدت قراءتها. والغريب أن وصف المنزل والمرجة كان دقيقاً. لم أكن قد أحصيت النوافذ ولاحظت وأنا مندهش أن عددها كان أربعين.

ومع أنني لم أكن أؤمن بالأشباح، قررت القيام بتجربة. كان الأربعاء هو المساء الذي يعطِّل فيه الخدم ويَفْرغ البيت، لذا تعشيت في الخارج. وفي الحال بعد العشاء، رجعت إلى البيت ودخلت إلى غرفة الأرغن الطويلة والضيقة كجناح كنيسة، مع سقف قوطي. وبعد أن أسدلت الستائر، أطفأت كل الأنوار، ثم اتجهت خبط عشواء إلى أحد المقاعد، حيث جلست عشر دقائق على الأقل. كانت الظلمات الكثيفة تثير أحاسيسي وظننت أني أرى أشكالاً غامضة ترفرف أمام عينيّ، لكنني قلت في نفسي: إنه شعاع قمر يمر عبر شق في الستائر وينعكس على قنينة كريستال.

أسدلت الستائر بعناية أشد واختفت الأشكال، ثم انتظرت من جديد في الظلمة، ربما خمس دقائق. وبما أنه لم يحدث شيء، بدأت أتكلم بصوت عال: «إذا كانت هنالك أرواح هنا، أرجو أن تظهر». وانتظرت برهة، لكن لم يحصل شيء. فقلت مجدداً: «أليس هناك أي وسيلة للاتصال؟ ربما علامة كالقرع مثلاً، أو إذا لم تكن هذه هي الوسيلة المناسبة، ربما عن طريق روحي التي قد تدفعني لكتابة شيء ما؟ أو ربما يشير تيار هواء بارد إلى حضور ما.

انتظرت بعد ذلك دقائق خمساً، لكن ليس ثمة تيار هوائي ولا أي تجلٍّ آخر. كان الصمت رازحاً وروحي فارغة. وقد تخليت أخيراً عن محاولتي وأشعلت مصباحاً. ثم انتقلت إلى غرفة الجلوس. كانت الستائر مفتوحة وكان يظهر شبح البيانو تحت ضوء القمر، فجلست ومرَّرت أصابعي على ملامسه. وقد توقفت أخيراً عند نوطة كانت تسلب لبي وكررتها مراراً إلى حين هزت أصداؤها كل الغرفة. لماذا كنت أفعل ذلك؟ ربما كان ذلك هو التجلي الذي طلبته! ورحت أكرر النوطة ذاتها. فجأة أحاطت بقامتي عصبة ضوء أبيض، فقفزت وتجمَّدت، فيما قلبي يخفق بشدة.

بعد أن استعدت رباطة جأشي، حاولت الاستدلال. كان البيانو في قبة قرب النافذة، فأدركت عندئذ أن ما تخيلته إشعاع جسم وسيط كان ضوء سيارة تسلك منحدر الجبل، وللتأكد من ذلك، جلست إلى البيانو ورحت أعزف النوطة ذاتها من جديد، ومراراً. كان ثمة في نهاية قاعة الجلوس معبر قاتم ومقابله باب غرفة الطعام، فلمحت من طرف عيني الباب المفتوح ورأيت شيئاً يخرج من غرفة الطعام، ويدلف إلى الممشى الغارق في الظلمة، مسخاً مضحكاً له حركات قزم يسير مع دوائر بيضاء حول عينيه كما لو كان مهرجاً. كان يتقدم متمايلاً نحو غرفة الموسيقى، وقبل أن أتمكن من إدارة رأسي، كان قد اختفى. كنت مرعوباً، ونهضت محاولاً اللحاق به، لكنني لم أره. وقد قلت في نفسي: إنه في الحالة العصبية التي كنت فيها، يمكن

لشعرة هدب تسقط على القرنية أن تخلق هذا الوهم، واستأنفت العزف على البيانو. لكن شيئاً إضافياً لم يحدث، وقررت الذهاب إلى النوم.

ارتديت بيجامتي ودخلت إلى الحمّام، وحين أضأتُ كان شبحي هناك، جالساً في المغطس ويحملق فيَّ! فقفزت إلى خارج غرفة الحمّام بصورة أفقية تقريباً. كان ابن عرس! الحيوان الصغير ذاته الذي كنت رأيته من طرف عيني، لكنه بدا لي في الأسفل أكبر جثة.

عند الصباح، وضع مدير الخدم الحيوان الصغير المرعوب في قفص ودجَّناه في الأخير. لكن ابن عرس اختفى ذات يوم ولم نعد نراه بتاتاً.

قبل أن أغادر لندن، دعاني دوق ودوقة يورك إلى الغداء. لم يكن هناك غير الدوق، والدوقة، ووالد هذه الأخيرة ووالدتها وأخوها، وهو ولد في الثالثة عشرة من عمره تقريباً. وقد جاء السير فيليب ساسون في ما بعد، وكُلِّفنا معاً بإرجاع شقيق الدوقة الصغير إلى إيتون. كان صبيًّا صموتاً لحق بنا، أنا والسير فيليب، في حين دعانا مديران للدروس مع آخرين لتناول الشاي.

حين دخلنا الكانتين حيث كانوا يبيعون حلويات ويقدمون فناجين شاي بستة بنسات، بقي في الخارج مع مئات التلامذة الآخرين الذين يتابعون دراستهم في المعهد. وقد جلسنا نحن الأربعة إلى طاولة صغيرة في صالة مزدحمة كفاية في الطابق الأول. وتمت الأمور على ما يرام إلى حين سألوني إذا كنت أريد فنجاناً آخر من الشاي، وأجبتُ سهواً: «نعم». وقد تسبَّب ذلك بأزمة مالية، لأن مضيفنا لم يكن يحمل معه مالاً واضطر لاقتراض بعضٍ منه من زملاء له.

همس فيليب في أذني:

ــ أخشى أن يكونا محتاجين لبنسين، وألا يكون في وسعنا نجدتهما.

بيد أنهما نجحا في طلب نوبة شاي أخرى اضطررنا لشربها على عجل لأن الجرس دق، ولم يعطهما غير دقيقة واحدة لاجتياز شِباك المعهد، وقد حدثت إذاً عملية تدافع حقيقية. وفي المعهد بالذات، استقبلنا مديره الذي أرانا المكان الذي سجَّل فيه شيلي(*) وأشخاص مجيدون عديدون غيره أسماءهم.

ثم عهد بنا المدير العام من جديد إلى مديري الدروس اللذين أدخلانا إلى قدس الأقداس، أي الغرفة التي سبق أن شغلها شيلي. لكن صديقنا الفتى باوز ـ لاين بقي في الخارج.

ــ «ماذا تريد؟»، قال له مضيفنا الشاب بلهجة سلطوية جداً.

ــ «آه! إنه معنا»، أوضح فيليب قائلاً إننا أعدناه من لندن.

ــ حسناً، قال الشاب فاقداً صبره، أُدْخُلْ.

(*) شاعر إنكليزي مشهور من القرن التاسع عشر (م).

فهمس السير فيليب:

ـ إنهم يقدِّمون تنازلاً كبيراً إذ يسمحون له بالدخول؛ فهذا قد يعرِّض للخطر مجرى حياة تلميذ آخر حين يغامر على أرض حرامٍ كهذه.

لم أدرك حقيقة الانضباط الصارم الذي يسود في إيتون إلا حين زرتها في ما بعد مع الليدي أستور. كان الطقس بارداً جداً، وكنا نمشي على رؤوس أقدامنا تقريباً في الممشى الطويل سيِّىء الإضاءة والمدهون باللون الأسمر مع أوعية غسل القدمين المعلقة على الحائط بجانب كل باب. وقد وجدنا أخيراً الباب المناسب وقرعناه.

فتح البابَ ابنُها، وهو فتًى شاحب الوجه. وكان صاحباه متجمِّعَين فوق حفنة من الحطب تشتعل في مدخنة صغيرة، لتدفئة يديهما. وكان الجو ممتعاً.

قالت الليدي أستور:

ـ أود أن أعرف إذا كان في وسعي اصطحابك لقضاء نهاية الأسبوع.

وقد ثرثرنا لبعض الوقت، ثم قُرع الباب فجأة، وقبل أن يتسنى لنا أن نقول: «ادخلوا»، دار المقبض ودخل ناظر المبنى، وهو رجل وسيم أشقر، قوي البنية، في الأربعين من العمر.

ألقى تحية المساء بجفاف على الليدي أستور، ومنحني تحية صغيرة برأسه، ثم أسند مرفقه إلى المدخنة الصغيرة وشرع يدخِّن غليونه. وبما أن الليدي أستور أحست بأن زيارتها في غير مكانها، أوضحت قائلة:

ـ جئت لأرى إذا كان في وسعي اصطحاب هذا الفتى لنهاية الأسبوع.

وجاء الجواب حاسماً:

ـ يؤسفني عظيم الأسف، فهذا مستحيل.

فتمتمت الليدي أستور:

ـ آه! هيّا. لا تكن بهذه القسوة!

ـ أنا لست قاسياً، بل أكتفي بتبيان واقعة.

ـ لكنه يبدو شديد الشحوب.

ـ دعك من هذا الكلام! فهو بصحة ممتازة.

فنهضت من على سرير ابنها الذي كنا جالسين فوقه، واقتربت من الناظر.

ـ رويدك، أَصْغِ إليّ! قالت بلهجة ساحرة، وهي تدفعه بصورة خفيفة، كما سبق أن رأيتها تفعل غالباً مع لويد جورج وآخرين كانت ترغب في إقناعهم.

فقال الناظر:

ـ ليدي أستور، لديك العادة المؤسفة المتمثلة بإفقاد الناس توازنهم عن طريق دفعهم. أنا آسف شديد الأسف.

وعند هذا الجواب، وجدت الليدي أستور نفسها في وضع يائس.

ولا أدري كيف تحول الحديث إلى السياسة، فقطعه الناظر، مطلقاً ملاحظة مقتضبة:

ــ إن مأساة السياسة الإنكليزية تكمن في كون النساء يشاركن فيها بإفراط، لذا أتمنى لك مساء سعيداً، ليدي أستور.

ثم حيّانا بجفاف وانصرف.

قالت الليدي أستور:

ــ يا له من رجل كريه!

لكن ابنها دافع عن الناظر:

ــ آه! كلا، يا أماه، فهو لطيف للغاية.

رغم عداء الرجل للنساء، لم يكن في مقدوري إلا أن أعجب به، لأنه كان يتمتع بصدق واستقامة نادرين؛ ربما كانت تنقصه الدعابة، لكن ذلك لا يقلل من صدقه.

بما أني لم أر أخي سيدني منذ سنوات عديدة، غادرت انكلترا لإمضاء بعض الوقت معه في نيس. كان سيدني قد قال دائماً: إنه ما أن يتمكن من توفير ٢٥٠ ألف دولار سوف يتقاعد. وفي وسعي أن أضيف إنه وفَّر مبلغاً أكثر بكثير. ففضلاً عن أنه كان رجل أعمال فطناً، كان كوميدياً مرموقاً وأخرج العديد من الأفلام الناجحة، من مثل **Submarine Pilot**، و **'The Better Ole**، و **Man in the Box**، و **Charley's Aunt**، وقد انضاف كل ذلك إلى ثروته المهمة. والآن وقد تقاعد سيدني كما سبق أن وعد، كان يسكن في نيس مع زوجته.

حين عرف فرانك ج. غولد، الذي كان يسكن نيس أيضاً، أني آت لزيارة أخي، دعاني إلى جوان ـ ليه ـ پين، ووافقت.

قبل ذهابي إلى نيس، توقفت يومين في باريس وذهبت هنالك إلى الفولي ـ برجير، لأن الفرد جاكسون، من فرقة آيت لانكاشاير لادس، كان يعمل فيها: كان أحد أبناء الفرقة الأصلية. وحين رأيت ألفرد، روى لي أن عائلة جاكسون باتت مزدهرة جداً، وأن لديهم ثماني فرق بنات وأن والده لا يزال حياً، فإذا جئت إلى الفولي برجير جيث كانوا يؤدون التمارين يمكنني رؤيتهم. ومع أن الختيار كان قد تجاوز الثمانين من عمره فقد كان يتمتع بعد بالحيوية والعافية. وقد تحدثنا عن الزمن القديم الطيب ونحن نهتف: «من كان ليصدِّق!».

ــ أتدري يا تشارلي، قال، إن الذكرى الأشد بروزاً التي احتفظ بها عنك في حداثة سنِّك إنما هي ذكرى نعومتك.

من قبيل الخطأ التوقف طويلاً عند تملق الجمهور (للفنان). فكنفيخةٍ يتركونها تنتظر، سرعان ما يزول انتفاخها. وهذا ما حدث بخصوص الاستقبال الذي لقيته، فلقد برد فجأة، وجاءت العلامات الأولى من الصحافة. فبعد المدائح المبالغ بها من لدن الصحافيين، تبنّوا الموقف المقابل. ولا ريب أن ذلك جعل مقالاتهم أكثر إثارة للاهتمام.

كنت أدفع الآن ثمن متاعب لندن وباريس. كنت منهمكاً وبحاجة للراحة، وفي حين كنت أرتاح في جوان ـ لي ـ پين، طُلب مني أن أشترك في كوماند پرفورمانس في بالاديوم لندن. لكن بدلاً من ذلك، أرسلت حوالة بقيمة مئتي ليرة، وهو الأمر الذي أثار فضيحة. فلقد أهنت الملك واستخففت بالأمر الملكي. لم أكن أعتبر رسالة من مدير البالاد يوم مرسوماً ملكياً؛ ومن جهة أخرى لم أكن مستعداً للتمثيل بين ليلة وضحاها.

وجاء الهجوم التالي بعد أسابيع قليلة. كنت أنتظر شريكي في ملعب التنس، حين قدّم جنتلمان شاب نفسه على أساس أنه صديق لأحد أصدقائي. وبعد تبادل النكات، عبَّر كل منا بدوره عن آرائه بصدد مواضيع شتى. كان شاباً لطيفاً وجذاباً للغاية. وبما أني كنت ميّالاً لعقد عرى الصداقة فجأة مع الناس ـ لا سيما إذا كانوا يعرفون كيف يصغون ـ فقد تناولت الكثير من الموضوعات. وبخصوص السياسة الدولية، أبديت تشاؤمي قائلاً له إن الوضع في أوروبا يقود مباشرة إلى حرب جديدة.

فقال صديقي:

ــ في كل حال، لن أنخرط في حربهم القادمة.

ــ وأنا لا ألومك، قلت. فأنا لا أحترم إطلاقاً أولئك الذين يجروننا إلى الورطة، وأستهول أن يقال لي من يجب أن أقتل ولماذا عليَّ أن أموت... وكل ذلك باسم الوطنية.

وافترقنا ودياً. وأظن أننا تواعدنا للعشاء في مساء اليوم التالي، لكنني لم أره من جديد على الإطلاق. وقد اكتشفت أني بدلاً من الثرثرة مع صديق، تحدثت مع صحفي، وفي اليوم التالي، جاءت عناوين الصحف على هذا الشكل: «تشارلي شابلن ليس محباً للوطن!»، الخ.

هذا صحيح، لكن للوهلة الأولى لم أكن أريد رؤية الصحافة تنشر آرائي الشخصية. والواقع أني لست متحمساً للوطن، ليس فقط لأسباب أخلاقية أو فكرية، بل كذلك لأن هذا شعور لا أشعره. كيف يمكن التسامح حيال الحماس للوطن، حين يكون ستة ملايين يهودي قد ذُبحوا باسمه؟ سوف يقول لي بعضهم إن هذا حدث في ألمانيا؛ إلا أن هذه الغرائز الإجرامية تنام في قلب كل أمة.

أنا عاجز عن الزعيق بشأن الكبرياء القومي. فإذا كان المرء يعيش في إطار التراث العائلي، مع منزل وحديقة، وطفولة سعيدة، وعائلة وأصدقاء، أفهم عندئذ هذا الشعور، لكن هذا النوع من الحياة لم يكن نوعي. في أفضل الأحوال، تتغذى وطنيتي من عادات محلية: سباقات الخيول، والصيد، وبودنغ(*) يوركشاير، وأنواع الهامبورغر الأميركية، والكوكا كولا، لكن هذه المنتجات المحلية موجودة اليوم في العالم أجمع. وبالطبع، إذا جرى غزو البلد الذي أعيش فيه، أعتقد أنني سأكون قادراً على التضحية بحياتي مثل معظم الناس. لكنني عاجز عن الشعور بحب متوقد لبلدي الأم، لأنه يكفي أن يصبح نازياً كي أغادره من دون أسف.

(*) حلوى من دقيق ولبن وبيض وفاكهة وسكر (المعرب).

واستناداً إلى ما رأيته، يمكن خلايا النازية، الراقدة الآن، أن تستيقظ سريعاً في أي بلد، وأنا لا أتمنى إذاً التضحية بنفسي لصالح قضية سياسية إلا إذا كنت أؤمن بها شخصياً. أنا لست شهيداً للنزعة القومية، مثلما لا أرغب في الموت لأجل رئيس، أو وزير أول، أو طاغية.

بعد يوم أو يومين، اصطحبني السير فيليب ساسون لتناول الغداء لدى كونسويلو فاندر بيلت بالسان، وكانت تملك مسكناً رائعاً في جنوب فرنسا. وأذكر بوجه خاص مدعوّاً، وكان رجلاً طويلاً ونحيلاً، ذا شعر أسود وشاربين مدبَّبين، مسلياً وجذاباً،ووجدت نفسي أتبادل معه أطراف الحديث طيلة الغداء. تحدثت عن كتاب دوغلاس **Economic Democracy**، وقلت: إن نظريته بخصوص التسليف قد تستطيع حل الأزمة العالمية الحالية. وقد أعلنت كونسويلو بالسان بصدد ذلك الغداء: «وجدت حديث شابلن مثيراً للاهتمام، ولاحظت ميوله الاشتراكية القوية».

لا بد أني قلت شيئاً فتن بوجه خاص هذا الجنتلمان الكبير، لأن وجهه أشرق وفتح عينين واسعتين إلى حد أني لمحت بياضهما. كان يبدو أنه يوافق على كل ما أقوله إلى حين وصلت إلى قمة أطروحتي، التي انحرفت في اتجاه معاكس لأطروحته، لأنه بدا خائباً. كان الشخص الذي تحادثت معه هو السير أوزوالد موسلي، من دون أن أقدِّر أن هذا الرجل سيصبح الزعيم اللاحق للقمصان السود في انكلترا. لكن عينيه اللتين كان يُرى بياضهما فوق الحدقتين، وهذا الفم الواسع المكشر قليلاً، تبقى محفورة في ذاكرتي. كان لديه تعبير مثير حقاً للفضول، لكي لا أقول مخيف قليلاً.

التقيت أيضاً في الجنوب آميل لودفيغ، كاتب سير نابوليون، وبيسمارك وبالزاك وآخرين. لقد كتب كتاباً مثيراً للاهتمام عن نابوليون، لكنه بالغ في استخدام التحليل النفسي إلى حد حرف انتباه القارىء عن السرد الروائي.

أرسل إليَّ برقية يقول لي فيها كم هو معجب **بأضواء المدينة** وأنه يحب التعرف إليّ. وكان مختلفاً بصورة جذرية عما تخيلته. فلقد كان يبدو كأوسكار وايلد مرهف، مع شعر طويل وفم ممتلىء بشفتين أنثويتين. وقد التقينا في فندقي، حيث قدّم نفسه بطريقة مذهلة، ماداً إليّ ورقة غار وهو يقول:

ـ حين كان يبلغ روماني مستوى عظيماً، كانوا يقدمون له تاجاً من أوراق الغار. وأنا أقدم إليك إذاً واحدة منها.

وقد لزمني بعض الوقت لأتكيف مع هذا الدفق العاطفي، ثم أدركت أنه يبذل جهداً لإخفاء خجله. وحين تجاوز هذا الخجل، وجدت نفسي أمام رجل ذكي جداً ومثير جداً للاهتمام. وقد سألته ما الذي يعتبره أساسياً حين يكتب سيرة حياة. فأجابني:

ـ الموقف.

ـ إذاً ليست السيرة غير آراء مسبقة، وهي عرض مبتور.

فقال:

ــ هنالك ٦٥٪ مما حدث حقاً لا تقال أبداً، لأن ذلك يُقْحِم أناساً آخرين.

خلال العشاء، سألني ما هو المشهد الأجمل الذي سبق أن رأيته، فأجبته في الحال: حركات هيلن ويلز وهي تلعب كرة المضرب: كانت تلك الحركات تتسم باللطافة والاتزان في الوقت ذاته الذي كانت فيه فاتنة بشكل صحي. كان هنالك أيضاً مشهد من الأحداث الجارية، التي جرى تصويرها بعد الهدنة بقليل، يظهر فيه مزارع وهو يحرث حقلاً في الفلاندر حيث سقط آلاف الرجال. وقد وصف لي لودفيغ غروب شمس على أحد شواطىء فلوريدا، وعربة رياضة مكشوفة تسير الهوينى وهي ممتلئة بفتيات جميلات بثياب الاستحمام، وقد جثمت إحداهن على الجناح الخلفي، متدلية الساق، وإحدى أصابع قدميها تلامس الرمل وترسم خطاً متواصلاً فيما تسير السيارة بهن.

مذاك، أتذكر مشاهد رائعة أخرى: صورة پرسيه لبنفنيتو سلليني على البيازا ديلا سينيوريا في فلورانس. كان الوقت ليلاً، وكانت الساحة مضاءة، وقد اجتذبني هناك داوود ميكايل آنج. لكن ما إن رأيت پرسيه حتى بات كل الباقي ثانوياً. لقد أثار حماسي جماله غير المحسوس وروعة تعرجاته: پرسيه، شاهراً رأس الميدوز وعلى قدميه جسمها المثير للرثاء، إن پرسيه هو تجسيد للحزن بالذات وقد جعلني أفكر بهذا البيت الصوفي لأوسكار وايلد: «لأن كل إنسان يقتل ما يحب».

تلقيت برقية من دوق ألب يدعوني فيها إلى إسبانيا. لكن في اليوم التالي، ظهرت عناوين كبرى في كل الصحف: «الثورة في إسبانيا». فذهبت إذاً إلى فيينا، فيينا الحزينة والشهوانية. أما الذكرى الأهم التي أحتفظ بها منها فهي ذكرى مغامرة مع فتاة رائعة. كانت كالفصل الأخير من رواية من العصر الفيكتوري: لقد تبادلنا إعلانات حب مشبوبة العاطفة ووداعات كلها حنان، وكنا نعرف أننا لن يرى أحدنا الآخر بعد الآن.

بعد فيينا، ذهبت إلى البندقية. كان ذلك هو الخريف وكانت المدينة مقفرة. أما أنا فأفضلها حين يكون السيّاح هناك، لأنهم يضفون الحرارة والحيوية على ما يكون من دونهم مقبرة بسهولة. وفي الواقع، أنا أحب السيّاح كثيراً، لأن الناس يبدون ألذ في العطل مما حين يتدافعون في الأبواب الدوّارة للمباني التي تقوم فيها المكاتب.

مع أن البندقية رائعة، فلقد كانت مدينة كئيبة، ولم أبق فيها غير ليلتين، إذ لم يكن لديّ ما أفعله غير اللعب بأقراص الرمي ـ وذلك فيما أخفي ذلك، لأن موسوليني كان يحظر الرقص أو اللعب بأقراص الرمي يوم الأحد.

كان بودي العودة إلى فيينا لإضافة حلقة إلى حبي هناك. لكن كان لديَّ موعد في باريس لم أكن أريد تفويته، موعد غداء مع أريستيد بريان، خالق فكرة الولايات المتحدة الأوروبية ومطلقها. وحين التقيته، بدا لي في حالة صحية هشة، وكان محبطاً ويشعر بالمرارة. وقد تم الغداء لدى ليون بايلبي، رئيس تحرير **L'Intransigeant**، وكان مثيراً للاهتمام إلى أبعد الحدود، بالرغم من كوني لا أتكلم الفرنسية. فكونتة نواي، وهي امرأة صغيرة شديدة الحيوية

وتتصرف كعصفور، كانت تتكلم الإنكليزيـة، وكانت لـطيفة وفـاتنة إلى أبعـد الحدود. وقـد استقبلها السيد بريان قائلاً: «قليلاً ما أراك هذه الأيام، فوجودك لا يقل ندرة عن وجود عشيقة قديمة».

بعد الغداء، اصطحبوني إلى الإيليزي حيث جعلوني فارساً في جوقة الشرف.

لن أصف الحماس الجنوني للجماهير الغفيرة التي حيَّتني لدى وصولي للمرة الثانية إلى برلين - ومع ذلك فهذا إغراء تصعب مقاومته.

يذكِّرني ذلك بماري ودوغلاس عارضين فيلماً عن سفرتهما إلى الخارج. كنت أستعـد للاستمتاع بفيلم توثيقي مثير للاهتمام، يبدأ بوصول ماري ودوغ إلى لنـدن، مع حشـود مهمة وحماسية في محطة القطار، وجماهير ليست أقل أهمية وحماساً أمـام الفندق، ومن ثم نجـد أنفسنا أمام وصولهما إلى باريس مع جماهير ليست أقل أهمية أيضاً. وبعد إبراز خارج الفنادق ومحطات سكك الحديد في لندن وباريس وموسكو وبودابست، سألت ببـراءة: «متى سنرى شيئاً من المدينـة والبلد؟» فانفجـرا كلاهمـا ضاحكين. وعليَّ الاعتـراف أني لم أكن شديـد التواضع، بدوري، لدى وصفي الحشود التي جاءت لاستقبالي.

في برلين، حللت ضيفاً على الحكومة الديمقراطيـة وخُصِّصت لي كونتـة يورك، وهي ألمانية فـاتنة جـداً، بمثابـة مرافقـة، إذا صح التعبيـر. حدث ذلـك بعد وصـول النازيين إلى الرايخستاغ عن طريق العنف بوقت قصير، ولم أدرك آنذاك أن نصف الصحافة كانت معادية، ولفتَ الانتباه إلى أني أجنبي وإلى أن الألمان يهزِّئون أنفسهم عن طريق مظاهرة بهذه الدرجة من التعصب. كان الأمر يتعلق طبعاً بالصحافة النازية، وبما أني كنت أجهل ذلك، فقد كانت إقامتي ممتازة.

زوَّرني ابن عمٍّ للقيصر بوستدام وسان سوسي بطريقة ودية لطيفة. لكن كل القصور هـي بـالنسبة لي مـدعاة للسخرية، إذ ليست سـوى التعبيـر عـديم الـذوق والمُمِضّ عن التبـاهي والفخفخة. وحين أفكر في فرساي، والكرملين وبوتسدام وقصر بكنغهام وكل تلك الأضـرحة الأخرى، أفهم على الرغم من أهميتها التاريخية أي «ذوات» متبجِّحة عمدت إلى خلقها. لقد قـال لي ابن عم القيصر هـذا أن سان سـوسي يَنمّ عن ذوق أكيـد، وهـو قصـر صغيـر وأكثـر إنسانية، أما أنا فتولد لديَّ الشعور برؤية صورة للدلال، ولم أتأثر بمرآه بتاتاً.

هذا وقد كانت زيارتي لمتحف الشرطة في برلين مريعة ومُمِضَّة، فالمتحف مليء بصور ضحايا لأعمال القتل، ومنتحرين، ومنحلِّين وشاذين من كل الأنواع. ولقد أسعدني أن أغادر المبنى وأتنشَّق الهواء النظيف من جديد.

استقبلني الدكتور فون فولمولر، مؤلف **المعجزة**، في بيته حيث التقيت ممثلين للفنون والمسرح في ألمانيا. كما أمضيت أمسية أخرى لدى الزوجين إينشتاين في شقتهما الصغيرة. وكان جرى أيضاً تنظيم عشاء مع الجنرال فون هينـدنبورغ، لكن في اللحـظة الأخيرة طـرأت ظروف منعته من المجيء، وغادرتُ من جديد إلى جنوبي فرنسا.

قلت في مكان آخر إني سأتحدث عن الحب لكن من دون إصرار، لأني لا أستطيع تقديم أي جديد في هذا الصدد. بيد أن إعادة الإنتاج تشكل الاهتمام الرئيسي بالنسبة للطبيعة، وكل رجل، أكان شاباً أو عجوزاً، يقدِّر حين يلتقي امرأةً أي حظٍّ يملكه إذ يحظى بحبها. وتلك كانت دائماً هي الحال بالنسبة لي.

لم تكن النساء يثرن اهتمامي بتاتاً خلال عملي، بل فقط بين فيلمين، حين أكون عاطلاً تماماً عن العمل، أكون عندئذ قابلاً للوقوع في شباكهن. وكما كان يقول إيتش. جي. ويلز: «يأتي وقت خلال النهار بعد أن أمضينا فترة ما قبل الظهر في كتابة بعض الصفحات، وفترة بعد الظهر في الرد على الرسائل، ولم يعد لدينا ما نفعله. عندئذ تحل ساعة الضجر: هذه الساعة هي ساعة الحب..».

لم يكن لديّ ما أفعله في الكوت دازور، فحالفني الحظ إذاً بأن جرى تقديمي لفتاة فاتنة كانت تتمتع بكل الصفات المطلوبة لجعلي أنسى ساعة الكرب والضجر تلك. كانت بلا جذور مثلي، وقبِل أحدنا الآخر كما هو. وقد أسرَّت لي بأنها تعافت للتو من قصة حب بائسة مع شاب مصري. كنا نعرف حقيقة العلاقة التي تشد أحدنا للآخر، من دون أن نتحدث بتاتاً في هذا الموضوع. فلقد كانت تعرف أني سأعود إلى أميركا في الأخير. وكنت أقدم لها مخصَّصاً أسبوعياً، ونقوم معاً بجولة على الملاهي والمطاعم والمهرجانات. كنا نتعشى ونرقص التانغو ونعيش الحياة اللاهية المعتادة. لكن هذا القرب منها سرعان ما جعلني أسقط في شباك سحرها، وحدث المحتوم: أحسست نحوها بالحب، وإذ رحت أفكر بعودتي إلى أميركا تساءلت إذا كنت سأتخلى عنها. إن مجرد التفكير بذلك كان يثير شفقتي، فلقد كانت مرحة، وفتانة وجذابة. بيد أن بعض الحوادث الصغيرة أيقظت حذري.

ذات بعد ظهر، فيما كنا في حفلة الشاي الراقصة التي يحييها الكازينو، ضغطت فجأة على يدي. كان هنالك س...، عشيقها المصري الذي طالما حدثتني عنه. وقد تضايَقْتُ؛ لكننا غادرنا بعد لحظات قليلة. وما كدنا نقترب من الفندق حتى اكتشفت فجأة أنها نسيت قفازيها وأن عليها العودة للبحث عنهما؛ وقد قالت لي أن أواصل من دونها. أما تلك الذريعة فكانت شديدة الوضوح، ولم أُبدِ احتجاجاً، ولا علقت على الموضوع، بل واصلت طريقي نحو الفندق. وبما أنها لم تعد في غضون ساعتين، خلصت إلى أن الأمر يتعلق بأكثر من قفازين. في ذلك المساء، كنت دعوت بعض الأصدقاء إلى العشاء، واقترب الوقت من دون أن تكون قد عادت. وكنت على وشك مغادرة غرفتي من دونها، حين ظهرت شاحبة وشعثاء الشعر.

فقلت لها:

ــ لقد تأخر الوقت كثيراً لكي تنزلي إلى العشاء، وقد يكون أفضل لكِ أن تأوي إلى سريرك الدافىء الناعم.

فأنكرت، وتوسلت، وتضرعت، لكنها عجزت عن تقديم تفسير ملائم لغيابها الطويل.

أما أنا فكنت مقتنعاً بأنها كانت مع عشيقها المصري، وبعد مجادلة حادة، غادرت المكان من دونها.

من ذا الذي لم يجد نفسه يوماً يثرثر وسط نشيج آلات الساكسوفون والجلبة البراقة لملهى ليلي، فريسةً لشعور مفاجيء بالوحدة؟ أنتَ جالس مع آخرين، تحاول أن تبدو متماسكاً، لكن القلب لا ينجدك. وحين عدت إلى الفندق، لم تكن هناك، فاستولى الذعر عليّ في الحال. هل غادرت؟ وبهذه السرعة؟ اندفعت إلى غرفتها، وكم أثلج صدري حين رأيت ثيابها وأغراضها لا تزال هناك. وقد وصلت بعد عشر دقائق، أنيقة ومليئة بالحيوية والمرح، وقالت لي إنها ذهبت إلى السينما. فقلت لها ببرود: إني ماضٍ في الغد إلى باريس، لذا سأصَفي حساباتي معها، وأن كل شيء انتهى بيننا، فلم تحتجَّ، لكنها ظلت تنفي أن تكون رأت عشيقها المصري من جديد.

قلت:

ـ لقد قتلتِ القليل الباقي من الصداقة بيننا إذ تكذبين عليَّ بهذه الطريقة.

ثم كذبت عليها بدوري، موضحاً أني كلفت من يلحق بها، فرآها تغادر الكازينو، وتلحق بصديقها المصري إلى فندقه. وفوجئتُ بها تنهار وتعترف بأن تلك هي الحقيقة، ثم تقسم بأغلظ الأيمان أنها لن تراه بعد الآن.

وفي الصباح التالي، فيما كنت أعد حقائبي وأستعد للرحيل، راحت تبكي بصمت. كنت سأغادر في سيارة صديق لي صعد لإعلامي بأن كل شيء جاهز وسوف ينتظرني في الأسفل. فعضت سبابتها وأجهشت بالبكاء.

ـ أتوسل إليك، لا تتركني، أتوسل إليك، لا تفعل هذا. . . لا تفعل هذا.

ـ ماذا تريدين أن أفعل؟ سألتُها ببرود.

ـ «دعني فقط أذهب معك إلى باريس، وبعد ذلك أعدك بألا أزعجك بعد اليوم»، أجابت.

كانت تبدو مثيرة للشفقة بحيث تركت نفسي أترفّق بها، لكنني حذَّرتها من أنها ستكون رحلة حزينة، وأن ذلك لا معنى له، لأننا سوف نفترق حال وصولنا إلى باريس. فوافقت على كل شيء. وفي الصباح ذاته، انطلقنا نحن الثلاثة إلى باريس في سيارة صديقي.

كانت بداية الرحلة رسمية، فلقد احتفظت بصمتها وكانت مكتئبة، وكنت من جهتي مهذباً ببرود. لكن كان يصعب الاحتفاظ بذلك الموقف، لأنه كان هذا التفصيل أو ذاك في المناظر التي نراها خلال الرحلة يسترعي انتباهنا ويعلق أحدنا عليه. لكن كل ذلك لم يعد له أي علاقة بالروابط الحميمة التي شدتنا أحدنا إلى الآخر من قبل.

مضينا بها مباشرة إلى فندقها ثم تبادلنا كلمات الوداع. كانت جهودها للتظاهر بإعطائها طابعاً نهائياً مثيرة للرثاء. وقد شكرتني على كل ما فعلته لأجلها، وشدت على يدي، وبعد أن

ودعتني كما في ميلودراما، اختفت داخل الفندق.

في الصباح التالي، خابرتني لتسألني إذا كنت أود أن أدعوها إلى الغداء، فرفضت. لكن فيما كنت أغادر الفندق مع صديقي، وجدناها أمام الباب، مرتدية معطفاً من الفرو وفي أقصى درجات الأناقة. وقد تغدينا معاً نحن الثلاثة، ثم زرنا لاماليزون. كانت جوزفين قد ذرفت في ذلك المسكن الرائع دموعاً غزيرة، وكان نهار خريفي حزين ينسجم تماماً مع الجانب الكئيب في وضعنا. وقد لاحظت فجأة أنها اختفت، لأعود فأعثر عليها في البارك، جالسة على مقعد حجري، وهي تبكي، وقد اندمجت، كما يبدو، بكل الحزن الذي يوحي به الجو. ولو تركتها، لكان قلبي رقَّ وانفطر، لكنني كنت عاجزاً عن نسيان ذلك العشيق المصري. وقد افترقنا إذاً في باريس وغادرتُ إلى لندن.

بعد عودتي إلى لندن، رأيت أمير الغال مراراً. كنت تعرفت إليه في بياريتز عن طريق إحدى صديقاتي، الليدي فورنس. كنت أنا وكوشيه، لاعب التنس، وصديقان آخران في أحد المطاعم حين دخل الأمير والليدي فورنس. وقد أوصلت تلما رسالة إلى طاولتنا تسألنا فيها إذا كنا نريد الانضمام إليهما في ما بعد في النادي الروسي.

وقد بدا لي أن ذلك الاتصال الأول كان سطحياً جداً. فبعد التعارف، طلب صاحب السمو الملكي شراباً ثم مضى يرقص مع الليدي فورنس. وحين عاد إلى الطاولة، جلس من جديد إلى جانبي وعمد إلى وعظي.

وسألني ملاحظاً:

ــ أنت أميركي، بالتأكيد؟

ــ كلا، أنا إنكليزي.

فبدا مندهشاً:

ــ منذ متى أنت في الولايات المتحدة؟

ــ منذ عام ١٩١٠.

ــ آه! قال وهو يهز رأسه حالماً. قبل الحرب؟

ــ يبدو ذلك.

فشرع يضحك.

خلال الحديث في ذلك المساء، قلت إن شاليابين يقيم أمسية على شرفي، فأعلن الأمير بصبيانية لطيفة أنه يود المجيء هو أيضاً. فقلت:

ــ أنا متأكد، يا صاحب السمو، أن شاليابين سيتشرَّف ويسر كثيراً.

ثم استأذنته لإعلام مضيفي. وقد اكتسب الأمير تقديري في ذلك المساء حين بقي جالساً بالقرب من والدة شاليابين، التي كانت في التسعين من عمرها تقريباً، إلى حين غادرت المكان. وقد انضم إلينا بعد ذلك وتسلَّى معنا.

كان أمير الغال هذه المرة في لندن ودعـاني إلى فورت بيلفيـدير، دارتـه الريفيـة. كان المبني قصراً قديماً جرى تجديده وتأثيثه بطريقة عادية، لكن الطعام كان ممتازاً، وكـان الأمير مضيفاً لطيفاً. وقد زوَّرني مسكنه: كانت غرفته بسيـطة وساذجـة، وعلى رأس سريـره سجادة حديثة من الحرير الأحمر مع العلم الملكي. وكدت أسقط من الذهول حين وصلنا إلى غرفة أخرى: غرفة وردية بيضاء اللون مع سرير بأعمدة وثلاث ريش وردية على رأس كل منها. ثم تذكرت أن الريش موجودة على شعار نسب الأمير.

في ذلك المساء علَّمنا أحدهم لعبة كانت قد حازت نجاحاً كبيراً في أميركا، يسمونها لعبة الصدق. تُوَزَّع على كل واحد بطاقة كُتبت عليها عشر صفات: الفتنة، والذكاء، والشخصية، والجاذبية الجنسية، والجمال، والصدق، وحس الدعابة، والقدرة على التكيف، الخ. يغادر أحد اللاعبين الغرفة ويكتب بصدق صفاته الخاصة، واسماً إياها من ١ إلى ١٠. فعلى ـ سبيل المثال ـ أعطيت نفسي سبعة لحس الدعابة، وستة للجاذبية الجنسية، وستة للجمال، وثمانية للقدرة على التكيف، وأربعة للصدق. في غضون ذلك، كان كل من المدعوين الآخرين يضع علامات للضحية التي غادرت الغرفة عن طـريق وسم بطاقتـه خفية. ثم تعـود الضحية وتقـرأ بصوت عال العلامات التي وضعتها لنفسها، ثم يقرأ ناطق بلسان (الحضور) بدوره البطاقـات التي سلَّمها المدعوون لرؤية ما إذا كانت العلامات تتوافق.

حين جـاء دور الأمير، أعـطى نفسه ٣ للجـاذبية الجنسيـة، بينما أعـطاه المـدعـوون ٤ كمعدل، وأعطيته أنا خمسة، وبعض البطاقات لم تكن تعطيه إلا اثنين. أما بالنسبة للجمال فقد أعطى الأمير نفسه ستة، وأعطاه المدعوون إجمالاً ثمانية، وأعطيته أنا سبعة. أما بخصوص الفتنة فأعطى هو نفسه خمسة، والمدعوون ثمانية، وأنا ثمانية أيضاً. وعلى صعيـد الصدق، أعطى الأمير نفسه العلامة القصوى، عشرة، بينما أعطاه المدعـوون معدلاً قـدره ٣,٥، وأنا أربعة. فغضب الأمير، وقال:

ــ إن الصدق هو الصفة الأهم التي أظن أني أمتلكها.

في طفولتي، أمضيت مرة عدة أشهر في مانشستر. والآن وقـد كنت عاطـلاً عن العمل شعرت بالرغبة في الذهاب إلى هناك لرؤية المدينة من جديد. فبالـرغم من الجانب المشؤوم الذي تتميز به مانشستر، كانت تمتلك بالنسبة لي جاذبية خيالية، نوعاً من الألق غير الملموس الذي يخترق الضباب والمطر. ربما كان تذكار نار في أحد مطابخ لانكاشاير، أو ربما كان ذهنية السكان. وأيّاً يكن، فقد استأجرت سيارة ليموزين واتجهت إلى الشمال.

توقفت في طريق في ستراتفورد ـ سور ـ أڤون، التي لم أكن زرتها من قبل. وقد وصلت في ساعة متأخرة من مساء السبت، وبعد العشاء، رحت أتنزه على أمل اكتشاف بيت شكسبير. كانت ليلة حالكة السواد، لكنني سلكت أحـد الشوارع بصـورة غريـزية، وتـوقفت أمام أحـد المنازل، فأشعلت عود ثقاب ولمحت لوحة كتب عليها: «منزل شكسبير». وما من شك في أن روحاً سمحاء وجَّهت خطاي... من يدري، ربّما الشاعر البطولي بالذات!

في صباح اليوم التالي، جاء السير أرشيبالد فلاور، عمدة ستراتفورد، لزيارتي في الفندق وزوَّرني بيت شكسبير. وأنا لا أتوصل حقاً للربط بين الشاعر وذاك المنزل. يبدو لي أمراً لا يُصدَّق أن يكون ذلك العقل سكن هناك وترعرع. من السهل تخيل ابن مزارع هاجر إلى لندن وأصبح هناك ممثلاً ناجحاً ومالك مسرح، لكن أن يكون أصبح الشاعر الكبير والمسرحي العظيم، وأن يكون تمكن من فهم البلاطات الأجنبية والكاردينالات والملوك فذلك أمر بدا لي غير قابل للتصوّر: لا يهمني من كتب أعمال شكسبير، أكان باكون، أو ساوثامبتون، أو ريشموند، لكني لا أتوصل لتصديق أنه كان ذلك الفتى من ستراتفورد. إن من كتبها كان أرستقراطياً، فازدراؤه العميق للنحو لم يكن يمكن أن يكون إلا موقفاً صادراً عن عقل أمير، وعقلٍ موهوب. وبعد زيارة المنزل، وسماع القصص التي تروى في ستراتفورد عن طفولته المشوشة، وصنائعه كتلميذ رديء، وصيداته المحظورة وآرائه كفلاح، لا يسعني الاعتقاد أنه خضع لتحول فكري جعل منه الأعظم بين جميع الشعراء. وفي عمل العباقرة العظام، تتكشف أصول متواضعة في مكان ما، لكننا لا نجد أي أثر لها لدى شكسبير.

واصلت طريقي من ستراتفورد إلى مانشستر التي بلغتها في الثالثة تقريباً من بعد الظهر. كان ذلك اليوم يوم أحد، وكانت مانشستر تغوص في خدر متخشب، وبالكاد كانت هناك حياة في الشوارع، وقد ركبت السيارة إذاً من جديد لأمضي إلى بلاكبورن.

حين كنت أقوم في صباي بجولة مع **شرلوك هولمز**، كانت بلاكبورن إحدى مدني المفضلة. كنت أنزل في حانة صغيرة أدفع فيها ١٤ شلناً في الأسبوع مقابل الإقامة، وخلال ساعات الفراغ كنت ألعب بالبليار. وكان بيلينغتون، جلاد انكلترا، يتردد على تلك المؤسسة، وكنت أتباهى بكوني لعبت بالبليار معه.

مع أن الساعة لم تكن تتجاوز الخامسة، وقد هبط الليل حين وصولنا، تعرفت على حانتي وشربت فيها قدحاً خفيةً. كان صاحب المكان قد تغيّر، لكن صديقي القديم، البليار، كان لا يزال هناك.

ذهبت بعد ذلك خبط عشواء إلى ساحة السوق، وهي أكثر من هكتار من الأرض المعتمة بقليل، كانت ثلاثة أو أربعة مصابيح عاجزة عن إنارتها. وكانت هناك عدة مجموعات من الناس تستمع إلى خطباء سياسيين. كان ذلك في فترة أزمة حادة تعيشها انكلترا، وقد تنقلت بين مجموعة وأخرى، مصغياً إلى الخطب المتنوعة: كان بعضها حاداً ولاذعاً، وكان هذا الخطيب يتكلم على الاشتراكية، وذاك على الشيوعية، وثالث على خطة دوغلاس التي كانت، للأسف، شديدة التعقيد بحيثُ يصعب أن يفهمها الشغيل المتوسط. وقد أعرت انتباهي لأحاديث الناس الذين كانوا يتجمعون ليناقشوا في ما بعد، ففوجئت برؤية محافظ عجوز من المرحلة الفيكتورية يعبر عن آرائه. قال: «المشكلة هي أن انكلترا عاشت طويلاً جداً على كاهلنا، فما يهدِّم انكلترا إنما هو مخصَّص البطالة!». وفي الظلمة، لم أتمكن من مقاومة الرغبة في إبداء رأيي أنا أيضاً، فقلت: «لولا مخصَّص البطالة، لما كانت هناك انكلترا». وقد عاد عليَّ ذلك ببعض الهمسات المؤيِّدة.

لم تكن الآفاق السياسية مشجِّعة بتاتاً. فلقد كان في انكلترا حوالى أربعة ملايين عاطل عن العمل، وكان عددهم يتزايد، ومع ذلك لم يكن لدى حزب العمال ما يقدمه أكثر من الحزب المحافظ.

ذهبت إلى وولويتش، حيث استمعت إلى خطاب انتخابي ألقاه المستر كانينغهام ريد باسم مرشح ليبرالي. وعلى الرغم من كل كلماته الجميلة، لم يَعِد بشيء ولم يترك أي أثر في الجسم الانتخابي. وقد صرخت شابة من حي كوكني الفقير كانت جالسة بقربي: «دعونا من خطبكم المميِّزة وقولوا لنا ماذا ستفعلون لأجل الأربعة ملايين عاطل عن العمل، وسنرى عندئذ إذا كان علينا التصويت لحزبكم أو لا!».

لو كانت مثالاً على ما يشكِّل الجسم الانتخابي لكان ثمة أمل في رؤية حزب العمال يفوز في الانتخابات، لكنني كنت مخدوعاً، إذ بعد خطاب سناودن على الراديو، تحولت الأصوات نحو المحافظين، واستعاد سناودن مقعده في المجلس. هكذا غادرتُ انكلترا التي قامت فيها حكومة محافظة ووصلت إلى أميركا حيث كانت حكومة محافظة تغادر السلطة.

إذا وضعنا الأمور في موضعها الأفضل، ينبغي الاعتراف بأن العطل تكون دائماً فارغة كفاية. فلقد تسكعت طويلاً في مراكز الاصطياف في أوروبا، وكنت أعرف ما الذي يكمن وراء ذلك. كنت خائباً، وبلا هدف، فمنذ إدخال الصوت إلى السينما بت عاجزاً عن تحديد مشاريعي. ومع أن **أضواء المدينة** شكل انتصاراً وحقق إيرادات أضخم مما حقق أي فيلم ناطق في تلك الفترة، كان يبدو لي أن تصوير فيلم صامت جديد سوف يضع أمامي عقبة أشد ضخامة، ثم إني كنت أعيش هاجس الظهور بمظهر القديم الذي عفاه الزمن. فمع أن فيلماً صامتاً جيداً يكون فنياً أكثر،كنت مضطراً للتسليم بأن الصوت يعطي الشخصيات حضوراً أشد.

كنت أفكر أحياناً بإمكانية تصوير فيلم ناطق، لكن هذا المنظور كان يثير نفوري، لأني كنت أدرك أني لن أنجح يوماً في بلوغ تفوق أفلامي الصامتة. ثم سيكون عليّ أن أتخلى بالكامل عن شخصية تشارلي. كان البعض يقترحون أن أجعله يتكلم، لكن ذلك كان أمراً غير معقول، لأن أول كلمة يتلفظ بها قد تجعل منه شخصاً آخر. ثم إن الرحم الذي خرج منه هو بصمت الأسمال البالية التي يرتديها.

كانت تلك أفكاراً كئيبة تحثني على إطالة عطلتي، لكن ضميري لم ينفك يضايقني ويقول لي: «عد إلى هوليوود، واشتغل!».

بعد رحلتي إلى الشمال، عدت إلى الكارلتون في لندن وفي نيتي أن أشتري بطاقة سفر إلى كاليفورنيا عن طريق نيويورك، حين جاءت برقية من دوغلاس فيربانكس في سانت موريتز، فعدَّلت خططي. كان يقول فيها: «تعال إلى سانت موريتز، وسأطلب ثلجاً جديداً لمجيئك. أنتظرك بمحبة. دوغلاس».

وبالكاد كنت أنهيت قراءة البرقية حين طُرق الباب بحياء. فقلت: «تفضلوا!»، وكنت

أتوقع رؤية خدم الطابق الذي أنا فيه. لكن وجه صديقتي ابنة الكوت دازور ظهر من شق الباب، ففوجئت وغضبت ورضخت.

ــ «ادخلي»، قلت لها ببرود.

هذا وقد ذهبنا نتسوَّق من عند هارودز، حيث اشترينا ثياباً للتزلج، ثم انتقلنا إلى حانوت بائع للجواهر في بوند ستريت لشراء إسوارة سُرَّت بها كثيراً. وبعد يوم أو يومين، وصلنا إلى سانت موريتز حيث أفرحني لقاء دوغلاس من جديد وأشاع في نفسي المرح. ومع أن دوغ كان يعيش الورطة ذاتها بصدد حياته المهنية، فقد امتنعنا عن الحديث عن ذلك. كان لوحده، وأعتقد أنه وماري كانا قد انفصلا، لكن لقاءنا في جبال سويسرا بدَّد كآبتنا. لقد تزلجنا معاً، أو أننا تعلمنا التزلج معاً، في كل حال.

كان الكرونبرينز(*) السابق، ابن القيصر، في الفندق ذاته، لكنني لم أتعرف إليه إطلاقاً؛ ومع ذلك، ابتسمت حين التقيته في المصعد، بعد أن فكرت في فيلمي **Shoulder Arms**، أو **شارلو جندياً**، حيث يلعب ولي العهد الألماني دوراً هزلياً.

خلال تلك الإقامة في سانت موريتز، دعوت أخي سيدني للمجيء والانضمام إلينا. وبما أنه لم يكن ثمة ما يستعجل عودتي إلى بيفرلي هيلز، قررت العودة إلى كاليفورنيا عن طريق الشرق، ووافق سيدني على مرافقتي إلى اليابان.

ذهبنا إلى نابولي حيث ودعت صاحبتي. لكنها كانت فرحة المزاج هذه المرة، وأعتقد أنها كانت راضخة، بل مثلجة الصدر، لأننا منذ إقامتنا في سويسرا، خفَّ الجاذب الذي كان يشد أحدنا للآخر إلى هذا الحد أو ذاك، وأدركنا ذلك نحن الاثنين. وهكذا انفصلنا أحدنا عن الآخر كصديقين، وفيما كانت السفينة تبتعد، راحت تقلد على الرصيف مشية تشارلي. كانت تلك هي الصورة الأخيرة التي بقيت في خيالي عنها.

(*) ولي العهد في ألمانيا الامبراطورية (م).

الفصل الثالث والعشرون

لقد كُتبت إلى الآن كتبُ رحلاتٍ ممتازةٌ عديدةٌ إلى الشرق، لذا لن أستغل صبر القارىء. لكن اسمحوا لي أن أقول بعض كلمات عن اليابان بسبب ظروف إقامتي هناك، وقد كانت غريبة. كنت قد قرأت بشأن اليابان كتاب لافكاديو هورن، وما كتبه عن الثقافة والمسرح اليابانيين أثار رغبتي في التعرف إلى ذلك البلد.

كنا نبحر على متن سفينة يابانية، وقد غادرنا رياح كانون الثاني المثلجة لندخل المنافذ المشمسة إلى قناة السويس. وفي الإسكندرية، صعد معنا ركابٌ جدد، عرباً وهنوداً. لقد أخذنا، في الحقيقة، عالماً جديداً تماماً! فعند غروب الشمس، كان العرب يبسطون سجاداتهم على ظهر السفينة ويستديرون نحو مكة ليقيموا صلاتهم.

في صباح اليوم التالي، كنا في البحر الأحمر، لذا تخلصنا من ثيابنا «الشمالية»، وارتدينا سراويل قصيرة بيضاء وقمصاناً حريرية خفيفة. وقد كنا اعتدنا على فواكه البلاد الحارة وجوز الهند في الإسكندرية، بحيث كنا نأكل المانغا على الفطور، ونشرب حليب جوز الهند المثلج على العشاء. وقد قررنا ذات مساء أن نتعشى على الطريقة اليابانية، جالسين على سطح السفينة. وقد علمت من أحد الربابنة أن إضافة قليل من الشاي إلى الأُرُز تجعل مذاقه أطيب. وبمقدار ما كنا ننحدر أكثر نحو الجنوب، كانت تزداد إثارتنا. وقد أعلمنا الربان الياباني بهدوء بأننا سنصل إلى كولومبو عند الصباح. ومع أن سيلان باتت إغرابية، فلقد كانت رغبتنا الوحيدة هي الذهاب إلى بالي وإلى اليابان. ولقد كانت محطتنا القادمة سنغافورة، حيث وجدنا أنفسنا في جو زخارف صينية: كانت أشجار البانيان تنمو على ضفة المحيط. أما الذكرى الأكثر بروزاً التي بقيت في ذاكرتي، فكانت رؤية ممثلين صينيين يقدمون مسرحية في منتزه المنوّعات المسرحية الخاص بالعالم الجديد، وأولاد موهوبين بشكل خارق ورفيعي الثقافة، لأن جعبتهم كانت تضم العديد من المؤلفات الكلاسيكية المسرحية، وهي من أعمال شعراء صينيِّين كبار.

كان الممثلون يلعبون على مسرح باغود(*) بالأسلوب التقليدي. وقد كانت المسرحية التي حضرتها تدوم ثلاث أمسيات. وكانت بطلة الفرقة، وهي فتاة في الخامسة عشرة من عمرها، تلعب دور الأمير وتغني بصوت حاد وصارٍ قليلاً. وقد كانت الذروة في المساء الثالث. هذا وقد يكون من الأفضل أحياناً عدم فهم اللغة، لأنه ما من شيء كان أمكنه التأثير فيَّ بصورة أكثر إيلاماً من الفصل الأخير، ونبرات الموسيقى الساخرة، وسقسقة الحبال، وجلبة الصنوج، والصوت الأجش والحاد للأمير الشاب المنفي وهو يعبر عن قلق روح ضائعة في أفلاك الوحدة في اللحظة التي خرج فيها من المسرح.

كان سيدني هو الذي نصحني بزيارة جزيرة بالي، قائلاً لي كم بقيت بمنأىً عن الحضارة، وواصفاً نساءها الشامخات ونهودهن العارية. وقد أثار كل ذلك اهتمامي. هذا وقد لمحنا الجزيرة للمرة الأولى صباحاً: كانت غيوم صغيرة بيضاء تحيط بجبال خضراء وتترك ذراها شبيهة بجزر عائمة. لم يكن في ذلك الزمن ميناء ولا كان هناك مهبط طائرات، وكان المسافرون ينزلون بواسطة زورق على طوف خشبي عتيق.

اجتزنا قرى لها جدران مبنية بطريقة تثير الإعجاب، ومداخل مهيبة، تعيش فيها عشر عائلات أو عشرون. وكلما تجولنا أكثر كان المشهد يصبح أشد جمالاً. كانت مرايا حقول الأرُز المفضَّضة تنزل متدرِّجةً حتى تعرجات أحد الجداول. وقد نكعني(*) سيدني فجأة بكوعه. فعلى مدى الطريق، كان هناك صف من النساء الشابات الرائعات، المرتديات فقط بَتيكاً(**) ملفوفاً حول قامتهن، عاريات الصدور، يسرن وهن يحملن على الرأس سلالاً محمَّلة بالثمار. ولم ننفك بعد ذلك نتبادل النكات، فلقد كان بعضهنّ على درجة عالية من الجمال. أما دليلنا، وكان تركياً أميركياً جالسا قرب السائق، فقد كان مثيرا للغيظ، لأنه كان يستدير بصورة فاسقة ليلاحظ ردود فعلنا، كما لو كان هو الذي نظم المشهد لأجلنا.

كان فندق دنباسار قد بني حديثاً، وكان كل صالون مفتوحاً كشرفة، تقسمه حواجز، وفيه أسرَّة نظيفة ومريحة.

كان هيرشفيلد، رسَّام الأكواريل الأميركي، وزوجته يعيشان في بالي منذ شهرين، وقد دعوانا إلى بيتهما حيث أقام معهما الرسّام المكسيكي ميغيل كوفاروبياس. كانا قد استأجراه من نبيل بالي، وكانا يعيشان هناك كأسياد نبلاء مقابل ١٥ دولاراً في الأسبوع. وقد ذهبنا نتنزه بعد العشاء، أنا وسيدني والزوجان هيرشفيلد. كان الليل قاتماً وثقيلاً، ولا نسمة هواء، ثم فجأة تدفقت على حقول الأرز أسراب من الحباحب، في موجات متماوجة من الضوء الأزرق. وكان يُسمع في البعيد قرعُ الطبلات وضجيج الصنوج التي كانت تُضرب بطريقة موقَّعة. فقال هيرشفيلد:

(*) هيكل أو معبد ياباني متعدد الأدوار (م).

(*) ضربني بكوعه (م).

(* *) صنف من الحرير الملوّن على طريقة جاوَة (م).

ــ ثمة رقص في مكان ما، هَلُمّوا إلى هناك.

على بعد مئتي متر تقريباً، وجدنا سكاناً أصليين متجمعين، وقوفاً ومقرفصين، وشابات متربعات ومعهن سلال ومشاعل صغيرة، لإضاءة الحلويات التي كان عليهن بيعها. وقد شققنا لأنفسنا طريقاً عبر الحشد ولمحنا فتاتين صغيرتين في العاشرة من العمر، وقد التفّت كل منهما بسارونغ(*) مطرَّز، مع ضفائر من الذَّهب المرصَّع كانت تتألق في ضوء المصباح في حين كانتا تؤديان رقصات معقَّدة على أنغام عالية ومرتجفة، تصاحبها نغمات جهيرة عميقة لصنوج ضخمة. كان رأساهما يتأرجحان، وعيناهما تزغلان، وأصابعهما ترتجف على إيقاع تلك الموسيقى الشيطانية، التي كانت تتصاعد كسيلٍ مدمِّر، ثم تهدأ من جديد بحيث تتحول إلى نهر وديع. لكن النهاية كانت مخيِّبة للأمل، إذ توقفت الراقصتان فجأة وانضمتا إلى الحشد. ولم يصفِّق أحد، فالباليُّون لا يصفقون أبداً، كما ليست لديهم كلمات تعبر عن الحب أو عن الشكر.

جاء والتر سبايز، وهو موسيقي ورسّام، لرؤيتنا والغداء معنا في الفندق. كان يسكن في بالي منذ ١٥ عاماً، ويتكلم البالية، وكان قد نقل إلى البيانو بضع قطع موسيقية عزفها أمامنا، كما لو كنا إزاء كونشرتو لباخ معزوف بإيقاع أسرع مرتين. وقد كان يقول إن ذوقهم الموسيقي مرهف جداً، فهم يرفضون جازنا الحديث الذي يجدونه مضجراً وشديد البطء. ولقد كانوا يجدون موزار عاطفياً، ولم يكن يهمهم غير باخ لأن تآلفات أنغامه وإيقاعاته تشبه تلك الخاصة بهم. أما أنا فوجدت موسيقاهم باردة وقاسية، ومزعجة قليلاً. فحتى المقاطع التي تعبر عن شجن عميق كانت لها الكآبة المشؤومة لمينوطور جائع.

بعد الغداء، اصطحبنا سبايز إلى حديقة الحيوان حيث كان سيتم احتفال جلد، وقد اضطررنا للسير أكثر من ستة كيلومترات على امتداد أحد المعابر للوصول إليها. وحين وصلنا، وجدنا جمهوراً حاشداً يحيط بمذبح طوله حوالي أربعة أمتار. وكانت عذراوات صبايا يرتدين سارونغات رائعة، عاريات الصدور، يقفن في الصف مع سلال مليئة بالثمار والتقادم التي كان يباركها كاهن كان له هيئة درويش مع شعر طويل يتدلى إلى أسفل قامته وكساء أبيض يرتديه، وذلك قبل وضع تلك التقادم على المذبح. وحين أنهى الكهنة صلواتهم، شق فتيان ساحرون طريقهم إلى المذبح الذي نهبوا ما عليه، جامعين كل ما في وسعهم جمعه فيما الكهنة يجلدونهم بعنف. وقد اضطر بعضهم للتخلي عن منهوباتهم بسبب العقاب الصارم الذي كانوا يتلقونه، والذي كان مفترضاً به أن يخلصهم من الأرواح الشريرة التي تدفعهم إلى السرقة.

زرنا هياكل وقرى على سجيتنا، وحضرنا معارك ديكة، وأعياداً واحتفالات دينية كانت تتم في كل ساعة من ساعات النهار والليل، وأتذكر احتفالاً انتهى في الخامسة صباحاً. إن آلهتهم تحب اللذة، والباليون لا يعبدونها على سبيل التوقير والإجلال، بل بمودة وشغف.

ذات ليلة، عثرت أنا وسبايس على أمازونية طويلة القامة كانت ترقص على ضوء مشعل،

(*) نوع من التنورة يرتديها سكان الملايو (م).

وكان غلامها يحذو حذوها وراءها. وكان رجل يبدو في ريعان الصبا يقدم له نصائح بين الحين والآخر. وقد اكتشفنا في ما بعد أنه والده، وسأله سبايس عن عمره، فأجابه سائلاً:

ـ متى حدثت الهزة الأرضية؟

ـ منذ ١٢ عاماً، أجاب سبايس.

ـ حسناً، كان لدي آنذاك ثلاثة أولاد متزوجين.

وبما أن هذا الجواب بدا له غير كافٍ، أضاف مدققاً:

ـ «عمري ألفا دولار»، موضحاً أن هذا هو المبلغ الذي أنفقه طيلة حياته.

وفي العديد من القرى، رأيت سيارات جديدة تماماً تستخدم كأخمام للطيور، وسألت سبايس بشأن ذلك فقال:

ـ يجري حكم القرية وفقاً للمبادىء الشيوعية، والمال الذي يكسبونه عن طريق تصدير بعض المواشي يشكل نوعاً من حساب التوفير الذي يصل مع مرور الأعوام إلى مبلغ مهم. وقد أقنعهم ذات يوم بائع سيارات مقدام بأن يشتروا سيارات كاديلاك. وفي اليومين أو الأيام الثلاثة الأولى، ساقوها واستمتعوا كثيراً، إلى حين بات ينقصهم البنزين، فاكتشفوا عندئذ أن تكاليف صيانة سيارة يوماً واحداً تعادل ما يكسبونه في شهر، فتخلوا عنها عندئذ في القرى لِيَجثم الدجاج فوقها.

والفكاهة البالية تشبه تلك الخاصة بنا، وتكثر فيها النكات حول الحب، وتحصيلات الحاصل واللعب على الكلمات. وقد أردت امتحان روح الدعابة لدى خادمنا الشاب في الفندق، فسألته:

ـ لماذا يجتاز فروج الطريق.

فقال للمترجم بلهجة تنم عن الاحتقار:

ـ هذا السؤال يعرفه الجميع.

ـ حسناً إذاً، ما الذي سبق الآخر، الفروج أم البيضة؟

هذه المرة، أعياه الجواب.

ـ فرخ الدجاج... لا... (قال وهو يهز رأسه): البيضة... لا... (ودفع عمامته إلى الوراء وفكر قليلاً؛ ثم قال، متيقناً من صحة الجواب): البيضة.

ـ لكن ما الذي باض البيضة؟.

ـ السلحفاة، لأن السلحفاة فوق كل شيء وتبيض كل البيوض.

كانت بالي آنذاك فردوساً. فالسكان الأصليون كانوا يعملون أربعة أشهر في حقول الأرز ويخصصون الثمانية أشهر الأخرى لفنهم وثقافتهم. كانوا يلهون مجاناً في كل الجزيرة، إذ تقدم قرية عرضاً فنياً للقرية الأخرى، لكن النعيم زال الآن، فلقد علَّمت التربية الباليين أن يغطوا أثداء نسائهم ويتخلوا عن آلهتهم أصدقاء اللذة لصالح آلهة الغرب.

قبل الرحيل إلى اليابان، عبّر كونو، سكرتيري الياباني، عن رغبته في أن يسبقنا إلى هناك للإعداد لوصولنا. كنا سننزل ضيوفاً على الحكومة. وفي ميناء كوب، استقبلتنا طائرات كانت تحوم حول سفينتنا وترمي بقصاصات ترحيب، فيما كان آلاف الأشخاص يهتفون لنا على الأرصفة. وكان مشهد كيمونات(*) لا تحصى ذات ألوان زاهية، وراء المداخن ومستودعات التجارة البحرية الرمادية، تشكل مفارقة رائعة. ولم يكن في تلك المظاهرة اليابانية القَسْرُ أو اللغز الذي يجري إلصاقه بالبلد المعني: لقد كان جمهوراً متأثراً ومتحمساً مثله مثل أي جمهور في أي مكان آخر.

وضعت الحكومة قطاراً خاصاً تحت تصرفنا لينقلنا إلى طوكيو. وفي كل محطة، كانت الحشود والإثارة تتنامى وتزداد، وكانت الأرصفة مزدحمة بكوكبة من الفتيات الجميلات اللواتي يتحفننا بالهدايا. كن يقفن بكيموناتهن، فيجعلننا نتصور معرض أزاهير. وفي طوكيو، كان ينتظرنا حشد قُدِّر بأربعين ألف شخص لاستقبالنا في محطة القطار. وفي زحمة التدافع، تعثر سيدني ووقع وكاد يداس بالأقدام.

إن سر الشرق أسطوري، وكنت اعتقدت دائماً أننا، نحن الأوروبيين، نبالغ في تقديره. لكنه كان مخيِّماً في الجو منذ اللحظة التي رسونا فيها في كوب، وهو بدأ الآن يلفّنا في طوكيو. وفي الطريق إلى الفندق، دلفنا إلى حي صامت جداً من أحياء المدينة وفجأة، تباطأت السيارة وتوقفت قرب قصر الامبراطور. وقد ألقى كونو نظرة قلقة عبر زجاج السيارة الخلفي، ثم استدار نحوي وقدّم لي طلباً غريباً: سألني إذا كنت أتفضل فأنزل من السيارة وأنحني في اتجاه القصر. فسألته:

ــ أهذه هي العادة؟

ــ «أجل»، قال بلهجة لا مبالية، لست بحاجة للانحناء، بل انزل من السيارة، وسيكون ذلك كافياً.

وقد أدهشني هذا الطلب بعض الشيء، لأنه لم يكن هناك أحد، ما عدا السيارتين أو الثلاث سيارات التي كانت تلحق بنا. فلو كانت تلك عادة من عادات البلد، لكان الجمهور عرف بذلك، وكان حصل حشد، وفي كل حال تجمعٌ صغير. مع ذلك، نزلت من السيارة وانحنيت، وحين صعدت من جديد، بدا كونو مثلج الصدر. أما سيدني فوجد ذلك غريباً وقدَّر أن كونو يتصرف بصورة غريبة، فمنذ وصولنا إلى كوب، كان يبدو منشغل البال، لكنني طردت هذه الفكرة، وأنا أقول في نفسي إنه ربما أفرط في الشغل.

لم يحدث أي شيء خارق في ذلك المساء، لكن في صباح اليوم التالي، دخل سيدني إلى الصالون ثائراً جداً وقال:

ــ أنا لا أحب هذا، فلقد فتشوا كل حقائبي، وأثاروا الفوضى في كل أوراقي!

(*) الكيمونو فستان فضفاض تلبسه النساء في اليابان (م).

فقلت له إنه حتى إذا كان ذلك صحيحاً، فهو غير خطير. لكن سيدني لم يكن يريد استعادة طمأنينته، وقال:

ــ هنالك شيء ما ملتبس يحصل!

لكني انفجرت ضاحكاً متهماً إياه بأنه مفرط في الحذر.

في ذلك الصباح، كانت الحكومة قد عينت ممثلاً لها للاهتمام بنا. وقد شرح لنا أنه إذا كنا نود الذهاب إلى مكان ما، علينا إبلاغه بذلك عن طريق كونو. وقد أعلن سيدني بإلحاح أنهم يراقبوننا وأن كونو يخفي عنا شيئاً ما. وعليّ الاعتراف بأن كونو كان يبدو مع مرور الوقت أكثر اهتماماً وأشد عصبية.

لم تكن شكوك سيدني من دون أساس، لأن حادثة غريبة حدثت في ذلك اليوم. فلقد قال لنا كونو إن تاجراً لديه رسوم إباحية مرسومة على الحرير ويود أن أجيء إلى متجره لتأملها. فقلت لكونو أن يبلغ ذلك الرجل بأني لا أعير ذلك أي اهتمام. فبدا الانزعاج على كونو، وقال مقترحاً:

ــ وإذا طلبت منه أن يتركها في الفندق؟

ــ «ليس الأمر وارداً»، قلت، قل له فقط ألا يضيع وقته.

فقال متردداً:

ــ هؤلاء الناس لا يقبلون بأن يقال لهم لا.

ــ «عمَّ تتحدث؟»، سألته.

ــ حسناً، منذ أيام عديدة وهم يهددونني. هنالك عناصر عنيفة هنا، في طوكيو.

ــ هلمَّ إذاً! (أجبته). سوف نطلق الشرطة في أثرهم.

لكن كونو هزَّ رأسه.

في مساء اليوم التالي، وفيما كنا، أنا وأخي وكونو، نتعشى في قاعة خاصة داخل أحد المطاعم، دخل ستة شبان، فجلس أحدهم قرب كونو وصلّب ذراعيه، في حين تراجع الآخرون خطوة وظلوا واقفين. وقد خاطب الجالس كونو باليابانية بغضبٍ فشل في كبحه. وشحب كونو حين سمع إحدى الجمل التي تلفظ بها.

لم أكن مسلحاً، لكنني وضعت يدي في جيب سترتي كما لو كان معي مسدس وصحت:

ــ ماذا يعني كل هذا؟

فتمتم كونو، من دون أن يرفع رأسه:

ــ يقول إنك أهنت جدوده حين رفضت رؤية رسومه.

فنهضت بقفزة واحدة، وفيما كنت أحتفظ بيدي في جيبي، حدقت في الشاب بعزم وتصميم وقلت:

ــ ما عساها تكون كل هذه القصة؟

ثم قلت لسيدني:

ــ فلننصرف. وأنت يا كونو، استدع تاكسياً.

وحين بتنا في أمانٍ في الشارع، كنا جميعاً مثلجي الصدر. وقد كان تاكسي ينتظرنا ومضى بنا.

وقد بلغ اللغز ذروته في اليوم التالي، حين دعانا ابن رئيس الوزراء لحضور مباريات مصارعة سوومي. كنا جالسين بهدوء ونحن نتابع الصراع حين جاء أحد المستخدمين وربّت على كتف كن إنوكاي وهو يتمتم في أذنه بشيءٍ ما. فاستدار نحونا واعتذر قائلاً إنه مضطر للذهاب لأسباب ملحة، لكنه سيعود لاحقاً. وقد عاد في الواقع حوالى نهاية المباراة، وكان وجهه شاحباً ويبدو شديد الإثارة. فسألته إذا كان مريضاً فهز رأسه ثم أخفى وجهه فجأة بين يديه وقال:

ــ لقد اغتالوا والدي للتو.

وأعدناه إلى شقتنا وأعطيناه الكونياك. فروى لنا عندئذ ما الذي حدث: كان ستة من تلامذة الضباط في البحرية قد قتلوا الحراس أمام قصر رئيس الوزراء، وتسللوا إلى شقته الخاصة حيث وجدوه مع زوجته وابنته. وقد روت أم مضيفنا له بقية ما حدث: بقي القتلة هناك عشرين دقيقة، وأسلحتهم مصوبة إلى والده، في حين كان رئيس الوزراء يحاول إعادتهم إلى صوابهم، لكن عبثاً. من دون أن ينبسوا ببنت شفة، كانوا على وشك قتله، لكنه توسل إليهم ألا يقتلوه بحضور عائلته. فسمحوا له إذاً بأن يستأذن امرأته وابنته بالانصراف. ونهض بهدوء واصطحب القتلة إلى غرفة أخرى، حيث حاول أن يدفعهم من جديد لتحكيم العقل، لأن العائلة أمضت وقتاً طويلاً في انتظارٍ عظيم القلق قبل أن تسمع الطلقات النارية التي قضت على رئيس الوزراء.

هذا وقد حدثت العملية في حين كان ابنه يحضر المصارعة. وقد قال لنا إنه لو لم يكن معنا، لقُتل مع والده.

رافقته إلى بيته، ورأيت الغرفة التي قتل فيها والده قبل ساعتين. كانت آثار بقعة كبيرة من الدم لا تزال ظاهرة على الحصائر، وكان هنالك رهط كبير من ناقلي أخبار الساعة ومراسلي الصحف، لكنهم كانوا من الاحتشام بحيث لم يأخذوا صوراً. بيد أنهم رجوني أن أدلي بتصريح، فلم يسعني إلا أن أقول إنها مأساة مفجعة لعائلته ولبلاده.

كنت سألتقي في اليوم التالي رئيس الوزراء المتوفى في استقبال رسمي جرى إلغاؤه طبعاً. وقد أعلن سيدني أن الاغتيال جزء من اللغز، وأننا متورطون بصورة أو بأخرى في القضية. لقد قال:

ـ إنهـا أكثر من مصـادفة أن يكـون ستة رجـال قتلوا رئيس الوزراء، وستـة دخلوا إلى المطعم في المساء الذي كنا نتعشى خلاله فيه.

هذا وقد بقي اللغز من دون حل، إلى حين كتب هيوغ بياس كتابه الفريد **Government by Assassination**، الذي نشره ألفرد أ. نوف. يبدو أن جمعية سرية تسمى التنين الأسود كانت نشيطة جداً في تلك الفترة، وأنها هي التي اشترطت أن أنحني أمام القصـر. وأنا أقتطف من كتاب هيوغ بياس العرض التالي لمحاكمة قتلة رئيس الوزراء:

«أعلن في ما بعد المـلازم سايشي كـوغا، زعيم المؤامـرة، أمام المجلس الحـربي أن المتآمرين ناقشوا خطة لإعلان الأحكام العرفية عن طريق قصف البرلمان. كـان على مدنيين يمكنهم بسهولة أن يحصلوا على جوازات مرور أن يرموا بقنـابل من منصـة الجمهور في حين ينتظر ضباط شباب على الأبواب لقتل أعضاء البرلمان حين يهرعون إلى الخارج. كما أن خطة أخرى كانت بدت مضحكة جـداً بحيث لا يمكن تصديقهـا لو لـم يجـر ذكرهـا أمام المجلس الحربي، وكانت تقضي باغتيال تشارلي شابلن خلال زيارته لليابان. كان رئيس الوزراء قد دعا المستر شابلن لتناول الشاي، وكان الضباط الشباب يفكرون في الهجـوم على مسكنه خـلال الاستقبال.

القاضي: وما المعنى الذي يتخذه اغتيال شابلن؟

كوغا: شابلن شخصية شعبية في الولايات المتحدة، وهو حبيب الطبقة الرأسمالية. وقد كنا نظن أن قتله قد يتسبب بحرب مع أميركا، ونكون أصبنا هكذا عصفورين بحجر واحد.

القاضي: لماذا إذاً تراجعتم عن مشروعكم العجيب؟

كوغا: لأن الصحف نشرت في ما بعد أن الاستقبال كان لا يزال غير أكيد.

القاضي: لماذا أردتم مهاجمة مسكن رئيس الوزراء؟

كوغا: لأجل إطاحة رئيس الوزراء، وهو في الوقت ذاته رئيس حزب سيـاسي. بمعنى آخر، لإطاحة مركز الحكومة بالذات.

القاضي: هل كنتم تنوون قتل رئيس الوزراء؟

كوغا: أجل، كنت أنوي فعل ذلك. لكن لم يكن لدي أي سبب شخصي للحقد عليه.

«وقد أعلن السجين نفسه أنهم تراجعوا عن قتل شابلن، لأنهم كانوا يتساءلون إذا كان من المستحسن قتل الكوميدي لأجل الفرصة الضئيلة التي قـد يتيحها قتله للتسبب بـالحرب مـع الولايات المتحدة وزيادة سلطان العسكريين».

وأنا أتخيل القتلة وقد نفذوا مشروعهم ليكتشفوا بعد ذلك أني لست أميركياً بل إنجليزياً: «آه! عفواً!».

بيد أنه لم يكن كل شيء في اليابان من قبيل الألغاز والإزعاجات، فلقد كـانت إقامتي

هناك مثيرة جداً للاهتمام. عاد عليّ مسرح كابوكي بمتعة تجاوزت توقعاتي. والكابوكي ليس مسرحاً شكلياً صرفاً، بل مزيج من القديم والحديث. والأهم إنما هو مهارة الممثل، والمسرحية تشكل فقط المادة التي يستخدمها. واستناداً إلى مقاييسنا الغربية، إن تقنيتهم محدودة جداً. لا يجري الاهتمام بالواقعية حين لا يمكن الحصول عليها لاحقاً. هكذا لا نستطيع، نحن الغربيين، أن نمثل على المسرح مبارزة من دون أن تكون مضحكة بعض الشيء، لأنه على الرغم من كل حماس المقاتلين، يكتشف الرائي قدراً من الاحتياطات. أما اليابانيون فلا يبذلون بالمقابل أي جهد لإظهار الواقعية. فهم يقاتلون عن بعد، ويقوم الواحد منهم بحركات كبيرة بسيفه محاولاً أن يقطع رأس خصمه، بينما يحاول الآخر أن يبتر ساقيه. كلٌ يقفز من جهته، ويرقص ويستدير على رجل واحدة، بحيث يخيل إلينا أننا إزاء باليه. إن المعركة انطباعية، وتنتهي بصورة الغالب والمغلوب، وكلٌ بوقفته الخاصة به. وإذ ينطلق الممثلون من هذه الانطباعية، يبلغون الواقعية خلال مشهد الموت.

إن السخرية هي موضوع عدد كبير من مسرحياتهم. فلقد رأيت ما يمكن مقارنته بـ **روميو وجولييت**، دراما عاشقين شابين لا يريد أهلهما تزويجهما. كان ذلك يمثل على خشبة متحركة يستخدمها اليابانيون منذ ٣٠٠ عام. وكان ديكور المشهد الأول غرفة الزفاف التي يوجد فيها العروسان الشابان، وخلال الفصل الأول، يتوسط سعاة بريد لدى الأهل لصالح العاشقين الشابين، اللذين يأملان في إمكانية صلح. لكن التراث طاغ، والأهل شديدو العناد. فيقرر المحبان عندئذ الانتحار وفقاً للتقليد الياباني، ويبسط كل منهما سجادة من بتلات الزهور سوف يموت فوقها: يقتل العريس الشاب عروسه أولاً، ثم يسقط على سيفه.

كانت تعليقات الحبيبين حين ينشران بتلات الزهور على الأرض تحضيراً لموتهما تتسبب بضحك الجمهور. وقد قال لي مترجمي إنه كان في النص الكثير من الدعابة والسخرية، كما في هذا الرد على سبيل المثال: «إن العيش بعد ليلة حب كهذه قد يكون مدعاة لخيبة الأمل». وهما يواصلان تبادل النكات على مدى عشر دقائق، ثم تركع العروس الشابة على سجادة الزهور الخاصة بها، وتعرّي عنقها، وفي حين يسحب عريسها سيفاً من غمده ويتقدم ببطء من عروسه الشابة، يتحرك المشهد الدوّار، وقبل أن يبلغ حد سيفه عنق زوجته، يختفي المشهد من أمام بصر الجمهور ولا نعود نرى غير خارج المنزل وقد غمره ضياء القمر. أما الجمهور فينتظر في ما يبدو صمتاً لا نهاية له، وتُسمع أخيراً أصواتٌ تقترب، إنهم أصدقاء للزوجين القتيلين جاؤوا يحملون إليهما النبأ السعيد، نبأ غفران أهلهما لهما. هم سكارى قليلاً، ويناقشون ليعرفوا من منهم سيزف النبأ. ثم يبدأون بالغناء تحت نافذتهما، لكن بما أنهم لا يحصلون على جواب، يقرعون الباب. ويقول أحدهم:

ــ لا تضايقهما، فهما إما ينامان وإما مشغولان جداً.

ويواصلون إذاً غناءهم، بمرافقة ضجيج الصنّاجات الذي يشير إلى نهاية المسرحية، في حين يسقط الستار ببطء.

إلى كم من الزمن سوف تبقى اليابان خلواً من فيروس الحضارة الغربية، هذا سؤال يمكن نقاشه طويلاً. إن الطريقة التي يقدّر بها شعبها هذه اللحظة البسيطة من الحياة المميزة جداً لثقافتهم ـ نظرةٌ تتأخر عند شعاع قمر، حجٌّ للمضي لرؤية أشجار الكرز المزهرة، التأمل الهادىء لحفلة الشاي ـ كل ذلك يبدو معداً للزوال في ضباب روح المبادرة الغربية.

كانت عطلتي على وشك الانتهاء، وبالرغم من جوانب عديدة ممتعة، كنت قد رأيت العديد من المشاهد الممضة: الطعام الذي يتعفن، والسلع المتكدسة فيما يتسكع الناس حولها جائعين، وملايين العاطلين عن العمل الذين كان بالإمكان الاستفادة من خدماتهم.

سمعت ذات يوم رجلاً يقول على العشاء إنه لا شيء بإمكانه أن ينقذ الوضع إذا لم يتم اكتشاف مناجم ذهب جديدة. وحين ناقشت مشكلة التأليل(*) التي تلغي الوظائف، قال أحدهم إن المشكلة قد تُحَلّ بنفسها لأن اليد العاملة ستصبح رخيصة إلى حد منافسة التأليل. كانت الأزمة قاسية إلى أبعد الحدود.

(*) أي تعميم الآلات (م).

الفصل الرابع والعشرون

حين عدت إلى بيتي في بيفرلي هيلز، تسمّرت في منتصف غرفة الجلوس. كانت تلك نهاية ما بعد الظهر، وكانت سجادة ظلال طويلة تمتد عبر المرجة الخضراء في حين تُضلّع الغرفةَ أشعةُ الشمس الذهبية. كم بدا لي ذلك هادئاً مطمئناً! حتى أني كدت أبكي. لقد غبت ثمانية أشهر، ومع ذلك رحت أتساءل إذا كنت سعيداً بالعودة. كنت فاقداً الاستشراق، من دون مشروع، وكنت قلقاً ومدركاً وحدتي القصوى.

كان لدي في أوروبا أمل غامض بالتقاء شخص يمكن أن يعطي حياتي معنى، لكن شيئاً لم يحدث. ومن كل النساء اللواتي التقيتهن، نادرات كانت أولئك اللواتي يدخلن في هذه الفئة، ومن كان من شأنهن أن يفعلن ذلك لم يهتممن بي. والآن وقد عدت إلى كاليفورنيا، بدا لي أني أعود إلى مقبرة. لقد انفصل دوغلاس وماري أحدهما عن الآخر، ولم يعد عالمي موجوداً.

كان عليَّ ذلك المساء أن أتعشّى لوحدي، وهو أمر لم أحبَّه يوماً في ذلك المنزل الكبير. فألغيت العشاء إذاً، وذهبت إلى هوليبود، وأوقفت السيارة في الكاراج وشرعت أمشي في هوليوود بوليڤارد. وقد تولّد لدي شعور بأني لم أسافر إطلاقاً. كانت هنالك الصفوف الطويلة ذاتها من الحوانيت ومحلات الجيش والبحرية، والدراغستورات، والوولوورث إند كريسج، وكان كل ذلك قابضاً للنفس ويفتقر لأي رهافة. لم تكن هوليوود قد فقدت وجهها كمدينة نمت كالفطر.

فيما كنت أتنزه على البوليڤارات، كنت أتساءل إذا لم يكن عليَّ أن أتقاعد، وأبيع كل شيء وأذهب إلى الصين. لم يعد أي شيء يدفعني للبقاء في هوليوود. ولا ريب إطلاقاً في أن زمن الأفلام الصامتة قد ولّى، ولم تكن لدي رغبة في الصراع ضد السينما الناطقة. من جهة أخرى، لم أعد مشاركاً في الموضوع. وقد حاولت التفكير في أحد أعرفه بصورة حميمة لأهاتفه وأدعوه للعشاء من دون أن أتضايق، لكني لم أجد أحداً. وحين عدت إلى المنزل، كان

ريفز، مدير أعمالي، قد تلفن ليقول إن كل شيء على ما يرام، لكن لم يتلفن أحد غيره.

إن واقع ظهوري في الستوديو للاهتمام بتفاصيل أعمال متعبة كان يشبه بالنسبة إليَّ القفز إلى المياه الباردة. بيد أني سررت كثيراً حين عرفت أن أضواء المدينة يحقق نجاحاً ممتازاً، وأن لدينا إلى الآن ثلاثة ملايين دولار من الأرباح الصافية، وهو الأمر الذي لم يكن يحول دون تلقّينا كل شهر شيكات بأكثر من مئة ألف دولار. وقد نصحني ريفز بالذهاب إلى مصرف هوليوود لرؤية المدير الجديد، والتعرف إليه لا أكثر، وبما أني لم أدخل مصرفاً منذ سبع سنوات، رفضت نصيحته.

زارنا الأمير لويس ـ فرديناند، حفيد القيصر الألماني، في الستوديو، وتعشينا معاً بعد ذلك في بيتي حيث جرى بيننا حديث شيِّق. وقد تحدث الأمير، وكان رجلاً لطيفاً وشديد الذكاء، عن الثورة الألمانية بعد الحرب، التي كان يجد لها طابع المغناة الهزلية. قال:

ــ كان جدي قد ذهب إلى هولندا، لكن بعض أفراد أسرته ظلوا في قصر بوتسدام، شديدي الرعب بحيث لا يتحركون منه. وحين سار الثوريون في الأخير إلى القصر، أرسلوا رسالة يسألون إذا كانوا يودون استقبالهم، وأكدوا لهم خلال تلك المقابلة أنهم سيكونون تحت الحماية وإذا كانوا يحتاجون لأي شيء فما عليهم سوى الاتصال هاتفياً بمقر الحزب الاشتراكي. وقد ذهلت عائلتي، لكن حين اقترحت عليهم الحكومة في ما بعد اتفاقاً بصدد ممتلكاتهم، شرع أهلي يراوغون ويطلبون المزيد.

وختم حفيد القيصر قائلاً:

ــ لقد كانت الثورة الروسية مأساة، أما ثورتنا فكانت مزحة.

منذ عودتي إلى الولايات المتحدة، حدث شيء رائع. فمهما تكن الصعوبات الاقتصادية قاسية، لقد أبرزت عظمة الشعب الأميركي، فظروف المعيشة لم تكن تتفاقم، وبعض الولايات شرعت تطبع أوراقاً مالية لإتاحة توزيع السلع غير المبيعة. لكن هوفر المشؤوم ظل يبدي حرده، لأن سفسطته الاقتصادية الكارثية التي يجب بموجبها توزيع المال في القمة أملاً في أن يرشح إلى عامة الشعب تكشفّت عن فشل ذريع. ووسط كل تلك المأساة، كان يعلن بفظاظة خلال الحملة الانتخابية أنه إذا جرى انتخاب فرنكلين روزفلت، سوف تتعرض للخطر أسس النظام الأميركي بالذات، وهي الأسس التي لم تكن تتميز آنذاك إطلاقاً بالعصمة.

وصل فرانكلين د. روزفلت أخيراً إلى الرئاسة، ولم يتعرض البلد للخطر. وقد أخرج خطابُه عن «الإنسان المَنسي» السياسة الأميركية من خدرها الوقح وشكل بداية العصر الأكثر إلهاماً في تاريخ أميركا. سمعت الخطاب على الراديو لدى سام غولدوين، وقد كنا هناك مجموعة صغيرة، كان من ضمنها بيل پالي، من الكولومبيا برود كاستينغ سيستم، وجو شنك، وفريد أستاير وزوجته ومدعوون آخرون. كان صوت المذياع يعلن: «الشيء الوحيد الذي علينا

أن نخشاه، إنما هو الخشية بالذات». لكنني كنت متشككاً مثل معظمنا، وقد قلت: «هذا جميل جداً بحيث يصعب أن يكون صحيحاً».

ما إن دخل روزفلت البيت الأبيض حتى شرع يتصرف وفقاً لما سبق أن وعد به في أحاديثه وخطبه، مقرراً عشرة أيام عطلة في المصارف لوقف الإفلاسات. وكانت تلك فترة ظهرت فيها أميركا بأفضل وجه لها. ظلت حوانيت ومحلات من كل الأنواع تشتغل على أساس الدَّين، وحتى السينمات كانت تبيع بطاقات بالدين، وعلى مدى عشرة أيام، وفيما روزفلت وما كان يسميه «تراست الأدمغة» الخاص به يضبطان النيوديل، تصرف الناس بصورة رائعة.

جرى إرساء تشريع يتوقع كل الحالات الطارئة: إعادة التسليف الزراعي لأجل وقف نصب الحجوز على الرهونات، وتمويل مشاريع كبرى ذات مصلحة عامة، ووضع الناشونال ريكوفيري آلت موضع التطبيق، ورفع الحد الأدنى للأجور، وتوزيع العمل عن طريق تقصير ساعات الشغل والتشجيع الممنوح لتنظيم النقابات. كان ذلك من قبيل المضي بعيداً جداً، وكانت المعارضة تزعق بأن تلك هي الاشتراكية. وسواء كان ذلك صحيحاً أو لم يكن، فلقد أنقذ الرأسمالية من الانهيار الكامل، وأرسى أيضاً بعض الإصلاحات الأكثر فرادة في تاريخ الولايات المتحدة. ولقد كان مشهداً مشجعاً أن ترى بأي سرعة كان المواطن الأميركي يتجاوب مع حكومة بنّاءة.

هوليوود أيضاً شهدت تحولاً عميقاً. فمعظم ممثلي السينما الصامتة كانوا قد اختفوا، ولم نعد غير قلة. والآن وقد راجت السينما الناطقة، اضمحل سحر هوليوود ولا مبالاتها، وبين ليلة وضحاها، باتت السينما صناعة باردة وجدية. كان فنيو الصوت يجددون الستوديوهات ويبنون أجهزة سمعية معقدة. وكانت كاميرات كبيرة بحجم غرفة تتقدم بتثاقل على الخشبة مثل دبابات جاغرنوت. وكانوا يُركّزون تجهيزات الراديو التي تضم آلافاً من الأسلاك الكهربائية. وكان رجال قد يتصورهم المرء محاربين قادمين من المريخ جالسين مع سمّاعات على أذنيهم فيما يمثل الممثلون، مع ميكروفونات تتدلى فوقهم كقصبات الصيد. وقد كان كل ذلك معقداً جداً وقابضاً جداً للنفس. كيف يمكن أن تكون مبدعاً مع كل تلك الآلات؟ كنت أستفظع ذلك، ثم اكتشف أحدهم أن كل ذلك الركام المعقد يمكن أن يُحمل، وأن تصبح الكاميرات أكثر حركة، وأن بالإمكان استئجار التجهيزات مقابل مبلغ معقول. وبالرغم من كل تلك التحسينات، لم يكن ثمة ما يدفعني للعودة إلى العمل.

كانت لا تزال تراودني فكرة تصفية أعمالي لأجل الاستقرار في الصين. ففي هونغ كونغ، يمكنني أن أعيش برخاء وأتوقف عن التفكير في السينما، بدلاً من أن أذبل هنا في هوليوود، وأتعفن وقوفاً.

بقيت ثلاثة أسابيع متردداً، ثم خابرني ذات يوم جو شنك ليقترح عليَّ إمضاء نهاية الأسبوع على يخته، وكان مركباً رائعاً طوله ٤٦ متراً، ويمكنه أن يستقبل ١٤ راكباً بصورة

مريحة. وكان جو عموماً راسياً في نواحي جزيرة كاتالينا، قرب آڤالون. ونادراً ما كان ضيوفه مثيرين للحماس، فلقد كانوا في أغلب الأحيان لاعبي بوكر، ولم يكن البوكر يثير اهتمامي. لكن لم يكن ذلك كل شيء، فلقد كان جو يبحر عموماً مع سرب من الفتيات الجميلات، وبما أني كنت أحس بوحدتي الميؤوس منها، كنت آمل أن أتمكن من العثور هناك على شعاع شمس صغير جميل.

وهذا بالضبط ما حصل. فلقد تعرفت إلى بوليت غودارد. كانت مرحة ومسلية وروت لي خلال الأمسية أنها تستعد لتوظيف ٥٠ ألف دولار، وهي جزء من النفقة الغذائية التي يقدمها لها زوجها السابق، في مشروعٍ سينمائي. وكانت قد جلبت معها إلى متن السفينة كل المستندات الجاهزة للتوقيع. وقد أخذت تقريباً بتلابيبها لمنعها من ذلك، فالشركة التي كانت على وشك التعامل معها كانت بالتأكيد مؤسسة مشبوهة، وقد شرحت لها أني في السينما تقريباً منذ وجودها ومع الخبرة التي أملكها لن أوظف سنتيماً واحداً إلا في أفلامي الخاصة، علماً أن هذا أيضاً يشكل مخاطرة. فإذا كان هورست، مع فريق أدبي كامل وقدرته على الوصول إلى أفضل قصص الولايات المتحدة، خسر سبعة ملايين دولار في السينما، فأي فرصة تملكها هي؟ وقد ثنيتها في الأخير، وكانت تلك بداية صداقتنا.

كان الرابط بيني وبين بوليت هو الوحدة، فلقد وصلت للتو إلى نيويورك ولم تكن تعرف أحداً. وبالنسبة إليها كما بالنسبة لي، كان الأمر يشبه تقريباً روبنسون كروزو مكتشفاً جمعه. لم تكن تنقص المشاغل خلال الأسبوعِ، لأن بوليت كانت تصوّر في فيلم لسام غودوين، وكنت أنا أهتم بأعمالي. لكن الأحد كان يوماً فارغاً. وفي يأسنا، كنا نقوم بنزهات طويلة، وفي الحقيقة اكتشفنا كل ساحل كاليفورنيا. لم يكن يبدو أن هناك ما يدعو للعمل، والنزهة الأكثر إثارة كانت تتمثل في الذهاب حتى ميناء سان بيلارو لتأمل سفن النزهة. وكانت هناك سفينة للبيع، واحدة ذات محرك طولها ١٦ متراً، ونصف متر، مع ثلاث حجرات، ومطبخ ومستودع رائع لأدوات الإشارة، أي ذلك النوع من السفن الذي يثير إعجابي.

قالت بوليت:

ــ لو كان لديك شيء من هذا القبيل، لكان بإمكاننا أن نلهو يوم الأحد ونذهب إلى كاتالينا.

وهكذا استخبرت عن إمكانات تملكها. كانت عائدة لشخص يدعى المستر ميتشل، وهو صانع لكاميرات سينما، اصطحبنا لزيارتها. وقد فتشناها جذرياً، ثلاث مرات في الأسبوع، إلى حين بات وجودنا مزعجاً. لكن السيد ميتشل قال إنه طالما لم يتم بيع اليخت يمكننا المجيء لزيارته.

ومن دون إعلام بوليت مسبقاً، اشتريت المركب، وجهزته للقيام برحلة إلى كاتالينا، مصطحباً على متنه طاهياً ورجل شرطة قديم ممَّن يعملون لدى كيستون، يدعى أندي أندرسون، ومعه شهادة ربَّان للرحلات الطويلة. وفي يوم الأحد اللاحق، كان كل شيء

جاهزاً. وقد انطلقت أنا وبوليت في ساعة مبكرة من الصباح، لأجل القيام بنزهة طويلة حسبما كانت تظن، وكان مفهوماً أننا سوف نرشف فقط فنجان قهوة، ثم نذهب إلى مكان ما لتناول الفطور، إلا أنها لاحظت أن السيارة تمضي بنا إلى سان بدرو، فقالت:

ـ ألا تذهب من أجل إلقاء نظرة من جديد على ذلك المركب؟

ـ «بودِّي أن أتفحصه مرة أخرى من أجل اتخاذ القرار»، أجبتها.

ـ «إذاً سوف تذهب لوحدك، فهذا مزعج للغاية»، قالت بلهجة كئيبة. سوف أبقى في السيارة في انتظارك.

وحين توقفنا عند رصيف الميناء، رفضت بتاتاً أن تنزل من السيارة:

ـ كلا، اذهب لوحدك، لكن بلا إبطاء... فنحن لم نتناول بعد فطورنا.

وبعد دقيقتين، عدت إلى السيارة وأقنعت بوليت، التي لم تكن تريد أن تسمع شيئاً، بأن تصعد إلى متن السفينة، فوجدت في الحجرة غطاءً وردياً وأزرق وآنية مائدة وردية وزرقاء مطابقة. وكانت تصل من المطبخ رائحة لذيذة لقديدة الخنزير والبيض المقلي. وقد قلت لها:

ـ لقد تفضل الربان ودعانا لتناول الفطور. هناك طلمية، وبيض بالقديدة، وتوست وقهوة. (نظرت بوليت إلى المطبخ وتعرفت على طباخنا). حسناً، كنتِ تريدين مكاناً نذهب إليه يوم الأحد، إذا سوف نذهب بعد الفطور إلى كاتالينا للاستحمام.

ثم أخبرتها بأني اشتريت المركب، فكان رد فعلها مثيراً للفضول.

ـ «انتظر!»، قالت، ثم نهضت وغادرت المركب، وركضت ٥٠ متراً تقريباً على الرصيف وقد أخفت وجهها بيديها.

فصرخت بها:

ـ هيه! تعالي لتناول فطورك.

وقد قالت لي بعد أن عادت إلى المركب:

ـ كان عليّ أن أفعل ذلك لأعود إلى روعي من الصدمة.

وصل فريدي، الطاهي الياباني، وهو يبتسم بملء فيه، ومعه الفطور. ثم أدرنا المحركات، وخرجنا من المرسى، واتجهنا إلى كاتالينا، على بعد ٢٢ ميلاً من ذلك المكان، حيث بقينا راسين تسعة أيام.

كنت لا أزال أفتقد مشاريع العمل المباشرة، فمع بوليت كنت أقوم بأي شيء: أذهب إلى سباق الخيل، وعلب الليل، وكل الحفلات، وكل ذلك لقتل الوقت. لم تكن لديّ رغبة في أن أكون لوحدي أو في أن أفكر. لكن وسط كل تلك المتع، كنت أشعر دائماً بالذنب: «ما الذي أفعله هنا؟ لماذا لا أشتغل؟».

فضلاً عن ذلك، أقضّت مضجعي ملاحظة ناقد شاب قال عن **أضواء المدينة** إنه فيلم

ممتاز، لكنه على حافة النزعة العاطفية، وإن عليّ في أعمالي القادمة أن أحاول الاقتراب من الواقعية. وكنت أجد أنه على حق، ولو عرفت ماذا أفعل لكان في وسعي أن أقول له إن الواقعية المزعومة غالباً ما تكون مصطنعة، ومشغولة، ونثرية ومثيرة للضجر، وأن ما يهم في الفيلم ليس الواقعية، بل ما يمكن أن يصنعه الخيال من الواقع.

ومن غريب الصدف أني في اللحظة التي كنت فيها الأقل استعداداً جاءتني فجأة فكـرة إنتاج فيلم صامت جديد. فلقد ذهبت أنا وبوليت إلى حلبة السباق في تيخوانـا بالمكسيـك، حيث كان سيسلِّم كأس فضي إلى الفائز في مباراةٍ ما في كنتكي. وقد سئلتْ بوليت إذا كانت تقبل بتسليم الكأس للجوكي المنتصر وإلقاء بعض الكلمات بلهجـة أهل الجنـوب. فاقتنعتْ بسهولة، وأذهلني سماعها بمكبّر الصوت. فمع أنها من بروكلن، قلَّدت بشكل مرموق إحدى جميلات كنتكي، وقد أقنعني ذلك بأن في وسعها التمثيل.

لقد كان ذلك محرِّضاً بالنسبة لي، فلقد كان في بوليت، بنظري، شيء من مميِّزات فتاة سوقية، وهو أمر قد يكون رائعاً على الشاشة. تخيلتُ لقاء في باص للشركة مزدحم بالركاب بين تشارلي وتلك السوقية، وقد بدا تشارلي ظريفاً جداً وعرض عليها مقعده. كان ذلك هو الأساس الذي في وسعي الانطلاق منه لبناء حبكة والعثور على إثارات هزلية.

ثم تذكرتُ مقابلة أعطيتها سابقاً لمراسل شاب ولامع لجريدة **World** النيويوركية. فحين علم أني سأزور ديترويت، حدثني عن سلسلة التركيب الموجودة هناك: تلك القصة المحزنة للصناعة الكبرى التي تجتذب من المزارع شباناً أقوياء يصبحون بعد أربع سنوات أو خمس من العمل على السلسلة كائنات بشرية واهنة.

ذلك الحديث هو الذي أعطاني فكرة **الأزمنة الحديثة**. استخدمت آلة للتغذيـة كوسيلة لكسب الوقت، لأجل السماح للعمال بأن يواصلوا العمل خلال ساعة الغداء. وتنتهي متتالية المصنع بمشهد تشارلي وقد أصيب بانهيار عصبي. وقد تطورت الحبكـة انطلاقـاً من تسلسل الأحداث الطبيعي. وبعد شفائه، يجري توقيفه ويلتقي سوقية أوقفت هي أيضـاً لأنها سـرقت قطعة خبز. يلتقيان في سيارة شرطة مزدحمة بالجانحين. وتصبح القصة مذاك قصة شخصين غُفْلَين يحـاولان تدبُّـر أمريهمـا في الأزمنـة الحـديثـة. إنهمـا مـأخـوذان في دوامـة الأزمـة، والإضرابات، والاضطرابات والبطالة. كانت بوليت ترتدي الأسمال البالية، وبكت تقريباً حين لطختُ وجهها لتبدو متسخة.

ــ «هذه اللطخات هي خالات»، قلتُ بإلحاح.

من السهل إلباس ممثلة بصورة مغرية ألبسة خياط للسيدات، لكن إلباس بائعة الزهـور وجعلها فاتنة كما في **أضواء المدينة** أمر صعب. إن لباس الفتاة في **الهجوم على الذهب** لم يكن يطرح مشكلة من هذا النوع، لكن لباس بوليت في الأزمنة الحديثة كان يتطلب القدر ذاته من التأمل والرهافة الذي يتطلبه أحد أعمال ديور. فإذا تعاملنا بدون عناية مع ثيـاب إحدى بنـات الشوارع، تبدو هذه الثياب مسرحية وغير مقنعة. وإذ كنـت أُلْبِس ممثلةً زيَّ بائعة زهور أو بنت

شوارع، كنت أحاول خلق تأثير شعري وعدم تزييف شخصيتها.

قبل عرض **الأزمنة الحديثة**، كتب بعض الصحفيين أن الفيلم شيوعي، وفقاً لما تناهى إلى أسماعهم، ولا ريب أن ذلك كان بسبب ملخص للقصة نشرته الصحف. لكن النقاد الليبراليين كتبوا إن الفيلم ليس مع الشيوعية ولا ضدها، وأنني بقيت، في الواقع، رِجْلاً في البور ورجلاً في الفلاحة.

ليس ثمة ما يثير أعصابك أكثر من أن تتلقى منشورات تقول لك إن إيرادات الأسبوع الأول تجاوزت كل الحدود بينما إيرادات الأسبوع الثاني أقل بقليل. لذا كانت رغبتي الوحيدة، بعد العرضين الأولين في نيويورك ولوس أنجلس، هي أن أبتعد ما أمكن عن أخبار الفيلم، فقررت الذهاب إلى هونولولو، مصطحباً معي بوليت وأمها، وتاركاً في المكتب تعليمات بعدم إبلاغي أي رسالة.

أبحرنا من لوس أنجلس، ووصلنا إلى سان فرنسيسكو تحت وابل من المطر الغزير. لكن لم يكن يمكن أي شيء أن يقلل من حماسنا؛ ذهبنا لشراء بعض الأغراض ثم عدنا إلى المركب. وإذ مررت أمام مستودعات التجارة البحرية، لمحت على الصناديق كلمة «الصين»، وقد كُتبت بالستنسل.

ــ فلنذهب إلى هناك!

ــ إلى أين؟، قالت بوليت.

ــ إلى الصين.

ــ أنت تمزح؟

ــ «إذا لم نفعل ذلك الآن لن نفعله أبداً»، قلت.

ــ لكن ليس معي شيء أرتديه.

ــ «يمكنك أن تشتري كل شيء تريدنه في هونولولو»، قلت بإلحاح.

ينبغي تسمية كل السفن **باناسيه**(*)، لأنه لا شيء يعيد لك قوتك كرحلة في البحر. تتأجل همومك، ويتبناك المركب ويعتني بك، وحين يدخل الميناء في الأخير، يسلّمك لجلبة العالم على مضض.

لكن حين وصلنا إلى هونولولو، هالني أن ألمح ملصقات كبيرة تعلن عن **الأزمنة الحديثة**، والصحافة تنتظرني على رصيف الميناء، جاهزة لافتراسي، وليس من وسيلة للنجاة.

بيد أنني نعمت بالهدوء لدى وصولي إلى طوكيو، لأن الربان سجلني باسمٍ آخر مشكوراً. لكن السلطات اليابانية استقبلتني بطريقة بالغة السوء إذ اطّلعت على جواز سفري، قائلة: «لماذا لم تعلمنا مسبقاً بوصولك؟» وبما أنه حصل للتو انقلاب عسكري سقط فيه عدة

(*) ترياق (م).

مئات من الضحايا، قدَّرت بأن الأمر لا بأس به. وخلال وجودنا في اليابان، لم يبتعد أحد موظفي الحكومة عنا قدر أنملة ومن سان فرنسيسكو إلى هونغ كونغ، نكاد نكون كلمنا راكباً واحداً، لكن حين وصلنا إلى هونغ كونغ ذاب الجليد، بفضل كاهن كاثوليكي.

قال لي رجل أعمال طويل القامة ومتحفظ:

ــ تشارلي، أود أن تتعرف إلى كاهن أميركي من كونكتيكوت، موجود هنا منذ خمس سنوات في مستعمرة للمصابين بالبرص. إنها حياة عزلة بالنسبة للكاهن، لذا يأتي كل سبت إلى هونغ كونغ لاستقبال السفن الأميركية، ليس أكثر.

كان الكاهن رجلاً طويلاً ووسيماً يقارب الأربعين من العمر، مع خدود وردية وابتسامة فاتنة. وقد قدّمت له قدحاً، وفعل صديقي الشيء نفسه، وأراد الأب الطيب أن يقدم لنا بدوره كؤوساً من الخمر. كنا نشكل في البداية حلقة صغيرة، لكن مع تقدم السهرة، وصل العدد تقريباً إلى ٢٥ شخصاً يدفع كلٌ منهم ثمن كؤوس. ثم بلغ العدد ٣٥ وكان الشراب لا يزال متواصلاً. وعديدون هم الذين نُقلوا إلى متن السفينة وقد أعماهم السكر، لكن الكاهن لم يكن يفوِّت نوبة(*)، وظل يبتسم ويخاطب كل واحد بوقار. وقد نهضت في الأخير لأودعه، وفيما كان يساعدني باهتمام، شددت على يده فوجدتها خشنة، وقلبتها لأتفحص راحتها فوجدت فيها شقوقاً وتقصفات، ولطخة بيضاء في الوسط.

فقلت له ممازحاً:

ــ آمل ألا يكون هذا هو البرص.

وابتسم هازاً رأسه. وبعد عام، علمنا أنه توفي من البرص.

بقينا غائبين عن هوليوود خمسة أشهر. وخلال تلك الرحلة بالذات تزوجنا أنا وبوليت، ثم عدنا إلى الولايات المتحدة على متن سفينة يابانية صعدنا إليها في سنغفورة.

غداة السفر، تلقيت بطاقة ورد فيها أن لدينا، أنا وكاتب تلك الرسالة، أصدقاء عديدين مشتركين، وأننا كدنا نلتقي بلا انقطاع منذ سنوات عدة، والفرصة الآن ممتازة وسط المحيط الهندي. وقد وقَّع الرسالة جان كوكتو. ثم حاشية بعد ذلك: ربما يمكنه المجيء إلى حجرتي لأخذ مشروب فاتح للشهية قبل العشاء. ولقد فكرت في الحال أن الأمر يتعلق بمنتحل صفة، فما عساه يفعل ذلك الباريسي المديني جداً وسط المحيط الهندي؟ ومع ذلك، كان الشخص صادقاً، لأن كوكتو كان مكلفاً بتحقيق لصحيفة **الفيغارو**.

لم يكن كوكتو يعرف كلمة إنكليزية واحدة، مثلما لم أكن أعرف الفرنسية، بيد أن سكرتيره كان يتكلم الإنكليزية قليلاً، لكن بصورة غير ممتازة، وقد لعب دور مترجم لنا. في تلك الليلة، ثرثرنا حتى الفجر، مناقشين نظرياتنا حول الحياة والفن. كان المترجم يتكلم ببطء وبتردد، في حين كان كوكتو يتكلم كالرشّاش، وقد بسط يديه الجميلتين على صدره، ملتفتاً

(*) مجمل ما يُستهلك من الشراب الذي يقدمه أحدهم في مقهى أو حانة (م).

نحوي كما لو كان يتضرع، ثم نحو المترجم، الذي كان يواصل مهمته برباطة جأش: «سيد كوكتو.. هو يقول إنك شاعر... للشمس... وإنه هو شاعر... لليل...».

كان كوكتو يشيح بوجهه في الحال عن المترجم ليعطيني إشارة سريعة صغيرة برأسه كعصفور، ويواصل الكلام. وكنت أستأنف حديثي، منطلقاً في تأملات بشأن الفلسفة أو الفن. وحين كنا نتفق، كنا نتعانق بقوة، في حين يراقبنا المترجم هادىء الأعصاب. وفي تلك الحالة من الحماس، بقينا طيلة الليل وحتى الرابعة صباحاً، ثم تواعدنا بأن نلتقي من جديد للغداء في الساعة الواحدة.

لكن حماسنا كان قد بلغ ذروته؛ وكنا قد أصبنا بالملل! فلا هو ظهر ولا أنا. وبعد الظهر، لا بد أن رسالتَي الاعتذار الصادرة عن كلٍّ منا قد تقاطعتا، لأن مضمونهما كان متشابهاً، فكل منهما كانت تكثر من صيغ الأسف، لكن مع تحاشي تحديد أي موعد جديد: كان كلٌّ منا قد شبع من الآخر.

حين دخلنا ساعة العشاء إلى قاعة الطعام، كان كوكتو جالساً في آخر القاعة، مديراً لنا ظهره. لكن لم يكن يمكن سكرتيره إلا أن يرانا، وبحركة صغيرة أعلم كوكتو بحضورنا، فتردد هذا ثم استدار، وإذ تكلّف الدهشة، حرَّك الرسالة التي بعثت بها إليه بمرح، فحركت رسالته وضحكنا كلانا. ثم استدرنا إلى الجهة المقابلة برصانة، وغصنا في قراءة لائحة الطعام. وقد أنهى كوكتو العشاء قبلنا، وفي حين كانوا يقدمون لنا الطبق الرئيسي، مر خفية بالقرب من طاولتنا مستعجل الخطو. إلا أنه استدار قبل أن يخرج وأشار إلى الرواق وهو يقصد أن يقول: «نراكم لاحقاً». فحركت رأسي موافقاً بقوة، لكنني تنفست الصعداء في ما بعد، حين لاحظت أنه اختفى.

في صباح اليوم التالي، كنت أتنزه لوحدي على متن السفينة. وفجأة، هالني أن أرى كوكتو يظهر في البعيد وهو يقترب مني! رباه! فتشت سريعاً عن مخرج إنقاذٍ فإذا به يراني ويندفع عبر باب الصالون الكبير، مثلجاً بذلك صدري أيّما إثلاج. وقد وضع ذلك حداً لنزهتنا الصباحية. وعلى مدى النهار، بقينا نلعب لعبة التخبئة ليتحاشى أحدنا الآخر. بيد أننا حين وصلنا إلى هونغ كونغ، كنا قد تعافينا كفاية بحيث التقينا لبرهة قصيرة. لكن كان لا يزال هناك أربعة أيام إبحار قبل بلوغ طوكيو.

خلال الرحلة البحرية، روى لي كوكتو قصة مدهشة: كان قد رأى في الداخل الصيني بوذا حياً، رجلاً أمضى كل حياته طافياً في جرة زيت يظهر رأسه وحده منها فوق عنقها. وبعد أن أمضى كل تلك السنوات غائصاً في الزيت، بقي جسمه شبيهاً بجسم جنين، وكان رخواً إلى حد أنه يمكن تمرير الإصبع عبره. وفي الحقيقة أنني لم أتمكن من معرفة في أي منطقة من مناطق الصين رأى تلك الظاهرة، وقد انتهى إلى التسليم بأنه لم يرها بنفسه بل سمع أناساً يتحدثون عنها.

نادراً ما كان يرى أحدنا الآخر، في شتى التوقفات، إلا لتبادل بعض الكلمات ووداع

قصير. لكن حين اكتشفنا أننا ذاهبان كلانا إلى الولايات المتحدة على متن الـ President Coolidge، استسلمنا من دون السعي بعد ذلك الحين لإبداء الحماس.

في طوكيو، كان كوكتو اشترى جراداً كان يحتفظ به في قفص صغير ويأتي به بصورة احتفالية إلى حجري.

ـ إنه ذكي جداً (قال)، ويغني كلما تحدثت معه.

وقد انتهى إلى الاهتمام بتلك البهيمة الصغيرة إلى حد أنها باتت موضوعاً للحديث.

كنت أسأله:

ـ كيف حال پيلو هذا الصباح؟.

ـ ليس على ما يرام (يجيب برصانة)، لقد فرضتُ عليه الحِمْيَةِ.

حين وصلنا إلى سان فرانسيسكو، ألححت عليه كي يرافقنا إلى لوس أنجلس، لأن سيارة تنتظرنا. وكان بيلو أيضاً في الرحلة، وشرع يغني خلال قطع المسافة «أنت ترى، قال كوتو، فهو يحب أميركا». وفتح فجأة زجاج السيارة، ثم باب القفص الصغير الذي هزّه لإخراج پيلو منه.

فسألته متفاجئاً:

ـ لماذا فعلت ذلك؟

فقال المترجم:

ـ إنه يعيد إليه حريته.

ـ لكنه غريب هنا، أجبت... وهو لا يتكلم لغة البلاد.

فقال كوكتو وهو يهز كتفيه:

ـ هو محتال، وسوف يتكلمها قريباً.

حين وصلنا إلى بيتي في بيڤرلي هيلز، كانت أخبار الستوديو مشجِّعة، فلقد حقق فيلم **الأزمنة الحديثة** نجاحاً كبيراً.

لكن مرة أخرى، انطرح السؤال الممضُّ ذاته: هل سيكون عليَّ أن أصور فيلماً صامتاً آخر؟ كنت أعرف أنني أقوم بمغامرة كبرى إذا فعلت ذلك. فكل هوليود كانت قد تخلت عن الأفلام الصامتة، ولم يعد هناك سواي. لقد كان حظي كبيراً حتى ذلك الحين، لكن الاستمرار مع الشعور بأن فن الإيماء يفقد رواجه شيئاً فشيئاً كان فكرة مُحْبِطة. فضلاً عن ذلك، لم يكن من السهل العثور على حبكة صامتة لمدة ساعة وأربعين دقيقة، وترجمة الروح إلى حركات وخلق مزحات مرئية كل عشرين قدم من الفيلم، على امتداد سبعة آلاف قدم أو ثمانية آلاف. وكنت أقول في نفسي أيضاً إنني حين سأنتج فيلماً ناطقاً، لن أستطيع أبداً، مهما كان الفيلم جيداً، أن أتجاوز موهبتي في الإيماء. كنت قد فكرت في أصوات مختلفة لتشارلي. إنه سيكون عليه

التلفظ بكلمات ذات مقطع واحد، أو أن يغمغم فقط. لكن كان ذلك عديم النفع، فإذا تكلمتُ سأصبح مثلي مثل أي كوميدي آخر. تلك كانت المشكلات الكئيبة التي وجدت نفسي أواجهها.

كنا أنا وبوليت زوجين منذ عام واحد، لكن الهوة لم تنفك تتسع بيننا. وكان السبب عائداً جزئياً إلى كوني أشعر بالقلق وأفتش عن الطريقة المناسبة للعمل، إلا أنه بعد نجاح **الأزمنة الحديثة**، تعاقدت البارامونت مع بوليت لتصوير عدة أفلام. أما أنا فكنت عاجزاً عن العمل أو التمثيل. وفي ذلك الوضع النفسي الحزين، قررت الذهاب إلى پيبل بيتش مع صديقي تيم دوران، فربما يمكنني العمل هناك بشكل أفضل.

كانت پيبل بيتش، على بعد ١٦٠ كلم إلى الجنوب من سان فرنسيسكو، مكاناً موحشاً، كئيباً، وباختصار مشؤوماً بعض الشيء. كنت أسميها «ملاذ الأرواح التائهة»، وكانت هناك أيائل في الغابات المحيطة ومنازل عديدة متكلِّفة، وشاغرة ومعروضة للبيع. وكانت ثمة أشجار مقطوعة تتعفن في الحقول، المليئة بالديدان، والسمَّاق السام، وأدغال الدفلى وست الحسن: ديكور حقيقي لجمعية جنّيات. وبمواجهة المحيط، كانت تنتصب بيوت عديدة فوق الصخور، مبالغ في زخرفتها، ويشغلها أصحاب مليارات. وكانت تسمّى تلك المنطقة ساحل الذهب.

كنت تعرفت إلى تيم دوران حين جاء به أحدهم ليلعب كرة المضرب معي ذات أحد. كان تيم لاعباً ممتازاً، ولعبنا معاً عدة مباريات. لقد طلّق زوجته، ابنة إي. أف. هاتن، وجاء إلى كاليفورنيا لينسى كل ذلك. وكان تيم خفيف الروح، وأصبحنا صديقين حميمين.

استأجرنا منزلاً على بعد كيلومتر تقريباً عن المحيط. كان رطباً وحزيناً، وحين كنا نشعل النار، كانت الغرفة تمتلىء بالدخان. كان تيم يعرف عدداً كبيراً من ملاكي پيبل بيتش الأغنياء، وحين كان يزورهم، كنت أحاول العمل. كنت أبقى لوحدي أياماً وأياماً في المكتبة، وأسير في الحديقة بحثاً عن فكرة، لكن عبثاً. وقد انتهيت إلى الكف عن القلق، ورافقت تيم إلى عند بعض جيراننا. وغالباً ما كنت أفكر أنهم يشكلون مادة ممتازة للأقاصيص: شخصيات حقيقية لموباسان. كان هناك منزل واسع، وكان يسود فيه جو غريب وكئيب، مع أنه مريح. وكان المضيف، وهو رجل لذيذ للغاية، يتكلم بصوت عالٍ ومن دون انقطاع بينما تبقى زوجته جالسة من دون أن تتلفظ بكلمة. فمنذ وفاة ولدهما، قبل خمس سنوات، نادراً ما كانت تتكلم أو تبتسم، وكانت تكتفي بالقول مساء الخير وتصبحون على خير.

وفي منزل آخر مبني على الصخور العالية المطلة على البحر، كان أحد الروائيين قد فقد زوجته. كانت في الحديقة تأخذ صوراً، على ما يبدو، ولا بد أنها رجعت إلى الخلف أكثر من اللازم. وحين راح زوجها يبحث عنها لم ير غير منصب، وقد بقيت مفقودة إلى الأبد.

كانت شقيقة ويلسون ميزنر تكره جيرانها الذين كان ملعب التنس الخاص بهم يطل على بيتها، وفي كل مرة كانوا يلعبون كانت تشعل النار فتتدفق موجات من الدخان إلى الملعب.

أما آل فاغان، وهما زوجان عجوزان فاحشا الثراء، فكانا يقيمان حفلات استقبال باذخة

يوم الأحد. وكان القنصل النازي، الذي كنت ألتقيه هناك، وهو شاب أشقر لذيذ الحركات، يبذل أقصى جهده ليبدو خفيف الروح، لكنني كنت أتحاشاه إلى أبعد الحدود.

ومن حين لآخر، كنا نمضي نهاية الأسبوع لدى جون ستاينبك. كان يملك بيتاً صغيراً قرب مونتري، وعلى عتبة المجد، إذ كتب قبل فترة قصيرة **Tortilla Flat** وسلسلة من الأقاصيص. كان جون يعمل في الفترة الصباحية ويكتب ما معدله عشر صفحات يومياً. وقد أذهلني أن أرى كم كانت مخطوطاته واضحة، مع تصحيحات نادرة جداً. وقد حسدته على ذلك.

أود كثيراً أن أعرف كيف يعمل الكتّاب، وما هو إنتاجهم اليومي. كان لاين فوشتڤانجر يملي عشر صفحات، أي ما يعادل ثلاث صفحات مكتوبة يومياً. وكان سومرست موغام يكتب صفحتين يومياً لكي يبقى في أحسن حال. أما إيتش. جي. ويلز فكان يكتب ما معدله خمس صفحات في اليوم. وكان الصحفي الإنكليزي هانن سوافر يكتب ما يتراوح بين ٢٠ و ٢٥ صفحة يومياً. ويكتب الناقد الأميركي، الكسندر وولكوت، مقالة من ثلاث صفحات ونصف في ربع ساعة، ثم يستأنف دق بوكر، ولقد رأيته يفعل ذلك. وكان هورست يكتب في سهرة واحدة افتتاحية من عشر صفحات. وكتب جورج سيمنون رواية قصيرة في شهر، وكانت رواية ممتازة من حيث قيمتها الأدبية. وقد روى لي جورج أنه ينهض في الخامسة صباحاً، فيصنع قهوته ثم يجلس إلى مكتبه وهو يلعب بكرة ذهبية بحجم طابة التنس ويفكر. وقد كان يكتب بواسطة قلم حبر، وحين سألته لماذا خطه صغير إلى ذلك الحد، أجابني: «هذا يتطلب جهداً أقل من قبضة اليد». أما أنا فأملي خمس صفحات تقريباً في اليوم، ويعطيني ذلك بعد إكمال التنقيحات ما معدله صفحة ونصف من الحوار للأفلام.

لم يكن لدى الزوجين ستاينبك خادم، وكانت الزوجة هي التي تقوم بكل الأعمال المنزلية. كانت عائلة رائعة، وكنت أكنّ لهما الكثير من الود.

كنا نثرثر كثيراً، وإذ كنا نتحدث عن روسيا أعلن جون أن شيئاً فعله الشيوعيون إنما هو إلغاء الدعارة. فقلت:

ــ كان ذلك تقريباً كل ما يبقى من المبادرة الخاصة. يا للخسارة، فهذه هي المهنة الوحيدة تقريباً التي يحصل فيها الشخص على المال بشرف ـ لماذا لم يتم تنظيمها في نقابة؟

لقد نظمت امرأة متزوجة فاتنة، كان زوجها مشهوراً بخيانته، لقاءً معي في بيتها الكبير. وقد ذهبت إلى هناك وفي نيتي ارتكاب الزنا. لكن حين أسرت لي السيدة باكية أنها لم تقم علاقة جنسية مع زوجها منذ ثماني سنوات، وأنها لا تزال تحبه، خففت دموعها من حماسي وفوجئت وأنا أقدم لها نصائح فلسفية: لقد بات كل ذلك عقلياً. وقد عرفت بعد ذلك أنها أصبحت سحاقية.

كان الشاعر روبنسون جيفرز يسكن قرب پيبل بيتش. وأول مرة التقيته أنا وتيم، كان ذلك لدى صديق مشترك. كان متعجرفاً وصموتاً، وبهذري المعتاد، رحت أستفيض في الشرح حول

مآسي النهار، بهدف إشاعة القليل من الحيوية. لكن جيفرز لم يفتح فاه. وقد غادرت المكان لائماً نفسي لأني احتكرت الكلام قليلاً. ولا شك أنه وجدني كريهاً، لكنني كنت على خطأ إذ بعد أسبوع وجّه الدعوة إلينا، أنا وتيم، لتناول الشاي.

كان روبنسون جيفرز وزوجته يسكنان قصراً قروسطياً صغيراً من حجر، يسمّى تور، بناه بنفسه على بلاطة صخرية على ضفاف المحيط الهادىء. وقد بدا لي ذلك نزق أولاد بعض الشيء. كانت مساحة أكبر غرفة فيه عشرة أمتار مربعة. وعلى خطوات من المنزل، كان يقوم برج رئيسي من الصخر، علوه ستة أمتار وقطره متر وعشرون سنتم. وكان درج صخري ضيق يفضي إلى غرفة مستديرة صغيرة مع كوى رمي بمثابة نوافذ. تلك كانت حجرة عمله، وهناك كتب **Roan Staltion**. وكان تيم يزعم أن ذلك الذوق الضريحي هو تجلٍّ لهاجس الموت. لكنني كنت أرى روبنسون جيفرز يتنزه مع كلبه عند الغروب، متلذذاً بالمساء، ووجهه يُبرز تعبيراً عن الهدوء العميق لا يمكن وصفه، كما لو كان يغوص في حلم يقظة بعيد. وأنا على قناعة بأن شخصاً كروبنسون جيفرز لا يشتهي الموت.

كانت الحرب تحوم في الجو من جديد، فالنازيون يتقدمون. كم نسينا سريعاً الحرب العالمية الأولى وعذاب تلك السنوات الأربع من الاحتضار! وما أسرع ما نسينا البقايا البشرية المثيرة للهلع: الكسحاء، والكُتْع، ومبتوري الساق، والعميان، ومكسوري الفك، والمشلولين! وأولئك الذين لم يُقتلوا أو يجرحوا لم يكونوا ينجون بالكامل، لأن العديد بينهم عادوا بنفس مشوهة. كانت الحرب ابتلعت الشبيبة كمينوطور، ولم تترك على قيد الحياة غير عجائز وقحين. لكن سرعان ما نسينا، ورحنا ننشد أمجاد الحرب بلازمات شعبية:

How're you going to Keep Them down on the farm, After they've seen Paree...».

(كيف ستحتفظ بهم في المزرعة بعد أن شاهدوا باريس. . .) الخ.

كانت الحرب من نواحٍ عدة شيئاً جيداً، حسبما كان يقول البعض. فلقد كانت تساعد في تطور الصناعة والتقنية، وتؤمن وظائف جديدة. كيف يمكن التفكير في ملايين القتلى حين يكسب الناس ملايين الدولارات في البورصة؟ لقد أعلن أرثر بريسبان، من الـ **Hearst Examiner**، حين كانت السوق في الذروة: «سوف تحقق الـ U.S. Steel قفزة إلى حدود الخمسمائة دولار». لكن بدلاً من ذلك، كان المضاربون هم الذين قفزوا من النوافذ.

وها هي الآن حرب أخرى تُحَضَّر، في حين كنت أحاول كتابة سيناريو لبوليت، لكنني لم أكن أتمكن من التقدم. كيف كان يمكن الغوص في النزوات النسائية، والاهتمام بالروايات الخيالية ومشكلات الحب، في حين يتحرك الجنون بدفع من مسخ مريع، هو أدولف هتلر؟

في عام ١٩٣٧، كان ألكسندر كوردا قد نصحني بإنتاج فيلم عن هتلر ينطلق من خطأ في الهوية، لأنه كان لهتلر شاربا تشارلي بالذات، وقد قال: إن في وسعي أن ألعب الدورين. أما أنا فلم أفكر في ذلك آنذاك، لكن الموضوع بات الآن موضوعاً راهناً، وكنت أفتش يائساً عن فكرة فيلم جديدة. وفجأة نزل عليَّ الإلهام. بالطبع! ففي دور هتلر، سيكون في وسعي أن

أخطب في الجماهير بلغة أخترعها أنا وأن أتكلم على سجيتي. أما في دور تشارلي، فيمكنني البقاء صامتاً إلى هذا الحد أو ذاك. كان سيناريو عن هتلر يتأقلم مع الهزل والإيماء. وقد عدت مسرعاً إذاً وأنا مفعم حماساً إلى هوليـوود، وشرعت أكتب بخط اليـد. وقد تـطلب مني ذلك عامين.

فكرت في المتتالية الأولى التي تظهر مشهد معركة خلال الحرب العالمية الأولى؛ سنرى برتا الضخمة التي يصل مداها إلى ١٢٠ كلم وكان الألمان يفكرون في إرهاب الحلفـاء بها. كان مفترضاً في المدفع أن يدمر كاتدرائية رايمز، لكن القذيفة تخطىء هـدفها وتهـدم كوخـاً صغيراً في الريف.

كـانت بوليت ستمثـل في الفيلم. خلال السنتين الأخيـرتين، حازت نجـاحاً كبيـراً في البارامونت، ومع أننا كنا منفصلين تقريباً، كنا صديقين كما كنا لا نزال زوجين. لكن بـوليت كانت مخلوقاً غريب الأطوار. ولقد كان بالإمكان أن يكون ذلك مسليـاً جداً لـو لم يظهـر في اللحظة غير المناسبة. فلقد وصلت ذات يوم إلى مقصورتي في الستوديو، ومعها شاب لذيذ، وأنيق، كان يبدو عليه كما لو أن ثيابه صُمِّمت خصيصاً لجسمه، وكان ذلك في يوم وجدت فيه صعوبة مع السيناريو، وقد فوجئت بهما يقطعان عليّ تفكيري. لكن بوليت أعلنت أن ذلك مهم جداً؛ ثم جلسنا ودعونا الشاب للجلوس مثلنا.

قالت بوليت:

ــ أقدم لك وكيلي.

ثم راحت تنظر إليه يتصرف. كان يتكلم بسـرعة، لافـظاً كل كلمـة من كلماتـه بشكل منفصل، كما لو كان يتلذذ بها:

ــ كما تعرف، يا سيد شابلن، منذ فيلم **الأزمنة الحديثـة**، تدفـع لبوليت راتبـاً مقداره ٢٥٠٠ دولار أسبوعياً. لكن ما لم نسوِّه معك، يا سيد شابلن، إنما هو مشكلة الإعلان: يجب أن يكون لها ٧٥٪ من الحيِّز على كل الملصقات...».

ووقف عند هذا الحد، فصرختُ به:

ــ ما هو كل هذا الهراء؟ ألن تعلِّمني أيضاً كيف سيكون اسمها على الملصقـات! أنا مهتم بمصالحها أكثر منك! اغربا كلاكما عن وجهي!

في منتصف تصوير **الديكتاتور الكبير The Great Dictator**، بـدأت أتلقى من الفنانين المتحديـن رسائل مقلقة. فمكتب Hays Office أعلمهم بأني قد أتعرض لمتاعب مع الرقابة. وكـان فيلم معادٍ للهتلرية يُقلق أيضاً مكتب لندن الذي كان يتساءل إذا كان يمكن توزيعـه في انكلترا. لكنني كنت عازماً على المضي قُدُماً، لأنه يجب جعل هتلر مَضْحَكةً. ولو أني علمت بالأهوال الفعلية لمعسكرات الاعتقال الألمانية، لما أمكنني تحقيق **الـديكتاتـور**، إذ مـا كـان أمكنني الاستهزاء بالمذبحة المجنونة التي كان يُقدم عليها النازيون. لكنني كنت عازمـاً على

السخرية من هذرهم الصوفي حول الأعراق ذات الدم النقي. كما لو كان شيء كهذا وُجد خارج أهل أستراليا الأصليين!

حين كنت أصوِّر **الديكتاتور**، مرَّ السير ستافورد كريبس بكاليفورنيا في طريق العودة من روسيا. جاء ليتعشى مع شاب متخرج للتو من أوكسفورد، لا أتذكر اسمه، لكنني أذكر الملاحظة التي أبداها ذلك المساء: «إذا ظلت الأمور هكذا في ألمانيا وغيرها، لن تكون لي فرصة للحياة خمس سنوات». كان السير ستافورد قد قام برحلة دراسة في روسيا وكان شديد التأثر بما رآه. فلقد وصف مشاريعهم الكبرى، ومن دون أدنى شك مشكلاتهم المريعة. كان يبدو أنه مقتنع بأن الحرب لا مفر منها.

كانت رسائل مقلقة أخرى تصل من مكتب نيويورك، راجية إياي ألا أنتج الفيلم، مؤكدة أنه لن يعرض إطلاقاً لا في انكلترا ولا في أميركا. لكنني كنت مصمماً على تصويره، حتى لو كان عليّ أن أستأجر بنفسي صالات لعرضه أمام الجمهور.

لم أكن أنهيت **الديكتاتور** حين أعلنت انكلترا الحرب على النازيين. كنت في كاتالينا على ظهر يختي لقضاء نهاية الأسبوع، وسمعت النبأ المحزن على الراديو. في البداية، كان هنالك جمود على كل الجبهات، وكنا نقول: «لن يجتاز الألمان أبداً خط ماجينو». ثم بدأت المحرقة فجأة: الاختراق عن طريق بلجيكا، وانهيار خط ماجينو، ومأساة دنكرك المرعبة... وإذ بفرنسا تحت الاحتلال. كانت الأخبار تزداد سوءاً، وكانت انكلترا تقاتل وظهرها إلى الحائط. ثم قرر هتلر غزو روسيا! كان ذلك دليلاً على أن جنونه المحتوم حاز الغلبة. أما الولايات المتحدة فلم تكن قد دخلت الحرب بعد، لكن كان الناس يشعرون بأنفسهم يتنفسون الصعداء في انكلترا كما في أميركا. وكان مكتبنا في نيويورك يرسل إليَّ الآن برقية تلو الأخرى: «أنهوا فيلمكم، كل العالم ينتظره».

كان من الصعب إخراج فيلم **الديكتاتور**، فلقد كانت هناك حاجة إلى ماكيتات وأكسسوارات، الأمر الذي تطلَّب سنة تحضيرات. ومن دون تلك الوسائل، كان كلَّف خمسة أضعاف ما سوف يكلِّفه. وأياً يكن، كنت قد أنفقت خمسمائة ألف دولار قبل أول جلسة تصوير.

حوالى نهاية تصوير **الديكتاتور**، جاء دوغلاس فايربانكس وزوجته سيلفيا لزيارتنا في حين كنا نشتغل في الخارج. لم يكن دوغلاس يفعل شيئاً منذ خمس سنوات، ونادراً ما كنت أراه، لأنه كان يتنقل باستمرار بين أميركا وانكلترا. ولقد لاحظت أنه شاخ، وأنه تضخم قليلاً، وكان يبدو مشغول البال. بيد أنه كان لا يزال دوغلاس ذاته المليء بالحماس. وقد أغرق في الضحك خلال تصوير أحد المشاهد، وقال:

ـ أنا مستعجل لرؤية الفيلم.

بقي دوغلاس قرابة ساعة، وحين مضى تطلعتُ إليه وهو ذاهب فرأيت زوجته تساعده في تسلق منحدر وعر قليلاً، وفيما كانا يبتعدان على الطريق شعرت فجأة بلسعة حزن. استدار دوغ

وحيّيته بيدي فحرّك يده بدوره. وكانت تلك آخر مرة رأيته، فبعد شهر اتصل بي دوغلاس الابن ليخبرني بأن والده توفي ليلاً بسبب نوبة قلبية. ولقد كانت تلك صدمة رهيبة، فلقد كان كائناً ممتلئاً بالحياة.

أنا أفتقد دوغلاس. أفتقد حرارة حماسه وسحره؛ صوته الودود على الهاتف حين كان يتصل بي، في صباح أحد أكون فيه وحيداً، ليقول لي:

ـ تشارلي، تعال نتغدَّ... ثم نسبح.. ثم نتعشى... ويمكننا أن نرى فيلماً بعد ذلك.

أجل، أفتقد صداقته المخلصة.

أين أفضل اختيار أصدقائي؟ في مهنتي، بلا ريب. إلا أن دوغلاس كان الممثل الوحيد الذي جعلت منه صديقي. فلكثرة ما التقيت نجوماً في سهرات هوليوودية شتى، بتّ متشككاً... ربما كنا كثيرين جداً. كان الجو جو تنافس أكثر منه جو صداقة، وكان علينا أن نقبل بتحديات كثيرة فيما نحن ذاهبون إلى المائدة أو عائدون منها. كلا، إن النجوم وسط النجوم لا تعطي غير القليل من الضوء... والقليل من الحرارة أيضاً.

الكتّاب أناس لطيفون، لكنهم قليلو العطاء؛ وكل ما يعرفونه نادراً ما يجعلون الآخرين يستفيدون منه؛ ومعظمهم يحتفظون به في بطون كتبهم. أما العلماء ففي وسعهم أن يكونوا أصحاباً لذيذين، لكن مجرد حضورهم في أحد الصالونات يشل عقل الجميع. والرسامون يقتلونك لأن معظمهم يودون جعلك تصدق أنهم فلاسفة أكثر مما هم رسامون. وينتمي الشعراء بلا ريب إلى الطبقة العليا، وعلى الصعيد الفردي هم أناس طريفون ومتسامحون ولذيذون جداً. لكنني أعتقد أن الموسيقيين هم إجمالاً الأسهل معيشةً، فليس ثمة ما يدفئك ويؤثر فيك قدر ما يفعل مشهد أوركسترا سمفونية. فالأضواء الصغيرة الرومانسية على المقارىء، والآلات التي تُدوزَن، ثم الصمت المفاجىء حين يدخل قائد الأوركسترا، كل ذلك يعطيك شعوراً بالانسجام والتعاون. أذكر أن عازف البيانو هوروفيتز كان يتعشى عندي وكان المدعوون يناقشون الوضع العالمي، قائلين إن الأزمة والبطالة سوف تتسببان بانبعاث روحي. فنهض فجأة وهو يقول: «هذا الحديث يعطيني الرغبة بالعزف على البيانو». ولم يحتجَّ أحد، بالطبع، وعزف هو السوناتا رقم ٢ لشومان. ولقد تساءلت إذا كان سيعزفها أحد بعده بتلك الدرجة من الجودة.

قبل الحرب مباشرة، تعشيت عنده مع زوجته، ابنة توسكانيني، وكان هناك رحمانينوف وبار بيرولي. كان رحمانينوف رجلاً غريباً، مع شيء من متذوق الجمال ومن الراهب. وكان العشاء حميماً ولم يكن هنالك غيرنا نحن الخمسة.

يبدو أنه في كل مرة يدور فيها النقاش حول الفن، أقدم تفسيراً مختلفاً. ولِـمَ لا؟ فلقد أعلنت في ذلك المساء أن الفن انفعال إضافي زائد تقنية ماهرة. وراح أحدهم يتحدث عن الدين، واعترفتُ بأني غير مؤمن.

فقال رحمانينوف فجأة:

ـ لكن كيف يمكنك ممارسة الفن من دون دين؟

فشعرت بالبلبلة برهةً ثم أجبت:

ـ أظن أننا لا نتحدث عن الشيء نفسه. إن تصوري للدين هو الإيمان بدوغما... والفن شعور أكثر مما هو إيمان.

أجاب:

ـ والدين أيضاً.

وقد فضلت السكوت، بعد ذلك.

فيما كان إيغور سترافنسكي يتعشى عندي، اقترح أن ننتج فيلماً معاً. وقد اخترعتُ قصة قلت إنها يجب أن تكون سوريالية. ملهى ليلي متردٍّ مع طاولات حول حلبة الرقص، وإلى كل طاولة مجموعات وأزواج يمثلون مُتع العالم: الجشع إلى إحدى الطاولات، والنفاق إلى أخرى، والقساوة إلى ثالثة. وعلى الحلبة، يمثلون عذاب المسيح، وفيما يتم صلب المخلص، تنظر مجموعات جالسةٌ إلى الطاولات، من دون مبالاة، فبعضها تطلب العشاء، وتناقش أخرى الأعمال، بينما المجموعات الأخرى لا تعير اهتمامها لأشياء ذات أهمية. ويرفع الجمهور، وكبار الكهنة والفريسيون قبضاتهم نحو الصليب وهم يصرخون: «إذا كنت ابن الله، انزل وخلّص نفسك». وإلى طاولة مجاورة، تتكلم مجموعة رجال أعمال بحيوية بشأن سوق مهمة. ويسحب أحدهم بعصبية من سيجارته وهو يتطلع إلى المخلص وينفخ الدخان بشرودٍ في اتجاهه.

وإلى طاولة أخرى، يتفحص رجل وامرأة قائمة المأكولات. ترفع المرأة بصرها، ثم تدفع مقعدها بعصبية، وتقول متضايقةً:

ـ لا أفهم لماذا يأتي الناس إلى هنا، فالوضع هنا مُقبِضٌ للنفس.

ـ إنه مشهد جيد، يقول رجل الأعمال. كانت المنشأة تفلس حين أصدروا هذه المجلة. أما الآن فهم يحققون أرباحاً.

ـ هذا انتهاك للحرمات، أجابت زوجته.

واستأنف الرجل:

ـ هذا مصدر الكثير من الخير. فثمة أناس لم تطأ قدماهم يوماً كنيسة يأتون إلى هنا للاطلاع على تاريخ المسيحية.

وبمقدار ما يتقدم المشهد يجد سكير نفسه، تحت تأثير الكحول، على مستوى مختلف: هو جالس لوحده ويشرع بالبكاء وهو يصرخ: «انظروا، إنهم يصلبونه! والجميع يسخرون منه!» ينهض متعثراً ويمد يديه متضرعاً باتجاه الصليب. وتشتكي امرأة كاهن جالسة غير بعيد عن المكان إلى مدير الخدم فيُطرد السكير الذي لا ينفك يبكي ويصيح: «انظروا،

الجميع يسخرون منه! آه! أنتم مسيحيون رائعون!»

قلت لسترافنسكي:

ـ طبعاً أنت تفهم، إنهم يطردونه لأنه يشوش المشهد.

أوضحتُ أن تمثيل عذاب المسيح على حلبة رقص أحد الملاهي من شأنه إظهار كم بات الناس وقحين وتقليديين في اعتناقهم للمسيحية. وقد بات وجه المايسترو شديد الرصانة:

ـ لكن هذا انتهاك للمقدسات، قال.

كنت متفاجئاً ومتضايقاً بعض الشيء.

ـ أتعتقد؟ قلت. لم يكن هذا قصدي. كنت أفكر في أن ذلك نقد لموقف الناس حيال المسيحية: ربما بما أني اخترعت القصة فيما أنا أرويها، لم أستطع إضفاء ما يكفي من الوضوح على الأحداث.

وتوقفنا عن الكلام على الموضوع، لكن بعد أسابيع قليلة، كتب سترافنسكي يسألني إذا كنت لا أزال أفكر في مشروعنا لإنتاج فيلمٍ معاً. بيد أن حماسي كان قد خف وما كان يثير اهتمامي إنما هو إنتاج فيلم لوحدي.

اصطحبني هانس إيسلر إلى ستوديو شونبرغ، وهو رجل قصير القامة جافي الطبع وصريح كنت شديد الإعجاب بموسيقاه وسبق أن رأيته بانتظام في ملاعب كرة المضرب في لوس أنجلس، جالساً لوحده في المنصة، وعلى رأسه كاسكيت بيضاء، وهو يرتدي قميص تي شيرت. وقد قال لي بعد أن رأى فيلمي **الأزمنة الحديثة** إنه أحب الفيلم كثيراً لكن موسيقاي سيئة جداً ـ وقد توجب عليَّ أن أوافقه الرأي بعض الشيء، وقد بقيت ملاحظة أبداها أثناء نقاشنا موضوع الموسيقى، محفورة في ذاكرتي: «أحب الألحان، الألحان الجميلة».

يروي هانس إيسلر نادرة مسلية عن هذا الرجل العظيم. فهانس، الذي كان يدرس معه علم الإيقاع، كان يسير في عز الشتاء ثمانية كيلومترات في الثلج من أجل تلقّي درس من المعلم في الثامنة صباحاً. وكان شونبرغ، الميَّال إلى الصلع، يبقى جالساً إلى البيانو في حين يتطلع هانس من فوق كتفه، قارئاً النوتة ومصفّراً. فقال له المعلم:

ـ لا تصفّر أيها الشاب، فنَفَسُك المتجلّد بارد جداً على رأسي.

خلال إخراج **الديكتاتور**، كنت قد بدأت أتلقى رسائلَ من مجانين، والآن بعد أن انتهى الفيلم، ازداد عدد الرسائل التي تصل. كان بعض مراسليَّ يهددون بإلقاء كُرات منتنة في قاعات العرض وبإطلاق النار على الشاشة في كل مكان يُعرض فيه الفيلم، في حين كان يهدد آخرون بإثارة اضطرابات. وقد فكرت بادىء ذي بدء ببحث الموضوع مع الشرطة، لكن هذا النوع من الدعاية كان يهدد بإبعاد الجمهور. وقد نصحني صديق لي بالحديث مع هاري بريدجز، رئيس نقابة عمال أحواض السفن، فدعوته للعشاء في بيتي.

طرحت أمامه بصراحةٍ لماذا أردت رؤيته. كنت أعرف أن بريدجز مناوىء للنازية، لذا

شرحت له أني أُخرج كوميديا معادية للنازية وأني تلقيت رسائل تهديد. قلت:

ــ إذا كان في وسعي دعوة عشرين أو ثلاثين من عمالكم إلى عرض الافتتاح، وتوزيعهم بين الجمهور، بحيث إذا بدأ أحد أنصار النازية هؤلاء يثير الشغب يمكن فتيانكم أن يدوسوا على قدمه بلطف قبل أن تأخذ الأمور منحىً خطيراً حقاً.

فقال بريدجز ضاحكاً:

ــ لا أعتقد أن الأمور ستصل إلى هذا الحد، تشارلي. فسيكون لديك ما يكفي من المدافعين وسط جمهورك بالذات الذين سيتكفلون بمختلي العقل. وإذا كانت هذه الرسائل كتبها نازيون، لن يتجرأ هؤلاء على الخروج إلى العلن، في شتى الأحوال.

في ذلك المساء، روى لي هاري قصة مثيرة للاهتمام بشأن إضراب سان فرانسيسكو. ففي تلك الفترة، كان عملياً سيد المدينة بكاملها، وكان يشرف على تموينها كلياً. لكنه لم يوقف إطلاقاً المؤن الضرورية للمستشفيات والأطفال. وخلال حديثه عن ذلك الإضراب، قال لي:

ــ حين تكون القضية عادلة، لا حاجة لإقناع الناس. يكفي أن تقول لهم الوقائع، وهم يقررون. وقد قلت لرجالي إنهم إذا قرروا الإضراب، فسوف تتوالى الإزعاجات. وبعضهم ربما لن يروا نتيجته، لكن أياً يكن قرارهم فسوف ألتزم به. وقد قلت لهم إذا قررتم الإضراب، سأكون في الطليعة ـ وصوَّت الخمسة آلاف من عمال الأحواض على الإضراب بالإجماع.

كان الديكتاتور سيُعرض في صالتي نيويورك، الأستور والكابيتول. وقد قدمنا في الأستور عرضاً تمهيدياً للصحافة. وتعشى معي في ذلك المساء هاري هوبكنز، مستشار فرانكلين روزفلت الرئيسي. ثم ذهبنا إلى العرض المخصص للصحافة، ووصلنا في منتصف الفيلم.

إن لعرض فيلم هزلي أمام الصحافة طابعاً خاصاً جداً: يبدو كما لو أن الناس يضحكون رغماً عنهم. وهذا ما حدث في ذلك المساء.

قال هاري حين غادرنا المسرح:

ــ هذا فيلم عظيم، وعمل قيّم جداً، لكن لن يحالفه الحظ، وسوف يخسر على الصعيد المالي.

وبما أني وضعت في تلك المغامرة مليوني دولار من جيبي وسنتين من العمل، لا يمكنني القول إن التشخصيات كانت تملأني بالفرح. ولقد اكتفيت بهز رأسي برصانة. لكن هوبكينز كان على خطأ، والحمد لله. فلقد بدأ فيلم الديكتاتور مسيرته في الكابيتول أمام جمهور لامع، مسرور جداً ومتحمِّس. وبقي يعرض على مدى ١٥ أسبوعاً في نيويورك في صالتين في آن معاً، وتبيّن أنه الفيلم الذي فاق من حيث الواردات كل أفلامي الأخرى.

لكن الانتقادات كانت خليطاً، ومعظم النقاد لم يحبوا الخطاب الأخير. قالت الدايلي

نيوز التي تصدر في نيويورك إني أصوِّب نحو الجمهور إصبع الشيوعية. ومع أن غالبية النقاد كانت ضد الخطاب وأعلنت أنه ليس في محله، فالجمهور أحبه إجمالاً وتلقيت عدداً كبيراً من رسائل المديح الرائعة.

لقد استأذنني أرخي ل. مايو، أحد أكبر مخرجي هوليوود، ليطبع نص الخطاب على بطاقته لعيد الميلاد في ذلك العام. وهاكم المقدمة التي كتبها، ونص الخطاب بالذات:

« لو أني عشت في زمن لنكولن، أعتقد أني كنت أرسلت إليكم خطابه في غيتيسبورغ، لأنه كان الرسالة الأكثر إلهاماً في ذلك العصر. أما اليوم فنحن نواجه أزمات جديدة، ولقد تكلم رجل من أعماق قلبه الصادق والحارّ. ومع أني لا أعرفه إلا سطحياً، فما يقوله أثّر فيَّ بعمق... لذا أنا حريص على أن أرسل إليكم النص الكامل للخطاب الذي كتبه تشارلي شابلن بحيث تستطيعون، أنتم أيضاً، مقاسمته التعبير عن أمله.

الخطاب النهائي في فيلم
الديكتاتور

«أنا آسف، لكنني لا أريد أن أكون امبراطوراً، فهذه ليست مهنتي. لا أريد أن أحكم ولا أريد أن أستولي على أي كان. بودّي أن أهرع لمساعدة الجميع ـ إذا أمكن ـ اليهود، والأمم... والسود... والبيض.

«نريد أن يساعد بعضنا بعضاً. فالناس هم هكذا. نريد أن نعيش على سعادة الآخرين لا على بؤسهم. وليست لدينا رغبة في تبادل الكراهية أو الاحتقار، فثمة مكان للجميع في هذا العالم، والأرض الطيبة غنية وفي وسعها أن تلبي حاجات كلٍّ منا.

يمكن أن تكون الحياة حرة وجميلة، لكننا تهنا. سمّم الجشع الروح البشرية، وأقام في العالم حواجز الحقد، وجعلنا نسير بخطى الإوز نحوَ البؤس والمجزرة. لقد اكتشفنا سر السرعة، لكننا انقطعنا عن الناس، والآلة التي تنتج الوفرة أفقرتنا. حولنا العلمُ إلى أناس وقحين وجعلنا ذكاؤنا قساة وبلا رحمة. إننا نفكر كثيراً جداً ولا نشعر كفايةً. إننا بحاجة إلى الإنسانية أكثر مما نحن بحاجة إلى الآلات، وإلى الطيبة واللطف أكثر مما إلى الذكاء. فمن دون هذه الصفات، لن تكون الحياة إلا عنفاً وكل شيء سيضيع.

«لقد قرَّبت بيننا الطائرة والإذاعة، وطبيعة هذه الاختراعات بالذات هي دعوة إلى حلم الإنسان وطيبته، دعوة إلى الأخوّة الشاملة ووحدة الجميع. وفي هذا الوقت بالذات، يصل صوتي إلى ملايين الناس عبر العالم، ملايين الرجال والنساء والأطفال اليائسين، ضحايا منظومة تدفع الناس إلى تعذيب البريئين وسجنهم. وأنا أقول لمن يسمعونني: «لا تيأسوا». إن البؤس الذي يرزح فوقنا إنما مردُّه الجشع ومرارة الناس الذين يخشون أن يروا البشرية تتقدم. سوف يزول حقد البشر، ويموت الطغاة، والسلطان الذي انتزعوه من الشعب سوف يستعيده الشعب. وطالما سوف يبقى الناس يموتون، لن تزول الحرية أبداً.

«أيها الجنود! لا تسلِّموا أنفسكم لأولئك الوحوش، أولئك الناس الذين يزدرونكم، ويستعبدونكم، ويعسكرون وجودكم، ويملون عليكم أفعالكم وأفكاركم ومشاعركم! أولئك الذين يضبطون خطوكم، ويفرضون عليكم نظام حِمْية، ويعاملونكم كقطعان ويستخدمونكم وقوداً للمدافع! أنتملستم آلات! أنتم بشر! وفي قلوبكم حب الإنسانية! لا تحقدوا! فقط أولئك الذين نحرمهم من محبتنا يكرهون. . . أولئك الذين نحرمهم من محبتنا والمسوخ!

«أيها الجنود! لا تقاتلوا لأجل الاستعباد! قاتلوا لأجل الحرية! مكتوب في الفصل السابع عشر من إنجيل لوقا أن مملكة الله فيكم. . . لا في قلب إنسان واحد أو مجموعة من الناس، بل في كل الناس. فيكم! أنتم، الشعب، تمتلكون السلطة. . سلطة خلق آلات. سلطة خلق السعادة! أنتم، الشعب، تملكون سلطة جعل الحياة حرة وجميلة، وأن تجعلوا من هذه الحياة مغامرة رائعة. إذاً، باسم الديمقراطية، فلنستخدم هذه السلطة، ولنتوحد. فلنناضل لخلق عالم جديد، عالم يمنح كل الناس إمكانية أن يعملوا، ويؤمِّن مستقبلاً للشبيبة وضماناً للشيخوخة.

لقد حصل بعض الطغاة على السلطة إذ وعدوكم بكل هذا. لكنهم يكذبون! لا يفون بوعودهم! ولن يفوا بها أبداً! الطغاة يتحررون لكنهم يستعبدون الشعب. فلنناضل الآن لتحرير العالم وإطاحة الحواجز بين الأمم، لأجل القضاء على الجشع والحقد وعدم التسامح. فلنناضل لأجل عالمٍ مبني على العقل، عالمٍ يقود فيه العلم والتقدم إلى السعادة الشاملة. أيها الجنود، فلنتوحد باسم الديمقراطية!

«هل تسمعني يا حنا؟ ارفع بصرك أينما كنت! ارفع بصرك، يا حنا! فالغيوم تتبدد! والشمس تخترق الغيوم! نحن نخرج من الظلمات إلى النور! ندخل عالماً جديداً، عالماً أفضل، حيث الناس يسيطرون على جشعهم وحقدهم وفظاظتهم. ارفع بصرك، يا حنا! لقد نمت لروح الإنسان أجنحة وها هي تشرع في الطيران. إنها تطير نحو قوس القزح، نحو نور الأمل، ارفع بصرك يا حنا! ارفع بصرك!».

بعد أسبوع على عرض الافتتاح، دعيت إلى مأدبة غداء أقامها أرثر سولز برجر، صاحب النيو يورك تايمز. وحين وصلت، مضوا بي إلى الطابق الأخير لمبنى التايمز وأدخلوني إلى شقة وجدت فيها صالوناً مع لوحات، وصور وأثاث منجَّد بالجلد. وقد شرّف المكان بحضوره المجيد رئيس الولايات المتحدة السابق، هربرت هوفر، وهو رجل طويل القامة ذو عينين صغيرتين وهيئة قديس.

قال المستر سولز برجر، وهو يقودني نحو الرجل الكبير:

ــ سيدي الرئيس، أقدم لك تشارلي شابلن.

فارتسمت على وجه المستر هوفر ابتسامة، وقال منشرحاً:

ــ أجل! أجل! لقد سبق أن التقينا قبل أعوام طويلة.

وقد فوجئت أن يكون المستر هوڤر تذكر ذلك، لأنه في تلك الفترة بدا منشغلاً جداً في تحضير نفسه للبيت الأبيض. كان يحضر عشاء صحفيين في فندق أستور، وجاؤوا بي لتقديم شيء من المحلّيات قبل خطاب المستر هوڤر. كنت في غمرات طلاق وأعتقد أني غمغمت بأنني لا أعرف أشياء كثيرة بخصوص شؤون الدولة، وأني في الواقع لا أعرف أشياء كثيرة بخصوص شؤوني أنا بالذات. وبعد أن تحدثت بهذه الطريقة لمدة دقيقتين، جلست من جديد. وقد قدموني بعد ذلك إلى المستر هوڤر، وأظن أنه قال: «يسرني التعرف إليك»، وكان ذلك كل شيء تقريباً.

كان قد بدأ الكلام وأمامه كدسة أوراق بسماكة عشرة سنتيمترات تقريباً، وكان يسحب ورقة بعد ورقة كلما أمعن في القراءة. وبعد ساعة ونصف، كان الجميع يتأملون الأوراق، وقلوبهم منقبضة. وفي غضون ساعتين، كانت الأوراق مقسومة قسمين متساويين. وكان الخطيب يقفز على دزينة منها أو أكثر، فيشعر الحاضرون بالسعادة، وبما أنه لا شيء خالد في هذه الحياة، وصل الخطاب إلى نهايته. وفيما كان المستر هوڤر يجمع أوراقه بانشغال شديد، ابتسمت وقمت لأهنئه على خطابه، لكنه مر قربي من دون أن يلاحظني.

وها هو بعد ذلك العدد الكبير من الأعوام، وبعد فترة كان فيها رئيساً للجمهورية، يقف هناك أمام المدخنة، وهو يبدو ودوداً بصورة غير طبيعية. كنا اثني عشر شخصاً نأخذ أماكننا للغداء حول طاولة مستديرة كبيرة. وقد قيل لي إن تلك الغداءات اجتماعات حصرية جداً.

هناك نموذج من رجال الأعمال الأميركيين يعطيني انطباعاً بأنه ليس على مستوى الظروف. إنهم طويلون جداً، وسيمون، لابسون بأناقة مفرطة، وقد رتبوا شعرهم بصورة مدهشة، وهم أناس واضحو الذهن، تنبسط الوقائع أمامهم من دون تشوش. أصواتهم معدنية ورنانة ويتكلمون على الأمور الإنسانية بعبارات هندسية كما على سبيل المثال: «سيرورة التنظيم التي نلاحظها في منحنى البطالة السنوي»، الخ. إن الناس من هذا النوع هم الذين كانوا جالسين حول الطاولة على الغداء، وهم يبدون مهيبين ووقورين مثل ناطحات سحاب. والتأثير الإنساني الوحيد كانت توحي به آن أوهيرماك كورميك، وهي سيدة لامعة ولطيفة، كاتبة الأخبار السياسية المشهورة في **النيويورك تايمز**.

كان الجو على الغداء مزخرفاً والحديث صعباً. وكان الجميع يكثرون من مخاطبة المستر هوڤر بـ «سيدي الرئيس». ومع تقدم الغداء، بدأت أشعر بأنهم لم يدعوني للاشيء. فبعد لحظات، جاء السيد سولز برجر يبدد شكوكي. ولقد استفاد من لحظة صمت ليقول:

ـ سيدي الرئيس، أود أن تعرض المهمة التي تزمع إنجازها في أوروبا.

فأراح المستر هوڤر سكينه وشوكته، ومضغ بهدوء وبصورة حالمة، ثم ابتلع وراح يتكلم في موضوع كان يشغل باله منذ بداية الغداء. كان يخاطب صحنه، ملقياً نظراتٍ خاطفة في اتجاه السيد سولز برجر وفي اتجاهي:

ـ جميعنا نعي الوضع المؤسف الذي تعيشه أوروبا حالياً، والبؤس والمجاعة اللذين

يتطوران فيها سريعاً منذ اندلاع الحرب. وهو وضع حرج إلى حد أني استحصلت من واشنطن على قرار بمعالجته بلا إبطاء. (وقد افترضت أنه يعني بواشنطن الرئيس روزفلت).

ثم عدد وقائع وأرقاماً وتحدث عن نتائج مهمته الأخيرة خلال الحرب العالمية الأولى حين «كنا نُطْعِم أوروبا جمعاء».

وأضاف وهو يلقي نحوي نظرة خَفِيَّةً:

ـ هكذا مهمة ستكون موضوعية إطلاقاً، لأهداف إنسانية بحتة... أظن أن هذا يهمك قليلاً.

فأبديت موافقتي برصانة. أما السيد سولز برجر فسأله:

ـ متى تنوي، سيدي الرئيس، وضع هذا المشروع موضع التنفيذ؟.

ـ مذ نتمكن من الحصول على موافقة واشنطن، قال المستر هوڤر. يجب محاصرة واشنطن بالرأي العام، ويلزمنا دعم شخصيات معروفة... (نظرة جديدة باتجاهي، وهزة جديدة للرأس من جانبي).

واستأنف قائلاً:

ـ في فرنسا، يعيش ملايين الناس في الحاجة، وتتفاقم المجاعة في النروج، والدانمرك، وهولندا، وبلجيكا، وكل أوروبا!

كان يتكلم بفصاحة، منظِّماً الوقائع، وعارضاً إياها بإيمان وأمل وإحسان.

ثم ساد الصمت، وتنحنحْتُ.

ـ طبعاً، قلت، ليس الوضع هو ذاته الذي كان قائماً خلال الحرب العالمية الأولى. ففرنسا محتلة كلياً والعديد من البلدان الأخرى... وبالطبع نحن لا نريد أن يقع هذا التموين بين أيدي النازيين.

قطب المستر هوڤر حاجبيه قليلاً، وارتعشت ناطحات السحاب التي تطلعت نحو المستر هوڤر، ثم نحوي، على التوالي، فأدار المستر هوڤر نحو صحنه وجهاً عابساً، وقال:

ـ سوف نسعى لتأليف لجنة حيادية بالتعاون مع الصليب الأحمر الأميركي وللعمل وفقاً لاتفاقات لاهاي، وعلى أساس المادة ٢٧، الفقرة ٤٣، التي تعطي الإذن للجنة خيرية بأن تهتم بالمرضى والمحتاجين في المعسكرين، أكانوا محاربين أم لم يكونوا. وأنا أظن أن عقلاً إنسانياً كعقلكم سوف يؤيد مشروعاً كهذا.

لم يكن هذا حديثه بدقة، لكن جوهره موجود في هذه الكلمات. أما أنا فبقيت على موقفي:

ـ أنا موافق كلياً على هذا المشروع، شرط ألا يقع التموين بين أيدي النازيين.

وقد أثارت هذه الملاحظة اضطرابات جديدة حول الطاولة.

ـ «لقد سبق أن قمنا بهذا النوع من العمليات»، قال المستر هوفْر بتواضع متضايق.

وهنا استدار نحوي أحد ناطحي السحاب الشبان، مبتسماً، وقال:

ـ أظن أن السيد الرئيس قادر على إنجاز هذا النوع من المهمات.

ـ «هذه فكرة ممتازة»، قال السيد سولز برجر بلهجة سلطوية.

فأجبت بتواضع:

ـ أنا موافق كلياً، وأؤيد ذلك مئة بالمئة، إذا أمكن العهد بإدارته إلى اليهود فقط!

ـ آه! قال المستر هوفْر بجفاف، لن يكون ذلك ممكناً.

كان أمراً غريباً سماع نازيين شباب خبثاء يخطبون في تجمعات صغيرة في الجادة الخامسة. كان أحدهم يعلن:

ـ إن فلسفة هتلر دراسة عميقة وممحَّصة لمشكلات عصرنا الصناعي، ليس فيها مكان كبير للوسيط أو لليهودي.

فقاطعته امرأة قائلة:

ـ ما هذه الأحاديث!؟ نحن في أميركا هنا. أين تظن أنك موجود؟

فابتسم الشاب من دون أن يضطرب، وكان فتىً وسيماً مجاملاً، وقال بلهجة ناعمة:

ـ أنا في الولايات المتحدة، وأعتقد أني مواطن أميركي.

ـ حسناً، قالت، أنا مواطنة أميركية ويهودية، ولو كنت رجلاً لحطمت لك فكك!

وقد دعم شخص أو شخصان تهديدات المقاطعة، لكن معظم الحاضرين احتفظوا بصمت منفِّر. وقد جاء شرطي كان يحضر المشهد لتهدئة الامرأة. وابتعدت من جهتي، مذهولاً، أكاد لا أصدق أذنيّ.

بعد يوم أو يومين، كنت في منزل ريفي، ولم ينفك شاب فرنسي شاحب ومهزول، هو الكونت دو شامبرون، صهر بيار لافال، يلاحقني قبل الغداء. كان قد شاهد **الديكتاتور** في مساء العرض الأول في نيويورك. وقد أعلن بشهامة:

ـ لكن بالطبع، لا يتعلق الأمر بأخذ وجهة نظرك على محمل الجد.

فقلت:

ـ على كل حال، لا يتعدى الأمر فيلماً هزلياً.

لو أني عرفت بالمذابح المخزية وأعمال التعذيب الوحشية التي كانت تمارس في معسكرات الاعتقال النازية، لما كنت مهذباً إلى هذا الحد. كان هنالك حوالى الخمسين مدعواً وكنا نتعشى وإلى كل طاولة أربعة أشخاص. وقد جلس إلى طاولتنا وحاول جري إلى نقاش سياسي، لكنني رددت عليه معلناً تفضيلي الأكل الطيب على السياسة، وقد كان حديثه مزعجاً إلى حد أني رفعت كأسي قائلاً: «لدي انطباع حقاً بأني أشرب الكثير من مياه فيشي».

وما أن قلت ذلك حتى انفجرت مشادة عنيفة على طاولة أخرى، حيث اندفعت امرأتان في الصياح، وتفاقمت الخصومة بحيث ظننت أنهما سوف تشدان الواحدة شعر الأخرى. كانت إحداهما تصيح بالأخرى: «لا أريد سماع حديث من هذا النوع. لستِ سوى نازية قذرة!».

وقد سألني فتىً من عائلة نيويوركية بلطف لماذا أنا معاد للنازية إلى هذا الحد، فأجبته أن السبب عائد إلى كون النازيين معادين للإنسانية.

فقال كما لو كان يقوم باكتشاف مفاجىء:

ـ طبعاً، أنت يهودي، أليس كذلك؟

ـ لسنا بحاجة لنكون يهوداً كي نتخذ موقفاً معادياً للنازية، أجبت. يكفي أن يكون المرء كائناً إنسانياً طبيعياً.

وقد وضع ذلك حداً لحديثنا.

بعد يوم أو يومين، كان عليّ الذهاب إلى قاعة بنات الثورة الأميركية في واشنطن، لألقي على الراديو الخطاب النهائي في فيلم الديكتاتور. ولقد دعيت سابقاً للقاء الرئيس روزفلت، الذي أرسلنا الفيلم بناء على طلبه إلى البيت الأبيض. وحين أدخلوني إلى مكتبه، حياني بقوله: «أجلس، يا تشارلي. إن فيلمك يسبب لنا الكثير من المشاكل في الأرجنتين». وقد كان ذلك تعليقه الوحيد. ولخص صديق لي الوضع في ما بعد بقوله: «لقد جرى استقبالك في البيت الأبيض، لكن ليس بذراعين مفتوحتين».

بقيت مع الرئيس حوالى الأربعين دقيقة، قدّم لي خلالها عدة كؤوس مارتيني كرعتها بسرعة، تحت تأثير الحياء الصرف. وحين حان وقت المغادرة، خرجت مترنحاً من البيت الأبيض، ثم تذكرت فجأة أن عليّ التحدث عبر الراديو في الساعة العاشرة. وكان البث سيعاد على مجمل الشبكات، الأمر الذي كان يعني أني سأخاطب أكثر من ٦٠ مليون شخص. وبعد أن أخذت عدة دوشات باردة، وابتلعت الكثير من القهوة السوداء، كنت قد استعدت السيطرة على نفسي إلى هذا الحد أو ذاك.

لم تكن الولايات المتحدة دخلت الحرب بعد، لذا كان هناك العديد من النازيين في القاعة ذلك المساء. وما إن بدأت خطابي حتى بدأوا يسعلون، وقد كان الضجيج حاداً بحيث لم يكن الوضع طبيعياً، وهو ما أثار أعصابي إلى حد أن فمي جفّ، وراح لساني يلتصق بسقف حنكي، ولم أعد أستطيع التلفظ بالكلمات. كان الخطاب يدوم ست دقائق، وقد توقفت في أوجه معلناً أني لن أستطيع مواصلة الكلام إذا لم أشرب كأس ماء. وبالطبع لم تكن هناك نقطة واحدة في القاعة، وبقيت هناك دافعاً إلى الانتظار ستّين مليون مستمع. وفي ختام دقيقتين لم تكونا تنتهيان، قدموا لي ماء وتمكنت هكذا من إنهاء خطابي.

الفصل السادس والعشرون

كـان الانفصال محتـوماً بيني وبين بـوليت، وقد كنـا نعرف ذلـك قبل بـدء إنتـاج فيلم **الديكتاتور** بكثير، والآن وقد أنجز الفيلم كان علينا اتخاذ قرار. وقـد أبلغتني أنها ستعـود إلى كاليفورنيا لتصوير فيلم آخر للباراماونت، وبقيتُ إذاً لبعض الوقت أتسلى في نيويورك. واتصل بي فرانك، مدير خدمي، يقول لي إنها حين عادت إلى المنزل في بيفرلي هيلز لم تبق فيه، بل حـزمت حقائبهـا ورحلت من جديـد. وحين عدت إلى بيفـرلي هيلز، كانت قـد انتقلت إلى المكسيك لأجل الطلاق. كان البيت يبـدو لي حزينـاً جداً، فلقـد كان ذلـك الاقتلاع ممضّـاً بالطبع، لأنه من القساوة بمكان أن تلغي من وجودك ثماني سنوات من الحياة المشتركة.

مع أن **الديكتاتور** لقي شعبية كبيرة لدى الجمهور الأميركي، لا شك أنه خلق نوعـاً من العداوة الخفية. ولقد لاحظت ذلك للمرة الأولى حين استقبلت الصحـافة في بيفـرلي هيلز: مجموعة مقلقة مؤلفة من حوالى العشرين صحفياً جالسين بصمت على مصطبتنا. فلقد قدمت لهم كأساً لكنهم رفضوها، وهو أمر لم يكن مألوفاً بالنسبة لأعضاء السلك.

ــ «بماذا تفكر، يا تشارلي؟»، قال أحدهم، وكان يتكلم طبعاً باسم الجميع.

فقلت ممازحاً:

ــ ببعض الدعاية **للديكتاتور**.

ثم قصصت عليهم مقابلتي مع الرئيس، وبما أني كنت أعتقـد أن ذلك مـوضوع جيـد لمقال صحفي، قلت لهـم إن فيلمي سبب إزعاجات للسفارة الأميركية في الأرجنتين، لكنهم ظلوا صامتين. وبعد قليل، أضفت بلهجة هازلة:

ــ لا يبدو أن الأمور على ما يرام، أليس كذلك؟

ــ يبدو ذلك، قال الناطق بلسانهم. فعلاقاتك العامة ليست لامعة، إذ إنك غادرت من دون أن تهتم بالصحافة، ونحن لا نحب ذلك.

ومع أني لم أكن يوماً على علاقات ممتازة مع الصحافة المحلية، فاجأتني هذه الملاحظة بعض الشيء. ففي الواقع، كنت قد غادرت هـوليوود من دون رؤيـة الصحافيين، لأني كنت

أعتبر أن أولئك الذين لا يحسون بالمودة نحوي قد يمزقون فيلم **الديكتاتور** إرباً قبل أن أكون تمكنت من عرضه في نيويورك، ولم يكن في وسعي أن أعرِّض نفسي للمخاطر مع توظيف لمليونين من الدولارات. وشرحت لهم أن لفيلمٍ معاد للنازية أعداء أقوياء، حتى في أميركا وأني لإعطاء فرصة للفيلم قررت تنظيم حفلة تمهيدية في آخر دقيقة، قبل عرضه أمام الجمهور.

لكن لم يعدل موقفَهم العدائي أيٌّ من الأشياء التي قلتها. فلقد بدا أن المناخ تغير، وأن العديد من الأخبار الزائفة بدأت تنشر في الصحافة بشأني: هجمات غير خطيرة في البداية، ونكات بصدد بخلي الشديد، ثم إشاعات كريهة حول بوليت وحولي. لكن بالرغم من هذه الدعاية المضادة، ظل **الديكتاتور** يحطم الأرقام القياسية على صعيد الواردات، سواء في إنكلترا أو في أميركا.

مع أن أميركا لم تكن دخلت الحرب بعد، أعلن روزفلت حرباً باردة على هتلر. وقد جعل ذلك وضع الرئيس صعباً جداً، لأن النازيين كانوا قد تسللوا إلى العديد من المؤسسات والمنظمات الأميركية؛ وسواء كانت تلك المنظمات واعية أو غير واعية لحقيقة الأمر، لقد كانت تلعب دور أداة للنازيين.

ثم جاء الخبر المفاجىء والدرامي، خبر هجوم اليابان على بيرل هاربور. لقد أذهلت الصدمة أميركا، لكنها تحضرت في الحال للحرب، وسرعان ما اجتازت البحار فرق عديدة من الجنود الأميركيين. في ذلك الحين، كان الروس يوقفون الحشود الهتلرية أمام موسكو، ويطالبون بفتح جبهة ثانية على الفور. وقد كان روزفلت يحبذ ذلك؛ ومع أن المتعاطفين مع النازية كانوا الآن يعملون في السر، فلقد كان سُمُّهم يفعل فعله في العلن، وقد لجأوا لكل الوسائل من أجل فصلنا عن حلفائنا الروس. كانت دعاية جهنمية تقذف آنذاك حممها: «يجب ترك الألمان والروس يستنزفون بعضهم بعضاً، ثم نصل لأجل الحصول على المغانم»؛ كانت كل الحيل صالحة لمنع خلق جبهة ثانية، وكانت تلك فترة قلق شديد. فكل يوم، كانت تصل أخبار الخسائر الروسية الهائلة. وكانت الأيام تصير أسابيع والأسابيع أشهراً، وكان النازيون لا يزالون أمام موسكو.

أظن أن متاعبي بدأت في تلك الفترة. تلقيت اتصالاً هاتفياً من رئيس اللجنة الأميركية في سان فرانسيسكو لنجدة الحرب الروسية، يسألني فيه إذا كنت أوافق على الحلول محل السيد جوزف ل. دايفيس، سفير الولايات المتحدة في روسيا، الذي كان سيلقي كلمة لكنه أصيب في اللحظة الأخيرة بالتهاب الحنجرة. ومع أنه لم يكن لديّ إلا ساعات قليلة لتحضير كلمتي، وافقت. كان اللقاء سيتم في اليوم التالي، وركبت إذاً في قطار الليل الذي يصل إلى سان فرانسيسكو في الثامنة صباحاً.

كانت اللجنة قد أعدَّت لي برنامجاً واسعاً من الاجتماعيات ـ غداء هنا وعشاء هناك ـ الأمر الذي لم يترك لي وقتاً إطلاقاً للتفكير في خطاب، وكان عليَّ أن أكون الخطيب الرئيسي.

لكن على العشاء، شربت كأسين أو ثلاث كؤوس من الشامبانيا، وسهّل ذلك مهمتي.

كان في القاعة عشرة آلاف شخص، وكان الازدحام هائلاً. وكان على المنصة أميرالات وجنرالات أميركيون، وروسي، عمدة سان فرانسيسكو، وكانت الخطب معتدلة، لا بل ملتبسة. قال العمدة: «يجب التسليم بأن الروس حلفاؤنا». وقد اهتم بعدم الإصرار على الطابع الملح للهرع لنجدة الروس، وبعدم المبالغة في امتداح شجاعتهم، أو في ذكر واقع أنهم يقاتلون ويسقطون لأجل إيقاف حوالى مئتي فرقة نازية. إن حلفاءنا هم شركاءُ سرير غريبون جداً، وذلك هو الموقف الذي كنت أشعر في ذلك المساء أنه يحوم حولي.

كان رئيس اللجنة قد رجاني أن أتكلم لمدة ساعة إذا كان ذلك ممكناً. وقد أرعبتني تلك الفكرة، إذ إن حدودي كانت أربع دقائق في أحسن الأحوال. لكن بعد أن سمعت تلك الخطب شديدة الميوعة، أحسست بالغضب، وكتبت بعض الملاحظات على بطاقة الدعوة الموجهة إليّ. ورحت أسير في الكواليس جيئةً وذهاباً، موزَّعاً بين الإثارة والخوف، بانتظار دعوتي للكلام. ثم سمعتهم يعلنون أني سأتكلم.

كنت أرتدي السموكنغ. وعلا التصفيق، الأمر الذي أعطاني لحظاتٍ للسيطرة على نفسي. وبعد أن هدأوا، لم أقل غير كلمة واحدة: «أيها الرفاق!»، وانفجرت القاعة بالضحك. وحين توقف الضحك، كررت بإلحاح: «أنا أعني ما أقول: أيها الرفاق». ضحك جديد، وتصفيق جديد. واستأنفتُ الكلام:

ـ أفترض أن هناك العديد من الروس معنا هذا المساء، وإزاء الطريقة التي يقاتل بها مواطنوكم ويسقطون في هذه اللحظة بالذات، أرى أنه شرفٌ وامتيازٌ أن أدعوكم رفاقاً.

ووسط التصفيق، نهض العديد من الحاضرين.

واشتعلت مشاعري عندئذ، وأنا أفكر بالعبارة: «يجب ترك الروس والألمان يستنزفون بعضهم بعضاً». وكنت أستعد للتعبير عن غيظي في هذا الصدد، لكنني لا أعرف أي غريزة أوقفتني، وقلت بدلاً من ذلك:

ـ أنا لست شيوعياً، أنا كائن إنساني، وأعتقد أني أعرف ردود فعل الكائنات الإنسانية. فالشيوعيون ليسوا مختلفين عن أحد؛ إذا فقدوا ذراعاً أو ساقاً، يتألمون مثلنا جميعاً ويموتون مثلنا جميعاً، والأم الشيوعية مماثلة لأي أم أخرى. فحين تتلقى النبأ المأساوي القائل إن أولادها لن يعودوا، تبكي ككل الأمهات، وأنا لست بحاجة لأن أكون شيوعياً كي أعرف ذلك. يكفيني أن أكون كائناً إنسانياً. وفي هذا الحين، تبكي الأمهات الروسيات كثيراً، ويموت أبناؤهن كثيراً...».

تكلمت على مدى أربعين دقيقة، مرتجلاً شيئاً فشيئاً. وقد أضحكتهم وجعلتهم يصفقون بنكاتي حول روزفلت وحول خطابي لأجل قسائم الحرية خلال الحرب العالمية الأولى: كان كل شيء يمر. وواصلتُ كلامي:

ـ والآن، ها هي الحرب... أنا هنا باسم نجدة الحرب الروسية. (توقفتُ لحظةً

وكررت): نجدة الحرب الروسية. سيكون المال مفيداً، لكنهم بحاجة لأكثر من المال. يبدو أن لدى الحلفاء مليوني جندي ينتظرون عبثاً في شمالي إيرلندا في حين يواجه الروس لوحدهم مئتي فرقة نازية. (وران صمت عميق). إن الروس ـ قلتُ بلهجة حازمة ـ هم حلفاؤنا، وهم لا يقاتلون دفاعاً عن نمط حياتهم، بل دفاعاً عن نمط حياتنا، وإذا كنت أعرف الأميركيين جيداً، فهم يحبون أن يقاتلوا بأنفسهم. ستالين بحاجة إلى ذلك. وروزفلت طلب أن نفتح جبهة ثانية على الفور، فلنطلب ذلك كلنا!

وحصلت هتافات مجنونة دامت سبع دقائق، فالفكرة التي أطلقتها للتو كانت في قلب كل المشاهدين. لم يكونوا يريدون أن أمضي بعد، فراحوا يضربون الأرض بأرجلهم ويصفقون. وإذ رأيتهم يضربون بأرجلهم ويصيحون ويرمون قبعاتهم في الهواء، بدأت أتساءل إذا لم أكن بالغتُ في الكلام ومضيت أبعد من اللازم. ثم حقدت على نفسي لأن أفكاراً جبانة راودتني في حين كان الألوف من الناس يقاتلون ويسقطون. وأخيراً عندما عاد الصمت إلى القاعة، ختمت بقولي:

ــ بما أنكم كلكم من هذا الرأي، أيمكن أن يرسل كلٌّ منكم برقية إلى الرئيس؟ فلنأمل أنه سيتلقى من الآن إلى الغد عشرة آلاف رسالة تطالبِ بفتح جبهة ثانية!

بعد اللقاء، شعرت بالجو مليئاً بالتوتر والضيق. وقد ذهبت أنا ودادلي فيلد مالون، وجون غارفيلد نتعشى في مكانٍ ما.

قال غارفيلد، ملمّحاً إلى خطابي:

ــ لديك الكثير من الشجاعة.

وقد أربكتني ملاحظته، لأني لم أكن أتمنى أن أكون مجيداً، أو أن أنخرط في قضية سياسية. كنت قد قلت فقط بصوت عالٍ ما أشعر به صادقاً، وما أظن أنه عادل. بيد أني شعرت بعد ملاحظة جون أن نهاية السهرة تَرْبَدّ. لكنِ الغيوم المهدِّدة التي كنت أنتظرها لاحقاً تبددت، وحين عدت إلى بيفرلي هيلز تواصلت الحياة كالعادة.

بعد عدة أسابيع، تلقيت اتصالاً هاتفياً جديداً طُلب فيه مني أن ألقي كلمة في لقاء في ماديسون سكواير. وبما أن الأمر كان للقضية ذاتها، فقد وافقت: لِم لا؟ كانت المظاهرة برعاية الشخصيات والمنظمات الأكثر مدعاة للاحترام. وقد تكلمت ١٤ دقيقة، ووجد مجلس مؤتمرِ المنظمات الصناعية من المناسب نشر خطابي. لم أكن أشارك وحدي في ذلك الجهد، كما تُظهر ذلك الكرّاسة التالية التي نشرها مؤتمر المنظمات الصناعية (م. م. ص):

الخطـــاب

في ساحات المعركة في روسيا

سوف تحيا الديمقراطية أو تموت

«لقد أصغى الجمهور الواسع، الذي رجوه مسبقاً ألا يقاطع الخطباء بالتصفيق، أصغى صامتاً ومتوتراً إلى كل كلمة فاهوا بها.

هكذا أصغوا على مدى أربع عشرة دقيقة إلى تشارلي شابلن، الفنان الشعبي الأميركي الكبير، الذي خاطبهم بالهاتف من هوليوود.

في بداية أمسية ٢٢ تموز ١٩٤٢، كان ستون ألف نقابي، وأعضاء في جمعيات مدنية وأخوية، وتجمعات محاربين قدامى ومنظمات علمانية ودينية، يتجمعون في ماديسون سكواير بارك في نيويورك لحضور لقاء معد لدعم الرئيس فرانكلين د. روزفلت من أجل فتح جبهة ثانية على الفور لتسريع النصر النهائي على هتلر وعلى قوى المحور.

كان مسؤولاً عن هذه المظاهرة الكبرى ٢٥٠ نقابة منتسبة إلى الغريتر نيويورك إنداستريال كاونسل، وإلى الـ م. م. ص... كما أرسل وندل و. ويلكي، وفيليب موراي، وسيدني هيلمان وشخصيات أخرى كثيرة رسائل حماسية.

وقد حظي اللقاء بطقس رائع. كانت أعلام الأمم المتحالفة تلتصق بالعلم الأميركي على المنصة التي كان يجلس عليها الخطباء، وكانت ترتفع لافتات مع شعارات لصالح الرئيس، وشعارات لصالح فتح جبهة ثانية، فوق البحر البشري الذي كان يسد الشوارع حول المكان.

هاجمت لوسي مونرو **The Star Spangled Banner**(*) إيذاناً بابتداء اللقاء، ثم جاءت أرلين فرانسيس وجاين فرومان ونجوم عديدة أخرى من المسرح الأميركي لتحية الجمهور. وكان الخطباء الرئيسيون هم الشيخان جايمس م. ميد وكلود بيبر، والعمدة ف. هـ. لاغارديا، ومساعد الحاكم تشارلز بوليتي، والنواب فيتو ماركنطونيو، وميكايل كيل وجوزف كاران، رئيس مجلس م. م. ص في نيويورك.

قال السناتور ميد: «لن نربح هذه الحرب إلا عندما نكون قد جنّدنا الجماهير البشرية الواسعة في آسيا، وأوروبا المحتلة، وأفريقيا، عندما نكون جندناهم من كل قلبهم وبحماس في المعركة لأجل الحرية». قال السناتور بيبر: «إن ذلك الذي يضايق جهودنا، ويصرخ أننا نذهب أبعد من اللازم، هو عدو للجمهورية». وقال جوزف كاران: «لدينا الرجال، ولدينا المعدات، ونعرف طريقة الانتصار الوحيدة... وهي أن نفتح جبهة ثانية على الفور».

كان الجمهور الغُفْل يطلق الهتافات في كل مرة يشار فيها إلى اسم الرئيس، ويجري الكلام على الجبهة الثانية وعلى حلفائنا الأبطال، المقاتلين والمدنيين الشجعان في الاتحاد السوفياتي، وبريطانيا والصين. ثم جاء خطاب تشارلي شابلن، المنقول عبر الهاتف.

من أجل دعم جهود الرئيس
لصالح فتح جبهة ثانية!

ماديسون سكواير بارك، ٢٢ تموز ١٩٤٢

في ساحات المعركة في روسيا سوف تحيا الديمقراطية أو سوف تموت. إن مصير الأمم المتحالفة بين يدي الشيوعيين. فإذا انهزمت روسيا، سوف تسقط القارة الآسيوية ـ الأوسع

(*) أي راية النجمة المتلألئة (م).

والأغنى على سطح الكرة الأرضية ـ تحت أقدام النازيين. ومع كل الشرق الأقصى عملياً تحت سيطرة اليابانيين، سوف تصل يدا النازيين تقريباً إلى كل المواد الاستراتيجية الأساسية في العالم. أي فرصة ستكون لنا عندئذ لنقاتل هتلر؟

إذا أخذنا بالحسبان صعوبات النقل، ومشكلة خطوط مواصلاتنا الممتدة آلاف الكيلومترات، ومشكلة الفولاذ والنفط والكاوتشوك ـ واستراتيجية هتلر القاضية بالتفريق لكي يسود ـ سنكون في وضع يائس إذا هُزمت روسيا.

يقول البعض إن ذلك قد يطيل الحرب عشر سنوات أو عشرين، وفي رأيي أن هذا من قبيل المبالغة في التفاؤل. فضمن شروط كهذه وبمواجهة عدو بهذا الهول، سيكون المستقبل غير أكيد إطلاقاً.

ما عسانا ننتظر؟

إن الروس بحاجة يائسة إلى الدعم. إنهم يرجوننا أن نفتح جبهة ثانية. وبين الأمم المتحالفة، ليس الجميع متفقين على فتح جبهة ثانية الآن. ويبدو أن الحلفاء لا يمتلكون الإمكانات الكافية لدعم جبهة ثانية. ثم يظهر أنهم يمتلكونها. ويقولون لنا أيضاً إنهم لا يريدون المخاطرة في فتح جبهة ثانية حالياً في حالة هزيمة ممكنة. إنهم لا يريدون المخاطرة قبل أن يتأكدوا تماماً.

لكن هل في وسعنا السماح بالانتظار إلى حين نصبح متأكدين تماماً؟ هل في وسعنا أن نسمح لأنفسنا حين نكون في حالة حرب. وفي هذا الحين، يبتعد الألمان عن القوقاز مسافة خمسمائة كيلومتر. فإذا سقط القوقاز، يضيع ٩٥٪ من النفط الروسي أيضاً. وحين يموت عشرات الألوف من الرجال، ويوشك أن يموت الملايين، علينا أن نقول بشرف ما نفكر فيه. إن الناس يطرحون أسئلة على أنفسهم ونسمع من يتحدث عن حملات عسكرية كبرى تنزل على ساحل إيرلندا، ويقولون لنا إن ٩٥٪ من قوافلنا تصل من دون تعقيدات إلى أوروبا، وإن مليوني إنكليزي مجهزون تماماً ولا يطلبون سوى الرحيل. ما عسانا ننتظر حين يكون الوضع يائساً إلى هذا الحد في روسيا؟

في وسعنا تحمُّل الجواب

يا حكومة واشنطن ويا حكومة لندن، ليست هذه أسئلة نطرحها لخلق خلافات، بل نطرحها لتبديد البلبلة، وإيجاد الثقة والوحدة في سبيل النصر النهائي. ومهما يكن الجواب، يمكننا احتماله.

إن روسيا تقاتل وظهرها إلى الحائط، وهذا الحائط هو أقوى دفاعات الحلفاء. لقد دافعنا عن ليبيا وخسرناها. دافعنا عن كريت وخسرناها. دافعنا عن الفيليبين وجزر أخرى في المحيط الهادىء وخسرناها. لكن ليس في وسعنا أن نسمح لأنفسنا بخسارة روسيا، لأن هذا هو خط هجوم الديمقراطية. فحين ينهار عالمنا وحياتنا وحضارتنا عند أقدامنا، علينا المخاطرة.

إذا خسر الروس القوقاز، ستكون تلك هي أفدح كارثة تمنى بها قضية الحلفاء. حذار إذاً من الذين يدعون إلى التهدئة، لأنهم سيخرجون من جحورهم. إنهم يودون توقيع الصلح مع هتلر ظافر. سوف يقولون: «من غير المجدي التضحية بالمزيد من الحيوات الأميركية؛ في وسعنا القيام بـ «صفقة جيدة» مع هتلر».

حذار من الفخ النازي

حذار من هذا الفخ النازي. سوف ترتدي الذئاب النازية جلود خراف. وسوف يصورون لنا السلام بشكل جذاب، وقبل أن ندرك الحقيقة نكون قد وقعنا في أسر الأيديولوجيا النازية. سوف نُستبعد آنذاك. وسوف يحرموننا من حريتنا في العمل وفي التفكير. سوف يصبح العالم تحت نير الغستابو، وسيحكموننا عن طريق الراديو، هذه هي سلطة المستقبل.

مع سلطة السماوات بين يدي النازيين، سوف يجري القضاء على كل معارضة للنظام النازي، وسيتم تحطيم تقدم البشرية. لن تعود ثمة حقوق للأقليات، ولن تكون هنالك حقوق للشغيلة، ولن تعود ثمة حقوق مدنية. كل ذلك سيزول أيضاً. ومنذ اللحظة التي نعير فيها سمعنا للناس الداعين للتهدئة ونوقّع الصلح مع هتلر ظافر، سوف ينزل نيره على الأرض بكل ثقله.

يمكننا المغامرة

حذار من أولئك الذين يدعون إلى التهدئة ويحصدون دائماً بعد الكارثة.

إذا كنا نأخذ حذرنا، إذا حافظنا على معنوياتنا، ليس لدينا ما نخشاه. لا تنسوا أن المعنويات هي التي أنقذت انكلترا، وإذا احتفظنا بمعنوياتنا، يكون النصر أكيداً.

لقد غامر هتلر كثيراً. ومغامرته الكبرى هي الحملة على روسيا. فليغثه الله إذا لم ينجح في اجتياز القوقاز هذا الصيف. فليغثه الله إذا اضطر لقضاء شتاء آخر أمام موسكو. إن فرصه هشة، لكنه غامر. وإذا كان في وسع هتلر أن يغامر، فلماذا لا نفعل نحن؟ أعطونا فعلاً. أعطونا المزيد من القنابل على برلين. أعطونا هذه الطائرات المائية غلين مارتن لتسهيل مشكلات النقل لدينا. وأعطونا بوجه خاص جبهة ثانية على الفور.

النصر في فصل الربيع

فلنحدد هدفاً لنا هو النصر في فصل الربيع. أنتم في المصانع، وأنتم في الحقول، وأنتم في بزة القتال، أنتم يا مواطني العالم، فلنعمل جميعاً ولنقاتل لأجل هذا الهدف. أنت يا حكومة واشنطن، وأنت يا حكومة لندن، فليكن هذا هدفنا: النصر في فصل الربيع.

إذا تشبثنا بهذه الفكرة، إذا عملنا من أجل هذه الفكرة، إذا عشنا معها، سوف تخلق استعداداً يزيد من قوتنا ويسرِّع إيقاعنا.

فلنتجه نحو المستحيل. تذكروا أن المآثر الكبرى في التاريخ كانت إخضاع ما يبدو مستحيلاً».

كنت أُمضي مؤقتاً أياماً هادئة، لكنه كان الهدوء الذي يسبق العاصفة. لقد كانت الظروف التي تسببت بتلك القصة الغريبة بريئة تماماً في البدء. كان اليوم يوم أحد وبعد مباراة في كرة المضرب، قال لي تيم دوران إن لديه موعداً مع امرأة شابة اسمها جوان باري، وكانت صديقة لبول جيتي؛ كانت عائدة لتوها من مكسيكو مع رسالة توصية من صديق هو أ. ك. بلومنتال. قال لي تيم إنه سيتعشى معها ومع امرأة شابة أخرى، وسألني إذا كنت أريد مرافقتهم لأن الآنسة باري عبرت عن رغبتها في التعرف إليّ. وإذ بنا في مطعم پيرينو. كانت الشابة المعنية فاتنة ومرحة، وأمضينا نحن الأربعة سهرة عادية جداً، ولم أكن أفكر إطلاقاً في رؤيتها من جديد.

لكن في يوم الأحد التالي، الذي كان فيه ملعب كرة المضرب الخاص بي في حوزة أصدقائي، جاء بها تيم. وكنت مساء كل أحد أعطي الخدم عطلتهم وأتعشى في الخارج، لذا دعوت تيم والآنسة باري للعشاء لدى رومانوف، وأوصلت كلاً منهما إلى بيته بعد العشاء. لكن صباح اليوم التالي، اتصلت بي هاتفياً لتعرف إذا كنت أود دعوتها للغداء. فأوضحت لها أني ذاهب إلى مزاد في سانتا باربرا، على بعد ١٥٠ كلم عن المكان، وإذا لم يكن لديها شيء تفعله يمكنها مرافقتي، فنتغدى معاً ونذهب إلى البيع بعد ذلك. وبعد القيام بشراء أو شراءين، أعيدها إلى لوس أنجلس.

كانت الآنسة باري امرأة شابة طويلة القامة وجميلة في الثانية والعشرين من العمر، متينة البنية، مع صدر كبير جداً يكشفه فستان صيفي مقوَّر بصورة مثيرة للدوار، وهو الأمر الذي أيقظ في طريق العودة فضولي الجنسي. وقد روت لي في تلك اللحظة أنها تخاصمت مع بول جيتي وستعود إلى نيويورك في المساء ذاته، لكن إذا كنت أريد أن تبقى، سوف تفعل ذلك وتتخلى عن كل شيء. فعدلت عن موقفي، واحترست، لأنه كان هنالك شيء مفاجىء جداً، وغريب جداً في ذلك العرض. فأجبتها بصراحة بألّا تبقى لأجلي، ثم أنزلتها أمام شقتها وودعتها.

وفوجئت بها تهاتفني بعد يوم أو يومين لتقول لي إنها باقية في كل حال، وسألتني إذا كنت أريد رؤيتها في ذلك المساء بالذات. والعناد طريق النجاح، وقد بلغت هكذا هدفها، ورحت أراها باستمرار. لم تكن الأيام التالية كريهة، لكن كان هنالك في تلك القصة شيء ما غريب وغير عادي بتاتاً. فمن دون أن تتصل، كانت تصل فجأة إلى بيتي في ساعة متقدمة من الليل. وكان ذلك مبلبلاً بعض الشيء. ثم لم أعد أسمع عنها شيئاً على مدى أسبوع. ومع أني لم أكن أريد الاعتراف بالواقع، بدأت أشعر بالتضايق. لكن حين كانت تظهر، وكانت ذات فتنة آسرة، كانت شكوكي ومخاوفي تتبدد في الحال.

ذات يوم، كنت أتغدى مع السير سيدريك هاردويك، وسينكلاير ليويس، الذي تكلم، خلال الحديث، على مسرحية **Shadow and Substance**، التي لعب سيدريك دور البطولة فيها. قال ليويس إن شخص بريدجت هو شخص جان دارك الحديثة، وإن المسرحية قد

تصبح في رأيه فيلماً ممتازاً. فاهتممت بذلك وقلت لسيدريك أن بودي قراءتها. فأرسل لي نسخة.

بعد مساء أو اثنين، جاءت جوان باري للعشاء وحدثتها عن المسرحية. فقالت لي إنها رأتها وبودها أن تلعب دور الفتاة. فلم آخذ كلامها على محمل الجد، لكنها قرأت لي الدور في ذلك المساء، ومثلته بصورة مرموقة، مثيرة ذهولي، لا بل توصلت إلى إعادة خلق النبرة الإيرلندية. وقد تحمستُ إلى حد تصويرها بشكل صامت لرؤية إذا كانت ملائمة للتصوير من الناحية الجمالية، وبدت التجربة مُرْضيةً.

لقد تبددت كل انشغالات البال التي أوحت بها إليَّ تصرفاتها الغريبة. وفي الحقيقة، خُيِّل لي أني قمت باكتشاف. وأرسلتها إلى دروس المسرح لدى ماكس راينهاردت، لأنها كانت بحاجة لتكوين فني، وبما أن وقتها كان مستنفداً هناك، نادراً ما كنت أراها. وبما أني لم أكن اشتريت بعد حقوق العمل، اتصلت إذاً بسيدريك، وبفضل تدخله حصلت على حقوق الفيلم مقابل ٢٥ ألف دولار. وقد تعاقدت عندئذ مع باري براتب مئتين وخمسين دولاراً في الأسبوع.

هنالك صوفيون يعتقدون أن وجودنا نصف حلم وأن من الصعب معرفة أين ينتهي الحلم وأين يبدأ الواقع. هكذا كانت الأمور بالنسبة إليّ. ففي غضون شهور، كنت منشغلاً بكتابة السيناريو. ثم بدأت أحداث غريبة وخيالية تحدث. فباري أخذت تصل وهي تسوق سيارتها الكاديلاك في كل ساعات الليل، سكرى بالكامل، وكنت مجبراً على إيقاظ سائقي ليعود بها إلى بيتها. وفي إحدى المرار، سحقت سيارتها في المعبر وتوجَّب تركها هناك. وبما أن اسمها كان يقترن الآن بستوديوهات شابلن، بدأت أقلق إزاء فكرة أن فضيحة ستحدث إذا أوقفتها الشركة في حالة سكر. وقد أصبحت أخيراً مربكة إلى حد أنها حين كانت تظهر عند الفجر، لم أكن أجيب على الهاتف ولا كنت أفتح الباب. فشرعت تدخل عندئذ بعد أن تكسر ألواح الزجاج. وبين ليلة وضحاها، صارت حياتي كابوساً.

اكتشفت عندئذ أنها لم تعد تذهب إلى درس راينهاردت، منذ أسابيع عديدة. وحين كلمتها في الموضوع، أبلغتني فجأة أنها لا تريد أن تصبح ممثلة، وإذا وافقت على أن أدفع لها ولوالدتها ثمن بطاقة العودة إلى نيويورك وأن أعطيها خمسة آلاف دولار، سوف توافق على تمزيق العقد. وقد انصعت لشروطها طوعاً، ودفعت ثمن بطاقة العودة والخمسة آلاف دولار، مسروراً جداً بالتخلص منها.

ومع أن مشروع باري قد فشل، لم أتأسف لكوني اشتريت **Shadow and Substance**، لأني كنت قد أنجزت المخطوطة تقريباً ووجدتها جيدة جداً.

كانت قد انصرمت أشهر منذ لقاء سان فرانسيسكو، وكان الروس لا يزالون يطالبون بفتح جبهة جديدة ـ وقد وصلني نداء جديد من نيويورك يطلب إليَّ إلقاء كلمة في كارنيجي هول. وقد رحت أتساءل إذا كان عليّ الذهاب إلى هناك أو لا، وتوصلت إلى خلاصة مفادها أنني حركتُ الأمور وذلك كافٍ. لكن في اليوم التالي، في حين كان جاك وارنر يلعب التنس معي،

حدثته في الموضوع وهز رأسه بصورة ملغزة، وقال:

ــ لا تذهب إلى هناك.

ــ «لماذا إذاً؟»، سألته.

فلم يرد قول أي شيء، لكنه أضاف فقط:

ــ اسمع نصيحتي، ولا تذهب إلى هناك.

لقد كان لنصيحته تأثير معاكس. فلقد شكلت تحدياً. كان يلزم في ذلك الحين القليل القليل من الفصاحة لضم كل أميركا إلى فكرة جبهة ثانية، لأن روسيا كسبت لتوها معركة ستالينغراد. ولقد مضيت إذاً ومعي تيم دوران.

كان حاضراً في لقاء كارنيجي هول كل من پيرل باك، وروكويل كنت، وأورسون ويلز وأشخاص آخرين مشهورين. كان أورسون ويلز سيتكلم في ذلك النهار، لكن بما أن عاصفة المعارضة كانت تهب، لم يبتعد عن الساحل إطلاقاً، حسبما بدا لي. تكلم قبلي، معلناً أنه لا يرى سبباً لعدم الكلام، لأن الأمر يتعلق بنجدة الروس المنخرطين في الحرب ولأن الروس حلفاؤنا. كان خطابه طعاماً من دون ملح، وهو الأمر الذي جعلني أعقد العزم على الكلام بضراوة. ومنذ الجمل الأولى التي تلفظت بها، أشرت إلى كاتب أخبار اتهمني بأني أريد قيادة العمليات، وقلت:

ــ إذا حكمنا على الأمور انطلاقاً من نوبات الغضب التي تصيبه، قد أقول طوعاً إنه غيور ولديه رغبة في قيادة العمليات بنفسه. لكن المأساة تكمن في كوننا لسنا متفقين على الاستراتيجية: إنه لا يؤمن بفتح جبهة ثانية على الفور، أما أنا فأؤمن بذلك!

ولقد كتبت الدايلي ووركر: «كان اللقاء أغنية حب مزدوجة بين تشارلي والجمهور». لكنني كنت أشعر بأحاسيس مختلطة، ولا سيما ببعض الخوف.

بعد مغادرة كارنيجي هول، تعشيت أنا وتيم مع كونستانس كولييه، التي حضرت اللقاء. كانت قد تأثرت كثيراً، علماً أنها لم تكن امرأة يسارية. وحين وصلنا إلى والدورف ـ أستوريا، كان هنالك عدة رسائل هاتفية من جوان باري. وقد بدأت أشعر بالخوف، فمزقتها حالاً، لكن الهاتف راح يرن. كنت أريد إعطاء توجيهات إلى المقسم بعدم تحويل أي مخابرة إليّ، لكن تيم قال لي:

ــ هذا غير مُجْدٍ، فمن الأفضل أن ترد، وإلا سوف تصعد إلى هنا لاختلاق مشكلة.

حين رن الهاتف، أجبت. بدت طبيعية جداً ولطيفة، وقالت إنها تريد فقط أن تمر لتتمنى لي نهاراً سعيداً. فوافقت إذاً وقلت لتيم ألا يتركني لوحدي معها. وفي ذلك المساء، روت لي أنها منذ وصولها إلى نيويورك تسكن في الپيتر، الذي يملكه بول جيتي. وقد كذبت عليها وقلت لها إننا باقون يوماً أو يومين لا أكثر، وإني سأحاول إيجاد وقت لكي نتغدى معاً. وقد بقيت نصف ساعة وسألتني إذا كنت أرافقها إلى الپيتر. وبما أنها أصرت على أن أرافقها إلى

المصعد، أخذت حذري منها. بيد أني تركتها مع ذلك عند المدخل، وكانت تلك هي المرة الأولى والأخيرة التي رأيتها فيها في نيويورك.

بعد خطبي لصالح الجبهة الثانية، سرعان ما تضاءلت حدود حياتي الاجتماعية. لم أعد أدعى لإمضاء نهايات الأسبوع في بيوت ريفية فخمة. وبعد لقاء كارنيجي هول، جاء إلى الفندق كليفتون فاديمان، وكان كاتباً وباحثاً يعمل في الكولوميا برودكاستينغ سيستم، ليسألني إذا كنت أوافق على إعطاء تسجيل سوف يذاع في كل أنحاء العالم. سوف أعطى سبع دقائق لأقول ما أريد قوله. وقد وقعت تحت إغراء القبول إلى حين قال لي إن ذلك سيتم خلال برنامج كايت سميث. فرفضت عندئذ قائلاً إن أحاديثي حول المجهود الحربي قد تنتهي بلا ريب بدعاية لصالح جيلو. لم أكن أريد مضايقة فاديمان إطلاقاً: فهو رجل لطيف، وموهوب ومثقف، وحين سمعني أذكر اسم جيلو، احمرّ وجهه كلياً. وقد أحزنني ذلك حالاً، وتأسفت على ما قلته.

تلقيت بعد ذلك عدداً كبيراً من الرسائل التي تتضمن عروضاً من شتى الأنواع. كان أحدها يأتي من عضو مشهور في الـ «أميريكا فورست»، هو جيرالد ن. سميث، الذي كان يرغب في تنظيم نقاش معي بصدد هذا الموضوع. وقد عُرض عليّ أيضاً أن ألقي محاضرات، أو أن أتكلم دفاعاً عن الجبهة الثانية.

كان لديّ الآن شعور بأني منجرف في تيهور سياسي. وقد بدأت أشكّك بدوافعي: إلى أي حد لم يكن الممثل فيَّ هو الذي يحفزني، ورد فعل جمهور حاضر أيضاً؟ أكنت اندفعت في هذه المغامرةالدونكيشوتيةلو لم يسبق أن أخرجت فيلماً معادياً للنازية؟ أكان ذلك تصعيداً لكل انزعاجاتي وكل عدائي للأفلام الناطقة؟ أعتقد أنه كان هنالك قليل من كل ذلك، لكن العنصر الأقوى كان حقدي على النظام النازي واحتقاري له.

بعـد عودتي إلى بيفـرلي هيلز، استأنفت العمـل على **Shadow and Subtance**، فجاء أورسون ويلز ليراني ويوضح لي أنه يفكر في تصوير سلسلة من الأفلام الوثائقية، وهي قصص مأخوذة من الحياة الفعلية، وأن موضوع أحد أفلامه سيكون القاتل الفرنسي المشهور لاندرو، وأنه يفكر في أنه سيكون دوراً رائعاً لي.

أثار ذلك اهتمامي، لأنه ينتقـل بي من الكوميـديا، ويبَـدِّل أيضاً واقـع أني أكتب وأمثل وأُخرج بنفسي، كما كنت أفعل منذ سنوات. وقد طلبت إذاً أن أرى السيناريو.

ــ آه! قال، لم يُكتب بعد، لكن يكفي أخذ محاضر دعوى لاندرو، ويكون لديك كل ما تحتاج إليه. وأضاف: «لقد فكرت في أنك قد تحب المشاركة في وضع السيناريو».

وشعرت بخيبة الأمل، وقلت:

ــ إذا كان عليّ أن أشارك في وضع السيناريو، فهذا لا يثير اهتمامي.

وبقينا عند هذا الحد.

لكن بعد يوم أو يومين، فكَّرت فجأة في أن لاندرو قد يكون مـادة لفيلم قيِّم، فاتصلت هاتفياً إذاً بويلز.

ــ أتعرف، إن الفيلم الوثائقي الذي اقترحته عليَّ بصدد لاندرو أوحى لي بفكرة كوميديا. لا علاقة لذلك بلاندرو، لكنني مستعد، من أجل تحاشي أي سوء فهم، لأن أدفع لك خمسة آلاف دولار، لمجرد أن اقتراحك جعلني أفكر في ذلك.

فأبدى تحفظات. أما أنا فواصلت:

ــ انظر! ليس لاندرو قصة مبتكرة، إنه ملكية عامة.

وفكَّر قليلاً، ثم قال لي أن أتصل بوكيله. وهكذا جرى عقد اتفاق يقبض ويلز بموجبه خمسة آلاف دولار، وأتحرر أنا من كل التـزام. وقبل ويلز، لكنـه طلب إضافـة شرط يمكنـه

بموجبه أن يحصل، بعد رؤية الفيلم، على حق أن يظهر اسمه في مقدمة الفيلم بالشكل التالي: «بناء على فكرة لأورسون ويلز». وفي غمرة حماسي، لم أولِ انتباهاً لهذا الطلب. ولوتقعت كل القصص التي سيحاول في الأخير أن يخلقها في هذا الصدد لأصررت على عدم ذكر أي شيء بخصوصه في المقدمة.

تركت إذاً جانباً **Shadow and Substance**، وشرعت في كتابة **مسيو ڤردو**. وكنت أعمل، عليه منذ ثلاثة أشهر حين وصلت جوان باري فجأة إلى بيڤرلي هيلز، وقد أبلغني مدير خدمي أنها اتصلت هاتفياً. وقد أجبت أني لا أريد رؤيتها في أيٍّ من الأحوال.

لم تكن الأحداث التي تلت كريهة فقط، بل كانت مشؤومة. فبما أني رفضت رؤيتها، دخلت المنزل عنوةً، وحطمت الألواح الزجاجية وهددتني بالموت وطالبت بالمال. وقد اضطررت أخيراً إلى استدعاء الشرطة، وهو الأمر الذي كان عليّ أن أفعله منذ زمن طويل، علماً أن ذلك كان سيشكِّل للصحافة فرصة ممتازة. لكن الشرطة بدت متفهمة جداً، إذ قيل لي إنهم لن يوجهوا إليها تهمة التشرد إذا وافقتُ على أن أدفع لها بطاقة العودة إلى نيويورك. ومرة أخرى، دفعت إذاً ثمن بطاقتها، وحذرتها الشرطة من أنها إذا شوهدت من جديد في محيط بيفرلي هيلز سوف تتعرض لتهمة التشرد.

يبدو محزناً أن يكون تلا هذه الحادثة المنفِّرة مباشرةً ما يمكن اعتباره أسعد حدثٍ في حياتي. لكن الظلال تختفي في الليل وتبزغ الشمس لدى الفجر.

فذات يوم، بعد أشهر قليلة، اتصلت هاتفياً الآنسة مينا والاس، التي كانت مديرة مسرح في هوليوود، لتقول لي إن لديها زبونة وصلت لتوِّها من نيويورك، تصلح في رأيها الدور بريدجت، الشخصية الرئيسية في **Shadow and Substance**. وبما أني كنت أتعرض لإزعاجات مع **Monsieur Verdoux**، لأنها قصة يصعب تنفيذها، اعتبرت رسالة الآنسة والاس فألاً حسناً يدفعني لإعادة النظر في تصوير **Shadow and Substance**، ولتنحية **Monsieur Verdoux** مؤقتاً. وقد اتصلت إذاً هاتفياً للحصول على مزيد من التفاصيل، فقالت لي الآنسة والاس أن زبونتها تدعى أونا أونيل، ابنة الكاتب المسرحي المشهور أوجين أونيل. لم أكن التقيت يوماً أوجين أونيل، لكن انطلاقاً من رصانة مسرحياته تصورت ابنته بألوان قاتمة، وسألت الآنسة والاس باقتضاب:

ـ هل تعرف التمثيل؟

فقالت:

ـ كانت لها تجربة مسرحية ضئيلة في فرق صيفية في الشرق. فمن الأفضل أن تجري لها اختباراً قصيراً وتحكم بنفسك. أو قد يكون أفضل أيضاً إذا لم تكن تريد الالتزام أن تأتي للعشاء عندي، وأرتِّب الأمور بحيث تكون موجودة.

وصلت باكراً، وإذ دخلت الصالون وجدت فتاة جالسة لوحدها قرب النار. وبانتظار الآنسة والاس، قدمت نفسي قائلاً إني أفترض أنها الآنسة أونيل. فابتسمت، وعلى عكس

مخاوفي لمحت جمالاً وضّاءً، ذا سحر خفيٍّ قليلاً ونعومة فاتنة إلى أبعد الحدود. وجلسنا نثرثر بانتظار مضيفتنا.

وصلت الآنسة والاس أخيراً وقدَّمتنا رسمياً. كنا أربعة على العشاء: الآنسة والاس والآنسة أونيل، وتيم دوران وأنا. ومن دون الحديث في المهنة، لم ننفك نلامس الموضوع. وقد أوضحت أن الشابة في **Shadow and Substance** في مقتبل عمرها، وأشارت الآنسة والاس عابرةً إلى أن الآنسة أونيل تكاد تكون تجاوزت السابعة عشرة. وقد انقبض قلبي. فمع أن الدور يتطلب شخصاً في عز الصِّبا، كان هذا الشخص شديد التعقيد ويتطلب ممثلة أكبر سناً وأكثر خبرة. وعلى مضض، لم أعد أفكر بإعطائها الدور.

لكن بعد أيام، اتصلت بي الآنسة والاس لتعرف إذا كنت أرتِّب شيئاً للآنسة أونيل، لأن شركة فوكس مهتمة بها. فوقّعت لها عقداً على الفور. وكانت تلك بداية ما سيكون أكثر من عشرين عاماً من السعادة الكاملة. . . وأكثر أيضاً، كما آمل.

بمقدار ما كانت تزداد معرفتي بأونا، كنت أتفاجأ بلا انقطاع بحس الفكاهة لديها وبتسامحها: لقد كانت قادرة دائماً على وضع نفسها مكان غيرها. ولهذا السبب ولأسباب أخرى عديدة أغرمت بها. كانت قد بلغت الثامنة عشرة، لكنني كنت مقتنعاً بأنها ليست خاضعة لنزوات عمرها. كانت أونا استثناء بالنسبة للقاعدة، مع أني ارتعبت في البدء بسبب فارق السن بيننا. لكن أونا كانت مصمِّمة، كما لو أنها اكتشفت حقيقة للتوّ. وقد قررنا إذاً الزواج بعد إنهاء تصوير **Shadow and Substance**.

كنت قد أنهيتُ الجزء الأول من السيناريو، وأستعد للانتقال إلى طور الإنتاج. فإذا نجحت في أن أنقل إلى الفيلم هذا السحر النادر الذي تمتلكه أونا، يحقق **Shadow and Substance** نجاحاً باهراً.

في أثناء ذلك، حلَّت باري من جديد في هوليوود، وأخبرت مدير الخدم بمرح أنها لم تعد تملك قرشاً واحداً وأنها حبلى منذ ثلاثة أشهر، لكن من دون اتهام أحد أو التلميح من قريب أو بعيد إلى هوية المسؤول. ولم يكن ذلك يعنيني إطلاقاً، لذا قلت لمدير الخدم أنها إذا بدأت تدور حول البيت، سواء لإثارة الفضائح أو لغير ذلك، سوف أستدعي الشرطة. لكنها وصلت في اليوم التالي، لطيفةً وباسمةً، ودارت عدة مرات حول المكان. ومن البديهي أنها كانت تتحرك وفقاً لخطة مرسومة جيداً. وقد جرى في ما بعد اكتشاف أنها كانت قد قابلت إحدى الصحفيات المختصة بالشؤون العاطفية في المجلات النسائية، التي نصحتها بالعودة إلى المنزل والتعرض للتوقيف. وقد كلمتُها شخصياً، وحذرتها من أنها إذا لم تغادر المكان، سوف أكون مضطراً لدعوة رجال الشرطة. لكنها اكتفت بالضحك، وبما أني لم أكن قادراً على تحمل ذلك النوع من الابتزاز، كلفت مدير الخدم بمخابرة الشرطة.

بعد ساعات قليلة، شهَّرت بي الصحف، ورجمتني وجرَّتني في الوحل: إن شابلن، والد الطفل الذي كانت تنتظره الامرأة الشابة، جعل الشرطة توقفها بعد أن تركها وليس في جيبها

فلس واحد. وفي غضون أسبوع، رُفعت ضدي دعوى اعتراف بالأبوّة. وبعد هذه الاتهامات، استدعيت محاميّ لويد رايت، وشرحت له أنه لم تكن لي أي علاقة بالمدعوّة باري منذ عامين.

بما أنه كان على علم بنواياي بخصوص بدء تصوير **Shadow and Substance**، نصحني خِفيةً بإرجاء هذا المشروع مؤقتاً وترك أونا تعود إلى نيويورك. لكننا رفضنا التقيد بنصيحته إذ لم نكن نريد أن تتأثر حياتنا بأكاذيب باري أو بالعناوين الكبرى للصحف. وبما أننا سبق أن تحدثنا، أونا وأنا، عن الزواج، قررنا القيام بذلك في الحال، وقد اتخذ صديقي هاري كروكر كل الإجراءات الضرورية. كان يعمل الآن لهورست، ووعد بألّا يأخذ إلا صوراً قليلة للزواج، شارحاً أنه من الأفضل ترك هورست يتولى الأمر بصورة حصرية، ولويلا بارسونز، وهي إحدى الصديقات، تكتب المقال، بدل تعريض أنفسنا لعداء الصحف الأخرى.

تزوجنا في كاربنتيريا، وهي قرية صغيرة وادعة على بعد ٢٥ كم عن سانتا باربرا، لكن قبل أن نتمكن من الحصول على الإذن بالزواج، كان علينا أن نسجل أنفسنا في عمديّة سانتا باربرا. كانت الساعة هي الثامنة صباحاً، ولم يكن هناك الكثير من الحركة في المدينة في تلك الساعة. وكانت العادة أن موظف العمدية يعلم الصحافة عموماً، إذا كان أحد الزوجين شهيراً، عن طريق كبس زر سري تحت مكتبه. لذا تدبّر هاري الأمر، بهدف تحاشي مهرجان مصوِّرين، بحيث أنتظر في الممشى في حين تتسجل أونا. وبعد أن كتب الموظف التفاصيل المعتادة، كاسمها وعمرها، قال:

ـ والآن، أين هو الشاب؟

وقد أصيب بالدهشة حين ظهرت، وقال مذهولاً:

ـ عجباً! يا لها من مفاجأة!

ورأى هاري يده تختفي تحت المكتب، لكننا دفعناه بقوة، وبعد أن ماطل معنا ما استطاع أعطانا على مضض رخصة الزواج. وفي اللحظة بالذات التي كنا نغادر فيها المبنى لتبتلعنا السيارة، وصل الصحفيون إلى الساحة. ومنذ تلك اللحظة، بدأ سباق جنوني، إذ رحنا نسوق في تلك الساعة الصباحية في شوارع سانتا باربرا المقفرة، متزحلقين وجاعلين الدواليب تزعق، ومكوِّعين فجأة في زقاق ثم في زقاق آخر. وقد نجحنا أخيراً في الإفلات من مطاردينا وفي الوصول إلى كاربنتيريا، حيث تزوجنا أنا وأونا بهدوء.

استأجرنا بيتاً لمدة شهرين في سانتا باربرا. وبالرغم من هيجان الصحافة، أمضينا هناك أياماً وادعة، لأن الصحفيين لم يكونوا يعرفون أين كنا، لكن في كل مرة كان يُقرع الباب، كنا نقفز!

كنا نذهب كل مساء للقيام بنزهات هادئة في الريف، حريصين على ألا يرانا أو يتعرف علينا أحد. ومن وقت لآخر، كنت أغرق في اكتئاب عميق، إذ كان يبدو لي أني اجتذبتُ ضد نفسي جفاء بلد بكامله وحقده، وأن مسيرتي السينمائية قد انتهت. في تلك اللحظات، كانت أونا تسليني بأن تقرأ لي تريلبي، ذلك الكتاب الفيكتوري جداً والمثير للضحك، لا سيما حين

يحتاج الكاتب لصفحات بكاملها من الاعتذارات والشروح لتبرير السخاء الدائم الذي يوزع به تريلبي عطاياه. كانت أونا تقرأ ذلك وهي متجمعة في مقعد قرب نار الحطب. وعلى الرغم من القليل من الاكتئاب بين الحين والآخر، كان ذانك الشهران في سانتا باربرا مطبوعين بخيالية مؤثِّرة، تلتقي فيها السعادة والقلق واليأس.

حين عدنا إلى لوس أنجلس، بلغتني أخبار مقلقة عن طريق صديقي، القاضي مورفي، عضو المحكمة العليا للولايات المتحدة، الذي أعلمني أنه في مأدبة عشاء حضرها رجال سياسة نافذون، أعلن أحدهم أنهم مصمِّمون على «توجيه ضربة لشابلن». كتب القاضي مورفي يقول لي: «إذا تعرضت لمضايقات، يُستحسن أن تكلف بالدفاع عنك محامياً مغموراً بدلاً من أحد نجوم نقابة المحامين».

بيد أنه مضى بعض الوقت قبل أن تنتقل الحكومة الفدرالية إلى العمل. وكانت تحظى بدعم الصحافة الإجماعي، وكنتُ بالنسبة لهذه الأخيرة شخصاً قبيحاً للغاية.

كنا نستعد في غضون ذلك لدعوى الاعتراف بالأبوّة، التي كانت تدور جلساتها أمام محكمة مدنية لا علاقة لها بالحكومة الفدرالية. وقد نصح لويد رايت، بخصوص هذه الدعوى، بإجراء فحص للدم إذا كان لصالحي يشكِّل برهاناً قاطعاً على أني لست والد طفل باري. ثم أبلغني أنه توصل إلى اتفاق مع محامي الجهة الخصم على الشكل التالي: إذا أعطينا جون باري ٢٥ ألف دولار، تقبل بأن تخضع هي وطفلها لفحص للدم، وإذا أثبت الفحص أنه يستحيل أن أكون الوالد، تكف عن رفع دعوى ضدي، وقد توقفت عند هذا الاقتراح. لكن لم يكن لديَّ غير فرصة من أصل ١٤، لأن للكثيرين فئة الدم ذاتها! وقد شرح لي محاميَّ قائلاً إنه إذا كان هناك في فئة دم الطفل عناصر لا توجد في دم والدته ولا في دم الوالد المزعوم، تكون هذه العناصر آتية بلا ريب من دم شخص ثالث.

بعد ولادة طفل باري، بدأت الحكومة الفدرالية تحقيقها، مستجوبة باري بنيّة اتهامي، لكن بماذا؟ لقد كان يصعب عليَّ تخيل الأمر. وقد نصحني بعض الأصدقاء بالاتصال بجيسلر، المحامي الجنائي المشهور، وهو ما فعلته على الرغم من نصيحة القاضي مورفي. وقد كان ذلك خطأً، لأنه يجعل الناس يظنون بأن لديَّ مشكلات خطيرة. وقد نظَّم لويد رايت اجتماعاً مع جيسلر لنقاش نقاط الاتهام التي يمكن استبقاؤها ضدي. وكان المحاميان قد سمعا أن الحكومة تنوي إثبات أني خالفت قانون مان.

كانت الحكومة الفدرالية تستخدم بين الحين والآخر هذا الشكل من الابتزاز القانوني لأجل إفقاد معارض سياسي حظوته. وكان جرى التصويت على قانون مان في البدء بهدف منع انتقال نساء من ولاية إلى أخرى بهدف الدعارة. وبعد إلغاء أحياء البغاء، لم تعد تتوفر فرصة اللجوء إليه، لكنه كان لا يزال يُستخدم ضد مواطنين مُضْطَغن عليهم. فإذا اجتاز رجل حدود ولاية أخرى مع زوجته المطلَّقة، وأقام معها علاقات جنسية، يكون خالف قانون مان ويخاطر

بـالتعرض لخمس سنـوات سجن. ولقد وجهت الحكـومة الفـدرالية الاتهـام إليَّ عن طـريق استخدام هذه الحيلة القانونية.

علاوة على هذا الاتهام الذي لا يُصدَّق، كانت الحكومة تدبر اتهاماً آخر يستند إلى نقطة قـانونيـة مهجورة وغيـر معقولـة إلى حد أنهـا تخلت عنه لاحقـاً. ولقد رأى رايت وجيسلر أن الاتهامين سخيفان وكـانا يعتقـدان أنه ليس ثمـة أي صعوبـة في كسب الدعـوى إذا تعرضت للاتهام.

كان التحقيق متواصلاً، وكنت مقتنعاً بأن كل تلك المسـاعي ضدي سـوف تُحبط: في مطلق الأحوال، كان يبدو لي أن الشابة باري سافـرت من نيويـورك إلى هوليـوود ورجعت مع والدتها. إلا أن جيسلر خابرني بعـد أيام قـائلاً: «تشـارلي، لقد وُجِّـه إليك الاتهـام، وسوف نحصل على تفاصيل قرار الاتهام لاحقاً. كما سأعلمك بموعد الجلسة».

كانت الأسابيع التالية شبيهة بإحدى روايات كافكا. وجدتُ نفسي غارقاً كلياً في الصراع الذي يجب أن أخوضه لأجل حريتي. فإذا جرى اعتباري مذنباً بكل عناصـر اتهامي، سـوف يكلفني ذلك عشرين سنة حبس.

بعد الجلسة التمهيدية، عيَّد المصورون والصحفيون. اكتسحوا مقر الشرطة بالرغم من احتجاجاتي وصوَّروني فيما كانوا يأخذون بصماتي. ولقد سألت:

ــ أمن حقهم أن يفعلوا ذلك؟

ــ كلا، قال لي المفوض، لكن لا يمكن السيطرة على هؤلاء الناس. (كان الشخص المتكلم موظفا تابعاً للحكومة الفدرالية).

كـان طفل بـاري قد كبـر الآن ما يكفي للقيـام بفحص للدم. وقد جـرى اختيار عيـادة بالاتفاق بين محاميَّ ومحامي باري. وهكذا خضعنا، أنا وباري وطفلها، للفحص.

بعد قليل، خابرني محاميّ بصوت مهتز، وقال: «تشارلي، لقد جرت تبرئتك! ففحص الدم يثبت أنك لا يمكن أن تكون الوالد!».

ــ «هذه هي العدالة الثابتة!»، قلت، شديد التأثر.

وفي الحـال، ترك الخبـر أثراً عميقـاً في الصحافـة، فكتبت صحيفة: «تبـرئة تشـارلي شابلن». وكتبت أخرى: «فحص الدم يثبت بما لا يقبل الشك أن شابلن ليس الأب!».

مع أن نتيجة الفحص أربكت الحكومة الفدرالية، واصلت تحقيقهـا. وبمقدار مـا كان هذا التحقيق يقترب من نهايته، كنت مكرهاً على قضاء سهرات طويلة وممضة عنـد جيسلر، مستعرضاً كل تفاصيل الظروف التي التقيت فيها جون بـاري. وقد تلقيت رسـالة حـاسمة من كاهن كاثوليكي من سان فرانسيسكو يؤكد فيها أن المعلومات التي يملكها تفيد بأن منظمة فاشية استخدمت باري، وأنه مستعد للمجيء من سان فرانسيسكو إلى لوس أنجلس لأداء الشهـادة بخصوص ذلك. لكن جيسلر اعتبر أنه لا علاقة لهذا بجوهر الدعوى.

كنا قد حصلنا على شهادات عديدة تكشف طبع باري وماضيها. وكنا نعمل عليها منذ عدة أسابيع حين أعلن جيسلر فجأة، ذات مساء، مثيراً ذهولي، أن مهاجمة شخص باري حيلة قديمة إذا كانت نجحت في دعوى إيرول فلين فلا يعني ذلك بالضرورة أنها ستنجح في قضيتي. قال:

ـ يمكننا كسب هذه الدعوى بسهولة من دون استخدام كل هذه القذارات.

ربما كانت تلك قذارات بالنسبة لجيسلر، لكن الشهادات التي كانت بحوزتنا حول سوابقها كانت شديدة الأهمية في نظري.

كانت معي أيضاً رسائل من باري تتوسل إليَّ فيها أن أعذرها بالنسبة لكل الإزعاجات التي سببتها لي، وتشكرني على طيبتي وشهامتي. وكنت أريد أن أقدم هذه الرسائل للمحكمة، لأنها تدحض القصص القبيحة التي تنشرها الصحافة. ولهذا السبب، كنت سعيداً أن تكون الفضيحة انفجرت أخيراً، لأن الصحف ستضطر الآن لنشر الحقيقة، وسوف يبرئني الجمهور الأميركي: هذا على الأقل ما كنت أظنه.

يلزمني هنا أن أستطرد بخصوص إدغار هوڤر ومنظمة الأف. بي. آي الخاصة به، لأنه لما كان الأمر يتعلق بقضية فدرالية، كانت الأف. بي. آي تسعى جهدها لتقديم براهين للمدعي العام. وكنت قد التقيت هوفر على عشاء قبل سنوات طويلة. والمرء بعد أن يعتاد على وجه فظ كفاية وأنف أفطس يجده ممتعاً للغاية. في ذلك المساء، حدَّثني بحماس عن مشروعه القاضي بأن يجتذب إلى خدمته عناصر مهمة من بينها طلاب حقوق.

بعد أيام على توجيه الاتهام إليَّ، كان ادغار هوڤر موجوداً بالضبط في مطعم شازنس مع رجاله التابعين للأف. بي. أي.، جالسين إلى ثلاث طاولات قريبة من الطاولة التي جلست إليها مع أونا. كان معه تيبي غراي، الذي كنت أراه بين حين وآخر في هوليوود، منذ عام ١٩١٨. كان يظهر في سهرات، وكان شخصاً تافهاً يبدو لا مبالياً وعلى ثغره ابتسامة فارغة دائمة كانت تضايقني. وكنت نظرت إليه دائماً كپلاي بوي، أو كممثل يؤدي أدواراً صغيرة في السينما. وكنت أتساءل الآن ما الذي يفعله إلى طاولة هوڤر. وحين نهضت أنا وأونا لنغادر المكان، استدرتُ في اللحظة بالذات التي استدار فيها تيبي غراي، وتلاقت نظراتنا لثانية، فابتسم لي ابتسامة غامضة، وفهمت عندئذ على حين غرة الغرض الذي لا يقدَّر بثمن، الذي يستعين بهذه الابتسامة لأجله.

وصل يوم المحاكمة أخيراً. وقد قال لي جيسلر أن ألاقيه إلى أمام قصر العدل في العاشرة إلا عشر دقائق بالضبط بحيث نستطيع الوصول معاً إلى المحكمة.

كانت القاعة في الطابق الأول. وحين دخلنا، لم يُحدث ظهورنا ضجة بتاتاً: في الحقيقة كان رجال الصحافة يميلون الآن إلى تجاهلي. وقد قلت في نفسي: إنهم قد يجدون ما يقتاتون به في المحاكمة بحد ذاتها. أجلسني جيسلر على كرسي، ثم جال على القاعة للكلام مع عدة أشخاص. وقد رحت أتساءل حقاً ما الذي أفعله هناك. تطلعت إلى المدعي العام الفدرالي،

وكان يقرأ أوراقاً ويدوِّن ملاحظات، ويثرثر ويضحك واثقاً من نفسه مع بعض الناس. كان تيبي غراي هناك أيضاً، وكان يرميني بين الحين والآخر بطرف عينه مع ابتسامة لا تزال تتميز بالقدر ذاته من الغموض.

كان جيسلر قد ترك على الطاولة ورقاً وقلم رصاص لأخذ ملاحظات خلال الدعوى، ولكي لا أبقى جالساً هناك أنظر رحت أرسم، فاندفع جيسلر في الحال وهمس لي وهو ينتزع الورقة من يدي ويمزقها: «لا تخربش! فإذا وقعت الورقة بين يدي رجال الصحافة، يحللونها ويستخلصون منها كل أنواع الاستنتاجات!».

كنت قد رسمت نهراً صغيراً وجسراً ريفياً، وهو شيء كنت أرسمه غالباً في طفولتي. وقد زادت حدة التوتر في المحكمة واستعاد كلٌّ مكانه. فضرب كاتب المحكمة عندئذ ثلاث ضربات بمطرقته، وبدأت الجلسة. كان هنالك أربعة عناصر اتهام ضدي: اثنان بموجب قانون مان، واثنان بموجب قانون لم يسبق أن سمع به أحد منذ حرب الانفصال؛ واستناداً إلى كل ذلك، أكون قد أعقت ممارسة مواطن أميركي حقوقه. وقد بدأ جيسلر بمحاولة فرض سحب كل عناصر الاتهام. لكنها كانت مجرد شكلية، ولم تكن أمامه فرصة لتحقيق ذلك أكبر من فرصة صرف المشاهدين في سيرك بعد أن يكونوا دفعوا ثمن البطاقات.

لزم يومان لتحديد هيئة محلَّفين؛ وقد كان هنالك ٢٤ شخصاً يجب الاختيار من بينهم، ولكلٍ طرف الحق في استبعاد ستة منهم بحيث يبلغ عدد أفراد الهيئة ١٢ شخصاً. والطرفان يطرحان أسئلة على أعضاء هيئة المحلَّفين ويخضعانهم لامتحان رهيب. أما الأصول فتقضي بأن يسأل القاضي والمحامون أحد المرشحين لعضوية الهيئة حول قدرته على إصدار حكم من دون آراء مسبقة، مع أسئلة من مثل: هل قرأت الصحف؟ هل تأثرت بها؟ أو: هل كونت رأياً مسبقاً بعد أن قرأتها، وهل تعرف أحداً له علاقة بالدعوى؟ وقد بدا لي أن هذه طريقة وقحة كفاية، لأن ٩٠٪ من الصحف كانت تظهر العداء لي على مدى ١٤ شهراً. أما استجواب مرشح للهيئة فيستغرق حوالي نصف ساعة، وفي غضون ذلك يرسل محامو الدفاع والاتهام محققين للحصول على معلومات عنه على وجه السرعة. وفي كل مرة كان ينادى على مرشح لعضوية الهيئة، كان جيسلر يدوِّن ملاحظات، ويمررها إلى محققيه الذين يتوارون في الحال. وبعد عشر دقائق كان يعود المحقق ويقدم لجيسلر مذكرة معلومات من مثل: «جون دوكس، مستخدم في مصنع قمصان، متأهل، لديه ولدان، لا يذهب إطلاقاً إلى السينما».

وكان جيسلر يتمتم عندئذ:

ــ سوف نحتفظ به الآن.

وكانت عملية الاختيار تتواصل، وكل فريق يرفض مرشحاً أو يقبل به، بينما يتداول المدعي العام الفدرالي بصوت خافت مع محقِّقيه؛ ومن حين لآخر كان تيبي غراي ينظر إليَّ بابتسامته المعهودة.

بعد أن جرى اختيار ثمانية محلَّفين، تقدمت امرأة فقال جيسلر في الحال: «إنها

لا تعجبني». وراح يكرر: «إنها لا تعجبني... هنالك شيء لديها لا أحبه». وإذ كانت تتواصل عملية استجوابها، مدَّ محقق جيسلر كلمة إليه، فاستأنف قائلاً بعد أن قرأها: «هذا بالضبط ما كنت أفكر فيه؛ لقد كانت مراسلة لمجلة التايمز في لوس أنجلس! يجب أن نتخلص منها! ثم إن الطرف الآخر قبل بها بسرعة كبيرة».

حاولت أن أتفحص وجهها، لكنني لم أكن أرى بصورة جيدة، وبحثتُ إذاً عن نظارتيّ، فأمسك جيسلر بذراعي في الحال، وهمس: «لا تضع نظارتيك». (كان لديَّ شعور بأنه لا يهتم إلا بها، لكن من دون نظارتيَّ، كان كل ذلك غير واضح). «للأسف، قال جيسلر، ليس في وسعنا أن نرفض بعد الآن غير شاهدين، لذا من الأفضل الاحتفاظ بها الآن».

لكن مع تواصُل الانتقاء، كان عليه أن يرفض شاهدين آخرين كانت لديهما بالطبع، آراء مسبقة ضدي، ووجد نفسه مضطراً للقبول بالصحفية.

إذ كنت أصغي إلى الكلام القانوني الغامض لرجال القانون، تولَّد لديّ شعور بأنهم يلعبون لعبةً، وأن ليس لي كبير علاقة بتلك اللعبة. وعلى الرغم من لا معقولية الاتهامات، شعرت في أعماق نفسي بإمكانية أن أتعرض للإدانة، لكنني لم أكن أتوصل حقاً لتصديق ذلك. وبين الحين والآخر، كنت أفكر بمستقبل عملي المهني، لكن كل ذلك كان الآن بعيداً وخوائياً. ولقد طردت هذه الانشغالات من تفكيري، إذ لم أكن قادراً على التفكير بأكثر من شيء واحد في الوقت ذاته.

مثلما يحدث دائماً حين تكون لدينا هموم، لا يمكننا أخذها دائماً على محمل الجد. وأذكر أن المحكمة كانت قد اختلت ذات يوم لمناقشة نقطة قانونية. كانت هيئة المحلَّفين قد خرجت، وكان المحامون والقاضي قد انتقلوا إلى قاعة صغيرة مجاورة في حين بقينا في المحكمة، أنا وأحد المصورين والجمهور. كان المصوِّر ينتظر ليفاجئني في وضع غير مألوف. وفي اللحظة التي وضعت فيها نظارتيَّ لأقرأ، أمسك بجهازه بسرعة وخلعت نظارتيَّ بالسرعة نفسها، فأضحك ذلك من ظلوا في القاعة. وحين أراح جهاز التصوير وضعتُ نظارتيَّ من جديد. كنا نلعب حقاً لعبة الهر والفأرة، فيمسك هو بجهازه وأخلع أنا نظارتيَّ، وكان الجمهور في قمة سروره. لكن حين عادت المحكمة، نزعتهما، واتخذت من جديد وضعاً رصيناً.

دامت المحاكمة عدة أيام، ولما كان الأمر يتعلق بقضية فدرالية، اضطر السيد بول جيتي، صديق جون باري، للمثول كشاهد، بالإضافة إلى شابين ألمانيين وأشخاص آخرين. اضطر بول جيتي للاعتراف أنه كان في السابق صديقاً لجون باري، وأنه أعطاها مالاً أيضاً. لكن المهم إنما كان الرسائل التي كتبتها لي، راجية أن أعذرها لأجل كل الإزعاجات التي سببتها لي، وشاكرة طيبتي وشهامتي. ومع أن جيسلر حاول ضم هذه الرسائل إلى الملف، عارضت المحكمة ذلك، لكنني وجدتُ أن جيسلر لم يصرّ كفاية.

وخلال المحاكمة، عرف الحاضرون أنه قبل أن تدخل باري بيتي عن طريق الكسر بعدة أيام، أمضت الليل بطوله في شقة شاب ألماني اضطر للاعتراف بذلك أمام المحكمة.

أن تكون وسط كل هذه الوقائع الكريهة يعطيك انطباعاً بأنك على عمود التشهير. لكن منذ اللحظة التي كنت أغادر فيها المحكمة، كان كل شيء يُنتسى، وبعد عشاء وادع مع أونا، كنت أنام منهكاً.

فضلاً عن التوتر والهموم التي كانت تسببها لي المحاكمة، كانت هنالك العادة الممضّة التي تقضي بأن أنهض في السابعة صباحاً، ثم بأن أمضي في الحال بعد تناول الفطور، لأنه كانت تلزم ساعة بالسيارة لاجتياز زحام السير في لوس أنجلس، إذا أردت أن أكون بدقة في الوقت المحدد، قبل عشر دقائق من افتتاح الجلسة.

أخيراً وصلت المحاكمة إلى نهايتها. وقد وافق كل من الفريقين على تقديم خلاصاته في ساعتين ونصف. لم تكن لدي أي فكرة عما قد يرويانه في كل ذلك الوقت. أما أنا فكان كل شيء واضحاً وبسيطاً وجليّاً بالنسبة لي: لقد انهار اتهام الحكومة. ومن المؤكد أن احتمال قضاء عشرين عاماً في السجن إذا جرى إعلاني مذنباً بكل عناصر الاتهام لم يخطر ببالي إطلاقاً. وقد بدا لي أن خلاصات القاضي كان يمكن أن تكون أقل غموضاً. حاولت أن أرى أي انطباع كان يعطيه ذلك لسيدة التايمز، لكنها كانت تدير وجهها نحو جهة أخرى. وحين خرجت هيئة المحلّفين للتداول، غادرت هي المكان من دون أن تتطلع إلى اليمين أو إلى الشمال.

حين كنا نغادر القاعة، همس جيسلر لي خفية:

ــ لن نستطيع اليوم الخروج من المحكمة قبل إعلان الحكم، لكن (أضاف بلهجة متفائلة) في وسعنا أن نجلس على الشرفة ونتشمّس قليلاً.

هذه الجملة أعطتني شعوراً بحضورٍ كلّي مشؤومٍ كان يضيّق الخناق حولي ببطء، مذكّراً إياي بأني الآن تحت رحمة القانون.

كانت الساعة الآن الواحدة والنصف، وكنت أفكر بأن الحكم سيصدر خلال عشرين دقيقة. وقد قلت في نفسي إذاً إني سأنتظر قبل أن أخابر أونا. لكن انقضت ساعة! فتلفنت لها لأقول إن هيئة المحلّفين لم تعد بعد وإني سأتصل بها ما أن أطّلع على الحكم.

وانقضت ساعة أخرى أيضاً وليس من حكم بعد! ما سبب هذا التأخر؟ لم يكن يلزم الهيئة أكثر من عشر دقائق، إذ لم يكن في وسعهم أن يتوصلوا لغير حكم بالبراءة. بانتظار ذلك، كنت جالساً أنا وجيسلر على الشرفة، ولم يقل أي منا شيئاً حول أسباب ذلك التأخر، إلى حين تطلع جيسلر إلى ساعته.

ــ الساعة الرابعة، قال بلهجة غير مبالية. أتساءل ما الذي يؤخرهم؟ ورحنا نناقش بهدوء النقاط المتنوعة التي يمكن أن يكونوا توقفوا عندها. . .

في الخامسة إلا ربعاً، قرع الجرس مؤذناً بأن هيئة المحلّفين أعطت حكمها. فقفز قلبي، وفيما كنا ندخل القاعة، تمتم جيسلر بسرعة:

ــ أيّاً يكن الحكم، لا تُظهر أي تأثر.

مر المدعي العام ومساعدوه أمامنا، وهم يتسلقون الدرج ركضاً، مقطوعي الأنفاس وهائجين. وكان تيبي غراي آخر الواصلين، وإذ كان يتجاوزنا، ألقى نظرة سريعة باسمة من فوق كتفه.

سرعان ما امتلأت قاعة المحكمة، وراح التوتر يزداد. ولا أدري لماذا كنت شديد الهدوء، مع أن قلبي كان ينبض بسرعة عظيمة.

ضرب كاتب المحكمة ثلاث ضربات بمطرقته، إيذاناً بدخول القاضي، ووقف الجميع. وحين جلس الجميع من جديد، دخل المحلَّفون، وسلَّم رئيس المحلّفين وثيقة للكاتب. كان جيسلر جالساً، خافض الرأس، وهو يتطلع إلى رجليه، ويغمغم بعصبية:

ــ إذا جرى اعتبارك مذنباً، سيكون ذلك أسوأ خطأ قضائي عرفته في حياتي! ولم ينفك يردد: «سيكون ذلك أسوأ خطأ قضائي عرفته في حياتي!»

وشرع كاتب المحكمة يقرأ الوثيقة، ثم قرع ثلاث قرعات بمطرقته. وفي الصمت الشديد، أعلن:

ــ تشارلز شابلن، القضية ٣٣٧٠٦٨ للمحكمة الجزائية... بالنسبة لعنصر الاتهام الأول.. (صمت طويل) غير مذنب!».

وندَّت صيحة من بين الجمهور، ثم ران الصمت في حين كان يجري انتظار أن يواصل الكاتب القراءة:

ــ بخصوص عنصر الاتهام الثاني... غير مذنب!

وعمَّ الهياج القاعة. لم أكن أظن يوماً أن لديّ هذا العدد من الأصدقاء. وقد اندفع البعض نحوي ليشدوني بين ذراعيهم ويعانقوني. ولمحت تيبي غراي. لم يعد يبتسم، وبقي وجهه عديم التأثر.

فخاطبني القاضي عند ذاك:

ــ سيد شابلن، لم يعد حضورك في المحكمة ضرورياً، فأنت الآن طليق.

ثم مد لي يده من على منصَّته وهنأني، وكذا فعل المدعي العام، فتمتم جيسلر عندئذ:

ــ إذهب وصافح المحلَّفين.

وفيما كنت أقترب، نهضت المرأة التي كان جيسلر حذراً منها إلى ذلك الحد ومدت يدها نحوي، وللمرة الأولى رأيتها عن كثب. كان وجهها جميلاً، مضيئاً ذكاءً وتفهماً. وفي اللحظة التي تصافحنا فيها، قالت لي باسمة:

ــ هذا جيد يا تشارلي، لا زلنا نعيش في بلد حر.

لم أجرؤ على فتح فمي لشدة ما أثرت فيَّ كلماتها. فاكتفيت بهز رأسي مبتسماً في حين استأنفت تقول:

ــ كنت أراك تمشي جيئةً وذهاباً عبر نافذة القاعة التي كان المحلّفون مجتمعين فيها. وكان بوُدِّي كثيراً أن أقول لك ألا تقلق. فلولا أحد الأشخاص، لكنا وصلنا إلى قرار في عشر دقائق.

كان من الصعب ألا يبكي المرء لدى سماعها، لكنني شكرتها بابتسامة متشنجة قليلاً. ثم استدرت لأشكر الآخرين. وقد شدَّ الجميع على يدي بمودة، إلا امرأة كانت تتطلع إليَّ بحقد. وكنت على وشك الابتعاد حين قال رئيس المحلفين:

ــ هيا، استرخي يا عزيزتي، وشُدّي على يده.

فانصاعت على مضض، وتشكرتها ببرود.

كانت أونا، الحبلى منذ أربعة أشهر، تنتظر في البيت على المرجة الخضراء. كانت لوحدها، وإذ سمعت النبأ على الراديو أغمي عليها. وقد تعشينا في المنزل بهدوء في ذلك المساء، على انفراد. لم نكن نريد صحفاً، ولا مخابرات هاتفية. لم أكن أرغب في رؤية أحد، أو في الكلام مع أحد. شعرت بأني فارغ، ومجروح، ومفرغ. حتى وجود الخدم كان يضايقني.

بعد العشاء، أعدَّت أونا كأس «جن مع تونيك»، ملأى تماماً، وجلسنا كلانا قرب النار ورويت لها لماذا تداول المحلَّفون كل ذلك الوقت، وحدثتها أيضاً عن تلك المرأة التي قالت لي إن الولايات المتحدة لا تزال بلداً حراً. في ذلك المساء، سقطتُ في سريري، مع الأمل اللذيذ بألا يكون عليّ أن أنهض باكراً في الغد للذهاب إلى المحكمة.

بعد يوم أو يومين، قال لاين فو شتڤانجر بدعابة:

ــ أنت الفنان الدرامي الوحيد الذي سيبقى في تاريخ الولايات المتحدة لأنه أثار التناقض السياسي لبلد بأكمله.

وفي ما بعد، سمعتهم يتحدثون من جديد عن دعوى الاعتراف بالأبوّة، التي كنت أعتقد أنها لم تعد واردة بعد فحص الدم. فلقد تمكن محام آخر، عن طريق مخادعات قانونية ماكرة، والتأثير الذي يملكه في الأوساط السياسية للدولة، من فتح الملف من جديد. وقد جرى انتزاع حضانة الطفل من الأم بحذق، لكن الاتفاق المعقود مع الأم كان لا يزال سارياً، وكان في وسعها الاحتفاظ بالخمسة والعشرين ألف دولار. بيد أنه كان في وسع المحكمة الآن، بصفتها حارسة للطفل، أن تهاجمني وتطالبني بنفقة له.

خلال المحاكمة الأولى، لم تتوصل هيئة المحلفين لاتفاق، الأمر الذي خيَّب كثيراً آمال محاميَّ، الذي كان يظن أن القضية مكسوبة. لكن في المحاكمة الثانية، على الرغم من فحص الدم الذي بات مقبولاً منذ ذلك الحين كإثبات إيجابي في هذا النوع من القضايا في ولاية كاليفورنيا، صدر الحكم ضدي.

ما كنا نريده، أنا وأونا، إنما هو مغادرة كاليفورنيا. فمنذ تزوجنا قبل عام، تعرضنا

لاضطهاد حقيقي وبتنا بحاجة إلى الراحة. وقد ركبنا القطار إلى نيويورك وليس معنا غير قطتنا السوداء الصغيرة. ومن هناك ذهبنا إلى نياك، حيث استأجرنا منزلاً. كان بعيداً عن كل شيء، وسط أرض صخرية وغير منتجة. بيد أن المكان كان له سحره، كان بيتاً صغيراً جميلاً يعود إلى عام ١٧٨٠، وقد تعاقدنا في الوقت ذاته مع حارسة رائعة كانت أيضاً طاهية ممتازة.

ورثنا مع البيت كلب صيد أسود لذيذاً متقدماً في العمر، تعلّق بنا مثل وصيفة. كان يظهر بدقة تحت الفيرندا في ساعة الفطور، وبعد أن يهز ذيله بمودة، كان يرقد بهدوء ويتركنا ننساه خلال الإفطار. وحين رأته قطتنا الصغيرة السوداء للمرة الأولى، راحت تصفر وتبصق عليه. لكنه اكتفى بالبقاء ممدّداً، وشدقه على الأرض، لإبداء رغبته في التعايش السلمي.

كانت تلك الأيام في نياك مثالية، على الرغم من العزلة التي كنا نعيش فيها. لم نكن نرى أحداً، ولم يكن يزورنا أحد. وقد كان ذلك جيداً في كل حال، إذ إنني لم أكن قد تعافيت بعد من انفعالات المحاكمة.

ومع أن تلك المحنة شلت إلى هذا الحد أو ذاك قدراتي الخلاقة، كنت مع ذلك قد أنجزت تقريباً **مسيو ڤردو**، وكنت أرغب الآن في إنهائه تماماً.

كنا ننوي البقاء في الشرق ستة أشهر على الأقل، وكانت أونا ستنجب طفلها هناك. لكنني كنت عاجزاً عن العمل في نياك، لذا عدنا إلى كاليفورنيا في نهاية خمسة أسابيع.

بعد زواجنا بوقت قصير، كانت أونا قد اعترفت لي بأنها لا ترغب إطلاقاً في العمل المسرحي أو السينمائي. وقد سرَّني ذلك الخبر، لأنه كان لديّ زوجة أخيراً، لا شخص يريد أن يمتهن عملاً. وقد تخليت آنذاك بالذات عن **Sahdow and Substance** وعدت إلى العمل في **مسيو ڤردو**... إلى اليوم الذي أوقفتني فيه الحكومة بتلك الفظاظة. وغالباً ما فكرت في أن السينما خسرت ممثلة هزلية ممتازة، لأن لدى أونا حسّ فكاهة مرهفاً.

أتذكر أنه حدث قبل المحاكمة مباشرةً أن دخلنا، أنا وأونا، إلى محل مجوهرات في بيفرلي هيلز لإصلاح علبة البوردة خاصتها. وإذ كنا ننتظر، رحنا نتطلع إلى الأساور، وكانت هناك واحدة جميلة بوجه خاص، مرصَّعة بالألماس والياقوت، حازت إعجابنا، لكن أونا وجدت أنها غالية جداً، وقلتُ للجوهرجي إننا سنفكر، ثم خرجنا. وإذ كنا نصعد إلى السيارة، قلت بعصبية:

ــ هيا، بسرعة.

ثم أدخلت يدي في جيبي وأخرجت منها الإسوارة التي أعجبتها بحذر. وقلت:

ــ لقد أخذتُها حين كان يريك الأساور الأخرى.

فشحبت أونا.

ــ آه! ما كان عليك أن تفعل ذلك!

ودخلت شارعاً ضيقاً، وصفّت السيارة على الرصيف وأوقفتها.

ــ فلنفكّر! قالت وهي تردد: ما كان عليك أن تفعل هذا!

فقلت لها:

ــ أصغي، لا يمكنني أن أعيدها الآن.

لكن لم يمكنني الاستمرار في التظاهر وقتاً أطول، فانفجرت ضاحكاً وشرحت لها المزحة: في حين كانت تتطلع إلى مجوهرات أخرى، انفردتُ بالجوهرجي واشتريت الإسوارة.

وقلت ضاحكاً:

ــ وأنت، التي اعتقدتِ بأني سرقتها، كنتِ مستعدةً للتواطؤ معي!

ــ آه! أجابت، لقد كان لديك ما يكفي من الهموم المشابهة.

الفصل الثامن والعشرون

كان يحيط بنا خلال المحاكمة أصدقاء أعزاء كثيرون، كلهم مخلصون وعطوفون، كسالكا فييرتل، وآل كليفورد أوديت، وآل هانس آيسلر، وآل فوشت ڤانجر، وآخرين عديدين.

كانت الممثلة البولونية، سالكا ڤييرتل، تحيي سهرات شيِّقة في منزلها في سانتا مونيكا، يتوافد إليها الفنانون والأدباء، من أمثال توماس مان، وبرتولت برخت، وشونبرغ، وهانس آيسلر، ولاين فوشتڤانجر، وستيفن سبيندر، وسيريل كونوللي، وغيرهم كثيرون. لقد كان لسالكا صالون أدبي حيثما حلّت.

كنا نلتقي لدى عائلة هانس آيسلر برتولت برخت، الذي كان يبدو عليه النشاط والقوة برأسه الحليق، والذي كان يدخّن السيجار، حسبما أتذكر، بصورة دائمة. وبعد أشهر، أرَيْتُه مخطوطة **مسيو ڤردو** التي تصفَّحها. وكان تعليقه الوحيد: «آه! أنت تكتب نصوصك على الطريقة الصينية».

سألت لاين فوشتڤانجر عن رأيه في الوضع السياسي في الولايات المتحدة، فأجاب مازحاً:

ـ ربما من المعبِّر أنه حين وصل هتلر إلى السلطة، كنت قد أنجزت للتو بيتي الجديد في برلين، وقد غادرت هكذا ألمانيا. وما كدت أنهي تأثيث شقتي في باريس حتى كان النازيون يدخلون فرنسا، ومرة أخرى كان عليّ أن أرحل. والآن، ها قد اشتريت في أميركا بيتاً في سانتا مونيكا (وهزَّ كتفيه، ولاحت على وجهه ابتسامةٌ بليغة).

كنا نرى بين الحين والآخر ألدوس هوكسلي، وكان في تلك الفترة مشغوفاً بالنزعة الصوفية. وبصراحة، كان يروق لي أكثر من الشاب المتهكم في العشرينات.

ذات يوم، خابرنا صديقي فرانك تايلر ليقول إن ديلان توماس، الشاعر الغالي، يرغب في التعرف إلينا. وقد أجبنا بأن ذلك سيكون من دواعي سرورنا. فقال فرانك بلهجة مترددة:

«إذاً سوف أصطحبه إذا كان لم يفطر بعد». وبعد ذلك بوقت قصير، في المساء، حين قُرع الباب، فتحت الباب وانهار ديلان توماس في الممشى. وقلت في نفسي: إذا كانت الأمور على هذه الحال حين يكون صائماً، فكيف تصبح حين يكون سكران؟ وبعد يوم أو يومين، جاء إلى العشاء وكان سلوكه طبيعياً أكثر. وقد قرأ لنا إحدى قصائده، بصوت جهير. وأنا لا أتذكر الصوَر، لكن كلمة «سِلُوفان» كانت تبرق كانعكاس الشمس في أبياته السحرية.

بين أصدقائنا، كان هنالك أيضاً تيودور درايزر، الذي كان يعجبني كثيراً. وكان يتعشى عندنا بين الحين والآخر مع زوجته اللطيفة هيلن. ومع أن درايزر كان مفعماً بغضب حاد، كان شخصاً ناعماً ولطيفاً. وحين توفي سألني جون لاوسن، الكاتب المسرحي الذي أبَّنه أثناء الاحتفال بالدفن، إذا كنت أوافق على الإمساك ببساط الرحمة وقراءة قصيدة لدرايزر خلال الاحتفال، فوافقت وفعلت.

ومع أني أصبت أحياناً بالقلق بخصوص عملي، كنت أعتقد دائماً بحزم أن فيلماً جيداً يحل كل مشاكلي وهمومي. وبهذه الذهنية بالذات أنجزت مسيو ڤردو. كان ذلك ثمرة عامين من العمل، لأن بناء الحبكة كان صعباً، لكن التصوير بحصر المعنى لم يستغرق غير ١٢ أسبوعاً، وهو رقم قياسي بالنسبة لي. ثم أرسلت مخطوطة الفيلم إلى البرين أوفيس لأجل الحصول على موافقة الرقابة. وسرعان ما تلقيت إدانةً كاملة لفيلمي.

كان البرين أوفيس فرعاً للجنة الحشمة، وكانت الرقابة الذاتية تابعةً للموشن پيكتشر أسوسياشن. وأنا أوافق على أن الرقابة ضرورية، لكن يصعب تطبيقها. والاقتراح الوحيد الذي أطرحه في هذا الميدان هو أن تكون قواعدها مرنة وغير دوغمائية، وألا يكون الحكم على أساس الموضوع، بل أن يتناول الذوق السليم، والذكاء والحساسية التي عالجه المؤلف بها.

من وجهة النظر الأخلاقية، أنا مقتنع بأن العنف الجسدي والفلسفة الزائفة مضرّان بالدرجة نفسها التي تميِّز مشهد حب فاقع الألوان. لقد كان برنارد شو هو القائل إن لكمةً على فك خائن هي طريقة سهلة جداً في حل مشكلات الوجود.

قبل نقاش الرقابة على مسيو ڤردو، من الضروري إعطاء ملخص سريع للقصة. ڤردو قاتل لزوجاته على التوالي، وهو موظف بنك تافه فقد وظيفته إبان الأزمة فرتّب أموره على أساس مخطط يقضي بالزواج من عوانس وقتلهن لأجل مالهن. زوجته الشرعية امرأة معاقة تسكن الريف مع ابنها الفتيّ، لكنها لا تعرف شيئاً عن أعمال زوجها الإجرامية. فبعد قتله واحدة من ضحاياه، يعود إلى منزله كما يفعل زوجٌ برجوازي في نهاية يوم عمل. إنه شخص متناقض يجمع بين الفضيلة والرذيلة: رجل يتفادى، فيما هو يقلّم شجيرات الورد في بستانه، أن يدوس دودة، بينما في آخر الحديقة واحدةٌ من ضحاياه تحترق داخل أتون. السيناريو مليء بالدعابة الشيطانية وبهجاء حاد ونقد اجتماعي عنيف.

وقد أرسل المراقبون إليَّ رسالة طويلة يشرحون فيها لماذا هم يدينون فيلمي بكامله. وأنا أورد هنا المقتطف التالي من رسالتهم:

«. . . إننا نتغاضى عن العناصر التي تبدو مناهضة للمجتمع في تصورها وفي معناها. هنالك مقاطع في السيناريو يدين فيها ڤردو «النظام» ويهاجم البنية الاجتماعية الحالية. إننا نلفت نظرك بالأحرى إلى ما هو أشد عنفاً ويطوله القانون مباشرة. . .

«إن ڤردو يؤكد بصورة غير مباشرة أنه لأمر مضحك أن يُصْدم المرء باتساع فظاعاته، وأنها ليست أكثر من «كوميديا أعمال قتل» إذا قورنت بمجازر الحرب المتسلسلة والقانونية تماماً، التي يزينها «النظام» بشارات من ذهب. ومن دون الدخول إطلاقاً في نقاش حول معرفة ما إذا كانت الحروب مجازر جماعية أو مذابح يمكن تبريرها، يبقى أن ڤردو يحاول جدياً، خلال أحاديثه، أن يثمِّن طابع جرائمه الأخلاقي.

«والسبب الثاني الأساسي الذي يجعل هذا السيناريو غير مقبول، نورده باختصار أشد. إنه يكمن في واقع أن الأمر يتعلق إجمالاً بلص مختلس يدفع بعدد من النساء لكي يسلمنه توفيراتهن عن طريق جرِّهن إلى سلسلة من الزيجات الزائفة. ولهذا الجزء من القصة رائحة كريهة لحب غير مشروع نرى أنه يستوجب الإدانة».

ثم يعددون لائحة طويلة من الاعتراضات التفصيلية. وعلى سبيل المثال، سوف أبدأ بإيراد صفحتين من مخطوطتي تتعلقان بليديا، إحدى زوجات ڤردو غير الشرعيات، وهي عانس سوف يقتلها في ذلك المساء بالذات.

تدخل ليديا في رواق يكاد يكون مضاءً، ثم تطفىء الضوء وتدخل غرفتها حيث يُشعل ضوءً وتجتاز بانحرافٍ الرواقَ الغائص في الظلمة. يدخل ڤردو عندئذ ببطء. في نهاية الممشى، هنالك نافذة كبيرة يُلمح عبرها القمر المكتمل. يتقدم مخطوفاً، وببطء، في هذا الاتجاه.

فردو (برقّة بالغة): كم هذا جميل. . . هذه الساعة الشاحبة، ساعة آنديميون. . .

صوت ليديا (من الغرفة): عم تتحدث؟

ڤردو (مرتعشاً): عن آنديميون، يا حبيبتي. . . شاب وسيم مأخوذ بالقمر.

صوت ليديا: حسناً، لا تفكر فيه بعد الآن، وتعال للنوم.

فردو: أجل يا حبيبتي. . . كانت قدمانا ناعمتين بين الزهور.

ينتقل إلى غرفة ليديا، تاركاً الممشى فارغاً، وفي الغبش، تحت ضوء القمر فقط.

صوت ڤردو (من غرفة ليديا): تأملي هذا القمر. لم أره يوماً بهذا اللمعان! . . قمر غير محتشم.

صوت ليديا: قمر غير محتشم! أنت مضحك. . . ها، ها، ها! قمر غير محتشم!

تصل الموسيقى إلى كريسندو مريع ثم يحل الصباح محل ذلك تدريجياً. لا نزال في الممشى ذاته، لكن الشمس تدخل الآن بكثافة. يدخل ڤردو، خارجاً من غرفة ليديا وهو يدندن.

كانت اعتراضات المراقبين على المشهد الوارد أعلاه هي التالية: «استبدلْ من فضلك جواب ليديا: «حسناً، لا تفكر في ذلك بعد الآن، وتعال «للنـوم» بـ «إذهب للنوم». فنحن نفترض أن كل هذا المشهد سوف يُمثِّل بحيث يعطي الانطباع بأن ڤـردو وليديـا سوف ينصـرفان إلى مُتَع الزواج. غيِّر أيضاً العبارة المكررة مـراراً «قمر غيـر محتشم»، فضلاً عن ظهـور ڤردو خارجاً من غرفة زوجته وهو يدندن في الصباح التالي.

كما أنهم اعترضوا أيضاً على الحوار مع امرأة يلتقيها ڤردو في ساعة متأخرة من المساء، فلقد زعموا أن هذه المرأة لا بد أن تكون عاهرة، إذاً غير مقبولة.

وبالطبع، الأمر يتعلق في قصتي بفتاة، ومن الصبياني الاعتقاد بأنها تأتي إلى شقة ڤردو لترى فقط مجموعته من الرَّشمات. لكنه يأتي بهـا في هذه الحـالة ليجـرِّب عليها سمـاً زعافـاً لا يترك أي أثر، وسوف يقتلها بعد ساعة من مغادرتها الشقة. ليس في النص أي شيء فاسق أو مثير. وهاكم نَصّ مخطوطتي.

صورة تحل محل أخرى ببطء فنجد أمامنا شقة ڤردو في باريس فوق محل أثاث. ما إن يدخل حتى يكتشف أن مع الفتاة قطة صغيرة مخفية تحت مشمّعها.

ڤردو: أنت تحبين القطط، أليس كذلك؟

الفتاة: ليس بوجه خاص، لكنها كانت مبللة، ومصابة بالبرد. لا أعتقد أن لديك حليباً لتقديمه لها.

ڤردو: ؛ بلى، بلى. أنت ترين، ليس المستقبل قاتماً بقدر ما تعتقدين.

الفتاة: هل يبدو عليّ التشاؤم الشديد؟

ڤردو: أجل، لكن لا أعتقد أنك متشائمة.

الفتاة: لماذا؟

ڤردو: حين يكون المرء خارج بيته في ليلة كهذه، لا بد أن يكون متفائلاً.

الفتاة: أنا كل شيء إلا هذا.

ڤردو: عنيدة، أليس كذلك؟

الفتاة (بلهجة ساخرة): حس الملاحظة لديك ملفت للنظر.

ڤردو: منذ متى تمارسين هذه المهنة؟

الفتاة: آه... ثلاثة أشهر.

ڤردو: لا أصدقك.

الفتاة: لماذا؟

ڤردو: فتاة بجمالك كانت فعلت شيئاً أفضل.

الفتاة (بلهجة ساخرة): شكراً.

ڤردو: الآن، قولي لي الحقيقة. أنت تخرجين من المستشفى أو من السجن؟

الفتاة (بمزاج جيد لكن بلهجة تحدٍّ): لماذا تريد أن تعرف ذلك؟

ڤردو: لأني أريد مساعدتك.

الفتاة: محب للبشر، أليس كذلك؟

ڤردو (بتهذيب): بالضبط.. ولا أطلب شيئاً بالمقابل.

الفتاة (متفحِّصة إياه): ما هذا هنا... جيش الخلاص؟

ڤردو: جيد جداً. إذا كنت تنظرين إليه هكذا، أنت حرة في مغادرة المكان.

الفتاة (باضطراب): أنا خارجة من السجن.

ڤردو: لماذا كنت فيه؟

الفتاة (هازة كتفيها): ماذا يغيّر ذلك؟ يسمّونها السرقة الموصوفة... رهن آلة كاتبة مستأجرة.

ڤردو: لنرَ، لِنَرَ... لم يكن في وسعك أن تفعلي أفضل من ذلك؟ كم بقيت هناك؟

الفتاة: ثلاثة أشهر.

ڤردو: إذاً هذا أول يوم بعد إطلاق سراحك؟

الفتاة: نعم.

ڤردو: أنت جائعة؟

توافق وعلى ثغرها ابتسامة حزينة.

ڤردو: حسناً، فيما أهتم بإعداد الطعام، يمكنك مساعدتي في جلب بعض الأشياء الصغيرة من المطبخ، تعالي.

ينتقلان إلى المطبخ، يبدأ هو بتحضير البيض المخفوق، ويساعدها في ترتيب أواني العشاء على صينية تحملها إلى الصالون. منذ خروجها، يلاحقها بنظراته بحذر، ثم يفتح إحدى الخزانات بسرعة، ويُخرج أنبوب سُم يصب محتواه في قنينة خمر أحمر يسدها من جديد ثم يضعها على صينية مع كأسين، ويعود إلى غرفة الجلوس.

ڤردو: لا أعرف إذا كان هذا سيثير شهيتك أوْ لا... بيض مخفوق، وخبز محمَّص وقليل من الخمر الأحمر.

الفتاة: رائع!

تضع من يدها كتاباً كانت تقرأه، وتتثاءب.

ڤردو: أرى أنك متعبة، لذا سوف أعيدك إلى الفندق فور انتهاء العشاء.

يفتح القنينة.

الفتاة (تتأمله فاحصة): أنت طيب جداً، أنا لا أفهم لماذا تفعل كل هذا لأجلي.

ڤردو: لِمَ لا؟ (يصب الخمر المسموم في كأس الفتاة) هل القليل من الطيبة نادر إلى هذا الحد؟

الفتاة: كنت بدأت أعتقد أنْ نعم.

يستعد ليصب الخمر نفسه في كأسه، ثم يعتذر.

ڤردو: آه! الخبز المحمّص!

يختفي في المطبخ مع القنينة التي يستبدلها هناك سريعاً بأخرى، ويأخذ الخبز المحمَّص ويعود إلى الصالون. يدخل، يضع الخبز المحمَّص على الطاولة («هاكِ!») ثم يصب لنفسه كأس خمر من القنينة الجديدة.

الفتاة (خائفة): أنت عجيب.

ڤردو: حقاً؟ لماذا.

الفتاة: لا أدري.

ڤردو: في كل حال، أنتِ جائعة. أرجوكِ إذاً، إبدئي.

فيما تستعد للأكل، يرى الكتاب على الطاولة.

ڤردو: ماذا تقرئين؟

الفتاة: شوبنهاور.

ڤردو: تحبينه؟

الفتاة: بين بين.

ڤردو : هل قرأت بحثه حول الانتحار؟

الفتاة: لا يثير ذلك اهتمامي.

ڤردو (بلهجة منوِّمة): حتى إذا كان يمكن أن تكون النهاية بسيطة؟ فلنقل، مثلاً، أنك تنامين ومن دون التفكير إطلاقاً بالموت يباغتك توقُّفٌ مفاجىء... ألا تفضلين ذلك على هذه الحياة الكئيبة؟

الفتاة: أتساءل...

ڤردو: إن اقتراب الموت هو الذي يرعب.

الفتاة (بلهجة حالمة): أتخيل أنه لو كان الوليد يعي اقتراب الحياة لكان شعر أيضاً بالرعب.

يبتسم ڤردو موافقاً ويشرب خمره. ترفع كأسها الذي يحتوي الخمر المسموم وتستعد للشرب، ثم تتوقف.

الفتاة (حالمة): ومع ذلك، فالحياة رائعة.

ڤردو: ما الرائع فيها؟

الفتاة: كل شيء... صباح يوم من أيام الربيع، ليلة صيف... الموسيقى، الفن، الحب...

ڤردو (بلهجة ازدراء): الحب!

الفتاة (متحدية إياه قليلاً): الحب موجود.

ڤردو: كيف تعرفين ذلك؟

الفتاة: لقد كنت عاشقة ذات يوم.

ڤردو: تعنين أن أحدهم اجتذبك جسدياً.

الفتاة (حائرة): أنت لا تحب النساء، أليس كذلك؟

ڤردو: على العكس، أنا أعبد النساء، لكني لست معجباً بهن.

الفتاة: لماذا؟

ڤردو: النساء مخلوقات أرضية... واقعيات، تسيطر عليهن الوقائع الجسدية.

الفتاة (غير مصدِّقة): دعك من هذا الكلام!

ڤردو: منذ اللحظة التي تخون امرأة فيها رجلاً، تحتقره. بالرغم من طيبته والموقف الذي يمكن أن يكون متخذاً إياه، تتخلى عنه لصالح شخص أدنى منه... إذا كان جذاباً أكثر جسدياً.

الفتاة: كم أنت جاهل بالنساء!

ڤردو: ربما أُصبتِ بالدهشة.

الفتاة: هذا ليس الحب.

ڤردو: ما هو الحب؟

الفتاة: إنه العطاء... التضحية بالنفس... إنه الشعور نفسه الذي تحس به أم حيال ولدها.

ڤردو (مبتسماً): هل أحببت بهذه الطريقة؟

الفتاة: نعم.

ڤردو: من هذا؟

الفتاة: زوجي.

ڤردو (متفاجئاً): أنت متزوجة؟

الفتاة: كنتُ... فلقد توفي خلال وجودي في السجن.

ڤردو: أنا أفهم... حدثيني عنه.

الفتاة: إنها قصة طويلة. (بعد توقف) لقد جُرح خلال الحرب الأسبانية... كان معاقاً.

ڤردو (منحنياً إلى الأمام): معاق؟

الفتاة موافقة): لهذا السبب كنت أحبه. كان بحاجة إليَّ... كان تابعاً لي. كان كطفل. لكن بالنسبة لي، كان أكثر من طفل. كان ديني... نَفَسي... كنت قَتَلْتُ لأجله.

تلسح دموعها وتستعد لشرب الخمرة المسمومة.

ڤردو: لحظة... أعتقد أن هنالك شيئاً من السّدادة في هذه الخمرة. اسمحي لي أن أعطيك كأساً أخرى.

يأخذ كأسها ويضعها على البوفيه، ثم يأخذ كأساً نظيفة، ويصب الخمر النقي من قنينته. يشربان بصمت، ثم ينهض ڤردو.

ڤردو: الساعة متأخرة جداً وأنت متعبة. خذي (يعطيها مالاً) هذا يسمح لك بالصمود يوماً أو يومين. حظاً سعيداً.

تتأمل المال.

الفتاة: آه! هذا كثير. لم أكن أتوقع... (تدفن وجهها بين يديها وتجهش بالبكاء) هذا مثير للسخرية... أن يكون المرء هكذا. كنت بدأت أتوقف عن الإيمان بأي شيء، ثم يحدث لي هذا، وتريد مني أن أؤمن من جديد بكل شيء.

ڤردو: لا تؤمني كثيراً، فالعالم رديء.

الفتاة (هازة رأسها): ليس هذا صحيحاً. إنه عالم أخرق وحزين جداً... لكن القليل من الطيبة يمكن أن يجعله رائعاً.

ڤردو: الأفضل أن ترحلي قبل أن أبدأ أتأثر بفلسفتك.

تتجه الفتاة إلى الباب، ثم تستدير باسمةً فيما هي تخرج وتقول له: «عِمْت مساءً».

وهاكم بعض اعتراضات الرُّقباء على هذا المشهد.

«الحوار بين ڤردو والفتاة: «يجب أن يكون المرء متفائلاً ليخرج في ليلة كهذه»، فضلاً

عن الردود: «منذ متى تمارسين هذه المهنة؟» و «فتاة بجمالك كان يمكن أن تفعل شيئاً أفضل»، كل ذلك يجب تغييره.

«نصر على إعلان أن الإشارة إلى جيش الخلاص تهدد، في رأينا، بالإساءة إلى هذه المنظمة.

بعد مغامرات عديدة، يلتقي ڤردو الفتاة من جديد، حوالى نهاية السناريو. لقد بات مفلساً تماماً بينما هي في أفضل حال. لكن الرقابة تدين بالضبط هذا الرخاء. هاكُم المشهد.

المشهد يتغير ببطء فيظهر الجزء الخارجي من مقهى. ڤردو جالس إلى طاولة، يقرأ صحيفة جاء فيها أن الحرب وشيكة في أوروبا. يدفع حسابه ويمضي. وإذ هو يجتاز الشارع تكاد تصدمه سيارة ليموزين فخمة تنحرف فجأة إلى الرصيف لتتحاشى صدمه.

يتوقف السائق، ويزمّر، وعبر الزجاج المفتوح تلقي يدٌ مقفَّزةٌ التحية على ڤردو؛ فيتفاجأ وهو يرى في السيارة الفتاة التي استقبلها في بيته ذات مساء وهي تبتسم له، وقد ارتدت ثياباً أنيقة.

الفتاة: كيف حالك، سيدي المحسن؟

ڤردو يشعر بالحيرة.

الفتاة (مواصلةً كلامها): ألا تتذكرني؟ لقد جئت بي إلى بيتك.. ذات مساء فيما كانت السماء تمطر.

ڤردو (متفاجئاً): حقاً؟

الفتاة: وبعد أن أطعمتني وأعطيتني المال وضعتني على طريقي كفتاة صغيرة صالحة.

ڤردو (بدعابة): لا بد أني كنت أحمق.

الفتاة (بلهجة صادقة): كلا، كنت طيباً جداً... إلى أين تمضي؟.

ڤردو: إلى لا مكان.

الفتاة: اصعد.

يصعد ڤردو إلى السيارة داخل الليموزين.

الفتاة (إلى السائق): إلى مقهى لافارج... أعتقد أنك لم تتذكرني إلى الآن... لكن لماذا تتذكر؟

ڤردو متأملاً إياها بإعجاب): هنالك أسباب ممتازة لكي أتذكر.

الفتاة (باسمةً): ألا تذكر؟ الليلة التي التقينا فيها.. كنت خارجة لتوّي من السجن.

ڤردو يضع إصبعاً على شفتيه.

ڤردو: هس! (يشير إلى السائق، ثم يتلمس الزجاج) آه حسناً.. الزجاج مغلق.

(يتأملها مدهوشاً) لكن أنتِ. . كل هذا. . (مشيراً إلى السيارة) ما الذي حدث؟

الفتاة: القصة القديمة. . . من الكوخ إلى القصر. بعد لقائي معك، دار معي دولاب الحظ. تعرفت إلى شخص غني جداً. . . صانع ذخيرة.

ڤردو: هذه هي المهنة التي كان عليّ أن أختارها، أي نوع من الرجال هو؟

الفتاة: طيب للغاية وكريم، لكنه لا يرحم في الأعمال.

ڤردو: الأعمال لا رحمة فيها دائماً، يا عزيزتي. . . أتحبينه؟

الفتاة: كلا، لكن هذا بالضبط ما يثير اهتمامه.

أما اعتراضات الرقابة على هذه المشاهد فهي التالية:

«من فضلك أن تغيِّر الجواب «لقد وضعتني في طريقي كفتاة صغيرة صالحة» والجواب: «لا بد أني كنت أحمق»؛ وذلك لتحاشي إساءات الفهم في هذا الحوار؛ أضف أيضاً من فضلك أن صانع الذخيرة هو خطيب الفتاة. وذلك لعدم إعطاء انطباع بأنها الآن خليلته».

وكانت هناك اعتراضات أخرى من النوع ذاته على مشاهد أخرى، من مثل:

«لا تشد يد مبتدل على «المنحنيات العجيبة، سواء إلى الجهة الأمامية أو إلى الجهة الخلفية» لامرأة في منتصف عمرها.

«يجب ألا يكون هناك شيء مثير في أزياء الفتيات أو في رقصاتهن. يجب بوجه خاص عدم إبراز الساق عارية فوق مطاط الجوارب.

«المزحة بصدد «حك أسافلها» غير مقبولة.

«يجب عدم إظهار كرسي مرحاض في الحمّام، أو عدم الإيحاء بوجوده.

«من فضلك تغيير كلمة «شهواني» في حديث ڤردو.

وقد ختموا رسالتهم بالإعلان أنه يسعدهم كثيراً أن يضعوا أنفسهم تحت تصرفي لنقاش الموضوع، وأنه سيكون ممكناً، بلا ريب، جعل السيناريو متوافقاً مع متطلبات قانون الإنتاج من دون إفساد المزايا المسلية في النص بصورة خطيرة. وقد جئت إذاً إلى البرين أوفيس، وأدخلوني إلى مكتب المستر برين. بعد لحظات، ظهر أحد المساعدين، وكان شاباً طويلاً صارماً. وقد كانت لهجته تفتقر إلى الودّ.

ــ ماذا لديك ضد الكنيسة الكاثوليكية؟ قال لي.

ــ لماذا توجه إليَّ هذا السؤال؟ أجبت.

فقال لي وهو يَصْفُق على الطاولة نسخةً من مخطوطتي ويقلب صفحاتها:

ــ هاك! المشهد في زنزانة المحكوم عليهم حيث يقول المجرم ڤردو للكاهن: «ما عساي أفعل من أجلك أيها الرجل الشجاع؟».

ـ حسناً، أليس رجلاً شجاعاً؟

فقال وهو يرفع يده بحركة استهجان:

ـ إنه كلام ساخر.

ـ لا أجد أي سخرية في القول إن رجلاً «شجاع»، أجبت.

ومع تقدم النقاش بيننا، تفاجأت بأني أمثل معه حواراً على طريقة برنارد شو.

ـ لا يقال لكاهن «يا شجاعي»، بل يا «أبتِ».

ـ جيد جداً ـ قلت ـ فلنسمِّه «أبتِ».

ثم قال وهو يشير إلى صفحة أخرى:

ـ وهذا الجواب. أنت تجعل الكاهن يقول: «أتيت لأطلب منك أن تتصالح مع الله». ويجيب ڤردو: «أنا في سلام مع الله، وإذا كنت في نزاع مع أحد فمع الإنسان». أنت تعلم أن هذا تهكُّم.

ـ من حقك أن يكون لك رأيك، ومن حقي أنا أيضاً أن يكون لي رأيي.

ـ وهذا ـ قال وهو يقرأ المخطوطة ـ. إن الكاهن يقول: «ألا توحي لك خطاياك بأي وخز ضمير؟» ويجيب ڤردو: «من يدري ما هي الخطيئة، طالما أنها ولدت في الفردوس، من الملاك الذي أنزله الله من عليائه، من يدري أي هدف غامض تخدمه؟».

فأجبت:

ـ أنا مقتنع بأن الخطيئة سر كبير كما الفضيلة.

قال بازدراء:

ـ في هذا الكثير من الفلسفة الزائفة. ثم إن ڤردو ينظر إلى الكاهن ويقول: «ماذا كنت فعلت لولا الخطيئة؟».

ـ أعترف بأن هذا الجواب يمكن أن يكون مَثاراً للجدل، لكن في نهاية المطاف، من المفترض أن يكون هذا ساخراً، وڤردو لا يخاطب الكاهن بطريقة فاقدة للاحترام.

ـ لكن ڤردو يتغلب دائماً على الكاهن؟

ـ ما هو الدور الذي تريد أن يلعبه الكاهن؟ دور هزلي؟

ـ طبعاً لا، لكن لماذا لا تُجري على لسانه جواباً جيداً؟

ـ أصغِ إليّ (قلت)، إن المجرم يستعد للموت ويحاول أن يفعل ذلك بطريقة مزخرفة. والكاهن يبقى وقوراً على امتداد الحوار وأجوبته ملائمة. مع ذلك، سوف أفكر في إيجاد جواب جيد للكاهن.

ـ وهذا الجواب: «فليشفق الرب على روحك». وڤردو يجيب: «لِمَ لا؟ ففي النهاية، هي مُلْكه».

ــ ما السيِّىء في ذلك؟ سألتُه.

فردَّد باقتضاب:

ــ «لِمَ لا!» لا يتكلم الناس هكذا مع كاهن.

ــ هذا الجواب هو نوع من الاستبطان. يجب الانتظار إلى ما بعد رؤية الفيلم، قلت.

ــ أنت تتهم المجتمع والدولة، قال.

ــ في النهاية، ليس المجتمع والدولة عنوان الطهارة والنقاء، ومن المؤكد أن انتقادهما ليس أمراً غير مقبول.

هذا وقد جرت الموافقة على المخطوطة بعد تغيير أو تغييرين طفيفين. ويجب أن أعترف للمستر برين بأن عدداً من انتقاداته كان بنّاءً. لقد قال لي بلهجة مكتئبة:

ــ لا تجعل هذه الفتاة عاهرة أيضاً. فثمة عاهرة في كل سيناريوات هوليوود تقريباً.

وعليّ الاعتراف بأني تضايقت. لكنني وعدت بعدم الإصرار على هذا الواقع.

حين انتهى الفيلم، عُرض أمام ٢٠ أو ٣٠ عضواً من لجنة الحشمة، وممثلين للرقابة وللجماعات الدينية في شتى الطوائف. وأنا لم أشعر بنفسي وحيداً كما في تلك المناسبة. إلا أنه حين انتهى العرض وأضيئت الأنوار من جديد، استدار برين نحو الآخرين، وقال فجأة:

ــ أعتقد أنه لا بأس به. . . فلندعه يمر.

وران صمت، ثم قال أحدهم:

ــ آه! لا بأس بالنسبة لي، فليس هناك ثياب مقوَّرة مبالغ في جرأتها.

أما الآخرون فاحتفظوا بصمتٍ عَبوس.

استدار برين نحوهم وهو يقوم بحركة كبيرة، وقال:

ــ «حسناً. . نتركه يمر، أليس كذلك؟».

كانت هنالك ردود فعل قليلة، وقد وافق البعض على مضض. واستبعد برين بسرعةٍ ما كان يمكنهم أن يقدموه من اعتراضات، وقال لي وهو يربت على كتفي:

ــ حسناً، تشارلي، إمضِ في عملك (وكان ذلك يعني: دعهم يسحبوا لك شريطاً موجباً).

لقد أذهلني قليلاً قبولهم بالفيلم، إذ كنت أفكر في البداية أنهم يريدون منعه. وقد شعرت بالحذر حيال تلك الموافقة السريعة، فهل سوف يلجأون إلى وسائل أخرى.

حين باشرت العمل في مونتاج جديد لفيلم ڤردو، تلقيت مخابرة هاتفية من أحد مفوضي الشرطة الفدرالية، الذي قال لي: إن لديه استدعاءً يُطلب مني بموجبه المثول أمام لجنة النشاطات المناهضة لأميركا، في واشنطن. وكان عدد المستدعين تسعة عشر شخصاً.

كان السناتور پيپر، عن ولاية فلوريدا، موجوداً آنذاك في لوس أنجلس، ونُصِحنا

بمقابلته من أجل سؤاله عن رأيه. وقد امتنعت عن الذهاب، لأن وضعي كان خاصاً، إذ لم أكن مواطناً أميركياً. وفي ذلك الاجتماع، اتفق الجميع على التذرع بحقوقهم الدستورية إذا جرى استدعاؤهم إلى واشنطن (ومن فعلوا ذلك أمضوا سنة في السجن بسبب رفض المثول).

كان الاستدعاء يوضح أني سوف أُبلَّغ في مهلة عشرة أيام قبل التاريخ الذي عليَّ الذهاب فيه إلى واشنطن؛ لكن بعد ذلك بوقت قصير، وصلت برقية توضح أن مثولي تأجَّل عشرة أيام أخرى.

بعد تغيير التاريخ للمرة الثالثة، أرسلتُ إلى اللجنة برقية تقول إن المؤسسة المهمة التي أديرها تتوقف على قرارها، الأمر الذي يسبّب لي نفقات كبيرة، وبما أن اللجنة جاءت في الفترة الأخيرة إلى هوليوود لاستجواب صديقي هانس آيسلر، كان بالإمكان استجوابي في الوقت ذاته وتوفير مال دافعي الضرائب. وختمت قائلاً: «بيد أني سأقول لكم ـ من أجل تسهيل مهمتكم ـ ما أعتقد أنكم تريدون معرفته. أنا لست شيوعياً، ولم أكن في أي يوم من أيام حياتي مسجَّلاً في أي حزب أو منظمة سياسيين. أنا ما يمكن تسميته «نصيراً للسلام»، وآمل إلا يصدمكم هذا. من فضلكم أن توضحوا لي متى عليّ الذهاب إلى واشنطن. المخلص لكم، تشارلز شابلن».

وقد تلقيت جواباً ودياً بشكل مدهش، يوضح لي أن مثولي لن يكون ضرورياً وأن في وسعي اعتبار القضية منتهية.

وسط كل مشكلاتي الشخصية، لم أكن قد أوليت يوماً اهتماماً لشؤون **الفنانين المتحدين**. لقد أبلغني محاميٌ أن الشركة واقعة تحت عجز مقداره مليون دولار. وفي أيام ازدهارها، كانت لديها مداخيل تتراوح بين ٤٠ و ٥٠ مليون دولار سنوياً، ولا أتذكر مع ذلك أني قبضت أكثر من ضعفي أرباح السّهم. وفي ذروة تلك الفترة المزدهرة، كان **الفنانون المتحدين** قد حصلوا على ٢٥٪ من الحصص في أربعمائة صالة سينما في انكلترا من دون دفع سنتيم واحد. وأنا لا أعرف تماماً كيف كنا قد تصرفنا، وأعتقد أنهم أعطونا إياها مقابل الضمان الذي كنا نمنحهم إياه بأننا سوف نقدم لهم أفلاماً. وحصلت شركات أميركية أخرى بالطريقة نفسها على حصص مهمة في سينمات إنكليزية. وفي فترةٍ ما، كنا نملك ما قيمته عشرة ملايين دولار من الأسهم في منظمة رانك.

لكن الواحد بعد الآخر من مساهمي **الفنانين المتحدين** كان يعيد بيع أسهمه للشركة، ومن فرط ما دُفع لهم، بات الصندوق شبه فارغ. وهكذا وجدتُ نفسي فجأةً مالكاً لنصف شركة **الفنانين المتحدين** التي كان لديها مليون من الديون، مع ماري بيكفورد كمالكة للنصف الآخر. وقد كتبت لي لتوضح قلقها، لأن كل البنوك رفضت منحنا اعتمادات جديدة. إلا أني لم أقلق كثيراً، لأن تلك لم تكن المرة الأولى التي نصبح فيها مدينين، وكان فيلم ناجح يرفعنا من جديد، ودائماً، إلى السطح. فضلاً عن ذلك، كنت قد أنهيت **مسيو ڤردو** الذي كنت أفكر بأنه سيعطي موارد هائلة. فلقد كان ممثلي، أرثر كيلي، يتوقع عائدات لا تقل عن ١٢ مليون دولار، وإذا كان ذلك صحيحاً، فهو سيغطي ديون الشركة ويترك لنا ربحاً يعادل مليون دولار.

في هوليوود، نظَّمت عرضاً خاصاً لأصدقائي، وحين انتهى العرض، وقف توماس مان ولاين فوشتڤانجر وآخرون وصفقوا طوال أكثر من دقيقة.

وهكذا ذهبت إلى نيويورك، وأنا مطمئن تماماً. لكن ما أن وصلت حتى كانت **الدايلي نيوز** تهاجمني في الحال: «شابلن في المدينة لحضور العرض الأول لفيلمه. بعد مآثره

كـ «موالٍ للشيوعيين»، أتحداه للظهور في مؤتمر صحفي، لأني سأكـون هناك لأطـرح عليـه سؤالاً أو سؤالين مزعجين».

وكانت مصلحة الإعلان في **الفنانين المتحديـن** تتساءل إذا كان عليّ أن ألتقي الصحافة الأميركية أو لا. وكنت ساخطاً لأني سبق أن رأيت ممثلي الصحافة الأجنبية صباح اليوم السابق، وكانوا قد أعدوا لي استقبالاً حاراً، لا بل حماسياً. ثم أنا لست رجلاً أسمح للآخرين بإخافتي.

في صباح اليوم التالي، استأجرنا قاعة كبرى في الفندق والتقيت الصحافـة الأميـركية، وبعد تقديم الكوكتيل، دخلت، لكني استشعرت مسبقاً رائحة ضربة معدَّة. وقـد تكلمت من على منصة صغيرة في مؤخرة القاعة، خلف طاولة، وأعلنت وأنا أُظهِر كل فتنتي:

«صباح الخير، أيها السيدات والسادة. أنا هنا لأقدم لكم كل المعلومات التي من شأنها إثارة اهتمامكم بصدد فيلمي ومشاريعي المستقبلية».

فاحتفظ الجميع بالصمت.

قلت مبتسماً: «لا تتكلموا كلكم معاً».

في الأخير، سألتني صحفية جالسة في الصفوف الأولى:

ــ أأنت شيوعي؟

ــ كلا (أجبت بلهجة جازمة). السؤال التالي، من فضلكم.

فسمعت عندئذ أحدهم يغمغم. وقد اعتقدت أنه ربما يكون صديقي في **الدايلي نيوز**، لكن كان لامعاً بغيابه. لقد كان الخطيب المشار إليه شيئاً ذا هيئـة قذرة، غـائصاً في معـطف ومنحنياً على مخطوطة يقرأها.

ــ عفواً (قلت). سيكون من الضروري أن تعيد القراءة، إذ أنا لا أفهم كلمة مما تقوله.

فبدأ، قائلاً:

ــ نحن، المحاربين القدامى الكاثوليك. . . .

فقلتُ مقاطعاً:

ــ لست هنا للرد على محاربين قدامى كاثوليك. هذا مؤتمر صحفي.

ــ لماذا لم تحصل على الجنسية الأميركية؟ سأل صوت آخر.

أجبت:

ــ لا أرى أي موجب لتغيير جنسيتي، أنا أعتبر نفسي مواطناً عالمياً.

فسرت رعشة في الحضور. وأراد شخصان أو ثـلاثة الكـلام معاً. إلا أن صـوتاً سُمـع يقول:

ــ لكنك تكسب مالك في أميركا.

ــ لكن (قلت وأنا أبتسم)، إذا نظرتم إلى الأمور من الزاوية المالية، فلنكن واضحين.

إن عملي عالمي ؛ فـ ٧٠٪ من مداخيلي تأتي من الخارج ؛ وتفرض الولايات المتحدة عليها ضريبة تصل إلى مئة في المئة. وأنتم ترون إذاً أنني ضيف دَفِّيعٌ بامتياز.

فاندفعت الجوقة الكاثوليكية مهاجمةً:

ـ سواء كسبت مالك هنا أو في مكان آخر، نحن الذين نزلنا على سواحل فرنسا، نأسف ألا تكون مواطناً لهذا البلد.

فقلت:

ـ لستَ الوحيد الذي نزلت على تلك السواحل. فولداي كانا هناك أيضاً مع جيش باتون، في الخطوط الأمامية، وهما لا يتباهيان بذلك مثلك.

ـ أتعرف هانس آيسلر؟ قال مراسل آخر.

ـ أجل، هذا صديق عزيز جداً وموسيقي كبير.

ـ هل تعرف أنه شيوعي؟

ـ لا يهمني ما يكون، فصداقتي لا تقوم على السياسة.

ـ يقال مع ذلك إنك تحب الشيوعيين كثيراً، قال آخر.

ـ ليس لأحد أن يقول لي من عليَّ أن أحب ومن عليَّ أن أكره. لم تصل الأمور بنا إلى هذا الحد.

فقال صوتٌ محبٌ للحرب عندئذ:

ـ أي انطباع يعطيه أن يكون المرء فناناً منح العالم هذا القدر من السعادة، وفهم الطبقة الدنيا إلى هذا الحد، وأن يجعله الممثلون المزعومون للصحافة الأميركية مَضْحَكةً ويحقدوا عليه ويزدروه؟

لم أكن أتوقع تعبيراً عن التعاطف، فأجبت بجفاف:

ـ أنا آسف، إذ لم أفهم ما تقصد، فهل تسمح بتكرار سؤالك؟

فنكعني عندئذ مسؤول الدعاوة لديَّ وهو يتمتم:

ـ هذا الشخص معك، ولقد قال شيئاً جيداً للغاية.

كان ذلك هو جيم أجي، الشاعر والروائي الأميركي، الذي كان آنذاك ناقداً في التايمز. وقد ارتبكت تماماً.

ـ أنا آسف (قلت)، فأنا لم أسمعك. . هل تتكرم بتكرار سؤالك؟

ـ لست أدري إذا كان في وسعي ذلك (قال، وهو متضايق بعض الشيء، ثم كرر تقريباً الكلمات ذاتها).

كنت عاجزاً عن العثور على جواب، فهززت عندئذ رأسي قائلاً:

ـ ليس لدي تعليقات. . . لكنني أشكرك.

بعد ذلك، لم أعد أنفع في شيء. فذلك التعبير عن التعاطف جـرَّدني من روح القتال لديّ.

«أنا حزين، أيها السيدات والسادة. فلقد كنت أعتقد أن هذا المؤتمـر الصحفي يتناول فيلمي؛ وإذ بدلاً من ذلك تحوَّل إلى مشاحنة سياسية، بحيث لم يعد لديَّ ما أقوله لكم».

وبعد ذلك اللقاء، كان حزني عميقاً، لأني كنت أعرف أني سأواجه عداءً حاداً.

مع ذلك، لم أكن أتوصل لتصديق ما يحصل. فلقد كنت تلقيت رسائل رائعة تغدق عليّ التهاني بخصوص فيلم **الديكتاتور**، الذي أعطاني موارد مالية أكبر مما فعل أي من أفلامي حتى ذلك الحين، وقبل نزوله إلى السوق كنت أتعرض أيضاً لقدر من العداوة. في كل حال، كنت عظيم الثقة بنجاح **مسيو ڤردو**، وكانوا في **الفنانين المتحديـن** يقاسمونني هذا الشعور.

خابرتني ماري بيكفورد لتقول إنها تود حضور العرض الأول مع أونا ومعي، لذا دعوناها للعشاء في مطعم «٢١». وقـد وصلت ماري متـأخرة جـداً، وأوضحت لنا أنهـا احتُجزت في كوكتيل وجدت صعوبة في التملص منه.

حين وصلنا إلى السينما، كان هناك جمهور في الخارج. وفيما كنا نشق طريقنا في القاعة الكبرى، اكتشفنا مراسلاً يعلن بواسطة الراديو: «يصل الآن شارلي شابلن وزوجته. آه! ومعهما هذه الممثلة الصغيرة الرائعة من زمن السينما الصامتة، التي لا تزال حبيبة أميركا، الآنسة ماري بيكفورد. ماري، هل تسمحين بالإدلاء بكلمة مقتضبة بصدد هذا العرض الأول الرائع؟»

كانت القاعة مزدحمة للغاية، وتمكنت ماري من الوصول إلى الميكروفون، من دون أن تترك يدي.

ــ والآن، سيداتي سادتي، ماري بيكفورد تحدثكم.

ووسط التـزاحم، قالت مـاري: «قبل ألفي عـام، ولد المسيـح، وهـذا المســاء. . .» وتوقفت عند هذا الحد، لأن هياج الجمهور انتزعها من الميكرو، فيما بقيت متشبثة بيدي. وقد تساءلتُ ما الذي سيحدث بعد ذلك.

كان هناك جو من الانزعاج في القاعة في ذلك المساء، وكان ثمة شعور بأن الجمهور قد جاء لإثبات شيءٍ ما. ومنذ اللحظة التي بدأ فيها الفيلم، حل محلَّ تلك الرعشة من نفاد الصبر وتمتمات الرضى التي كـانت تستقبل أفـلامي في الماضي، تصفيقـاتٌ عصبية قليلة تتخللهـا بعض التصفيرات. وأنا أحس بالخجل فيما أعترف بأن هذه التصفيرات القليلة أثارت لديَّ من الاغتمام أكثر مما فعلت كل عداوة الصحافة.

مـع تقدُّم الفيلم، بـدأت أشعر بـالقلق، فلقد كـانت هنـاك ضحكـات لكنهـا لم تكن إجماعية. لم تعد ضحكة الأيام الخوالي، التي كانت ترافق **الهجوم على الذهب**، أو **أضـواء المدينة**، أو **سلاح الكتف (شارلو جندياً)**. كان ضحك تحدٍّ إزاء جماعة المصفِّرين. كان قلبي ينقبض، ولما كنت عاجزاً عن البقاء وقتاً أطول في مكاني همستُ في أذن أونا: «أنا ذاهب إلى

الرواق، إذ لم أعد قادراً على الاحتمال» فشدَّت على يدي. كان برنامج الحفلة، الذي دعكْتُه بين يديَّ، يهيِّج راحتيَّ، وقد تركتُه تحت مقعدي. تسلقت الممشى خِلْسةً، وبدأت أذرع القاعة الكبرى جيئةً وذهاباً، فلقد كنت ممزَّقاً بين الرغبة في سماع الضحكات والرغبة في الهرب من كل ذلك. ثم صعدتُ إلى البلكون لأرى كيف تجري الأمور في الأعلى. كان هناك رجل يضحك أكثر من الجميع، فلا بد أن يكون صديقاً، لكن الضحك كان عصبياً ومتشجناً، كما لو كان يصر على إثباتِ شيءٍ ما. والشيءُ نفسُه كان يحدث في البلكون الثاني.

على مدى ساعتين، بقيت أتمشى جيئةً وذهاباً في الرواق، وفي الشارع، وحول السينما، ثم عدت لرؤية الفيلم. كان يبدو لي أنه لا ينتهي، ثم جاءت النهاية. وكان بين أول من التقيت في القاعة الكبرى إيرل ويلسون، كاتب الأخبار، وهو رجل لطيف للغاية.

«لقد أحببتُه كثيراً»، قال وهو يشدِّد على ضمير المتكلم.

ثم جاء أرثر كيلي، ممثِّلي، الذي قال:

ـ طبعاً، لن يدر علينا ١٢ مليون دولار.

فقلت مازحاً:

ـ أوه! أنا أكتفي بالنصف.

بعد ذلك، أقمنا مأدبة عشاء لحوالي ٤٥٠ مدعواً، بعضهم من أصدقائنا القدامى. وفي ذلك المساء، كانت الآراء مختلفة، وبالرغم من الشامبانيا كان الجو مُمِضّاً. وقد دخلت أونا سرّاً لتنام، بينما بقيتُ نصف ساعة إضافية.

كان بايارد سووب، وهو رجل كنت أحبه كثيراً وأعتبره ذكياً، يناقش الفيلم مع صديقي دون ستيوارت. وقد أبدى سووب كرهه له. وكان من هنأوني في ذلك المساء نادرين؛ وقال لي دون ستيوارت، الذي كان منتشياً قليلاً، مثلي:

ـ تشارلي، هناك الكثير من الأنجاس الذين يحاولون الكلام في السياسة بصدد فيلمك، لكنه هائل والجمهور متيِّم به.

لم يكن يهمني في تلك اللحظة ما يدور في تفكير الناس، فلقد كانت قواي تخونني، ورافقني دون ستيوارت إلى الفندق، كانت أونا نائمةً حين وصلنا. وقال دون:

ـ أي طابق؟

ـ السابع.

ـ رباه! أتعرف ما هي تلك الغرفة! إنها الغرفة التي خرج ذلك الفتى من نافذتها وبقي ١٢ ساعة قبل أن يقفز في الهواء ويقتل نفسه!

كان ذلك التوضيح يتوِّج الأمسية. لكني لستُ أقل اقتناعاً بأن مسيو ڤردو أفضل فيلم كنت أنتجته حتى ذلك الحين والأكثر روعة.

هذا ولقد فوجئت بأن مسيو ڤردو بقي ستة أسابيع في نيويورك وهو يحتكر الساحة، وكانت الموارد جيدة جداً، لكنها انهارت فجأةً.

حين استوضحتُ في شأن ذلك غراد سيرز، من الفنانين المتحدين، قال لي:

- الفيلم الذي تصنعه أنت يحقق دائماً نجاحاً ممتازاً في الأسابيع الثلاثة أو الأربعة الأولى، لأن لديك أنصارك القدامى. لكن بعد ذلك، ثمة الجمهور الكبير، وبصراحة لا تنفك الصحافة تهاجمك منذ عشر سنوات وهذا يترك آثاره في النهاية: لهذا السبب تراجعت الموارد.

فقلت:

ـ لكن الجمهور الكبير يملك حس الفكاهة، أيّاً يكن.

ـ انظر! (وأراني الدايلي نيوز وصحف مؤسسة هورست). والأمر هذا في كل أنحاء البلد.

كانت تُرى في إحدى الصحف صورةٌ للفيلق الكاثوليكي في نيوجرسي وهو يمر أمام السينما التي يُعرض فيها المسيو ڤردو. كان المتظاهرون يحملون لافتات كُتِب عليها:

«شابلن شيوعي».

«اطردوا الأجنبي».

«شابلن ضيفٌ مدفوع الأجر منذ زمن طويل جداً».

«شابلن، العَقوق والمتعاطف مع الشيوعيين».

«شابلن في روسيا...».

حين ينهار عليك عالمٌ من الخيبات والإزعاجات، إذا أنت لم تستسلم لليأس تتحول إما إلى الفلسفة أو إلى الدُّعابة. وحين أراني غراد صورة المتظاهرين وليس هنالك زبون واحد أمام السينما، قلت مازحاً:

ـ طبعاً، لقد أخذوا هذه الصورة في الخامسة صباحاً.

بيد أنه في كل مكان كان يُعرض فيه المسيو ڤردو من دون مظاهرات، كانت الموارد أعلى من المتوسط.

كانت كل الدوائر الكبرى للتوزيع في الولايات المتحدة قد اشترت الفيلم، لكن بعد أن تلقت رسائل من الأميركان ليجن(*) ومجموعات ضغط أخرى، توقفت عن عرضه. كان للّيجِنْ طريقة فعّالة في إخافة مدراء صالات السينما، تتمثل في تهديدهم بمقاطعة مؤسستهم لمدة عام إذا أنزلوا في برنامجهم فيلماً لشابلن أو أفلاماً أخرى لا تعجبهم. ففي دينڤر، كانت هنالك موارد ممتازة في الحفلة الأولى، لكن الفيلم سُحب من الإعلان في اليوم التالي بسبب هذه التهديدات.

(*) رابطة قدامى المحاربين الأميركيين، أو... الفيلق الأميركي (م).

كانت إقامتنا في نيويورك هي الأمَضّ بين إقاماتنا هناك. ففي كل يوم، كنا نتبلغ إلغاء عقد التوزيع هذا أو ذاك. فضلاً عن ذلك، تعرضت لدعوى انتحال بخصوص الديكتاتور؛ وفي حين كان الحقد والعداء، سواء من جانب الصحافة أو من جانب الجمهور، يبلغان الذروة، وفي حين كان أربعة شيوخ يتهمونني داخل مجلس الشيوخ بالذات، جرت المحاكمة على الرغم من رغبتي في تأجيلها إلى تاريخ لاحق.

قبل المضي أبعد من ذلك، يهمني أن أوضح الأمور مؤكّداً أني تصورت مخطوطاتي وكتبتها لوحدي. كانت المحكمة تكاد تكون بدأت حين أعلن القاضي أن والده على فراش الاحتضار، فهل يمكننا التوصل إلى اتفاق بحيث يتمكن القاضي من الذهاب لرؤية والده المحتضر. وقد رأى الطرف الآخر في الحال ما يمكنه أن يربحه من ذلك، وهجم على الفرصة المتاحة أمام تسوية حبية. وفي ظروف عادية، كنت شدَّدت على متابعة المحاكمة، لكن بسبب انعدام شعبيتي في الولايات المتحدة في تلك الفترة، وأمام ضغطٍ من ذلك النوع، شعرت بالرهبة، غير عارف ما الذي ينتظرني، وعقدنا تسوية حبية.

كانت قد تبخرت كل آمالنا في رؤية مسيو ڤردو يدرّ علينا أرباحاً بقيمة ١٢ مليون دولار. فالفيلم قد يغطي تكاليفه بالضبط، وقد وقع الفنانون المتحدون فريسة أزمة خطيرة. وكتدبير اقتصادي، راحت ماري تصر على أن أصرف ممثلي، أرثر كيلي، وغضبتْ حين ذكَّرتُها بأني أملك مثلها نصف الشركة. قلتُ لها:

ــ إذا ذهب ممثليَّ، يا ماري، يجب أن يذهب ممثلوك أيضاً.

وقد وصل بنا ذلك إلى ورطة انتهت حين قلت:

ــ على أحدنا أن يشتري أو يبيع، فما هو السعر الذي تطلبين؟

لكن ماري رفضت إيراد أرقام، وفعلت أنا الشيء نفسه.

وأخيراً جاءت النجدة من مكتب محامين يمثل دائرة توزيع في الشرق. كانوا يريدون الإشراف على الشركة وأبدوا استعدادهم لدفع ١٢ مليون دولار: سبعة ملايين نقداً وخمسة على شكل أسهم.

كانت تلك هبةً من السماء.

قلت لماري:

ــ أصغي إليَّ. إذا أعطيتني خمسة ملايين دولار عداً ونقداً. في هذه اللحظة، أنسحب وأترك لك الباقي.

وقد وافقت، ووافقت الشركة أيضاً. وبعد أسابيع من المفاوضات، كان قد جرى أخيراً تحضير كل الوثائق، ثم خابرني محاميَّ في الأخير ليقول لي:

ــ تشارلي، بعد عشر دقائق سيكون معك خمسة ملايين دولار.

لكن بعد عشر دقائق، عاد ليقول لي:

ـ تشارلي، لقد فشلت القضية. كانت ماري على وشك التوقيع، وهي تمسك بقلمها، حين قالت فجأة: «كلا! لماذا سيحصل على خمسة ملايين دولار في الحال، بينما أنتظر أنا سنتين للحصول على حصتي!». وقد حاججناها قائلين إنها ستحصل على سبعة ملايين دولار، أي على زيادة مليونين عن المبلغ الذي يعود إليك. لكنها تذرعت بأن ذلك قد يخلق لها مشكلات مالية.

كانت تلك فرصة ذهبية أضعناها؛ ففيما بعد، اضطررنا لأن نبيع لقاء مبلغ أقل بكثير.

عدنا إلى كاليفورنيا حيث تعافيت تماماً من المحنة التي مثّلها مسيو ڤردو؛ واستأنفت اجترار الأفكار. ذلك أني كنت متفائلاً، ولم أكن اقتنعت بعد بأني خسرت مودة الشعب الأميركي كلياً. لم أكن أعتقد أن في وسع الأميركيين أن يمتلكوا وعياً سياسياً متطوراً إلى هذا الحد، أو أن يكونوا فاقدين لحس الفكاهة إلى حد مقاطعة شخص يمكنه أن يسلّيهم. كانت لديّ فكرة، ومذاك لم يعد يهمني إلى أين قد يُفضي بي ذلك كله: كان عليّ أن أصوِّر فيلماً. إن الناس شغوفون دائماً بقصة حب، مهما يكن الطلاء الحديث الذي يمكنهم أن يزخرفوا أنفسهم به. وكما يقول هازليت: إن العاطفة أكثر جاذبية من الذكاء، وتُقدم أيضاً مساهمة أكبر في عمل فني. كانت فكرتي إذاً قصة حب، وكانت تلك، من جهة أخرى، موضوعةً تتناقض تماماً مع تشاؤم مسيو ڤردو التهكمي. لكن الأهم من ذلك أن الفكرة كانت تثيرني كثيراً.

لقد تطلّب لايملايت Limelight(*) ١٨ شهراً من التحضيرات. كان ينبغي تأليف ١٢ دقيقة من موسيقى الباليه، وكانت تلك مهمة شبه مستعصية، لأنه كان عليّ أن أتخيَّل سير أحداث الباليه. ففي السابق، لم أكن أؤلف الموسيقى إلا حين يكون فيلمي قد أنجز وبات في وسعي رؤية ما الذي يجري. بيد أني ألفت كل الموسيقى وأنا أتخيل الرقص. لكن حين انتهت، تساءلت إذا كانت تصلح لباليه، لأن الراقصين سيكونون مضطرين إلى هذا الحد أو ذاك لأن يبدعوا الكوريغرافيا بأنفسهم.

لما كنت عظيم الإعجاب بأندريه إيغليفسكي، فكّرتُ فيه من أجل الباليه. كان في نيويورك، وخابرتُه لأسأله إذا كان يوافق على أن يرقص «الطائر الأزرق» على إيقاع موسيقى أخرى وإذا كان في وسعه أن يقترح عليَّ راقصة باليه لترقص معه. فردَّ قائلاً إن عليه أن يسمع الموسيقى أولاً. أما رقصة «الطائر الأزرق» فتُنفَّذ على موسيقى تشايكوفسكي وتدوم ٤٥ ثانية. وقد كنت أَلَّفت إذاً شيئاً لهذه المدة.

كنا قد أمضينا أشهراً ونحن نرتِّب الاثنتي عشرة دقيقة من موسيقى الباليه، وقد سجّلناها بواسطة أوركسترا من ٥٠ عازفاً، وكنت مستعجلاً لمعرفة رد فعلهما. وفي الآخير ركبت راقصة الباليه، ميليسا هايدن، وأندريه إيغليفسكي، الطائرة إلى هوليوود لسماعها. وفي حين كانا

(*) أضواء المسرح، ويمكن أن تعطي الكلمة أيضاً معنى بريق المجد (م).

يستمعان إليها، جالسين في مقعديهما، كنت شديد العصبية والخجل، لكن، حمداً لله، لقد وافقا كلاهما قائلين إن ذلك يناسب الباليه تماماً. ولقد كانت رؤيتهما يرقصان على إيقاع تلك الموسيقى إحدى اللحظات الأكثر روعة من حياتي كسينمائي. وكان أداؤهما مثيراً للخُيَلاء إلى أبعد الحدود، ويضفي على الموسيقى طابعاً كلاسيكياً.

كنت أريد المستحيل بالنسبة لدور الشابة: الجمال، والموهبة، وسلسلة واسعة من العواطف. وبعد أشهر من البحث والتجارب المخيبة للآمال، خلص بي الأمر إلى التعاقد، لحسن حظي، مع كلير بلوم، التي أوصاني بها صديقي أرثر لورنتس.

هنالك جانب من طبيعتنا يجعلنا نتناسى الحقد والتفاصيل الكريهة، فالدعوى وكل الإزعاجات التي صاحبتها ذابت كالثلج في حرارة الشمس. في غضون ذلك، كانت أونا قد أنجبت أربعة أولاد: جيرالدين، وميكايل، وجوزي وفيكي. كانت الحياة الآن لذيذة في بيفرلي هيلز، فلقد كنا عائلة سعيدة وكل شيء كان على ما يرام. كنا نقيم طاولة مستديرة يوم الأحد ونرى الكثير من أصدقائنا، ومن بينهم جيم آيجي، الذي جاء إلى هوليوود لكتابة سيناريو لجون هيوستن.

كان ويل دورانت، الكاتب والفيلسوف، يقيم هو الآخر في هوليوود، لأنه كان يعطي محاضرات في جامعة كاليفورنيا، في لوس أنجلس. كان صديقاً قديماً، وكان يتعشى لدينا بين الحين والآخر. لقد كانت أمسيات ممتعة، وويل، المفعم بالحماس، والذي لم يكن يحتاج لمحرِّض غير الحياة من أجل أن ينتشي ويسكر، سألني ذات يوم: «كيف تفهم الجمال؟» فقلت له: إني أرى فيه حضوراً كلياً للموت والفتنة، حزناً باسماً يميِّزه المرء في الطبيعة وفي كل الأشياء، وحدةَ شعور صوفيةً يحس بها الشاعر: يمكن أن يعبر عن نفسه في صندوق قمامة يسقط عليه شعاع شمس، أو يمكن أن يكون وردة في الجدول. كان إل غريكو قد رآه في مشهد مخلِّصنا على الصليب.

التقينا ويل من جديد على عشاء عند دوغلاس فايربانكس جونيور. كانت كليمنس داين وكلير بوث لوس هناك. وكنت تعرفت إلى كلير قبل سنوات طويلة في نيويورك، في حفلة رقص مقنَّعة لدى و. ر. هورست. كانت في ذلك المساء رائعة الجمال في زي يعود إلى القرن الثامن عشر مع شعر مستعار أبيض، وكانت فاتنة تماماً إلى حين سمعتُها تهاجم صديقي جورج مور، وهو رجل مثقف وحساس. فوسط جمهور المعجبين الذين كانوا يحيطون بها، كانت توبِّخ المسكين بصورة مسموعة تماماً:

ــ أنت محاط بالأسرار: كيف تكسب مالك؟

كان ذلك فظاً، لا سيما أمام أشخاص آخرين. لكن جورج كان لطيفاً، وأجاب ضاحكاً:

ــ أبيع الفحم، وألعب البولو قليلاً مع صديقي هيتشكوك وهاكِ صديقي تشارلي شابلن (كنتُ أمر في تلك اللحظة بالضبط) الذي يعرفني.

منذ تلك اللحظة، تغيرت الفكرة التي كنت أكوّنها عن كلير لوس. ولم أتفاجأ حين

عرفت في ما بعد أنها باتت عضواً في الكونغرس، وأنها وجدت لأجل وصف السياسة الأميركية هذه الصيغة العميقة: «تفاهة عالمية».

في ذلك المساء، استمعت إلى كلير لوس وهي تلعب دور وسيطة الوحي؛ وبالتأكيد، وصل بنا الأمر إلى الكلام على الدين (كانت اهتدت إلى الكاثوليكية قبل وقت قصير)، وفي عز النقاش قلت:

ــ ليس المرء مجبراً على حمل دمغة المسيحية على جبينه؛ فهي واضحة لدى القديس كما لدى الخاطىء، وشعلة الروح القدس موجودة في كل شيء.

في تلك الأمسية، كان وداعنا مطبوعاً بالبرودة.

حين انتهى **لايملايت**، كانت شكوكي بخصوص نجاحه أقل مما حيال نجاح أي فيلم سبق أن صوَّرته. وقد نظمنا عرضاً خاصاً لأصدقائنا، وكان الجميع مفعمين بالحماس. وبدأنا نفكر إذاً في الذهاب إلى أوروبا، لأن أونا كانت تصر على وضع الأولاد في مدرسة هناك، بعيداً عن تأثير هوليوود.

كنت قد صغت طلباً للحصول على إذن بالعودة، قبل ثلاثة أشهر، لكني لم أتلق أي جواب. إلا أني واصلت ترتيب أموري استعداداً للرحيل. كنت قدَّمت تصريحي بخصوص الضرائب وكل شيء كان كما يجب. لكن حين علمت مصلحة الضرائب بأني مسافر إلى أوروبا، اكتشفت أني لا أزال مديناً لها بالمال، وقد توصل موظفو المصلحة إلى تحديد مبلغ من ستة أرقام، واشترطوا أن أجمّد في المصرف مليوني دولار، أي أكثر عشر مرات من المبلغ الذي كانوا يطلبونه. وقد أوحت لي غريزتي بألا أجمِّد أي شيء وبأن أصر على بت القضية في المحاكم على الفور. وقد عرضوا عليَّ في الحال اتفاقاً على مبلغ معقول تماماً. وبما أنه لم يعد لهم ما يطالبون به، طلبتُ من جديد إذناً بالعودة وانتظرت أسابيع، لكن عبثاً. فبعثتُ إذاً برسالة إلى واشنطن معلناً أنه إذا لم يكن وارداً منحي تأشيرة عودة، فأنا أنوي السفر أيّاً يكُنْ.

بعد أسبوع، تلقيت مخابرةً هاتفية من مصلحة الهجرة يقولون لي فيها إنهم يودون طرح بعض الأسئلة عليّ. هل إن في وسعهم المجيءَ إلى بيتي؟

ــ بكل تأكيد (أجبتهم).

وصل ثلاثة رجال وامرأة، وكانت المرأة تحمل آلة كاتبة اختزالية. وكان مع الآخرين حقائبُ مربعة صغيرة تحتوي، بالتأكيد، آلات تسجيل. وكان المستجوِب الرئيسي رجلاً طويلاً ونحيلاً في الأربعين، يتمتع بما يكفي من الوسامة وبالكثير من البراعة. وقد أدركت أنهم كانوا أربعة ضد واحد، وأنه كان يلزم أن أستدعي محامياً ليكون بجانبي. لكن لم يكن لديَّ ما أخفيه.

اصطحبتهم إلى الشرفة، وجلبت المرأة معها آلتها التي وضعتها على طاولة صغيرة. أما الآخرون فجلسوا على كنباية وأمامهم آلات التسجيل. وأخرج المفتش ملفاً سماكته ٣٠ سم

وضعه بعناية على الطاولة بقربه. وجلست قبالته، في حين راح يتفحص ملفَّه صفحةً بعد أخرى.

ــ هل اسمك الحقيقي هو تشارلي شابلن؟

ــ أجل.

ــ يقول بعض الأشخاص إن اسمك هو. . . (وذكر عندئذ اسماً ذا تناغم أجنبي جداً) وأنك أصلاً من غاليسيا.

ــ كلا. اسمي تشارلز شابلن، مثل والدي، ولقد ولدت في لندن، في إنكلترا.

ــ أنت تقول إنك لم تكن شيوعياً في أي يوم من الأيام؟

ــ على الإطلاق. فأنا لم أنتمِ يوماً إلى منظمة سياسية.

ــ لقد ألقيت خطاباً قلت فيها «أيها الرفاق»: ماذا كنت تعني بذلك؟

ــ هذا بالضبط. أنظر في القاموس، فالشيوعيون لا يحتكرون هذه الكلمة.

وواصل الاستجواب في هذا المنحى، ثم سألني فجأةً:

ــ هل ارتكبت الزنى ذات يوم؟

فقلت له:

ــ أصغِ إليَّ، إذا كنت تبحث عن نقطة قانونية لمنعي من العودة إلى الولايات المتحدة، قل لي ذلك وسوف أقوم باستعداداتي على أساس ذلك، لأنه ليست بي رغبة في أن أكون شخصاً غير مرغوب فيه **Persona non Grata** في أي مكان.

ــ آه! كلا إنه سؤال يُطرح من أجل منح أي تأشيرة عودة.

فسألته:

ــ ما هو تحديد كلمة «الزنى»؟

ونظرنا كلانا في القاموس. أما هو فقال:

ــ فلنقل «فسوق مع زوجة رجل آخر».

وفكرت لحظةً، ثم قلت:

ــ ليس على حد علمي.

ــ لو تعرضت الولايات المتحدة لغزو، أكنت قاتلت دفاعاً عنها؟

ــ بالتأكيد. فأنا أحب هذا البلد. . . وهنا أعيش منذ أربعين عاماً.

ــ لكنك لم تصبح يوماً مواطناً أميركياً.

ــ ليس من قانون ضد هذا. ثم أنا أدفع ضرائبي هنا.

ــ لكن لماذا تتبع خط الحزب؟

ــ إذا قلت لي ما هو خط الحزب، سوف أقول لك إذا كنت أتبعه أو لا أتبعه.

وران صمتٌ قطعتُه قائلاً:

ــ هل تعرف كيف اجتذبت ضد نفسي كل هذه المضايقات؟

فهزَّ رأسه، فتابعتُ قائلاً:

ــ بتقديمي خدمة لحكومتكم.

فهزَّ حاجبيه متفاجئاً.

ــ كان على سفيركم في موسكو، المستر جوزيف دايفيس، أن يتكلم في سان فرانسيسكو خلال مظاهرة لصالح نجدة الحرب لروسيا، لكن في اللحظة الأخيرة، أصيب بنوبة التهاب في الحنجرة؛ وسألني موظف كبير في حكومتكم إذا كنت أقدم له خدمة وأتكلم بدلاً منه، ولم أبرح أعض أصابعي مذاك.

وقد استجوبوني ثلاث ساعات. وبعد أسبوع، تلفنوا من جديد ليسألوني إذا كنت أتكرم بالمجيء إلى مصلحة الهجرة. وقد أصر محاميَّ على مرافقتي، «في حال كانوا يودون طرح أسئلة أخرى»، قال.

حين وصلنا، لم يكن في وسعي تصور استقبال أكثر وداً. قال لي رئيس مصلحة الهجرة، وهو رجل ودود جداً وكبير في السن، بلهجةٍ تعزيةٍ تقريباً.

ــ يحزنني أننا أخَّرناك، يا مستر شابلن. لكن بعد أن صار لدينا الآن ملحق لمصلحة الهجرة في لوس أنجلس، سوف نتحرك بسرعة أكبر بكثير من دون أن يكون علينا أن ننتظر تحوُّل الطلبات بين هذا المكان وواشنطن، ذهاباً وجيئةً. هنالك بالضبط سؤال آخر يلزمني طرحه عليك، يا مستر شابلن: كم من الوقت ستبقى غائباً؟

ــ لا أكثر من ستة أشهر (أجبت). فنحن ذاهبون فقط لقضاء عطلة.

ــ إذا كنت ستتغيب وقتاً أطول، سيكون عليك طلب تمديد.

ووضع مستنداً على الطاولة، ثم غادر الغرفة. فتفحَّصه محاميَّ بسرعة.

ــ هذا هو! (قال) إنه التأشيرة.

وعاد مضيفنا وبيده ستيلو.

ــ هل تسمح يا سيد شابلن بالتوقيع هنا؟ وبالتأكيد، سيكون عليك توقيع أوراق الإبحار الخاصة بك.

وبعد أن وقَّعت، ربَّت على ظهري بمودة.

ــ هذه تأشيرتك. آمل أن تمضي عطلة ممتازة، يا تشارلي... وأن تعود سريعاً إلى البلد!

كان ذلك هو السبت، وقد ركبنا صباح الأحد قطار نيويورك. كنت أريد أن تتمكن أونا من الوصول إلى خزنتي في حال حدث لي أي شيء، لأن الجزء الأكبر من ثروتي كان هناك. لكن أونا كانت تؤخر دائماً لحظة مجيئها لتوقيع الأوراق في البنك. كان ذلك الآن يومنا الأخير في

لوس أنجلس، وكانت البنوك ستقفل خلال عشر دقائق. فقلت:

ـ لم يبق لدينا إلا عشر دقائق، فلنسرع إذاً.

كانت أونا مستعدة دائماً لتأجيل الأمر إلى الغد، من أجل هذا النوع من الأشياء. وقالت:

ـ لماذا لا ننتظر العودة من العطلة؟

لكنني ألححت. ومن حسن حظي، لأني لو لم أفعل ذلك لكنا ربما أمضينا ما تبقّى من حياتنا، ونحن نتابع دعوى محاولة إخراج ثروتنا من الولايات المتحدة.

كان يوماً قاسياً حين غادرنا إلى نيويورك. وفي حين كانت أونا تستكمل إقفال البيت، كنت أنتظر على المرج، فريسة مشاعر مختلطة. كانت قد حصلت لي أشياء كثيرة في هذا المنزل، وفيه عرفت الكثير من السعادة والكثير من القلق! وكان مشهد الحديقة والمنزل الآن وادعاً وودياً إلى حد أني كنت أشعر ببعض الحزن وأنا أفارقه.

بعد أن ودعنا هيلن، الوصيفة، وهنري، مدير الخدم، عرّجت على المطبخ لأقول «إلى اللقاء» للطاهية، أنّا. وأنا شديد الحياء في حالات كهذه، وكانت أنّا، تلك الامرأة السمينة جداً، طرشاء قليلاً. فقلت لها مراراً «إلى اللقاء»، وأنا ألمس ذراعها. وكانت أونا آخر المغادرين، وأخبرتني في ما بعد أنها وجدت الطاهية والوصيفة مجهشتين بالبكاء. وقد رافقنا جيري إيبستاين، مساعدي في الإخراج، إلى المحطة.

كانت الرحلة عبر الولايات المتحدة مثيرة للاسترخاء. وقد أمضينا أسبوعاً في نيويورك قبل أن نبحر. وفي اللحظة ذاتها التي كنت أستعد خلالها للاستفادة من عطلتنا بشكل جيد، تلفن لي محاميَّ، تشارلز شوارتز، ليقول لي: إن مستخدماً سابقاً في الفنانين المتحدين يطالب الشركة بعدة ملايين من الدولارات عطلاً وضرراً وفوائد. «هذا فقط لمضايقتنا، يا تشارلي؛ أود، أيّاً يكن، أن أجنبك استلام استدعاء، لأن ذلك قد يجبرك على العودة من عطلتك». وقد أمضيت إذاً الأيام الأربعة الأخيرة مغلِقاً على نفسي داخل غرفتي من دون أن أستمتع بزيارة نيويورك مع أونا والأولاد. إلا أني كنت أنوي الظهور لتقديم لايملايت للصحافة، أكان هناك استدعاء أو لم يكن.

كان كروكر ـ وقد بات مسؤول الدعاوة بالنسبة لي ـ قد نظَّم غداء مع محرري التايم و اللايف. وكانت مكاتبهما، بجدرانها العارية من الجبس الأبيض، تتناسب تماماً مع جو ذلك الغداء الجليدي، الذي بذلتُ خلاله جهوداً جبارة لأكون ودياً ومسلّياً قبالة صفٍّ من الرجال الصارمين ذوي الشعر المقصوص بصورة واقفة مثل روّاد فضاء: محرِّري التايم.

وكان الطعام لا يقل صقوعة عن الجو: فراخ دجاج بلا طعم عليها صلصة صفراء وكريهة. لكن بخصوص الدعاوة الجيدة لفيلم لايملايت، لم يكُن لحضوري، أو لجهودي لأكون ودياً، أو للمأدبة، أيُّ نفعٍ في ذلك، فلقد انتقدت مجلتهم الفيلم بدون هوادة أو رحمة.

لكن بالرغم من أن الجو لم يكن ودياً إطلاقاً خلال تقديم الفيلم للصحافة، كانت مفاجأتي سارة في ما بعد حين اطلعت على الانتقادات في الصحف الكبرى.

أبحرت على متن الكوين إيليزابيت في الخامسة صباحاً، وهي ساعة حالمة بالتأكيد، لكن بكل بساطة للسبب الكريه المتمثل في ضرورة أن أتفادى المباشرين الحاملين استدعاءات محتملة. وقد أوصاني محاميّ بأن أصعد إلى الباخرة خفيةً، وأنزوي في شقتي ولا أظهر على السطح إلا بعد أن يكون الربّان قد غادر. كان قد جرى ترويضي ـ كما الحال قبل عشر سنوات ـ على انتظار الأسوأ، وقد انصعت.

كنت آمل أن أكون على السطح الأعلى مع عائلتي، من أجل التلذذ بتلك اللحظة المؤثرة حين ترخي السفينة القلوس وتندفع إلى عرض البحر. بدلاً من ذلك، كنت مغلقاً على نفسي بالمفتاح بصورة مخزية في حجرتي أنظر من نافذة السفينة.

ـ هذا أنا (قالت أونا وهي تقرع الباب).

وفتحتُ، فقالت:

ـ لقد وصل جيم آيجي للتوّ كي يقول لنا إلى اللقاء، وهو على رصيف الميناء. وقد صرخت له أنك مختبىء لتفادي المباشرين وأنك سوف تومىء له عبر كوّة السفينة. ها هو في آخر الرصيف.

لمحت جيم، بعيداً تقريباً عن مجموعة الناس، واقفاً تحت شمس حارقة وهو يحدق في المركب متفحصاً. فنزعت قبعتي بسرعة، ومرّرتُ ذراعي عبر الكوّة وحرّكتها، في حين كانت أونا تنظر عبر الكوّة الأخرى. وقد قالت:

ـ كلا، لم يرك بعد.

لم يرني على الإطلاق، وكانت تلك آخر صورة أحتفظ بها لجيم، واقفاً لوحده، كما لو بعيداً عن العالم، ونظراته متحفزة، متفحصة. مات بعد عامين بنوبة قلبية.

وأخيراً غادر الربان السفينة، ففتحت قفل بابي وخرجت إلى السطح كإنسان حر. كان

الخط المهيب لناطحات السحاب في نيويورك، المتغطرسة والشهمة، قد توارى تحت الشمس بكل جماله الأثيري؛ والآن وقد اختفى، تولد لديّ شعور غريب بأن كل تلك القارة الواسعة قد غرقت في الضباب.

مع أني كنت فاقد الصبر لزيارة انكلترا مع عائلتي، كنت مسترخياً بلذة، ذلك أن اتساع المحيط الأطلسي الهائل يطهِّر النفس. لقد شعرت بنفسي إنساناً آخر؛ لم أعد إحدى أساطير عالم السينما، ومَرْمًى معرَّضاً لفظاظة الناس، بل رجلاً متزوجاً يمضي لقضاء عطلته مع امرأته وعائلته. كان الأولاد يلعبون على السطح الأعلى، في حين كنا، أنا وأونا، جالسين في عابرات للأطلسي. وقد فهمت عند ذلك ما هي السعادة الكاملة: شيء قريب جداً إلى الحزن.

تحدثنا بمودة عن أصدقاء تركناهم خلفنا؛ وتحدثنا حتى عن لطف جماعة مصلحة الهجرة. كيف يَضْعُفُ المرء بسهولة إزاء القليل من التهذيب: من الصعب الحفاظ على العداوة!

كنا، أنا وأونا، ننوي قضاء عطلة طويلة والانصراف إلى لذة الحياة، ومع إطلاق فيلم **لايملايت**، لن تكون عطلتنا من دون هدف. لقد كان لذيذاً للغاية أن نقول لأنفسنا إننا نجمع بين المفيد والممتع.

لم يكن ممكناً أن يكون غداء اليوم التالي أكثر مرحاً. فلقد كان ضيوفنا هم آل أرثر روبنشتاين وأدولف غرين. لكن في عز المأدبة، تسلَّم هاري كروكر برقية، كان على وشك أن يضعها في جيبه حين قال له صبي الفندق: «هم ينتظرون جواباً بواسطة الراديو». قرأ هاري النص واربدَّ وجهه، ثم اعتذر منا وترك الطاولة.

بعد وقت قصير، طلب مني المجيء إلى حجرته وقرأ عليَّ البرقية. كانوا يُعْلِمونني بأن عودتي إلى الولايات المتحدة محظَّرة، وأن عليَّ المثول أمام لجنة تحقيق تابعة لمصلحة الهجرة للرد على اتهامات سياسية وأخلاقية. كانت وكالة اليونايتد برس تريد معرفة إذا كان لديّ تعليق على الموضوع.

كنت أحس بكل أعصابي متوترة. لم يكن يهمني أن أعود أو أن لا أعود إلى ذلك البلد البائس. ولقد وددت أن أقول لهم إنه كلما بكّرت في التخلص من ذلك الجو المشبع بالكراهية يكون ذلك أفضل، وإني لم أعد أتحمل إهانات أميركا وأخلاقها المتبجِّحة وإن كل ذلك ينهكني. لكن كل ما كنت أملكه كان في الولايات المتحدة، وكنت مرتعباً إزاء فكرة أنهم قد يجدون وسيلة لمصادرته. كنت أنتظر الآن أي عمل عديم الذمة من جانبهم، فاكتفيت إذاً بالإعلان بأبّهة أني سوف أجيء للرد على اتهاماتهم وأن تأشيرة العودة التي معي ليست خرقة ورق بل مستندٌ منحتني إياه عن حسن نية حكومة الولايات المتحدة... وغير ذلك من الهذر.

لقد انتهت حالة الاسترخاء على سطح السفينة بالنسبة إليَّ، فوكالات الأنباء راحت تبرق لي من كل أنحاء العالم طالبة مني تصريحات. وفي شيربورغ، محطتنا الأولى قبل ساوثامبتون، صعد حوالي المئة صحفي إلى السفينة، مبدين رغبتهم في مقابلتي. وقد نظمنا

لهم نوعاً من المؤتمر الصحفي في قاعة الطعام بعد الغداء. ومع أنهم أظهروا التعاطف والحنوّ، كان ذلك اللقاء امتحاناً مُضْجِراً ومنهِكاً.

تمت الرحلة من ساوثامبتون إلى لندن في جوّ من القلق، فما كان يهمني أكثر بكثير من منعي من الإقامة في الولايات المتحدة، إنما كان معرفة ما سيكون رد فعل أونا والأولاد حين يرون الريف الإنكليزي للمرة الأولى. فمنذ سنوات وأنا أمتدح أمامهم الجمال منقطع النظير الذي يتميز به جنوب غربي انكلترا، وديفونشاير والكورنواي، وها نحن نمُر عبر تجمعات كئيبة لمبانٍ قرميدية وصفوف من المنازل المتماثلة التي تتسلق التلال.

ــ إنها متشابهة جميعاً، قالت أونا.

ــ امنحينا فرصة (قلت). فنحن نكاد نكون غادرنا ساوثامبتون.

وكلما كانت الرحلة تتواصل، كان المشهد يصبح بالتأكيد أشد جمالاً.

حين وصلنا إلى لندن، وبالتحديد إلى محطة واترلو، كان الجمهور المخلص هناك، صادقاً ومتحمساً كما كان دائماً. هتف لنا الناس ونحن نخرج من المحطة. قال أحدهم: «هيا تشارلي، لا تفقد رباطة جأشك». وقد لامسني ذلك في الصميم.

حين حصلنا، في الأخير، أنا وأونا، على لحظة من الهدوء، جلسنا إلى نافذة شقتنا في الطابق الخامس من فندق سافوي. دللتُها على جسر واترلو الجديد؛ وعلى الرغم من جماله، لم يكن يمثل الشيء الكثير بالنسبة لي، أكثرِ من واقع أنه يُفضي إلى حيّ طفولتي. بقينا صامتين بعض الوقت، نستمتع بالمشهد الأكثر إثارةً الذي تقدمه لنا مدينة كبرى. لقد أعجبتني الأناقة الرومانسية التي تتميز بها ساحة الكونكورد، وشعرت بالرسالة الصوفية لألف نافذة تلمع عند غروب الشمس في نيويورك، لكن مشهد التاميز، الذي كان يبدو لي من نافذتنا، يتخطى بالنسبة لي كلَّ ذلك من حيث العظمة الوظيفية، إنه مشهد إنساني عميق.

ألقيت نظرة سريعة على أونا وهي تتأمل المنظر بإعجاب، وعلى وجهها ارتعاشةٌ تجعلها تبدو أصغر من سنواتها السبع والعشرين. كانت قد عرفت منذ زواجنا أكثر من محنة معي؛ وفي حين كانت تتأمل لندن، والشمس تمرح في شعرها الكستنائي، لمحتُ للمرة الأولى خيطاً أو خيطين من الفضة، ولم أعلق على ذلك، لكنني أحسست في تلك اللحظة بأني عبدُها إلى الأبد في حين كانت تقول لي بهدوء: «أحب لندن».

عشرون سنة كانت قد انصرمت منذ زيارتي الأخيرة. ومن المكان الذي كنت فيه، كان المرء يلمح أحد تعرجات النهر، وعلى ضفتيه تنتصب الآن مبانٍ حديثة مرعبة أفسدت المنظر. لقد انقضى نصف طفولتي في الرماد المحترق لتلك البقع الغامضة الممتلئة سخاماً.

كنا نتنزه، أنا وأونا، في لايستر سكواير وبيكاديللي، وقد اختلطتا الآن بالبضاعة الأميركية الزهيدة، ومطاعم السناك بار، ومعارض النقانق وحانات الحليب، حين رأينا شباناً حاسري الرأس وفتيات بالبلوجينز وهم يتسكعون. وأنا أتذكر الأيام الخوالي التي كان الناس يتأنقون فيها

للذهاب إلى الويست إند، ويتنزهون بقفّازات وعصا. لكن ذلك العالم اختفى وحل محله عالم آخر، والأعين ترى بصورة مختلفة وردود فعل الناس تغيرت. فالناس يبكون وهم يسمعون الجاز، وبات العنف جنسياً. إن الزمن يواصل المسير.

أخذنا سيارة تاكسي إلى كينغتون للنظر إلى ٣ پاونال تيراس، لكن المنزل كان فارغاً، وكانوا على وشك هدمه. وتوقفنا أمام ٢٨٧ كينغتون رود حيث عشنا أنا وسيدني مع والدي. اجتزنا بلغراڤيا ولمحنا في غرف ما كان في الزمن الغابر فنادق خاصة رائعة أنواراً بالنيون ومستخدمين يشتغلون في مكاتب. وكانت قد حلت محل مساكن أخرى أشكالٌ مستطيلة، أنواعٌ من الأكواريومات أو علب كبريت إسمنتية منتصبة إلى فوق، وكل ذلك باسم التقدم.

كانت لدينا مشكلات عديدة ينبغي حلُّها، وقبل كل شيء إخراج أموالنا من الولايات المتحدة. كان ذلك يعني أن على أونا أن تركب الطائرة من جديد إلى كاليفورنيا وتسحب كل ما هو موجود في خزنتنا. وقد تغيَّبت عشرة أيام، وحين عادت روت لي ما جرى بالتفصيل. ففي المصرف، تفحّص الموظف توقيعها، وتأملها ثم مضى وتداول طويلاً مع مدير المصرف. وقد مرت أونا بلحظات من الخوف قبل أن يفتحوا باب الخزنة.

قالت لي إنها بعد أن انتهت من المصرف، ذهبت إلى منزلنا في بيڤرلي هيلز. كان كل شيء كما تركناه، وكانت الزهور والحديقة رائعة. وقد بقيت وحدها لبعض الوقت في غرفة الجلوس، شديدة التأثر. ثم رأت هنري، مدير خدمنا السويسري الذي روى لها أنه جاء بعد رحيلنا عملاء الإف. بي. آي. مرتين واستجوبوه لمعرفة أي نوع من الناس أنا، وإذا كان على اطلاع على حفلات جنس مجنونة مع فتيات عاريات يُفترض أنها تمت في المنزل، الخ. وحين أجابهم أني كنت أعيش بسلام مع زوجتي وعائلتي، بدأوا يعاملونه بشراسة وسألوه ما هي جنسيته، ومنذ كم من الزمن هو في الولايات المتحدة، وطلبوا رؤية جواز سفره.

قالت لي أونا إنها حين عرفت بكل ذلك، انقطعت الروابط التي كانت لا تزال تشدها إلى المنزل. حتى دموع هيلن، وصيفتنا، التي بكت حين مضت أونا، لم تنجح في غير تسريع رحيلها.

سألني بعض الأصدقاء كيف توصلت إلى اجتذاب هذا القدر من العداء من جانب الأميركيين ضدي. لقد كانت خطيئتي الكبرى، ولا تزال، أني غير امتثالي، فمع أني لست شيوعياً، رفضتُ السَّير مع التيار عن طريق إبداء الكراهية للشيوعيين. ولا شك أن هذا صدم الكثيرين، ومن ضمنهم الفيلق الأميركي. أما أنا فلست أكنّ العداء لهذه المنظمة بمعناها الحقيقي البنّاء؛ فإجراءات كوثيقة حقوق الجي. آي. ومنافع أخرى مُنِحت للمحاربين القدامى وأولادهم المحتاجين هي تدابير ممتازة وإنسانية. لكن حين يتجاوز الفيلقيون حقوقهم الشرعية ويستخدمون سلطتهم بذريعة المحبة للوطن من أجل التطاول على حياة الغير الخاصة، يرتكبون عندئذ جريمة ضد البنية الأساسية للحكم الأميركي. إن هؤلاء الوطنيين المتطرفين يمكن أن يكونوا الخلايا القادرة على جعل أميركا دولة فاشية.

وفي ما بعد، كنت معادياً للجنة النشاطات المناهضة لأميركا: وهو اسم يفتقد الشَّرف بادىء ذي بدء، مطاط ما يكفي لخنق صوت كل مواطن أميركي لا يشارك الغالبية رأيها.

وأخيراً، أنا لم أحاول يوماً أن أصبح مواطناً أميركياً. مع ذلك، ثمة عشرات الأميركيين الذين يكسبون قوتهم اليومي في انكلترا لم يحاولوا يوماً أن يصبحوا رعايا بريطانيين؛ ومن بينهم، على سبيل المثال، مدير أميركي للمتروغولدين ماير، يكسب راتباً أسبوعياً يصل إلى آلاف الدولارات. وهو يعيش ويعمل في انكلترا منذ أكثر من ٣٥ عاماً من دون أن يصبح مع ذلك مواطناً بريطانياً، والإنكليز لم يسعوا يوماً إلى الخصام معه.

هذا التوضيح ليس اعتذاراً. فحين بدأتُ هذا الكتاب، تساءلت لماذا أكتبه. والأسباب عديدة، لكن فكرة الاعتذار ليست من بينها. وتلخيصاً لوضعي، أود أن أقول إني في جوٍّ زُمَر ضاغطة قديرة وحكومات خفية اجتذبتْ ضدي عداء بلد بكامله، وفقدتُ للأسف مودة الشعب الأميركي.

كان العرض الافتتاحي لفيلم **لايملايت (أضواء المسرح)** سيتم في الأوديون، في لايسستر سكواير. وكنت أتساءل مع بعض الخوف كيف سيجري استقبال الفيلم، لأنه لم يكن الكوميديا المألوفة على طريقة شابلن. وقبل العرض الافتتاحي، كان هنالك تقديم للصحافة. كان الزمن قد أعطاني الآن مسافة كافية تتيح لي رؤية الفيلم موضوعياً، ومن واجبي القول إن الفيلم أثَّر في نفسي. لم يكن ذلك نوعاً من النرجسية، لأن في وسعي تثمين بعض لقطات أفلامي وألا أحبَّ لقطات أخرى. وفي كل حال، أنا لم أبك إطلاقاً كما زعم بمداجاةٍ مراسلُ إحدى الصحف... وفي كل حال، لو أني بكيت حقاً فهذا حقي بالتأكيد. فإذا لم يتأثر المؤلف إزاء عمله، لا يمكنه أن يتوقع تأثُّر الجمهور. وبصراحة، أنا أقدِّر كوميدياتي أكثر مما يفعل الجمهور.

كان عرض **لايملايت** الافتتاحي مهرجاناً خيرياً حضرته الأميرة مارغريت. وفي اليوم التالي، كان العرض الأول المفتوح للجمهور. وعلى الرغم من فتور المجلات، ضرب الفيلم الرقم القياسي على صعيد الإيرادات، ومع أنه قوطع في أميركا، درَّ أكثر من أيٍّ من أفلامي.

قبل أن نغادر لندن إلى باريس، دعانا اللورد سترابولجي، أنا وأونا، إلى عشاء في مجلس اللوردات. كنت جالساً بالقرب من هربرت موريسون وفوجئت حين عرفت أنه، بوصفه اشتراكياً، يدعم سياسة الدفاع النووي. وقد قلت له إننا مهما زدنا من أهمية مفاعِلاتنا الذرية، ستبقى انكلترا دائماً هدفاً سريع العطب: فهي جزيرة صغيرة، ولن تكون الأعمال الانتقامية أكثر من تعزية طفيفة حين نكون تحولنا إلى هباء منثور. أنا على قناعة بأن أفضل استراتيجية للدفاع عن انكلترا هي الحياد المطلق، لأني أشك، في عصر الذرة، أن يجري انتهاك الحياد المطلق. لكن موريسون لم يكن يشاركني هذا الرأي على الإطلاق.

أنا مندهش إزاء عدد الناس الأذكياء الذين يؤيدون الأسلحة الذرية. فلقد التقيت في

عشاء آخر اللورد سالزبوري، وحين عبرت عن نفوري من الدفاع النووي، تولّد لدي شعور بأن سيادته استاء من ذلك كثيراً.

أعتقد أن الوقت قد حان لوضع موازنة للعالم كما أراه اليوم. إن التعقيدات المتزايدة للحياة الحديثة، والإيقاع المجنون الذي يميّز القرن العشرين تجعل المرء محاطاً بمؤسسات عملاقة تهدده من كل جانب، على شتى الأصعدة: السياسي، والعملي والاقتصادي. إننا نغدو ضحايا تشريط النفوس، والعقوبات والإباحات.

هذا الرحم الذي تركنا أنفسنا نتقولب فيه ناجم عن فقدانٍ للحدس الثقافي. لقد اندفعنا بصورة عمياء إلى البشاعة والتكدُّس، وفقدنا حسَّنا الجمالي. أما حس الحياة لدينا فَقَلَّه اشتهاءُ الربح والسلطة والاحتكار. لقد تركنا هذه القوى تحاصرنا من دون أن نهتم ولو بأدنى الحدود بالنتائج المخيفة التي قد يؤدي إليها ذلك.

لقد سلَّم العلم، المفتقد توجّهاً عقلانياً وحسَّ المسؤولية، أسلحة دمار للسياسيين والعسكريين بحيث يقبضون بأيديهم على مصير كل المخلوقات الحية على هذه الأرض.

إن فرط السلطة هذا المعطى لأناس موهوبين مسؤولية أخلاقية وكفاءة فكرية أقل ما يمكن القول بشأنهما أنهما غير مؤكدين، وفي الكثير من الحالات موضع جدال، يمكن أن ينتهي بحرب تستأصل كل حياة على سطح الأرض. ومع ذلك فنحن نسير قُدُماً بصورة عمياء.

لقد قال لي الدكتور روبرت أوپنهايمر ذات يوم: «إن الإنسان مدفوعٌ بالحاجة إلى المعرفة». وهذا جيد جداً، لكن الناس لا يهتمون في كثير من الحالات بالنتائج. ولقد كان الدكتور موافقاً معي على هذه النقطة. إن بعض العلماء يشبهون متديِّنين متعصِّبين، يندفعون إلى الأمام، ظانين أن ما يكتشفونه هو للخير دائماً وأن فعل إيمانهم العلمي يشكل أخلاقاً (بحد ذاته).

إن الإنسان حيوان يمتلك غرائز بقاء بدائية. وقد نَمَت مهارته أولاً، ومن ثم روحه. هكذا للتقدم العلمي سَبَقٌ مهمٌ على سلوك الإنسان الأخلاقي.

إن الغيرية تسير ببطء على حلبة التقدم البشري. إنها تتبع العلم متعثِّرةً، ولا يُسْمح لها بالتجلي إلا بضغط الظروف. والفقر لم تحدَّ منه الغيرية لدى الحكومات أو حبُّها للبشر، بل قوى المادية الديالكتيكية.

لقد قال كارليل: إن خلاص العالم سيأتي من الفكر الشعبي، لكن لبلوغ ذلك، يجب أن تضغط على الإنسان ظروف خطيرة.

هكذا إذ حطم الذرة يجد نفسه محشوراً ومجبراً على التفكير. إن لديه الخيار بين أن يدمر نفسه أو يعرف كيف يتصرف. إن حركة العلم بالذات تضطره لاتخاذ هذا القرار. وفي هذه الظروف، أنا مقتنع بأن غيريته سوف تتغلب في الأخير وبأن إرادة الخير لديه تجاه البشرية سوف تنتصر.

بعد مغادرتنا أميركا، كانت حياتنا تأخذ مساراً آخر. ففي روما وفي باريس، استقبلونا كأبطال ظافرين. دعانا الرئيس ڤنسان أوريول للغداء في الأيليزيه، ودعينا أيضاً إلى الغداء في سفارة إنكلترا. ثم رفعتني الحكومة الفرنسية إلى رتبة ضابط في جوقة الشرف، وفي اليوم ذاته، جعلتني جمعية المؤلفين والمؤلفين الموسيقيين الدراميين عضو شرف فيها. وتلقيت في هذا الصدد رسالة مؤثرة جداً من الرئيس روجيه ـ فرديناند هذا نصها:

«شكراً، مستر شابلن

إذا كان دُهش البعض من الدعاوة المثارة حول حضورك، فذلك لأنهم غير مطلعين على ما لدينا كلنا من الأسباب لتحيتك، والإعجاب بك، وحبّك؛ لأنهم أيضاً يسيئون الحكم على القيم الإنسانية؛ لأنهم لم يكلفوا أنفسهم مشقة إحصاء المنافع التي أغدقتها علينا على مدى أربعين عاماً، وتثمين قيمة دروسك التي لا تقدَّر بثمن، والنوعيّة التي لا تضاهى التي تتميز بها الأفراح والانفعالات التي منحتنا إياها؛ وباختصار، لأنهم ناكرون كثيراً للجميل.

ذلك أنك نِدٌّ لأعظم شخصيات هذا العالم، وعناوين فخرك تماثل تلك التي يمكن أن تتباهى بها الأسماء الأعظم مجداً وشهرة.

لا شك أن هناك عبقريتك بادىء ذي بدء. وكلمة عبقرية هذه، التي تُستعمل في غير موضعها أغلب الأحيان، تتخذ كامل معناها حين تُطلق ليس على ممثل هزلي رائع وحسب، بل كذلك على مؤلف، لكن أيضاً على مؤلف موسيقي، وعلى مخرج، و، أفضَلَ أيضاً، على رجل قلب ورجل خير. لأنك كل هذا، فضلاً عن بساطةٍ تسمو بك، وتطلِق بالصورة الأكثر طبيعية ذلك الحماس الذي تملك سرّ إثارته وتجديده من دون جهد، ومن دون حساب، عبر العفوية البسيطة التي تتحلى بها نفسٌ كريمة تتواصل مع نفس أناس هذا العصر، التي لا تقل قلقاً عن نفسك.

لكن العبقرية غير كافية لاستحقاق التقدير؛ كما أنها غير كافية لتوليد المحبّة. وإنما على المحبة يَحسُنُ الكلام حين تكون أنت موضوع الكلام.

لقد ضحكنا عند عرض «لايملايت»، وغالباً ما كان ضحكنا إلى حدود الاستلقاء، وبكينا ـ بدموع حقيقية ـ هي دموعك التي قدّمتها لنا هديّةً لا تقدَّر بثمن.

في الحقيقة، إن الأمجاد الحقيقية لا تُغتصب على الإطلاق؛ فليس لها من معنى، ومن ديمومة ومن ثمن إلا بمقدار ما تكون خيِّرةً. وهنا بالضبط يكمن نصرك، نصر شهامة إنسانية، عفوية، مباشرة، لا تربكها القواعد أو المهارات، لكنها ليست سوى فوحِ آلامك أنت، وأفراحك، وآمالك وحالاتِ يأسك، وفَيضِ كل ما هو مشترك بين كائنات هذا العالم الذين يتألمون فوق طاقتهم ويطلبون الرحمة، والذين يترصّدون في كل لحظةٍ حجةً لتشجيعٍ، لنسيانٍ، لهذه الضحكة التي لا تملك القدرة على الشفاء، إنما تملك الطموح فقط للتعزية. قد يخيَّل للمرء، لو كان جاهلاً بالحقيقة، أنك دفعت ثمن هذه الموهبة العجيبة التي تملكها، موهبة تسليتنا وملامسة قلوبنا على التوالي. إننا لنحزر ـ لا بل ندرك ـ كم تألمت أنت ومن أي

هموم وعذابات وُلِدَتْ كلُّ هذه التفاصيل التي تهز مشاعرنا بعمق والتي نَهَلْتَها من ينابيع حياتك بالذات.

ذلك أن لديك ذاكرة لا تخون.

ذلك أنك مخلص لصور طفولتك.

ذلك أنك لم تنس شيئاً من مصائبك وأحزانك، وأردت أن يُعفى الآخرون من العذاب الذي تعرَّضت له، أو أنك تريد على الأقل أن يُعطى الجميع أسباباً للأمل. أنت لم تخن صباك العَقوق ولم يتمكن المجد من فصلك عن الماضي. وهذه أشياء تحصل، للأسف.

وهذا الإخلاص لذكرى الطفولة ربما يكون ميزتك الأولى والأفضل بين مواردك وثرواتك، والسبب الأعظم الذي تعبدك لأجله الجماهير. إنها حساسة حيال العابك المتنوعة جداً. يبدو أنك على تماسٍّ دائم مباشر مع قلوب الآخرين؛ وليس ثمة ما هو أكثر تناغماً، في الحقيقة، من هذه الوحدة بين المؤلف، والكوميدي، والمخرج الذي توضع كل مواهبه مجتمعة في خدمة الخير وما هو إنساني، على وجه الحصر.

وهذا هو السبب في أن عملك شهم على الدوام. فهو لا يربك نفسه بالنظريات ـ ويكاد يربكها بالتقنية ـ. إنه اعتراف دائم، إسرارٌ، صلاة، وكلٌّ متواطىءٌ لأنه يفكر ويشعر مثلك.

لقد تحكَّمْتَ بالنقد بالذات، بفضل موهبتك وحدها، لأنك عرفت كيف تغويه. والمهمة صعبة. فهي لن تعترف أبداً بأنك حساس أيضاً حيال مفاتن الميلودراما القديمة وقريحة فيدو المفعمة بالحيوية. ومع ذلك، هذا أنت، فضلاً عن بعض اللطافات التي تجعلنا نفكر بموسيه. ومع ذلك، فأنت لا تقلد أحداً ولا تشبه أحداً. وهذا أيضاً سر مجدك المستحَق.

إن جمعيتنا، جمعية المؤلفين والمؤلفين الموسيقيين الدراميين، يشرِّفها اليوم ويفرحها أن تستقبلك. وهكذا نضيف إكراهاً خلال لحظاتٍ إلى الإكراهات التي تتحملها ببسالة. لقد كنا نصر كثيراً على استقبالك، يا مستر شابلن، وعلى أن نقول لك صداقتنا وإعجابنا. ثم أيضاً، عندنا، أنت حقاً في بيتك.

ذلك أن القصة، في أفلامك، هي من وضع المستر شابلن.

والموسيقى أيضاً، والإخراج.

والممثل هدية إضافية، رائعة هي الأخرى.

معك إلى جانبك مؤلفو فرنسا، مؤلفو مسرحيات وأفلام ـ مؤلفو الموسيقى، والمخرجون، كل الذين يطمحون مثلك، بطريقتهم، وبالحماس نفسه، وباعتزاز أيضاً ولقاءَ عناءٍ قاس سَبَق أن خبرته أنت، إلى التأثير في الجماهير أو تسليتها، وإلى أن يعالجوا لأجلها الموضوعات السامية، سعادة الحياة وبؤسها فضلاً عن الخوف من فقد الحب وعن الشفقة أيضاً حيال المصائر الجائرة والرغبة في إصلاحها، في السلام، وفي الأمل، وفي الإخاء.

شكراً، مستر شابلن».

روجيه ـ فردينان

كـان هناك في العـرض الافتتاحي لفيلم **لايمـلايت** جمهور مختـار جـداً، يضم وزراء فرنسيين وسفراء أجانب. بيد أن سفير الولايات المتحدة لم يكن هناك.

كنا ضيوف الشرف، في الكوميدي فرانسيز، في عرض خاص لمسرحية موليير، **دون جوان**، مثَّل فيه أفضل ممثلي فـرنسا. في تلك الليلة، كـانت ينابيـع الپاليـه رويال مضـاءة، واستقبلنا، أنا وأونا، تلامذة الكوميدي فرانسيز، في الزيّ الموحد للقرن الثامن عشر، رافعين شمعدانات مضاءة، وواكبونا حتى البلكون الذي كانت مجتمعةً فيه أجمل نساء أوروبا.

وفي روما، لقينا الاستقبال ذاته. فلقد غمروني بآيات التكريم، والأوسمة، واستقبلني الرئيس والوزراء. وقد حصلت في تلك المناسبة حادثةٌ مسلية أثنـاء عرض **لايمـلايت**. فلقد اقترح وزير الفنون الجميلة أن أمر عبر مدخل الفنانين تفادياً للجمهور، ووجدت اقتراحه غريباً بعض الشيء وقلت له إذا كان لدى الناس الصبر على الانتظار واقفين أمام المسرح من أجـل رؤيتي، فبإمكاني على الأقل أن أكون من التهذيب بحيث أمر من الجهة الأمامية وأظهر نفسي لهم. وقد بدا لي أنه كان على وجه الوزير تعبير مثير للفضول وهو يكرر أنه قد يجنّبني الكثير من الإزعاجات أن أمر من الخلف. لكن بما أني لم أكن أريد سماع أي شيء، لم يصرّ على ذلك.

في ذلك المساء، كان العرض الافتتاحي باهراً كما الحال دائماً في العروض الافتتاحية. حين وصلنا في الليموزين، كانت حبالٌ تبقي الجمهور إلى الجهة الأخرى من الشارع، بعيداً جداً، كما تخيَّل لي. وبكل الـظرافة واللطف اللذين كنت قـادراً عليهما، نـزلت ودرت حول السيارة حتى منتصف الشارع، وأمام سلسلة من البروجكتـورات، رفعتُ ذراعيَّ على طريقـة دوغول، وعلى وجهي ابتسامة كبيرة. وفي الحال بدأ ينهمر عليّ الملفوف والبندورة. لم أكن أعرف تماماً ما هو ذلك، وما الذي حـدث، إلى حين سمعت صديقي الإيـطالي، المترجم، يقول وهو يئنّ خلفي: «من قال إن ذلك يحـدث في بلدي». بيد أنـه لم يُصبني أي مقذوف، ودخلنا المسرح مسرعين. وقد أدهشني عندئذ بالذات دعابةُ الـوضع، ولم أتمكن من الامتنـاع عن الضحك الشديد. وحتى صديقي الإيطالي ضحك أيضاً.

علمنا في ما بعد أن الفاعلين كانوا شباناً فاشيين جدداً. ويلزمني القول إنه لم يكن هناك عنف حقيقي في بادرتهم: كان ذلك رمزياً بالأحـرى. وقد جـرى توقيف أربعـة من بينهم في الحال، وسألتني الشرطة إذا كنت أرغب في الشكـوى ضدهم، فقلت: «بـالطبـع لا، فهؤلاء ليسوا سوى صِبْيَة». كانت أعمارهـم تتراوح بالفعل بين الرابعة عشرة والسادسـة عشرة، وانتهت القضية عند هذا الحد.

قبل سفري من بـاريس إلى روما، كـان لوي أراغـون، الشاعـر ومديـر مجلة **Lettres Françaises**، قـد تلفن ليقول لي إن جـان بول سـارتر وبيكـاسو يـودان التقائي، فـدعوتهم

للعشاء. وقد اقترحوا مكاناً هادئاً، وتعشينا إذاً في شقتي في الفندق. وحين علم بالأمر هاري كروكر، مسؤول الدعاوة لديَّ، كاد يصاب بنوبة.

ـ سوف يبدِّد هذا كل جهودي مـذ غادرنا الولايات المتحدة.

ـ لكن يا هاري، نحن في أوروبا لا في الولايات المتحدة، وهؤلاء السادة هم ثلاث من الشخصيات العالمية الكبرى.

كنت قد اهتممت شديد الاهتمام بألاّ أكشف لهاري أو لأي غيره أني لا أنوي العودة إلى أميركا، لأني كنت لا أزال أملك هناك أملاكاً لم أتصرف بها بعد. وقد كاد هاري يقنعني بأن لقاء مع أراغون وبيكاسو وسارتر هو مؤامرة لإطاحة الديمقراطية في الغرب. بيد أن قلقه لم يمنعه من التأخر لجعلهم يوقعون ثلاثتهم أوتوغرافه. لم يكن هاري مدعواً إلى العشاء، فقد قلت له إننا ننتظر بعد قليل وصول ستالين وإني لا أريد أي دعاوة في هذا الصدد.

كنت أتساءل كيف ستمضي السهرة. كان أراغون الوحيد الذي يتكلم الإنكليزية، والحديث عن طريق مترجم يشبه قليلاً الرمي على مرمى بعيد وانتظار النتيجة.

أراغون رجل وسيم ملامحه واضحة تماماً. ولبيكاسو هيئة ساخرة ومليئة بالدعابة، ويمكن أن يبدو كبهلوان أو كمهرج بصورة أسهل مما كرسام. أما سارتر فله وجه مستدير، ومع أن ملامحه لا تتحمل التحليل، فهي تتميز بجمال مرهف وحساسية أكيدة. لم يقل سارتر الشيء الكثير مما يدور في فكره. وفي ذلك المساء، بعد انتهاء السهرة، أخذنا بيكاسو إلى مرسمه على الضفة الشمالية، الذي لا يزال يستخدمه إلى الآن. وفيما كنا نتسلق الدرج، رأينا لافتة على باب الشقة التي تحته، كتب عليها: «هذا ليس مرسم بيكاسو: اصعدوا طابقاً آخر، من فضلكم».

وصلنا إلى الكوخ الأكثر كآبة، حيث شاترتون ذاته ما كان أحب أن يموت. كان يتدلى من مسمار مدقوق في عارضة خشبية مصباح كهربائي في طرف سلك، سمح لنا بأن نرى سريراً حديدياً عتيقاً مرتجّاً وموقداً تالفاً. وإلى الحائط كدسة من اللوحات القديمة التي علاها الغبار. وقد تناول واحدة منها: لوحة لسيزان ليس ثمة أجمل منها. ثم أخرى، فثالثة. ولا بد أننا تأملنا في ذلك المساء خمسين رائعة. وقد تعرضت لإغراء أن أعرض عليه مبلغاً كبيراً مقابلها جميعاً. . . لا لشيء إلا لتخليصه من كل تلك الفوضى. في تلك «القيعان» على طريقة غوركي، كان هنالك منجم من الذهب.

الفصل الواحد والثلاثون

بعد عرضَي الافتتاح في باريس وروما، عدنا إلى لندن حيث بقينا عدة أسابيع. كان لا يزال عليَّ أن أجد بيتاً لعائلتي، وقد نصحني أحد الأصدقاء بسويسرا. وبالتأكيد، كان بودي أن أستقر في لندن، لكننا تساءلنا إذا كان الطقس يناسب الأولاد؛ وفي تلك الفترة كنا قلقين، بصراحة، بسبب القيود على العملات.

وهكذا حزمنا حقائبنا، ليس من دون بعض الكآبة، ووصلنا مع الأولاد الأربعة إلى سويسرا. وقد أقمنا مؤقتاً في فندق بوريفاج في لوزان، على ضفة البحيرة. كان ذلك هو الخريف وكان الطقس حزيناً، لكن الجبال كانت رائعة.

أمضينا أربعة أشهر ونحن نفتش عن منزل يلائمنا. وقد أعلنت أونا، التي كانت تنتظر ولدها الخامس، إعلاناً جازماً أنها لا تريد العودة إلى فندق بعد خروجها من العيادة. وهذا الإلحاح هو الذي جعلني أستعجل العثور على شيء ما، وقررت أخيراً استئجار قُصَيْر بان الريفي، في بلدة كورسييه، فوق ڤيڤاي بقليل. وقد ذُهلنا حين اكتشفنا أن المِلكية تضم حوالي الخمسة عشر هكتاراً، مع بستان يعطي بين ما يعطي كرزاً أسود مكتنزاً، وخوخاً أخضر لذيذاً، وتفاحاً، وإجاصاً؛ ومَبْقلةً ينمو فيها الفريز وهليون رائع، فضلاً عن الذرة التي نحجُّ إليها حجّاً خاصاً حين يأتي موسمها، أيّاً يكن المكان الذي نحن فيه. وأمام المصطبة، يمتد مرجٌ مساحته هكتاران مع أشجار كبيرة رائعة تحيط بها الجبال والبحيرة البعيدة.

هذا وقد وجدت مِلاكاً يتمتع بالكثير من الكفاءة: الآنسة راشيل فورد، التي جهَّزت المنزل واهتمت بعد ذلك بأعمالي، ومدام بورنييه، سكرتيرتي السويسرية باللغة الإنكليزية، التي دقَّت هذا الكتاب مراراً على الآلة الكاتبة.

أحسسنا ببعض الرهبة إزاء ضخامة المنزل ومهابته، ورحنا نتساءل إذا كان يتناسب مع مداخلينا، لكن بعد أن قال لنا المالك كم تبلغ نفقات الصيانة، وجدنا أن ذلك ضمن حدود موازنتنا. وهكذا جئنا نسكن في بلدة كورسييه، التي يبلغ عدد سكانها ١٣٥٠ شخصاً.

لزِمَنا عامٌ على الأقل لكي نعيِّن اتجاهنا. وقد ذهب الأولاد، لبعض الوقت، إلى مدرسة بلدة كورسييه. كانت تلك مشكلة حقيقية بالنسبة إليهم، إذ باتوا فجأة يعلمونهم كل شيء بالفرنسية، وكنا نتساءل أي تأثير نفسي يمكن أن يكون لذلك عليهم. لكنهم سرعان ما بدأوا يتكلمون اللغة بطلاقة، وكان مشهداً مؤثراً أن نرى بأي سهولة كانوا يتكيَّفون مع نمط الحياة في سويسرا. حتى كاي كاي وبيني، ممرضتا الأولاد، انصبَّتا على اللغة الفرنسية.

بدأنا عندئذ نقطع كل الروابط التي تشدنا إلى الولايات المتحدة. وقد تطلب ذلك وقتاً طويلاً. ذهبتُ إلى القنصل الأميركي وأعدتُ إليه الإذن بالعودة قائلاً له إنني تخليت عن إقامتي في الولايات المتحدة.

ـ لن تعود، يا تشارلي؟

ـ كلا، قلتُ بلهجة تقارب الاعتذار ـ فلقد بتّ طاعناً بعض الشيء في السن بحيث لم أعد أتحمل كل هذا العبث.

لم يعلِّق على ذلك بتاتاً، لكنه أجاب:

ـ أخيراً، يمكنك العودة دائماً بتأشيرة عادية إذا شئت.

فابتسمت وهززت رأسي:

ـ قررت الاستقرار في سويسرا.

تصافحنا وبقيت الأمور عند هذا الحد.

وقد قررت أونا في ما بعد التخلي عن مواطنيتها الأميركية. لذا فقد أبلغت بذلك السفارة الأميركية خلال زيارتنا للندن، إلا أنهم قالوا لها إن ذلك يتطلب على الأقل ثلاثة أرباع الساعة للقيام بالشكليات. وقد قلت لها:

ـ هذا سخيف! وأجد من العبث أن يتطلب ذلك كل هذا الوقت. أنا ماضٍ معك.

حين وصلنا إلى السفارة، كانت كل شتائم الماضي وافتراءاته قد انتفخت في نفسي مثل بالون على وشك الانفجار. وقد سألت بصوت أجشّ أين هو مكتب خدمات الهجرة. كانت أونا متضايقة جداً، وقد فُتح باب أحد المكاتب، وظهر رجل وقال:

ـ صباح الخير، تشارلي، هل تود العودة أنت وزوجتك؟

لا بد أنه قرأ أفكاري، إذ كان أول ما قاله:

ـ يجب أن يعرف الأميركي الذي يتخلى عن مواطنيته ما الذي يفعله، وأن يكون ممتلكاً لكامل رشده. لذا لدينا أصول الاستجواب هذه: من أجل حماية الوطن.

وبالطبع، وجدتُ ذلك عاديّاً.

كان رجلاً يقارب الستين، وقد قال وهو ينظر إليَّ نظرة تأنيب:

ـ لقد رأيتك في دينفر، عام ١٩١١، في مسرح آمبرس القديم.

وهنا استرخيتُ، طبعاً، وتحدثنا عن الزمن الطيّب القديم.

بعد إنهاء الشكليات المطلوبة، وتوقيع آخر ورقة وتوديع بعضنا بعضاً بصورة ودّية، أحسست بشيء من الحزن لكوني بقيت قليل التأثر إلى ذلك الحد.

في لندن، نرى بين الحين والآخر أصدقاء، من بينهم سيدني برنشتاين، وإيڤور مونتاغو، والسير إدوارد بيدنغتون ـ بهرنز، ودونالد أوغدن ستيوارت، وإيلا وينتر، وغراهام غرين، وج. ب. بريستلي، وماكس راينهاردت ودوغلاس فيربانكس جونيور. وحتى إذا كان هنالك بعض الأصدقاء الذين نادراً ما نراهم، من المشجِّع أن نفكر فيهم، ومن الممتع أن يعرف المرء أن لديه مَرْسىً في مكان ما إذا كان يود بلوغ ميناء ما.

خلال إحدى زياراتنا للندن، تلقينا رسالة تُبلغنا أن خروتشوف وبولغانين يودان التقاءنا في استقبال تقيمه السفارة السوفياتية في الكلاريدج. حين وصلنا، كانت القاعة الكبرى مزدحمة بحشدٍ شديد الإثارة. وقد قام بدور الدليل لنا عضو في السفارة السوفياتية، فبدأنا نشق طريقنا في ذلك الزحام. فجأة، وإذ كنا نصل من الوجهة المعاكسة، لمحنا خروتشوف وبولغانين، اللذين كانا يحاولان بدورهما أن يشقّا طريقاً لهما، وقد كانت واضحة تعابير النفور على وجهيهما، لذا تخلّيا عن المحاولة وتقهقرا إلى الخلف.

كان يمكن أن نرى أن خروتشوف لا تنقصه روح الدعابة، حتى في الأوضاع الصعبة. وفيما كان يحاول الوصول إلى باب للخروج، ناداه دليلنا: «خروتشوف!» لكنه أفهمه بحركة من يده أنه لم يعد يحتمل. لكن صاحبنا صاح به: «خروتشوف، هذا تشارلي شابلن!». وهنا توقف بولغانين وخروتشوف، كلاهما، واستدارا والإشراقة على وجهيهما، ومن واجبي أن أقول إني شعرت بالعُجْب. ووسط ذلك المد البشري، قدّموا بعضنا لبعض. وبواسطة مترجم، قال لي خروتشوف كم يحب الشعب الروسي أفلامي، ثم قدموا لنا الڤودكا. بدا لي كما لو أنهم أفرغوا حُقّ فلفلٍ كاملاً فيها، لكن أونا وجدتها لذيذة.

وقد نجحنا في تشكيل حلقة صغيرة ليتمكنوا من تصويرنا معاً. وبسبب الضجة، لم أتمكن من أن أقول أي شيء.

ــ فلننتقل إلى الغرفة المجاورة، قال خروتشوف.

وحزر الجمهور نوايانا وتلت ذلك معركة مواجهة، وبمساعدة أربعة حرّاسٍ شخصيين، قُذفنا إلى صالون خاص. وحين صرنا لوحدنا، تنفّسنا كلنا، ومعنا خروتشوف، الصُّعداء. بات في وسعي الآن تجميع أفكاري والكلام. كان خروتشوف قد ألقى خطاباً رائعاً، مليئاً بالنوايا الطيبة، لدى وصوله إلى لندن، وكان ذلك شعاع شمس حقيقياً وقلتُ له ذلك، موضحاً أن ذلك أعطى آمالاً بالسلام لملايين الناس عبر العالم.

وقاطعنا مراسل صحفي أميركي قال:

ــ يبدو، يا سيد خروتشوف، أن ابنك خرج الليلة الماضية وتسلّى جيداً.

فلاحت على وجه خروتشوف ابتسامة متسلية ومتضايقة وقال:

ــ إن ابني شاب جدّي، يبذل جهوداً قاسية ليصبح مهندساً... لكني آمل أن يتسلى بين الحين والآخر.

بعد دقائق قليلة، أُعلن أن المستر هارولد ستاسن موجود هناك ويود رؤية السيد خروتشوف. فالتفت نحوي بشيء من السخرية وقال:

ــ ألا يزعجك ذلك... فهو أميركي؟

ــ «لا عليك»، قلتُ ضاحكاً.

بعد لحظات، جرى إدخال المستر والمسز ستاسن والسيد والسيدة غروميكو عبر شق الباب. وقد رجاني خروتشوف عندئذ أن أعذره، قائلاً إنه يعود بعد دقائق، وانسحب إلى إحدى زوايا الغرفة ليتناقش مع ستاسن وغروميكو.

وقد سألت السيدة غروميكو، من أجل مواصلة الحديث، إذا كانت ستعود إلى روسيا، فقالت إنها عائدة إلى الولايات المتحدة. فلفتَ نظرها إلى أنها وزوجها هناك منذ زمن طويل، فضحكت، متضايقة بعض الشيء.

ــ هذا لا يزعجني (قالت)، فأنا أستمتع هناك جيداً.

قلت:

ــ لا أعتقد أن أميركا الحقيقية هي في نيويورك أو على ساحل المحيط الهادىء؛ أنا شخصياً أفضل الميدل وست إلى أبعد الحدود، مناطق مثل داكوتا الشمالية والجنوبية، والمينيسوتا، وسان بول. فثمة يعيش الأميركيون الحقيقيون، في اعتقادي.

ــ أوه! (هتفت فجأة السيدة ستاسن) يسعدني كثيراً أن تقول ذلك! فأنا وزوجي من مينيسوتا في الأصل. (وضحكت بعصبية وكررت) يسعدني كثيراً أن تقول ذلك!

كانت تتخيل بلا شك أني سأندفع في خطبة طويلة عن الولايات المتحدة، وأن السهام والضربات التي تلقيتها من ذلك البلد قد تركت في نفسي مشاعر مريرة قاسية. لكن لم تكن تلك هي الحال، وحتى لو كانت الأمور هكذا، فأنا لست إنساناً مستعداً لصبّ جام غضبي على سيدة فاتنة كالمسز ستاسن.

شعرت أن خروتشوف والآخرين منشغلون لوقت طويل، لذا نهضنا، أنا وأونا؛ وحين رآنا خروتشوف ماضيين، ترك ستاسن وجاء يودعنا. وفيما كنا نتصافح، لمحت ستاسن؛ كان قد تراجع إلى الحائط وراح يتطلع أمامه مباشرة بصورة شاردة. وقد قلت إلى اللقاء للجميع، من دون أن آخذ ستاسن بالحسبان، وهو الأمر الذي كان يبدو، إذا أخذنا الظروف بالاعتبار، الشيء الأكثر دبلوماسية الذي يجب القيام به. لكن استناداً إلى ذلك اللقاء القصير، وجدته جذّاباً.

في مساء اليوم التالي، كنا، أنا وأونا، نتعشى لوحدنا في مطعم شواء سافوي. وفيما كنا نتناول التحلية، وصل السير ونستون تشرشل والليدي تشرشل وجاءا إلى طاولتنا. لم أكن رأيته

ولا كنت تلقيت أخباراً عنه منذ عام ١٩٣١، لكن بعد عرض الافتتاح الخاص بفيلم لايملايت في لندن، تلقيت رسالة من الفنانين المتحدين، موزعينا، طالبين السماح بعرض الفيلم أمام السير ونستون في بيته. وبالطبع، كنت سعيداً بالموافقة. وبعد أيام، أرسل إليَّ بكتاب شكر لطيف، ليقول لي فيه كم أحب الفيلم.

كان السير ونستون منتصباً إذاً هناك أمام طاولتنا، وهو يتطلع إلينا، وقال:

ــ إذاً!

ظننت أني أميّز في تلك الـ «إذاً!» معنىً من معاني الاستنكار. ولقد نهضت في الحال، متهللاً، وقدمتُ إليه أونا التي كانت تستعِد للانسحاب.

بعد أن غادرت أونا، سألتهما إذا كان فى وسعي أن آخذ القهوة معهما. وقد قالت الليدي تشرشل إنها قرأت في الصحف أنني التقيت خروتشوف.

فقال السير ونستون:

ــ لقد تفاهمت دائماً مع خروتشوف.

لكني شعرت مع ذلك أن السير ونستون عاتب عليّ. فلا شك أن أشياء كثيرة حصلت منذ عام ١٩٣١. كان قد أنقذ انكلترا بفضل شجاعته التي لا تُقهَر وخطبه الملهمة؛ لكنني كنت أعتبر أن خطابه في فولتن عن «الستار الحديدي» زاد من حدة الحرب الباردة.

ووصل بنا الحديث إلى فيلمي لايملايت. وقد قال في نهاية المطاف:

ــ أرسلت إليك منذ عامين رسالة أهنئك فيها على فيلمك فهل تلقيتها؟

ــ «آه! أجل»، قلت بحماس.

ــ إذاً لماذا لم تُجب؟

فقلت بلهجة الاعتذار:

ــ لم أعتقد أن ذلك يتطلب جواباً.

لكنه لم يكن رجلاً يسهل خداعه، فغمغم:

ــ هِمْمْمْمْ! ظننت أن ذلك كان نوعاً من اللوم.

ــ آه! كلا، ليس الأمر كذلك بالتأكيد.

ــ مهما يكن (أضاف ليضع حداً للنقاش)، أنا أحب أفلامك دائماً.

لقد أعجبني كثيراً تواضع هذا الرجل العظيم الذي تذكر رسالة بقيت من دون جواب قبل عامين. لكنني لم أؤيد سياسته في يوم من الأيام. كان تشرشل يقول: «لسنا هنا للإشراف على تفكيك الإمبراطورية البريطانية» وربما هذه جملة جميلة، لكنه تصريح سخيف بمواجهة الوقائع المعاصرة.

ليس هذا التفكيك فعل محرضين سياسيين، أو جيوش ثورية، أو دعاويين شيوعيين، أو

مثيرين للفتن أو خطباء من الأوباش. فالمتآمرون هم هؤلاء الصحفيون العالميون ـ الراديو، والتلفزيون والسينما ـ والسيارة والجرّار، والاختراعات العلمية، وتعاظم السرعة والمواصلات. هؤلاء هم الثوريون المسؤولون عن تفكيك الإمبراطوريات».

بعد عودتي إلى سويسرا بقليل، تلقيت رسالة من نهرو، متلازمة مع كلمة تقديم لليدي مونتباتن. كتبت تقول: إنها واثقة من أن لدي نقاطاً عديدة مشتركة مع نهرو. كان ماراً بكورسيه وربما نستطيع الالتقاء. وبما أنه كان يجري لقاءه التداولي السنوي مع السفراء في لوسرن، أبلغني أنه سيكون من دواعي سروره الشديد إذا أمكنني المجيء لقضاء الليل هناك، ففي اليوم التالي يُنزلني في قُصَير بان الريفي. وقد مضيت إذاً إلى لوسرن.

تفاجأت إذ رأيت رجلاً قصير القامة مثلي. وكانت ابنته، المسز غاندي، هناك أيضاً، وهي امرأة لطيفة، ورزينة. وقد بدا لي نهرو رجلاً متبدل المزاج، ومتقشفاً وحساساً، متمتعاً بروح عظيمة التيقظ والرهافة. في البداية، بقي متحفظاً بعض الشيء، إلى حين غادرنا لوسرن معاً إلى قُصَير بان الريفي الذي دعوته للغداء فيه، فيما كانت ابنته تنتقل بواسطة سيارة أخرى، لأنها كانت ذاهبة إلى جنيف. وقد دار بيننا خلال الطريق نقاش مشوِّق وحار. حدثني بالكثير من التقدير عن اللورد مونتباتن، الذي قام بوصفه نائب الملك في الهند بعمل مرموق هناك، إذ تولى تصفية المصالح البريطانية.

سألته ما هي الوجهة الأيديولوجية التي ستأخذها الهند، فأجابني: «أياً تكن، سوف تكون لأجل تحسين أوضاع الشعب الهندي»، وأضاف أن خطة خمسية هي قيد التنفيذ. وتكلم خلال الرحلة بحماسة واندفاع، في حين كان سائقه يسير بسرعة ١٢٠ كلم في الساعة تقريباً، مندفعاً في طرقات جبلية ضيقة وبالغاً فجأة منعطفات حادة جداً. كان نهرو متحمساً للعرض الذي كان يقدمه لي عن سياسة الهند، لكن يلزمني الاعتراف أني لم أتمكن من متابعة نصف حديثه لأني كنت منشغلاً بأسلوب قيادة سائقه. ووسط صيحات الدواليب وضربات المكبح التي كانت تدفع بنا إلى الأمام، كان نهرو يتابع حديثه برباطة جأش. ولله الحمد، إذ أخذنا استراحة حين اضطرت السيارة للتوقف على منعطفٍ كانت ابنته ستغادرنا عنده. وقد ظهر فيه عندئذ بالذات الأب الحنون والعطوف، إذ شد ابنته بين ذراعيه وهو يقول لها بحنان: «انتبهي لنفسك»، وهي كلمات كانت بدت أكثر ملاءمة لو خرجت من فم ابنته مخاطبةً والدها.

خلال الأزمة الكورية، وفيما العالم يحبس أنفاسه على حافة الهاوية، تلفنت سفارة الصين لتسأل إذا كنت أسمح بعرض خاص لأضواء المدينة في جنيف لشو إن لاي، الذي كان آنذاك القطب الذي سيتقرر حوله استمرار الحرب أو السلم.

في اليوم التالي، دعانا رئيس الوزراء للعشاء معه في جنيف. وقبل سفرنا إلى جنيف، تلفن سكرتير رئيس الوزراء ليقول: إن سعادته قد يتأخر بعض الوقت، لأن حادثاً غير متوقع حدث خلال المؤتمر، وأنه سينضم إلينا لاحقاً.

حين وصلنا، فوجئنا بشو إن لاي ينتظرنا على درج مدخل مكان إقامته ليستقبلنا، وقد

كنت مستعجلاً، كباقي الحاضرين، لمعرفة ما الذي حدث في المؤتمر، فسألته عن الموضوع. فربَّت على كتفي بطريقة ناعمة وقال:

ـ لقد سُوّي كل شيء حبّياً، قبل خمس دقائق.

كنت قد سمعت روايات عديدة مثيرة للاهتمام حول الطريقة التي دُفِع بها الشيوعيون، في الثلاثينات، إلى داخل الصين، وكيف أعاد البعض تنظيم أنفسهم تحت راية ماوتسي تونغ وبدأوا المسيرة الطويلة إلى بكين، متعافين من الضربات التي سبق أن وجهت إليهم كلما تقدموا أكثر فأكثر. لقد أمَّنت لهم تلك المسيرة دعم ستمائة مليون صيني.

روى لنا شو إن لاي في ذلك المساء نادرة مؤثرة حول دخول ماوتسي تونغ الظافر إلى بكين. كان هناك مليون صيني لأجل استقباله، وقد أقيمت منصة كبيرة على ارتفاع خمسة أمتار في نهاية ساحة واسعة، وحين صعد الدرجات التي توصل إليها ظهر أعلى رأسه أولاً للجمهور، لأن الدرج كان مقاماً في الخلف، وانبثق زئير الترحيب من حناجر مليون إنسان، وراح يتعاظم كلما ظهرت قامته المتوحِّدة أمام أعين الجميع، وحين رأى ماوتسي تونغ، فاتح الصين، كل هذا الحشد، توقف لحظةً، ثم أمسك وجهه بكلتا يديه وأجهش بالبكاء.

كان شو إن لاي قد قاسمه المحن والآلام في تلك المسيرة المشهورة عبر الصين، ومع ذلك حين كنت أنظر إلى ذلك الوجه الوسيم القوي، كان يذهلني بهدوئه وفتوّته. وقد أخبرته أن المرة الأخيرة التي ذهبت فيها إلى شانغهاي كانت عام ١٩٣٦.

ـ آه! نعم (قال بلهجة حالمة)، كان ذلك قبل المسيرة.

ـ عجباً! لم يعد أمامكم الآن مكان بعيد تذهبون إليه، قلت ممازحاً.

على العشاء، شربنا الشامبانيا الصينية (غير رديئة)، وكما لدى الروس، شربنا العديد من الأنخاب. وشربتُ أنا واحداً لمستقبل الصين وقلت إني أنضم إليهم من كل قلبي، على الرغم من أنني لست شيوعياً، في أملهم وفي رغبتهم بحياة سعيدة للشعب الصيني وجميع الشعوب.

في ڤيڤاي، بات لدينا أصدقاء جدد، من بينهم السيد آميل روسييه والسيد ميشال روسييه وعائلتاهما، وكلهم مشغوفون بالموسيقى. وبواسطة آميل تعرفت إلى كلارا هاسكيل، عازفة البيانو. كانت تسكن في ڤيڤاي، وكل مرة جاءت فيها كلارا إلى المدينة، كانت هي والعائلتان روسييه تأتي إلى العشاء، ثم كانت كلارا تعزف لنا بعد ذلك. ومع أنها كانت قد تجاوزت الستين، فلقد كانت في أوج عملها الفني، وحققت النصر سواء في أوروبا أو في أميركا. لكن في عام ١٩٦٠، انزلقت فيما هي تنزل من القطار في بلجيكا، ونقلت إلى المستشفى حيث توفيت.

غالباً ما أسمع تسجيلاتها، الأخيرة منها قبل موتها. وقبل أن أكبّ على المسودة السادسة من هذه المخطوطة، وضعت الكونشرتو الثالث لبيتهوفن، مع كلارا إلى البيانو وماركيفيتش

كقائد أوركسترا: كان ذلك في نظري مثالاً بالذات لعمل فني عظيم يقترب أكثر ما يمكن من الحقيقة المطلقة، وقد وجدت فيه مصدر تشجيع قيِّماً لكي أنهي كتابي.

لو لم نكن منشغلين جداً بعائلتنا، لكنا أمضينا في سويسرا حياة اجتماعية حافلة جداً، لأننا كنا نسكن قريباً من ملكة أسبانيا ومن الكونت والكونتة شيڤرو دانتريغ، الذين كانوا لطيفين دائماً معنا، وثمة عدد كبير من الكتاب ونجوم السينما يسكنون في الجوار. ونحن نرى غالباً جورج وبنيتاساندرز، ونويل كوارد جارٌ لنا أيضاً. وفي الربيع، يأتي أصدقاء كثيرون من انكلترا أو أميركا لزيارتنا. وغالباً ما يأتي ترومان كابوث، الذي يعمل في سويسرا بين الحين والآخر، لرؤيتنا. وفي عطلة الفصح، نصطحب الأولاد إلى إيرلندا الجنوبية، وهي رحلة تنتظرها كل العائلة بنفاد صبر، كل عام.

في الصيف، نتعشى بالشورت على المصطبة، ونبقى إلى العاشرة نتأمل غروب الشمس. وغالباً ما يخطر ببالنا فجأة أن نذهب إلى لندن أو باريس، وأحياناً إلى البندقية أو روما، فهذه المدن جميعاً لا تبعد عنا أكثر من ساعتين.

في باريس، غالباً ما يستقبلنا بول ـ لوي ڤييّه، صديقنا العزيز جداً، الذي يدعو كل العائلة في آب/أغسطس لقضاء شهر في لارين جانّ، مِلكيته الرائعة على البحر المتوسط، حيث يمكن أن يسبح الأولاد ويقوموا بالتزلج على الماء ما طاب لهم ذلك.

سألني بعض الأصدقاء إذا كنت أفتقد الولايات المتحدة، أو نيويورك. وبصراحةٍ كاملة أقول لا. فأميركا تغيرت، ونيويورك أيضاً. إن الأحجام الهائلة التي أخذتها المؤسسات الصناعية، والصحافة والتلفزيون والدعاوة قطعتني بالكامل عن الفهم الأميركي للحياة. فما يلزمني إنما هو الجانب الآخر من المدالية، حسٌّ بالحياة الشخصية أكثر ببساطة، لا الجادّات التفاخرية أو المباني الهائلة التي تذكِّر دائماً بالأعمال الكبرى ونجاحاتها الضاغطة.

لزمني أكثر من عام للتوصل إلى تصفية كل مصالحي في الولايات المتحدة. كانت مصلحة الضريبة الأميركية تريد أن تفرض عليّ ضرائب عن كل ما درّه عليّ لايملايت في أوروبا حتى عام ١٩٥٥، زاعمةً أني كنت لا أزال مقيماً في أميركا مع أنهم منعوني من العودة إلى أراضي الولايات المتحدة. ولم يكن لي حق في المراجعة القانونية، لأن محاميّ الأميركي أوضح لي أن فرصي للتمكن من العودة إلى الولايات المتحدة للدفاع عن النفس ضئيلة جداً.

لما كنت قد حللت كل شركاتي الأميركية، وصفّيت كل مصالحي هناك، كان في وسعي السماح لنفسي بأن أقول لهم كلاماً قاسياً. لكن لما لم أكن أرغب في أن أدين لبلد آخر بالحماية، عقدت تسوية دفعت بموجبها مبلغاً أقل بكثير مما كان مطلوباً مني وأعلى بكثير مما كان عليّ أن أدفعه.

كان قطعي لآخر روابطي بالولايات المتحدة محزناً. فحين عرفت هيلن، وصيفتنا في بيڤرلي هيلز، أننا لن نعود، بعثت إلينا بالرسالة التالية:

عزيزيَّ المستر والمسز شابلن

كتبت لكم رسائل كثيرة، لكنني لم أرسلها بالبريد أبداً. كما لو أن كل شيء على غير ما يرام منذ رحيلكم: لم أشعر بكل هذا الغمّ لأجل أيٍّ من الناس، ما عدا عائلتي. لكن كل شيء غير ذي جدوى، وباطل وظالم إلى حد أني لا أتوصل للتعافي من كل ذلك. ثم وصل الخبر الحزين الذي كنا نخشى وصوله: أنه يجب توضيب كل شيء. . . هذا مستحيل. . . غير ممكن. . . ما رزمناه مغسول تقريباً بدموعنا ولا أزال أحس بالصداع لكثرة ما بكيت. . لا أدري كيف تحتملون ذلك. أرجوكِ، أرجوك، يا مسز ش، لا تدعي المستر ش يبيع البيت إذا كان ذلك ممكناً. فكل غرفة تحتفظ بشخصيتها الخاصة مع أنه لم يعد هناك غير ستائر وسجادات: أحب هذا المنزل إلى حد أني لا أود رؤية أي شخص آخر يسكنه. فقط لو كانت لديّ الإمكانات، لكِنْ من المضحك التفكير بذلك. ألغوا كل المصاريف الممكن إلغاؤها إذا شئتم. لكن أرجوكم، أرجوكم، احتفظوا بالمنزل. أنا أعرف أنه لا يجب أن أقول ذلك، لكن هذا أقوى مني: أنا لن أعود عن كلامي، فذات يوم سوف تعودون جميعاً. سيدة ش. هذا يكفي الآن. . .

لديَّ ثلاث رسائل يجب أن أبعث بها إليكم، لكن عليَّ أن أجد مغلفات كبيرة جداً. أبلغوا أشياء كثيرة مني للجميع، واعذروا قلمي، لكن حتى قلمي لم يعد يعمل.

المخلصة

هيلن

وقد تلقينا أيضاً رسالة من هنري، مدير خدمنا:

العزيزان مستر ومسز شابلن

منذ زمن طويل لم أكتب لكم، لأني أجد الكثير من الصعوبة في التعبير عن أفكاري بصورة صحيحة بإنكليزيتي السويسرية. كان من حظي قبل أسابيع أن رأيت الفيلم **لايملايت**، في عرض خاص. كانت مس رانسر قد دعتني، وكان حاضراً حوالى العشرين شخصاً، لكني لم أكن أعرف منهم إلا المستر والمسز سيدني شابلن، والمس رانسر وورلي. وقد جلست في آخر الصالة لأكون وحدي مع أفكاري. كان ذلك يستحق العناء. ومن المرجح أني ضحكت أكثر من كل الآخرين، لكن دموعي كانت على وشك الانهمار. إنه أفضل فيلم رأيته إلى الآن. لم يعرضوه إطلاقاً في .L.A ثمة عدة أسطوانات نسمعها على الراديو، من موسيقى **لايملايت**. وهي تترك في نفسي تأثيراً غريباً حين أصغي إليها: لا يقولون إطلاقاً إن المستر ش. هو مؤلفها. يسعدني أن أعرف أن الأولاد يحبون سويسرا. وبالتأكيد، بالنسبة لأناس كبار في السن، يلزم المزيد من الوقت للتكيف مع بلد أجنبي. لكنني أزعم أن سويسرا بلد ممتع جداً. فيها أفضل مدارس العالم، والجمهورية الأقدم في العالم، منذ عام ١٢٩١. أول آب/أغسطس هو الرابع من تموز/يوليو هناك. ليس هذا يوم عطلة، لكننا نرى النيران على كل القمم. وإجمالاً، هذا أحد البلدان المحافظة والمزدهرة النادرة. غادرته في عام ١٩١٨ إلى

أميركا الجنوبية وعدت إليه مرتين منذ ذلك الحين. مررت على فترتين في الجيش السويسري. ولدت في سان غالن، شرقي سويسرا، ولديّ أخ أصغر في سان غالن وآخر في برن.

أفضل تمنياتي لكم جميعاً

باحترام

هنري

كل الذين اشتغلوا لحسابي في كاليفورنيا كانوا يقبضون راتباً دائماً، لكنني لم أعد أستطيع أن أسمح لنفسي بأن أدفع لهم بعد أن بات محل إقامتي في سويسرا. فدفعت لهم إذاً تعويضات وعلاوات، وصل مجموعها إلى ثمانين ألف دولار. أما أدنا پورفيانس ففضلاً عن علاوتها بقيت مستخدمة حتى يوم وفاتها.

حين كنت أُعِد توزيع مسيو ڤردو، فكرت في إدنا لدور السيدة غروسناي المهم. كان قد مرّ عشرون عاماً لم أرها خلالها، لأنها لم تكن تأتي إطلاقاً إلى الستوديو وكانت حوالتها الأسبوعية تُرسل إليها بواسطة البريد. وقد اعترفت لي في ما بعد أنها حين كانت تتلقى مكالمة من الستوديو، كان ذلك يهزها بعمق أكثر من أي شيء آخر.

حين وصلت إدنا، اندفع رولي، الكاميرامان، إلى مقصورتي. فهو أيضاً لم يرها منذ عشرين عاماً.

ـ بالتأكيد، لقد تغيرت... لكنها رائعة!

قال لي إنها تنتظر على المرج أمام مقصورته. أما أنا فلم أكن أريد مشهداً مؤثّراً لتَلاقٍ بعد طول فراق؛ واتخذت إذاً هيئة طبيعية جداً، كما لو أني رأيتها قبل أسابيع لا أكثر. قلت بمرح:

ـ لقد عدنا، إذاً، فرأيناك في الأخير.

تحت ضوء الشمس، لاحظت أن شفتها ترتجف حين تبتسم، ثم أوضحت لماذا طلبت إليها المجيء وحدثتها بحماس عن الفيلم، فقالت:

ـ إنه يبدو مدهشاً (كانت إدنا سريعة الحماس دائماً).

قرأت الدور، وفهمته جيداً؛ لكن حضورها لم ينفك يوحي لي بحنين مُمِضّ، لأنها كانت تقترن في ذكرياتي بنجاحاتي الأولى، في تلك المرحلة التي كان كل شيء فيها هو المستقبل!

اندفعت إدنا بكل طاقتها في الدور، لكن عبثاً: لقد كانت الشخصية تتطلب جانباً أوروبياً مصطنعاً لم تمتلكه إدنا في أي يوم مضى... وبعد ثلاثة أو أربعة أيام عمل، اضطررت للتسليم بأنها لم تُصنع لهذا الدور. أما إدنا فمن جهتها كانت مرتاحة أكثر مما محبطة. لم أرها بعد ذلك ولم تصلني أخبارها إلا حين كتبت لي إلى سويسرا لإعلامي باستلامها تعويضها:

عزيزي تشارلي

للمرة الأولى يمكنني أن أشكرك على صداقتك على مدى السنين وعلى كل ما فعلته لأجلي. يبدو أنه لا يكون لدى المرء، في بداية حياته، إزعاجات كثيرة، لكنني أعرف أنه كانت لديك أنت حصتك من تلك الإزعاجات. آمل أن تكون كأس سعادتك ملأى مع زوجتك الفاتنة وعائلتك.

(أشارت بعد ذلك إلى مرضها والتكاليف الضخمة للأطباء والممرضات، لكنها ختمت كما دائماً بالمزاح).

يجب أن أروي لك قصة سمعتها قبل أيام، لقد أغلقوا على شخصٍ ما داخل صاروخ وباشروا بإطلاقه لرؤية إلى أي علو يمكنه أن يصل.. وقالوا له أن يعد المسافة. فبدأ يعد: ٢٥٠٠٠ ـ ٣٠٠٠٠ ـ ١٠٠ ألف ـ ٥٠٠ ألف. وإذ وصل إلى هناك، صاح: «يا الله!» فردَّ صوت ناعم: «نعم؟».

أرجوك، أرجوك، يا تشارلي، أعلمني قريباً بأخبارك. وأسألك في الوقت ذاته أن تعود إلى هنا، فهنا مكانك.

المعجبة بك المخلصة بصدق وبحنان إدنا

على مدى السنين، لم أكن كتبت رسالة واحدة لإدنا؛ فلقد كنت أتصل بها دائماً بواسطة الستوديو. وقد كانت رسالتها الأخيرة تعلمني بأنها لا تزال تقبض من موازنة شركتي.

١٣ ت٢/نوفمبر ١٩٥٦

العزيز تشارلي

ها أنذا من جديد، وقلبي مفعم بالعرفان بالجميل، في العيادة مرة أخرى (عيادة أرز لبنان)، حيث أخضع لعلاج بالكوبالت على عنقي. لا يقولن لي أحد بعد هذا إن هناك جحيماً! يصل المرء إلى حدٍّ أنه لا يعود بقادر على تحريك خنصره. لكن هذا هو العلاج الأفضل في حالتي، وأنا آمل العودة إلى البيت في نهاية الأسبوع ومتابعة العلاج هناك (كم سيكون ذلك جيداً!). لحسن الحظ أن الباقي في وضع جيد، ويبدو أن المرض موضعي صرف: كل ذلك يذكّرني بقصة الشخص المسمَّر في زاوية الجادة السابعة وبرودواي والذي يمزق وريقات صغيرة ينثرها في كل مكان. يمر شرطي يسأله ما الذي يفعله فيجيب: «هذا لمنع الفِيَلة من المجيء إلى هنا». فيقول له الشرطي: «لكن ليس هنالك فيلة في هذا الحي». ويجيب الشخص: «أنت ترى، الأمور تسير!» هذه هي قصتي البلهاء لهذا النهار، سامحني.

آمل أن تكون أنت والعائلة بحالة جيدة وأن تكونوا تستفيدون من كل ما درّه عليك عملك.

بحنان دائماً

بعد ذلك بوقت قصير، تلقيت رسالةً علمتُ فيها بوفاتها. هكذا العالم يستعيد شبابه، ويواصل الشباب عمله. ونحن الذين عشنا أكثر قليلاً، نشعر بأنفسنا أكثر فأكثر توحداً بمقدار ما نواصل رحلتنا.

عليَّ الآن إذاً أن أضع حداً لهذه الأوذيسة التي عشتها. أدرك أن الزمن والظروف جاءت لصالحي. لقد استحققت مودة العالم وحبَّه، لكن كذلك كراهيته. أجل لقد أغدق عليّ العالم أفضل ما لديه، وجنَّبني كلياً تقريباً أسوأ ما هنالك. وعلى الرغم من كل تقلباتي، أعتقد أن الحظ ونكد الحظ يسقطان عليك صدفةً، كغيوم تهطل مدراراً. وبما أني أعرف ذلك لا يهزُّني بتاتاً بصورة عميقة ما يحصل لي من المزعجات، وأنا أتفاجأ بصورة ممتعة بما يحصل لي من جيِّد وإيجابي. ليس لديَّ فنُّ حياة، وليس لديَّ فلسفة: عقلاء أو مجانين، علينا جميعاً أن نصارع مع الحياة. أترنَّح تحت ثقل التناقضات! تضايقني أحياناً بعض التفاصيل، وتتركني الكوارث غير مبالٍ في أحيان أخرى.

بيد أن حياتي مشوِّقة أكثر مما في أي وقت آخر. أنا في صحة جيدة، وروح الإبداع لديَّ لا تزال تعمل، وعندي مشاريع أفلام ربما ليس لي أنا، لكنني سأكتبها وأخرجها لأعضاء في أسرتي بعضُهم موهوبون جداً على صعيد التمثيل. لا أزال إلى الآن شديد الطموح؛ لن أستطيع أبداً أن أتقاعد.

ثمة أشياء كثيرة أصر على القيام بها؛ وفضلاً عن عدد من السيناريوات غير المكتملة، بودي أن أكتب مسرحية وأوبرا... إذا تسنّى لي الوقت.

لقد قال شوبنهاور: إن السعادة حالة سلبية، لكنني لا أوافقه الرأي. فمنذ السنوات العشرين الأخيرة، أعرف ماذا تعني السعادة. من حظي أني زوج امرأة رائعة، وبودّي لو أستطيع أن أكتب أكثر حول هذا الموضوع، لكن الأمر يتعلق بالحب، والحب الكامل هو الشيء الأروع في العالم، لكنه الشيء الأكثر إثارة للخيبة أيضاً، لأنه أكثر مما يستطيع المرء أن يعبر عنه. إذ أعيش مع أونا، أكتشف بلا انقطاع جمال طبعها العميق. وحتى حين تمشي أمامي على أرصفة ڤيڤاي الضيقة، بعنفوانٍ بسيط، وقامتها الصغيرة مستقيمة تماماً، وشعرها الأسود ممشَّطٌ بشكل جيِّد إلى الخلف ويكشف بعض الخيوط الفضية، تتدفق نحوي فجأةً موجةُ حبٍّ وإعجاب حين أفكر بكل ما تكون، وأحسُّ بالغصَّة في حلقي.

وسط كل هذه السعادة، أجلس أحياناً على مصطبتنا عند غروب الشمس، وأتأمّل المرج الأخضر الشاسع والبحيرة في البعيد، وما وراء البحيرة حضورَ الجبالِ المطمَئِن، وأبقى هناك، غير مفكر في شيء، أتلذذ بسَكينتها الرائعة.

أفلام تشارلي شابلن*

أفـلام كيستـون:

١٩١٤ Making a Living (بكرة واحدة) من أجل كسب القوت.

Kid Auto Races at Venice (أقل من بكرة) سباق سيارات للأولاد.

Mabel's Strange Predicament (بكرة واحدة) مغامرة مابل الغريبة.

Between Showers (بكرة واحدة)، شارلو والمظلة.

A Film Johnnie (بكرة واحدة)، شارلو يمارس العمل السينمائي.

His Favourite Pastime (بكرة واحدة)، شارلو بين الحانة والحب.

Cruel, Cruel Love (بكرة واحدة)، شارلو مركيزاً.

The Star Boarder (بكرة واحدة)، شارلو والباترونة.

Mabel at the wheel (بكرتان)، مابل على المقود.

Twenty Minutes of Love (بكرة واحدة)، شارلو ومقياس الوقت.

Caught in a Cabaret (بكرتان)، شارلو خادماً في مقهى.

Caught in the Rain (بكرة واحدة)، حبّ عابر لشارلو.

A Busy Day (أقل من بكرة)، غيرة شارلو.

The Fatal Mallet (بكرة واحدة)، دبّوس شارلو.

Her Friend the Bandit (بكرة واحدة)، مغازِل مابل.

The Knockout (بكرتان)، شارلو وفاتي في الحلبة.

Mabel's Busy Day (بكرة واحدة)، شارلو والنقانق.

Mabel's Married Life (بكرة واحدة)، شارلو ومابل في تدبير المنزل.

Laughing Gas (بكرة واحدة)، شارلو طبيب أسنان.

The Property Man (بكرتان)، شارلو صبي مسرح.

The Face on the Bar-room (بكرة واحدة)، شارلو رساماً.

Recreation (أقل من بكرة)، استراحة.

The Masquerader (بكرة واحدة)، شارلو مغناجاً.

His New Profession (بكرة واحدة)، شارلو ممرِّضاً.

(*)سوف نترك العنوان الأصلي لكل فيلم،كما هو، أي باللغة الإنكليزية،بينما نعرِّب العنوان الفرنسي(المعرّب).

The Rounders (بكرة واحدة)، شارلو وفاتي في قنبلة.

The New Janitors (بكرة واحدة)، شارلو بوّاباً.

Those Love Pangs (بكرة واحدة)، شارلو منافساً في الحب.

Dough and Dynanitè (بكرتان)، شارلو خادم خبّاز.

Gentlemen of Nerve (بكرة واحدة)، شارلو ومابل في السباق.

His Musical Career (بكرة واحدة) شارلو ملتزم نقل.

His Trysting Place (بكرتان)، شارلو بابا.

Tillie's Punctured Romance (ست بكرات)، رواية شارلو ولولوت الهزلية.

Getting Acquainted (بكرة واحدة)، شارلو ومابل في نزهة.

His Prehistoric Pase (بكرتان)، شارلو قائلاً بمذهب العري.

أفلام إيسّاناي:

١٩١٥ His New Job (بكرتان)، شارلو مبتدئاً.

A Night Out (بكرتان)، شارلو يَفْجُر.

The Champion (بكرتان)، شارلو ملاكماً.

In The Park (بكرة واحدة)، شارلو في المنتزه.

The Jitney Elopement (بكرتان)، شارلو يريد الزواج.

The Tramp (بكرتان)، شارلو متشرداً.

By The Sea (بكرة واحدة)، شارلو على الشاطىء.

Work (بكرتان)، شارلو متدرّجاً.

A Woman (بكرتان)، مامْزيل شارلو.

The Bank (بكرتان)، شارلو في البنك.

Shanghaied (بكرتان)، شارلو بحّاراً.

A Night in The Show (بكرتان)، شارلو في الميوزبك هال.

١٩١٦ Carmen (أربع بكرات)، شارلو يمثّل كارمن.

Police (بكرتان)، شارلوا لصّاً.

١٩١٨ Triple Trouble (بكرتان)، كوارث شارلو.

أفـلام ميوتـوال

١٩١٦ The Floor Walker (بكرتان)، شارلو رئيس فرع.

The Fireman (بكرتان)، شارلو إطفائياً.

The Vagabond (بكرتان)، شارلو موسيقياً.

One A.m. (بكرتان)، شارلو يعود متأخراً.

The Count (بكرتان)، شارلو والكونت.

The Pawnshop (بكرتان)، شارلو عند المرابي.

Behind The Screen (بكرتان)، شارلو يشتغل في السينما.

The Rink (بكرتان)، شارلو يتزلج.

١٩١٧ **Easy Street** (بكرتان)، شارلو شرطياً.

The Cure (بكرتان)، بيت الخوري.

The Immigrant (بكرتان)، المهاجر.

The Adventurer (بكرتان)، شارلو يضيع.

أفلام فورست ناشونال

١٩١٨ **A Dog's Life** (٣ بكرات)، حياة كلب.

The Bond (أقل من بكرة)، (ممنوع في فرنسا).

Shoulder Arms (٣ بكرات)، شارلو جندياً.

١٩١٩ **A Sunny Side** (٣ بكرات)، قصة حب بريئة في الحقول.

A Day's Pleasure (بكرتان)، يوم متعة.

١٩٢٠ **The Kid**، (٦ بكرات)، الغلام.

١٩٢١ **The Idle Class** (بكرتان)، شارلو والقناع الحديدي.

١٩٢٢ **Pay Day** (بكرتان)، يوم الدفع.

١٩٢٣ **The Pilgrim** (٤ بكرات)، الحاج.

أفلام الفنانين المتحدين (كلها قياس طويل)

١٩٢٣ **A Woman of Paris**، الرأي العام.

١٩٢٥ **The Gold Rush**، الهجوم على الذهب.

١٩٢٨ **The Circus**، السيرك.

١٩٣١ **City Lights**، أضواء المدينة.

١٩٣٦ **Modern Times**، الأزمنة الحديثة.

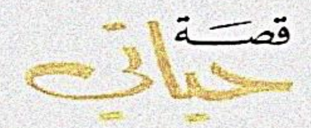
١٩٤٠ **The Great Dictator**، الديكتاتور.

١٩٤٧ **Monsieur Verdoux**، المسيو ڤردو.

١٩٥٣ **Limelight**، لايملايت أو أضواء المسرح.

١٩٥٧ **The King in New York**، ملك في نيويورك.

* *



يقول شابلن في تفسير اجتذابه ذلك القدر من العداء من جانب أميركيين كثيرين: «لقد كانت خطيئتي الكبرى ولا تزال اني غير امتثالي». وهو يعرِّف نفسه على الشكل التالي:

«أنا ما أنا: فرد نسيج وحده ومختلف، خلفي كل ميراث الرغائب والحاجات السلفية، مع كل الأحلام والرغبات والتجارب الشخصية التي أنا محصِّلتها».

لقد شكَّل الرجل ظاهرة ملفتة للنظر إلى أبعد الحدود في مرحلة مهمة جداً من تطور المجتمع الأميركي بالذات، وذلك انطلاقاً من تجربته الخاصة ومعاناته الحميمة. وحين لاحقه القضاء الأميركي باتهامات كاذبة تتعلق بحياته الشخصية في أوائل الأربعينات، كان واضحاً أنه يجري بذلك تدفيعه ثمن أفكاره وخياراته الانسانية. إلا أنه خرج من تلك المحاكمة منتصراً. والأهم من ذلك أنه شارك من موقعه كفنان عظيم في تحريك المياه الراكدة لمجتمع تغلب عليه، في المستوى السياسي، النزعة المحافظة. وهو ما يلمِّح إليه بالضبط حين يورد الكلام الذي قاله لاين فوشتشانجر، بعد ختام تلك المحاكمة مباشرة وصدور الحكم ببراءته مما نسب إليه:

«أنت الفنان الدرامي الوحيد، الذي سيبقى في تاريخ الولايات المتحدة الأميركية، لأنه أثار التناقض السياسي لبلد بأكمله».

إن هذا «الفرد»، الذي انطلق لعناق العالم بأسره من شوارع لندن الفقيرة، والقيعان المظلمة لطفولته البائسة، متقمصاً صورة المتشرد خفيف الظل، الذي ينكأ بسخريته الناعمة والمحببة قروح المجتمع والحياة، والذي استطاع كما يقولون أن يملأ الدنيا ويشغل الناس بطرافة فنه وعمق ملامسته للشخصية الإنسانية، والتزامه الدائم لقضايا الإنسان المعذَّب، كان بالتأكيد نسيج وحده. وهو لم يكن ممثلاً ومخرجاً وكاتباً سينمائياً فريداً وحسب، بل يمكنْ أن نضيف إلى ذلك أنه كاتب سيرة ذاتية بارع، وصاحب ريشة أدبية ملهمة، كما سنرى ونحن نقرأ هذا النص الجميل الطويل، «قصة حياتي»!!

كميل داغر



المركز الثقافي العربي

ص ب ١١٣/٥١٥٨ بيروت - لبنان

ص.ب 4006 - الدار البيضاء - المغرب